تفسير
حدائق الروح والريحان
في
روابي علوم القرآن

تأليف الشيخ العلامة
محمد الأمين بن عبد الله الأرمي العلوي الهرري الشافعي
المدرس بدار الحديث الخيرية في مكة المكرمة

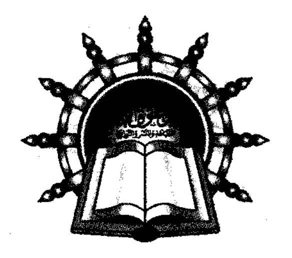
إشراف ومراجعة
الدكتور هاشم محمد علي بن حسين مهدي
خبير الدراسات برابطة العالم الإسلامي
مكة المكرمة

المجلد التاسع عشر

دار طوق النجاة

الطبعة الأولى

١٤٢١هـ - ٢٠٠١م



دار طوق النجاة

بيروت - لبنان

تفسير

حدائق الروح والريحان

في

روابي علوم القرآن


بسم الله الرحمن الرحيم

شعرٌ

بُوْرِكَ تَفْسِيْرُ ٱلرَّوْحِ وَٱلرَّيْحَانِ   كَمَا بُوْرِكَ جَنَا ٱلزَّيْتُوْنِ وَٱلرُّمَّانِ
كِتَابٌ لَوْ يُبَاعُ بِوَزْنِهِ ذَهَباً   لَكَانَ ٱلْبَائِعُ فِيْهِ ٱلْمَغْبُوْنَا
حَوَىٰ مِنْ عُلُوْمِ ٱلتَّفْسِيْرِ أَفْنَانَاً   فَٱلْحَمْدُ لِلْمَوْلَىٰ عَلَىٰ مَا حَبَانَا

آخرُ

الصَّبْرُ مِفْتَاحُ مَا يُرَجَّىٰ   وَكُلُّ خَيْرٍ بِهِ يَكُوْنُ
وَرُبَّمَا نِيْلَ بِٱصْطِبَارِ   مَا قِيْلَ هَيْهَاتَ لاَ يَكُوْنُ

آخرُ

وَإِذَا طَلَبْتَ إِلَىٰ كَرِيْمٍ حَاجَةً   فَلِقَاؤُهُ يَكْفِيْكَ وَٱلتَّسْلِيْمُ
فَإِذَا رَآكَ مُسَلِّمَاً عَرَفَ ٱلَّذيْ   حَمَّلْتَهُ فَكَأَنَّهُ مَلْزُوْمُ

آخرُ

أَأَذْكُرُ حَاجَتِيْ أَمْ قَدْ كَفَانِيْ   حَيَاؤُكَ إِنَّ شِيْمَتَكَ ٱلْحَيَاءُ
إِذَا أَثْنَىٰ عَلَيْكَ ٱلْمَرْءُ يَوْمَاً   كَفَاهُ مِنْ تَعَرُّضِهِ ٱلثَّنَاءُ

آخرُ

سَوْفَ تَرَىٰ إِذَا ٱنْجَلَىٰ ٱلْغُبَارُ   أَفَرَسٌ تَحْتَكَ أَمْ حِمَارُ

آخرُ

لِكُلِّ دَوَلَةٍ أَجَلُ   ثُمَّ يُتَاحُ لَهَا حِوَلُ
إِنَّمَا ٱلدُّنْيَا كَبَيْتْ   نَسْجُهُ مِنْ عَنْكَبُوْت



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله الذي يحمده الأولون والآخِرون القائل في كتابه الكريم: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢﴾ والصلاة والسلام على الرسول الكريم، سيدنا محمد، المصطفى الصادق الأمين، وعلى آله وصبحه أجمعين.

أما بعد: فلما فرغت من تفسير الجزء السابع عشر من القرآن الكريم، بتوفيقه وتيسيره.. أخذت في تفسير الجزء الثامن عشر منه، مستمداً منه الهداية وكل التوفيق في تفسير كتابه لأقوم الطريق، وها أنا أقول، وقولي هذا: فذلكة في سورة المؤمنين:

سورة المؤمنون

سورة المؤمنون مكية كلها عند الجميع، وقيل: إلا ثلاث آيات، وهي قوله: ﴿وَلَوْ رَحِمْنَٰهُمْ﴾ إلى آخرها، نزلت بعد سورة الأنبياء، وهي مئة وثماني عشرة آية[1]، وألف وثمان مئة وأربعون كلمة، وأربعة آلاف وثمان مئة حرف، وحرفان.

فضلها: ومن فضائلها: ما روي عن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ قال: كان رسول الله ﷺ إذا نزل عليه الوحي، يُسمع عند وجهه دويٌّ كدوي النحل، فأنزل الله عليه يوماً، فمكث ساعة، ثم سرى عنه، فقرأ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١﴾ إلى عشر آيات من أولها، وقال: «من أقام هذه العشر آيات.. دخل الجنة» ثم استقبل القبلة، ورفع يديه وقال: «اللهم زدنا ولا تنقصنا، وأكرمنا ولا تهنا، وأعطنا ولا تحرمنا، وآثرنا ولا تؤثر علينا، اللهم أرضنا وارض عنا»

(١) الخازن.

وأخرج البيهقي من حديث أنس، عن النبي ﷺ، أنه قال: «لما خلق الله الجنة، قال لها: تكلمي، فقالت: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ①﴾». وأخرجه أيضاً ابن أبي عدي، والحاكم، وأخرج الطبراني في السنة وابن مردويه، من حديث ابن عباس مثله.

وأخرج البخاري في «الأدب المفرد»[1]، والنسائي وابن المنذر، والحاكم، وصححه وابن مردويه، والبيهقي في «الدلائل»، عن يزيد بن بابنوس، قال: قلنا لعائشة: كيف كان خلق رسول الله ﷺ؟ قالت: كان خلقه القرآن، ثم قالت: تقرأ سورة المؤمنون؟ إقرأ ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ①﴾ حتى بلغ العشر، فقالت: هكذا كان خلق رسول الله ﷺ.

وروي: أن أولها وآخرها من كنوز الجنة، من عمل بثلاث آيات من أولها واتعظ بأربع من آخرها، فقد نجا وأفلح.

الناسخ والمنسوخ: قال أبو عبد الله محمد بن حزم رحمه الله تعالى[2]: في سورة المؤمنون آيتان منسوختان:

إحداهما: قوله تعالى: ﴿فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ ٥٤﴾ الآية (٥٤) نسخت بآية السيف.

الآية الثانية: قوله تعالى: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ﴾ الآية (٩٧) نسخت بآية السيف أيضاً.

المناسبة: مناسبة هذه السورة لما قبلها من وجوه[3]:

١ ـ أنه تعالى ختم السورة السابقة بخطاب المؤمنين، وأمرهم بإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، وفعل الخيرات، لعلهم يفلحون، وحقق فلاحهم في بدء هذه السورة[2].

---

(١) الشوكاني.
(٢) ابن حزم.
(٣) المراغي.

٢ ـ أنه تكلم في كل من السورتين في النشأة الأولى، وجعل ذلك دليلاً على البعث والنشور.

٣ ـ أن في كل من السورتين قصصاً للأنبياء الماضين وأممهم، ذكرت عبرة للحاضرين والآتين.

٤ ـ أنه نصب في كل منهما أدلة على وجود الخالق ووحدانيته.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ
مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ﴿٤﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ
أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ
ٱلْعَادُونَ ﴿٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾
أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن
سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ
مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ
أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تُبْعَثُونَ ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ
خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ ﴿١٧﴾ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى
ٱلْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ ﴿١٨﴾ فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَٰكِهُ
كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْءَاكِلِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِنَّ
لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢١﴾ وَعَلَيْهَا وَعَلَى
ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا
تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ
شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ
فَتَرَبَّصُوا۟ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٢٦﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ
بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ ۙ فَٱسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ
إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ ۖ وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۖ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ
أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٨﴾ وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا
وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٢٩﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴿٣٠﴾﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾...﴾ الآيات، مناسبة[1] هذه الآيات لآخر السورة التي قبلها ظاهرة؛ لأنه تعالى خاطب المؤمنون بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا﴾ الآية، وفيه: ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ وذلك على سبيل الترجية، فمناسبة ذلك قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾﴾ إخباراً بحصول ما كانوا رجوه من الفلاح.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها[2]: أنه سبحانه وتعالى لما ذكر أحوال السعداء المفلحين، قفى ذلك بذكر مبدأهم، ومآل أمرهم، وأمر غيرهم من بني الإنسان، وفي هذا إعظام للمنة، وحث على الاتصاف بحميد الصفات، وتحمل مؤونة التكاليف، ثم ذكر أن كل ذلك منته إلى غاية، هي يوم القيامة، الذي تبعثون وتحاسبون فيه على أعمالكم، إن خيراً فخيرٌ، وإن شراً فشر.

وعبارة أبي حيان: مناسبة هذه الآية لما قبلها: لما ذكر تعالى أن المتصفين بتلك الصفات الجليلة، هم يرثون الفردوس، فتضمن ذلك المعاد الأخروي ذكر النشأة الأولى، ليستدل على صحة النشأة الآخرة.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ...﴾ الآية، مناسبتها لما قبلها: أنه تعالى لما ذكر خلق الإنسان في أطواره المختلفة، واستدل بذلك على قدرته، وتفرده بالتصرف في الملك، والملكوت.. أردفه ببيان ما يحتاج إليه في بقاءه، لما فيه من المنافع، التي لا غنى له عنها.

وعبارة أبي حيان هنا[3]: لما ذكر تعالى ابتداء خلق الإنسان، وانتهاء أمره، ذكره بنعمته، انتهى.

قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ...﴾ الآيات، مناسبتها لما قبلها: أن الله

---

(١) البحر المحيط.

(٢) المراغي.

(٣) البحر المحيط.

سبحانه لما ذكر من دلائل قدرته خلق الطرائق السبع.. قفى على ذلك ببيان ما فيها من منافع للإنسان، فمنها ينزل الماء الذي به تنشأ الجنات من النخيل والأعناب، وكثير من أشجار الفاكهة التي تؤكل، وينبت به شجر الزيتون، الذي يؤخد من ثمره الزيت، الذي يتخذ دهناً للأجسام، وإداماً في الطعام.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً...﴾ الآية، مناسبتها لما قبلها: لما ذكر سبحانه بنعمة إنزاله الماء من السماء، الذي به جنات النخيل، والأعناب، والفواكه المختلفة، والزيتون.. أردفها بذكر النعم المختلفة، التي سخرها لنا من خلق الحيوان.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها[1]: أنه سبحانه لما ذكر أولاً بدء الإنسان، وتطوره في تلك الأطوار، وما امتن به عليه، مما جعله تعالى سبباً لحياتهم، وإدراك مقاصدهم، ذكر أمثالاً لكفار قريش من الأمم السابقة، المنكرة لإرسال الله رسلاً، المكذبة بما جاءتهم به الأنبياء عن الله تعالى، فابتدأ بقصة نوح؛ لأنه أبو البشر الثاني، كما ذكر أولاً آدم في قوله تعالى: ﴿مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ﴾، ولقصته أيضاً مناسبة لما قبلها إذ قبلها: ﴿وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾ فذكر قصة من صنع الفلك أولاً، وأنه كان سبب نجاة من آمن، وإهلاك من لم يكن معه في الفلك، فالفلك من نعمة الله تعالى، وكل هذه القصص يحذر بها قريشاً نقم الله، ويذكرهم بنعمه.

وعبارة المراغي هنا[2]: مناسبة هذه الآيات لما قبلها أن الله سبحانه لما عدد ما أنعم به على عباده، في نشأتهم الأولى، وفي خلق الماء لهم؛ لينتفعوا به، وفي خلق الحيوان كذلك.. ذكر هنا أن كثيراً من الأمم قد أهملوا التدبر والاعتبار في هذا، فكفروا بهذه النعم، وجهلوا قدر المنعم بها، وعبدوا غيره، وكذبوا رسله الذين أرسلوا إليهم، فحاق بهم ما كانوا به يستهزؤون، وأهلكهم

---

(١) البحر المحيط.

(٢) المراغي.

بعذاب من عنده، فأصبحوا كأمس الدابر، والمثل السائر، وفي هذا تخويفٌ لقريش، وإنذار لهم على ما يفعلون، وأنه سيحل بهم ما داموا على تكذيب رسولهم والكفر به مثل ما حل بمن قبلهم.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١﴾ الآية، سبب نزول هذه الآية: ما أخرجه الحاكم عن أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ كان إذا صلى، رفع بصره إلى السماء، فنزلت: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢﴾ فطأطأ رأسه، وأخرجه ابن مردويه، بلفظ: كان يلتفت في الصلاة، وأخرجه سعيد بن منصور عن ابن سيرين مرسلاً، بلفظ: كان يقلب بصره، فنزلت وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن سيرين مرسلاً: كان الصحابة يرفعون أبصارهم إلى السماء في الصلاة، فنزلت.

قوله تعالى: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ روي فيه عن أنس، قال: قال عمر: وافقت ربي في أربع، قلت: يا رسول الله صلينا خلف المقام، فأنزل الله: ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾، وقلت: يا رسول الله، لو اتخذت على نسائك حجاباً، فإنه يدخل عليك البر والفاجر، فأنزل الله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ﴾، وقلت لأزواج النبي ﷺ: لتنتهن أو ليبدلنه الله أزواجاً خيراً منكم، فنزلت: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ﴾ الآية ونزلت: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ﴾ إلى قوله: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ﴾، فقلت: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾، فقال رسول الله ﷺ: «هكذا أنزلت يا عمر!» أخرجه الطيالسي.

التفسير وأوجه القراءة

﴿قَدْ أَفْلَحَ﴾ وفاز وسعد حقاً ﴿ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾؛ أي: المصدقون بما جاء به الرسول ﷺ، ونالوا البقاء والدوام في الجنة، ويدل عليه، ما روي «أن الله تعالى لما خلق جنة عدن بيده، قال: تكلّمي، فقالت: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١﴾ فقال: طوبى لك منزل الملوك» أي: ملوك الجنة، وهم الفقراء الصابرون، وقد هنا: للتحقيق؛ أي: التحقيق ما يحصل في المستقبل، وتنزيله منزلة الواقع، ومعنى فاز

المؤمنون[1]؛ أي: ظفروا بمقصدهم، ونجوا من كل مكروه، قال تعالى: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ والمؤمنون جمع مؤمن، وهو المصدق بالله ورسله وملائكته وكتبه واليوم الآخر والقدر خيره وشره وحلوه ومره.

وقرأ طلحة بن مصرق، وعمرو بن عبيد[2]: ﴿قد أفلح المؤمنون﴾ بضم الهمزة وكسر اللام مبنياً للمفعول، ومعناه: أدخلوا في الفلاح، فاحتمل أن يكون من فلح لازماً، أو يكون أفلح، يأتي متعدياً ولازماً، وقرأ طلحة: أيضاً بفتح الهمزة واللام وضم الحاء، قال عيسى بن عمر: سمعت طلحة بن مصرق يقرأ: ﴿قد أفلحوا المؤمنون﴾ فقلت له: أتلحن. قال: نعم، كما لحن أصحابي، انتهى. يعني: أن مرجوعه في القراءة إلى ما روي، وليس بلحن؛ لأنه على لغة أكلوني البراغيث، قال الزمخشري: أو على الإبهام والتفسير، وقال ابن عطية: وهي قراءة مردودة، وفي كتاب ابن خالويه مكتوباً بواو بعد الحاء، وفي «اللوامح»: وحذفت واو الجمع بعد الحاء لالتقائهما في الدرج، وكانت الكتابة عليها محمولةً على الوصل، نحو: ﴿وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ﴾ وقال الزمخشري: وعنه - أي عن طلحة - ﴿قَدْ أَفْلَحَ﴾ ضمة بغير واو اجتزاء بها عنها كقوله: ولو أن الأطباء كان حولي. انتهى.

وليس بجيد؛ لأن الواو في أفلح حذفت لالتقاء الساكنين، وهنا حذفت للضرورة، فليست مثلها.

والحاصل: أن الله سبحانه حكم بالفلاح لمن كان جامعاً لخصال سبع من خصال الخير:

الأول: الإيمان، وذكره بقوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١﴾؛ أي: فاز وسعد المصدقون بالله، ورسله، واليوم الآخر.

والثاني: الخشوع في الصلاة، وذكره بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢﴾؛ أي: الذين هم مخبتون لله، متذللون له، مناقدون له، خائفون من عذابه، ملزمون

---

(١) الصاوي. (٢) البحر المحيط.

أبصارهم مساجدهم. أو المعنى[1]: خاضعون للمعبود، بالقلب غير ملتقين بالخواطر إلى شيء سوى التعظيم ساكنون بالجوارح، مطرقون ناظرون إلى مواضع سجودهم، لا يلتفتون يميناً ولا شمالاً، ولا يرفعون أيديهم. والخشوع من فروض الصلاة عند الغزالي، والحضور عندنا ليس شرطاً للإجزاء، بل شرط للقبول، كما قاله الرازي: قدم الصلاة؛ لأنها أعظم أركان الدين، بعد الشهادتين، فإن قلت: لم أضيفت الصلاة إليهم؟

قلت: لأن الصلاة دائرة بين المصلي والمصلى له، فالمصلي: هو المنتفع بها وحده، وهي عدته وذخيرته، فهي صلاته، وأما المصلى له: فغني متعال عن الحاجة إليها، والانتفاع بها، ذكره في «البحر» وقد اختلف الناس في الخشوع[2]، هل هو من فرائض الصلاة؟ أو من فضائلها؟ على قولين: قيل: الصحيح الأول، وقيل: الثاني، وادعى عبد الواحد بن زيد إجماع العلماء، على أنه ليس للعبد إلا ما عقل من صلاته، حكاه النيسابوري في تفسيره، قال: ومما يدل على صحة هذا القول، قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ والتدبر لا يتصور بدون الوقوف على المعنى.

وفي «التأويلات النجمية»: ﴿خَٰشِعُونَ﴾؛ أي: بالظاهر والباطن[3]، أما الظاهر فخشوع الرأس بانتكاسه، وخشوع العين بانغماضها عن الالتفات، وخشوع الأذن بالتذلل للاستماع، وخشوع اللسان بالقراءة، والحضور، والتأني، وخشوع اليدين وضع اليمين على الشمال، بالتعظيم كالعبد، وخشوع الظهر انحناؤه في الركوع مستوياً، وخشوع الفرج، نفي الخواطر الشهوانية، وخشوع القدمين بثباتهما على الموضع، وسكونها عن الحركة.

أما الباطن: فخشوع النفس سكونها عن الخواطر، والهواجس، وخشوع القلب بملازمة الذكر، ودوام الحضور، وخشوع السر بالمراقبة في ترك اللحظات

---

(١) المراح.
(٢) الشوكاني.
(٣) روح البيان.

إلى المكونات، وخشوع الروح استغراقه في بحر المحبة، وذوبانه عند تجلي صفة الجمال والجلال، انتهى. وفي «الصاوي»: ﴿خَٰشِعُونَ﴾؛ أي: ظاهراً وباطناً، فالخشوع الظاهري: التمسك بآداب الصلاة، كعدم الالتفات، والعبث، وسبق الإمام ووضع اليد في الخاصرة، وغير ذلك، والخشوع الباطن: استحضار عظمة الله، وعدم التفكر بأمر دنيوي، انتهى.

وروى الحاكم أن النبي ﷺ كان يصلي رافعاً بصره إلى السماء، فلما نزلت هذه الآية، رمى ببصره إلى نحو مسجده؛ أي: موضوع سجوده.

والخشوع واجب على المرء في الصلاة، لوجوه:

١ ـ للتدبر فيما يقرأ، كما قال: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾﴾، والتدبر لا يكون بدون الوقوف على المعنى، كما قال: ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾؛ أي: لتقف على عجائب أسراره، وبديع حكمه وأحكامه.

٢ ـ لتذكر الله والخوف من وعيده؛ كما قال: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِيٓ﴾.

٣ ـ أن المصلي يناجي ربه، والكلام مع الغفلة ليس بمناجاة ألبتة، ومن ثم قالوا: صلاة بلا خشوع جسد بلا روح، وجمهور العلماء على أن الخشوع ليس شرطاً للخروج من عهدة التكليف وأداء الواجب، وإنما هو شرط لحصول الثواب عند الله، وبلوغ رضوانه.

والثالث: الإعراض عن اللغو، وذكره بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ﴾؛ أي: عما لا يعنيهم من الأقوال والأفعال ﴿مُعْرِضُونَ﴾؛ أي: مجتنبون عنه في جميع الأوقات، غير ملتفتين إليه؛ أي[1]: الذين هم تاركون لما لا حاجة إليه في أمور الدين والدنيا، من الأقوال والأفعال في عامة أوقاتهم، قال الزجاج: واللغو هو كل باطل ولهو وهزل ومعصية، وما لا يجمل من القول والفعل، انتهى. والمراد به[2]: كل ما لا يعود على الشخص منه فائدة في الدين، أو الدنيا، قولاً أو فعلاً مكروهاً أو مباحاً، كالهزل واللعب، وضياع الأوقات فيما لا يعني، والتوغل في

---

(١) المراح.
(٢) الصاوي.

الشهوات، وغير ذلك مما نهى عنه. وتوسيط حديث الإعراض بين الطاعة البدنية والمالية، لكمال ملابسته بالخشوع في الصلاة، وقال أبو حيان: ولما وصفهم بالخشوع في الصلاة، أتبعهم الوصف بالإعراض عن اللغو، ليجمع لهم الفعل والترك الشاقين على الأنفس، اللذين هما قاعدتا بناء التكليف، انتهى.

والمعنى: أي الذين يعرضون عن كل ما لا يعنيهم، وعن كل كلام ساقط حقه أن يلغى، كالكذب والهزل والسبّ، إذ لهؤلاء من الجد ما يشغلهم، فهم في صلاتهم معرضون عن كل شيء، إلا عن خالقهم، وفي خارجهم معرضون عن كل ما لا فائدة فيه، فهم متجهون للجد، وصالح الأعمال، فهم قد استفادوا من خشوع الصلاة وانتفعوا منه بعدها، وتخلقوا بأخلاق النبيين والصديقين.

والرابع: تطهيرهم لأنفسهم بأداء الزكاة، وذكره بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ﴾؛ أي: للصدقة المفروضة ﴿فَٰعِلُونَ﴾؛ أي: مؤدونها إلى مستحقيها من الأصناف الثمانية المذكورة في سورة التوبة؛ لأجل طهارة أنفسهم وتزكيتها، كما قال: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩﴾ وقال: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ۝١٤﴾.

واعلم(١): أن الزكاة تطلق على القدر المخرج، كربع العشر من النقدين، والعشر أو نصفه من الحبوب والثمار، والشاة من الأربعين، فيكون على هذا معنى فاعلون: مؤدون؛ لأن القدر المخرج لا معنى لفعله، فعبر عن التأدية بالفعل؛ لأنها مما يصدق عليه الفعل، وتطلق على المصدر الذي هو فعل الفاعل، وعلى هذا يكون فاعلون على بابه؛ أي: والذين هم لتزكية أنفسهم، وتطهيرها فاعلون؛ بإخراج المال في مصارف الزكاة، وفي «التأويلات النجمية»: يشير إلى أن الزكاة إنما وجبت لتزكية النفس عن الصفات الذميمة النجسة من حب الدنيا، أو غيره، ولم يكن المراد مجرد إعطاء المال وحبه في القلب، وإنما كان لمصلحة إزالة حب الدنيا عن القلب، ومثل حب الدنيا جميع الصفات الذميمة إلى أن تتم إزالتها.

والخامس: حفظ الفرج، وذكره بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ۝٢٩﴾؛

---

(١) الصاوي.

أي: ممسكون ومانعون لها من الحرام، ولا يرسلونها على أحد، ولا يبذلونها ﴿إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ﴾؛ أي: زوجاتهم، فإن الزوج يقع على الذكر والأنثى ﴿أَوْ﴾ على ﴿مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ﴾؛ أي: أيديهم من الإماء فما ملكت[1] أيمانهم، وإن كان عاماً للرجال أيضاً، لكنه مختص بالنساء إجماعاً، وإنما قال: (ما) إجراء للمماليك مجرى غير العقلاء؛ إذ الملك أصل شائع فيه، وعبارة الشوكاني وعبر عنهن بـ(ما) التي لغير العقلاء؛ لأنه اجتمع فيهن الأنوثة المنبئة عن قصور العقل وجواز البيع والشراء فيهن، كسائر السلع، فأجراهن بهذين الأمرين مجرى غير العقلاء، انتهى. وإنما ذكر بلفظ (على) لاستلائهم على أزواجهم لا لاستلائهن عليهم وكانوا عليهن لا مملوكين لهن.

والفرج[2] يطلق على فرج الرجل والمرأة، ومعنى حفظهم: أنهم ممسكون لها بالعفاف عما لا يحل لهم، قيل والمراد هنا: الرجل خاصة دون النساء، بدليل قوله: ﴿إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ﴾ للإجماع على أنه لا يحل للمرأة أن يطأها من تملكه.

والمعنى: أن الذين يحفظون فروجهم في جميع الأحوال إلا في حال تزوجهم أو تسريهم قربان الأمة بالملك.

وقال في «الأسئلة المقحمة»[3]: كيف يجوز أن يسمى الرقيق ملك يمين ولا يسمى به سائر الأملاك، الجواب: ملك الجارية والعبد أخص؛ لأنه يختص بجواز التصرف فيه، ولا يعم كسائر الأملاك، فإن مالك الدار مثلاً يجوز له نقض الدار وهدمها، ولا يجوز لمالك العبد نقض بنيته وقتله، انتهى.

﴿فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾ على عدم حفظها منهن، إذا كان إتيانهن على وجه الحلال؛ أي: وإنما لا يلامون فيما إذا كان الإتيان على وجه أذن فيه الشرع، دون الإتيان في غير المأتى شرعاً، وفي حال الحيض والنفاس، فإنه محظور، فلا يجوز، ومن فعله فإنه ملوم، واللوم عذل إنسان بنسبته إلى ما فيه لوم، كما سيأتي

---

(١) روح البيان.
(٢) الشوكاني.
(٣) روح البيان.

في «مبحث التصريف»، والمراد بهذا الوصف: مدحهم بنهاية العفة، والإعراض عن الشهوات، وفي «التأويلات النجمية»، يعني: يحفظون عن التلذذ بالشهوات؛ أي: لا يكون أزواجهم وإماؤهم عدواً لهم، بأن يشغلوهم عن الله وطلبه، فحينئذٍ يلزم الحذر منه كقوله: ﴿عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ﴾.

﴿فَمَنِ ابْتَغَى﴾ وطلب ﴿وَرَاءَ ذَلِكَ﴾ الذي ذكر من الحد المتسع، وهو أربع من الحرائر، وما شاء من الإماء ﴿فَأُولَئِكَ﴾ المبتغون ﴿هُمُ الْعَادُونَ﴾؛ أي: الكاملون في العدوان، المتناهون فيه، أو المتعدون من الحلال إلى الحرام.

والمعنى: فمن التمس وطلب سوى الأزواج والولائد، وهن الجواري المملوكة، فأولئك هم الظالمون، المجاوزون لحدود الله من الحلال إلى الحرام، قال البغوي: وفي الآية دليل على أن الاستمناء باليد حرام، وبه قال مالك والشافعي وأبو حنيفة[1]، وقال أحمد بن حنبل: يجوز إخراجها لحاجة؛ لأنها فضلة، كدم الفصد والحجامة، لكن بشروط ثلاثة: أن يخاف الزنا، وأن لا يجد مهر حرة أو ثمن أمة، وأن يفعله بيده، لا بيد أجنبي أو أجنبية، ويجوز بيد زوجته أو جاريته، لكن قال القاضي حسين: مع الكراهة؛ لأنه في معنى العزل.

الخلاصة: الصائم إذا عالج ذكره حتى أمنى، يجب عليه القضاء[2]، ولا كفارة عليه، ولا يحل هذا الفعل، خارج رمضان، إن قصد تسكين شهوته، وأرجو أن لا يكون عليه ويل. ا هـ.

وقال ابن جريج: سألت عطاء عنه، فقال: سمعت أن قوماً يحشرون وأيديهم حبالى وأظنهم هؤلاء، وعن سعيد بن جبير: عذب الله أمة كانوا يعبثون بمذاكيرهم. والواجب على فاعله التعزير، كما قاله ابن الملقن وغيره.

والسادس: رعاية الأمانة والعهد، وذكره بقوله: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ﴾؛ أي: لما يؤتمنون عليه ويعاهدون من جهة الحق، أو الخلق ﴿رَاعُونَ﴾؛ أي: قائمون عليها، وحافظون لها على وجه الإصلاح؛ أي: والذين هم لأماناتهم؛

---

(١) الصاوي. (٢) روح البيان.

أي: لما ائتمنوا عليه، من حقوق الخالق، كالصلاة والصوم والحجّ، وفعل المعروف، والنهي عن المنكر، وحقوق الخلق، كالودائع والصنائع، وأعراض الخلق، وعوراتهم ﴿وَعَهْدِهِمْ﴾ مرادف للأمانات ﴿رَٰعُونَ﴾؛ أي: حافظون، غير مضيعون لها. ا هـ «صاوي» وقرأ ابن كثير وأبو عمرو: في رواية ﴿لأمانتهم﴾ بالإفراد، وباقي السبعة بالجمع، ذكره في «البحر».

والمعنى[1]: أي والذين إذا ائتمنوا لم يخونوا، بل يؤدون الأمانة لأهلها، وإذا عاهدوا أو عاقدوا أوفوا، بما عاهدوا عليه، إذ الخيانة وخلف العهد من صفات المنافقين، كما جاء في الحديث «آية المنافق ثلاث، إذا حدّث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا ائتمن خان» وقصارى ذلك، أنهم يؤدون ما ائتمنوا وعوهدوا عليه، من الرب، أو العبد، كالتكاليف الشرعية، والأموال المودعة، والعقود التي عاقدوا الناس عليها، والأمانة[2]، اسم لما يؤتمن عليه الإنسان، والعهد حفظ الشيء ومراعاته حالاً بعد حال، ويسمى الموثق الذي يلزم مراعاته عهداً. فالأمانة ما يؤتمنون عليه، والعهد ما يعاهدون عليه، من جهة الله سبحانه، أو من جهة عباده، وقد جمع العهد والأمانة كل ما يتحمله الإنسان من أمر الدين، أو الدنيا، والأمانة أعم من العهد، فكل عهد أمانة ولا عكس. ذكره «الشوكاني» وقال محمد بن الفضل[3]: جوارحك كلها أمانات عندك، أمرت في كل واحدة منها، بأمر، فأمانة العين، الغضّ عن المحارم، والنظر بالاعتبار، وأمانة السمع، صيانتها عن اللغو، والرفث، وإحضارها مجالس الذكر، وأمانة اللسان اجتناب الغيبة والبهتان، ومداومة الذكر، وأمانة الرجل، المشي إلى الطاعات والتباعد عن المعاصي، وأمانة الفم، أن لا يتناول به إلا حلالاً، وأمانة اليد، أن لا يمدها إلى الحرام، ولا يمسكها عن المعروف، وأمانة القلب، مراعاة الحق على دوام الأوقات، حتى لا يطالع سواه، ولا يشهد غيره، ولا يسكن إلا إليه، انتهى.

---

(١) المراغي.
(٢) روح البيان.
(٣) روح البيان.

والسابع: المحافظة على الصلوات، وذكره بقوله: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ﴾ المفروضة عليهم، وقرأ الأخوان حمزة والكسائي: ﴿على صلاتهم﴾ بالإفراد، وباقي السبعة بالجمع ﴿يُحَافِظُونَ﴾؛ أي: يواظبون عليها بشرائطها وآدابها، ويؤدونها في أوقاتها، التي رسمها الدين، على أكمل وجه، وعبر بـ﴿يُحَافِظُونَ﴾ بصفة المضارع، لما في الصلاة من التجدد والتكرار، وهو السر في جمعها، وليس فيه تكرير الخشوع؛ لأن المحافظة فضيلة أخرى. فإن قلت[1]: كيف كرر ذكر الصلاة أولاً وآخراً؟

قلت: هما ذكران مختلفان، فليس تكراراً، وصفهم أولاً بالخشوع في الصلاة، وآخراً بالمحافظة عليها.

قال الزمخشري: ووحدت أولاً ليفاد الخشوع في جنس الصلاة، وجمعت آخراً، لتفاد المحافظة على أعدادها، وهي الصلوات الخمس، والوتر، والسنن المرتبة مع كل صلاة، وصلاة الجمعة، وصلاة العيدين، والجنازة والاستسقاء والكسوف وصلاة الضحى والتهجد وغيرها من النوافل، قال: في «التأويلات النجمية»: يحافظون لئلا يقع خلل في صورتها، ومعناها: ولا يضيع منهم الحضور في الصف الأول صورةً ومعنىً.

وفي الحديث: «يكتب للذي خلف الإمام بحذائه في الصف الأول، ثواب مئة صلاة، وللذي في الأيمن، خمس وسبعون، وللذي في الأيسر خمسون، وللذي في سائر الصفوف، خمس وعشرون» كما في «شرح المجمع»، والصف الأول، أعلم بحال الإمام، فتكون متابعته أكثر، وثوابه أتم، وأوفر، كما في «شرح المشارق» لابن الملك وفي الحديث: «أول زمرة تدخل المسجد، هم أهل الصف الأول، وإن صلوا في نواحي المسجد» كما في «خالصة الحقائق».

روي عن ابن مسعود أنه قال: سألت رسول الله ﷺ، فقلت: يا رسول الله، أي: العمل أحب إلى الله؟ قال: «الصلاة على وقتها» قال: قلت: ثم أي؟ قال:

---

(١) الخازن.

«بر الوالدين» قلت: ثم أي، قال: «الجهاد في سبيل الله». ا هـ الشيخان.

وقد افتتح سبحانه هذه الصفات الحميدة، بالصلاة، واختتمها بالصلاة، دلالة على عظيم فضلها، وكبير مناقبها، وقد ورد في الحديث: «إعلموا أن خير أعمالكم الصلاة، ولا يحافظ على الوضوء إلا مؤمن» ولما كان الجزاء في الآخرة، نتيجة للعمل في الدنيا، وما فيها من نعيم حصاد، لما زرع فيها، رتب على ذلك قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ المؤمنون الموصوفون بتلك الصفات الحميدة المذكورة ﴿هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ﴾ منازل أهل النار من الجنة، وعن أبي هريرة قال رسول الله ﷺ: «ما منكم من أحد إلا وله منزلان: منزل في الجنة، ومنزل في النار، فمن مات ودخل النار.. ورث أهل الجنة منزله، ذلك قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿١٠﴾﴾» ذكره البغوي، بغير سند.

وقيل: معنى الوارث: هو أن يؤول أمرهم إلى الجنة وينالوها، كما يؤول أمر الميراث إلى الوارث، والمعنى: أولئك هم الأحقاء بأن يسموا وارثاً، دون من عداهم، ممن ورث رغائب الأموال، والذخائر، وكرائمها. والوراثة، انتقال مال إليك من غيرك، من غير عقد، ولا ما يجري مجرى العقد وسمى بذلك المتنقل عن الميت، فيقال للمال الموروث: ميراث ﴿ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ﴾ بيان لما يرثونه، وتقييد للوراثة بعد إطلاقها وتفسير لها بعد إبهامها، تفخيماً لشأنها، ورفعاً لمحلها، وهي استعارة لاستحقاقهم الفردوس بأعمالهم، حسبما يقتضيه الوعد الكريم، للمبالغة فيه؛ لأن الوراثة، أقوى سبب يقع في ملك الشيء، ولا يتعقبه رد ولا فسخ، ولا إقالة ولا نقض، فيسمى انتقال الجنة إليهم بدون محاسبة ولا معرفة بمقدارها وراثة.

والمعنى: أن من عمل بما ذكر في هذه الآيات، فهو الذي يرث من الجنة ذلك المكان، ولفظ الفردوس لغة رومية معربة، وقيل: فارسية، وقيل: حبشية، وقيل: هي عربية ﴿هُمْ فِيهَا﴾؛ أي: في الفردوس، والتأنيث فيه، مع أنه راجع إلى الفردوس، لأنه اسم للجنة، أو لطبقتها العليا، وهو البستان الجامع لأصناف الثمر، روي أنه تعالى، بنى جنة الفردوس لبنة من ذهب، ولبنة من فضة، وجعل

خلالها المسك الإذفر، وغرس فيها من جيد الفاكهة، وجيد الريحان ﴿خَٰلِدُونَ﴾؛ أي: ماكثون مكثاً مؤبداً لا يخرجون منها، ولا يموتون، والخلود في الجنة بقاء الأشياء على الحالة التي هي عليها، من غير اعتراض الكون، والفساد عليها، فإن قيل: كيف حكم على الموصوفين، بالصفات السبعة، بالفلاح مع أنه لم يتمم ذكر العبادات الواجبة، كالصوم والحج؟

فالجواب: أن قوله: ﴿لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ﴾ يأتي على جميع الواجبات من الأفعال، والتروك، والطهارات دخلت في جملة المحافظة على الصلوات، لكونها من شرائطها، والحصر إضافي لا حقيقي؛ لأنه ثبت أن الجنة يدخلها الأطفال والمجانين والولدان والحور، ويدخلها الفساق من أهل القبلة بعد العفو، لقوله تعالى: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ اهـ «كرخي».

وقصارى ما سلف: أن فلاح المؤمن، موقوف على اتصافه بتلك الصفات السامية العالية القدر العظيمة الأثر في حياته الروحية، وكمالاته النفسية، اللهم اجعلنا من الذين يرثون الفردوس، ويتنعمون بنعيمها، ويصلون إلى نسيمها، واحفظنا عن الأسباب المؤدية إلى النار وجسيمها.

ولما حثّ سبحانه عباده على العبادة، ووعدهم الفردوس، عاد إلى تقرير المبدأ والمعاد، ليتمكن ذلك في نفوس المكلفين، فقال: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ﴾ ذكر الله سبحانه وتعالى: في هذه الآيات من هنا إلى قوله: ﴿وعلى الفلك تحملون﴾ أربعة أنواع من دلائل قدرته تعالى:

الأول: تقلب الإنسان في أطوار خلقته، وهي تسعة، آخرها قوله: ﴿تُبْعَثُونَ﴾.

الثاني: خلق السماوات.

الثالث: إنزال الماء.

الرابع: منافع الحيوانات وذكر منها أربعة أنواع. اهـ. رازي، واللام فيه: موطئة لقسم محذوف؛ أي: وعزتي وجلالي لقد خلقنا أصل هذا النوع الإنساني، وأول أفراده وهو آدم عليه السلام ﴿مِن سُلَٰلَةٍ﴾ كائنة ﴿مِّن طِينٍ﴾؛ أي: من صفوة طين.

والخلاصة: سلت واستخرجت، وصفيت من كل تربة، والطين التراب والماء المختلط به.

وفي «التأويلات النجمية»[1] يشير إلى سلالة سلت، واستخرجت من جميع أنواع الأرض، طيبها وسبخها وسهلها وجبلها، باختلاف ألوانها وطبائعها المتفاوتة، ولهذا اختلفت ألوانهم وأخلاقهم؛ لأنه مودع في طبيعتهم ما هو من خواص الطين الذي اختص بخاصية منها نوع من الحيوان، من جنس البهائم والسباع والجوارح والحشرات المؤذيات الغالبة على كل واحد منها صفة من الصفات الذميمة والحميدة.

فأما الذميمة: فكالحرص في الفأرة والنملة، وكالشهوة في العصفور، وكالغضب في الفهد، والأسد، وكالكبر في النمر، وكالبخل في الكلب، وكالشره في الخنزير، وكالحقد في الحية، وغير ذلك من الصفات الذميمة، وأما الحميدة فكالشجاعة في الأسد والسخاوة في الديك، والقناعة في البوم، وكالحلم في الجمل، وكالتواضع في الهرة، وكالوفاء في الكلب، وكالبكور في الغراب، وكالهمة في البازي والسلحفاة، وغير ذلك من الصفات الحميدة، فقد جمعها كلها مع خواصها وطبائعها، ثم أودعها في طينة الإنسان، وهو آدم عليه السلام.

ويروي جماعة من المفسرين[2]: أن المراد بالإنسان هنا، ولد آدم، وهم يقولون: إن النطف تتوالد من الدم الحادث من الأغذية، وهي إما حيوانية، وإما نباتية، والحيوانية تنتهي إلى نباتية، والنبات يتوالد من صفو الأرض والماء، فالإنسان على الحقيقة، متوالد من سلالة من طين، ثم تواردت على تلك السلالة أطوار الخلقة، إلى أن صارت نطفاً.

﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ﴾؛ أي: ثم جعلنا نسله ﴿نُطْفَةً﴾؛ أي: نطفاً في أصلاب الآباء، ثم قذفت إلى الأرحام، فصارت محفوظة ﴿فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾؛ أي: في حرز حصين من وقت الحمل إلى حين الولادة؛ أي: ثم جعلنا السلالة منياً أربعين يوماً، في

---

(١) روح البيان.

(٢) المراغي.

مكان حريز، فإن الله تعالى خلق جوهر الإنسان أولاً طيناً، ثم جعل جوهره بعد ذلك نطفة، في صلب الأب، فقذفه الصلب بالجماع إلى رحم الأم، فصار الرحم مستقراً حصيناً لهذه النطفة ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً﴾؛ أي: ثم حولنا النطفة من صفتها الثانية، إلى صفة العلقة، وهي الدم الجامد بأن أحلنا النطفة البيضاء علقة حمراء.

والمعنى[1]: أي ثم صيرنا المني الأبيض دماً جامداً أربعين يوماً، قيل: كلها تجعل علقة، وقيل: جزء منها، والباقي يوضع نصفه في موضع تربته، والنصف الثاني يوضع في السماء، فإذا أراد الله إحياء الخلق من القبور، أمطرت السماء، فتلاقي النطف النازلة من السماء، النطف الباقية في الأرض، فتوجد الخلائق بينهما، وهذا هو حكمة قوله: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾.

﴿فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً﴾؛ أي: ثم صيرنا ذلك الدم الجامد الأحمر، مضغة؛ أي: لحماً صغيراً بمقدار ما يمضغ أربعين يوماً، لا استبانة ولا تمايز فيها ﴿فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ﴾؛ أي: غالبها ومعظمها أو كلها ﴿عِظَٰمًا﴾؛ أي: فصيرنا اللحم الصغير عظاماً بلا لحم، بعد ثلاث أربعينات بأن صلبناها وجعلناها عموداً للبدن على هيئات مخصوصة من رأس ورجلين، وما بينهما، وأوضاع مخصوصة تقتضيها الحكمة، أو ميزنا بين أجزائها، فما كان منها: من العناصر الداخلة في تكوين العظام، جعلناه عظاماً، وما كان من مواد اللحم، جعلناه لحماً، والمواد الغذائية شاملة لذلك، ومنبتة في الدم، ومن ثم قال: ﴿فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ﴾ المعهودة ﴿لَحْمًا﴾ من بقية المضغة، وشددناها بالأعصاب، والعروق، فاللحم يستر العظام، كالكسوة؛ أي: كسونا كل عظم من تلك العظام، ما يليق به من اللحم على مقدار لائق به، وهيئات مناسبة له؛ أي: فجعلنا اللحم كسوة لها، من قبل أن يستر العظام، فأشبه الكسوة الساترة للجسم، وجمع العظام لاختلافها.

واختلاف العواطف بالفاء[2]، و(ثم) لتفاوت الاستحالات، يعني: أن بعضها مستبعد حصوله، مما قبله، وهو المعطوف بـ﴿ثم﴾، فجعل الاستبعاد

---

(١) المراح.
(٢) الفتوحات.

عقلاً، أو رتبةً بمنزلة التراخي، والبعد الحسّي؛ لأن حصول النطفة من أجزاء ترابية غريب جداً، وكذا جعل النطفة البيضاء دماً أحمراً، بخلاف جعل الدم لحماً مشابهاً له في اللون، والصورة، وكذا تصلبها حتى تصير عظماً؛ لأنه قد يحصل ذلك بالمكث، فيما يشاهد، وكذا مد لحم المضغة عليه؛ ليستره، فسقط ما قيل: إن الوارد في الحديث؛ إن مدة كل استحالة أربعون، وذلك يقتضي عطف الجمع بـ﴿ثم﴾، إن نظر لآخر المدة، وأولها، أو يقتضي العطف بالفاء إن نظر لآخرها فقط اهـ من «الشهاب»، مع تقديم وتأخير. وهذا في العواطف الخمسة الأولى، وأما قوله: ﴿ثم أنشأناه خلقاً آخر﴾، فعطفه بـ﴿ثم﴾ للتفاوت بين الخلقين، كما في «البيضاوي».

وقرأ الجمهور[1] ﴿عِظَـٰمًا﴾ والعظام: بالجمع فيهما، وقرأ ابن عامر وأبو بكر عن عاصم وأبان والمفصل والحسن وقتادة وهارون والجعفي ويونس عن أبي عمرو وزيد بن علي بالإفراد فيهما، وقرأ السلمي وقتادة أيضاً، والأعرج والأعمش ومجاهد وابن محيصن بإفراد الأول، وجمع الثاني، وقرأ أبو رجاء وإبراهيم بن أبي بكر ومجاهد أيضاً بجمع الأول وإفراد الثاني، فالإفراد يراد به الجنس.

﴿ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ﴾؛ أي: صيرنا ذلك المذكور من العظام وكسوته ﴿خَلْقًا ءَاخَرَ﴾؛ أي: خلقاً مبايناً للخلق الأول إذ نفخنا فيه الروح، وجعلناه حيواناً بعد ما كان أشبه بالجماد، ناطقاً سميعاً بصيراً، وأودعنا فيه من الغرائب ظاهرها، وباطنها ما لا يحصى.

أي: حولنا العظام المستورة باللحم، عن صفاتها، إلى صفة لا يحيط بها شرح الشارحين، فإن الله جعلها حيواناً ناطقاً سميعاً بصيراً عاقلاً، وأودع كل جزء من أجزائه، عجائب وغرائب، لا يحيط بها وصف الواصفين، والإنشاء إيجاد الشيء، وتربيته، وأكثر ما يقال ذلك، في الحيوان، و﴿ثم﴾ هنا لكمال التفاوت

---

(١) البحر المحيط.

بين الخلقين، واحتج به أبو حنيفة رحمه الله، على أن من غصب بيضة، فأفرخت عنده، لزمه ضمان البيضة لا الفرخ، فإنه خلق آخر.

قال في «الأسئلة المقحمة»[1]: خلق الله الآدمي أطواراً، ولو خلقه دفعة واحدة كان أظهر في كمال القدرة، وأبعد عن نسبة الأسباب، فما معناه؟ فالجواب: لا، بل الخلق بعد الخلق، بتقليب الأعيان، واختراع الأشخاص، أظهر في القدرة، فإنه تعالى خلق الآدمي من نطفة متماثلة الأجزاء، ومن أشياء كثيرة، مختلفة المراتب، متفاوتة الدرجات، من لحم وعظم ودم وجلد وشعر وغيرها، ثم خصّ كل جزء منها، بتركيب عجيب، واختصاص غريب من السمع والبصر واللمس والمشي والذوق والشم وغيرها، وهي أبلغ في إظهار كمال الإلهية، والقدرة ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ﴾؛ أي: تزايد بره وخيره، وإحسانه لعباده مرة بعد مرة، وكرة بعد كرة، إن قلنا إنه مأخوذ من البركة، أو تعالى شأنه من علمه الشامل، وقدرته الباهرة ﴿أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ بدل من الجلالة؛ أي: أحسن الخالقين خلقاً؛ أي: أحسن المقدرين تقديراً، حذف المميز لدلالة الخالقين عليه، فالحسن للخلق.

وفي «الأسئلة المقحمة»: هذا يدل على أن العبد خالق أفعاله، ويكون الرب أحسن في الخالقية؟ فالجواب معناه: أحسن المصورين لأن المصور يصور الصورة، ويشكلها على صورة المخلوق، أخبر به سبحانه؛ لأنه لا يبلغ في تصويره إلى حدّ الخالق؛ لأنه لن يقدر على أن ينفخ فيها الروح، وقد ورد الخلق في القرآن، بمعنى: التصوير. قال تعالى: ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ﴾؛ أي: وإذ تصور فكذلك ههنا انتهى.

﴿ثُمَّ إِنَّكُم﴾ يا بني آدم ﴿بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾؛ أي: بعد ما ذكر من التركيب بالأمور العجيبة؛ أي: ثم أنكم بعد النشأة الأولى من العدم ﴿لَمَيِّتُونَ﴾؛ أي: لصائرون إلى الموت، لا محالة، كما تؤذن به صيغة فيعل، الدالة على الثبوت، دون الحدوث الذي يفيده صيغة الفاعل.

---

(١) روح البيان.

وقرأ زيد بن علي وابن أبي عبلة وابن محيصن[1]: ﴿لمائتون﴾ بالألف، يريد حدوث الصفة، فيقال: أنت مائت عن قليل، وميت، ولا يقال: مائت، للذي قد مات، وقال الزمخشري: والفرق بين الميت والمائت، أن الميت، كالحي صفة ثابتةً، وأما المائت، فيدل على الحدوث، تقول: زيد مائت الآن، ومائت غداً، كقولك: يموت، ومثله: ضيق وضائق، في قوله: ﴿وَضَآئِقٌ بِهِۦ صَدْرُكَ﴾ انتهى. ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾؛ أي: عند النفخة الثانية، ﴿تُبْعَثُونَ﴾؛ أي: تخرجون من قبوركم للحساب، ثم المجازاة بالثواب، والعقاب، إذ يوفى كل عامل جزاء عمله، إن خيراً فخير، وإن شراً فشرّ.

وخلاصة ما تقدم: أنه تعالى بعد أن ذكر أنه كلف عباده بما كلف، بيّن أن هذه التكاليف شكر من الإنسان لربه، الذي أنشأه النشأة الأولى، وقلبه في أطوار مختلفة، حتى أوصله إلى طور هو غاية كماله، فأصبح قادراً على تكليفه بتلك التكاليف، ولا بدّ له من طور يستحق فيه الجزاء، على ما كلف به، وهو طور البعث بعد الموت يوم القيامة.

واللام في قوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ﴾ موطئة للقسم؛ أي: وعزتي وجلالي، خلقنا فوقكم يا أهل الأرض، ﴿سَبْعَ طَرَآئِقَ﴾؛ أي: سبع سماوات، وهي طرائق للكواكب وللملائكة، جمع طريقة، كما أن الطرق جمع طريق، والمراد طباق السماوات السبع سميت بالطرائق؟ لأنها طروق بعضها فوق بعض، مطارقة النعل، فإن كل شيء فوق مثله، فهو طريقه؛ أي: لكون بعضها موضوعاً فوق بعض، طاقاً فوق طاق، كمطارقة النعل.

﴿وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ﴾؛ أي: عن ذلك المخلوق، الذي هو السماوات، أو عن المخلوقات، سواء كانت هذه الطرائق أو غيرها ﴿غَٰفِلِينَ﴾ عن أمرها مهملين لها، بل نحفظها عن الزوال والاختلال، وندبر أمرها حتى تبلغ منتهى ما قدر لها، من الكمال، حسبما اقتضته الحكمة وتعلقت به المشيئة، إذ تسير الكواكب

---

(١) البحر المحيط.

في تلك الطرائق، بحساب منتظم، لو أهملناها لاختل توازنها، وسار كل كوكب في غير مداره، أو زل نجم عن سنن سيره، ففسد النظام العام، للعالم العلوي، والعالم الأرضي.

والخلاصة: أنا خلقنا السماوات، لمنافعهم، ولسنا غافلين عن مصالحهم، بل نفيض عليهم ما تقتضيه الحكمة، فخلقها دال على كمال قدرتنا، وتدبير أمرها، دال على كمال علمنا، وقال أكثر المفسرين: المراد بالخلق كلهم؛ أي: لسنا بغافلين عنهم، بل حفظنا السماوات عن أن تسقط، وحفظنا من في الأرض أن تسقط السماء عليهم، فتهلكهم، أو تميد بهم الأرض، أو يهلكون بسبب من الأسباب المستأصلة لهم، ويجوز أن يراد نفي الغفلة عن القيام بمصالحهم، وما يعيشون به، ونفي الغفلة عن حفظهم.

﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾؛ أي: من السحاب ﴿ماء﴾؛ أي: مطراً ﴿بِقَدَرٍ﴾؛ أي: بقدر الحاجة لا هو بالكثير، فيفسد الأرض، ولا هو بالقليل، فلا يكفي الزرع، والثمار[1]، حتى إن الأرضين التي تحتاج إلى ماء كثير لزرعها، ولا تحتمل تربتها إنزال المطر عليها، يساق إليها الماء من بلاد أخرى، كما في أرض مصر، ويقال: لمثلها ﴿ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ﴾ فيساق إليها ماء النيل، حاملاً معه الطين الأحمر، يجترفه من بلاد الحبشة، في زمن الأمطار، فيستقر فيها، ويكون سماداً لها، ونافعاً لزرعها ﴿فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: فجعلنا ذلك الماء، النازل من السماء، ثابتاً قاراً في الأرض، فيتغذى به، فهما من الحب والنوى، ومنه تتكون الآبار والعيون، التي تمر على معادن مختلفة، فتتشكل، وتتصف بصفاتها، فيكون ماؤها حاوياً، إما للنشادر، وإما للكبريت، وإما للأملاح، وهكذا ﴿وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ﴾؛ أي: على إذهابه وإزالته بالإفساد، أو التصعيد أو التغوير ﴿لَقَٰدِرُونَ﴾ بحيث يتعذر استخراجه، حتى تهلكوا أنتم، ومواشيكم عطشاً، كما كنا قادرين على إنزاله، ولو شئنا أن لا يمطر السحاب لفعلنا، ولو شئنا لصرفناه عنكم إلى جهات أخرى، لا تستفيدون منه، كالأراضي السبخة، والصحارى، ولو شئنا لجعلناه إذا نزل في

---

(١) المراغي.

الأرض يغور فيها، إلى مدى بعيد، لا تصلون إليه، ولا تنتفعون به، ولكن بلطفنا، ورحمتنا، ننزل عليكم الماء العذب الفرات، ونسكنه في الأرض، ونسلكه ينابيع فيها، لتسقوا به الزرع، والثمار، وتشربوا منه أنتم ودوابكم وأنعامكم.

وفي هذا تهديد شديد، لما يدل عليه، من قدرته سبحانه على إذهابه، وتغويره، حتى يهلك الناس بالعطش، وتهلك مواشيهم، ومثله قوله: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ ﴿٣٠﴾﴾.

ثم بيّن سبحانه ما يتسبب عن إنزال الماء، فقال: ﴿فَأَنشَأْنَا لَكُم﴾؛ أي: فأخرجنا لكم من الأرض به؛ أي: بسبب ذلك الماء، الذي أنزلناه من السماء ﴿جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ﴾؛ أي: بساتين فيها نخيل، وأعناب، وإنما ذكرهما الله سبحانه لكثرة منافعهما، فإنهما يقومان مقام الطعام، ومقام الإدام، ومقام الفواكه، رطباً ويابساً، وقال ابن جرير: اقتصر سبحانه، على النخيل والأعناب؛ لأنها الموجودة بالطائف والمدينة، وما يتصل بذلك، وقيل: لأنها أشرف الأشجار ثمرةً وأطيبها منفعةً، وطعماً ولذّةً ﴿لَّكُمْ فِيهَا﴾؛ أي: في تلك الجنات ﴿فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ﴾ من أنواع شتى، تتفكهون بها، وتتطعمون منها، زيادةً على ثمرات النخيل، والأعناب: كالزيتون والرمان، والتفاح والموز، وغيرها.

وقد اختلف أهل الفقه في لفظ الفاكهة، على ماذا يطلق؟ اختلافاً كثيراً، وأحسن ما قيل: إنها تطلق على الثمرات التي يأكلها الناس، وليست بقوت لهم، ولا طعام، ولا إدام، واختلف في البقول، هل تدخل في الفاكهة أم لا؟ ﴿وَمِنْهَا﴾؛ أي: ومن تلك الجنات حبوبها وثمارها ﴿تَأْكُلُونَ﴾ تغذياً، أو ترزقون، وتحصلون معايشكم من قولهم: فلان يأكل من حرفة يحترفها، ومن تجارة يتربح بها.

﴿وَشَجَرَةً﴾ بالنصب عطف على جنات، وتخصيصها[1] بالذكر من بين سائر الأشجار، لاستقلالها بمنافع معروفة، قيل: هي أول شجرة، نبتت بعد الطوفان، وهي شجرة الزيتون، قال في «إنسان العيون»: شجرة الزيتون، تعمر ثلاثة آلاف

---

(١) روح البيان.

سنة؛ أي: وأنشأنا لكم زيتونة ﴿تَخْرُجُ﴾ وتنبت ﴿مِن طُورِ سَيْنَآءَ﴾ هو جبل بين مصر وأيلة نودي عليه موسى عليه السلام ﴿تَنْبُتُ﴾ تلك الشجرة، صفة ثانية لشجرة، والباء في قوله: ﴿بِٱلدُّهْنِ﴾ للملابسة متعلّقة بمحذوف حال من الشجرة؛ أي: تنبت تلك الشجرة، حالة كونها متلبسة بالدهن، مستصحبة بالدهن، كما قال الراغب معناه: تنبت والدهن موجود فيها بالقوة، ويجوز كون الباء صلة معدية لتنبت، كما في قولك: ذهبت بزيد؛ أي: تنبت الدهن بمعنى: تتضمنه وتحصله، فإن النبات حقيقةً، صفة للشجرة لا للدهن، ﴿وَصِبْغٍ﴾ معطوف على الدهن، جار على إعرابه عطف أحد وصفي الشيء على الآخر؛ أي: إدام ﴿لِّلْآكِلِينَ﴾ من قولهم: اصطبغت بالخل؛ أي: تأدمت به؛ أي: تنبت الشجرة بالشيء الجامع بين كونه دهناً يدهن به، ويسرج منه، وكونه إداماً يصبغ فيه الخبز؛ أي: يغمس للائتدام ويلون به، كالدبس والخل مثلاً، وأصل الصبغ ما يلون به الثوب، وشبه الإدام به؛ لأن الخبز يكون بالإدام كالمصبوغ به.

والمعنى[1]: أي وأنشأنا لكم شجرة الزيتون، التي تنبت في الجبل، بتلك البقعة المباركة، وتثمر زيتوناً تصنع منه الزيوت، التي يدهن بها وتتخذ إداماً للآكلين.

ذكر تعالى شرف مقر هذه الشجرة، وهو الجبل الذي كلم الله فيه نجيه موسى عليه السلام، ثم ذكر ما فيها من الدهن، والصبغ، ووصفها بالبركة في قوله: ﴿مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ﴾ وهي كثيرة بالشام، وقال الجمهور: سيناء اسم الجبل، كما تقول جبل أحد، من إضافة العام إلى الخاص، وقال مجاهد: معنى سيناء مبارك، وقال قتادة معناه: الحسن، والقولان عن ابن عباس، وقيل: سيناء: اسم حجارة بعينها، أضيف الجبل إليها لوجودها عنده، قاله مجاهد أيضاً.

وقرأ الحرميان ـ نافع وابن كثير ـ وأبو عمرو والحسن بكسر السين، وهي لغة لبني كنانة، وقرأ عمر بن الخطاب وباقي السبعة بالفتح، وهي لغة سائر العرب، وقرىء ﴿سينا﴾ مقصوراً، وبفتح السين، والأصح أن سيناء اسم بقعة،

---

(١) المراغي.

وأنه ليس مشتقاً من السناء، لاختلاف المادتين، على تقدير أن يكون سيناء عربي الوضع؛ لأن نون السناء عين الكلمة، وعين سيناء ياء، وقرأ الجمهور: ﴿تنبت﴾ بفتح التاء وضم الباء، والباء في بالدهن على هذا باء الحال؛ أي: تنبت مصحوبة بالدهن ومعها الدهن، وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو وسلام وسهل ورويس والجحدري بضم التاء وكسر الباء، فقيل: بالدهن، مفعول، والباء زائدة والتقدير: تنبت الدهن وقرأ الحسن والزهري وابن هرمز: بضم التاء وفتح الباء مبنيّاً للمفعول، ﴿وبالدهن﴾ حال، وقرأ زرّ بن حبيش بضم التاء وكسر الباء ﴿الدهنَ﴾. بالنصب، وقرأ سليمان بن عبد الملك والأشهب: ﴿بالدهان﴾ بالألف وما رووا[1] من قراءة عبد الله يخرج الدهن، وقراءة أبيّ ﴿تثمر بالدهن﴾، محمول على التفسير، لمخالفته سواد المصحف المجمع عليه، ولأن الرواية الثانية عنهما كقراءة الجمهور، وقرأ الأعمش ﴿وصبغاً﴾ بالنصب، وقرأ عامر بن عبد الله، ﴿وصباغ﴾ بالألف، وقرأ عامر بن عبد قيس ﴿ومتاعاً للآكلين﴾ كأنه يريد تفسير الصبغ.

﴿إن لكم من الأنعام﴾؛ أي: وإن لكم أيها الناس في خلق الأنعام من الإبل والبقر والغنم ﴿لَعِبۡرَةٗ﴾؛ أي: لعظة وآية تعتبرون بحالها، وتستدلون على عظيم قدرة خالقها، ولطف حكمته، فضلاً عن كونها نعمة، وخص الأنعام بالعبرة دون النبات؛ لأن العبرة فيها أظهر. انتهى «أبو السعود». ووجه العبرة فيها[2]: أن الدم المتوالد من الأغذية يتحول في الغدد التي في الضرع إلى شراب طيب لذيد الطعم، صالح للتغذية، وهذا من أظهر الدلائل على قدرة الخالق لها.

وهذه من جملة النعم التي امتن الله بها عليهم، وقد تقدم تفسير الأنعام، في سورة النحل بالإبل والبقرة والغنم. قال النيسابوري في «تفسيره»: ولعل القصد بالأنعام هنا خصوص الإبل؛ لأنها هي المحمول عليها في العادة، ولأنه قرنها بالفلك، وهي سفائن البر، كما أن الفلك سفائن البحر، وبيّن سبحانه أنها عبرة؛ لأنها مما يستدل بخلقها وأحوالها على عظيم القدرة الإلهية، ثم فصل منافعها، وذكر منها أربعة، فقال:

---

(١) البحر المحيط. (٢) المراغي.

١ - ﴿نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا﴾ فتنتفعون بألبانها على ضروب شتى، فتتخذون منها الزبدة والسمن والجبن، والأقط ونحوها.

و(ما)[1] عبارة إما عن الألبان، فـ(من) تبعيضية، والمراد بالبطون الجوف، أو عن العلف، الذي يتكون منه اللبن، فـ(من) ابتدائية، والبطون على حقيقتها، وقرأ نافع وابن عامر وأبو بكر عن عاصم، ﴿نسقيكم﴾ بفتح النون، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وحمزة والكسائي وحفص عن عاصم: بضمها، وقرىء: بالتاء الفوقية، على أن الفاعل هو الأنعام، فإن قلت: لم قال هنا: ﴿فِي بُطُونِهَا﴾ بالتأنيث، وقال في سورة النحل: ﴿فِي بُطُونِهِۦ﴾ بالتذكير فما الفرق بين الموضعين؟

قلت: يفرق بينها، بأن ما في النحل يراد به الإناث فقط، والتقدير: وإن لكم في بعض الأنعام، وذلك البعض هو الإناث فأتى بالضمير مفرداً مذكراً، وأما في المؤمنون فالمراد منه الكل الشامل للإناث والذكور، بدليل العطف في قوله: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ﴾ فإن هذا لا يخص الإناث وهذا العطف لم يذكر في النحل، اهـ «كرماني» وقال زكريا في «متشابه القرآن» ذكره هنا بلفظ الجمع؛ لأنه راجع للأنعام، مراداً بها الجمع وفي النحل، قال: ﴿مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ﴾ بالإفراد نظراً إلى أن الأنعام اسم مفرد، انتهى.

والمعنى: أي تنتفعون بلبنها في الشرب وغيره، ووجه الاعتبار في اللبن، أنه يجتمع في الضرع ويتخلص من بين الفرث والدم بإذن الله تعالى، فيستحيل إلى طهارة ولون وطعم، موافق للشهوة، ويصير غذاءً، فهذا اللبن الذي يخرج من بطونها إلى ضرعها، تجده شراباً طيباً نافعاً للبدن، وإذا دبحتها لم تجد له أثراً، فمن استدل بذلك على قدرة الله وحكمته، كان ذلك معدوداً من النعم الدينية، ومن انتفع به كان معدوداً من النعم الدنيوية.

٢ - ﴿وَلَكُمْ﴾ أيها الناس ﴿فِيهَا﴾؛ أي: في الأنعام ﴿مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٌ﴾ غير ما ذكر، فتأخذون أصوافها وأشعارها وأوبارها وتتخذونها ملابس وفرشاً للدفء، وبيوتاً في الصحارى ونحوها مما يجري هذا المجرى، وتنتفعون بثمنها وأجرتها.

---

(١) روح البيان.

٣ - ﴿وَمِنْهَا﴾؛ أي: ومن الأنعام بعد ذبحها ﴿تَأْكُلُونَ﴾ فكما انتفعتم بها، وهي حية تنتفعون بها بعد الذبح بالأكل.

٤ - ﴿وَعَلَيْهَا﴾؛ أي: وعلى الأنعام؛ أي: بعضها وهي الإبل ﴿وَعَلَى الْفُلْكِ﴾؛ أي: السفن ﴿تُحْمَلُونَ﴾؛ أي: وتركبون ظهورها وتحملونها الأحمال الثقيلة إلى البلاد النائية، كما قال في آية أخرى ﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ﴾ وقال: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ (٧١) وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ (٧٢) وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ (٧٣)﴾.

وقصارى ذلك[١]: أن في خلق الأنعام عبراً ونعماً من وجوه شتى، ففيه دلائل على قدرة الخالق بخلق الألبان، من مصادر هي أبعد ما تكون منها ونعماً لنا في مرافقها وأعيانها فننتفع بألبانها، وأصوافها ولحمها، ونجعلها مطايا لنا في أسفارنا، إلى نحو أولئك من شتى المنافع، وإنما لم يقل[٢]: وفي الفلك، كقوله: ﴿قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا﴾؛ لأن معنى الإبعاد ومعنى الاستعلاء، كلاهما مستقيم؛ لأن الفلك وعاء لمن يكون فيها حمولة له، يستعليها، فلما صح المعنيان، صحت العبارتان، وأيضاً هو يطابق قوله عليها، ويزاوجه كذا في «بحر العلوم».

ولما ذكر سبحانه الفلك، أتبعه بذكر نوح؛ لأنه أول من صنعه وذكر ما صنعه قوم نوح معه، بسبب إهمالهم للتفكر في مخلوقات الله سبحانه، والتذكر لنعمه عليهم، فقال: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ﴾ واللام فيه موطئة لقسم محذوف، وتصدير القصة به لإظهار كمال الاعتناء بمضمونها؛ أي: وعزتي وجلالي، لقد أرسلنا نوحاً إلى قومه، وهم جميعُ أهل الأرض.

وهذا[٣] شروع في ذكر خمس قصص، غير قصة خلق آدم، فتكون معها ستاً:

---

(١) المراغي.

(٢) روح البيان.

(٣) الفتوحات.

الأولى: قصة نوح، وهذا أولها.

الثانية: قصة هود، أولها قوله: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٣١﴾﴾.

والثالثة: قصة القرون الآخرين، أولها قوله: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قُرُونًا ءَاخَرِينَ ﴿٤٢﴾﴾.

والرابعة: قصة موسى وهارون، المذكورة بقوله: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ بِـَٔايَٰتِنَا﴾.. إلخ.

والخامسة: قصة عيسى وأمه المذكورة، بقوله: ﴿وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ﴾ إلى قوله: ﴿ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾.

ونوح لقبه، واسمه قيل: عبد الغفار، وقيل: عبد الله على ما قاله السيوطي، وقيل: يشكر على ما قاله الرازي، وعاش نوح من العمر ألف سنة وخمسين عاماً، وأرسل على رأس الأربعين، ومكث يدعو قومه ألف سنة إلا خمسين، وعاش بعد الطوفان ستين سنةً، وجاء في قصيدة جمال الدين[1]:

مِنْ كَثِيْرِ ٱلذَّنْبِ نُوْحُوْا ... نَوْحَ نُوْحٍ فِيْ ٱلرُّسُلْ
إِنَّهُ عُمْراً طَوِيْـ ... ـلاً مِنْ قَلِيْلِ ٱلنُّطْقِ نَاحْ

وهو أنه عليه السلام مر على كلب به جرب، فقال: بئس الكلب هذا، ثم ندم، فناح من أول عمره إلى آخره، وقدمت قصته، لتتصل بقصة آدم المذكورة، بقوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾﴾.. إلخ للمناسبة بين نوح وآدم، من حيث إنه؛ أي: نوحاً آدم الثاني؛ لانحصار النوع الإنساني بعده في نسله ﴿فَقَالَ﴾ نوح داعياً لهم إلى التوحيد ﴿يَٰقَوْمِ﴾؛ أي: يا قومي ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾؛ أي: أعبدوه وحده ولا تشركوا به شيئاً، وجملة قوله: ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ واقعة موقع التعليل لما قبلها؛ أي: ما لكم في الوجود، أو في العالم إله غير الله، فـ﴿غيرُ﴾ بالرفع صفة لـ﴿إله﴾ باعتبار محله، الذي هو الرفع، على أنه مبتدأ،

(١) روح البيان.

وخبره ﴿لَكُم﴾ و﴿مِّنْ﴾ زائدة. وقرأ الكسائي بالجر، لـ﴿غيره﴾، اعتباراً للفظ إله، والمعنى[1]؛ أي: ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه، منذراً لهم عذاب الله، وشديد بأسه وانتقامه على إشراكهم به، وتكذيب رسوله، فقال لهم متعطفاً عليهم مستميلاً لهم لقبول الحق، يا قوم اعبدوا الله وحده، وأطيعوه ولا تشركوا معه رباً سواه، فإنه لا رب لكم غيره، ولا معبود لكم سواه.

والهمزة في قوله: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾؛ لإنكار الواقع، واستقباحه، داخلة على محذوف يستدعيه المقام، والفاء عاطفة على ذلك المحذوف، والتقدير: ألا تعرفون ذلك؛ أي: مضمون قوله: ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾، فلا تتقون ولا تخافون عذابه، بسبب إشراككم به، في العبادة مالا يستحق الوجود، لولا إيجاد الله إياه، فضلاً عن استحقاق العبادة، فالمنكر عدم الاتقاء مع تحقيق ما يوجبه.

والخلاصة: أي أفلا تخشون عقابه فتحذروا أن تعبدوا معه سواه.

﴿فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟﴾؛ أي: الأشراف والسادة ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ﴾؛ أي: من قوم نوح؛ أي[2]: قالوا لعوامهم مبالغةً في وضع الرتبة العالية، وحطها عن منصب النبوة: ﴿مَا هَٰذَآ﴾ الشيخ يعنون نوحاً ﴿إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾؛ أي: في الجنس والوصف من غير فرق بينكم وبينه ﴿يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ﴾ ويتشرف ﴿عَلَيْكُمْ﴾ ويتقدمكم بادعاء الرسالة، مع كونه مثلكم؛ أي: يطلب أن يتشرف عليكم، فيكون أفضل منكم؛ بأن يكون متبوعاً، وتكونوا له تبعاً، وصفوه بذلك إغضاباً للمخاطبين عليه، وإغراءً على معاداته، والمعنى؛ أي[3]: فقال أشراف قومه ورؤساؤهم من العريقين في الكفر ومن ذوي الكلمة المسموعة والرأي المطاع: ما نوح إلا رجل منكم، ليس له ميزة عليكم في فضل، ولا خلق، فيكون أهلاً للنبوة، وتلقي الوحي من ربه، وما هو إلا رجل يريد أن يسودكم، ويكون له الصولة والسلطان عليكم، وقد ادعى الرسالة؛ ليصل إلى ما تصبو إليه نفسه،

---

(١) المراغي.

(٢) روح البيان.

(٣) المراغي.

وليس له من حقيقتها شيء، وبعد أن بيّنوا أن لا مقتضى لاختصاصه بالنبوة.. ذكروا الموانع التي تحول بينه وبينها، فذكروا أموراً ثلاثة:

١ - ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ﴾ سبحانه إرسال رسول إلينا، أو لو شاء الله أن لا نعبد سواه ﴿لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً﴾؛ أي: لأرسل رسلاً من الملائكة يدعونكم إلى ما دعاكم نوح إليه، وإنما قيل: ﴿لَأَنزَلَ﴾؛ لأن إرسال الملائكة لا يكون إلا بطريق الإنزال، ومفعول المثتية محذوف، كما قدرناه.

٢ - ﴿مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا﴾؛ أي: بمثل هذا الكلام الذي هو الأمر بعبادة الله، خاصة ﴿فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ﴾؛ أي: الماضين قبل بعثته؛ أي: ما سمعنا في القرون الغابرة عهود الآباء والأجداد، بمثل هذا الذي يدعو إليه نوح من أنه: لا إلٰه إلا إلٰه واحد لا رب غيره، ولا معبود سواه، وفي هذا إيماء إلى أنهم قوم لا رأي لهم، وإنما يعولون على التقليد، وقول الآباء والأجداد، فلما لم يجدوا عن آبائهم شيئاً مثل هذا أنكروا نبوته، وفيه إشارة أيضاً إلى أنهم قد بلغوا الغاية في العناد، والتكذيب والانهماك في الغيّ والضلال.

٣ - ﴿إِنْ هُوَ﴾؛ أي: ما هو؛ أي: ما نوح ﴿إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ﴾؛ أي: جنون، ولذلك يقول ما يقول؛ أي: وما نوح إلا رجل به خبل ونقص في عقله، فمزاعمه لا تصدر إلا من رجلٍ لا يزن قوله، ولا يدعم رأيه بحجة ناصعة، فلا يلتفت إذاً إلى ما يدعي، ولا ينبغي أن نضيع الوقت في محاجته، ودحض مزاعمه في صدق دعوته، وبعد أن ذكروا موانع نبوته.. ذكروا الطريق المثلى في إبطال دعوته، فقالوا: ﴿فَتَرَبَّصُواْ بِهِۦ﴾؛ أي: فاصبروا عليه، وانتظروا به ﴿حَتَّىٰ حِينٍ﴾؛ أي: إلى وقت يفيق فيه من الجنون؛ أي: أخروا شأنه حتى يتبين أمره؛ بأن يفيق من جنونه، فيترك هذه الدعوى، ويرجع من تلقاء نفسه إلى دينكم، ودين آبائكم وأجدادكم، أو حتى يموت فتستريحوا منه، وهذا من مكابرتهم، لفرط عنادهم، إذ هم يعلمون أنه أرجح الناس عقلاً وأرزنهم قولاً.

ولم يرد سبحانه على هذه الشبه لسخافتها، ووضوح فسادها، إذ كل عاقل يعلم أن الرسول يتميز عن غيره بالمعجزات التي تأتي على يديه، سواء كان ملكاً أم بشراً.

وإرادته التفضيل عليهم، إن كانت لأجل أن يستبين فضله حتى ينقادوا، فلا ضير في ذلك، بل هو واجب، وإن أرادوا أنه يبغي التجبر عليهم فالأنبياء منزهون عن ذلك، وقولهم: ﴿مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ﴾ اعتناق للتقليد، وهو لا يصلح حجة تدفع بها حجج المعارضين الواضحة، وضوح الشمس في رائعة النهار، وقولهم: ﴿بِهِۦ جِنَّةٌ﴾ كذب صراح؛ لأنهم يعلمون ذكاءه وعظيم فطنته، وما أوتيه من أصالة الرأي وثاقب الفكر.

ولما استبان لنوح إصرارهم على ضلالتهم، وتماديهم في غيهم، ويأسه من إيمانهم، وأوحي إليه أنه لن يؤمن من قومك، إلا من قد آمن.. طلب إلى ربه أن ينصره عليهم، و﴿قَالَ﴾ نوح يا رب ﴿رَبِّ ٱنصُرْنِى﴾ عليهم فانتقم منهم بما تشاء، وكيف تريد، والباء في قوله: ﴿بِمَا كَذَّبُونِ﴾؛ أي: بسبب تكذيبهم إياي؛ أي: رب انصرني بإنجاز ما أوعدتهم به من العذاب، بقولي: إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم، وقال الزمخشري[1]: أي بدل (ما كذبون) على أن الباء للبدل، كما تقول: هذا بذاك؛ أي: بدل ذاك ومكانه.

والمعنى: أبدلني من غم تكذيبهم سلوة النصر عليهم. وقرأ أبو جعفر وابن محيصن ﴿قال ربُّ﴾ بضم الباء.

وقد أجاب الله سبحانه دعاءه فقال: ﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ﴾ عند ذلك؛ أي: فأعلمناه في خفاء فإن الإيحاء والوحي، إعلام في خفاء ﴿أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ﴾ واعملها، (أن) مفسّرة لما في الوحي من معنى القول، والصنع إجادة الفعل؛ أي: فقلنا له ؛ حين استنصرنا على كفرة قومه، بواسطة جبريل: اصنع السفينة، واعملها حالة كونك متلبساً ﴿بِأَعْيُنِنَا﴾ وحفظنا ورعايتنا، نحفظك من أن تخطىء في صنعته، أو يفسده عليك مفسد، يقال: فلان بعيني؛ أي: أحفظه وأراعيه، كقولك: هو مني بمرأى ومسمع ﴿و﴾ ملتبساً بـ﴿وحينا﴾؛ أي: بأمرنا وتعليمنا إياك، كيفية صنعها، فإن الله أرسل إليه جبريل، فعلمه صنعتها وصنعها في عامين، وجعل طولها ثمانين ذراعاً وعرضها خمسين، وارتفاعها ثلاثين ذراعاً، والذراع

---

(١) البحر المحيط.

إلى المنكب، وهذا أشهر الروايات.

وقيل: غير ذلك، وقد تقدم في هود، أنه جعلها ثلاث طباق: السفلى للسباع، والهوامّ، والوسطى للدواب والأنعام، والعليا للإنس، والفاء في قوله: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا﴾، لترتيب[١] ما بعدها على ما قبلها، من صنع الفلك، وقيل: الفاء استئنافية؛ أي: فإذا اقترب وقت قضائنا بعذابهم، عقب تمام صنعة الفلك ﴿وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ﴾ عطف بيان لمجيء الأمر؛ أي: ونبع التنور الماء على خرق العادة؛ أي: المخبز الذي كان لآدم، فصار إلى نوح عليهما وعلى نبينا الصلاة والسلام وكان في موضع مسجد الكوفة، عن يمين الداخل من باب كندة اليوم وقيل: كان في عين وردة من الشام. أو المعنى: ونبع الماء من وجه الأرض، وظاهرها، وروي أنه قيل له عليه السلام: إذا فار الماء من التنور.. اركب أنت ومن معك، فلما نبع منه الماء، أخبرته امرأته فركبوا ﴿فَٱسۡلُكۡ فِيهَا﴾؛ أي: فأدخل في الفلك ﴿مِن كُلٍّ﴾ حيوان غير البشر، حضر في هذا الوقت، من السباع والطير وغيرهما، من كل ما يلد، أو يبيض، بخلاف ما يلد من العفونات، كالدود والبق، فلم يحمله فيها، وفي القصة[٢] أن الله تعالى حشر لنوح السباع والطير وغيرهما، فجعل يضرب بيديه في كل نوع، فتقع يده اليمنى على الذكر، واليسرى على الأنثى، فيحملهما في السفينة ﴿زَوۡجَيۡنِ﴾؛ أي: فردين مزدوجين ذكراً وأنثى؛ لكي لا ينقطع نسل ذلك الحيوان، ﴿ٱثۡنَيۡنِ﴾ تأكيد لزوجين، وقرأ حفص بتنوين كل، ﴿فزوجين﴾، مفعول به، و﴿اثنين﴾ تأكيد له؛ أي: أدخل من كل نوع زوجين، وقرأ الباقون: بغير تنوين، فـ﴿اثنين﴾ مفعول به ﴿وَأَهۡلَكَ﴾ منصوب بفعل محذوف، معطوف على ﴿فَٱسۡلُكۡ﴾ لا بالعطف[٣]، على زوجين، أو على ﴿اثنين﴾ على القراءتين؛ لأدائه إلى اختلاف المعنى، والتقدير: واسلك أهلك، والمراد: امرأته المؤمنة، وبنوه الثلاثة المؤمنون، سام أبو العرب، وحام أبو

---

(١) الشوكاني.
(٢) المراح.
(٣) الشوكاني.

السودان، ويافث أبو الترك، وتأخير الأهل[1]؛ لما فيه من ضرب تفضيل بذكر الاستثناء وغيره.

أي: وأدخل في الفلك أهل بيتك من زوجك وأولادك، أو ومن آمن معك ﴿إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ﴾ في الأزل ﴿الْقَوْلُ﴾ والقضاء بالإهلاك حالة كونه كائناً ﴿مِنْهُمْ﴾؛ أي: من أهل بيتك، وهما ولده كنعان وأمه واعلة، فإنهما كانا كافرين، أو من سائر الكفرة، وإنما جيء بعلى؛ لكون السابق ضاراً، كما جيء باللام في قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ﴾؛ لكونه نافعاً.

والمعنى: أي فإذا جاء وقت قضائنا على قومك، بعذابهم وإهلاكهم، ونبع الماء من المخبز، أو من وجه الأرض، فأدخل في السفينة من كل جنس من الحيوان فردين مزدوجين، كناقة وجمل وحصان ورمكة، وأدخل زوجتك المؤمنة، وأولادك ونساءهم، إلا من سبق عليه القول منا، بأنه هالك فيمن يهلك، فلا تحمله معك، وهو كنعان وأمه، وكانا كافرين ﴿وَلَا تُخَاطِبْنِي﴾؛ أي: ولا تكلمني يا نوح ﴿فِي﴾ شأن ﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أنفسهم بالكفر، بالدعاء لإنجائهم؛ أي: لا تسألني أن أنجي الذين كفروا بالله، من الغرق ﴿إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾ تعليل للنهي قبله؛ أي: مقضي عليهم بالإغراق بالطوفان، لا محالة لظلمهم بالإشراك، وسائر المعاصي، ومن هذا شأنه لا يشفع له، ولا يشفع فيه، كيف لا؟ وقد أمر بالحمد على النجاة منهم.. بإهلاكهم بقوله تعالى: ﴿فَإِذَا اسْتَوَيْتَ﴾ وعلوت ﴿أَنتَ وَمَن مَّعَكَ﴾ من أهلك وأتباعك ﴿عَلَى الْفُلْكِ﴾ والسفينة واطمأننت فيها، راكبين عليها.. ﴿فَقُلِ﴾ يا نوح ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾؛ أي: الشكر الكامل، والثناء الجميل، لله سبحانه، تبارك وتعالى ﴿الَّذِي نَجَّانَا﴾ معاشر المؤمنين ﴿مِنَ﴾ شر ﴿الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ وإذايتهم؛ أي: حال بيننا وبينهم، وخلصنا منهم بإغراقهم، وإنما[2] جعل سبحانه استواءهم على السفينة نجاةً من الغرق جزماً؛ لأنه قد سبق أن ذلك سبب نجاتهم من الظلمة، وسلامتهم من أن يصابوا بما أصيبوا من العذاب وإفراده بالذكر مع شركة الكل في الاستواء والنجاة.. لإظهار فضله، والإشعار بأن في دعائه وثنائه مندوحة عما عداه.

---

(١) روح البيان.

(٢) الشوكاني.

والمعنى: أي فإذا اطمأننت في السفينة أنت ومن معك، ممن حملته من أهلك وأتباعك، فقل: الحمد لله الذي نجانا من هؤلاء المشركين الظلمة، وفي هذا إيماء إلى أنه لا ينبغي المسرة بمصيبة أحد ولو عدواً إلا إذا اشتملت على دفع ضرره، أو تطهير الأرض من دنس شركه وضلاله.

قال ابن عباس: كان في السفينة ثمانون إنساناً نوح وامرأته غير التي غرقت، وثلاثة بنين: سام وحام ويافث، وثلاث نسوة لهم، واثنان وسبعون إنساناً، وكل الخلائق من نسل من كان معه في السفينة. ثم أمره أن يسأل ربه ما هو أنفع له، وأتمّ فائدةً فقال: ﴿وَقُل﴾ يا نوح، حين ركبت على السفينة، أو حين خرجت منها، واستوت على الجودي، وكان يوم عاشوراء، وابتداء ركوبه السفينة كان لعشر خلون من رجب فكان مدة مكثهم في السفينة ستة أشهر ﴿رَّبِّ أَنزِلْنِي﴾ في السفينة أو في الأرض ﴿مُنزَلًا مُّبَارَكًا﴾؛ أي: مكاناً ذا بركة وخير كثير، وهو نفس السفينة؛ لأن من ركبها خلصته من الغرق، أو وجه الأرض، وأراد بالبركة: كثرة النسل والرزق، أو كثرة الماء والأشجار فيه، قيل: أمره الله سبحانه بأن يقول هذا القول عند دخوله السفينة، وقيل: عند خروجه منها، وفي الآية، تعليم من الله لعباده، إذا ركبوا ثم نزلوا بأن يقولوا، هذا القول، والعبرة[1] بعموم اللفظ، لا بخصوص السبب، فهذا الدعاء ينبغي قراءته لكل من نزل في محل، يريد الإقامة فيه.

وقرأ الجمهور[2] ﴿منزلاً﴾ بضم الميم وفتح الزاي، فجاز أن يكون مصدراً ومكاناً؛ أي: إنزالاً مباركاً أو مكاناً مباركاً، وقرأ أبو بكر عن عاصم والمفضل وأبو حيوة وابن أبي عبلة، وأبان وزر بن حبيش ﴿منزلاً﴾ بفتح المين وكسر الزاي على أنه اسم مكان؛ أي: مكاناً مباركاً.

والمعنى: أي وقل إذا سلمت وخرجت من السفينة رب أنزلني منزلاً مباركاً، وأنت خير المنزلين؛ أي: وأنت خير من أنزل عباده المنازل في الدنيا

---

(١) الصاوي.

(٢) البحر المحيط.

والآخرة، وقد أجاب الله دعاءه، حيث قال: ﴿ٱهۡبِطۡ بِسَلَٰمٖ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيۡكَ﴾ فبارك فيهم بعد إنزالهم من السفينة، حتى كان جميع الخلق من نسل نوح ومن معه في السفينة.

والمعنى: أنه قد يكون الإنزال من غير الله، كما يكون من الله سبحانه، فحسن أن يقول: وأنت خير المنزلين؛ لأنه يحفظ من أنزله، ويكلوه في سائر أحواله، ويدفع عنه المكاره، بخلاف منزل الضيف، فإنه لا يقدر على ذلك ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ المذكور من قصة نوح، وقومه من إنجائه وإغراقهم، والخطاب فيه للرسول ﷺ ﴿لَأٓيَٰتٖ﴾؛ أي: لدلالات تدل على كمال قدرتنا، وعلامات يستدل بها، على عظيم شأننا[1]، فإن إظهار تلك المياه العظيمة، ثم الإذهاب بها، لا يقدر عليه إلا القادر على كل المقدورات، وظهور تلك الواقعة على وفق ما قال نوح عليه السلام، يدل على المعجز العظيم، وإفناء الكفار، وبقاء الأرض لأهل الدين، من أعظم أنواع العبر في الدعاء، إلى الإيمان، والزجر عن الكفر.

﴿وَإِن كُنَّا﴾؛ أي: وإن الشأن كنا ﴿لَمُبۡتَلِينَ﴾؛ أي: لمصيبين قوم نوح ببلاء عظيم، هو الطوفان، مختبرين به عبادنا فيما بعد، لننظر من يتذكر ويتعظ، أو لمختبرين لهم بإرسال نوح إليهم، ليظهر المطيع والعاصي للناس، أو للملائكة، فـ﴿إن﴾ مخففة من الثقيلة، واللام فارقة، والمعنى: وإننا كنا معاملين قوم نوح، معاملة المختبر، لننظر هل يتبعونه، ويتعظون بوعظه، أم لا وقيل: ﴿إِنَّ﴾ نافية واللام بمعنى: إلا؛ أي: وما كنا إلا مبتلين، كما في «السمين».

والمعنى: أي وقل: إذا سلمت وخرجت في السفينة: رب أنزلني من الأرض منزلاً مباركاً، وأنت خير من أنزل عباده المنازل الكريمة، في الدنيا والآخرة.

قال قتادة: علمكم الله أن تقولوا حين ركوب السفينة: ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ مَجۡرٜىٰهَا وَمُرۡسَىٰهَآۚ﴾ وحين ركوب الدابة ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقۡرِنِينَ﴾

---

(١) المراح.

وحين النزول ﴿وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِي مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٢٩﴾﴾، ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴿٣٠﴾﴾؛ أي: إن فيما فعلنا بقوم نوح، من إهلاكهم، إذ كذبوا رسولنا، وجحدوا وحدانيتنا، وعبدوا الآلهة والأصنام، لعبراً لقومك، من مشركي قريش، وحججاً لنا عليهم، يستدلون بها سنننا في أمثالهم، فينزجرون عن كفرهم، ويرتدون عن تكذيبهم، حذر أن يصيبهم مثل الذي أصاب من قبلهم، من العذاب، وقد كنا مختبريهم بالتذكير، بهذه الآيات، لننظر ماذا يفعلون، قبل أن ينزل بهم عقوبتنا، ونحو الآية قوله: ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٥﴾﴾ وقد تقدم هذا القصص بتفصيل في سورة هود عليه السلام.

الإعراب

﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ﴿٤﴾﴾.

﴿قَدْ﴾: حرف تحقيق. ﴿أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: اسم موصول للجمع المذكر في محل الرفع، صفة لـ﴿ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ ﴿هُمْ﴾: مبتدأ ﴿فِي صَلَاتِهِمْ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿خَٰشِعُونَ﴾ قدم عليه للاهتمام به، وحسنه كون متعلقه، فأصله ﴿خَٰشِعُونَ﴾: خبر المبتدأ والجملة صلة الموصول. ﴿وَٱلَّذِينَ﴾ في محل الرفع، معطوف على الموصول الأول، ﴿هُمْ﴾: مبتدأ ﴿عَنِ ٱللَّغْوِ﴾: متعلق بما بعده ﴿مُعْرِضُونَ﴾: خبر المبتدأ، والجملة صلة الموصول ﴿وَٱلَّذِينَ﴾: معطوف على الموصول الأول ﴿هُمْ﴾ مبتدأ ﴿لِلزَّكَوٰةِ﴾ متعلق بما بعده، وضمن ﴿فَٰعِلُونَ﴾ معنى مؤدون، وقيل: (اللام): زائدة في المفعول به، لتقدمه على عامله ﴿فَٰعِلُونَ﴾: خبر المبتدأ، والجملة صلة الموصول.

﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ﴾: معطوف على الموصول الأول ﴿هُمْ﴾ مبتدأ ﴿لِفُرُوجِهِمْ﴾ متعلق بما بعده ﴿حَٰفِظُونَ﴾: خبر المبتدأ والجملة صلة الموصول ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ ﴿عَلَىٰٓ﴾ حرف جر بمعنى من ﴿أَزْوَٰجِهِمْ﴾ مجرور بـ﴿عَلَىٰٓ﴾: الجار

والمجرور، متعلق بـ﴿حَٰفِظُونَ﴾. وفي «السمين» قوله: ﴿إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ﴾ فيه أربعة أوجه:

أحدها: أنه متعلق بـ﴿حَٰفِظُونَ﴾ على تضمين معنى ممسكين، أو قاصرين، وكلاهما يتعدى بـ﴿عَلَىٰٓ﴾ قال تعالى: ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ﴾.

الثاني: أن ﴿على﴾، بمعنى من؛ أي: إلا من أزواجهم، فـ﴿على﴾ بمعنى: من، كما جاءت ﴿من﴾، بمعنى: على في قوله: ﴿وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ﴾. وإليه ذهب الفراء.

الثالث: أن يكون في موضع نصب على الحال، قال الزمخشري؛ أي: إلا والين أو قوامين عليهم من قولك: كان فلان على فلانة، فمات عنها، فخلف عليها فلان، ونظيره كان زياد على البصرة؛ أي: والياً عليها، ومنه قولهم: فلانة تحت فلان، ومن ثم سميت المرأة فراشاً.

الرابع: أن يتعلق بمحذوف، يدل عليه، غير ملومين، قال الزمخشري: وكأنه قيل يلامون إلا على أزواجهم؛ أي: يلامون على كل مباشرة إلا على ما أحل لهم، فإنهم غير ملومين عليه اهـ. ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ﴾ ﴿أَوْ﴾: حرف عطف. ﴿مَا﴾: اسم موصول، في محل الجر، معطوف على ﴿أَزْوَٰجِهِمْ﴾ وعبر بما دون من، وإن كان المقام لمن، لنقصهن بالأنوثة، وشبههن بالبهائم في حل البيع مثلاً اهـ «شيخنا». ﴿مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول، والعائد محذوف، تقديره: وما ملكته أيمانهم ﴿فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾: ﴿الفاء﴾: تعليلية، مسوقة لتعليل الاستثناء. ﴿إنهم﴾: ناصب واسمه ﴿غَيْرُ مَلُومِينَ﴾: خبره، وجملة ﴿إن﴾ من اسمها وخبرها، في محل الجر بلام التعليل المقدرة، المدلول عليها بالفاء التعليلية.

﴿فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١﴾﴾.

﴿فَمَنِ﴾: ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفت أنهم غير ملومين في ذلك، وأردت بيان حكم ما وراء ذلك.. فأقول لك: ﴿من ابتغى﴾ ﴿من﴾: اسم شرط جازم في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الشرط، أو الجواب أو هما ﴿ٱبْتَغَىٰ﴾: فعل ماض، في محل الجزم بـ﴿مَن﴾ على كونه فعل شرط لها، وفاعله ضمير يعود على ﴿من﴾ ﴿وَرَآءَ ذَٰلِكَ﴾: ظرف ومضاف إليه، متعلق بمحذوف صفة لمفعول ﴿ٱبْتَغَىٰ﴾ المحذوف، تقديره: فمن ابتغى شيئاً، كائناً وراء ذلك ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب الشرط وجوباً. ﴿أولئك﴾: مبتدأ ﴿هُمُ﴾: ضمير فصل ﴿ٱلْعَادُونَ﴾: خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل الجزم بـ﴿من﴾ الشرطية على كونها جواباً لها، وجملة ﴿من﴾ الشرطية في محل النصب، مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة، أو معترضة لاعتراضها بين المعطوف والمعطوف عليه. ﴿وَٱلَّذِينَ﴾: في محل الرفع، معطوف على الموصول الأول ﴿هم﴾ مبتدأ ﴿لِأَمَٰنَٰتِهِمْ﴾ متعلق بـ﴿رَٰعُونَ﴾، ﴿وَعَهْدِهِمْ﴾: معطوف على ﴿أماناتهم﴾ ﴿رَٰعُونَ﴾: خبر المبتدأ، والجملة الاسمية صلة الموصول ﴿وَٱلَّذِينَ﴾: معطوف على الموصول الأول ﴿هُمْ﴾: مبتدأ ﴿عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ﴾: متعلق بما بعده ﴿يُحَافِظُونَ﴾: فعل وفاعل خبر المبتدأ، والجملة الاسمية صلة الموصول ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾: مبتدأ ﴿هُمُ﴾ ضمير فصل ﴿ٱلْوَٰرِثُونَ﴾: خبر المبتدأ، والجملة الاسمية مستأنفة استئنافاً بيانياً ﴿ٱلَّذِينَ﴾ صفة لـ﴿ٱلْوَٰرِثُونَ﴾ أو خبر ثان للمبتدأ ﴿يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة صلة الموصول ﴿هُمْ﴾: مبتدأ ﴿فِيهَا﴾ متعلق بـ﴿خَٰلِدُونَ﴾ وهو خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل النصب حال من فاعل ﴿يَرِثُونَ﴾.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تُبْعَثُونَ ﴿١٦﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية، واللام: وموطئة للقسم ﴿قد﴾: حرف تحقيق

﴿خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ﴾: فعل وفاعل ومفعول. ﴿مِن سُلَٰلَةٍ﴾: متعلق بـ﴿خَلَقْنَا﴾ ﴿مِّن طِينٍ﴾: متعلق بمحذوف صفة لـ﴿سُلَٰلَةٍ﴾، أو متعلق بـ﴿سُلَٰلَةٍ﴾ لأنها بمعنى مسلولة، والجملة الفعلية جواب القسم، لا محل لها من الإعراب، وجملة القسم مستأنفة ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف وتراخ ﴿جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً﴾: فعل وفاعل ومفعولان معطوف على ﴿خَلَقْنَا﴾ ﴿فِى قَرَارٍ﴾: جار ومجرور صفة لـ﴿نُطْفَةً﴾، ﴿مَّكِينٍ﴾: صفة لـ﴿قَرَارٍ﴾. ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف وتراخ ﴿خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ﴾: فعل وفاعل ومفعول أول ﴿عَلَقَةً﴾: مفعول ثان، والجملة معطوفة على جملة ﴿جَعَلْنَٰهُ﴾، ﴿فَخَلَقْنَا﴾ ﴿الفاء﴾: حرف عطف وتعقيب. ﴿خلقنا العلقة مضغة﴾: فعل وفاعل ومفعولان، معطوف على ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً﴾. ﴿فَخَلَقْنَا﴾: ﴿الفاء﴾: حرف عطف وتعقيب ﴿خلقنا المضغة عظاماً﴾: فعل وفاعل ومفعولان، معطوف على ﴿فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً﴾، ﴿فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ﴾: ﴿الفاء﴾: حرف عطف وتعقيب ﴿كسونا العظام لحماً﴾: فعل وفاعل ومفعولان معطوف على ﴿فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا﴾، ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ﴾: ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف وتراخ. ﴿أَنشَأْنَٰهُ﴾: فعل وفاعل ومفعول أول، معطوف على ﴿فَكَسَوْنَا﴾، ﴿خَلْقًا﴾: حال من المفعول في ﴿أَنشَأْنَٰهُ﴾ ﴿ءَاخَرَ﴾: صفة لـ﴿خَلْقًا﴾ ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ﴾: ﴿الفاء﴾: استئنافية ﴿تبارك الله﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة معترضة ﴿أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾: بدل من الجلالة، ومضاف إليه، وليس بصفة لها؛ لأنها نكرة، وتمييز أحسن محذوف، للعلم به، تقديره: خلقاً. ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف وتراخ. ﴿إِنَّكُم﴾: ناصب واسمه. ﴿بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾: ظرف ومضاف إليه، متعلق بـ﴿ميتون﴾ أو حال من كاف المخاطبين ﴿لَمَيِّتُونَ﴾: (اللام): حرف ابتداء. ﴿ميتون﴾: خبر ﴿إن﴾ مرفوع بالواو، وجملة ﴿إن﴾: معطوفة على جملة ﴿أَنشَأْنَٰهُ﴾: عطف إسمية على فعلية، وما بينهما اعتراض ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف ﴿إِنَّكُمْ﴾: ناصب واسمه. ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾: ظرف متعلق بـ﴿تُبْعَثُونَ﴾. ﴿تُبْعَثُونَ﴾: فعل ونائب فاعل، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿إن﴾، وجملة ﴿إن﴾ معطوفة على جملة ﴿إن﴾ الأولى.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ ﴿١٧﴾﴾.

﴿وَلَقَدۡ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية، و(اللام): موطئة للقسم. ﴿قد﴾: حرف تحقيق ﴿خَلَقۡنَا﴾: فعل وفاعل ﴿فَوۡقَكُمۡ﴾: ظرف مكان، ومضاف إليه، متعلق بـ﴿خَلَقۡنَا﴾. ﴿سَبۡعَ طَرَآئِقَ﴾: مفعول به، ومضاف إليه، والجملة الفعلية جواب القسم، وجملة القسم مستأنفة، مسوقة لذكر خلق السماوات التي تعلو الإنسان، بعد ذكر خلقه ﴿وَمَا﴾: ﴿الواو﴾: حالية. ﴿ما﴾: نافية ﴿كُنَّا﴾: فعل ناقص، واسمه ﴿عَنِ ٱلۡخَلۡقِ﴾: متعلق بما بعده ﴿غَٰفِلِينَ﴾: خبر كان. والجملة في محل النصب من فاعل ﴿خَلَقۡنَا﴾.

﴿وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءَۢ بِقَدَرٖ فَأَسۡكَنَّٰهُ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابِۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ ١٨ فَأَنشَأۡنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٖ مِّن نَّخِيلٖ وَأَعۡنَٰبٖ لَّكُمۡ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٞ وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ ١٩﴾.

﴿وَأَنزَلۡنَا﴾: فعل وفاعل. ﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾: متعلق بـ﴿أنزلنا﴾ والجملة معطوفة على ﴿خَلَقۡنَا﴾. ﴿مَآءَۢ﴾ مفعول به. ﴿بِقَدَرٖ﴾: جار ومجرور، صفة لـ﴿مَآءَۢ﴾ أي: ماء ملتبساً بقدر معلوم، يسلمون معه من المضرة ويصلون إلى المنفعة ﴿فَأَسۡكَنَّٰهُ﴾. ﴿الفاء﴾: عاطفة. ﴿أسكناه﴾: فعل وفاعل ومفعول، معطوف على ﴿أنزلنا﴾ ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾: جار ومجرور، متعلق بـ﴿أسكنا﴾، ﴿وَإِنَّا﴾: ﴿الواو﴾: حالية ﴿إنا﴾: ناصب واسمه ﴿عَلَىٰ ذَهَابِۭ﴾: جار ومجرور، متعلق بـ﴿قادرون﴾ قدم عليه؛ لرعاية الفاصلة ﴿به﴾ متعلق بـ﴿ذَهَابِۭ﴾ ﴿لَقَٰدِرُونَ﴾ خبر ﴿إن﴾، و(اللام): حرف ابتداء، وجملة ﴿إن﴾ في محل النصب، حال من فاعل ﴿أسكناه﴾، ﴿فَأَنشَأۡنَا﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة. ﴿أنشأنا﴾: فعل وفاعل. ﴿لَكُمۡ﴾: متعلق بـ﴿أنشأنا﴾. ﴿بِهِۦ﴾: متعلق بـ﴿أنشأنا﴾ أيضاً ﴿جَنَّٰتٖ﴾: مفعول به، والجملة معطوفة على جملة ﴿أسكناه﴾. ﴿مِّن نَّخِيلٖ﴾: جار ومجرور صفة لـ﴿جَنَّٰتٖ﴾. ﴿وَأَعۡنَٰبٖ﴾: معطوف على ﴿نَّخِيلٖ﴾. ﴿لَّكُمۡ﴾: جار ومجرور، خبر مقدم ﴿فِيهَا﴾: جار ومجرور حال من ضمير المخاطبين ﴿فَوَٰكِهُ﴾: مبتدأ مؤخر ﴿كَثِيرَةٞ﴾: صفة لـ﴿فَوَٰكِهُ﴾ والجملة الاسمية في محل النصب، صفة ثانية لـ﴿جَنَّٰتٖ﴾ أو حال منها، لوصفها بالجار والمجرور. ﴿وَمِنۡهَا﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿منها﴾: متعلق بـ﴿تَأۡكُلُونَ﴾. ﴿تَأۡكُلُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة الفعلية في محل النصب، معطوفة على جملة

قوله: ﴿لَكُمْ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ﴾.

﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْأَكِلِينَ (٢٠) وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (٢١) وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ (٢٢)﴾.

﴿وَشَجَرَةً﴾: معطوف على ﴿جَنَّٰتٍ﴾. ﴿تَخْرُجُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على ﴿شجرة﴾، والجملة في محل النصب، صفة لـ﴿شجرة﴾. ﴿مِن﴾: حرف جر ﴿طُورِ﴾: مجرور ومضاف. ﴿سَيْنَآءَ﴾: مضاف إليه، مجرور بالفتحة، ممنوع من الصرف، للعلمية والتأنيث المعنوي؛ لأنه بمعنى البقعة، وألفه ليست للتأنيث، بل للإلحاق بقرطاس ﴿تَنۢبُتُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على شجرة، والجملة في محل النصب صفة ثانية، لـ﴿شجرة﴾. ﴿بِٱلدُّهْنِ﴾: جار ومجرور في محل النصب، حال من فاعل ﴿تَخْرُجُ﴾؛ أي: حالة كونها ملتبسة بالدهن، ومصحوبةً به، والدهن: عصارة كل شيء ذي دسم، ﴿وَصِبْغٍ﴾ معطوف على ﴿الدهن﴾، جار على إعرابه، عطف أحد وصفي الشيء على الآخر؛ أي: تنبت بالشيء الجامع بين كونه دهناً يدهن به، ويسرج منه، وكونه إداماً يصبغ به الخبز، أي يغمس فيه للائتدام به ﴿لِّلْأَكِلِينَ﴾: جار ومجرور صفة لـ﴿صبغ﴾. ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿إن﴾: حرف نصب ﴿لَكُمْ﴾: جار ومجرور، وخبر مقدم لـ﴿إن﴾ ﴿فِى ٱلْأَنْعَٰمِ﴾: حال من عبرة، لأنه صفة نكرة، قدمت عليها ﴿لَعِبْرَةً﴾. (اللام): حرف ابتداء. ﴿عبرة﴾: اسم إن مؤخر وجملة إن معطوفة على جملة قوله: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾. ﴿نُّسْقِيكُم﴾: فعل ومفعول وفاعل مستتر، يعود على ﴿الله﴾. ﴿مِّمَّا﴾: جار ومجرور، متعلق بـ﴿نُّسْقِيكُم﴾. والجملة الفعلية، جملة مفسرة لعبرة، أو مستأنفة لا محل لها من الإعراب. ﴿فِى بُطُونِهَا﴾: جار ومجرور صلة لـ﴿ما﴾ أو صفة لها ﴿وَلَكُمْ﴾: جار ومجرور، خبر مقدم ﴿فِيهَا﴾: جار ومجرور حال من ﴿مَنَٰفِعُ﴾ لأنه صفة نكرة قدمت عليها. ﴿مَنَٰفِعُ﴾: مبتدأ مؤخر ﴿كَثِيرَةٌ﴾ صفة له، والجملة الاسمية معطوفة على جملة ﴿نُّسْقِيكُم﴾. ﴿وَمِنْهَا﴾: متعلق بـ﴿تَأْكُلُونَ﴾. ﴿تَأْكُلُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة معطوفة على

جملة ﴿نُّسْقِيكُم﴾. ﴿وَعَلَيْهَا﴾. ﴿الواو﴾: عاطفة ﴿عليها﴾، متعلق بـ﴿تُحْمَلُونَ﴾. ﴿وَعَلَى الْفُلْكِ﴾: جار ومجرور معطوف على الجار والمجرور قبله ﴿تُحْمَلُونَ﴾: فعل ونائب فاعل معطوف على ﴿نُّسْقِيكُم﴾.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية. (اللام): موطئة للقسم. ﴿قد﴾: حرف تحقيق. ﴿أَرْسَلْنَا نُوحًا﴾: فعل وفاعل ومفعول ﴿إِلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ متعلق بـ﴿أَرْسَلْنَا﴾، والجملة الفعلية جواب القسم وجملة القسم مستأنفة مسوقة لسرد خمس قصص، أولها: قصة نوح، ﴿فَقَالَ﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة. ﴿قال﴾: فعل ماض وفاعله ضمير يعود على ﴿نُوحًا﴾، والجملة معطوفة على جملة ﴿أَرْسَلْنَا﴾. ﴿يَٰقَوْمِ﴾: إلى آخر الآية، مقول محكي لـ﴿قال﴾، وإن شئت قلت: ﴿يَٰقَوْمِ﴾: منادى مضاف، وجملة النداء في محل النصب، مقول ﴿قال﴾. ﴿ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ﴾: فعل وفاعل ومفعول به، والجملة في محل النصب مقول ﴿قال﴾ على كونها جواب النداء ﴿مَا﴾: نافية. ﴿لَكُم﴾: خبر مقدم. ﴿مِّنْ﴾: زائدة. ﴿إِلَٰهٍ﴾: مبتدأ مؤخر، مرفوع محلاً ﴿غَيْرُهُۥٓ﴾: صفة لـ﴿إِلَٰهٍ﴾ على المحل، وقرىء بالجر على اللفظ، وهو جائز والجملة الاسمية في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾ مسوقة لتعليل الأمر بالعبادة. ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾: (الهمزة): للاستفهام الإنكاري لإنكار الواقع منهم، داخلة على محذوف، و﴿الفاء﴾: عاطفة على ذلك المحذوف، والتقدير: ألا تعرفون عدم إله غير الله لكم، ﴿لا﴾: نافية. ﴿تَتَّقُونَ﴾: فعل وفاعل ومفعوله محذوف تقديره: عذابه، والجملة الفعلية معطوفة على ذلك المحذوف، والتقدير: ألا تعرفون ذلك فلا تتقون عذابه، والجملة المحذوفة، في محل النصب مقول ﴿قال﴾.

﴿فَقَالَ ٱلْمَلَؤُاْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾.

﴿فَقَالَ﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة. ﴿قال الملأ﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿فَقَالَ يَٰقَوْمِ﴾. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: صفة للملأ ﴿كَفَرُواْ﴾: صلة الموصول ﴿مِن قَوْمِهِۦ﴾: جار ومجرور، حال من فاعل ﴿كَفَرُواْ﴾. ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ﴾ إلى قوله: ﴿قَالَ رَبِّ

﴿أَنصُرْنِي﴾: مقول محكي وإن شئت قلت: ﴿مَا﴾: نافية. ﴿هَٰذَآ﴾: مبتدأ ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ ﴿بَشَرٌ﴾: خبر ﴿مِّثْلُكُمْ﴾: صفة أولى لـ﴿بَشَرٌ﴾، والجملة الاسمية في محل النصب مقول ﴿قال﴾.

﴿يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ﴾.

﴿يُرِيدُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على ﴿بَشَرٌ﴾، والجملة في محل الرفع صفة ثانية لـ﴿بَشَرٌ﴾. ﴿أَن﴾: حرف نصب ﴿يَتَفَضَّلَ﴾: فعل مضارع، منصوب بـ﴿أن﴾ المصدرية ﴿عَلَيْكُمْ﴾: متعلق به، وفاعله ضمير يعود على ﴿بَشَرٌ﴾، والجملة في تأويل مصدر منصوب على المفعولية، تقديره: يريد تفضله عليكم ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ﴾. ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿لو﴾: حرف شرط ﴿شَآءَ ٱللَّهُ﴾: فعل وفاعل، الجملة فعل شرط لـ﴿لو﴾. ﴿لَأَنزَلَ﴾: (اللام): رابطة لجواب ﴿لو﴾ ﴿أنزل﴾: فعل وفاعل مستتر يعود على ﴿ٱللَّهُ﴾ ﴿مَلَٰٓئِكَةً﴾: مفعول به، والجملة جواب ﴿لو﴾ الشرطية وجملة ﴿لو﴾ الشرطية في محل النصب مقول ﴿قال﴾ على كونها مستأنفة ﴿مَّا﴾: نافية ﴿سَمِعْنَا﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل النصب مقول ﴿قال﴾. ﴿بِهَٰذَا﴾: جار ومجرور، متعلق بـ﴿سَمِعْنَا﴾. ﴿فِىٓ ءَابَآئِنَا﴾ متعلق بـ﴿سَمِعْنَا﴾. أيضاً، أو حال من اسم الإشارة، ﴿ٱلْأَوَّلِينَ﴾: صفة لـ﴿ءَابَآئِنَا﴾.

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا۟ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٢٦﴾﴾.

﴿إِنْ﴾: نافية. ﴿هُوَ﴾: مبتدأ. ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ. ﴿رَجُلٌ﴾: خبره، والجملة في محل النصب مقول ﴿قال﴾. ﴿بِهِۦ﴾: جار ومجرور، خبر مقدم ﴿جِنَّةٌ﴾ مبتدأ مؤخر، والجملة في محل الرفع، صفة لـ﴿رَجُلٌ﴾. ﴿فَتَرَبَّصُوا۟﴾: ﴿الفاء﴾ فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفتم حقيقته المذكورة لكم، من أنه بشر مثلكم، ورجل به جنة، وأردتم بيان ما هو الأصلح لكم.. فأقول لكم: ﴿تربصوا﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة في محل

النصب مقول ﴿قال﴾. ﴿بِهِۦ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿تربصوا﴾. ﴿حَتَّىٰ حِينٍ﴾: جار ومجرور، متعلق به أيضاً. ﴿قَالَ﴾: فعل وفاعل مستتر، يعود على نوح، والجملة مستأنفة ﴿رَبِّ ٱنصُرۡنِى﴾: إلى آخر الآية مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿رَبِّ﴾: منادى مضاف، وجملة النداء في محل النصب مقول قال: ﴿ٱنصُرۡنِى﴾: فعل وفاعل مستتر، ونون وقاية، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿بِمَا﴾: (الباء): حرف جر. ﴿ما﴾: مصدرية ﴿كَذَّبُونِ﴾: فعل وفاعل ونون وقاية وياء المتكلم المحذوفة، اجتزاءً عنها بكسرة نون الوقاية، في محل النصب مفعول به، والجملة الفعلية صلة ﴿ما﴾ المصدرية. ﴿ما﴾ مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بالباء السببية، الجار والمجرور متعلق بـ﴿ٱنصُرۡنِى﴾ والتقدير: انصرني بسبب تكذيبهم إياي.

﴿فَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِ أَنِ ٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ بِأَعۡيُنِنَا وَوَحۡيِنَا﴾.

﴿فَأَوۡحَيۡنَآ﴾ ﴿الفاء﴾: استئنافية، كما قيل، أو فصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفت ما قالوا. وقال نوح، وأردت بيان أمره، وأمرهم.. فأقول لك: ﴿أوحينا﴾. ﴿أوحينا﴾: فعل وفاعل ومضاف ﴿إِلَيۡهِ﴾ متعلق به، والجملة الفعلية في محل النصب، مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة، ﴿أَنِ﴾: مفسرة لوقوعها بعد جملة فيها معنى القول، دون حروفه، وهو ﴿أوحينا﴾. ﴿ٱصۡنَعِ﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على ﴿نُوحًا﴾. ﴿ٱلۡفُلۡكَ﴾: مفعول به، والجملة الفعلية جملة مفسرة، لا محل لها من الإعراب ﴿بِأَعۡيُنِنَا﴾: جار ومجرور، ومضاف إليه، حال من الضمير المستتر في ﴿ٱصۡنَعِ﴾، تقديره: حالة كونك ملتبساً بأعيننا. ﴿وَوَحۡيِنَا﴾: معطوف على ﴿أعيننا﴾.

﴿فَإِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ فَٱسۡلُكۡ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَأَهۡلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيۡهِ ٱلۡقَوۡلُ مِنۡهُمۡ وَلَا تُخَٰطِبۡنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغۡرَقُونَ﴾.

﴿فَإِذَا﴾ ﴿الفاء﴾: استئنافية، أو فصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا امتثلت أمرنا، وصنعت الفلك، وأردت بيان عاقبة أمرها.. فأقول لك: ﴿إذا جاء أمرنا﴾: ﴿إذا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان. ﴿جَآءَ أَمۡرُنَا﴾: فعل

وفاعل، والجملة الفعلية في محل الخفض فعل شرط لـ﴿إذا﴾، والظرف متعلق بالجواب، ﴿وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ﴾: فعل وفاعل، معطوف على ﴿جَآءَ أَمْرُنَا﴾ عطف بيان على مبين ﴿فَٱسْلُكْ﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿إذا﴾ وجوباً. ﴿اسلك﴾: فعل أمر، وفاعل مستتر يعود على ﴿نُوحًا﴾. ﴿فِيهَا﴾: متعلق به. ﴿مِن كُلٍّ﴾: جار ومجرور، حال من ﴿زَوْجَيْنِ﴾ أو من ﴿ٱثْنَيْنِ﴾؛ لأنه صفة نكرة قدمت عليها، والجملة الفعلية جواب ﴿إذا﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿إذا﴾ في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة، ﴿زَوْجَيْنِ﴾: مفعول به لـ﴿فَٱسْلُكْ﴾. ﴿ٱثْنَيْنِ﴾: صفة مؤكدة له. ﴿وَأَهْلَكَ﴾: مفعول لفعل محذوف، معطوف على ﴿فَٱسْلُكْ﴾ تقديره: واسلك فيها أهلك، كما مر في مبحث التفسير مع علته. ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء. ﴿مَن﴾: اسم موصول، في محل النصب على الاستثناء المتصل. ﴿سَبَقَ﴾: فعل ماض. ﴿عَلَيْهِ﴾: متعلق بـ﴿سَبَقَ﴾. ﴿ٱلْقَوْلُ﴾: فاعل، والجملة الفعلية صلة الموصول. ﴿وَلَا تُخَٰطِبْنِى﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿لا﴾: ناهية، ﴿تُخَٰطِبْنِى﴾ فعل وفاعل مستتر، ونون وقاية، ومفعول به مجزوم بـ﴿لا﴾ الناهية، والجملة الفعلية معطوفة على جملة ﴿فَٱسْلُكْ﴾. ﴿فِى ٱلَّذِينَ﴾: متعلق بـ﴿تُخَٰطِبْنِى﴾. ﴿ظَلَمُوٓا۟﴾ فعل وفاعل، صلة الموصول. ﴿إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾: ناصب واسمه وخبره، وجملة ﴿إن﴾: مستأنفة، مسوقة لتعليل النهي قبلها.

﴿فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٨﴾﴾.

﴿فَإِذَا﴾: ﴿الفاء﴾: استئنافية أو فصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، وتقديره: إذا عرفت ما أمرتك به، وأردت بيان ما هو اللازم لك.. فأقول لك: ﴿إذا استويت﴾: ﴿إذا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان. ﴿ٱسْتَوَيْتَ﴾: فعل وفاعل فعل شرط لـ﴿إذا﴾. ﴿أَنتَ﴾: تأكيد للتاء. ﴿وَمَن﴾: معطوف على التاء. ﴿مَّعَكَ﴾: ظرف ومضاف إليه، صلة الموصول ﴿عَلَى ٱلْفُلْكِ﴾: متعلق بـ﴿ٱسْتَوَيْتَ﴾. ﴿فَقُلِ﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿إذا﴾ الشرطية وجوباً ﴿قل﴾: فعل أمر، وفاعل مستتر جواب ﴿إذا﴾ الشرطية، وجملة ﴿إذا﴾: في محل النصب مقول

لجواب إذا المقدرة وجملة ﴿إذا﴾ المقدرة مستأنفة. ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ إلى آخر الآية: مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾: متبدأ وخبر، والجملة في محل النصب مقول ﴿قل﴾. ﴿ٱلَّذِى﴾: صفة للجلالة. ﴿نَجَّىٰنَا﴾: فعل وفاعل مستتر مفعول به، والجملة الفعلية صلة الموصول. ﴿مِنَ ٱلْقَوْمِ﴾: متعلق بـ﴿نَجَّىٰنَا﴾. ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾: صفة لـ﴿ٱلْقَوْمِ﴾.

﴿وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٢٩﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴿٣٠﴾﴾.

﴿وَقُل﴾: فعل أمر، وفاعل مستتر معطوف على ﴿قل﴾ الأول. ﴿رَّبِّ﴾ إلى آخر الآية: مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿رَّبِّ﴾: منادى مضاف، وجملة النداء في محل النصب مقول ﴿قل﴾. ﴿أَنزِلْنِى﴾: فعل دعاء، وفاعل مستتر، ونون وقاية، ومفعول به أول. ﴿مُنزَلًا﴾: اسم مكان، أو مصدر مفعول ثان، والجملة الفعلية في محل النصب مقول ﴿قل﴾ على كونها جواب النداء ﴿مُّبَارَكًا﴾: صفة لـ﴿مُنزَلًا﴾. ﴿وَأَنتَ خَيْرُ﴾: مبتدأ وخبر ﴿ٱلْمُنزِلِينَ﴾: مضاف إليه، والجملة في محل النصب حال من فاعل ﴿أَنزِلْنِى﴾. ﴿إِنَّ﴾: حرف نصب. ﴿فِى ذَٰلِكَ﴾: جار ومجرور خبر مقدم، لـ﴿إِنَّ﴾. ﴿لَءَايَٰتٍ﴾: (اللام): حرف ابتداء. ﴿آيات﴾: اسم ﴿إِنَّ﴾ مؤخر، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مسأتفة. ﴿وَإِن﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿إن﴾: مخففة من الثقيلة واسمها ضمير الشأن، ﴿كُنَّا﴾: فعل ناقص واسمه. ﴿لَمُبْتَلِينَ﴾: (اللام): حرف ابتداء. ﴿مبتلين﴾ خبر ﴿كان﴾، وجملة ﴿كان﴾ في محل الرفع خبر ﴿إن﴾ المخففة وجملة ﴿إن﴾ المخففة معطوفة على جملة ﴿إِنَّ﴾ الأولى.

التصريف ومفردات اللغة

﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾﴾ وكلمة ﴿قَدْ﴾ هنا لإفادة ثبوت ما كان متوقع الثبوت من قبل لأن المؤمنون كانوا متوقعين ذلك الفلاح من فضل الله، والفلاح: البقاء، والفوز بالمراد، والنجاة من المكروه، والإفلاح: الدخول في ذلك، كالإبشار الذي هو الدخول في البشارة، وقد يجيء متعدياً بمعنى الإدخال فيه، وعليه قراءة من قرأ على البناء للمفعول. اهـ. «روح». و﴿ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾: جمع مؤمن،

والمؤمن: هو المصدق، بما جاء عن ربه على لسان نبيه، من التوحيد والنبوة والبعث والجزاء، ﴿خَٰشِعُونَ﴾ جمع خاشع. والخاشع: هو الخاضع المتذلل، مع خوف وسكون للجوارح.

وقال في «المفردات»: الخشوع: الضراعة، وأكثر ما يستعمل فيما يوجد على الجوارح، والضراعة أكثر ما تستعمل فيما يوجد على القلب، ولذلك قيل فيما ورد: إذا ضرع القلب خشعت الجوارح.

﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣﴾ وفي «المفردات» اللغو من الكلام ما لا يعتد به، وهو الذي يورد لا عن روية وفكر، ويجري مجرى اللغا، وهو صوت العصافير ونحوها، من الطيور. ا هـ. وفي «التأويلات النجمية» اللغو: كل فعل لا لله، وكل قول لا من الله، ورؤية غير الله، وكل ما يشغلك عن الله، فهو لغو. ا هـ. ويقال: أعرض أظهر عرضه؛ أي: ناحيته، فإذا قيل: عرض لي كذا؛ أي: بدا عرضه فأمكن تناوله، وإذا قيل: أعرض، فمعناه ولى مبدياً عرضه؛ أي: معرضوه عن اللغو في عامة أوقاتهم.

﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ۝٤﴾ والزكاة: تزكية النفس وطهارتها، بفعل العبادة المالية، ضمن فاعلون معنى مؤدون، إذ لا يصح فعل الأعيان، التي هي القدر المخرج من المزكي للمستحقين، ويصح حمل الزكاة على المصدر، الذي هو التزكية، فيصح نسبة الفعل إليها، من غير تضمين. ا هـ. من «البحر» ﴿لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ﴾ والفروج: جمع فرج، والفرج: سوءة الرجل والمرأة، وحفظه التعفف عن الحرام، وفي كتب اللغة: الفرج والفرجة: الشق بين الشيئين، كفرجة الحائط، والفرج ما بين الرجلين، وكنى به عن السوءة وكثر حتى صار كالصريح. ﴿ٱبْتَغَىٰ﴾؛ أي: طلب ﴿وَرَآءَ ذَٰلِكَ﴾؛ أي: غير ذلك ﴿ٱلْعَادُونَ﴾؛ أي: المتناهون في العدوان، ومجاوزة الحدود الشرعية، وفي «الروح» العدوان: الإخلال بالعدالة، والاعتداء. مجاوزة الحق.

﴿لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ﴾ والأمانات: جمع أمانة، والأمانة: هي ما ائتمن المرء عليه من قبل الله تعالى، كالتكاليف الشرعية، أو من قبل الناس، كالأموال

المودعة لديه، والنذور والعقود ونحوها، والعهد ما عقده الإنسان على نفسه مما يقربه إلى ربه، وما أمر به الله، كما قال ﴿ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيۡنَآ﴾. ﴿رَٰعُونَ﴾: جمع راعٍ من الرعي، وهو الحفظ، والراعي: القائم على الشيء لحفظه وإصلاحه. ﴿يُحَافِظُونَ﴾؛ أي: يواظبون عليها بشرائطها وآدابها كما مر.

﴿هُمُ ٱلۡوَٰرِثُونَ﴾: جمع وارث، والوراثة: انتقال المال إليك من غيرك، من غير عقد، ولا ما يجري مجرى العقد، وسمي بذلك المنتقل عن الميت، فيقال للمال: المورث ميراث. ا هـ. «روح».

والفردوس: اسم لأعلى طبقات الجنة، وهو في الأصل: البستان الجامع، لجميع أصناف الثمر، هم فيها ﴿خَٰلِدُونَ﴾: جمع خالد، والخلود: تبري الشيء من اعتراض الفساد، وبقاؤه على الحالة التي هو عليها، والخلود في الجنة، بقاء الأشياء على الحالة التي هي عليها من غير اعتراض الكون، والفساد عليها.

﴿مِن سُلَٰلَةٍ﴾ والسلالة: كل ما سل عن الشيء، واستخرج منه، يقال: سل الشيء من الشيء، إذا نزع كسل السيف من الغمد، وسل الشيء من البيت على سبيل السرقة، وسل الولد من الأب، ومنه قيل للولد: سليل، فالسلالة: اسم ما سل من الشيء، واستخرج منه، فإن فعالة اسم لما يحصل من الفعل، فتارةً تكون مقصودة كخلاصات الأشياء، كالزبد من اللبن، وأخرى غير مقصودة، كقلامة الظفر، وكناسة البيت. والسلالة هنا: من القبيل الأول، فإنها مقصودة ما يسل.

﴿مِّن طِينٍ﴾. والطين: التراب والماء المختلط به. ﴿نُطۡفَةً﴾ والنطفة: الماء الصافي، ويعبر بها عن ماء الرجل ﴿فِي قَرَارٍ﴾؛ أي: مستقر، وهو الرحم، عبر عنها بالقرار، الذي هو المصدر مبالغة. ﴿مَّكِينٍ﴾؛ أي: متمكن أو حصين، وهو وصف لها، بصفة ما استقر فيها، مثل طريق سائر. ﴿عَلَقَةً﴾: قال الراغب: العلق الدم الجامد، ومنه العلقة التي يكون منها الولد. ﴿مُضۡغَةً﴾ والمضغة: قطعة لحم قدر ما يمضغ. ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ﴾ تزايد بره وإحسانه، وتعالى شأنه وعلمه، وتقدمت ذاته وصفاته ﴿سَبۡعَ طَرَآئِقَ﴾: الطرائق: السماوات، جمع طريقة، بمعنى مطروقة؛ أي: مطروق بعضها فوق بعض، من قولهم طارق بين ثوبين، إذا ألبس

ثوباً فوق ثوب، أو من طرق النعل، إذا وضع طاقاته بعضها فوق بعض، قيل: فعلى هذا لا تكون سماء الدنيا من الطرائق، إذ لا سماء تحتها، فجعلها منها من باب التغليب، ولا يخفى أن المعنى وضع طاقاً فوق طاق مساوياً له، فيندرج ما تحت الكل لكون مطارقاً؛ أي: له نسبه، ونتلو بالمطارقة فلا حاجة إلى التغليب. ا هـ. «شهاب».

﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ﴾؛ أي: من السحاب ﴿ماء﴾؛ أي: عذباً، وإلا، فالأجاج ثابت في الأرض مع القحط، والعذب يقل مع القحط ﴿وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِۦ﴾ الذهاب مصدر ذهب، والباء في به، للتعدية، مرادفة للهمزة؛ أي: لقادرون على إذهابه، وإزالته، والإذهاب إما بالإفساد، وإما بالتصديع، وإما بالتعميق والتغوير في الأرض.

﴿مِّن نَّخِيلٍ﴾ قال في «المفردات»: النخيل معروف، ويستعمل في الواحد، والجمع، وجمعه نخيل. ﴿وَأَعْنَٰبٍ﴾: جمع عنب، قال في «المفردات»: العنب يقال: الثمرة الكرم، وللكرم نفسه، الواحدة عنبة، انتهى.

﴿فَوَٰكِهُ﴾: قال في «المفردات» الفاكهة، قيل: هي الثمار كلها، وقيل: بل هي الثمار، ما عدا العنب والرمان، وقائل هذا كأنه نظر إلى اختصاصهما بالذكر، وعطفهما على الفاكهة، انتهى.

﴿وَشَجَرَةً﴾: وفي «المفردات» الشجرة من النبت ما له ساق، يقال: شجرة وشجر، ونحو ثمرة وثمر. ﴿طُورِ سَيْنَآءَ﴾: وطور سنين، قال الزمخشري: لا يخلو، إما أن يضاف فيه الطور إلى بقعة اسمها سيناء وسينون، وإما أن يكون إسماً للجبل مركباً من مضاف ومضاف إليه، كامرىء القيس، وكبعلبك فيمن أضاف، فمن كسر سين سيناء، فقد منع من الصرف، للتعريف والعجمة، أو التأنيث؛ لأنها بقعة وفعلاء، لا يكون ألفه للتأنيث، كعلباء وحرباء، ومن فتح فلم يصرف؛ لأن الألف للتأنيث، كصحراء هذا وسيناء شبه جزيرة، يحدها البحر الأبيض المتوسط شمالاً، وقناة السويس وخليج السويس غرباً، وفلسطين وخليج العقبة شرقاً، تنتهي جنوباً عند رأس محمد في البحر الأحمر، وسيناء جبل واقع

في شبه جزيرة سيناء جنوباً، والمراد بالشجرة، شجرة الزيتون، وخصت بطور سيناء مع أنها تخرج في غيره؛ لأن أصلها منه ثم نقلت إلى غيره.

﴿بِٱلدُّهۡنِ﴾ والدهن: عصارة كل شيء ذي دسم. ا هـ. «سمين». ﴿وصبغ﴾؛ أي: إدام يصبغ اللقمة، إذا أغمست فيه وفي «المصباح»: صبغ من باب ضرب، وقتل ونفع. ا هـ.

قال في «المغرب»، يقال: صبغ الثوب بصبغ حسن، وصباغ حسن، ومنه الصبغ والصباغ من الإدام؛ لأن الخبز يغمس فيه، ويلون به كالخل والزيت. ا هـ. ﴿وَعَلَى ٱلۡفُلۡكِ﴾؛ أي: السفينة قال الراغب: ويستعمل الفلك للواحد، والجمع، وتقديرهما مختلفان، فإن الفلك إذا كان واحداً كان كبناء قفل، وإذا كان جمعاً فكبناء حمر. ا هـ.

﴿قَالَ ٱلۡمَلَأُ﴾ الملأ: أشراف القوم. ﴿يَتَفَضَّلَ﴾؛ أي: يدعي الفضل والسيادة ﴿جِنَّةٌ﴾؛ أي: حالة جنون، ففعلة مستعملة في الهيئة على حد قوله. وفعلة لهيئة كالجلسة. ا هـ. «شيخنا». والجنون: اختلال حائل بين النفس والعقل، وفي «التأويلات النجمية» يشير إلى أن أحوال الحقيقة عند أرباب الطبيعة جنون، كما أن أحوال أرباب الطبيعة عند أهل الحقيقة جنون. ا هـ.

﴿فَتَرَبَّصُواْ﴾؛ أي: انتظروا، قال الراغب: التربص: الانتظار بالشيء ساعة، يقصد بها غلاء، أو رخصاً أوأمراً ينتظر زواله أو حصوله، ﴿وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ﴾ يقال: فار الماء، إذا نبع يفور فوراً، من باب قال، والفور شدة الغليان، ويقال ذلك في النار نفسها، إذا هاجت وفي القدر، وفي الغضب، وفوارة الماء، سميت تشبيهاً بغليان القدر، ويقال: الفور الساعة، والتنور: تنور الخبز، ابتدأ منه النبوع على خرق العادة ﴿فَٱسۡلُكۡ فِيهَا﴾؛ أي: أدخل في الفلك، يقال: سلك فيه؛ أي: دخل وسلكه فيه؛ أي: أدخله، ومنه قوله: ﴿مَا سَلَكَكُمۡ فِي سَقَرَ ﴿٤٢﴾﴾.

﴿فَإِذَا ٱسۡتَوَيۡتَ﴾ قال الراغب: استوى: يقال على وجهين:

أحدهما: أن يسند إليه، فاعلان فصاعداً، نحو: استوى زيد وعمرو في

كذا؛ أي: تساويا. قال تعالى: ﴿لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ﴾.

والثاني: أن يقال: لاعتدال الشيء في ذاته، فإذا استويت، ومتى عدي بعلى اقتضى معنى الاستعلاء نحو ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾، ونحو ﴿فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ﴾.

وفي «السمين» قوله: ﴿مُنزَلًا مُّبَارَكًا﴾ قرأ أبو بكر بفتح الميم وكسر الزاي والباقون بضم الميم، وفتح الزاي والمَنْزِل، والمُنْزَل كل منهما يحتمل أن يكون اسم مصدر وهو الإنزال، أو النزول، وأن يكون اسم مكان للنزول، أو الإنزال إلا أن قياس مصدر الفعل المذكور هنا منزل بالضم والفتح، وأما الفتح والكسر، فعلى نيابة مصدر الثلاثي مناب مصدر الرباعي، كقوله: أنبتكم من الأرض نباتاً. ا هـ. والنزول في الأصل هو الانحطاط من علو، يقال: نزل عن دابته، ونزل في مكان كذا، حطّ رحله فيه، ونزل به.

﴿وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ﴾: اسم فاعل من ابتلى الخماسي. قال الراغب: إذا قيل: ابتلي فلان بكذا وأبلاه فذلك يتضمن أمرين:

أحدهما: تعرف حاله، والوقوف على ما يجهل من أمره.

والثاني: ظهور جودته ورداءته دون التعرف بحاله، والوقوف على ما يجهل من أمره، إذا كان من الله علام الغيوب. ا هـ.

واعلم أن البلاء كالملح، وأن أكابر الأنبياء، إنما كانوا من أولي العزم ببلايا ابتلاهم الله بها، فصبروا، ألا ترى إلى حال نوح عليه السلام، كيف ابتلي ألف سنة إلا خمسين عاماً، فصبر، حتى قيل له: ﴿فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾. ا هـ. «روح البيان».

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: الإخبار بصيغة الماضي؛ لإفادة التحقيق والثبوت في قوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١﴾ كما أن ﴿قَدْ﴾؛ لإفادة التحقيق أيضاً.

ومنها: بر الاستهلال في هذه السورة؛ لأنها ذكرت أحوال المؤمنين، على جهة التفصيل. والتفصيل عندهم قسمان: متصل، ومنفصل. فالمتصل: كل كلام وقع فيه أما وأما كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ﴾ إلى آخر الكلام.

وأما المنفصل فهو ما يأتي مجمله في مكان ومفصله في مكان آخر كقوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ۝٥﴾ إلى قوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ۝٧﴾. فإن قوله تعالى: ﴿وَرَآءَ ذَٰلِكَ﴾ إجمال المحرمات، وقد تقدمت مفسرة في سورة النساء بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ إلى قوله: ﴿وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ﴾ فإن هذه الآية اشتملت على خمسة عشر محرماً من أصناف النساء، وذوات الأرحام، وثلاثة عشر صنفاً ومن الأجانب صنفان.

ومنها: طباق الإيجاب بين قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢﴾ وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣﴾ فقد جمع سبحانه للمؤمنين في هذا الوصف بين الفعل والترك، إذ وصفهم بالخشوع في الصلاة، وترك اللغو، وهذا كله من طباق الإيجاب المعنوي.

ومنها: التضمين في قوله: ﴿فَٰعِلُونَ﴾؛ لأنه ضمن فاعلون معنى مؤدون، إذ لا يصح فعل الأعيان التي هي القدر المخرج من المزكي للمستحقين.

ومنها: الحصر في قوله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ۝١٠﴾؛ لأن ضمير الفعل يفيد الحصر.

ومنها: تقييد الوراثة بقوله: ﴿يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ﴾ بعد إطلاقها أولاً تفخيماً لشأنها، ورفعاً لمحلها.

ومنها: الاستعارة التصريحية التبعية في قوله: ﴿يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ﴾ حيث شبه

استحقاقهم الفردوس بأعمالهم، حسبما يقتضيه الوعد الكريم بالوراثة، للمبالغة فيه، بجامع قوة الملك؛ لأن الوراثة أقوى سبب يقع في ملك الشيء، ولا يتعقبه رد ولا فسخ ولا إقالة ولا نقض.

ومنها: أسرار لطيفة المأخذ، دقيقة المعنى، في مخالفة حروف العطف في آيـــات ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً﴾ الآيات، فقد ذكر تعالى تفاصيل حال المخلوق في تنقله، فبدأ بالخلق الأول، وهو خلق آدم من طين، ولما عطف عليه الخلق الثاني، الذي هو خلق نسل عطفه بثم لما بينهما من التراخي، وحيث صار إلى التقدير الذي: يتبع بعضه بعضاً، من غير تراخ عطفه بالفاء، ولما انتهى إلى جعله ذكراً أو أنثى، وهو آخر الخلق، عطفه بثم، ونحن نعلم أن الزمن الذي تصير فيه النطفة علقة طويل، ولكن الحالتين متصلتان، فأحياناً ينظر إلى طول الزمان، فيعطف بثم، وأحياناً ينظر إلى اتصال الحالين، ثانيهما بأولهما من غير فاصل بينهما بغيرهما، فيعطف بالفاء، ومثل هذا تزوج محمد فولد له.

ومنها: الاستعارة التصريحية الأصلية في قوله: ﴿فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾ حيث شبه الرحم بالقرار؛ أي: بموضع الاستقرار فخذف المشبه، الذي هو الرحم، وأبقى المشبه به، وهو القرار، ثم وصفه بمكين، بمعنى متمكن، لتمكنه في نفسه، بحيث لا يعرض له اختلال، أو لتمكن ما يحل فيه، كقولهم: طريق سائر؛ أي: يسار فيه.

ومنها: تنزيل غير المنكر، منزلة المنكر، في قوله: ﴿ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾﴾ الناس لا ينكرون الموت، ولكن غفلتهم عنه، وعدم استعدادهم له بالعمل الصالح، يعدان من علامات الإنكار، ولذلك نزلوا منزلة المنكرين، وألقى الخبر مؤكداً، بمؤكدين إن واللام.

ومنها: الاستعارة اللطيفة في قوله: ﴿سَبْعَ طَرَآئِقَ﴾ شبهت السماوات السبع بطرائق النعل، التي يجعل بعضها فوق بعض، بطريق الاستعارة.

ومنها: العدول عن الإضمار إلى الإظهار في قوله: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾

حيث لم يقل: وأنزلنا منهن؛ لأن الإنزال لا يعتبر فيه عنوان كونها طرائق بل مجرد كونها بصفة العلو.

ومنها: تقديم المعمول على عامله لرعاية الفاصلة، في قوله: ﴿وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ﴾ وفي قوله: ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾.

ومنها: الاستعارة التصريحية في قوله: ﴿وَصِبْغٍ لِّلْأَكِلِينَ﴾ حيث شبه الإدام من المائعات بالصبغ، ثم حذف المشبه، وأبقى المشبه به، بجامع التلون، بلون إذا غمس به.

ومنها: المجاز المرسل في قوله: ﴿وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ حيث عبر عن الحفظ بالأعين؛ لأن شأن من نظر إلى الشيء بعينه، حفظه فأطلق الملزوم الذي هو الأعين، وأريد اللازم الذي هو الحفظ، وجمع الأعين مبالغة.

ومنها: الكناية في قوله: ﴿وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ﴾: لأنه كناية عن شدة نبع الماء.

ومنها: جناس الاشتقاق في قوله: ﴿رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا﴾.

ومنها: الجناس المغاير بين ﴿ٱلْوَٰرِثُونَ﴾، و﴿يَرِثُونَ﴾.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ (٣١) فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٣٢) وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ (٣٣) وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ (٣٤) أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ (٣٥) ۞ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ (٣٦) إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ (٣٧) إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُۥ بِمُؤْمِنِينَ (٣٨) قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ (٣٩) قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَٰدِمِينَ (٤٠) فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ بِٱلْحَقِّ فَجَعَلْنَٰهُمْ غُثَآءً ۚ فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ (٤١) ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قُرُونًا ءَاخَرِينَ (٤٢) مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ (٤٣) ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا ۖ كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ ۚ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ ۚ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ (٤٤) ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ (٤٥) إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا عَالِينَ (٤٦) فَقَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ (٤٧) فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْلَكِينَ (٤٨) وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (٤٩) وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ (٥٠) يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (٥١) وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ (٥٢) فَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ (٥٣) فَذَرْهُمْ فِى غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ (٥٤) أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ (٥٥) نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ (٥٦) إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ (٥٧) وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ (٥٨) وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ (٥٩) وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ (٦٠) أُو۟لَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ (٦١) وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَلَدَيْنَا كِتَٰبٌ يَنطِقُ بِٱلْحَقِّ ۚ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٦٢)﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه لما قصّ[1] علينا قصص بعض الأنبياء

---

(١) المراغي.

السالفين.. عقب هذا ببيان أنه أوصاهم جميعاً، بأن يأكلوا من الحلال، ويعملوا صالح الأعمال، كفاء ما أنعم به عليهم، من النعم العظيمة، والمزايا الجليلة، التي لا يقدر قدرها، ثم حذرهم، وأنذرهم بأنه عليم بكل أعمالهم، ظاهرها وباطنها، لا تخفى عليه من أمورهم خافية، ثم أرشدهم إلى أن الدين الحق واحد، لا تعدد فيه، ولكن قد فرقت الأمم، دينها شيعاً، وكل أمة فرحة مسرورة بما تدين به، كما هي حال قريش، ثم خاطب رسوله، بأن يتركهم وما يعتقدون إلى حين، ثم ذكر أنهم في عماية، حين ظنوا أن ما أوتوه من النعم، هو حظوة من ربهم لهم، كلا فهم لا يشعرون بحقيقة أمرهم، وعاقبة حالهم، ولو عقلوا لعلموا، أنهم في سكرتهم يعمهون.

قوله تعالى[1]: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه، لما ذم من فرقوا دينهم شيعاً، وفرحوا بما عملوا، وظنوا أن ما نالوا من حظوظ الدنيا، هو وسيلة لنيل الثواب في الآخرة، وبين أنهم واهمون فيما حسبوا.. قفى على ذلك، بذكر صفات من له المسارعة في الخيرات، ومن هو جدير بها.

قوله تعالى: ﴿وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه، لما ذكر صفات المؤمنين المخلصين، الذين يسارعون إلى الخيرات، أرشد إلى أن ما كلفوا به، سهل يسير، لا يخرج عن حد الوسع والطاقة وأنه مهما قل، فهو محفوظ عنده في كتاب، لا يضل ربي ولا ينسى، وهو لا يظلم أحداً من خلقه، بل يجزي بقدر العمل، وبما نطقت به الصحف، وعلى وجه الحق والعدل.

التفسير وأوجه القراءة

قصة هود عليه السلام: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا﴾؛ أي: أوجدنا وأحدثنا ﴿مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾؛ أي: من بعد إهلاك قوم نوح، وإغراقهم ﴿قَرْنًا ءَاخَرِينَ﴾؛ أي: قوماً آخرين ليكونوا خلفاء عنهم في الأرض.

---

(١) المراغي.

قال أكثر المفسرين[1]: إن هؤلاء الذين أنشأهم الله بعدهم هم عاد ـ قوم هود؛ لمجيء قصتهم على إثر قصة نوح، في غير هذا الموضع، ولقوله في الأعراف: ﴿وَاذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾.

وقيل: هم ثمود؛ لأنهم هم الذين هلكوا بالصيحة، وقد قال الله سبحانه، في هذه القصة ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ﴾.

وقيل: هم أصحاب مدين ـ قوم شعيب ـ لأنهم ممن أهلكوا بالصيحة.

وقيل: القرن ثمود، والرسول صالح، والأول أصح، والقرن[2]: القوم المقترنون من زمن واحد؛ أي: أهل زمان واحد ﴿فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ﴾؛ أي: أولئك القرن؛ أي: إليهم ﴿رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾؛ أي: من جملتهم نسباً، وهو هود عليه السلام على أن يكون المراد عاداً، وهو الظاهر، وعدى فعل الإرسال، بفي مع أنه يتعدى بإلى؛ للادلة على أن هذا الرسول المرسل إليه، نشأ فيهم بين أظهرهم، يعرفون مكانه ومولده؛ ليكون سكونهم إلى قوله أكثر من سكونهم إلى من يأتيهم من غير مكانهم، و﴿أن﴾ في قوله: ﴿أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ مفسرة لأرسلنا لما في الإرسال من معنى القول؛ أي: قلنا لهم على لسان ذلك الرسول: اعبدوا الله تعالى وحده؛ لأنه ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ تعالى فالجملة معللة للأمر بالعبادة، والهمزة في قوله: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ للاستفهام الإنكاري داخلة على محذوف، والفاء عاطفة على ذلك المحذوف، والتقدير: أتشركون بالله تعالى، فلا تخافون عذابه على الإشراك؟ قاله في «بحر العلوم» فالشرك وعدم الاتقاء كلاهما منكران.

والمعنى[3]: أي أوجدنا من بدء مهلك قوم نوح قوماً آخرين، وهم عاد، فأرسلنا فيهم رسولاً منهم، وهو هود عليه السلام، داعياً لهم، قائلاً: يا قوم اعبدوا الله، وأطيعوه دون الأوثان والأصنام، فإن العبادة لا تنبغي إلا له، ولا تصلح لسواه، أفلا تخافون عقابه بعبادتكم غيره من وثن أو صنم.

---

(١) الشوكاني.
(٢) روح البيان.
(٣) المراغي.

﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ﴾؛ أي: الأشراف والقادة ﴿مِن قَوْمِهِۦ﴾؛ أي: من قوم هود، ثم وصف الملأ بالكفر والتكذيب فقال: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالله ورسوله ﴿وَكَذَّبُوا بِلِقَآءِ ٱلْآخِرَةِ﴾؛ أي: كذبوا بلقاء ما في الآخرة من الحساب والثواب والعقاب، أو كذبوا بالمصير إلى الآخرة بالبعث، وصفهم بالكفر ذماً لهم؛ أي: قال الأشراف الكافرون المكذبون من قومه.

فائدة: وقال هنا[1]: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالواو دون الفاء كما قال في قصة نوح: ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِۦ﴾؛ لأن كلا منهم هنا لم يتصل بكلام الرسول، ومعناه: أنه اجتمع في الحصول ذلك القول الحق، وهذا القول الباطل، وشتان ما بينهما.

وقال أبو حيان[2]: وجاء هنا: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ﴾ بالواو، وفي الأعراف وسورة هود في قصته، بغير واو، قصد في الواو العطف على ما قاله؛ أي: اجتمع قوله الذي هو الحق، وقولهم الذي هو باطل، كأنه إخبار بتباين الحالين، والتي بغير واو قصد به الاستئناف، وكأنه جواب لسؤال مقدر؛ أي: فما كان قولهم له، قال: قالوا: كيت وكيت. اهـ.

وقال في «برهان القرآن»[3]: قدم ﴿مِن قَوْمِهِۦ﴾ في هذه الآية، وأخر فيما قبلها؛ لأن صلة الذين فيما قبل اقتصرت على فعل وضمير الفاعلين، ثم ذكر بعده الجار والمجرور، ثم الفاعل، ثم المفعول، وهو المقول، وليس كذلك هذه الآية، فإن صلة الموصول طالت بذكر الفاعل والمفعول والعطف عليه مرة أخرى، فقدم الجار والمجرور؛ لأن تأخيره ملبس وتوسطه ركيك، فخص بالتقديم. اهـ.

وقوله: ﴿أترفناهم﴾ معطوف على الصلة؛ أي: نعمناهم ووسعنا عليهم. ﴿فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ بكثرة الأموال والأولاد؛ أي: قالوا لأعقابهم مضلين لهم، ﴿مَا هَٰذَآ﴾؛ أي: هود ﴿إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾؛ أي: مماثل لكم في الصفات

---

(1) روح البيان.

(2) البحر المحيط.

(3) برهان القرآن.

والأحوال البشرية ﴿يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ﴾ منه، فكيف يكون رسولاً، وهو تقرير للمماثلة، وصفوه بمساواتهم في البشرية، وفي الأكل والشرب، وذلك يستلزم عندهم، أنه لا فضل له عليهم، والمعنى: أي: وقال: أشراف قومه الذين جحدوا وحدانية الله، وكذبوا بالبعث والحساب، وقد وسعنا عليهم في الحياة الدنيا، بما بسطنا لهم من الرزق، حتى بطروا وعتوا، وكفروا بربهم: ما هود إلا بشر مثلكم لا ميزة له عنكم، فهو يأكل مما تأكلون منه ويشرب مما تشربون، فكيف يكون رسولاً؟ ومرادهم بذلك توهين أمره وتحقير شأنه.

واللام في قوله: ﴿وَلَئِنْ أَطَعْتُم﴾ موطئة للقسم؛ أي: والله لئن امتثلتم ﴿بَشَرًا مِّثْلَكُمْ﴾؛ أي: آدمياً مماثلاً لكم في الخلق والصفات، فيما يأمركم به وينهاكم عنه ﴿إِنَّكُمْ إِذًا﴾؛ أي: إذا أطعتموه ﴿لَّخَاسِرُونَ﴾؛ أي: لمغبونون في آرائكم مغلوبون في عقولكم جاهلون بمصالحكم، حيث تركتم آلهتكم، وأذللتم أنفسكم، باتباعكم إياه من غير فضيلة له عليكم.

﴿إذاً﴾[1] هنا ليست هي الناصبة للمضارع، وإنما هي إذا الشرطية، حذفت جملتها التي تضاف إليها وعوض عنها التنوين كما في يومئذ، ولهذا لا يختص دخولها على المضارع، بل تدخل على الماضي وعلى الاسم. كقوله: ﴿وَإِذًا لَّآتَيْنَاهُم﴾. ﴿وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ قاله الحافظ السيوطي في «الإتقان». اهـ. «كرخي».

فتحصل من هذا أن ﴿إذاً﴾ بمعنى: أن الشرطية، وأن التنوين المتصل بها عوض عن جملة الشرط كما قدرنا، وحينئذ فلا جواب لها إنما ذكرت توكيداً لما قبلها، توكيداً لفظياً، من قبيل إعادة الشيء بمرادفه. والمعنى؛ أي: ولئن أطعتم بشراً مثلكم فاتبعتموه، وقبلتم ما يقول.. إنكم إذاً لمغبونون حظوظكم من الشرف، والرفعة في الدنيا ثم بينوا سبب إنكارهم لأتباعه، واستبعادهم وقوع ما

---

(١) الفتوحات.

يدعيه بقولهم: ﴿أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ﴾ والهمزة للاستفهام الإنكاري، والجملة مستأنفة، مسوقة لتقدير ما قبلها من تقبيح اتباعهم له. وقرىء بكسر الميم، من (مِتم) من مات يمات، كخاف يخاف. وقرىء بضمها من مات يموت كقال يقول؛ أي: أيخبركم أنكم، إذا قبضت أرواحكم ﴿وَكُنتُمْ تُرَابًا﴾؛ أي: وصارت أجسامكم تراباً، ﴿وَعِظَامًا﴾؛ أي: وصار بعض أجزائكم تراباً، وبعضها عظاماً نخرة مجردةً لا لحم فيها ولا أعصاب عليها. ﴿أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ﴾ من قبوركم أحياءً كما كنتم، و(أنكم) الثانية لا عمل لها؛ لأنها تأكيد لفظي لأنكم الأولى أكد بها لما طال الفصل بين اسم الأولى وهو: الكاف، وبين خبرها وهو: ﴿مخرجون﴾، والظرف متعلق بـ﴿مُّخْرَجُونَ﴾. وتقديم التراب لكونه أبعد في عقولهم.

وقيل المعنى: كان متقدموكم تراباً ومتأخروكم عظاماً. وفي «روح البيان» الظاهر أن مرادهم، بيان صيرورتهم عظاماً ثم تراباً؛ لأن الواو لمطلق الجمع. اهـ.

والمعنى[1]: أي أيعدكم أنكم مخرجون من قبوركم أحياءً، كما كنتم أولاً إذا متم، وكنتم تراباً في القبور، بعد أن تذهب لحومكم وتبقى عظامكم، ﴿هَيْهَاتَ﴾: اسم فعل ماض بمعنى بعد، ﴿هَيْهَاتَ﴾ توكيد لفظي للأولى، واللام في قوله: ﴿لِمَا تُوعَدُونَ﴾ زائدة في الفاعل؛ أي: بعد عن القول ما توعدون، وتخبرون به أيها القوم من أنكم بعد موتكم ومصيركم تراباً وعظاماً تخرجون من قبوركم للبعث والحساب، ثم الجزاء على ما تعملون.

وقرأ ابن كثير ونافع وعاصم وأبو عمرو وابن عامر وحمزة والكسائي[2]: ﴿هيهات هيهات﴾ بفتح التاء فيهما في الوصل، وإسكانها في الوقف، وهي لغة أهل الحجاز، وقرأ أبيّ بن كعب وأبو مجلز وهارون عن أبي عمرو «هيهاتاً هيهاتاً» بالفتح والتنوين. ونسبها ابن عطية لخالد ابن إلياس. وقرأ ابن مسعود وعاصم الجحدري وأبو حيوة الحضرمي وابن السميقع: ﴿هيهات هيهات﴾ بالضم

---

(١) المراغي.
(٢) زاد المسير والبحر المحيط.

والتنوين. وقرأ أبو العالية وقتادة وعيسى وخالد بن إلياس: ﴿هيهات هيهات﴾ بالكسر والتنوين. وقرأ أبو جعفر وشيبة ﴿هيهات هيهات﴾ بالكسر من غير تنوين، وروي هذا عن عيسى أيضاً، وهي لغة تميم وأسد، ويقفون عليه بالهاء. وقرأ أبو المتوكل الناجي وسعيد بن جبير وعكرمة ﴿هيهات هيهات﴾ بالرفع من غير تنوين. وقرأ معاذ القارىء وابن يعمر وأبو رجاء وخارجة بن مصعب عن أبي عمرو والأعرج وعيسى أيضاً: ﴿هيهات هيهات﴾ بإسكان التاء فيهما.

قال ابن الجوزي: وفي ﴿هيهات﴾ عشر لغات، قد ذكرنا منها سبعةً عن القراء، والثامنة: ﴿إيهات﴾ بالهمزة في أوله. والتاسعة: ﴿إيهان﴾ بالنون آخره. والعاشرة: ﴿إيها﴾ بغير تنوين ا هـ.

وقال أبو حيان: وهذه الكلمة تلاعبت بها العرب تلاعباً كبيراً، بالحذف والإبدال والتنوين وغيره، وقد ذكرنا في «التكميل لشرح التسهيل» ما ينيف على أربعين لغة. وتحرير ما فيها، مذكور في علم النحو، ولا تستعمل هذه الكلمة غالباً إلا مكررة. وجاءت غير مكررة في قول جرير:

فَهَيْهَاتَ هَيْهَاتَ ٱلْعَقِيْقُ وَمَنْ بِهِ ... وَهَيْهَاتَ خِلٌّ بِٱلْعَقِيْقِ نُوَاصِلُهْ

والعقيق: وادٍ بالمدينة.

ثم أكدوا هذا الإنكار بقولهم: ﴿إِنْ هِيَ﴾؛ أي: ما الحياة ﴿إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا﴾ الدانية الفانية، لا الحياة الآخرة التي تعدنا بها، وجملة قوله: ﴿نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ مفسرة للجملة المتقدمة؛ أي: مفسرة لما ادعوه من قصرهم حياتهم على حياة الدنيا؛ أي: يموت بعضنا ويحيى بعضنا، بمعنى[1] يموت بعضنا ويولد بعض إلى انقراض العصر، أو يصيبنا الأمران الموت والحياة، يعنون الحياة المتقدمة في الدنيا والموت بعدها، وليس وراء ذلك حياة، وعبارة القرطبي هنا فإن قلت: كيف قالوا: نموت ونحيا وهم لا يقرون بالبعث؟

قلت: أجيب عنه بأجوبة منها: أن يكون المعنى نكون مواتاً؛ أي: نطفاً ثم

---

(١) روح البيان.

نحيا في الدنيا. وقيل: فيه تقديم وتأخير؛ أي: إن هي إلا حياتنا الدنيا نحيا فيها ونموت. كما قال: ﴿وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى﴾. وقيل: نموت - يعني الآباء - ونحيى، يعني الأولاد. ا هـ.

﴿وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾؛ أي: بمنشرين بعد الموت، كما تزعم يا هود؛ أي: ما لنا[1] حياة إلا هذه الحياة في الدنيا تموت الأحياء منا فلا تحيا، ويحدث آخرون منا ويولدون، وما نحن بمبعوثين بعد الموت، إنما مثلنا مثل الزرع يُحصد هذا وينبت ذلك.

والخلاصة: أنه يموت منا من هو موجود، وينشأ آخرون بعدهم، انظر كيف عميت قلوبهم، حتى لم يروا أن الإعادة أهون من الابتداء، وأن الذي هو قادر على إيجاد شيء من العدم وإعدامه من الوجود، يكون قادراً على إعادته ثانياً، وبعد أن كان أمرهم معه مقصوراً على الاستبعاد فحسب، جاهروا بتكذيبه فيما يدعي، فقالوا: ﴿إِنْ هُوَ﴾؛ أي: ما هود ﴿إِلَّا رَجُلٌ﴾؛ أي: إلا شخص ﴿ٱفْتَرَىٰ﴾ واختلق ﴿عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ فيما يدعيه من الرسالة، وفيما يعدنا من أن الله تعالى يبعثنا ﴿وَمَا نَحْنُ لَهُۥ بِمُؤْمِنِينَ﴾؛ أي: بمصدقين فيما يقول؛ أي[2]: ما هو إلا رجل يختلق الكذب على الله، فتارة يقول: ما لكم من إله غير الله خالق السماوات والأرض، وأخرى يقول: إنكم إذا متم وكنتم تراباً وعظاماً إنكم مخرجون، وما نحن بمصدقيه فيما يدعي ويزعم من التوحيد والبعث، ولما يئس هود من إيمانهم بعد ذكر هذه المقالة: ﴿وَمَا نَحْنُ لَهُۥ بِمُؤْمِنِينَ﴾.. فزع إلى ربه فقال: ﴿رَبِّ ٱنصُرْنِى﴾ عليهم وانتقم لي منهم ﴿بِمَا كَذَّبُونِ﴾؛ أي: بسبب تكذيبهم إياي وإصرارهم عليه؛ أي: قال بعد أن يئس من إيمانهم، وقد سلك في دعوتهم كل مسلك متضرعاً إلى ربه: رب انصرني عليهم، وانتقم لي منهم بتكذيبهم إياي فيما دعوتهم إليه من الحق، وإصرارهم على الباطل، فأجابه ربه إلى ما سأل. ﴿قَالَ﴾ الله سبحانه وتعالى، مجيباً لدعائه، واعداً له بالقبول لما دعا به ﴿عَمَّا قَلِيلٍ﴾؛ أي:

---

(١) المراغي. (٢) المراغي.

بعد زمان قليل ﴿لَّيُصْبِحُنَّ﴾؛ أي: وعزتي وجلالي ليصيرن؛ أي: الكفار المكذبين ﴿نَٰدِمِينَ﴾ على ما وقع منهم من التكذيب والعناد، والإصرار على الكفر، وذلك عند معاينتهم العذاب و﴿ما﴾ في قوله: ﴿عَمَّا قَلِيلٍ﴾ مزيدة بين الجار والمجرور تأكيداً لقلة الزمان، كما في قوله: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾.

﴿فَأَخَذَتْهُمُ﴾؛ أي: فأهلكتهم ﴿ٱلصَّيْحَةُ﴾؛ أي: صيحة جبريل صاح عليهم صيحة هائلة، تصدعت منها قلوبهم فماتوا. والصيحة رفع الصوت، فإن قلت[1]: هذا يدل على أن المراد بالقرن، المذكور في صدر القصة، ثمود قوم صالح، فإن عادا أهلكوا بالريح العقيم.

قلت: لعلهم حين أصابتهم الريح العقيم، فأصيبوا في تضاعفها بصيحة هائلة أيضاً، كما كان عذاب قوم لوط بالقلب والصيحة.

وقد روي أن شداد بن عاد حين أتم بناء إرم، سار إليها بأهله، فلم دنا منها، بعث الله عليهم صيحة من السماء، فهلكوا. وقيل: المراد بالصيحة هنا نفس العذاب والموت. وفي «الجلالين» صيحة العذاب والهلاك. والباء في قوله: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ متعلقة بأخذتهم؛ أي: أخذتهم[2] الصيحة بالوجه الثابت، الذي لا دافع له، أو بالعدل من الله سبحانه، كقولك فلان يقضي بالحق، أو بالوعد الصدق، والمراد: حاق بهم عذابه، ونزل عليهم سخطه بالوعد الصدق، وبالأمر المبرم من الله تعالى، ثم أخبر سبحانه عما صاروا إليه بعد العذاب النازل بهم، فقال: ﴿فَجَعَلْنَٰهُمْ﴾؛ أي: فصيرنا أولئك المكذبين لهود ﴿غُثَآءً﴾؛ أي: كغثاء السيل الذي يحتمله ولا ينتفع به، والغثاء: هو كل ما يحمله السيل على ظاهر الماء، من الزبد والورق والعيدان، وبالي الشجر والحشيش، والمعنى: صيرهم هلكى، فيبسوا كما يبس الغثاء، كقولك: سال به الوادي، لمن هلك. ﴿فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾؛ أي: بعد الظالمون من رحمة الله بعداً، وطردوا منها طرداً؛ أي: هلكوا. والمعنى: ألزمنا بعداً من الرحمة للقوم الظالمين. وهذه الجملة تحتمل الإخبار والدعاء، وهو من المصادر التي لا يذكر فعلها معها. واللام لبيان من

---

(١) روح البيان.

(٢) البيضاوي.

دعي عليه بالبعد، وقيل: له ذلك؛ أي: قيل للظالمين بعدوا بعداً، ووضع الظاهر موضع ضميرهم للتعليل، كما في «البيضاوي».

والمعنى: أبعد الله[1] القوم الكافرين من رحمته بهلاكهم إذا كفروا بربهم وعصوا رسوله، وظلموا أنفسهم، وفي هذا من الذلة، والمهانة لهم والاستخفاف بأمرهم ما لا يخفى، وأن الذي ينزل بهم في الآخرة، من البعد، من النعيم والثواب، أعظم مما حل بهم، من العقاب في الدنيا، وفيه عظيم العبرة لمن بعدهم، ممن هم عرضة لمثله.

قصص صالح ولوط وشعيب وغيرهم عليهم السلام

﴿ثم أنشأنا﴾؛ أي: خلقنا وأوجدنا ﴿مِنۢ بَعۡدِهِمۡ﴾؛ أي: من بعد إهلاك القرن المذكور وهم عاد على الأشهر، ﴿قُرُونًا﴾ وأمما ﴿ءَاخَرِينَ﴾؛ أي: مع رسلهم، هم قوم صالح ولوط وشعيب وهود وغيرهم، كأيوب ويونس عليهم السلام كما وردت قصتهم على هذا الترتيب في الأعراف وهود. وقيل: هم بنو إسرائيل. والقرون والأمم، ولعل[2] وجه الجمع للقرون هنا، والإفراد فيما سبق قريباً أنه أراد ههنا أمماً متعددة، وهناك أمة واحدة؛ أي: أنشأنا أقواماً آخرين إظهاراً لقدرتنا، وليعلم كل أمة استغناءنا عنهم، وأنهم إن قبلوا دعوة الأنبياء وتابعوا الرسل.. تعود فائدة استسلامهم وانقيادهم وقيامهم بالطاعات إليهم. فالله تعالى[3] ما أخلى الأرض من مكلفين، بل أوجدهم وبلغهم حدّ التكليف، حتى قاموا مقام من كان قبلهم، في عمارة الدنيا.

ثم بين سبحانه كمال علمه وقدرته في شأن عباده، فقال: ﴿مَّا تَسۡبِقُ مِنۡ أُمَّةٍ﴾ ﴿من﴾ مزيدة للاستغراق؛ أي: ما تتقدم أمة من الأمم المجتمعة في قرن المقضي عليها بالهلاك. ﴿أَجَلَهَا﴾؛ أي: الوقت الذي حد وعين لهلاكها ﴿وَمَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ﴾؛ أي: وما يتأخرون عن ذلك الأجل بساعة وطرفة عين، بل تموت

---

(١) المراغي.

(٢) الشوكاني.

(٣) المراح.

وتهلك عند ما حد لها من الزمن. والمعنى؛ أي: ما تتقدم أمة من تلك الأمم المهلكة، الوقت الذي قدر لهلاكهم، وما يستأخرون عنه.

والخلاصة: ما تهلك أمة قبل مجيء أجلها ولا بعده، فلكل شيء ميقات لا يعدوه، ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا﴾ معطوف[1] على ﴿أَنشَأْنَا﴾، لكن لا على معنى أن إرسالهم متأخر ومتراخ عن إنشاء تلك القرون المذكورة جميعاً، بل على معنى أن إرسال كل رسول متأخر عن إنشاء قرن مخصوص بذلك الرسول، كأنه قيل: ثم أنشأنا من بعدهم قروناً آخرين، وقد أرسلنا إلى كل قرن منهم رسولاً خاصاً به.

والمعنى: أن إرسال كل رسول متأخر عن إنشاء القرن الذي أرسل إليه، وليس المعنى: أن إرسال الرسل جميعاً متأخر عن إنشاء تلك القرون جميعاً؛ أي: أرسلنا رسلنا حالة كونهم ﴿تَتْرَا﴾؛ أي: متواترين ومتتابعين واحداً بعد واحد، وهو مصدر من المواترة كشبعى ودعوى، والتاء فيه مبدلة من الواو، واصلة وتراً، والتتر المتابعة مع مهلة، وهو منصوب على الحالية، كما قررنا في الحل.

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وقتادة وأبو جعفر وشيبة وابن محيصن والشافعي[2]: ﴿تترى﴾ منوناً، وباقي السبعة: بغير تنوين، وانتصب على الحال؛ أي: متواترين واحداً بعد واحد، ولكن مع انقطاع فترة طويلة بينهما.

﴿كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً﴾ منهم ﴿رَّسُولُهَا﴾ المخصوص بها بالبينات، وبلغها أمر الله تعالى ﴿كَذَّبُوهُ﴾؛ أي: كذب ذلك الرسول أكثرهم لا كلهم، كما في «بحر العلوم» بدليل قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٧١﴾﴾ وسلكوا في تكذيب أنبيائهم مسلك من أهلكوا.

وعبارة «المراح» هنا ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا﴾؛ أي[3]: أرسلنا إلى كل قرن من

---

(١) البحر المحيط.

(٢) المراح.

(٣) البحر المحيط بتصرف.

القرون رسولاً خاصاً به، حالة كونهم ﴿تَتْرَا﴾؛ أي: واحداً بعد واحد، بينهما زمان طويل. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو: وهي قراءة الشافعي: ﴿تترى﴾ بالتنوين، فألفه للإلحاق بجعفر، فلما نون ذهبت ألفه لالتقاء الساكنين، وباقي السبعة: بألف صريحة دون تنوين، والألف للتأنيث باعتبار أن الرسل جماعة، والتاء بدل من الواو، فإنه مأخوذ من الوتر وهو الفرد: وهو مصدر بمعنى اسم الفاعل وقع حالاً؛ أي: متواترة؛ أي: متتابعة فرادى. انتهت.

﴿كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً﴾ بتحقيق الهمزتين، وتسهيل الثانية بينها؛ أي: بين الهمزة وبين الواو، بأن تنطق بها متوسطة بينهما. ﴿رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ﴾؛ أي: كلما بلغهم الرسول ما جاء به من عند ربه من الشرائع والأحكام.. كذبوه، كما فعل قومك بك حين أمرتهم بذلك.

﴿فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا﴾ في الهلاك بما نزل بهم من العذاب ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ﴾؛ أي: وجعلنا تلك الأمم المهلكة ﴿أَحَادِيثَ﴾ وحكايات وأمثالاً وأعاجيب، يتحدث ويتعجب منها لمن بعدهم، جمع أحدوثة، وهي ما يتحدث به عجباً وتسلياً ومسامرة، أو جمع حديث على غير قياس، كما سيأتي في مبحث التصريف، والمراد هنا: المعنى الأول؛ أي: صاروا يتحدث بهم وبحالهم في الإهلاك، على سبيل التعجب والاعتبار، وضرب المثل بهم؛ أي: لم يبق منهم عين ولا أثر، إلا حكايات يسمر بها، ويتعجب منها، ويعتبر بها المعتبرون من أهل السعادة.

فإن قلت: لِمَ أضاف[1] الرسل إلى نفسه سبحانه، حيث قال: ﴿رسلنا﴾ وأضاف الرسول إلى الأمة، حيث قال: ﴿رَّسُولُهَا﴾؟

قلت: إن الإضافة تكون للملابسة، والرسول يلابس المرسل والمرسل إليه.

فالأول: كانت الإضافة فيه لتشريف الرسل.

والثاني: كانت الإضافة فيه إلى الأمة حيث كذبته، ولم ينجح فيهم إرساله

---

(١) البحر المحيط بتصرف.

إليهم، فناسبت الإضافة إليهم.

﴿فَبُعْدًا﴾؛ أي: ألزمنا بعداً من الرحمة ﴿لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ بالله تعالى، ولا يصدقون رسوله، وبما جاء به أيّاً كانوا. فإن قلت: لم نكر[1] القوم هنا حيث قال: ﴿لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ وعرفه فيما تقدم. حيث قال: ﴿لِّلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾؟

قلت: نكره هنا؛ لأن القرون المذكورة هنا منكرة غير معينة، بخلاف ما تقدم، فإنه في حق قوم معين كما سبق، وفي الآية[2] دلالة على أن عدم الإيمان سبب للهلاك والعذاب في النيران، كما أن التصديق مدار للنجاة والتنعم في الجنان.

قصة موسى وهارون عليهما السلام

﴿ثُمَّ﴾ بعد هؤلاء الرسل الذين تقدم ذكرهم ﴿أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ﴾ بن عمران ﴿وَأَخَاهُ هَـٰرُونَ﴾ بن عمران، وكان أكبر من موسى بسنتين، حالة كونهما مؤيدين ﴿بِـَٔايَـٰتِنَا﴾ التسع من اليد والعصا والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم ونقص الثمرات والطاعون، ولا مساغ لعد فلق البحر منها. إذ المراد الآيات التي كذبوها ﴿و﴾ مؤيدين بـ﴿سلطان مبين﴾؛ أي: بحجة واضحة ملزمة للخصم في الاستدلال على وجود الصانع وإثبات النبوة، وهي العصا، وخصصها بذكرها ثانياً؛ لفضلها على سائر الآيات، باشتمالها على معجزات كثيرة، كانقلابها حية، وتلقفها ما أفكته السحرة، وانقلاب البحر، وانفجار العيون من الحجر بضربهما بها إلى غير ذلك، ولأنها أول المعجزات وأمها. ا هـ. «بيضاوي». أو المراد بالسلطان نفس الآيات المذكورة، عبر عنها بسلطان على طريق العطف، تنبيهاً على جمعها لعنوانين جليلين، وتنزيلاً لتغايرها في التعبير والاسم منزلة التغاير الذاتي.

﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ﴾؛ أي: أشراف قومه من القبط، وخصوا بالذكر؛ لأن

---

(١) روح البيان بتصرف.
(٢) روح البيان.

إرسال بني إسرائيل بآرائهم، لا بآراء أعقابهم ﴿فَٱسْتَكْبَرُواْ﴾؛ أي: فاستكبر فرعون وملؤه عن الإيمان والمتابعة لهما؛ أي: امتنعوا عن قبول الإيمان تكبَّراً وعناداً، وأعظم الكبر أن يتهاون العبيد بآيات ربهم وبرسالاته بعد وضوحها، وانتفاء الشك عنها، ويتعظموا عن امتثالها وقبولها.

﴿وَكَانُواْ﴾؛ أي: وكان فرعون وملؤه ﴿قَوْمًا عَالِينَ﴾؛ أي: متكبرين مجاوزين للحد في الكبر والطغيان؛ أي: كانوا قوماً عادتهم الاستكبار والتمرد، أو قاهرين للناس بالبغي والتطاول عليهم.

والمعنى: أي ثم[1] أرسلنا بعد الرسل الذين تقدم ذكرهم من قبل موسى وأخاه هارون، إلى فرعون وأشراف قومه من القبط بالآيات والحجج الدامغة والبراهين القاطعة، فاستكبروا عن اتباعهما، والانقياد لما أمروا به.. ودعوا إليه من الإيمان، وترك تعذيب بني إسرائيل، كما جاء في سورة النازعات: ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾﴾. وقد كان من دأبهم العتو والبغي على الناس، وظلمهم كبراً وعلواً في الأرض.

ثم ذكر ما استتبعه هذا العتو والجبروت بقوله: ﴿فَقَالُوٓاْ﴾ عطف على استكبروا، وما بينهما اعتراض مقرر للاستكبار؛ أي: قال فرعون وملؤه فيما بينهم على طريق المناصحة ﴿أَنُؤْمِنُ﴾ الهمزة فيه للإنكار بمعنى لا نؤمن، وما ينبغي أن يصدر منا الإيمان ﴿لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا﴾ يعنون موسى وهارون، وصف بالمثل الاثنان؛ لأنه في حكم المصدر العام للإفراد والتثنية والجمع المذكر والمؤنث، ﴿وَقَوْمُهُمَا﴾ يعنون بني إسرائيل ﴿لَنَا﴾ متعلقة بقوله: ﴿عَٰبِدُونَ﴾ قدمت عليه لرعاية الفاصلة، والجملة حال من فاعل نؤمن؛ أي: خادمون منقادون لنا كالعبيد، وكأنهم قصدوا بذلك التعرض لشأنهما، وحط رتبتهما العلية عن منصب الرسالة، من وجه آخر غير البشرية.

قال المبرد: العابد: المطيع الخاضع. قال أبو عبيدة: العرب تسمي كل من

---

(١) المراغي.

دان لملك عابداً له. وقيل: يحتمل أنه كان يدعي الألوهية، فدعى الناس إلى عبادته فأطاعوه.

أي: فقال فرعون وملؤه: كيف ندين لموسى وأخيه، وبنو إسرائيل قومهما خدمنا وعبيدنا يخضعون لنا، ويتلقون أوامرنا؟ وما قصدوا بهذا إلا الإهانة بهما. والحط من قدرهما، وبيان أن مثلهما غير جدير بمنصب الرسالة، وقد قاسوا الشرف الديني، والإمامة في تبليغ الوحي عن الله تعالى، بالرياسة الدنيوية المبنية على نيل الجاه والمال.

وهم في هذا أشبه بقريش، إذ قالوا: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ وقد فاتهم أن مدار أمر النبوة، والإصطفاء للرسالة، إنما هو السبق في الفضائل النفسية والصفات السنية، التي يتفضل الله بها على من يشاء من عباده، فالأنبياء لصفاء نفوسهم، يتصلون بالعالم العلوي وعالم المادة، فيتلقون الوحي من الملأ الأعلى، ويبلغونه إلى البشر، ولا يعوقهم التعلق بمصالح الخلق عن التبتل والانقطاع إلى حضرة الحق.

وإن تعجب من شيء، فاعجب لهؤلاء وأمثالهم، ممن لم يرض النبوة للبشر، كيف سوغت لهم أنفسهم ادعاء الألوهية للحجر ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾.

ثم ذكر سبحانه عاقبة أعمالهم وما آل إليه أمرهم فقال: ﴿فَكَذَّبُوهُمَا﴾؛ أي[1]: فأصر فرعون وملؤه على تكذيب موسى وهارون، واستمروا عليه ﴿فَكَانُوا۟﴾؛ أي: فصاروا ﴿مِنَ ٱلْمُهْلَكِينَ﴾ بالغرق في بحر القلزم (البحر الأحمر)؛ أي: فأهلكهم الله تعالى بالغرق، كما أهلك من أهلكهم من الأمم بفنون من العذاب بتكذيبهم لرسلهم.

ثم ذكر ما أولاه موسى بعد هلاكهم من التشريف والتكريم، فقال: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا﴾؛ أي: وعزتي وجلالي، لقد أعطينا ﴿مُوسَى﴾ بعد إهلاكهم وإنجاء بني

---

(١) المراغي.

إسرائيل من أيديهم ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾؛ أي: التوراة، وفيها الأحكام من الأوامر والنواهي ﴿لَعَلَّهُمْ﴾؛ أي: لعل بني إسرائيل ﴿يَهْتَدُونَ﴾ إلى طريق الحق بالعمل بما فيها من الشرائع والأحكام.

وخص موسى[1] بالذكر لأن التوراة أنزلت عليه في الطور، وكان هارون خليفته في قومه، فجعل سبحانه إيتاء موسى إياها إيتاءً لقومه؛ لأنها وإن كانت منزلة على موسى فهي لإرشاد قومه. وقيل: إن ثم مضافاً محذوفاً أقيم المضاف إليه مقامه؛ أي: آتينا قوم موسى الكتاب.

قصة عيسى عليه السلام إجمالاً

﴿وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾؛ أي: عيسى ابن مريم آية للناس دالة على عظيم قدرتنا وبديع صنعنا، إذ خلقناه من غير أب، وأنطقناه في المهد، وأجرينا على يديه إبراء الأكمه والأبرص، وإحياء الموتى ﴿و﴾ جعلنا ﴿أمه﴾ مريم بنت عمران ﴿ءَايَةً﴾ للناس دالة على قدرتنا، إذ حملته من غير أب؛ أي: جعلنا ابن مريم آية في نفسه، بأن تكلم في المهد، فظهرت منه معجزات جمة، وجعلنا أمه آية في نفسها، بأنها ولدته من غير مسيس بشر، فحذف الأولى لدلالة الثانية عليها، أو جعلناهما آية واحدة بولادته منها من غير مسيس بشر، فالآيتان أمر واحد.

قال في «العيون»: ﴿ءَايَةً﴾؛ أي: عبرة لبني إسرائيل بعد موسى؛ لأن عيسى تكلم في المهد وأحيا الموتى ومريم ولدته من غير مسيس، وهما آيتان قطعاً، فيكون هذا من قبيل الاكتفاء بذكر إحداهما، انتهى.

وفي «الجلالين» وأفرد الآية حيث لم يقل: آيتين؛ لأن الآية فيهما واحدة ولادته من غير فحل وذلك لأن ولادته من غير فحل أمر خارق للعادة، وينسب لها وله. فيقال: ولدته من غير فحل، وولد هو من غير فحل. ا هـ. «شيخنا»؛ أي: فاشتركا في هذا الأمر العجيب الخارق للعادة، وذلك؛ لأن نفس المعجز

---

(١) روح البيان.

ظهر فيهما، لا أنه ظهر على يديهما؛ لأن الولادة فيه وفيها، بخلاف الآيات التي ظهرت على يده.

فإن قلت: لم قدم عيسى هنا على أمه حيث قال: ﴿وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ﴾ وقدمها على عيسى في سورة الأنبياء حيث قال: ﴿وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾؟.

قلت: قدمه هنا نظراً لأصالته فيما ذكر، من ولادته من غير أب، وقدمها هناك نظراً لأصالتها فيما نسب إليها، من الإحصان والنفخ.

﴿وَءَاوَيْنَٰهُمَآ﴾؛ أي: جعلنا ابن مريم وأمه يأويان وينضمان ﴿إِلَىٰ رَبْوَةٍ﴾؛ أي: إلى مكان مرتفع؛ أي[1]: أنزلناهما في مكان مرتفع من الأرض، وجعلناه مأواهما ومنزلهما، وهي إيليا أرض بيت المقدس، فإنها مرتفعة، وإنها كبد الأرض، وأقربها إلى السماء، وأزيدها على سائر الأرض ارتفاعاً، بثمانية عشر ميلاً على ما يروى عن كعب وقتادة، وقال الإمام السهيلي: أوت مريم بعيسى طفلاً إلى قرية من دمشق يقال لها: ناصرة وبناصرة تسمى النصارى، واشتق اسمهم منها. انتهى.

وقيل: هي أرض دمشق، وبه قال عبد الله بن سلام وسعيد بن المسيب ومقاتل. وقيل: أرض فلسطين، وبه قال السدي.

﴿ذَاتِ قَرَارٍ﴾؛ أي: ذات مستقر يستقر عليه ساكنوه؛ لكونها ذات ثمار وزروع، فإن ساكنيها يستقرون فيها لأجلها، أو مستويةً يمكن القرار فيها للحراثة والحراسة.

﴿وَمَعِينٍ﴾؛ أي: ذات معين، أي: ماء جار على ظاهر الأرض. قال الزجاج[2]: المعين: هو الماء الجاري في العيون، فالميم على هذا زائدة، كزيادتها في منبع، وقيل: هو فعيل بمعنى مفعول، قال علي بن سليمان الأخفش:

---

(١) الشوكاني.
(٢) روح البيان.

معن الماء إذا جرى، فهو معين وممعون، وكذا قال ابن الأعرابي. وقيل: هو مأخوذ من الماعون، وهو النفع وبمثل ما قال الزجاج، قال الفراء.

والخلاصة: أي وجعلناهما ينزلان بمرتفع من الأرض، ذي ثمار وماء جار كثير. وفي وصف[1] ماء تلك الربوة بذلك، إيذان بكونه جامعاً لفنون المنافع، من الشرب وسقي ما يسقى من الحيوان، والنبات بغير كلفة، ومن التنزه بمنظره الحسن المعجب، ولولا أن يكون الماء الجاري، لكان السرور الأوفر فائتاً، وطيب المكان مفقوداً، ومن أحاديث المقاصد الحسنة ثلاث يجلون البصر: النظر إلى الخضرة، وإلى الماء الجاري، وإلى الوجه الحسن؛ أي: مما يحل النظر إليه، فإن النظر إلى الأمرد الصبيح ممنوع.

وقرأ الجمهور[2] وابن كثير ونافع وأبو عمرو وحمزة والكسائي: ﴿رُبْوَةٍ﴾ بضم الراء، وهي لغة قريش، وقرأ الحسن وأبو عبد الرحمٰن وعاصم وابن عامر بفتح الراء، وأبو إسحاق السبيعي بكسرها، وابن أبي إسحاق ﴿رباوة﴾ بضم الراء وبالألف، وزيد بن علي والأشهب العقيلي والفرزدق والسلمي في نقل صاحب «اللوامح» بفتحها وبالألف. وقرىء بكسرها والألف.

وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ﴾ نداء[3] وخطاب لجميع الأنبياء، لا على أنهم خوطبوا بذلك دفعة؛ لأنهم أرسلوا في أزمنة مختلفة، بل على أن كلاً منهم، خوطب به في زمانه، فيدخل تحته عيسى دخولاً أولياً، فهذا حكاية لرسول الله ﷺ على وجه الإجمال لما خوطب به كل رسول في عصره جيء بها إثر حكاية إيواء عيسى عليه السلام، وأمه إلى الربوة إيذاناً بأن ترتيب مبادىء التنعم لم يكن من خصائصه عليه السلام، بل إباحة الطعام شرع قديم، جرى عليه جميع الرسل عليهم السلام، ووصوا به؛ أي: وقلنا لكل رسول كُلْ من الطيبات، واعمل صالحاً، فعبر عن تلك الأوامر المتعددة المتعلقة بالرسل بصيغة الجمع عند

---

(١) الشوكاني.
(٢) روح البيان.
(٣) البحر المحيط.
(٤) الفتوحات.

الحكاية إجمالاً للإيجاز، وفيه من الدلالة على بطلان ما عليه الرهبان من رفض الطيبات ما لا يخفى. ا هـ. من «البيضاوي» و«أبي السعود».

ويعلم من قوله: فهذا حكاية لرسول الله... إلخ، أن في الكلام حذفاً، تقديره: ونخبرك يا محمد، أنا أمرنا الرسل المتقدمين قبلك، وقلنا لهم: يا أيها الرسل ﴿كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾؛ أي: من الحلالات، سواء كانت مستلذة أو لا، وسواء كانت من المآكل والمشارب.

﴿وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا﴾؛ أي: عملاً صالحاً من الفرائض، والنوافل، فإنه المقصود منكم والنافع عند ربكم، وهذا الأمر للوجوب، بخلاف الأول فإنه للإرشاد.

فائدة[1]: وفي هذا رد وهدم لما قالهُ بعض الجهلة، من أن العبد إذا بلغ غاية المحبة، وصفا قلبه، واختار الإيمان على الكفر من غير نفاق، سقطت عنه الأعمال الصالحة من العبادات الظاهرة، وتكون عبادته التفكر، وهذا كفر وضلال، فإن أكمل الناس في المحبة والإيمان هم الرسل، خصوصاً حبيب الله محمد ﷺ مع أن التكاليف بالأعمال الصالحة والعبادات في حقهم أتم وأكمل.

وذكر الطبري[2]: أن المراد بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا﴾ عيسى ابن مريم عليه السلام، كما تقول في الكلام للرجل الواحد: كفوا عنا أذاكم وكما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ﴾ والمراد بالناس رجل واحد، وقال القرطبي[3]: قال بعض العلماء: والخطاب في هذه الآية للنبي ﷺ، وأنه أقامه مقام الرسل، وقال الزجاج: هذه مخاطبة للنبي ﷺ، ودل الجمع على أن الرسل كلهم كذا أمروا؛ أي: كلوا من الحلال. وقال ابن كثير[4]: يأمر الله عباده المرسلين عليهم الصلاة والسلام أجمعين بالأكل من الحلال، والقيام بالصالح من الأعمال، فدل هذا على أن الحلال عون على العمل الصالح، فقام الأنبياء عليهم السلام بهذا أتم القيام، وجمعوا بين كل خير قولاً وعملاً ودلالةً ونصحاً.

---

(١) روح البيان.
(٢) الطبري.
(٣) القرطبي.
(٤) ابن كثير.

فجزاهم الله عن العباد خيراً. ا هـ.

وحاصل معنى قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا﴾ أن الله سبحانه[1] أمر كل نبي في زمانه، بأن يأكل من المال الحلال ما لذّ وطاب، وأن يعمل صالح الأعمال ليكون ذلك كفاء من أنعم به عليه من النعم الظاهرة والباطنة.

وهذا الأمر، وإن كان موجهاً إلى الأنبياء فإن أممهم تبع لهم، وكأنه يقول لنا: أيها المسلمون في جميع الأقطار، كلوا من الطيبات؛ أي: من الحلال الصافي القوام، الحلال ما لا يعصى الله فيه، والصافي ما لا ينسى الله فيه، والقوام ما يمسك النفس، ويحفظ العقل، واعملوا صالح الأعمال.

أخرج أحمد وابن أبي حاتم وابن مردويه والحاكم عن أم عبد الله أخت شداد بن أوس ـ رضي الله عنها ـ أنها بعثت إلى النبي ﷺ، بقدح لبن حين فطره وهو صائم فرد إليها رسولها، وقال: «من أين لك هذا؟» فقالت: من شاة لي، ثم رده وقال: «من أين هذه الشاة؟» فقالت: اشتريتها بمالي فأخذه، فلما كان من الغد أمته، وقالت: يا رسول الله، لم رددت اللبن؟ فقال ﷺ: «أمرت الرسل أن لا يأكلوا إلا طيباً، ولا يعملوا إلا صالحاً».

وأخرج مسلم والترمذي وغيرهما عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «أيها الناس إن الله تعالى طيب لا يقبل إلا طيباً، وإن الله تعالى أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾﴾ وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾ ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر، ومطعمه حرام، ومشربه حرام، وملبسه حرام، وغذى بالحرام، يمد يديه إلى السماء يا رب يارب، فأنى يستجاب له؟».

وفي تقديم أكل الطيبات على العمل الصالح إيماء إلى أن العمل الصالح لا

---

(١) المراغي.

يتقبل، إلا إذا سبق بأكل المال الحلال، وجاء في بعض الأخبار، «أن الله تعالى لا يقبل عبادة من في جوفه لقمة من حرام». وصح أيضاً «أيّما لحم نبت من سحت، فالنار أولى به». ثم علل هذا الأمر بقوله سبحانه: ﴿إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من الأعمال الظاهرة والباطنة ﴿عَلِيمٌ﴾ فأجازيكم عليه؛ أي: إني بأعمالكم عليم، لا يخفى عليَّ شيء منها، وأنا مجازيكم بجميعها وموفيكم أجوركم وثوابكم عليها، فخذوا في صالح الأعمال، واجتهدوا قدر طاقتكم فيها، شكراً لربكم على ما أنعم به عليكم.

وفي هذا[1] تحذير من مخالفتهم ما أمروا به، وإذا قيل للأنبياء ذلك، فما أجدر أممهم أن تأخذ حذرها وترعوي عن غيها، وتخشى بأس الله تعالى، وشديد عقابه، وأتى هنا بلفظ ﴿عَلِيمٌ﴾ وفي سبأ بلفظ ﴿بصير﴾ إذ ما هنا تقدمه إيتاء الكتاب وجعل مريم وابنها آية والعلم بهما، أنسب من بصرهما، وما هناك تقدمه قوله: (وألنا له الحديد)، والبصر بإلانة الحديد أنسب من العلم بها. ا هـ زكريا.

﴿و﴾ أقول لكم أيها الرسل: ﴿إن هذه﴾ العقائد التي هي عقائد التوحيد والإيمان ﴿أُمَّتُكُمْ﴾؛ أي: ملتكم ودينكم جميعاً ﴿أُمَّةً وَاحِدَةً﴾. حال من ﴿هذه﴾؛ أي: حالة كونها ملة وشريعة متحدة في أصول الشرائع التي لا تتبدل، ولا تتغير بتبدل الأعصار والأزمان، وتلك الملة المتحدة هي الدعوة إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وأما اختلاف الشرائع والأحكام بحسب اختلاف الأزمان والأحوال، لا يسمى اختلافاً في الدين؛ لأن الأصول متحدة، فالحائض والطاهر من النساء دينها واحد، وإن افترق تكليفهما.

﴿وَأَنَا رَبُّكُمْ﴾ ومالككم لا شريك لي في الربوبية، ﴿فَاتَّقُونِ﴾؛ أي: فاحذروا عقابي وخافوا عذابي، وفي هذا إيماء إلى أن دين الجميع واحد، فيما يتصل لمعرفة الله تعالى واتقاء معاصيه. والفاء في قوله: ﴿فَاتَّقُونِ﴾ فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفتم أنني أنا ربكم

---

(١) المراغي.

ومالككم، وأردتم بيان ما هو اللازم لكم.. فأقول لكم: اتقون في شق العصا، ومخالفة الكلمة، والضمير للرسل والأمم جميعاً، على أن الأمر في حق الرسل للتهييج والإلهاب، وفي حق الأمم للتحذير والإيجاب.

فإن قلت: لم قال في سورة الأنبياء: ﴿فَٱعۡبُدُونِ﴾ وقال هنا: ﴿فَٱتَّقُونِ﴾؟

قلت: لأن الخطاب في سورة الأنبياء للكفار، فأمرهم بالعبادة التي هي التوحيد، والخطاب هنا للرسل والمؤمنين بدليل قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ والأنبياء والمؤمنون إنما يؤمرون بالتقوى لا بالتوحيد. وقال هناك: ﴿وتقطعوا﴾ بالواو، وقال: هنا ﴿فَتَقَطَّعُوٓاْ﴾ بالفاء؛ لأن التقطع هناك قد وقع منهم قبل هذا القول لهم، وما بعد الواو ليس مرتباً على ما قبلها، والتقطع هنا وقع منهم بعد هذا القول، فما بعد الفاء مرتب على ما قبلها. ا هـ. «زكريا».

وعبارة ابن حيان هنا[1]: وجاء هنا ﴿وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱتَّقُونِ﴾ وهو أبلغ في التخويف والتحذير من قوله في الأنبياء: ﴿فَٱعۡبُدُونِ﴾ لأن هذه جاءت عقيب إهلاك طوائف كثيرين من قوم نوح والأمم الذين من بعدهم، وفي الأنبياء، وإن تقدمت أيضاً قصة نوح وما قبلها، فإنه جاء بعدها ما يدل على الإحسان واللطف التام في قصة أيوب ويونس وزكريا ومريم، فناسب الأمر بالعبادة لمن هذه صفته تعالى، وجاء هنا ﴿فتقطعوا﴾ بالفاء إيذاناً بأن التقطع اعتقب الأمر بالتقوى، وذلك مبالغة في عدم قبولهم، وفي نفورهم عن توحيد الله وعبادته، وجاء في الأنبياء بالواو، فاحتمل معنى الفاء، واحتمل تأخر تقطعهم عن الأمر بالعبادة. ا هـ.

وقرأ الكوفيون[2]: ﴿وإن﴾: بكسر الهمزة والتشديد على الاستئناف، والحرميان وأبو عمرو بالفتح والتشديد؛ أي: ولأن، وابن عامر: بالفتح والتخفيف، وهي المخففة من الثقيلة. ذكره في «البحر».

---

(١) البحر المحيط.

(٢) البحر المحيط.

وعبارة «الشوكاني» هنا: قرىء[1] بكسر ﴿إن﴾ على الاستئناف المقرر لما تقدمه، وقرىء بفتحها وتشديدها. قال الخليل: هي في موضع نصب لما زال الخافض؛ أي: أنا عالم بأن هذا دينكم الذي أمرتكم أن تؤمنوا به. وقال الفراء: أن متعلقة بفعل محذوف، تقديره: واعلموا أن هذه أمتكم. وقال سيبويه: هي متعلقة باتقون، والتقدير: فاتقون؛ لأن أمتكم أمة واحدة.

ثم ذكر سبحانه ما وقع من الأمم، من مخالفتهم لما أمرتهم الرسل به، فقال: ﴿فَتَقَطَّعُوٓاْ﴾؛ أي: فجعل أتباع الأنبياء ﴿أَمْرَهُم﴾؛ أي: أمر دينهم مع اتحاده في الوضع الإلهي قطعاً متفرقة، وأدياناً مختلفة فيما ﴿بَيْنَهُمْ﴾ حالة كون أمرهم ﴿زُبُرًا﴾؛ أي: قطعاً مختلفة. جمع زبرة، بمعنى قطعة، كغرفة وغرف، فهو حال من أمرهم، أو من واو تقطعوا؛ أي: حال كونهم طائفة مختلفة متفرقة. ﴿كُلُّ حِزْبِۭ﴾؛ أي: كل جماعة من أولئك المتحزبين ﴿بِمَا لَدَيْهِمْ﴾ من الدين الذي اختاروه ﴿فَرِحُونَ﴾؛ أي: مسرورون معجبون معتقدون أنه الحق دون ما سواه.

فيا أتباع[2] الأنبياء أين عقولكم إن الله تعالى أرسل إليكم رسلاً، فجعلتموهم محل الشقاق، ومنار النزاع، لم هذا؟ هل اختلاف الشرائع مع اتحاد الأصول والعقائد ينافي المودة والمحبة؟ وأين أنتم يا أتباع محمد، ما لكم كيف تفرقتم أحزاباً؟ هل اختلاف المذاهب كشافعية ومالكية وزيدية وشيعة يفرق العقيدة، وكيف يكون سبب التفرقة فهل تغير الدين، وهل تغير القرآن، وهل تغيرت القبلة؟ وهل حدث إشراك؟ كلا كلا، فإذا كان العيب قد لحق الأمم المختلفة على تنابذها، فما أجدركم أن يلحقكم الذم على تنابذكم، وأنتم أهل دين واحد.

ولا علة لهذا إلا الجهالة الجهلاء، فقد خيم الجهل فوق ربوعكم ومدت طنبه بين ظهرانيكم؛ لأنكم فرطتم في كتاب ربكم، ظننتم أن أسس الدين هي مسائل العبادات والأحكام وتركتم الأخلاق وراءكم ظهرياً، وتركتم آيات التوحيد

---

(١) الشوكاني. (٢) المراغي.

والنظر في الأكوان، ولو أنكم نظرتم إلى شيء من هذا لعلمتم أن كل ذلك من دينكم، وأنتم عنه غافلون.

وقرأ ابن عباس وأبو عمران الجوني[1]: ﴿زُبراً﴾ بضم الزاي وفتح الباء. وقرأ أبو الجوزاء وابن السميقع: ﴿زبراً﴾ بضم الزاي وإسكان الباء. قال الزجاج: من قرأ ﴿زبراً﴾ بضم الباء، فتأويله جعلوا دينهم كتباً مختلفةً، جمع زبور. ومن قرأه: ﴿زبراً﴾ بفتح الباء أراد قطعاً كقطع الحديد.

وبعد[2] أن ذكر سبحانه ما حدث من أمم أولئك الأنبياء، من التفرق والانقسام فيما كان يجب عليهم فيه اتفاق الكلمة، ومن فرحهم بما فعلوا.. أمر نبيه أن يتركهم في جهلهم الذي لا جهل فوقه؛ لأنه لا ينجع فيهم النصح، ولا يجدي فيهم الإرشاد، فقال: ﴿فذرهم﴾ والفاء فيه فصيحة، لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفت يا محمد تقطعهم في أمرهم، وفرحهم بما هم عليه من الأديان الباطلة، وأردت بيان ما هو الأصلح لك، فأقول لك: أترك هؤلاء الكفرة المتفرقة ﴿فِي غَمْرَتِهِمْ﴾؛ أي: على غيهم وضلالهم، ولا تشغل قلبك بهم، وبتفرقهم ﴿حَتَّىٰ حِينٍ﴾؛ أي: إلى حين قتلهم أو موتهم على الكفر، أو نزول العذاب بهم، فهو وعيد لهم بعذاب الدنيا والآخرة، وتسلية لرسول الله ﷺ، ونهي له عن الاستعجال بعذابهم، والجزع من تأخيره، فالآية خرجت مخرج التهديد لهم، لا مخرج الأمر له ﷺ، شبه سبحانه ما هم فيه من الجهالة بالماء الذي يغمر القامة ويسترها؛ لأنهم مغمورون فيها لا عيون لها، **والمعنى**: اتركهم في جهلهم، فليسوا بأهل للهداية ولا يضق صدرك بتأخير العذاب عنهم، فلكل شيء أجل معلوم.

ونحو الآية قوله: ﴿فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا ﴿١٧﴾﴾ وقوله: ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾﴾.

وقرأ الجمهور: ﴿في غمرتهم﴾، وعلي بن أبي طالب وأبو حيوة والسلمي:

---

(١) زاد المسير. (٢) المراغي.

﴿في غمراتهم﴾ على الجمع؛ لأن لكل واحد غمرة، وعلى قراءة الجمهور: فغمرة تعم إذا أضيفت إلى عام.

ثم بيّن خطأهم فيما يظنون، من أن سعة الرزق في الدنيا علامة رضا الله عنهم في الآخرة، فقال: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ﴾ الهمزة فيه[1] الإنكار الواقع واستقباحه. وما موصولة؛ أي: أيظن هؤلاء الكفرة، أن الذي نعطيهم إياه ونجعله مدداً لهم، ﴿من مال وبنين﴾ بيان للموصول، وتخصيص البنين لشدة افتخارهم بهم. ﴿نُسَارِعُ﴾ به ﴿لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِۚ﴾؛ أي: فيما فيه خيرهم وإكرامهم، وجواب الاستفهام محذوف، يدل عليه قوله: ﴿بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾؛ أي: لا يعلمون أن ذلك استدراج؛ لأنه معطوف على مقدر يدل عليه السياق؛ أي: كلا لا نفعل ذلك بل هم لا يشعرون بشيء أصلاً كالبهائم التي لا تفهم ولا تعقل، فإن ما خولناهم من النعم، وأمددناهم به من الخيرات، إنما هو استدراج لهم، ليزدادوا إثماً. كما قال سبحانه: ﴿إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًاۚ﴾.

والمعنى: أيظن هؤلاء المغرورون، أن ما نعطيهم من الأموال والأولاد كرامة لهم وإجلال لأقدارهم عندنا، كلا إن هذا الإمداد ليس إلا استدراجاً في المعاصي، واستجراراً لهم إلى زيادة الإثم، وهم يحسبونه مسارعة في الخيرات، إذ هم أشبه بالبهائم، لا فطنة لهم ولا شعور، حتى يتفكروا في أنه إستدراج هو أم مسارعة في الخيرات.

ونحو الآية قوله تعالى: حكاية عنهم: ﴿وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾﴾ وقوله: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾.

قال قتادة في تفسير الآية[2]: مكر الله بالقوم في أموالهم وأولادهم، يا ابن آدم لا تعتبر الناس بأموالهم وأولادهم، ولكن اعتبرهم بالإيمان والعمل الصالح.

---

(١) روح البيان. (٢) المراغي.

وعن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله قسم بينكم أخلاقكم كما قسم بينكم أرزاقكم، وإن الله يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب، ولا يعطي الدين إلا من أحب، فمن أعطاه الله الدين فقد أحبه، والذي نفس محمد بيده، لا يسلم عبد حتى يسلم قلبه ولسانه، ولا يؤمن حتى يأمن جاره بوائقه»، قالوا: وما بوائقه يا رسول؟ قال: «غشه وظلمه».

وقرأ ابن وثاب[1]: ﴿أنما نمدهم﴾ بكسر الهمزة، وقرأ[2] عكرمة وأبو الجوزاء: ﴿يمدهم﴾ بضم الياء وكسر الميم. وقرأ أبو عمران الجوني: ﴿نمدهم﴾ بفتح النون وضم الميم. وقرأ ابن عباس وعكرمة وأيوب السختياني: ﴿يسارع﴾ بضم الياء وكسر الراء. وقرأ معاذ القارىء وأبو المتوكل: مثله، إلا أنهما فتحا الراء. وقرأ أبو عمران الجوني وعاصم الجحدري وابن السميفع: ﴿يسرع﴾ بضم الياء وسكون السين وفتح الراء من غير ألف. وقرأ الباقون: ﴿نسارع﴾ بالنون. قال الثعلبي: وهذه القراءة هي الصواب لقوله: ﴿نمدهم﴾.

ولما نفى الله سبحانه الخيرات الحقيقية عن الكفرة المتنعمين، أتبع ذلك بذكر من هو أهل للخيرات عاجلاً وآجلاً، فوصفهم بصفات أربع:

الأولى: ما ذكرها بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم﴾؛ أي: من خوف عذاب ربهم ﴿مُّشْفِقُونَ﴾؛ أي: دائبون في طاعته، جادون في نيل مرضاته، حذرون من أسباب العذاب، خائفون منها، ومن ثم يبتعدون عن الآثام والمعاصي، والمعنى[3]: إن المؤمنين الذين بما هم عليه من خشية الله خائفون من عذابه. قال الحسن البصري: المؤمن جمع إحساناً وخشية، والمنافق جمع إساءة وأمناً. والفرق بين[4] الخشية والإشفاق أن الخشية خوف يشوبه تعظيم، والإشفاق عناية مختلطة بخوف؛ لأن المشفق يحب المشفق عليه، ويخاف ما يلحقه.

---

(١) البحر المحيط.
(٢) زاد المسير.
(٣) الخازن.
(٤) روح البيان.

وعبارة «الشوكاني» هنا: فظاهر ما في الآية التكرار، وأجيب بحمل الخشية على العذاب؛ أي: من عذاب ربهم خائفون، وبه قال الكلبي ومقاتل. وأجيب بحمل الإشفاق على ما هو أثر له، وهو الدوام على الطاعة؛ أي: الذين هم من خشية ربهم دائمون على طاعته. وأجيب أيضاً: بأن الإشفاق كمال الخوف فلا تكرار. وقيل: هو تكرار للتأكيد.

والصفة الثانية: ذكرها بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ﴾ المنصوبة في الآفاق المنزلة على الإطلاق ﴿يُؤۡمِنُونَ﴾؛ أي: يصدقون مدلولها، ولا يكذبونها بقول، ولا فعل بأن يستدلوا بهذه المخلوقات على وجود الصانع، ويصدقوا بأن ما في القرآن حق من ربهم. والمعنى؛ أي: والذين هم بآيات ربهم الكونية، التي نصبها في الأنفس والآفاق دلالة على وجوده، ووحدانيته، وبآياته المنزلة على رسله، مصدقون موقنون، لا يعتريهم شك ولا ريب.

والصفة الثالثة: ذكرها بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمۡ لَا يُشۡرِكُونَ ۝٥٩﴾ غيره شركاً جليّاً ولا خفياً؛ أي: والذين لا يعبدون مع الله سواه، ويعلمون أنه الواحد الأحد، الفرد الصمد، الذي ليس له صاحبة ولا ولد.

وفيما سبق وصف لله بتوحيد الربوبية، وهنا وصف له بتوحيد الألوهية، ولم يقتصر على الأول، لأن كثيراً من المشركين يعترفون بتوحيد الربوبية، كما قال: ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ﴾ ولا يعترفون بتوحيد الألوهية والعبادة، ومن ثم عبدوا الأصنام والأوثان على طرائق شتى، وعبدوا معبودات مختلفة.

والصفة الرابعة: ذكرها بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡتُونَ مَآ ءَاتَواْ﴾؛ أي: والذين يعطون ما أعطوه من الزكوات والصدقات، ويفعلون ما توسلوا به إلى الله تعالى، من الخيرات والمبرات، وصيغة المضارع للدلالة على الاستمرار، والماضي على التحقق، ﴿وَّقُلُوبُهُمۡ وَجِلَةٌ﴾ حال من فاعل يؤتون؛ أي: والحال أن قلوبهم خائفة أن

---

(١) المراغي.

لا يتقبل ذلك منهم، وأن لا يقع على الوجه المرضي. ﴿أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ﴾؛ أي: خائفون عدم قبولها حين يبعثون، ويرجعون إلى ربهم، وتنكشف الحقائق، ويحتاج العبد إلى عمل مقبول لديه، وإن قل. وجملة ﴿أن﴾ في محل الجر بجار محذوف، متعلق بـ﴿وجلة﴾؛ أي: وجلة من رجوعهم، أو لأجل رجوعهم إلى الله تعالى. وسبب الوجل[1] هو أن يخافوا أن لا يقبل منهم ذلك على المطلوب، لا مجرد رجوعهم إليه سبحانه، **وقيل**: المعنى أن من اعتقد الرجوع إلى الجزاء والحساب، وعلم أن المجازي والمحاسب هو الرب الذي لا تخفى عليه خافية، لم يخل من وجل.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا﴾ من الإيتاء؛ أي: يعطون ما أعطوا من الزكاة والصدقات، وقرأت عائشة وابن عباس وقتادة والأعمش والحسن والنخعي: ﴿يأتون ما آتوا﴾ من الإتيان؛ أي: يفعلون ما فعلوا. وقرأ الأعمش: ﴿إنهم﴾ بالكسر.

ويدخل في قوله[3]: ﴿يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا﴾ كل حق يلزم إيتاؤه، سواءاً كان من حقوق الله، كالزكاة والكفارة وغيرها، أم من حقوق العباد، كالودائع والديون والعدل بين الناس فمتى فعلوا ذلك، وقلوبهم وجلة من التقصير والإخلال بها بنقصان أو غيره.. اجتهدوا في أن يوفوها حقها حين الأداء.

وسألت عائشة رسول الله ﷺ عن قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ أهو الذي يزني ويسرق ويشرب الخمر، وهو على ذلك يخاف الله تعالى فقال: «لا يا ابنة الصديق، ولكن هو الرجل يصلي ويصوم ويتصدق ويخاف أن لا يقبل ذلك منه».

وهذه الموصولات الأربعة[4] عبارة عن طائفة واحدة متصفة بجميع ما ذكر في حيّز صلاتها من الأوصاف الأربعة، لا عن طوائف كل واحدة منها متصفة

---

(١) الشوكاني.
(٢) البحر المحيط.
(٣) المراغي.
(٤) روح البيان.

بواحد من الأوصاف المذكورة، كأنه قيل: إن الذين هم من خشية ربهم مشفقون، وبآيات ربهم يؤمنون إلخ. وإنما كرر الموصول إيذاناً باستقلال كل واحدة من تلك الصفات بفضيلة باهرة على حيالها، وتنزيلاً لاستقلالها منزلة استقلال الموصوف بها.

قال بعضهم: وجل العارف من طاعته أكثر من وجله من مخالفته؛ لأن المخالفة تمحى بالتوبة، والطاعة تطلب بتصحيحها، والإخلاص والصدق فيها، فإذا كان فاعل الطاعات خائفاً مضطرباً، فكيف لا يخاف غيره.

وجملة قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ﴾ خبر إن؛ أي: أولئك الموصوفون بما ذكر من الأوصاف المذكورة الجليلة خاصة دون غيرهم. ﴿يسارعون﴾؛ أي: يبادرون ﴿فِي﴾ نيل ﴿ٱلۡخَيۡرَٰتِ﴾ التي من جملتها الخيرات العاجلة الموعودة على الأعمال الصالحة، كما قال تعالى: ﴿فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنۡيَا وَحُسۡنَ ثَوَابِ ٱلۡأٓخِرَةِۗ﴾. وقال: ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ أَجۡرَهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾؛ أي: أولئك الذين جمعوا هذه المحاسن، يرغبون في الطاعات أشد الرغبة، فيبادرونها لئلا تفوتهم إذا هم ماتوا، ويتعجلون في الدنيا وجوه الخيرات العاجلة، التي وعدوا بها على الأعمال الصالحة في نحو قوله: ﴿فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنۡيَا﴾ الآية، وقيل: المراد بالخيرات الطاعات، والمعنى: يرغبون في الطاعات والعبادات أشد الرغبة، وهم لأجلها فاعلون السبق، أو لأجلها سابقون الناس.

قال في «الإرشاد»: إيثار كلمة (في) على كلمة (إلى)؛ للإيذان بأنهم متقلبون في فنون الخيرات، لا أنهم خارجون عنها، متوجهون إليها بطريق المسارعة.

كما في قوله تعالى: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ﴾ الخ.

وقرأ الحُرُّ النحوي: ﴿يسرعون﴾ مضارع أسرع، يقال: أسرعت إلى الشيء وسرعت إليه بمعنى واحد، وأما المسارعة فالمسابقة؛ أي: يسارعون غيرهم.

وجملة قوله: ﴿وَهُمۡ لَهَا سَٰبِقُونَ﴾ مؤكدة لما قبلها، مفيدة للثبوت بعد ما أفادت الأولى التجدد، ومفعول المسابقة محذوف، واللام بمعنى إلى؛ أي: وهم

يسابقون الناس إلى تلك الخيرات لينالوا رضا الله تعالى؛ أي: إنهم يرغبون في الطاعات وهم لأجلها سابقون الناس إلى الثواب، لا أولئك الذين أمددناهم بالمال والبنين فظنوا غير الحق أن ذلك إكرام منا لهم، فإن إعطاء المال والبنين والإمداد بهما لا يؤهل للمسارعة إلى الخيرات، وإنما الذي يؤهل للخيرات هو خشية الله وعدم الإشراك به، وعدم الرياء في العمل، والتصديق مع الخوف منه.

وخلاصة ذلك: أن النعم ليست هي السعادة الدنيوية ونيل الحظوظ فيها، بل هي العمل الطيب بإيتاء الصدقات، ونحوها، مع إحاطة ذلك بالخوف والخشية.

﴿وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا﴾ من النفوس ﴿إِلَّا وُسْعَهَا﴾؛ أي: قدر طاقتها، فقول: لا إله إلا الله، والعمل بما يترتب عليه من الأحكام من قبيل ما هو في الوسع؛ أي: أن[1] سنتنا جارية على أن لا نكلف نفساً من النفوس إلا ما في وسعها وقدر طاقتها، ومن ثم قال مقاتل: من لم يستطع القيام في الصلاة، فليصل قاعداً، ومن لم يستطع القعود فليوم إيماء؛ أي: فإن الله تعالى لا يكلف عباده إلا ما في وسعهم، فإن لم يبلغوا في فعل الطاعات مراتب السابقين، فلا عليهم بعد أن يبذلوا طاقتهم.

﴿وَلَدَيْنَا﴾؛ أي: وعندنا، عندية رتبة واختصاص. ﴿كِتَٰبٌ﴾؛ أي[2]: صحائف أعمال قد أثبت فيها أعمال كل أحد على ما هي عليه ﴿يَنطِقُ﴾ ذلك الكتاب ﴿بِٱلْحَقِّ﴾؛ أي: بالصدق لا يوجد فيه ما يخالف الواقع؛ أي: يظهر الحق ويبينه للناظر فيه، كما يبينه النطق، ويظهر للسامع، فأعمال العباد كلها مثبتة في صحائفهم، فيقرؤونها حين الحساب، وتظهر فيها أعمالهم التي عملوها في الدنيا دون لبس ولا ريب، ويجازون عليها، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، ونحو الآية قوله تعالى: ﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ

---

(١) المراغي.
(٢) روح البيان.

(٢٩)﴾ وقوله: ﴿لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَاۚ﴾ وفي هذا تهديد للعصاة، وتأنيس للمطيعين من الحيف والظلم.

وجملة قوله: ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَاۖ﴾ مستأنفة[1]، للتحريض على ما وصف به السابقون، من فعل الطاعات المؤدي إلى نيل الكرامات، ببيان سهولته، وكونه غير خارج عن حد الوسع والطاقة، وأن ذلك عادة الله سبحانه في تكليف عباده، وجملة قوله: ﴿وَلَدَيْنَا كِتَٰبٌ يَنطِقُ بِٱلْحَقِّۚ﴾ من تمام ما قبلها، من نفي التكليف بما فوق الوسع، وقيل: المراد بالكتاب اللوح المحفوظ، فإنه قد كتب فيه كل شيء، وقيل: المراد بالكتاب القرآن والأول أولى.

ثم بيّن فضله على عباده، وعدله بينهم في الجزاء إثر بيان لطفه في التكليف وكتابة الأعمال على ما هي عليه، فقال: ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ في الجزاء بنقص ثواب، أو زيادة عذاب، بل يجزون بقدر أعمالهم التي كلفوها، ونطقت بها صحائفها بالحق، والجمع في ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ باعتبار عموم النفس لوقوعها في سياق النفي.

الإعراب

﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ (٣١) فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٣٢)﴾.

﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف وتراخ، ﴿أَنشَأْنَا﴾: فعل وفاعل ﴿مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾: جار ومجرور، متعلق بمحذوف حال من ﴿قَرْنًا﴾؛ لأنه صفة نكرة قدمت عليها. ﴿قَرْنًا﴾: مفعول به. ﴿ءَاخَرِينَ﴾: صفة لـ﴿قَرْنًا﴾. والجملة الفعلية معطوفة على محذوف معلوم من السياق، تقديره: فأغرقنا قوم نوح لما كذبوه، ثم أنشأنا من بعدهم قرناً آخرين. ﴿فَأَرْسَلْنَا﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة. ﴿أرسلنا﴾: فعل وفاعل. ﴿فِيهِمْ﴾ متعلق بـ﴿أرسلنا﴾. ﴿رَسُولًا﴾: مفعول به. ﴿مِّنْهُمْ﴾ جار ومجرور صفة

(١) الشوكاني.

لـ﴿رَسُولًا﴾. والجملة معطوفة على جملة ﴿أَنشَأْنَا﴾. ﴿أَنِ﴾: مفسرة؛ لأن في الإرسال معنى القول دون حروفه؛ أي: قلنا لهم على لسان الرسول: اعبدوا الله، ويجوز أن تكون مصدرية مؤولة مع ما بعدها بمصدر، مجرور بحرف جر محذوف، متعلق بـ﴿أرسلنا﴾؛ أي: أرسلنا فيهم رسولاً منهم، بعبادة الله تعالى. بأن أعبدوا ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ فعل وفاعل ومفعول ﴿مَا﴾: نافية. ﴿لَكُم﴾: جار ومجرور خبر مقدم. ﴿مِّنْ إِلَٰهٍ﴾: مبتدأ مؤخر، و﴿من﴾: زائدة. ﴿غَيْرُهُ﴾: صفة لإله بالرفع، تبعاً لمحله، وبالجر تبعاً للفظه. والجملة الإسمية مستأنفة، مسوقة لتعليل الأمر بالعبادة. ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾: (الهمزة): للاستفهام الإنكاري داخلة على محذوف. و﴿الفاء﴾: عاطفة على ذلك المحذوف، والجملة المحذوفة مستأنفة، والتقدير: أتشركون بالله فلا تتقون عذابه. ﴿لا﴾: نافية. و﴿تَتَّقُونَ﴾: فعل وفاعل معطوف على ذلك المحذوف.

﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾.

﴿وَقَالَ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿قال الملأ﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿أرسلنا﴾. ﴿مِن قَوْمِهِ﴾: جار ومجرور حال من ﴿الْمَلَأُ﴾. ﴿الَّذِينَ﴾ في محل الجر صفة لـ﴿قَوْمِهِ﴾. ﴿كَفَرُوا﴾: فعل وفاعل صلة الموصول. ﴿وَكَذَّبُوا﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿كَفَرُوا﴾. ﴿بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ﴾: جار ومجرور، ومضاف إليه متعلق بـ﴿كذبوا﴾. ﴿وَأَتْرَفْنَاهُمْ﴾: فعل وفاعل ومفعول به معطوف على ﴿كذبوا﴾. ﴿فِي الْحَيَاةِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿أترفناهم﴾. ﴿الدُّنْيَا﴾ صفة للحياة.

﴿مَا هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ﴾.

﴿مَا﴾: نافية. ﴿هَٰذَا﴾: مبتدأ. ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ. ﴿بَشَرٌ﴾: خبر المبتدأ. ﴿مِّثْلُكُمْ﴾: صفة أولى لـ﴿بَشَرٌ﴾. والجملة الاسمية في محل النصب، مقول قال: ﴿يَأْكُلُ﴾: فعل مضارع وفاعله ضمير يعود على ﴿بَشَرٌ﴾. ﴿مِمَّا﴾: جار ومجرور متعلق به، والجملة في محل الرفع صفة ثانية لبشر. ﴿تَأْكُلُونَ﴾: فعل وفاعل صلة الموصول. ﴿مِنْهُ﴾: متعلق به وهو العائد على الموصول. ﴿وَيَشْرَبُ﴾ معطوف على يأكل. ﴿مِمَّا﴾ متعلق به. ﴿تَشْرَبُونَ﴾ صلة الموصول،

والعائد محذوف اكتفاء بالعائد الأول، وهو ضمير منه لاستكمال شروط جواز حذفه، وهي اتحاد الحرف والمتعلق، وعدم قيامه مقام مرفوع، وعدم ضمير آخر، وقد أشار إليها ابن مالك بقوله:

كَذَا ٱلَّذِيْ جُرَّ بِمَا ٱلْمَوْصُوْلَ جَرّ   كَمُرَّ بِٱلَّذِيْ مَرَرْتُ فَهُوَ بَرّ

هذا إذا جعلناها بمعنى الذي، فإن جعلناها مصدراً، لم تحتج إلى عائد، ويكون المصدر واقعاً موقع المفعول؛ أي: من مشروبكم. ا هـ. «كرخي».

﴿وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ ﴿٣٤﴾ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾ ۞ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾﴾.

﴿وَلَئِنْ أَطَعْتُم﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة. (واللام): موطئة للقسم، ﴿إن﴾: حرف شرط. ﴿أَطَعْتُم﴾: فعل وفاعل في محل الجزم بـ﴿أن﴾ الشرطية على كونها فعل شرط لها. ﴿بَشَرًا﴾ مفعول به. ﴿مِّثْلَكُمْ﴾: صفة له. ﴿إِنَّكُمْ﴾: ناصب واسمها. ﴿إِذًا﴾: حرف شرط غير جازم، بمعنى إن الشرطية، جيء بها لتأكيد مضمون الشرط، توكيداً لفظياً، من قبيل إعادة الشيء بمرادفه، والتنوين فيها عوض عن جملة شرطها المحذوفة، تقديره: إنكم إن أطعتموه.. لخاسرون، ولا جواب لها؛ لأنها إنما ذكرت.. لتأكيد ما قبلها. كذا في «الإتقان» للحافظ السيوطي. ﴿لَّخَاسِرُونَ﴾ اللام حرف ابتداء. ﴿خاسرون﴾: خبر ﴿إن﴾. وجملة إن المكسورة، جواب القسم لا محل لها. وجملة القسم في محل النصب معطوفة على جملة قوله: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ على كونها مقول ﴿قال﴾، وجواب إن الشرطية محذوف، دل عليه جواب القسم، تقديره: وإن أطعتم بشراً مثلكم.. فإنكم إذاً لخاسرون، وجملة إن الشرطية في محل النصب مقول ﴿قال﴾ أيضاً، على كونها معترضة بين القسم وجوابه، ولا يصلح أن تكون جملة ﴿إن﴾ المكسورة جواب الشرط؛ لعدم وجود الفاء، وهذا جرى على القاعدة التي ذكرها ابن مالك في «الخلاصة»:

وَٱحْذِفْ لَدَىٰ ٱجْتِمَاعِ شَرْطٍ وَقَسَمْ   جَوَابَ مَا أَخَّرْتَ فَهْوَ مُلْتَزَمْ

﴿أَيَعِدُكُمْ﴾ (الهمزة): فيه للاستفهام الإنكاري. ﴿يعدكم﴾: فعل ومفعول به

أول، وفاعله ضمير يعود على هود، والجملة الفعلية في محل النصب مقول ﴿قال﴾ على كونها مستأنفة، مسوقة لتقرير ما قبلها، ومن زجرهم عن اتباعه؛ بإنكار وقوع ما يدعوهم إلى الإيمان به، واستبعاده، كما في «أبي السعود». ﴿أَنَّكُمْ﴾ ناصب واسمه، ﴿إِذَا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان، مجرد عن معنى الشرط، في محل النصب على الظرفية، والظرف متعلق بمخرجون. ﴿مِتُّمْ﴾: فعل وفاعل في محل الجر مضاف إليه لـ﴿إِذَا﴾. ﴿وَكُنتُمْ تُرَابًا﴾: فعل ناقص واسمه وخبره معطوف على ﴿متم﴾. ﴿وَعِظَٰمًا﴾ معطوف على ﴿تراباً﴾. ﴿أَنَّكُم﴾ توكيد لفظي لـ﴿أَنَّكُمْ﴾ الأولى أكد بها لما طال الفصل بين اسمها وهو الكاف، وخبرها وهو ﴿مُّخْرَجُونَ﴾. ﴿مُّخْرَجُونَ﴾: خبر ﴿أَنَّكُمْ﴾ الأولى، وجملة ﴿أن﴾ الأولى في محل النصب مفعول ثان لـ﴿يعدكم﴾، والتقدير: أيعدكم إخراجكم من القبور وقت موتكم، وكونكم تراباً وعظاماً. ﴿هَيْهَاتَ﴾: اسم فعل ماض بمعنى بعد، مبني على الفتح، والغالب في الاستعمال أن تستعمل هذه الكلمة مكررة، والثانية توكيد لفظي للأولى. ﴿لِمَا﴾ اللام زائدة في الفاعل. ﴿ما﴾: اسم موصول في محل الرفع فاعل لـ﴿هَيْهَاتَ﴾؛ أي: بعد ما توعدون ﴿تُوعَدُونَ﴾: فعل مغير ونائب فاعل، والجملة صلة ﴿ما﴾ الموصولة، والعائد محذوف، تقديره: ما توعدونه، ويجوز أن تكون ما مصدرية، والمصدر المؤول منها فاعل ﴿هَيْهَاتَ﴾، وجملة ﴿هَيْهَاتَ﴾ في محل النصب مقول ﴿قال﴾.

﴿إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُۥ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٣٩﴾ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَٰدِمِينَ ﴿٤٠﴾﴾.

﴿إِنْ﴾: نافية. ﴿هِىَ﴾: مبتدأ، أصله إن الحياة إلا حياتنا، فأقيم الضمير مقام الأولى لدلالة الثانية عليها، حذراً، من التكرار، وإشعاراً بإغنائها عن التصريح، كما في قولهم: هي النفس تتحمل ما حملت، وهي العرب تقول ما شاءت وحيث كان الضمير بمعنى الحياة الدالة على الجنس، كانت ﴿إِنْ﴾ النافية بمنزلة النافية للجنس اهـ «أبو السعود». ﴿إِلَّا﴾: اداة استثناء مفرغ. ﴿حَيَاتُنَا﴾:

خبر المبتدأ. ﴿ٱلدُّنۡيَا﴾: صفة لـ﴿حَيَاتُنَا﴾، والجملة الاسمية في محل النصب مقول ﴿قال﴾ على كونها مستأنفة، مسوقة لتقرير معتقدهم، بأن العالم قديم بالطبع، ولم يزل كذلك، ولم يحدث بإحداث محدث، والناس كالنبات ينبتون ويعودون بالموت هشيماً، وهذا كفر صريح وضلال بعيد. ﴿نَمُوتُ﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر، يعود على المتكلمين من قوم هود، والجملة في محل النصب حال من الضمير المضاف إليه في ﴿حَيَاتُنَا﴾. ﴿وَنَحۡيَا﴾: معطوف على نموت. ﴿وَمَا نَحۡنُ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿ما﴾: حجازية. ﴿نَحۡنُ﴾: اسمها. ﴿بِمَبۡعُوثِينَ﴾: خبرها، والباء زائدة، والجملة الاسمية معطوفة على الجملة في قوله: ﴿إِنۡ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا﴾. ﴿إِنۡ﴾: نافية. ﴿هُوَ﴾: مبتدأ. ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ. ﴿رَجُلٌ﴾: خبر المبتدأ والجملة في محل النصب مقول ﴿قال﴾ على كونها مستأنفة. ﴿ٱفۡتَرَىٰ﴾: فعل ماض وفاعل مستتر يعود على رجل. ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾: متعلق به. ﴿كَذِبًا﴾: مفعول به، والجملة في محل الرفع صفة لرجل. ﴿وَمَا﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿ما﴾: حجازية. ﴿نَحۡنُ﴾: اسمها. ﴿له﴾: متعلق ﴿بِمُؤۡمِنِينَ﴾. ﴿بِمُؤۡمِنِينَ﴾: خبرها، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ﴾. ﴿قَالَ﴾: فعل ماض وفاعل مستتر يعود على هود، والجملة مستأنفة. ﴿رَبِّ﴾: منادى مضاف، وجملة النداء في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿ٱنصُرۡنِي﴾: فعل دعاء وفاعل مستتر يعود على الرب، و(النون): للوقاية. و(الياء): مفعول به، والجملة الفعلية في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾ على كونها جواب النداء. ﴿بِمَا﴾: (الباء): جرف جر وسبب. ﴿ما﴾: مصدرية. ﴿كَذَّبُونِ﴾: فعل ماض وفاعل. و(النون): للوقاية. و(ياء): المتكلم المحذوفة اجتزاء عنها بكسرة نون الوقاية، مفعول به، والجملة الفعلية في تأويل مصدر، مجرور بالباء؛ أي: بسبب تكذيبهم إياي، الجار والمجرور متعلق بـ﴿ٱنصُرۡنِي﴾. ﴿قَالَ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على الله والجملة مستأنفة. ﴿عَمَّا﴾: ﴿عن﴾: حرف جر بمعنى بعد. ﴿ما﴾: زائدة. ﴿قَلِيلٍ﴾: مجرور بعن، الجار والمجرور متعلق بـ﴿يصبحن﴾ أو بنادمين ﴿لَّيُصۡبِحُنَّ﴾ (اللام): موطئة للقسم. ﴿يصبحن﴾ فعل مضارع ناقص مرفوع لتجرده عن الناصب والجازم، وعلامة رفعه ثبات النون المحذوفة لتوالي الأمثال.

والواو المحذوفة لالتقاء الساكنين، في محل الرفع اسمها، والنون المشددة نون التوكيد الثقيلة. ﴿نَدِمِينَ﴾: خبر أصبح، وجملة يصبح جواب القسم، لا محل لها من الإعراب، وجملة القسم في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾.

﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ بِٱلْحَقِّ فَجَعَلْنَٰهُمْ غُثَآءً فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤١﴾﴾.

﴿فَأَخَذَتْهُمُ﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة. ﴿أخذتهم﴾: فعل ومفعول. ﴿ٱلصَّيْحَةُ﴾: فاعل. ﴿بِٱلْحَقِّ﴾: حال من الصيحة، والجملة معطوفة على جملة قال. ﴿فَجَعَلْنَٰهُمْ﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة. ﴿جعلناهم غثاء﴾: فعل وفاعل ومفعولان، والجملة معطوفة على جملة ﴿فَأَخَذَتْهُمُ﴾. ﴿فَبُعْدًا﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة. ﴿بعداً﴾: منصوب بفعل محذوف وجوباً لنيابته عنه، تقديره: ألزمنا، أو أوجبنا. ﴿بعداً﴾: مفعول به. ﴿لِّلْقَوْمِ﴾: جار ومجرور صفة لـ﴿بعداً﴾. ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾: صفة ﴿للقوم﴾، والجملة الفعلية معطوفة على جملة ﴿فَجَعَلْنَٰهُمْ غُثَآءً﴾، أو مفعول مطلق لفعل محذوف وجوباً، لنيابة المصدر عنه، تقديره: بعدوا بعداً.

﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قُرُونًا ءَاخَرِينَ ﴿٤٢﴾ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ﴿٤٣﴾﴾.

﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف وتراخٍ. ﴿أَنشَأْنَا﴾: فعل وفاعل، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿فَجَعَلْنَٰهُمْ غُثَآءً﴾. ﴿مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾: جار ومجرور حال من ﴿قروناً﴾؛ لأنه صفة نكرة قدمت عليها ﴿قُرُونًا﴾: مفعول به. ﴿ءَاخَرِينَ﴾: صفة قروناً. ﴿مَا﴾: نافية. ﴿تَسْبِقُ﴾: فعل مضارع. ﴿مِنْ﴾: زائدة. ﴿أُمَّةٍ﴾: فاعل مرفوع محلاً، مجرور لفظاً. ﴿أَجَلَهَا﴾: مفعول به ومضاف إليه، والجملة مستأنفة. ﴿وَمَا﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿مَا﴾: نافية. ﴿يَسْتَـْٔخِرُونَ﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿تَسْبِقُ﴾، وذكر الضمير في ﴿يَسْتَـْٔخِرُونَ﴾ بعد تأنيثه لمراعاة المعنى؛ لأن أمة بمعنى قوم.

﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ﴾.

﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف وتراخٍ. ﴿أَرْسَلْنَا﴾: فعل وفاعل. ﴿رُسُلَنَا﴾: مفعول

به. ﴿تَتْرَا﴾: حال من ﴿رسلنا﴾، وعلامة نصبه فتحة مقدرة للتعذر؛ لأنه اسم مقصور، ألفه للإلحاق بجعفر كأرطى وعلقى، والتاء فيه مبدلة من الواو، وأصله وترى؛ أي: متعاقبين متتابعين بعضهم بعضاً، أو هو مصدر كشبعى ودعوى فألفه للتأنيث، والجملة معطوفة على جملة ﴿أَنشَأْنَا﴾. ﴿كل ما﴾: اسم شرط غير جازم، في محل النصب على الظرفية مبني على السكون، والظرف متعلق بالجواب الآتي. ﴿جَآءَ﴾: فعل ماض. ﴿أمة﴾: مفعول به مقدم. ﴿رَّسُولُهَا﴾: فاعل مؤخر وجوباً لاتصاله بضمير المفعول، والجملة الفعلية فعل شرط لـ﴿كل ما﴾. ﴿كَذَّبُوهُ﴾: فعل وفاعل ومفعول به، والجملة جواب ﴿كل ما﴾: لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿كل ما﴾: مستأنفة.

﴿فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾.

﴿فَأَتْبَعْنَا﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة. ﴿أتبعنا﴾: فعل وفاعل. ﴿بَعْضَهُم﴾: مفعول به أول. ﴿بَعْضًا﴾: مفعول به ثان، والجملة معطوفة على ﴿كَذَّبُوهُ﴾. ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ﴾: فعل وفاعل ومفعول أول. ﴿أَحَادِيثَ﴾: مفعول ثان، والجملة معطوفة على جملة ﴿جعلنا﴾. ﴿فَبُعْدًا﴾: ﴿الفاء﴾: استئنافية. ﴿بعداً﴾: مفعول مطلق لفعل محذوف وجوباً لنيابته عنه، تقديره بعدوا بعداً، وهذا دعاء عليهم، أو أوجبنا بعداً. ﴿لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾: ﴿لِّقَوْمٍ﴾: جار ومجرور صفة لـ﴿بعداً﴾، ولا تتعلق به هذه اللام؛ لأنه لا يحفظ حذف هذه اللام، ووصول المصدر إلى مجرورها ألبتة. والجملة المحذوفة مستأنفة، وجملة ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾: في محل الجر صفة ﴿لِّقَوْمٍ﴾.

﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٤٥﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾﴾.

﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف وتراخٍ. ﴿أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ﴾: فعل وفاعل ومفعول به، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٣١﴾﴾. ﴿وَأَخَاهُ﴾: معطوف على ﴿مُوسَىٰ﴾. ﴿هَٰرُونَ﴾: بدل من ﴿أخاه﴾، أو عطف بيان له. ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾: جار ومجرور حال من ﴿مُوسَىٰ﴾ و﴿هَٰرُونَ﴾؛ أي: حالة كونهما ملتبسين بآياتنا، فالباء للملابسة. ﴿وَسُلْطَٰنٍ﴾: معطوف على ﴿آياتنا﴾. ﴿مُّبِينٍ﴾:

صفة لـ﴿سلطان﴾. ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾: جار ومجرور، وعلامة جره الفتحة نيابة عن الكسرة؛ لأنه اسم لا ينصرف للعلمية والعجمية، متعلق بـ﴿أَرْسَلْنَا﴾. ﴿وَمَلَإِيْهِۦ﴾: معطوف على فرعون. ﴿فَاسْتَكْبَرُوا﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة. ﴿استكبروا﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿أَرْسَلْنَا﴾. ﴿وَكَانُوا قَوْمًا﴾: فعل ناقص واسمه وخبره، معطوف على ﴿استكبروا﴾. ﴿عَالِينَ﴾: صفة ﴿قَوْمًا﴾.

﴿فَقَالُوٓا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ ﴿٤٧﴾﴾.

﴿فَقَالُوٓا﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة. ﴿قالوا﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿استكبروا﴾. ﴿أَنُؤْمِنُ﴾: (الهمزة): للاستفهام الإنكاري، ﴿نؤمن﴾: فعل وفاعل مستتر يعود إلى ﴿فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ﴾، والجملة في محل النصب مقول ﴿قالوا﴾. ﴿لِبَشَرَيْنِ﴾: متعلق بـ﴿نؤمن﴾. ﴿مِثْلِنَا﴾: صفة ﴿لِبَشَرَيْنِ﴾ وهو اسم كغير في أنه يوصف بهما الاثنان، والجمع والمذكر والمؤنث، والبشر يقع على الواحد والمثنى والمجموع والمذكر والمؤنث. ﴿وَقَوْمُهُمَا﴾: مبتدأ مضاف إليه. ﴿لَنَا﴾: متعلق بـ﴿عَٰبِدُونَ﴾. ﴿عَٰبِدُونَ﴾: خبر المبتدأ، والجملة في محل النصب حال من فاعل ﴿نؤمن﴾.

﴿فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ ٱلْمُهْلَكِينَ ﴿٤٨﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾﴾.

﴿فَكَذَّبُوهُمَا﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة. ﴿كذبوهما﴾: فعل وفاعل ومفعول معطوف على ﴿فَقَالُوٓا﴾. ﴿فَكَانُوا﴾: فعل ناقص واسمه ﴿مِنَ ٱلْمُهْلَكِينَ﴾: خبره، والجملة معطوفة على جملة ﴿كذبوهما﴾. ﴿وَلَقَدْ﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية. (اللام): موطئة للقسم. ﴿قد﴾: حرف تحقيق. ﴿ءَاتَيْنَا﴾: فعل وفاعل. ﴿مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾: مفعولان لـ﴿أتينا﴾؛ لأنه بمعنى أعطى، والجملة جواب القسم، وجملة القسم مستأنفة. ﴿لَعَلَّهُمْ﴾: ﴿لعل﴾: حرف ترجٍ ونصب والهاء اسمها، والضمير يعود إلى قوم موسى؛ لأن فرعون وقومه كانوا قد بادوا، وجملة ﴿يَهْتَدُونَ﴾: في محل الرفع خبر ﴿لعل﴾، وجملة ﴿لعل﴾: مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴿٥٠﴾﴾.

﴿وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾: فعل وفاعل ومفعول أول. ﴿وَأُمَّهُۥٓ﴾: معطوف على ابن مريم. ﴿ءَايَةً﴾: مفعول ثان لـ﴿جعلنا﴾. والجملة الفعلية معطوفة على جملة قوله ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ﴾، ولم يقل آيتين؛ لأن فيهما واحدة، وهي الولادة من غير أب، ﴿وَءَاوَيْنَٰهُمَآ﴾: فعل وفاعل ومفعول معطوف على ﴿جعلنا﴾. ﴿إِلَىٰ رَبْوَةٍ﴾: متعلق بـ﴿آويناهما﴾. ﴿ذَاتِ﴾: صفة لـ﴿رَبْوَةٍ﴾. ﴿قَرَارٍ﴾: مضاف إليه. ﴿وَمَعِينٍ﴾: معطوف على ﴿قَرَارٍ﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴿٥٢﴾ فَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٥٣﴾﴾.

﴿يا﴾: حرف نداء. ﴿أي﴾: منادى نكرة مقصودة. ﴿ها﴾: حرف تنبيه زائد. ﴿ٱلرُّسُلُ﴾: صفة لـ﴿أي﴾، أو عطف بيان، أو بدل منه، وجملة النداء مستأنفة. ﴿كُلُوا۟﴾: فعل وفاعل، والجملة جواب النداء. ﴿مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿كلوا﴾. ﴿وَٱعْمَلُوا۟﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿كُلُوا۟﴾. ﴿صَٰلِحًا﴾ مفعول به أو مفعول مطلق. ﴿إِنِّى﴾: ناصب واسمه. ﴿بِمَا﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿عليم﴾. ﴿تَعْمَلُونَ﴾: فعل وفاعل صلة لـ﴿ما﴾، أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف، تقديره: تعملونه ﴿عَلِيمٌ﴾: خبر إن، وجملة إن مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها. ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿إن هذه أمتكم﴾: ناصب واسمه وخبره، والجملة مستأنفة على قراءة كسر همزة ﴿إن﴾، وأما على قراءة فتحها فالجملة سادة مسد مفعولي علم المحذوفة، تقديرها: واعلموا أن هذه أمتكم أمة واحدة، والجملة المحذوفة معطوفة على جملة قوله: ﴿وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا﴾. ﴿أُمَّةً﴾: حال لازمة من ﴿أُمَّتُكُمْ﴾. ﴿وَٰحِدَةً﴾: صفة ﴿لأمة﴾. ﴿وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة معطوفة على جملة ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ﴾. ﴿فَٱتَّقُونِ﴾: ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفتم وأنا ربكم وأردتم بيان ما هو اللازم لكم.. فأقول لكم ﴿اتقون﴾. ﴿اتقون﴾: فعل أمر مبني على حذف النون والواو فاعل، والنون نون

الوقاية، وياء المتكلم المحذوفة اجتزاء عنها بكسرة نون الوقاية في محل النصب مفعول به، والجملة الفعلية في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة استئنافاً بيانياً. ﴿فَتَقَطَّعُوٓاْ﴾: ﴿الفاء﴾: استئنافية. ﴿تقطعوا﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿أَمْرَهُم﴾: إما منصوب بنزع الخافض؛ أي: تفرقوا في أمرهم، أو مفعول به وعدى تقطعوا إليه؛ لأنه بمعنى قطعوا. ﴿بَيْنَهُمْ﴾: ظرف متعلق بـ﴿تقطعوا﴾. ﴿زُبُرًاۖ﴾: حال من فاعل ﴿تقطعوا﴾؛ أي: حالة كونهم أحزاباً متخالفين. ﴿كُلُّ حِزْبِۭ﴾: مبتدأ ومضاف إليه. ﴿بِمَا﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿فَرِحُونَ﴾. ﴿لَدَيْهِمْ﴾: ظرف مكان متعلق بمحذوف صلة لـ﴿ما﴾. ﴿فَرِحُونَ﴾: خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل النصب حال من فاعل تقطعوا.

﴿فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٥٤﴾ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي ٱلْخَيْرَٰتِۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾﴾.

﴿فَذَرْهُمْ﴾: ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفت تقطعهم يا محمد وتفرقهم وفرح كل حزب بما لديهم، وأردت بيان ما هو الأصلح لك، فأقول لك: ذرهم. ﴿ذرهم﴾: فعل وفاعل مستتر يعود على محمد ومفعول أول، والضمير لكفار مكة. ﴿فِي غَمْرَتِهِمْ﴾: جار ومجرور متعلق بمحذوف مفعول ثان، أو حال من ضمير المفعول؛ أي: أتركهم متخبطين في غمرتهم، أو حالة كونهم متخبطين، والجملة الفعلية في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة. ﴿حَتَّىٰ حِينٍ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿ذرهم﴾. ﴿أَيَحْسَبُونَ﴾: (الهمزة) فيه للاستفهام التقريعي الإنكاري. ﴿يحسبون﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿أَنَّمَا﴾ ﴿أن﴾: حرف نصب ومصدر. ﴿ما﴾: اسم موصول في محل النصب اسمها، وكان من حقها أن تكتب مفصولة، ولكنها موصولة اتباعاً لرسم المصحف. ﴿نُمِدُّهُم﴾: فعل ومفعول وفاعل مستتر يعود على الله. ﴿بِهِۦ﴾: متعلق بـ﴿نُمِدُّهُم﴾، وهو العائد على الموصول، وجملة ﴿نُمِدُّهُم﴾ صلة الموصول، ﴿مِن مَّالٍ﴾: حال من الموصول ﴿وَبَنِينَ﴾: معطوف على ﴿مَّالٍ﴾. ﴿نُسَارِعُ﴾: فعل وفاعل مستتر يعود على الله، تقديره: نحن.

﴿لَهُمْ﴾: متعلق بـ﴿نسارع﴾. ﴿فِي ٱلْخَيْرَٰتِ﴾: متعلق به أيضاً، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿أن﴾، والرابط بين هذه الجملة، واسم ﴿أن﴾ محذوف، تقديره: نسارع لهم به، أو فيه، إلا أن حذف مثله قليل، وقيل: الرابط بينهما هو اسم الظاهر الذي قام مقام المضمر، من قوله: ﴿فِي ٱلْخَيْرَٰتِ﴾، وهذا يتمشى على مذهب الأخفش، إذ يرى الربط بالأسماء الظاهرة، وإن لم يكن بلفظ الأول. وجملة ﴿أن﴾ من اسمها وخبرها، في تأويل مصدر ساد مسد مفعولي حسب، والتقدير: أيحسبون مسارعتنا إياهم في الخيرات، بما أمددناهم به من مال وبنين. ﴿بَل﴾: حرف إضراب، للإضراب الانتقالي عن الحسبان. ﴿لَّا﴾: نافية. ﴿يَشْعُرُونَ﴾: فعل وفاعل، معطوف على مقدر ينسحب عليه الكلام؛ أي: لا نفعل ذلك، بل هم لا يشعرون بشيء أصلاً كالبهائم، لا فطنة لهم، ولا شعور يتيح لهم التأمل، فيعرفون أن ذلك الإمداد ما هو إلا استدراج لهم، واستجرار إلى زيادة الإثم.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ﴾: ناصب واسمه. ﴿هُم﴾: مبتدأ. ﴿مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿مُّشْفِقُونَ﴾. ﴿مشفقون﴾: خبر المبتدأ، والجملة من المبتدأ والخبر صلة الموصول. ﴿وَٱلَّذِينَ﴾: معطوف على الموصول الأول. ﴿هُم﴾: مبتدأ. ﴿بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿يُؤْمِنُونَ﴾. ﴿يُؤْمِنُونَ﴾: فعل وفاعل خبر المبتدأ، والجملة من المبتدأ، والخبر صلة الموصول.

﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ﴾: معطوف على الموصول الأول. ﴿هُم﴾: مبتدأ. ﴿بِرَبِّهِمْ﴾: متعلق بـ﴿يُشْرِكُونَ﴾ وجملة ﴿لَا يُشْرِكُونَ﴾ خبر المبتدأ. والجملة من المبتدأ والخبر صلة الموصول، ﴿وَٱلَّذِينَ﴾: معطوف على الموصول الأول. ﴿يُؤْتُونَ﴾: فعل وفاعل صلة الموصول. ﴿مَآ﴾: مفعول ﴿يؤتون﴾. ﴿ءَاتَواْ﴾: فعل وفاعل،

والجملة صلة ﴿مَا﴾ الموصولة، والعائد محذوف، تقديره: ما آتوه. ﴿وَقُلُوبُهُمْ﴾: ﴿الواو﴾: حالية. ﴿قلوبهم﴾: مبتدأ. ﴿وَجِلَةٌ﴾: خبره، والجملة الاسمية في محل النصب حال من فاعل ﴿يُؤْتُونَ﴾. ﴿أَنَّهُمْ﴾: ناصب واسمه. ﴿إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿رَٰجِعُونَ﴾. ﴿رَٰجِعُونَ﴾: خبر ﴿أن﴾، وجملة ﴿أن﴾ في تأويل مصدر مجرور بحرف جر محذوف، والجار المحذوف متعلق بـ﴿وجلة﴾؛ أي: قلوبهم خائفة من رجوعهم إلى ربهم.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴿٦١﴾ وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَاۖ وَلَدَيْنَا كِتَٰبٌ يَنطِقُ بِٱلْحَقِّۚ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٢﴾﴾.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾: مبتدأ. ﴿يُسَٰرِعُونَ﴾: فعل وفاعل﴿فِي ٱلْخَيْرَٰتِ﴾: متعلق به، وجملة ﴿يسارعون﴾ في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة من المبتدأ والخبر في محل الرفع خبر ﴿أن﴾؛ أي: خبر عن أن الذين هم من خشية ربهم وما عطف عليه، فاسم ﴿أن﴾ أربع موصولات، وخبرها جملة أولئك.. الخ. ﴿وَهُمْ﴾: مبتدأ ﴿لَهَا﴾ متعلق بـ﴿سَٰبِقُونَ﴾، قدم عليه للفاصلة وللاختصاص. ﴿سَٰبِقُونَ﴾: خبر المبتدأ، والجملة الإسمية معطوفة على سابقتها عطف تأكيد لها. ﴿وَلَا نُكَلِّفُ﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿لا﴾: نافية. ﴿نُكَلِّفُ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر يعود على الله. ﴿نَفْسًا﴾: مفعول به أول، والجملة مستأنفة، مسوقة للدلالة على أن التكليف غير خارج عن حدود الطاقات والإمكانيات. ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ. ﴿وُسْعَهَا﴾: مفعول ثان. ﴿وَلَدَيْنَا﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿لدينا﴾: ظرف ومضاف إليه، خبر مقدم، ﴿كِتَٰبٌ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة معطوفة على جملة ﴿وَلَا نُكَلِّفُ﴾، وجملة ﴿يَنطِقُ﴾ صفة كتاب ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ متعلق به، أو حال من فاعل ﴿يَنطِقُ﴾؛ أي: حالة كونه ملتبساً بالحق. ﴿وَهُمْ﴾ مبتدأ، وجملة ﴿لَا يُظْلَمُونَ﴾: خبره، والجملة معطوفة على سابقتها.

التصريف ومفردات اللغة

﴿قَرْنًا﴾: القرن: الأمة. والمراد بهم: عاد قوم هود، لقوله تعالى في سورة الأعراف: ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾.

﴿وَأَتْرَفْنَٰهُمْ﴾؛ أي: نعمناهم ووسعنا عليهم، يقال: ترف فلان؛ أي: توسع في النعمة وأترفته النعمة: أطغته. ﴿لَّخَٰسِرُونَ﴾؛ أي: لمغبونون في آرائكم، إذ أنكم أذللتم أنفسكم لعبادة من هو دونكم. ﴿هَيْهَاتَ﴾؛ أي: بعد. ﴿لِمَا تُوعَدُونَ﴾ هو البعث والحساب. ﴿بِمُؤْمِنِينَ﴾؛ أي: بمصدقين. ﴿عَمَّا قَلِيلٍ﴾؛ أي: بعد زمان قليل ﴿لَّيُصْبِحُنَّ﴾؛ أي: ليصيرن. ﴿ٱلصَّيْحَةُ﴾، والصيحة: العذاب الشديد، كما قال:

صَاحَ ٱلزَّمَانُ بِآلِ بَرْمَكَ صَيْحَةً   خَرُّوْا لِشِدَّتِهَا عَلَىٰ ٱلأَذْقَانِ

﴿غُثَآءً﴾: الغثاء العشب إذا يبس، يجمع على أغثية كغراب وأغربة، وعلى غثيان كغراب وغربان. وقال الزجاج: هو البالي من ورق الشجر إذا جرى السيل به فخالط زبده. وقيل: كل ما يلقيه السيل، والقدر مما لا ينتفع به، وبه يضرب المثل في ذلك. ولامه واو؛ لأنه من غثا الوادي يغثو غثواً، وكذلك غثت القدر، وأما غثيت نفسه تغثى غثياناً؛ أي: خبثت فهو قريب من معناه، ولكنه من مادة الياء، وتشدد ثاء الغثاء وتخفف، وقد جمع على أغثاء وهو شاذ بل كان قياسه أن يجمع على أغثية كأغربة، أو على غثيان كغربان وغلمان. اهـ. «سمين».

وقال الزمخشري: شبَّههم في دمارهم بالغثاء، وهو حميل السيل مما بلى، واسود من بلي العيدان والورق. اهـ.

﴿تَتْرَا﴾ من المواترة، وهي التتابع بين الأشياء مع فترة ومهلة بينها، قاله الأصمعي، والتاء فيه مبدلة من الواو، وأصله وترى وهو مصدر كشبعى ودعوى. فألفه للتأنيث، وهو منصوب على الحالية؛ أي: متتابعين، والتتر: المتابعة مع مهلة، فإن كانت بدونها، قيل لها: مداركة ومواصلة، كما في «القاموس».

﴿أَحَادِيثَ﴾: جمع أحدوثة، كأضاحيك وألاعيب وأعاجيب، جمع أضحوكة وألعوبة وأعجوبة، والأحدوثة: هي كل ما يتحدث به الناس تعجباً منه، وتلهياً به ودفعاً للملالة، واجتلاباً للسلوى، وتزجية للفراغ، أو جمع حديث على غير قياس.

وفي «السمين» قيل: هو جمع حديث، ولكنه شاذ، وقيل: بل جمع أحدوثة كأضحوكة. وقال الأخفش: لا يقال ذلك إلا في الشر، ولا يقال في الخير. وقد شذت العرب في ألفاظ، فجمعوها على صيغة مفاعيل كأباطيل وأقاطيع. وقال الزمخشري: الأحاديث تكون اسم جمع للحديث، ومنه أحاديث رسول الله ﷺ، وأفاعيل ليس من أبنية اسم الجمع، وإنما ذكره أصحابنا فيما شذ من الجموع، كقطيع وأقاطيع، وإذا كان عباديد قد حكموا عليه بأنه جمع تكسير، مع أنهم لم يلفظوا له بواحد، فأحرى أحاديث، وقد لفظ له بواحد وهو حديث، فاتضح أنه جمع تكسير، لا اسم جمع لما ذكرنا. ا هـ. وفي «القاموس» صاروا أحاديث؛ أي: انقرضوا. ا هـ.

﴿عَالِينَ﴾؛ أي: متكبرين. ﴿لِبَشَرَيْنِ﴾: تثنية بشر، والبشر يقع على الواحد والمثنى والمجموع والمذكر والمؤنث، قال تعالى: ﴿مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ وقد يطابق، ومنه هذه الآية، وأمّا إفراد مثلنا؛ فلأنه يجري مجرى المصادر في الإفراد، والتذكير ولا يؤنث أصلاً، وقد يطابق ما هو له تثنيةً كقوله: ﴿يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ﴾. وجمعاً كقوله: ﴿ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمْثَٰلَكُم﴾، وقيل: أريد المماثلة في البشرية لا الكمية، وقيل: اكتفى بالواحد عن الاثنين. ا هـ.

﴿عَٰبِدُونَ﴾؛ أي: خدم منقادون. قال أبو عبيدة: العرب تسمي كل من دان للملك عابداً. وقال المبرد: العابد: المطيع الخاضع.

﴿وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ﴾؛ أي: أسكناهما وأنزلناهما في ربوة؛ أي: أوصلناهما إلى ربوة، وسبب ذلك أن ملك ذلك الزمان، كان أراد أن يقتل عيسى عليه السلام، فهربت به أمه إلى تلك الربوة، ومكثت بها ثنتي عشرة سنة، حتى هلك ذلك الملك. ا هـ. من «الخطيب».

والربوة والرباوة: الأرض المرتفعة، وفي رائها الحركات الثلاث، وقد اختلف المفسرون في المراد بها، فقيل: بيت المقدس، وقيل: دمشق وغوطتها. وعن الحسن: فلسطين أو الرملة، أو مصر، أقوال.

﴿معين﴾: اسم مفعول من عان يعين كباع يبيع، فهو معين كمبيع، فالميم

زائدة، وأصله معيون كمبيوع، وقد دخله الإعلال. والمعين: الماء الظاهر الجاري على وجه الأرض. وقد اختلف في زيادة ميمه وأصالته، فوجه من جعله مفعولاً أنه مدرك بالعين؛ لظهوره من عانه إذا أدركه بعينه، نحو ركبه إذا ضربه بركبته، ووجه من جعله فعيلاً، أنه نفاع بظهوره وجريه من الماعون وهو المنفعة. وقال الراغب: هو من معن الماء إذا جرى، ويسمى مجرى الماء معياناً، وأمعن الفرس تباعد في عدوه، وأمعن بحقي ذهب به، وفلان معن في حاجته؛ أي: سريع، قلت: وهذا كله راجع إلى معنى الجري والسرعة.

وفي «السمين» قوله: ومعين صفة لموصوف محذوف؛ أي: وماء معين، وفيه قولان:

أحدهما: أن ميمه زائدة، وأصله معيون؛ أي: مبصر بالعين، فأعل إعلال مبيع، وبابه وهو مثل قولهم: كبدته؛ أي: ضربت كبده، ورأسته؛ أي: أصبت رأسه، وعنته؛ أي: أدركته بعيني، ولذلك أدخله الخليل في مادة ع ي ن.

والثاني: أن الميم أصلية، ووزنه فعيل، مشتق من المعن، واختلف في المعن. فقيل: هو الشيء القليل، ومنه الماعون، وقيل: هو من معن الشيء، معانة إذا كثر.

﴿ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾: جمع طيب، والطيب: ما يستطاب ويستلذ من المآكل والفواكه. ﴿أُمَّتُكُمْ﴾؛ أي: ملتكم وشريعتكم. ﴿فَتَقَطَّعُوٓاْ﴾؛ أي: قطعوا ومزقوا. ﴿أَمْرَهُم﴾؛ أي: أمر دينهم. ﴿زُبُرًا﴾؛ أي: قطعاً، واحدها زبور: بمعنى فريق. ا هـ. «بيضاوي». أو جمع زبرة بمعنى القطعة؛ أي: الطائفة من الناس، وهي مثل غرفة، فتجمع على زبر بالضم وبالفتح، كما في الكهف فهما جمعان، كما في «القاموس». وقيل: معنى زبراً، كتباً؛ أي: تمسك كل قوم بكتاب، فآمنوا به، وكفروا بما سواه من الكتب. ا هـ. «خطيب».

﴿فَذَرْهُمْ فِى غَمْرَتِهِمْ﴾ والخطاب لمحمد ﷺ، والضمير لكفار مكة، في غمرتهم؛ أي: في ضلالتهم، شبهها بالماء الذي يغمر القامة؛ لأنهم يغمرون فيها، والغمر في الأصل الماء الذي يغمر القامة، والغمر أيضاً الذي يغمر

الأرض، ثم استعير ذلك للجهالة، فقيل: فلان في غمره، والمادة تدل على الغطاء والاستتار، ومنه الغمر بالضم لمن لم يجرب الأمور، والغمر بالكسر: الحقد؛ لأنه يغطي القلب، والغمرات: الشدائد، والغامر: الذي يلقي نفسه في المهالك. ا هـ. «سمين».

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: الجناس المغاير في قوله: ﴿فَأَرۡسَلۡنَا فِيهِمۡ رَسُولًا﴾.

ومنها: أسلوب الإطناب في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱلۡأٓخِرَةِ وَأَتۡرَفۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ ذمّاً لهم وتسجيلاً عليهم بالقبائح والشناعات.

ومنها: ذكر الخاص بعنوان العام في قوله: ﴿فَأَرۡسَلۡنَا فِيهِمۡ رَسُولًا﴾؛ لأن المراد بالرسول هنا هو عليه السلام بقرينة ما سبق في سورة الأعراف.

ومنها: الاستفهام الإنكاري في قوله: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾.

ومنها: الإيجاز بالحذف في قوله: ﴿وَيَشۡرَبُ مِمَّا تَشۡرَبُونَ﴾؛ أي: منه.

ومنها: إقامة الضمير مقام الظاهر في قوله: ﴿إِنۡ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا﴾ أصله إن الحياة إلا حياتنا الدنيا، فأقيم الضمير مقام الأولى، لدلالة الثانية عليها، حذراً من التكرر وإشعاراً بإغنائها عن التصريح.

ومنها: الطباق في قوله: ﴿نَمُوتُ وَنَحۡيَا﴾، وكذلك بين ﴿تَسۡبِقُ﴾ و﴿يَسۡتَـٔۡخِرُونَ﴾.

ومنها: التشبيه البليغ في قوله: ﴿فَجَعَلۡنَٰهُمۡ غُثَآءٗ﴾؛ أي: كالغثاء في سرعة زواله ومهانة حاله، حذف وجه الشبه وأداة التشبيه، فصار بليغاً.

ومنها: الجناس الناقص في قوله: ﴿ثُمَّ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا﴾؛ لتغيير بعض الحروف والشكل.

ومنها: وضع الظاهر موضع المضمر في قوله: ﴿فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ إفادة للتعليل وإشعاراً بالعلية.

ومنها: الجناس المماثل في قوله: ﴿يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟﴾.

ومنها: الاستعارة التصريحية الأصلية في قوله: ﴿فَذَرْهُمْ فِى غَمْرَتِهِمْ﴾ حيث شبه ضلالتهم وجهالتهم بالماء الذي يغمر الإنسان من فرقه إلى قدمه بجامع الاستتار في كلٍّ، وإن كان مختلفاً بكونه في الماء حسيّاً وفي الجهالة معنوياً، واستعير اسم المشبه به للمشبه على سبيل الاستعارة التصريحية الأصلية.

ومنها: الاستفهام الإنكاري في قوله: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم﴾.

ومنها: حذف الرابط في قوله: ﴿نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ حذف به؛ أي: نسارع لهم به في الخيرات وحسن حذفه؛ لاستطالة الكلام مع أمن اللبس.

ومنها: الطباق بين ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ و﴿يُشْرِكُونَ﴾.

ومنها: الاستعارة البديعة في قوله: ﴿وَلَدَيْنَا كِتَٰبٌ يَنطِقُ بِٱلْحَقِّ﴾ فالنطق لا يكون إلا ممن يتكلم بلسانه، والكتاب ليس له لسان فوصف سبحانه الكتاب بالنطق، مبالغةً في وصفه بإظهار البيان وإعلان البرهان، أو تشبيهاً باللسان الناطق على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلّ وعلا:

﴿بَلۡ قُلُوبُهُمۡ فِي غَمۡرَةٖ مِّنۡ هَٰذَا وَلَهُمۡ أَعۡمَٰلٞ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمۡ لَهَا عَٰمِلُونَ ﴿٦٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذۡنَا مُتۡرَفِيهِم بِٱلۡعَذَابِ إِذَا هُمۡ يَجۡـَٔرُونَ ﴿٦٤﴾ لَا تَجۡـَٔرُواْ ٱلۡيَوۡمَۖ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ ﴿٦٥﴾ قَدۡ كَانَتۡ ءَايَٰتِي تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَكُنتُمۡ عَلَىٰٓ أَعۡقَٰبِكُمۡ تَنكِصُونَ ﴿٦٦﴾ مُسۡتَكۡبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرٗا تَهۡجُرُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَلَمۡ يَدَّبَّرُواْ ٱلۡقَوۡلَ أَمۡ جَآءَهُم مَّا لَمۡ يَأۡتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ أَمۡ لَمۡ يَعۡرِفُواْ رَسُولَهُمۡ فَهُمۡ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٦٩﴾ أَمۡ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةُۢۚ بَلۡ جَآءَهُم بِٱلۡحَقِّ وَأَكۡثَرُهُمۡ لِلۡحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٠﴾ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلۡحَقُّ أَهۡوَآءَهُمۡ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ بَلۡ أَتَيۡنَٰهُم بِذِكۡرِهِمۡ فَهُمۡ عَن ذِكۡرِهِم مُّعۡرِضُونَ ﴿٧١﴾ أَمۡ تَسۡـَٔلُهُمۡ خَرۡجٗا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيۡرٞۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّكَ لَتَدۡعُوهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ عَنِ ٱلصِّرَٰطِ لَنَٰكِبُونَ ﴿٧٤﴾ ۞ وَلَوۡ رَحِمۡنَٰهُمۡ وَكَشَفۡنَا مَا بِهِم مِّن ضُرّٖ لَّلَجُّواْ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ﴿٧٥﴾ وَلَقَدۡ أَخَذۡنَٰهُم بِٱلۡعَذَابِ فَمَا ٱسۡتَكَانُواْ لِرَبِّهِمۡ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴿٧٦﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا فَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَابٗا ذَا عَذَابٖ شَدِيدٍ إِذَا هُمۡ فِيهِ مُبۡلِسُونَ ﴿٧٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۚ قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ ﴿٧٨﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي ذَرَأَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَإِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ﴿٧٩﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ وَلَهُ ٱخۡتِلَٰفُ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٨٠﴾ بَلۡ قَالُواْ مِثۡلَ مَا قَالَ ٱلۡأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾ قَالُوٓاْ أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ ﴿٨٢﴾ لَقَدۡ وُعِدۡنَا نَحۡنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبۡلُ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٨٣﴾ قُل لِّمَنِ ٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلۡ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلۡ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبۡعِ وَرَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلۡ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلۡ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيۡهِ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلۡ فَأَنَّىٰ تُسۡحَرُونَ ﴿٨٩﴾ بَلۡ أَتَيۡنَٰهُم بِٱلۡحَقِّ وَإِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ﴿٩٠﴾ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٖ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنۡ إِلَٰهٍۚ إِذٗا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهِۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴿٩٢﴾﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿بَلۡ قُلُوبُهُمۡ فِي غَمۡرَةٖ مِّنۡ هَٰذَا وَلَهُمۡ أَعۡمَٰلٞ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمۡ لَهَا

عَٰمِلُونَ ﴿٦٣﴾...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها[1]: أن الله سبحانه، لما ذكر سماحة هذا الدين، وأنه دين يسر لا عسر، ولا يكلف النفس إلا ما تطيق، وأن ما يعمله المرء فهو محفوظ في كتاب، لا يبخس منه شيئاً، ولا يزاد له فيه شيء.. أردف هذا ببيان أن المشركين في غفلة عن هذا، الذي بيّن في القرآن، ولهم أعمال سوء أخرى، من فنون الكفر والمعاصي، كطعنهم في القرآن، واستهزائهم بالنبي ﷺ، وإيذائهم للمؤمنين، فإذا حل بهم بأسنا يوم القيامة.. جأروا واستغاثوا فقلنا لهم: لا فائدة فيما تعملون، فقد جاءتكم الآيات والنذر، فأعرضتم عنها، واتخذتموها هزواً، تسمرون بها في البيت الحرام، وقد كان من حقكم أن تتدبروا القرآن؛ لتعلموا أنه الحق من ربكم، وأن مجيء الكتب إلى الرسل سنة قديمة، فكيف تنكرونها؟ وهل رابكم في رسولكم شيء، حتى تمتنعوا من تصديقه، وتقولوا إن به جنةً، وأنتم تعلمون أنه أرجح الناس عقلاً، وأثقبهم رأياً، لا إن الأمر على غير ما تظنون، إنه قد جاءكم بالحق، ولكن أكثركم للحق كارهون، لما دسيتم به أنفسكم من الزيغ والإنصراف عن سبيل الحق، ولو أجابكم ربكم إلى ما في أنفسكم من الهوى، وشرع الأمور وفق ذلك.. لفسدت السماوات والأرض لفساد أهوائكم، واختلافها، وأنتم لو تأملتم، لعلمتم أن ما جاءكم به هو فخركم، فكيف تعرضون عنه؟ وهل تظنون أنه يسألكم أجراً على هدايتكم، وإرشادكم، فما عند الله خير مما عندكم، وهو خير الرازقين. فها هو ذا قد تبين الرشد من الغي، واستبان أن ما تدعوهم إليه هو الحق، الذي لا محيص منه، وأن الذين لا يؤمنون به عادلون عن طريق الحق، وقد بلغوا حدّاً من التمرد والعناد لا يرجى معه صلاح، فلو أنهم ردوا في الآخرة إلى الدنيا لعادوا لما نهوا عنه، لشدة لجاجهم وتدسيتهم لأنفسهم.

ولقد قتلنا سراتهم بالسيف يوم بدر، فما خضعوا ولا انقادوا لربهم ولا ردهم ذلك عما كانوا فيه، بل استمروا في غيهم وضلالهم، كما قال: ﴿فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾﴾ ما لم يكونوا

(١) المراغي.

يحتسبون أيسوا من كل خير، وانقطع رجاؤهم من كل راحة وسعادة.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۚ...﴾ الآيات. مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى، لما ذكر[1] إعراض المشركين عن سماع الأدلة ورؤية العبر، والتأمل في الحقائق.. أردف ذلك الامتنان على عباده، بأنه قد أعطاهم الحواس من السمع والبصر وغيرهما، ووفقهم لاستعمالها، وكان من حقهم أن يستفيدوا بها، ليتبين لهم الرشد من الغي، لكنها لم تغن عنهم شيئاً، فكأنهم فقدوها، كما قال: ﴿فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُمۡ سَمۡعُهُمۡ وَلَآ أَبۡصَٰرُهُمۡ وَلَآ أَفۡـِٔدَتُهُم مِّن شَيۡءٍ إِذۡ كَانُواْ يَجۡحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ ثم ساق أدلة أخرى على وجوده وقدرته، فبين أنه أوجدهم من العدم،وأن حشرهم إليه، وأنه هو الذي يحييهم ثم يميتهم، وأنه هو الذي يولج الليل في النهار، ويولج النهار في الليل، أفلا عقل لكم تتأملون به فيما تشاهدون.

وعبارة أبي حيان هنا: قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَ لَكُمُ...﴾ إلخ. مناسبة هذه الآية لما قبلها: أنه تعالى لما بين إعراض الكفار عن سماع الأدلة ورؤية العبر، والتأمل في الحقائق.. خاطب - قيل: المؤمنين - والظاهر العالم بأسرهم، تنبيهاً على أن من لم يعمل هذه الأعضاء في ما خلقه الله تعالى، وتدبر ما أودعه فيها، من الدلالة على وحدانيته، وباهر قدرته، فهو كعادم هذه الأعضاء. انتهى.

قوله تعالى: ﴿بَلۡ قَالُواْ مِثۡلَ مَا قَالَ ٱلۡأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾...﴾ مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه، لما ذكر[2] أدلة التوحيد المبثوثة في الأكوان والأنفس، والتي يراها الناس في كل آن، أعقبها بذكر البعث والحشر، وإنكار المشركين لهما، وتردادهم مقالة من سبقهم، من الكافرين الجاحدين في استبعادهما والتكذيب بحصولهما.

قوله تعالى: ﴿قُل لِّمَنِ ٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهَآ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات

---

(١) المراغي.
(٢) المراغي.

لما قبلها: أنه سبحانه وتعالى، لما ذكر[1] شبهات المشركين في أمر البعث والحساب والجزاء وأحوال النشأة الآخرة.. عقب ذلك بذكر الأدلة التي تثبت تحققه، وأنه كائن لا محالة.

قوله تعالى: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ ...﴾ الآيتين. مناسبة هاتين الآيتين لما قبلهما: أن الله سبحانه لما ذكر[2] أن المشركين كاذبون في إنكار البعث والجزاء، وفي مقالتهم إن القرآن أساطير الأولين.. قفى على ذلك بيان أنهم كاذبون في أمرين، اتخاذ الله للولد، وإثبات الشريك له.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِرًا تَهْجُرُونَ ﴿٦٧﴾﴾ سبب[3] نزول هذه الآية: ما أخرجه ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير قال: كانت قريش تسمر حول البيت ولا تطوف به، ويفتخرون به، فأنزل الله هذه الآية.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴿٧٦﴾﴾. سبب نزول هذه الآية: ما أخرجه النسائي والحاكم عن ابن عباس قال: إن أبا سفيان أتى النبي ﷺ، فقال: يا محمد، أنشدك بالله والرحم، لقد أكلنا الظهر - الوبر - والدم فأنزل الله هذه الآية.

وأخرج البيهقي في «الدلائل» بلفظ، أن ثمامة بن أثال الحنفي، لما أتى به النبي ﷺ، وهو أسير خلى سبيله، ثم أسلم فلحق بمكة، ثم رجع إلى اليمامة، فحال بين أهل مكة وبين المسيرة من اليمامة، فأخذهم الله بالسنين حتى أكلوا العلهز[4]، فجاء أبو سفيان إلى رسول الله ﷺ، فقال له: أنشدك بالله والرحم، ألست تزعم أنك بعثت رحمة للعالمين؟ فقال: «بلى» فقال: قتلت الآباء بالسيف

---

(١) المراغي.

(٢) المراغي.

(٣) لباب النقول.

(٤) **العلهز**: شيء يتخذونه من الوبر ا هـ. روح البيان.

والأبناء بالجوع فنزلت هذه الآية.

التفسير وأوجه القراءة

ثم أضرب سبحانه عما سبق، وذكر أحوال الكفار فقال: ﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ﴾؛ أي: قلوب الكفرة ﴿فِي غَمْرَةٍ﴾؛ أي: في غفلة غامرة؛ أي: ساترة لها ﴿مِّنْ هَٰذَا﴾ الذي بين في القرآن، من أن لدينا كتاباً ينطق بالحق؛ أي: ديوان الحفظة الذي يظهر لهم أعمالهم السيئة على رؤوس الأشهاد، فيجزون بها؛ أي[1]: بل قلوب الكفار في غمرة غامرة لها، عن هذا الكتاب الذي ينطق بالحق، أو على الأمر الذي عليه المؤمنون، يقال: غمره الماء إذا غطاه، ونهر غمر يغطي من دخله. والمراد بها هنا: الغطاء أو الحيرة والعمي. وقد تقدم الكلام على الغمرة قريباً.

والمعنى: أي[2] بل قلوب المشركين في غفلة عن هذا القرآن، والاسترشاد بما جاء به، مما فيه سعاده الناس في دينهم ودنياهم، فلو قرؤوه وتدبروه لرأوا أنه كتاب ينطق بالحق والصدق، وأنه يقضي بأن أعمال المرء مهما دقت فهو محاسب عليها، وأن ربك لا يظلم من عباده أحداً. ثم ذكر جنايات أخرى لهم فوق جنايتهم السابقة، فقال: ﴿وَلَهُمْ﴾؛ أي: وللكفار ﴿أَعْمَٰلٌ﴾ كثيرة خبيثة ﴿مِّن دُونِ ذَٰلِكَ﴾ الذي ذكر من كون قلوبهم في غفلة عظيمة مما ذكر، وهي فنون كفرهم ومعاصيهم التي من جملتها ما سيأتي، من طعنهم في القرآن، وإقامة إمائهم في الزنا. ﴿هُمْ﴾؛ أي: الكفار ﴿لَهَا﴾؛ أي: لتلك الأعمال ﴿عَٰمِلُونَ﴾؛ أي: معتادون فعلها، مستمرون عليها.

والمعنى: أي إن لهم أعمالاً أخرى أسوأ من ذلك، فقد أغرقوا في الشرك والمعاصي واتخذوا هذا الكتاب هزواً، وجعلوه سمرهم في البيت الحرام، يقولون فيه ما هو منه براء، يقولون: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى﴾، و﴿مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾، وما هو إلا كلام شاعر، ويتقولون على من أرسل به، ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ﴾، وأنه قد تعلمه من غيره من أهل الكتاب، وانغمسوا في عبادة

---

(١) الشوكاني.　　(٢) المراغي.

الأوثان والأصنام. ولقد تراهم إذا جاء البرهان الساطع أعرضوا عنه وقالوا: إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون.

ثم رجع سبحانه إلى وصف الكفار، فقال: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم﴾ وهذه الجملة غاية لأعمالهم المذكورة، ومقررة لما قبلها. وحتى هذه ابتدائية، وهي يبتدأ بعدها الكلام. والكلام هو الجملة الشرطية المذكورة بعدها؛ أي[1]: لا يزالون يعملون أعمالهم الخبيثة إلى حيث إذا أخذنا متنعميهم ورؤساءهم ﴿بِٱلْعَذَابِ﴾ الأخروي إذ هو الذي يفاجؤون عنده الخوار فيجابون بالرد والإقناط، وأما عذاب يوم بدر فلم يوجد لهم عنده جؤار. والمراد[2] بالمترفين المتنعمين منهم. وهم الذين أمدهم الله تعالى بما تقدم ذكره من المال والبنين. أو المراد بهم الرؤساء منهم. وقيل: المراد بالعذاب، هو عذابهم بالسيف يوم بدر، أو بالجوع بدعاء النبي ﷺ عليهم، حيث قال: «اللهم اشدد وطأتك على مضر، واجعلها عليهم سنين كسنيّ يوسف». والأول أظهر؛ لأن الجؤار إنما يقع عند عذاب الآخرة.

وجملة قوله: ﴿إِذَا هُمْ يَجْـَٔرُونَ﴾ جواب الشرط، وإذا هي الفجائية، والضمير راجع إلى المترفين؛ أي: إذا أخذنا مترفيهم بالعذاب فاجؤوا الصراخ بالاستغاثة؛ أي: يرفعون أصواتهم بها، ويتضرعون في طلب النجاة، فإن أصل الجؤار رفع الصوت بالتضرع والدعاء. يقال: جأر الرجل إذا تضرع بالدعاء.

وتخصيص[3] المترفين بأخذ العذاب، ومفاجأة الجؤار مع عمومه لغيرهم أيضاً لغاية ظهور انعكاس حالهم، وأيضاً إذا كان لقاؤهم هذه الحالة الفظيعة ثابتاً واقعاً، فما ظنك بحال الأصاغر والخدم.

وقال بعضهم: المراد بالمترفين المعذبين، أبو جهل وأصحابه، الذين قتلوا ببدر، والذين هم يجأرون أهل مكة، فيكون الضمير راجعاً إلى ما رجع إليه ضمير

---

(١) روح البيان.
(٢) الشوكاني.
(٣) روح البيان.

مترفيهم، وهم الكفرة مطلقاً.

والمعنى: أي حتى[1] إذا حل بهم بأسنا يوم القيامة، وحاق بهم سوء العذاب.. صاحوا صيحة منكرة، وقالوا: واغوثاه واسوء منقلباه، لشدة ما يرونه من الكرب والهول ولا سيما مترفوهم الذين انقلب أمرهم من النعيم إلى العذاب الأليم، وندموا حين لا ينفع الندم.

نَدِمَ ٱلْبُغَاةُ وَلاَتَ سَاعَةَ مَنْدَمِ وَٱلْبَغْيُ مَرْتَعُ مُبْتَغِيْهِ وَخِيْمُ

ثم أبان أن الصريخ والعويل لا يجديهم نفعاً، فقال: ﴿لَا تَجْـَٔرُواْ ٱلْيَوْمَ﴾ فهو على إضمار القول، وتخصيص اليوم بالذكر، وهو يوم القيامة لتهويله والإيذان بتفويتهم وقت الجؤار؛ أي: فيقال لهم على وجه التبكيت والتقريع: لا تصرخوا اليوم، ولا تلتجئوا إلينا، ولا تستغيثوا بنا.

وجملة قوله: ﴿إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ﴾ تعليل للنهي عن الجؤار، والمعنى إنكم من عذابنا لا تمنعون، ولا ينفعكم جزعكم. وقيل المعنى: إنكم لا يلحقكم من جهتنا نصرة تمنعكم مما دهمكم من العذاب.

والمعنى: أي قلنا لهم هيهات هيهات، قد فات ما فات، الآن لا يجديكم البكاء والعويل؛ فهذا وقت الجزاء على ما كسبت أيديكم، وقد حقت عليكم كلمة ربكم، ولا مغيث من أمره، ولا ناصر يحول بينكم وبين بأسه، ولا يخفى ما في ذلك من التهويل الشديد لذلك اليوم، وأنه لا يجدي فيه ضراعة، ولا استغاثة، ولا ينفع فيه ولي ولا نصير.

ثم عدد سبحانه عليهم قبائحهم توبيخاً لهم، وبياناً أن البكاء والصراخ لا ينفع شيئاً، فقال: ﴿قَدْ كَانَتْ ءَايَٰتِى﴾ التي هي القرآن ﴿تُتْلَىٰ﴾ وتقرأ ﴿عَلَيْكُمْ﴾ في الدنيا ﴿فَكُنتُمْ﴾ أيها الكفرة ﴿عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ﴾؛ أي: وراءكم ﴿تَنكِصُونَ﴾؛ أي: ترجعون القهقرى، وتعرضون عن سماعها، وتنفرون عمن يتلوها.

---

(١) المراغي.

والأعقاب جمع عقب، وهو مؤخر الرجل، والنكوص الرجوع القهقرى؛ أي: معرضون عن سماعها أشد الإعراض فضلاً عن تصديقها والعمل بها.

والمعنى: أي[1] دعوا الصراخ، فإنه لا يمنعكم منا، واتركوا النصير، فإنه لا ينفعكم عندنا، فقد ركبتم شططاً، وجاءتكم الآيات والنذر، فأعرضتم عن سماعها فضلاً عن تصديقها، والعمل بها، وكنتم كمن ينكص على عقبيه مولياً القهقرى نافراً مما يسمع ويرى. وعلى أعقابكم متعلق بـ﴿نَنكِصُونَ﴾، وهو استعارة عن الإعراض عن الحق، كما سيأتي.

وقرأ علي بن أبي طالب ﴿عَلَىٰٓ أَدۡبَٰرِكُمۡ﴾ بدل ﴿عَلَىٰٓ أَعۡقَٰبِكُمۡ﴾ وقرأ تنكُصون بضم الكاف.

وقوله: ﴿مُسۡتَكۡبِرِينَ﴾ حال من فاعل ﴿تَنكِصُونَ﴾، والضمير[2] في ﴿بِهِۦ﴾ راجع إلى البيت العتيق. وقيل: للحرم، والذي سوغ الإضمار قبل الذكر اشتهارهم بالاستكبار به وافتخارهم بولايته، والقيام به، وكانوا يقولون: لا يظهر علينا أحد؛ لأنا أهل الحرم وخدامه. وإلى هذا ذهب جمهور المفسرين. والمعنى عليه: فكنتم ترجعون عن آياتي على أدباركم حالة كونكم متعظمين بالبيت، ومفتخرين بالحرم وخدمته.

وقيل: الضمير عائد إلى الآيات، بمعنى الكتاب، وضمن الاستكبار معنى التكذيب، فعداه بالباء. والمعنى: فكنتم تنكصون عنها على أعقابكم، حالة كونكم مكذبين بكتابي، ومستكبرين عن الإيمان به. والمعنى: أن سماعه يحدث لهم كبراً وطغياناً فلا يؤمنون به.

قال ابن عطية: وهذا قول جيد، وقال النحاس: القول الأول أولى، وبينه بما ذكرنا، فعلى القول الأول: يكون (به) متعلقاً بمستكبرين. وعلى الثاني: يكون متعلقاً بـ﴿سَٰمِرٗا﴾؛ لأنهم كانوا يجتمعون حول البيت بالليل يسمرون، وكان عامة سمرهم ذكر القرآن، والطعن فيه، وتسميته سحراً وشعراً وهو اسم جمع كالحاضر

---

(١) المراغي. (٢) الشوكاني.

في الإطلاق على الجمع. وقال الواحدي: السامر الجماعة يسمرون بالليل؛ أي: يتحدثون فيه، فهو حال بعد حال من فاعل تنكصون، أو من الضمير في مستكبرين. والمعنى: وحالة كونكم سامرين ومتحدثين حول البيت في شأن القرآن.

ويجوز أن يتعلق ﴿بِهِۦ﴾ بقوله: ﴿تَهْجُرُونَ﴾ من الهجر بالفتح، وهو الهذيان، وهو حال أخرى؛ أي: وحالة كونكم تهذون في شأن القرآن وتسبونه، ويجوز أن يكون من الهجر بالضم، وهو الفحش في المنطق، وفيه ذم لمن يسمر في غير طاعة الله تعالى. وكان عليه السلام يؤخر العشاء إلى ثلث الليل، ويكره النوم قبلها، والحديث بعدها. رواه مسلم عن أبي برزة الأسلمي.

ومعنى قوله: ﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرًا تَهْجُرُونَ ﴿٦٧﴾﴾؛ أي: تعرضون عن الإيمان مستعظمين بالبيت الحرام، تقولون: نحن أهل حرمه وخدام بيته، فلا يظهر علينا أحد، ولا نخاف أحداً، وتسمرون حوله، وتتخذون القرآن سلواكم والطعن فيه هجيراكم، تهذون فتقولون هو سحر، هو شعر، هو كهانة إلى آخر ما يحلو لكم أن تتقولوه.

والخلاصة: أنكم كنتم عن سماع آياتي معرضين مستعظمين بأنكم خدام البيت وجيرانه فلا تضامون، وتهذون في أمر القرآن، وتقولون فيه ما ليس فيه مسحة من الحق، ولا جانب من الصواب.

وقرأ الجمهور[١]: ﴿سَٰمِرًا﴾ وابن مسعود وابن عباس وأبو حيوة وابن محيصن وعكرمة والزعفراني ومحبوب عن أبي عمرو: سمَّراً بضم السين وفتح الميم المشددة جمع سامر. وابن عباس أيضاً، وزيد بن علي وأبو رجاء وأبو نهيك (سمارا) كذلك. وبزيادة ألف بين الميم والراء، جمع سامر أيضاً، وهما جمعان مقيسان، في مثل سامر وعاذل.

وقرأ الجمهور وابن كثير وعاصم وأبو عمرو وابن عامر وحمزة والكسائي:

---

(١) البحر المحيط.

﴿تَهۡجُرُونَ﴾ بفتح التاء وضم الجيم. وروى ابن أبي عاصم: ﴿يهجرون﴾ بالياء بدل التاء على سبيل الغيبة. قال ابن عباس: تهجرون الحق وذكر الله، وتقطعونه من الهجر. وقال ابن زيد وأبو حاتم: من هجر المريض إذا هذى؛ أي: يقولون اللغو من القول. وقرأ ابن عباس وابن محيصن ونافع وحميد بضم التاء وكسر الجيم من أهجر الرباعي؛ أي: يقولون الهجر بضم الهاء وهو الفحش. قال ابن عباس إشارة إلى السب للصحابة وغيرهم. وقرأ ابن مسعود وابن عباس أيضاً، وزيد بن علي وعكرمة وأبو نهيك وابن محيصن أيضاً وأبو حيوة ﴿يهجرون﴾ بضم الياء وفتح الهاء وتشديد الجيم من هجر المضاعف من الهجر بالفتح بمعنى مقابل الوصل، أو الهذيان، أو من الهُجر بضم الهاء، وهو السب والإفحاش في المنطق، يريد سبهم للنبي ﷺ، ومن اتبعه.

وعبارة «المراح»: ﴿تَهۡجُرُونَ﴾ بضم التاء؛ أي:[1] تسبون القرآن، وتسمونه سحراً وشعراً. وتهجرون بفتح التاء؛ أي: تتركون القرآن وتعرضون عنه، وكانوا يجتمعون حول الكعبة في الليل يتحدثون، وكان أكثر حديثهم ذكر القرآن، والطعن فيه، وتسميته سحراً وشعراً، وسب رسول الله ﷺ وأصحابه، وكانوا يقولون: لا يعلو علينا أحد؛ لأنا أهل الحرم كما مر.

وقوله: ﴿مُسۡتَكۡبِرِينَ﴾، وقوله: ﴿سَٰمِرٗا﴾ وقوله: ﴿تَهۡجُرُونَ﴾ أحوال مترادفة من الواو في ﴿تَنكِصُونَ﴾ أو كل واحدة حال من ضمير ما قبلها، فتكون أحوالاً متداخلة، وسامراً اسم جمع كحاج وراكب وحاضر وغائب وباقر جمع البقر، وجامل جمع الجمل، فالكل يطلق على الجمع. ا هـ. وفي «القرطبي» الحاضر هم القوم النازلون على الماء. ا هـ.

ثم أنبهم سبحانه وتعالى وبيّن أن سبب إقدامهم على الكفر هو أحد هذه الأمور الأربعة الآتية:

الأول: ما ذكره بقوله: ﴿أَفَلَمۡ يَدَّبَّرُواْ ٱلۡقَوۡلَ﴾؛ أي: القرآن، فإنهم لو تدبروا

---

(١) المراح.

معانيه؛ لظهر لهم صدقه، وآمنوا به وبما فيه، والاستفهام فيه[1] لإنكار الواقع واستقباحه داخل على محذوف، والفاء عاطفة على ذلك المحذوف، والتقدير: أفعل الكفار ما فعلوا من النكوص والاستكبار والهجر، فلم يتدبروا القرآن ليعرفوا بما فيه من إعجاز النظم، وصحة المدلول، والإخبار عن الغيب. أنه الحق من ربهم، فيؤمنوا به فضلاً عما فعلوا في شأنه من القبائح. والتدبر إحضار القلب للفهم، وفي «الجلالين» والاستفهام المصرح به في هذا الموضع والذي في ضمن (أم) في المواضع الثلاثة الآتية للتقرير؛ أي: حمل المخاطب على الإقرار بما يعرفه؛ أي: وللتوبيخ، كما ذكره غيره، انتهى بتصرفٍ وزيادة من «الجمل».

والمعنى[2]: أي إنهم لم يتدبروا القرآن، فيعلموا ما خص به من فصاحة وبلاغة، وقد كان لديهم فسحة من الوقت، تمكنهم من التدبر فيه، ومعرفة أنه الحق من ربهم، وأنه مبرأ من التناقض، وسائر العيوب التي تعتري الكلام، إلى ما فيه من حجج دامغة وبراهين ساطعة، إلى ما فيه من فضائل الآداب وسامي الأخلاق، إلى ما فيه من تشريع إن هم اتبعوه.. كانوا سادة البشر، واتبعهم الأسود والأحمر، كما كان لمن اتبعه من السابقين الأولين من المؤمنين.

والثاني: ما ذكره بقوله: ﴿أَمْ جَآءَهُم﴾؛ أي[3]: هل جاءهم من الكتاب وبعثة الرسل ﴿مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ كأسماعيل عليه السلام، وأعقابه من عدنان وقحطان ومضر وربيعة وقس والحرث بن كعب وأسد بن خزيمة وتميم بن مرة وتبع وضبة بن آد، فكلهم آمنوا بالله تعالى وكتبه ورسله، فإن مجيء الكتاب من الله تعالى إلى الرسل عادة قديمة له تعالى، وأن مجيء القرآن على طريقته، فمن أين ينكرونه.

وأم فيه منقطعة، مقدرة ببل[4]، التي للإضراب الانتقالي عن التوبيخ، بما ذكر إلى التوبيخ بأمر آخر، وبالهمزة التي لإنكار الواقع؛ أي: بل أجاءهم من

---

(١) روح البيان.
(٢) المراغي.
(٣) المراح.
(٤) روح البيان.

الكتاب ما لم يأت آباءهم الأولين، حتى استبعدوه فوقعوا في الكفر والضلال، يعني أن مجيء الكتب من جهته تعالى إلى الرسل سنة قديمة له تعالى، لا يكاد يتسنى إنكارها وأن مجيء القرآن على طريقته، فمن أين ينكرونه؟.

والخلاصة[1]: أي أم اعتقدوا أن مجيء الرسل أمر لم تسبق به السنن من قبلهم، فاستبعدوا وقوعه، لكنهم قد عرفوا بالتواتر أن الرسل كانت تترى، وتظهر على أيديهم المعجزات، فهلا كان ذلك داعياً لهم إلى التصديق بهذا الرسول الذي جاء بذلك الكتاب الذي لا ريب فيه.

وقيل المعنى[2]: أم جاءهم من الأمن من عذاب الله ما لم يأت آباءهم الأولين، كإسماعيل ومن بعده.

الثالث: ما ذكره بقوله: ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ﴾ إضراب وانتقال من التوبيخ، بما تقدم إلى التوبيخ بوجه آخر. والهمزة لإنكار الوقوع أيضاً؛ أي: بل ألم يعرفوه ﷺ بالأمانة والصدق وحسن الأخلاق وكمال العلم، مع عدم التعليم من أحد؛ إلى غير ذلك من صفات الأنبياء. ﴿فَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ﴾؛ أي: جاحدون بنبوته، ومعلوم أنهم قد عرفوه بذلك. فحيث انتفى عدم معرفتهم بشأنه عليه السلام، ظهر بطلان إنكارهم؛ لأنه مترتب عليه.

والخلاصة: أي[3] أم أنهم لم يعرفوا رسولهم بأمانته وصدقه وجميل خصاله قبل أن يدعي النبوة، كلا إنهم لقد عرفوه بكل فضيلة وشهر لديهم باسم (الأمين). فكيف ينكرون رسالته، ولقد قال جعفر بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ للنجاشي: إن الله بعث فينا رسولاً نعرف نسبه، ونعرف صدقه وأمانته. وكذلك قال أبو سفيان لملك الروم حين سأله وأصحابه عن نسبه وصدقه وأمانته، وقد كانوا بعد كفاراً لم يسلموا.

والرابع: ما ذكره بقوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ﴾ وهذا أيضاً[4] انتقال من

---

(١) المراغي.
(٢) الشوكاني.
(٣) المراغي.
(٤) روح البيان.

توبيخ إلى توبيخ؛ أي: بل أيقول المشركون: بمحمد ﷺ جنون، ويقولون: إنما حمله على ادعائه الرسالة جنون، فلا يدري ما يقول، مع أنهم يعلمون أنه أرجح الناس عقلاً، وأثقبهم ذهناً، وأتقنهم رأياً، وأوفرهم رزانة. ولكنه جاء بما يخالف هواهم، فدفعوه وجحدوه تعصباً وحمية.

ثم أضرب سبحانه عن ذلك كله فقال: ﴿بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ﴾؛ أي: ليس الأمر كما زعموا في حق القرآن والرسول، بل جاءهم الرسول متلبساً بالحق والصدق الثابت، الذي لا ميل عنه، ولا مدخل فيه للباطل بوجه من الوجوه، فما هو إلا توحيد الله وما شرعه لعباده مما فيه سعادة البشر، ﴿وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ﴾ من حيث هو حق؛ أي: حق كان لا لهذا الحق فقط، كما ينبىء عنه الإظهار في موضع الإضمار. ﴿كَٰرِهُونَ﴾ لما في جبلتهم من الزيغ والانحراف المناسب للباطل، ولذلك كرهوا هذا الحق الأبلج، وزاغوا عن الطريق الأنهج، لما ران على قلوبهم من ظلمات الشرك، والإسراف في المعاصي والآثام.

وظاهر[١] النظم القرآني أن أقلهم كانوا لا يكرهون الحق، ولكنهم لم يظهروا الإيمان خوفاً من الكارهين له، وفي «فتح الرحمن» فإن قلت: كيف[٢] قال: ذلك - مع أنهم كلهم كانوا كارهين للتوحيد -؟ قلت: كان منهم من ترك الإيمان به أنفةً وتكبراً من توبيخ قومهم لئلا يقولوا: ترك دين آبائه لا كراهة للحق، كما يحكى عن أبي طالب:

فَوَٱللَّهِ لَوْلاَ أَنْ أَجِيْءَ بِسُبَّةٍ ... تَجُرُّ عَلَىٰ أَشْيَاخِنَا فِيْ ٱلْقَبَائِلِ
إِذاً لاَتَّبَعْنَاهُ عَلَىٰ كُلِّ حَالَةٍ ... مِنَ ٱلدَّهْرِ جِدّاً غَيْرَ قَوْلِ ٱلتَّخَاذُلِ

ثم بيّن سبحانه أن اتباع الهوى يؤدي إلى الفساد العظيم، فقال: ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ﴾ قرأ الجمهور[٣]: على كسر الواو لالتقاء الساكنين، وابن وثاب بضمها تشبيهاً بواو الضمير، كما كسرت واو الضمير تشبيهاً بها. ا هـ. «سمين»؛ أي:

---

(١) الشوكاني.
(٢) فتح الرحمٰن.
(٣) الفتوحات.

ولو اتبع ووافق الحق الذي كرهوه، ومن جملته ما جاء به عليه السلام من القرآن. ﴿أَهْوَآءَهُمْ﴾؛ أي: مشتهيات الكفرة، بأن جاء القرآن موافقاً لمراداتهم، فجعل موافقته اتباعاً على التوسع والمجاز ﴿لَفَسَدَتِ﴾ وخربت ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾، وقرأ ابن مسعود ﴿وما بينهما﴾ من الملائكة والإنس والجن، وخرجت عن الصلاح والانتظام بالكلية؛ لأن مناط النظام وما به قوام العالم، ليس إلا الحق الذي من جملته الإسلام والتوحيد والعدل، ونحو ذلك. قال بعضهم[1]: لولا أن الله أمر بمخالفة النفوس ومباينتها لاتبع الخلق أهواءهم وشهواتهم، ولو فعلوا ذلك، لضلوا عن طريق العبودية، وتركوا أوامر الله تعالى، وأعرضوا عن طاعته ولزموا مخالفته، والهوى يهوي بمتابعيه إلى الهاوية، انتهى. واعلم أن سبب[2] فساد المكلفين من بني آدم ظاهر، وهو ذنوبهم التي من جملتها الهوى المخالف للحق، وأما فساد ما عداهم، فعلى وجه التبع؛ لأنهم مدبرون في الغالب بسبب العقول فلما فسدوا.. فسدوا.

والمعنى[3]: أي ولو سلك القرآن طريقهم، بأن جاء مؤيّداً للشرك بالله، واتخاذ الولد تعالى الله عن ذلك وزين الآثام واجتراح السيئات.. لاختل نظام العالم كما جاء في قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾، ولو أباح الظلم وترك العدل.. لوقع الناس في هرج ومرج، ولوقع أمر الجماعات في اضطراب وفساد، والمشاهد في الأمم التي يفشو فيها التخاذل والذلة والمسكنة يؤول أمرها إلى الزوال، ولو أباح العدوان واغتصاب الأموال، وأن يكون الضعيف فريسة للقوي لما استتب أمن ولا ساد نظام، وحال العرب قبل الإسلام شاهد صدق على ذلك.

ولو أباح الزنا لفسدت الأنساب، وما عرف والد ولده، فلا تتكون الأسر ولا يكون من يعول الأبناء، ولا من يبحث لهم عن رزق، فيكونون شرداً في الطرق لا مأوى لهم، ولا عائل يقوم بشؤونهم، وأكبر برهان على هذا ما هو

---

(١) روح البيان.
(٢) الشوكاني.
(٣) المراح.

حادث في أوروبا الآن، من وجود نسل بازدواج غير شرعي، مما تئن منه الأمم والجماعات، إلى نحو ذلك، مما هو ظلم وعدوان، وبعد أن أنبهم سبحانه على كراهتهم للحق، شنع عليهم بإعراضهم عما فيه الخير لهم، وهو يخالف ما جبلت عليه النفوس من الرغبة في ذلك، فقال: ﴿بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِذِكْرِهِمْ﴾ انتقال من تشنيعهم بكراهة الحق الذي يقوم به العالم إلى تشنيعهم بالإعراض عما فيه فخرهم وشرفهم، وهو القرآن المعبر عنه بالذكر؛ أي: بل جئناهم بالقرآن الذي فيه ذكرهم وفخرهم وشرفهم، الذي يجب عليهم أن يقبلوه ويقبلوا عليه أكمل إقبال؛ أي: كيف يكرهون الحق مع أن القرآن أتاهم بتشريفهم وتعظيمهم، فاللائق بهم الانقياد.

وفي «التأويلات النجمية»: بل أتيناهم بما فيه لهم صلاح في الحال، وذكر في المآل ﴿فَهُمْ﴾ مع ذلك بما فعلوا من الاستكبار والنكوص عن هذا الذكر المختص بهم ﴿عَن ذِكْرِهِم﴾؛ أي: عن صلاح حالهم وشرف مآلهم ﴿مُّعْرِضُونَ﴾ لا يلتفتون إليه بحال من الأحوال، لا عن غير ذلك مما لا يحسن الإقبال عليه، والاعتناء به من أهوائهم. ونسبة الإتيان الحقيقي إلى الله لا تصح، وإنما هو مجاز؛ أي: بل آتاهم كتابنا أو رسولنا.

والمعنى[1]: بل جئناهم بالقرآن، الذي فيه فخرهم وشرفهم، فأعرضوا عنه ونكصوا على أعقابهم وازدروا به، وجعلوه هزواً وسخريةً، وما كان لهم أن يفعلوا ذلك. ونحو الآية قوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿بل أتينهم﴾ بنون العظمة. وقرأ ابن أبي إسحاق وعيسى بن عمر ويونس عن أبي عمرو ﴿بل أتيتهم﴾ بتاء المتكلم، وقرأ ابن أبي إسحاق وعيسى أيضاً وأبو البرهشيم وأبو حيوة والجحدري وابن قطيب وأبو رجاء (بل أتيتهم) بتاء الخطاب للرسول ﷺ. وقرأ الجمهور ﴿بِذِكْرِهِمْ﴾؛ أي: بوعظهم،

---

(١) المراغي.
(٢) البحر المحيط.

والبيان لهم، قاله ابن عباس. وقرأ عيسى ﴿بذكراهم﴾ بألف التأنيث. وقرأ قتادة ﴿نذكرهم﴾ بالنون والتشديد مضارع ذكر من التذكير. وتكون الجملة على هذه القراءة في محل نصب على الحال. وقرأ[1] ابن مسعود وأبي بن كعب وأبو رجاء وأبو الجوزاء ﴿بل آتيناهم بذكراهم فهم عن ذكراهم معرضون﴾ بألف فيهما.

ثم بيّن سبحانه أن دعوة نبيه ﷺ، ليست مشوبة بأطماع الدنيا فقال: ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ﴾ وأم هي المنقطعة، بمعنى همزة الإنكار التوبيخي، وبل التي للإضراب الانتقالي؛ لأنه انتقال من توبيخهم بما ذكر من قولهم، أم يقولون به جنة إلى التوبيخ بوجه آخر. والمعنى: أم يزعمون أنك تسألهم عن أداء الرسالة ﴿خَرْجًا﴾؛ أي: جعلاً وأجراً تأخذه منهم، فتركوا الإيمان بك، وبما جئت به لأجل ذلك، مع أنهم يعلمون أنك لم تسألهم ذلك ولا طلبته منهم، ﴿فَخَرَاجُ رَبِّكَ﴾ وثوابه ﴿خيرٌ﴾ لك، تعليل لنفي السؤال المستفاد من الإنكار؛ أي: لا تسألهم ذلك فإن رزق ربك الذي يرزقك في الدنيا، وأجره الذي يعطيكه في الآخرة خير لك مما ذكر لسعته ودوامه، ففيه استغناء لك من عطائهم، ﴿وَهُوَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾؛ أي: خير من أعطى عوضاً على عمل؛ لأن ما يعطيه لا ينقطع ولا يتكدر. وهذه الجملة مقررة لخيرة خراجه تعالى.

وفي «التأويلات النجمية»: فيه[2] إشارة إلى أن العلماء بالله الراسخين في العلم، لا يدنسون وجوه قلوبهم الناضرة بدنس الأطماع الفاسدة الصالحة الدنيوية والأخروية، فيما يعاملون الله في دعوة الخلق إلى الله، بالله، لله.

وفي «الفتوحات المكية» مذهبنا أن للواعظ أخذ الأجرة على وعظه الناس، وهو من أحل ما يأكله، وإن كان ترك ذلك أفضل، إيضاح ذلك: أن مقام الدعوة إلى الله يقتضي الإجارة، فإنه ما من نبي دعا إلى الله إلا قال: إن أجري إلا على الله، فأثبت الأجر على الدعاء، ولكن اختار أن يأخذه من الله لا من المخلوق، انتهى.

---

(١) زاد المسير. (٢) روح البيان.

وقرأ ابن كثير[1] ونافع وأبو عمرو وعاصم ﴿خرجا﴾ بغير ألف ﴿فَخَرَاجُ﴾ بألف وقرأ ابن عامر (خرجا فخرج) بغير ألف في الحرفين. وقرأ حمزة والكسائي ﴿خراجا﴾ بألف ﴿فخراج﴾ بألف في الحرفين. وقرأ الحسن[2] وعيسى ﴿خراجاً﴾ بألف في الأولى ﴿فخرج﴾ بغير ألف في الثانية. فكملت بهذه القراءة أربع قراءات. والخرج: هو الذي يكون مقابلاً للدخل، فيقال: لكل ما تخرجه إلى غيرك خرجاً. والخراج[3]: غالب في الضريبة على الأرض. قال المبرد: الخرج المصدر، والخراج الاسم. قال النضر بن شميل: سألت عمرو بن العلاء عن الفرق بين الخرج والخراج، فقال: الخراج ما لزمك، والخرج ما تبرعت به. وروى عنه أنه قال: الخرج من الرقاب، والخراج من الأرض. ففيه[4] إشعار بالكثرة واللزوم فيكون أبلغ، ولذلك عبر به عن عطاء الله إياه. وقال في «تفسير المناسبات»: وكأنه سماه خراجاً إشارة إلى أنه أوجب رزق كل أحد على نفسه بوعد، لا خلف فيه.

وبعد أن فند سبحانه آراءهم.. أتبعها ببيان صحة ما جاء به الرسول، وأنه الحق الذي لا معدل عنه فقال: ﴿وَإِنَّكَ﴾ يا محمد ﴿لَتَدْعُوهُمْ﴾؛ أي: لتدعو هؤلاء المشركين من قومك ﴿إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾؛ أي: إلى ذلك الدين القيم الذي تشهد العقول السليمة باستقامته وبعده عن الضلال والهوى، والاعوجاج والزيغ. ثم بيّن سبحانه أن الذين ينكرون البعث هم في ضلالٍ مبين، فقال: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي: لا يصدقون ﴿بِٱلْآخِرَةِ﴾؛ أي: بالبعث بعد الموت وبقيام الساعة ومجازاة الله عباده في الآخرة ﴿عَنِ ٱلصِّرَٰطِ﴾ المستقيم الذي تدعوهم إليه ﴿لَنَٰكِبُونَ﴾؛ أي: لمائلون عادلون عنه، فإن الإيمان بالآخرة، وخوف ما فيها من الدواهي من أقوى الدواعي إلى طلب الحق، وسلوك سبيله، وليس لهم إيمان وخوف حتى يطلبوا الحق، ويسلكوا سبيله، ففي الوصف بعدم الإيمان بالآخرة

---

(١) زاد المسير.
(٢) البحر المحيط.
(٣) الشوكاني.
(٤) روح البيان.
(٥) المراغي.

إشعار بعلة الحكم.

والمعنى[1]: أن هؤلاء الموصوفين بعدم الإيمان بالآخرة عن ذلك الصراط، أو جنس الصراط لعادلون عنه.

ثم بيّن سبحانه أنهم مصرون على الكفر، لا يرجعون عنه بحال. فقال: ﴿وَلَوْ رَحِمْنَٰهُمْ وَكَشَفْنَا﴾؛ أي: أزلنا عنه ﴿مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ﴾؛ أي: من سوء الحال، يعني: القحط والجدب الذي أصابهم وغلب عليهم، ﴿لَّلَجُّوا۟﴾؛ أي: لتمادوا ﴿فِى طُغْيَٰنِهِمْ﴾ وضلالهم حالة كونهم ﴿يَعْمَهُونَ﴾ يترددون ويتذبذبون في طغيانهم، ويتخبطون فيه. وأصل اللجاج التمادي في العناد، ومنه اللجّة بالفتح لتردد الصوت، ولجة البحر تردد أمواجه، ولجة الليل تردد ظلامه. وأصل[2] العمه: التردد في الأمر من التحير؛ أي: عامهين عن الهدى، مترددين في الضلالة، لا يدرون أين يتوجهون، كمن يضل عن الطريق في الفلاة، لا رأي له ولا دراية بالطريق.

والمعنى: أي ولو كشفنا عنهم ما أصابهم، من جوع وسائر مضار الدنيا، لتمادوا في ضلالهم، وهم متحيرون عن الهدى، لا يبصرون الحق. وقد كان الأمر كذلك. وقيل المعنى؛ أي: إنهم بلغوا في التمرد والعناد حداً لا يرجى معه صلاح لهم، ولو أنهم ردوا من الآخرة إلى الدنيا ولم ندخلهم النار.. لعادوا لما نهوا عنه لشدة لجاجهم وتدنيسهم لأنفسهم. وهذا[3] القول بعيد، والظاهر أن هذا التعليق إنما يكون في الدنيا، ويدل على ذلك قوله: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ﴾ جملة مستأنفة مسوقة لتقرير ما قبلها. واللام فيه موطئة للقسم.

والعذاب[4] قيل: هو الجوع الذي أصابهم في سني القحط، وقيل: المرض. وقيل: القتل يوم بدر، واختاره الزجاج. وقيل: الموت، وقيل: المراد من أصابه العذاب من الأمم الخالية؛ أي: وعزتي وجلالي لقد أخذنا أهل مكة

(١) الشوكاني.
(٢) روح البيان.
(٣) البحر المحيط.
(٤) الشوكاني.

بالعذاب الدنيوي وهو ما أصابهم يوم بدر من القتل والأسر.

وفي «التأويلات النجمية»؛ أي: أذقناهم مقدمات العذاب دون شدائده تنبيهاً لهم ﴿فَمَا ٱسْتَكَانُوا۟﴾؛ أي: ما خضعوا وتذللوا ﴿لربهم﴾؛ أي: بالانقياد الظاهري، بل أقاموا على ما كانوا فيه من التمرد على الله، والانهماك في معاصيه. ﴿وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾؛ أي: وما يخشعون لله بقلوبهم في الشدائد عند إصابتها لهم، ولا يدعونه لرفع ذلك، والظاهر أن آية ﴿وَلَوْ رَحِمْنَٰهُمْ﴾ مع الآيتين بعدها مدنيات فإن إصابتهم بالقحط إنما كانت بعد خروجه ﷺ من بينهم، كما يدل عليه تفسير الشديد بقتلهم يوم بدر، وهذا إنما كان بعد الهجرة. ا هـ. «جمل».

والمعنى: أي محناهم بكل[1] محنة من القتل والأسر، والجوع الذي هو أشد منهما. فما رؤي منهم لين انقياد وتوجه إلى الإسلام قط. وأما ما أظهره أبو سفيان من الشكوى، كما مر في أسباب النزول، فليس من الاستكانة له تعالى، والتضرع إليه تعالى في شيء، وإنما هو نوع خشوع إلى أن يتم غرضه، فجاء، كما قيل: إذا جاع ضغا، وإذا شبع طغى، وأكثرهم مستمرون على ذلك العناد.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ هو عذاب الآخرة ﴿إِذَا﴾ فجائية واقعة في جواب الشرط ﴿هُمْ فِيهِ﴾؛ أي: في ذلك العذاب ﴿مُبْلِسُونَ﴾؛ أي: متحيرون آيسون من كل خير؛ أي: أكثرهم[2] مستمرون على ذلك العناد إلى أن يروا عذاب الآخرة، فحينئذٍ يبلسون كقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبْلِسُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٢﴾﴾ وقوله تعالى: ﴿لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾﴾ قال عكرمة: هو باب من أبواب جهنم عليه من الخزنة أربع مئة ألف، سود وجوههم، كالحة أنيابهم، قد قلعت الرحمة من قلوبهم، إذا بلغوه فتحه الله عليهم. نسأل الله العافية من ذلك، والمبلس: الآيس من الشر الذي ناله.

والمعنى: أي[3] حتى إذا جاءهم أمر الله، وجاءتهم الساعة بغتة، وأخذهم

---

(١) المرام.
(٢) روح البيان.
(٣) المراغي.

من العذاب ما لم يكونوا يحتسبون أيسوا من كل خير، وانقطعت آمالهم وخاب رجاؤهم. وقرأ السلمي: ﴿مبلسون﴾ بفتح اللام من أبلسه؛ أي: أدخله في الإبلاس، وهو القنوط من رحمة الله تعالى.

﴿وَهُوَ﴾ سبحانه الإله ﴿ٱلَّذِيٓ أَنشَأَ﴾ وخلق ﴿لَكُمُ﴾؛ أي: لمنافعكم ﴿ٱلسَّمۡعَ﴾ وهي: قوة في الأذن بها تدرك الأصوات، والفعل يقال له: السمع أيضاً، ويعبر تارة بالسمع عن الأذن. ﴿وَٱلۡأَبۡصَٰرَ﴾ جمع بصر، يقال: للجارحة الناظرة وللقوة فيها، ﴿وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۚ﴾ جمع فؤاد وهو القلب. وخص هذه[1] الثلاثة بالذكر؛ لأن أكثر المنافع الدينية والدنيوية متعلق بها. والخطاب لجملة الخلق والمقصود به التقريع والتوبيخ بالنسبة للكافرين وتذكير النعم بالنسبة للمؤمنين.

والمعنى: وهو سبحانه هو الإله الذي أحدث لكم السمع لتسمعوا به الأصوات التي تخاطبون بها والمواعظ، والأبصار لتشاهدوا بها الأضواء والألوان والأشكال المختلفة، وتنظروا العبر، والعقول لتفهموا بها ما ينفعكم، وتتفكروا بها فيما يوصلكم إلى سعادة الدارين الدنيا والعقبى.

وخص[2] هذه الثلاثة بالذكر، لأنها طريق الاستدلال الحسي والعقلي لمعرفة الموجودات، وذكرها على هذا الترتيب لما أثبته الطب، أن الطفل في الأيام الثلاثة الأولى يسمع ولا يبصر، ثم يبدأ الرؤية بعدئذٍ، ومن الواضح تأخر العقل عن ذلك.

أي: وهو الذي أنعم عليكم بهذه النعم الجليلة، فلم تنتفعوا بشيء منها لإصراركم على الكفر، وبعدكم عن الحق، ولم تشكروه على ذلك. ولهذا قال: ﴿قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ﴾؛ أي[3]: شكراً قليلاً حقيراً، غير معتدٍ به باعتبار تلك النعم الجليلة ﴿تَشۡكُرُونَ﴾، فـ﴿مَّا﴾ زائدة لتأكيد القلة.

وقيل المعنى: أنهم لا يشكرونه ألبتة. وقد كان ينبغي أن يشكروه عليها في

---

(١) روح البيان.
(٢) المراغي.
(٣) روح البيان.

كل حين، لا أن لهم شكراً قليلاً، كما يقال لجاحد النعمة: ما أقل شكره؛ أي: لا يشكر.

وفي «العيون»: لم تشكروه لا قليلاً ولا كثيراً. وذلك لأن القلة ربما تستعمل في العدم، وهو موافق لحال الكفار، وشكر هذه النعم استعمالها في طاعة المنعم وعبوديته، فشكر السمع حفظه عن استماع المنهيات، وأن لا يسمع إلا لله، وبالله، وعن الله. وشكر البصر حفظه عن النظر إلى المحرمات، وأن ينظر بنظر العبرة لله، وبالله، وإلى الله، وشكر القلب تصفيته عن ريب الأخلاق الذميمة، وقطع تعلقه عن الكونين، فلا يشهد غير الله، ولا يحب إلا لله.

﴿وَهُوَ﴾ سبحانه الإله ﴿ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ﴾؛ أي: خلقكم وبثكم ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ بالتناسل فيها. يقال: ذرأ الله الخلق؛ أي: أوجد أشخاصهم. ﴿وَإِلَيْهِ﴾ تعالى لا إلى غيره؛ أي: إلى حكمه وقضائه وجزائه ﴿تُحْشَرُونَ﴾؛ أي: تجمعون يوم القيامة بعد تفرقكم، فما لكم لا تؤمنون به، ولا تشكرون له.

والمعنى: أي[1] وهو سبحانه الإله الذي خلقكم في الأرض، وبثكم فيها، على اختلاف أجناسكم ولغاتكم، ثم يجمعكم لميقات يوم معلوم في دار لا حاكم فيها سواه. ﴿وَهُوَ﴾ سبحانه الإله ﴿ٱلَّذِى يُحْىِۦ﴾؛ أي: يعطي الحياة النطف والتراب والبيض والموتى يوم القيامة. ﴿وَيُمِيتُ﴾؛ أي: يأخذ الحياة من الأحياء من غير أن يشاركه في ذلك أحد. ولم يقل[2]: أحيا وأمات بصيغة الماضي، كما قال: أنشأكم وذرأكم، ولكن جاء على لفظ المضارع ليدل على أن الإحياء والإماتة سنته؛ أي: وهو الذي جعل الخلق أحياء بنفخ الروح فيهم، بعد أن لم يكونوا شيئاً، ثم يميتهم بعد أن أحياهم، ثم يعيدهم تارة أخرى للثواب والعقاب. ﴿وَلَهُ﴾ سبحانه خاصة ﴿ٱخْتِلَٰفُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ خلقاً وإيجاداً ازدياداً وانتقاصاً، أو مجيئاً وذهاباً، وهو المؤثر في تعاقبهما لا الشمس.

قال الفراء: هو الذي جعلهما مختلفين يتعاقبان، ويختلفان في السواد

---

(١) المراغي. (٢) روح البيان.

والبياض. وقيل: اختلافهما نقصان أحدهما وزيادة الآخر. وقيل: تكررهما يوماً بعد يوم وليلة بعد ليلة؛ أي: وهو الذي سخر الليل والنهار، وجعلهما متعاقبين، يطلب كل منهما الآخر طلباً حثيثاً، لا يملان ولا يفترقان، كما قال: ﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ﴾ ثم أنب سبحانه من ترك النظر في كل هذا، فقال: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ الهمزة فيه للاستفهام التوبيخي، داخلة على محذوف، والفاء عاطفة على ذلك المحذوف؛ أي: أتغفلون[1] عن تلك الآيات، فلا تعقلون بالنظر والتأمل، أن الكل منا، وأن قدرتنا تعم الممكنات، وأن البعث من جملتها؛ أي: أفلا تتفكرون في هذه الموجودات، لتعلموا أن هذه صنع الإلٰه العليم، القادر على كل شيء، وأن كل شيء خاضع له تحت قبضته، دال على وجوده. وقرأ أبو عمرو في رواية ﴿يعقلون﴾ بيا الغيبة على الالتفات.

ثم بين سبحانه أنه لا شبهة لهم في إنكار البعث، إلا التشبث بحبل التقليد المبني على مجرد الاستبعاد، فقال: ﴿بَلْ قَالُوٓا۟﴾ عطف على مقدر يقتضيه المقام؛ أي: لم يعقلوا تلك الآيات، بل قالوا؛ أي: كفار مكة ﴿مِثْلَ مَا قَالَ ٱلْأَوَّلُونَ﴾؛ أي: كما قال من قبلهم من الكفار من قوم نوح، وهود وصالح وغيرهم في إنكار البعث مع وضوح الدلائل.

أي[2]: ما اعتبر هؤلاء المشركون بآيات الله، ولا تدبروا حججه الدالة على قدرته على فعل كل ما يريد، كإعادة الأجسام بالبعث، وحياتها حياة أخرى للحساب والجزاء، بل قالوا مثل مقالة أسلافهم من الأمم المكذبة لرسلها من قبلهم، تقليداً لهم دون برهان ولا دليل.

ثم بيّن ما قال الأولون فقال: ﴿قَالُوٓا۟﴾؛ أي[3]: قال الأولون ﴿أَءِذَا مِتْنَا﴾؛ أي: أنبعث إذا متنا ﴿وَكُنَّا﴾؛ أي: صرنا ﴿تُرَابًا وَعِظَٰمًا﴾ قد بليت أجسامنا، وجردت عظامنا من لحومنا.. ﴿أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ من قبورنا أحياء كهيأتنا قبل

---

(١) روح البيان.
(٢) المراغي.
(٣) الشوكاني.

الممات؛ أي: لا نبعث، والاستفهام فيه للإنكار والتعجب، استبعدوا ولم يتأملوا أنهم كانوا قبل ذلك أيضاً تراباً فخلقوا، والعامل في (إذا) ما دل عليه (لمبعثون)، وهو نبعث؛ لأن ما بعد أن لا يعمل فيما قبلها، وقدم التراب على العظام مع كونه مؤخراً عنه لشدة استبعادهم له.

وفي الهمزتين في الموضعين التحقيق، وتسهيل الثانية، وإدخال ألف بينهما على الوجهين، وترك الإدخال عليهما، فالقراءات أربعة كلها سبعية. ا هـ. «شيخنا».

ثم أكّد كفار مكة هذا الإنكار بقولهم ﴿لَقَدْ وُعِدْنَا﴾؛ أي: قال كفار مكة: لقد وعدنا ﴿نَحْنُ﴾ هذا الوعد الذي تعدنا به يا محمد، من البعث بعد موتنا، وصيرورتنا تراباً وعظاماً على لسانك ووعد ﴿آباؤنا هذا﴾؛ أي: مثل هذا الوعد الذي وعدتنا به من البعث بعد الموت ﴿مِن قَبْلُ﴾؛ أي: من قبل مجيئك إلينا، أو من قبل وجودنا على ألسنة قوم زعموا أنهم رسل الله تعالى، ثم لم يوجد ذلك الوعد مع طول العهد.

وفي المثل[1] إبهام، وفيما قاله الأولون إبهام، فبين الثاني بقوله: ﴿قَالُوٓاْ أَءِذَا مِتۡنَا﴾ إلخ. وبيّن الأول بقوله: ﴿لَقَدْ وُعِدْنَا﴾ الخ. فالأول؛ أي: قوله: ﴿قَالُوٓاْ أَءِذَا مِتۡنَا﴾ إلخ. مقول الأولين. وقوله: ﴿لَقَدْ وُعِدْنَا﴾ إلخ مقولهم؛ أي: مقول كفار مكة. ا هـ. «شيخنا».

ثم صرحوا بالتكذيب، وفروا إلى مجرد الزعم الباطل، فقالوا: ﴿إِنَّ هَٰذَآ﴾؛ أي: ما هذا البعث الذي وعدتنا ﴿إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ وأكاذيبهم التي سطروها في الكتب جمع أسطورة، كأحدوثة، والأساطير الأباطيل، والترهات والكذب؛ أي: ما هذا الذي تعدنا به من البعث بعد الممات إلا أكاذيب الأولين، قد تلقفناها منهم دون أن يكون لها ظلّ من الحقيقة، ولا نصيب من الصحة.

فائدة: وقال هنا[2]: ﴿لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا﴾ بتأخير هذا عن قوله:

---

(١) الفتوحات.

(٢) الفتوحات.

(نحن وآباؤنا)، وقال: في النمل: ﴿لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا﴾ بتقديم هذا على نحن وآباؤنا، جريا هنا على القيام من تقديم المرفوع على المنصوب، وعكس ثم بياناً لجواز تقديم المنصوب على المرفوع، وخص ما هنا بتقديم المرفوع على المنصوب، الذي هو لفظ هذا، جرياً على الأصل بلا وجود مقتض لخلافه، وخص ما هناك بتقديم المنصوب، اهتماماً به من منكري البعث، فكأنهم قالوا: إن هذا الوعد كما وقع منه ﷺ، فقد وقع قديماً من سائر الأنبياء، ثم لم يوجد مع طول العهد، فظنوا أن الإعادة تكون في الدنيا، ثم قالوا: لما لم يكن ذلك فهو من أساطير الأولين. ا هـ. «كرخي».

ثم أمر الله سبحانه نبيه ﷺ أن يسأل الكفار عن أمور لا عذر لهم من الاعتراف بها، ثم أمره أن ينكر عليهم بعد الاعتراف منهم ويوبخهم فقال: ﴿قُل﴾ يا محمد لكفار مكة ﴿لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ﴾ من المخلوقات، عبر بمن تغليباً للعقلاء على غيرهم ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ شيئاً ما فأخبروني بخالقهما، فإن ذلك كاف في الجواب، وفيه[1] من البالغة في الاستهانة بهم وفي تجهيلهم ما لا يخفى.

والمعنى: قل أيها الرسول، لهؤلاء المكذبين بالآخرة من قومك، لمن ملك السمٰوات والأرض، ومن فيها من الخلق إن كنتم من أهل العلم بذلك ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾؛ أي: إنهم سيقرون بأنهما لله تعالى ملكاً وخلقاً، وتدبيراً، دون غيره؛ لأن بديهة العقل تضطرهم إلى الاعتراف بأنه تعالى خالقها، وهذا إخبار من الله بما يقع منهم في الجواب قبل وقوعه.

ثم أمر رسوله أن يرغبهم في التدبر، ليعلموا بطلان ما هم عليه، فقال: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾﴾ الهمزة: للاستفهام التوبيخي داخلة على محذوف، و﴿الفاء﴾: عاطفة على ذلك المحذوف، والتقدير: أتقولون ذلك، وتنكرون البعث: فلا تتذكرون أن من فطر الأرض وما فيها ابتداءً.. قادر على إعادتها ثانياً، فإن البدء

---

(١) روح البيان.

ليس بأهون من الإعادة، بل الأمر بالعكس، في قياس العقول.

والمعنى: قل لهم أيها الرسول، حين يعترفون بذلك موبخاً لهم، أفلا تتدبرون، فتعلموا أن من قدر على خلق ذلك ابتداء، فهو قادر على إحيائهم بعد مماتهم، وإعادتهم خلقاً جديداً بعد فنائهم.

﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد ﴿مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ ترقى[1] في الأمر بالسؤال، من الأدنى والأصغر إلى الأعلى والأكبر، فإن السماوات والعرش أعظم ممن في الأرض، ولا يلزم منه أن يكون من في السمٰوات، أجل ممن في الأرض، حتى تكون الملائكة أفضل من جنس البشر، كما لا يخفى.

وقرأ ابن محيصن العظيم برفع الميم نعتاً للرب. ﴿سَيَقُولُونَ﴾ هما لله الذي له كل شيء، وهو رب ذلك، ليس لهم جواب غيره. وأتى باللام نظراً إلى معنى السؤال، فإن قولك من ربه، ولمن هو في معنى واحد، يعني إذا قلت من رب هذا، فمعناه لمن هذا، فالجواب لفلان.

﴿قُلْ﴾ لهم توبيخاً ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ الهمزة: للاستفهام التوبيخي داخلة على محذوف و﴿الفاء﴾: عاطفة على ذلك المحذوف، والتقدير: أتعلمون ذلك فلا تتقون عذابه بالعمل، بموجب العلم، حيث تكفرون به، وتنكرون البعث، وتثبتون له شريكاً في الربوبية، وفي «فتح الرحمٰن»: إنما قال هنا بلفظ ﴿لِلَّهِ﴾ وفيما بعد بلفظ الله مرتين؛ لأنه في الأول وقع في جواب مجرور باللام في قوله: ﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ﴾ فطابقه بجره اللام، بخلاف ذلك في الأخيرين، فإنهما إنما وقعا في جواب مجرد عن اللام، انتهى.

وقدم التذكر على التقوى؛ لأنهم بالتذكر يصلون إلى المعرفة، وبعد أن عرفوه علموا أنه يجب عليهم اتقاء مخالفته؛ أي: قل لهم منكراً وموبخاً: أتعلمون ذلك ولا تقون أنفسكم عقاب ربكم، فتنكروا ما أخبر به من البعث.

---

(١) روح البيان.

وقرأ أبو عمرو وأهل العراق[1]: ﴿سيقولون الله﴾ بغير لام، نظراً إلى لفظ السؤال، وهذه القراءة أوضح من قراءة الباقين باللام، ولكنه يؤيد قراءة الجمهور، أنها مكتوبة في جميع المصاحف باللام دون ألف، وهكذا قرأ الجمهور في قوله: ﴿قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ باللام نظراً إلى معنى السؤال، وقرأ أبو عمرو وأهل العراق بغير لام نظراً إلى لفظ السؤال أيضاً.

وبعد أن قررهم بأن العالمين العلوي والسفلي ملك له تعالى، أمره أن يقررهم بأن له تدبير شؤونهما وتدبير كل شيء، فقال: ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد ﴿مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ مما ذكر، ومما لم يذكر؛ أي: ملكه التام، فإن الملكوت الملك، والتاء للمبالغة. قال الراغب: الملكوت مختص بملك الله تعالى. اهـ.

واليد صفة ثابتة له تعالى نثبتها ونعتقدها، ولا نكيفها، ولا نمثلها. ﴿وَهُوَ يُجِيرُ﴾؛ أي: يغيث غيره إذا شاء ويحفظه. ﴿وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ﴾؛ أي: ولا يغاث عليه أحد؛ أي: لا يمنع أحد منه بالنصر عليه؛ أي: لا يمنع أحد أحداً من عذاب الله، ولا يقدر على نصره وإغاثته، وتعديته بعلى لتضمين معنى النصرة، يقال: أجرت فلاناً، إذا استغاث بك، فحميته، وأجرت عليه إذا حميت عنه.

وفي «التأويلات النجمية»: وهو يجير الأشياء من الهلاك بالقيومية، ولا يجار عليه؛ أي: لا مانع له ممن أراد هلاكه ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ذلك فأجيبوني. **والمعنى**؛ أي[2]: قل لهم: من المالك لكل شيء، والمدبر لكل شيء، وفي قبضته وتحت سلطانه وتصرفه كل شيء، وهو يغيث من يشاء، فيكون في حرز لا يقدر أحد على الدنو منه، ولا يغاث أحد، ولا يمنع منه؛ لأنه ليس في العوالم كلها ما هو خارج عن قبضته.

والخلاصة: أنه المدبر لنظام العالم جميعه، وهو الذي يغيث من شاء، ولا يستطيع أحد أن يغيث منه، ثم أجاب عن هذا السؤال قبل أن يجيبوا، فقال:

---

(١) الشوكاني. (٢) المراغي.

﴿سَيَقُولُونَ﴾ لك في الجواب ﴿لِلَّهِ﴾؛ أي: لله سبحانه ملكوت كل شيء دون غيره، وهو الذي يجير ولا يجار عليه.

﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد على طريق التوبيخ والاستهجان ﴿فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ﴾؛ أي: فكيف تخدعون، وتصرفون عن توحيد الله وطاعته مع علمكم به، فأنتم بعبادة الأصنام، أو بعض البشر قد سحرت عقولكم، كأنما غابت عن رشدها، واعتراها الذهول، فتصورت الأشياء على غير ما هي عليها، فإن من لا يكون مسحوراً مختلاً عقله، لا يكون كذلك، والخادع هو الشيطان، أو الهوى، أو كلاهما.

والمعنى: كيف يخيل لكم الحق باطلاً، والصحيح فاسداً، والمراد بالسحر التخيل والتوهم، لا حقيقته. وقد ثبت بالتجربة أن تكرار الكلام يخدع العقول والحواس حتى تتخيل غير الحق حقاً، وتتوهم صدق ما يقال، وإن كان باطلاً، ومن ثم كثرت المذاهب الإسلامية، وابتدع الرؤساء الدينيون والسياسيون من الأساليب والنظم ما خدعوا به عقول الشعوب في دينهم ودنياهم.

وقرأ أبو عمرو[1]: ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ في الأخيرتين من غير لام جر مع رفع الجلالة، جواباً على اللفظ، لقوله من؛ لأن المسؤول به مرفوع المحل، وهو من، فجاء جوابه مرفوعاً. وقرأ الباقون: ﴿لِلَّهِ﴾ باللام في الأخيرتين، وهو جواب على المعنى؛ لأن التقدير في الموضع الأول منهما: قل من له السماوات السبع والعرش، وفي الثاني: قل من له ملكوت كل شيء، فلام الجر مقدرة في السؤال، فظهرت في الجواب نظراً للمعنى. وأما جواب السؤال الأول، فهو لله باللام، باتفاق السبعة؛ لأنها قد صرح بها في السؤال.

ثم بيّن سبحانه أنه قد بالغ في الاحتجاج عليهم، فقال: ﴿بَلْ أَتَيْنَٰهُم﴾ وجئناهم على لسان رسولنا ﴿بِٱلْحَقِّ﴾؛ أي: بالأمر الحق، الواضح، الذي يحق ويجب اتباعه، وهو التوحيد والوعد بالبعث. وقرىء: ﴿بل أتيناهم﴾ بتاء المتكلم، وابن أبي إسحاق بتاء الخطاب.

---

(١) المراح.

﴿وَإِنَّهُمْ﴾؛ أي: وإن هؤلاء المشركين ﴿لَكَٰذِبُونَ﴾ فيما ينسبونه إلى الله سبحانه من الولد والشريك، وفي إنكار البعث. والمعنى؛ أي[1]: ليس الأمر كما يزعم هؤلاء المشركون من قولهم: إن هذا إلا أساطير الأولين، بل جئناهم فيه بالدين الحق الذي فيه سعادة البشر، وإنهم لكاذبون في إنكار ذلك، لا أن عقولهم قد سحرت بخداع الآباء، وتكرار القول، وحكم العادة، وهي طبيعة ثانية.

وقد بيّن[2] أنهم أصروا على جحودهم، وأقاموا على عتوهم ونبوهم بعد أن أزيحت العلل، فلات حين عذر، وليس المساهلة موجب بقاء، وقد انتقم الله منهم، فإنه يمهل ولا يهمل. قال سقراط أهل الدنيا كسطور في صحيفة، كلما نشر بعضها طوي بعضها. وعن ابن عباس - رضي الله عنهما - الدنيا جمعة من جمع الآخرة، سبعة آلاف سنة، فقد مضى ستة آلاف سنة، وليأتين عليها مئون من سنين ليس عليها موحدون يعني عند آخر الزمان، فكل من السعيد والشقي، لا يبقى على وجه الأرض، فيموت ثم يبعث فيجازى.

ثم نفى سبحانه عن نفسه شيئين:

١ - ﴿مَا اتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾ كما يقول النصارى، والقائلون إن الملائكة بنات الله؛ لأنه لم يجانس أحداً، ولم يماثله أحد حتى يكون له من جنسه وشبهه صاحبة، فيتوالدا، وأيضاً إن الولد إنما يتخذ للحاجة إلى النصير والمعين، والله غني عن كل شيء.

٢ - ﴿وَمَا كَانَ مَعَهُ﴾ تعالى ﴿مِنْ إِلَٰهٍ﴾ يشاركه في الألوهية، لا قبل خلق العالم، ولا حين خلقه له، ولا بعد خلقه، كما يقول عبدة الأصنام وغيرهم. و(من) في الموضعين زائدة لتأكيد النفي.

ثم ذكر دليلين على بطلان تعدد الآلهة، فقال:

١ - ﴿إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ﴾ وإذا في أصلها حرف جواب وجزاء، وهنا

---

(١) المراغي. (٢) روح البيان.

بمعنى لو الشرطية؛ أي: لو كان معه تعالى آلهة أخرى كما يقولون لذهب كل إلٰه؛ أي: لانفرد كل واحد من الآلهة بخلقه الذي خلقه، وامتاز ملكه عن ملك الآخرين؛ أي: لو قدر تعدد الآلهة.. لانفرد كل منهم بما خلق، إذ لكل صانع ضرب من الصنعة يغاير صنعة غيره، فكان يحصل التباين في نظم الخلق والإيجاد، ويوجد الاختلاف بين المخلوقات المتحدة الأنواع فلا ينتظم الكون، والمشاهد أنه منتظم متسق، وهو الغاية في الكمال، كما قال: ﴿مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍۢ﴾.

٢ ـ ﴿ولـ﴾ وقع بينهم التطالب والتحارب والتغالب و﴿علا بعضهم﴾؛ أي: ولغلب بعضهم ﴿عَلَىٰ بَعْضٍۢ﴾؛ أي: ولغلب القوي منهم الضعيف، وقهره وأخذ ملكه كعادة ملوك الدنيا، وإذا لم تروا أثراً للتحارب والتغالب، فاعلموا أنه إلٰه واحد، بيده ملكوت كل شيء، وإلٰه ترجعون.

وبعد أن وضح الحق، وصار كفلق الصباح، جاء بما هو كالنتيجة لذلك، فقال: ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ه، ويضيفونه إليه تعالى من الأولاد والشركاء؛ أي: تنزه ربنا وتقدس عما يقوله الكافرون، من أن له ولداً أو شريكاً، أو نزهوه تنزيهاً، وقرىء: ﴿عما تصفون﴾ بتاء الخطاب.

﴿عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾؛ أي: عالم السر والعلانية، بالجر على أنه بدل من الجلالة، وبالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف؛ أي: هو سبحانه وتعالى العالم بما غاب عن خلقه من الأشياء، فلا يرونه، ولا يشاهدونه، وبما يرونه ويبصرونه؟.

والمراد[1]: أن الذين قالوا بالولد والشريك مخطئون فيما قالوا، فإنهم يقولون عن غير علم، وأن الذي يعلم الأشياء شاهدها وغائبها، ولاتخفى عليه خافية من أمرهما قد نفى ذلك، فخبره هو الحق دون خبرهم.

وقرأ الإبنان[2] ـ ابن كثير وابن عامر ـ وأبو عمرو وحفص: ﴿عالم﴾ بالجر

---

(١) المراغي. (٢) البحر المحيط.

صفة للجلالة وقرأ باقي السبعة، وابن أبي عبلة وأبو حيوة وأبو بحرية بالرفع. قال الأخفش: الجر أجود؛ ليكون الكلام من وجه واحد. وقال ابن عطية: الرفع عندي أبرع، والغيب ما غاب عن الناس، والشهادة ما شاهدوه.

ثم إن الغيب بالنسبة إلينا، لا بالنسبة إليه تعالى، فهو عالم به وبالشهادة على سواء، وهو دليل آخر على انتفاء الشريك، بناءً على توفقهم في تفرده تعالى بذلك، ولذلك رتب عليه بالفاء في قوله: ﴿فَتَعَـٰلَىٰ﴾ الله وتنزه ﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ به مما لا يعلم شيئاً من الغيب، ولا يتكامل عليه بالشهادة، فإن تفرده بذلك موجب لتعاليه عن أن يكون له شريك؛ أي: تقدس عما يقول الجاحدون والظالمون. و﴿الفاء﴾: في قوله: ﴿فَتَعَـٰلَىٰ﴾ عاطفة على محذوف معلوم من السياق، فكأنه قال: علم الغيب فتعالى، كقولك: زيد شجاع فعظمت منزلته؛ أي: شجع فعظمت، أو يكون على إضمار القول؛ أي: أقول فتعالى الله. والمعنى: أنه سبحانه متعالٍ عن أن يكون له شريك في الملك. والله أعلم.

الإعراب

﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَـٰذَا وَلَهُمْ أَعْمَـٰلٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَـٰمِلُونَ ﴿٦٣﴾﴾.

﴿بَلْ﴾: حرف ابتداء وإضراب[1] للانتقال إلى أحوال الكفار المحكية فيما سبق بقوله: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم﴾ الخ. والجمل التي بينهما وهي قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم﴾ إلى قوله: ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ اعتراض في خلال الكلام، المتعلق بالكفار ﴿قُلُوبُهُمْ﴾: مبتدأ. ﴿فِي غَمْرَةٍ﴾: خبر. ﴿مِّنْ هَـٰذَا﴾: جار ومجرور صفة لـ﴿غَمْرَةٍ﴾؛ أي: كائنة من هذا الذي وصف به المؤمنون، والجملة الإسمية مستأنفة. ﴿وَلَهُمْ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿لهم﴾: جار ومجرور خبر مقدم. ﴿أَعْمَـٰلٌ﴾: مبتدأ مؤخر. ﴿مِّن دُونِ ذَٰلِكَ﴾: جار ومجرور صفة أولى لـ﴿أَعْمَـٰلٌ﴾، والجملة معطوفة على الجملة التي قبلها. ﴿هُمْ﴾: مبتدأ. ﴿لَهَا﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿عَـٰمِلُونَ﴾ ﴿عَـٰمِلُونَ﴾: خبرهم؛ أي: مستمرون عليها، ومعنى من دون

---

(١) الفتوحات.

ذلك؛ أي: متجاوزة متخطية لما وصف به المؤمنون، والجملة الاسمية في محل الرفع صفة ثانية لأعمال.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذۡنَا مُتۡرَفِيهِم بِٱلۡعَذَابِ إِذَا هُمۡ يَجۡـَٔرُونَ ﴿٦٤﴾﴾.

﴿حَتَّىٰٓ﴾: حرف ابتداء يبدأ بها الكلام. ﴿إِذَا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان، خافض لشرطه، منصوب بجوابه وهو يجأرون، في محل النصب على الظرفية، والظرف متعلق بالجواب. ﴿أَخَذۡنَا﴾: فعل وفاعل. ﴿مُتۡرَفِيهِم﴾: مفعول به ومضاف إليه. ﴿بِٱلۡعَذَابِ﴾: متعلق بـ﴿أَخَذۡنَا﴾. والجملة الفعلية في محل الخفض بإضافة ﴿إِذَا﴾ إليها على كونها فعل شرط لها. ﴿إِذَا﴾ الثانية: فجائية، قائمة مقام فاء الجزاء في الربط، حرف لا محل لها من الإعراب، كأنه قيل: فهم لا يجأرون على حد قوله. وتخلف الفاء إذا المفاجأة. ﴿هُمۡ﴾: مبتدأ. وجملة ﴿يَجۡـَٔرُونَ﴾: خبره، والجملة الإسمية جواب ﴿إِذَا﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿إِذَا﴾ مستأنفة. وقيل: ﴿حَتَّىٰٓ﴾ حرف جر،وغاية. وجملة ﴿إِذَا﴾ الشرطية: في محل الجر بها، والتقدير: لا يزالون يعملون أعمالهم الخبيثة، إلى مفاجأة جؤارهم وقت أخذنا إياهم بالعذاب الشديد.

﴿لَا تَجۡـَٔرُواْ ٱلۡيَوۡمَۖ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ ﴿٦٥﴾ قَدۡ كَانَتۡ ءَايَٰتِي تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَكُنتُمۡ عَلَىٰٓ أَعۡقَٰبِكُمۡ تَنكِصُونَ ﴿٦٦﴾﴾.

﴿لَا﴾: ناهية جازمة. ﴿تَجۡـَٔرُواْ﴾: فعل وفاعل مجزوم بلا الناهية. ﴿ٱلۡيَوۡمَۖ﴾: ظرف متعلق بـ﴿تَجۡـَٔرُواْ﴾، والجملة الفعلية في محل النصب مقول لقول محذوف، تقديره: فيقال لهم: لا تجأروا اليوم. ﴿إِنَّكُم﴾: ناصب واسمه. ﴿مِّنَّا﴾: جار ومجرور متعلق بتنصرون. ﴿لَا﴾: نافية. ﴿تُنصَرُونَ﴾: فعل ونائب فاعل، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿إن﴾، وجملة إن مستأنفة، مسوقة لتعليل النهي المذكور قبلها. ﴿قَدۡ﴾: حرف تحقيق. ﴿كَانَتۡ ءَايَٰتِي﴾: فعل ناقص واسمه. ﴿تُتۡلَىٰ﴾: فعل مضارع مغير الصيغة، ونائب فاعل مستتر فيه. ﴿عَلَيۡكُمۡ﴾: متعلق بـ﴿تُتۡلَىٰ﴾، وجملة ﴿تُتۡلَىٰ﴾: في محل النصب خبر (كان)، وجملة (كان) مستأنفة. ﴿فَكُنتُمۡ﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة. ﴿كنتم﴾: فعل ناقص واسمه. ﴿عَلَىٰٓ أَعۡقَٰبِكُمۡ﴾:

جار ومجرور، ومضاف إليه متعلق بـ﴿نَنكِصُونَ﴾، وجملة ﴿نَنكِصُونَ﴾: في محل النصب خبر ﴿كان﴾، وجملة ﴿كان﴾: معطوفة على جملة (كان) الأولى.

﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرًا تَهْجُرُونَ ۝٦٧ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝٦٨﴾.

﴿مُسْتَكْبِرِينَ﴾: حال أولى من فاعل ﴿نَنكِصُونَ﴾. ﴿بِهِۦ﴾: متعلق بـ﴿مُسْتَكْبِرِينَ﴾؛ أي: بسببه، والضمير للحرم أو للبيت، أو الضمير عائد إلى القرآن. وبه بمعنى فيه متعلق بسامرا. ﴿سَٰمِرًا﴾: حال ثانية من فاعل ﴿نَنكِصُونَ﴾ أيضاً. وجملة ﴿تَهْجُرُونَ﴾: حال ثانية منه أيضاً، فالثلاثة: إما أحوال مترادفة من الواو في ﴿نَنكِصُونَ﴾، أو متداخلة؛ أي: كل واحدة حال مما قبلها. ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟﴾: الهمزة: للاستفهام الإنكاري، داخلة على محذوف، و﴿الفاء﴾: عاطفة على ذلك المحذوف، والتقدير: أفعل الكفار ما فعلوا من النكوص والاستكبار والهجر. ﴿فلم يدبروا﴾: ﴿لم﴾: حرف نفي وجزم. ﴿يدبروا﴾: فعل وفاعل مجزوم بـ﴿لم﴾. ﴿ٱلْقَوْلَ﴾: مفعول به، والجملة الفعلية معطوفة على تلك المحذوفة، ﴿أم﴾ عاطفة بمعنى بل الانتقالية. وهمزة الاستفهام التقريري؛ أي: بل أجاءهم. ﴿جَآءَهُم﴾: فعل ومفعول به. ﴿مَّا﴾: موصولة أو موصوفة في محل الرفع فاعل ﴿جاء﴾، والجملة معطوفة على جملة ﴿لم يدبروا﴾. ﴿لَمْ يَأْتِ﴾: جازم ومجزوم، وفاعله ضمير يعود على ﴿مَّا﴾. ﴿ءَابَآءَهُمُ﴾: مفعول به. ﴿ٱلْأَوَّلِينَ﴾: صفة لـ﴿ءَابَآءَهُمُ﴾، وجملة ﴿يَأْتِ﴾: صلة لـ﴿مَّا﴾، أو صفة لها، والعائد أو الرابط ضمير الفاعل.

﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا۟ رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ۝٦٩﴾.

﴿أَمْ﴾: حرف عطف، بمعنى بل الانتقالية، وهمزة الاستفهام التقريري؛ أي: بل ألم يعرفوا. ﴿لَمْ يَعْرِفُوا۟ رَسُولَهُمْ﴾: جازم وفعل وفاعل ومفعول معطوف على جملة ﴿لم يدبروا﴾: ﴿فَهُمْ﴾: ﴿الفاء﴾: حرف عطف وتفريع. ﴿هُمْ﴾: مبتدأ. ﴿له﴾: متعلق بمنكرون. ﴿مُنكِرُونَ﴾: خبر المبتدأ، والجملة الاسمية معطوفة مفرعة على جملة ﴿لَمْ يَعْرِفُوا۟﴾.

﴿أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌۢ ۚ بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٠﴾﴾.

﴿أَمْ﴾: حرف عطف بمعنى بل الإضرابية، وهمزة الاستفهام التقريري؛ أي: بل أيقولون. ﴿يَقُولُونَ﴾: فعل وفاعل معطوف على جملة ﴿لم يدبروا﴾. ﴿بِهِۦ﴾: خبر مقدم. ﴿جِنَّةٌۢ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة في محل النصب مقول لـ﴿يَقُولُونَ﴾. ﴿بَلْ﴾: حرف إضراب للإضراب الإبطالي. ﴿جَآءَهُم﴾: فعل ومفعول وفاعل مستتر معطوف على ﴿يَقُولُونَ﴾. ﴿بِٱلْحَقِّ﴾: جار ومجرور، حال من فاعل جاء؛ أي: بل جاءهم محمد حال كونه ملتبساً بالحق. ﴿وَأَكْثَرُهُمْ﴾: ﴿الواو﴾: حالية ﴿أكثرهم﴾: مبتدأ ومضاف إليه. ﴿لِلْحَقِّ﴾: متعلق بـ﴿كَٰرِهُونَ﴾. ﴿كَٰرِهُونَ﴾: خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل النصب، حال من ضمير المفعول في ﴿جَآءَهُم﴾.

﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٧١﴾﴾.

﴿وَلَوِ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿لو﴾: حرف شرط. ﴿ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة الفعلية فعل شرط لـ(لو). ﴿لَفَسَدَتِ﴾: (اللام): رابطة لجواب ﴿لو﴾. ﴿فسدت﴾: فعل ماض. ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾: فاعل. ﴿وَٱلْأَرْضُ﴾: معطوف عليه، والجملة جواب ﴿لو﴾ الشرطية، لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿لو﴾ الشرطية: مستأنفة معترضة لاعتراضها بين المعطوف والمعطوف عليه. ﴿وَمَن﴾: اسم موصول في محل الرفع معطوف على السموات ﴿فِيهِنَّ﴾: جار ومجرور صلة من الموصولة. ﴿بَلْ﴾: حرف إضراب للإضراب الانتقالي ﴿أَتَيْنَٰهُم﴾: فعل وفاعل ومفعول. ﴿بِذِكْرِهِمْ﴾: متعلق بأتيناهم، والجملة مستأنفة ﴿فَهُمْ﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة. ﴿هم﴾: مبتدأ. ﴿عَن ذِكْرِهِم﴾: متعلق بما بعده. ﴿مُّعْرِضُونَ﴾: خبر المبتدأ، والجملة الاسمية معطوفة على الجملة الفعلية قبلها.

﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٣﴾﴾.

﴿أَمْ﴾: عاطفة بمعنى بل الانتقالية. وهمزة الاستفهام التوبيخي الإنكاري؛

أي: بل أتسألهم. ﴿تَسْأَلُهُمْ﴾: فعل ومفعول أول، وفاعل مستتر يعود على محمد. ﴿خَرْجًا﴾: مفعول ثان والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌۢ﴾، وما بينهما اعتراض. ﴿فَخَرَاجُ﴾: ﴿الفاء﴾: تعليلية. ﴿خراج﴾: مبتدأ. ﴿رَبِّكَ﴾: مضاف إليه. ﴿خَيْرٌ﴾: خبر، والجملة الاسمية في محل الجر، معللة لنفي السؤال المستفاد من الإنكار؛ أي: لا تسألهم ذلك؛ لأن خراج ربك خير. ﴿وَهُوَ﴾: مبتدأ. ﴿خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾: خبر ومضاف إليه، والجملة معطوفة على الجملة التي قبلها. ﴿وَإِنَّكَ﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿إن﴾: حرف نصب. و(الكاف): اسمها: ﴿لَتَدْعُوهُمْ﴾: (اللام): حرف ابتداء. ﴿تدعوهم﴾: فعل ومفعول به وفاعل مستتر يعود على محمد، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿إن﴾، وجملة ﴿إن﴾: مستأنفة. ﴿إِلَىٰ صِرَٰطٍ﴾ متعلق بتدعوهم. ﴿مُّسْتَقِيمٍ﴾: صفة (صراط).

﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ عَنِ ٱلصِّرَٰطِ لَنَٰكِبُونَ ﴿٧٤﴾﴾.

﴿وَإِنَّ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿إن﴾: حرف نصب. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: في محل النصب اسمها. ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾: فعل وفاعل صلة الموصول. ﴿بِٱلْءَاخِرَةِ﴾: متعلق بـ﴿يُؤْمِنُونَ﴾. ﴿عَنِ ٱلصِّرَٰطِ﴾: متعلق بناكبون. ﴿لَنَٰكِبُونَ﴾: (اللام): حرف ابتداء. ﴿ناكبون﴾: خبر ﴿إن﴾، وجملة ﴿إن﴾ معطوفة على جملة ﴿إن﴾ الأولى.

﴿۞ وَلَوْ رَحِمْنَٰهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا۟ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٥﴾﴾.

﴿وَلَوْ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية: ﴿لو﴾: حرف شرط. ﴿رَحِمْنَٰهُمْ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة فعل شرط لـ﴿لو﴾، لا محل لها من الإعراب. ﴿وَكَشَفْنَا﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿رحمنا﴾. ﴿مَا﴾: موصولة في محل النصب مفعول به. ﴿بِهِم﴾: جار ومجرور صلة لـ﴿مَا﴾؛ أي: ما نزل بهم من القحط والجدب. ﴿مِّن ضُرٍّ﴾: جار ومجرور، حال من ﴿مَا﴾ الموصولة. ﴿لَّلَجُّوا۟﴾: (اللام): رابطة لجواب ﴿لو﴾ الشرطية. ﴿لجوا﴾: فعل وفاعل. ﴿فِى طُغْيَٰنِهِمْ﴾: متعلق به، أو بـ﴿يَعْمَهُونَ﴾. والجملة جواب ﴿لو﴾ الشرطية، لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿لو﴾ الشرطية: مستأنفة، وجملة ﴿يَعْمَهُونَ﴾: في محل النصب حال من فاعل ﴿لجوا﴾.

﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴿٧٦﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة. و(اللام): موطئة للقسم. ﴿قد﴾: حرف تحقيق. ﴿أَخَذْنَٰهُم﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة جواب القسم، لا محل لها من الإعراب، وجملة القسم معطوفة على جملة ﴿وَلَوْ رَحِمْنَٰهُمْ﴾. ﴿بِٱلْعَذَابِ﴾: متعلق بـ﴿أخذنا﴾. ﴿فَمَا﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة. ﴿مَا﴾: نافية. ﴿ٱسْتَكَانُوا۟﴾: فعل وفاعل معطوف على أخذنا. ﴿لِرَبِّهِمْ﴾: متعلق بـ﴿ٱسْتَكَانُوا۟﴾. ﴿وَمَا﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿مَا﴾: نافية. ﴿يَتَضَرَّعُونَ﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿ٱسْتَكَانُوا۟﴾.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾﴾.

﴿حَتَّىٰٓ﴾: حرف ابتداء لدخولها على الجملة التي يبتدأ بها. وقيل: هي حرف جر وغاية. ﴿إذا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان، خافض لشرطه منصوب بجوابه، والشرط متعلق بالجواب الآتي، أعني قوله: ﴿مُبْلِسُونَ﴾. ﴿فَتَحْنَا﴾: فعل وفاعل. ﴿عَلَيْهِم﴾: متعلق بـ﴿فَتَحْنَا﴾. ﴿بَابًا﴾: مفعول به. ﴿ذَا عَذَابٍ﴾: صفة لـ﴿بَابًا﴾، ومضاف إليه. ﴿شَدِيدٍ﴾: صفة لـ﴿عَذَابٍ﴾، والجملة الفعلية في محل الجر، مضاف إليه لـ﴿إذا﴾ على كونها فعل شرط لها. ﴿إذا﴾: فجائية، قائمة مقام الفاء في ربط الجواب. ﴿هُمْ﴾: مبتدأ. ﴿فِيهِ﴾: متعلق بما بعده. ﴿مُبْلِسُونَ﴾: خبر المبتدأ والجملة الاسمية جواب لـ﴿إذا﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿إذا﴾: مستأنفة، وقيل: جملة إذا في محل الجر بحتى، على أنها جارة متعلقة بـ﴿ٱسْتَكَانُوا۟﴾، والتقدير: فما استكانوا لربهم وما يتضرعون إلى إبلاسهم من رحمتنا، وقت فتحنا عليهم باباً ذا عذاب شديد. ﴿وَهُوَ﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿هو الذي﴾: مبتدأ وخبر، والجملة مستأنفة. ﴿أَنشَأَ﴾: فعل وفاعل مستتر. ﴿لَكُمُ﴾: متعلق به. ﴿ٱلسَّمْعَ﴾: مفعول به. ﴿وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾: معطوفات عليه، والجملة صلة الموصول. ﴿قَلِيلًا﴾: منصوب على المفعولية المطلقة؛ لأنه صفة لمصدر محذوف، وهو المفعول المطلق حقيقة، تقديره: شكراً قليلاً. ﴿مَا﴾: زائدة، زيدت لتأكيد القلة المفادة بالتنكير بمعنى حقاً. ﴿تَشْكُرُونَ﴾: فعل

وفاعل، والجملة في محل النصب، حال من ضمير المخاطبين، تقديره: وهو الذي أنشأ لكم هذه الأعضاء، حالة كونكم شاكرين له شكراً قليلاً.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٩﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَلَهُ ٱخْتِلَٰفُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٨٠﴾ بَلْ قَالُوا۟ مِثْلَ مَا قَالَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾﴾.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى﴾: مبتدأ وخبر. والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ﴾ ﴿ذَرَأَكُمْ﴾: فعل وفاعل مستتر ومفعول به. ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾: متعلق بـ﴿ذَرَأَكُمْ﴾، والجملة صلة الموصول. ﴿وَإِلَيْهِ﴾: متعلق بـ﴿تُحْشَرُونَ﴾. ﴿تُحْشَرُونَ﴾: فعل ونائب فاعل معطوف على جملة الصلة. ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى﴾: مبتدأ وخبر، والجملة معطوفة على جملة قوله: وهو الذي أنشأ لكم. ﴿يُحْىِۦ﴾: فعل وفاعل مستتر، والجملة صلة الموصول. ﴿وَيُمِيتُ﴾: معطوف على (يحيي). ﴿وَلَهُ﴾: خبر مقدم. ﴿ٱخْتِلَٰفُ ٱلَّيْلِ﴾: مبتدأ مؤخر ومضاف إليه. ﴿وَٱلنَّهَارِ﴾: معطوف على الليل، والجملة معطوفة على جملة الصلة. ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾: (الهمزة): للاستفهام التوبيخي داخلة على محذوف. و﴿الفاء﴾: عاطفة على ذلك المحذوف. ﴿لا﴾: نافية. ﴿تَعْقِلُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة معطوفة على تلك المحذوفة، والتقدير: أتغفلون عن تلك الآيات فلا تعقلون، والجملة المحذوفة مستأنفة. ﴿بَلْ﴾: حرف عطف وإضراب انتقالي. ﴿قَالُوا۟﴾: فعل وفاعل. ﴿مِثْلَ﴾: منصوب على المفعولية؛ لأنه صفة لمصدر محذوف هو المفعول المطلق أصالة. ﴿مَا﴾: مصدرية. ﴿قَالَ ٱلْأَوَّلُونَ﴾: فعل وفاعل صلة ما المصدرية، وجملة ما المصدرية مع صلتها، في تأويل مصدر مجرور بإضافة مثلي إليه. والتقدير: بل قالوا قولاً مثل قول الأولين، والجملة الفعلية معطوفة على محذوف، يقتضيه المقام، والتقدير: لم يعقلوا تلك الآيات السابقة، بل قالوا مثل ما قال الأولون.

﴿قَالُوٓا۟ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾﴾.

﴿قَالُوٓا۟﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿أَءِذَا﴾ (الهمزة): للاستفهام الإنكاري الاستبعادي داخلة على محذوف معلوم من جواب إذا. ﴿إذا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان. ﴿مِتْنَا﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل الجر بإضافة إذا

إليها. ﴿وَكُنَّا تُرَابًا﴾: فعل ناقص واسمه وخبره. ﴿وَعِظَامًا﴾: معطوف على ﴿تراباً﴾، وجملة كان معطوفة على جملة متنا، وجملة متنا في محل الجر، مضاف إليه لـ﴿إذا﴾، لكونها فعل شرط لها، والظرف متعلق بمحذوف، معلوم من الجواب، لا بالجواب؛ لأن ما بعد إن لا يعمل فيما قبلها، كما سبق. ﴿أَءِنَّا﴾: (الهمزة): للاستفهام الإنكاري التعجبي. ﴿إنا﴾: ناصب واسمه. ﴿لَمَبْعُوثُونَ﴾: (اللام): للابتداء. ﴿مبعوثون﴾: خبر ﴿إن﴾: وجملة ﴿إن﴾ جواب ﴿إِذَا﴾، وجملة ﴿إِذَا﴾: في محل النصب مقول ﴿قَالُوٓاْ﴾.

﴿لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨٣﴾﴾.

﴿لَقَدْ وُعِدْنَا﴾: (اللام): موطئة للقسم. ﴿قد﴾: حرف تحقيق. ﴿وُعِدْنَا﴾: فعل ونائب فاعل والجملة الفعلية جواب لقسم محذوف، وجملة القسم في محل النصب مقول قالوا. ﴿نَحْنُ﴾: تأكيد لضمير النائب ليصح العطف عليه. ﴿وَءَابَآؤُنَا﴾: معطوف على ضمير النائب. ﴿هَٰذَا﴾: مفعول ثان لوعدنا. ﴿مِن قَبْلُ﴾: متعلق بـ﴿وعدنا﴾. ﴿إن﴾: نافية. ﴿هَٰذَآ﴾: مبتدأ. ﴿إِلَّآ﴾: أداة استثناء مفرغ. ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾: خبر ومضاف إليه، والجملة الإسمية في محل النصب مقول (قالوا).

﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾﴾.

﴿قُل﴾: فعل أمر، وضمير مستتر يعود على محمد، والجملة مستأنفة. ﴿لِّمَنِ﴾: (اللام): حرف جر. ﴿من﴾: اسم استفهام في محل الجر باللام، الجار والمجرور متعلق بمحذوف خبر، مقدم وجوباً. ﴿ٱلْأَرْضُ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة في محل النصب مقول ﴿قُل﴾. ﴿وَمَن﴾: اسم موصول، في محل الرفع معطوف على الأرض. ﴿فِيهَا﴾: جار ومجرور، صلة (من) الموصولة. ﴿إن﴾: حرف شرط. ﴿كُنتُمْ﴾: فعل ناقص، واسمه في محل الجزم بـ﴿إن﴾ الشرطية على كونها فعل شرط لها، وجملة ﴿تَعْلَمُونَ﴾ في محل النصب، خبر (كان) وجواب

﴿إن﴾ الشرطية محذوف، تقديره: إن كنتم تعلمون ذلك، فأخبروني بخالقهما، وفي هذا تلويح بغباوتهم. ﴿سَيَقُولُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة للإخبار من الله تعالى، عما يقع منهم، في الجواب قبل وقوعه. ﴿لِلَّهِ﴾: جار ومجرور خبر لمبتدأ محذوف، تقديره: هي كائنة، والجملة في محل النصب مقول القول. ﴿قُلْ﴾: فعل أمر، وفاعل مستتر يعود على محمد، والجملة مستأنفة. ﴿أَفَلَا﴾: الهمزة: للاستفهام التوبيخي، داخلة على محذوف، و﴿الفاء﴾: عاطفة على ذلك المحذوف والجملة المحذوفة في محل النصب مقول ﴿قُلْ﴾. والتقدير: أتقولون ذلك وتنكرون البعث. ﴿لا﴾: نافية، وجملة ﴿تَذَكَّرُونَ﴾: معطوفة على تلك المحذوفة. ﴿قُلْ﴾: فعل أمر وفاعل مستتر، والجملة مستأنفة. ﴿مَن﴾: اسم استفهام في محل الرفع مبتدأ. ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾: خبر ومضاف إليه. ﴿ٱلسَّبْعِ﴾: صفة لـ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾. والجملة الاسمية في محل النصب مقول ﴿قُلْ﴾. ﴿وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ﴾: معطوف على ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾. ﴿ٱلْعَظِيمِ﴾ بالجر: صفة للعرش، وبالرفع صفة لرب. ﴿سَيَقُولُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿لِلَّهِ﴾: جار ومجرور خبر لمبتدأ محذوف، تقديره هما لله سبحانه، والجملة الاسمية في محل النصب مقول لـ﴿سَيَقُولُونَ﴾. ﴿قُلْ﴾: فعل أمر، وفاعل مستتر يعود على محمد. والجملة مستأنفة. ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ (الهمزة): للاستفهام التوبيخي داخلة على محذوف. و﴿الفاء﴾: عاطفة على المحذوف، والتقدير: أتعلمون ذلك فلا تتقون عذابه، والجملة المحذوفة في محل النصب مقول لـ﴿قُلْ﴾. ﴿لا﴾: نافية. ﴿تَتَّقُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة معطوفة على تلك المحذوفة.

﴿قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾﴾.

﴿قُلْ﴾: فعل أمر، وفاعل مستتر يعود على محمد، والجملة مستأنفة. ﴿مَنۢ﴾: اسم استفهام في محل الرفع مبتدأ. ﴿بِيَدِهِۦ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه خبر مقدم. ﴿مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾: مبتدأ مؤخر ومضاف إليه، والجملة الاسمية خبر من الاستفهامية، وجملة ﴿مَنۢ﴾ الاستفهامية: في محل النصب مقول ﴿قُلْ﴾.

﴿وَهُوَ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة أو حالية. ﴿هو﴾: مبتدأ، وجملة ﴿يُجِيرُ﴾: خبره، والجملة في محل النصب حال من الضمير المستكن في الخبر، أو معطوفة على جملة (من) الاستفهامية. ﴿وَلَا يُجَارُ﴾: فعل مضارع مغير الصيغة. ﴿عَلَيْهِ﴾: جار ومجرور نائب فاعل له، والجملة معطوفة على جملة يجير. ﴿إن﴾ شرطية، ﴿كُنتُمْ﴾: فعل ناقص واسمه وجملة ﴿تَعْلَمُونَ﴾ خبره، وجواب ﴿إِن﴾ الشرطية محذوف، تقديره: إن كنتم تعلمون ذلك، فأخبروني، وجملة ﴿إِن﴾ الشرطية: في محل النصب مقول لـ﴿قُل﴾.

﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ (٨٩) بَلْ أَتَيْنَاهُم بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (٩٠) مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ﴾.

﴿سَيَقُولُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿لِلَّهِ﴾: جار ومجرور خبر لمبتدأ محذوف، تقديره: ملكوت كل شيء لله سبحانه، والجملة في محل النصب مقول القول. ﴿قُل﴾: فعل أمر، وفاعل مستتر يعود على محمد، والجملة مستأنفة. ﴿فَأَنَّى﴾: ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفتم ذلك، فأقول لكم: ﴿أنى تسحرون﴾. ﴿أنى﴾: اسم استفهام، بمعنى: كيف، في محل النصب على الحال من نائب فاعل ﴿تُسْحَرُونَ﴾. ﴿تُسْحَرُونَ﴾: فعل ونائب فاعل، والجملة في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة في محل النصب مقول ﴿قُل﴾. ﴿بَل﴾: حرف إضراب وابتداء. ﴿أَتَيْنَاهُم﴾: فعل وفاعل ومفعول. ﴿بِالْحَقِّ﴾: متعلق به، أو حال من فاعل ﴿أَتَيْنَاهُم﴾؛ أي: حالة كوننا متلبسين بالحق، والجملة مستأنفة. ﴿وَإِنَّهُمْ﴾: ناصب واسمه. ﴿لَكَاذِبُونَ﴾: (اللام): حرف ابتداء. ﴿كاذبون﴾: خبر ﴿إن﴾، وجملة ﴿إن﴾: معطوفة على جملة ﴿أَتَيْنَاهُم﴾، أو في محل النصب حال من مفعول ﴿أَتَيْنَاهُم﴾. ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ﴾: فعل وفاعل ومفعول، و﴿ما﴾ نافية و﴿مِن﴾: زائدة. والجملة مستأنفة. ﴿وَمَا كَانَ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿مَا﴾: نافية. ﴿كَانَ﴾: فعل ناقص. ﴿مَعَهُ﴾: ظرف مكان ومضاف إليه خبر مقدم لـ﴿كَانَ﴾. ﴿مِنْ﴾: زائدة. ﴿إِلَٰهٍ﴾: اسم كان مؤخر، والجملة معطوفة على جملة ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ﴾.

﴿إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٩٢﴾﴾.

﴿إِذًا﴾: حرف جواب وجزاء مهمل، قائم مقام لو الشرطية، المحذوفة مع فعل شرطها، تقديره: ولو كان معه آلهة أخرى. ﴿لَّذَهَبَ﴾: (اللام): رابطة لجواب الشرط المحذوف. ﴿ذهب كل إله﴾: فعل وفاعل، والجملة جواب ﴿لو﴾ المحذوفة مع فعل شرطها، وجملة الشرط المحذوف مع جوابه معطوفة، تعاطف مقدر على جملة ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ﴾. ﴿بِمَا﴾: جار ومجرور متعلق بذهب. ﴿خَلَقَ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على كل إله، والجملة صلة لـ﴿مَا﴾ الموصولة، والعائد محذوف، تقديره: بما خلقه. ﴿وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ﴾: فعل وفاعل معطوف على قوله: ﴿لَّذَهَبَ﴾، و(اللام): فيه لام الربط. ﴿عَلَىٰ بَعْضٍ﴾: متعلق بعلا. ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ﴾: منصوب على المفعولية المطلقة، بفعل محذوف وجوباً، تقديره: أسبح الله سبحاناً، أو سبحوا الله سبحاناً. ﴿عَمَّا﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿سُبْحَانَ﴾، وجملة ﴿يَصِفُونَ﴾: صلة لـ﴿مَا﴾ الموصولة والعائد محذوف، تقديره: عما يصفونه به، ويجوز أن تكون ﴿مَا﴾ مصدرية؛ أي: عن وصفهم. ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ﴾ بالجر: بدل من الجلالة، أو صفة له، وبالرفع خبر لمبتدأ محذوف. ﴿الْغَيْبِ﴾: مضاف إليه. ﴿وَالشَّهَادَةِ﴾: معطوفة عليه. ﴿فَتَعَالَىٰ﴾: ﴿الفاء﴾: حرف عطف وتفريع على محذوف، كأنه قيل: علم الله الغيب فتعالى، والجملة مستأنفة. ﴿تعالى﴾: فعل ماض وفاعل مستتر، والجملة الفعلية معطوفة على تلك المحذوفة. ﴿عَمَّا﴾: متعلق بـ﴿تعالى﴾: ﴿يُشْرِكُونَ﴾: فعل وفاعل صلة لـ﴿مَا﴾، والعائد محذوف، تقديره: عما يشركون به، ويجوز أن تكون ما مصدرية؛ أي: عن إشراكهم.

التصريف ومفردات اللغة

﴿فِي غَمْرَةٍ﴾: الغمرة: الجهالة والضلالة، وفي الأصل: ماء يغمر قامة الإنسان. ﴿مُتْرَفِيهِم﴾: أي: أغنياءهم ورؤساءهم، جمع مترف، اسم مفعول من أترف الرباعي. ﴿يَجْـَٔرُونَ﴾؛ أي: يصيحون ويصرخون، ويبتهلون ويستغيثون

بربهم، ويلتجئون إليه في كشف العذاب عنهم، ومع ذلك لا ينفعهم، ولذلك قيل: لا تجأروا اليوم. وفي «القاموس» جأر: كمنع، جأراً وجؤاراً إذا رفع صوته بالدعاء، وتضرع واستغاث، وجأرت البقرة والثور، إذا صاحا، وجأر النبات إذا طال، وجأرت الأرض؛ إذا طال نبتها، والجؤار: من النبت الغض والكثير، والرجل الضخم. ا هـ.

وقال في «اللسان»: والأساس، الجؤار: الصراخ باستغاثة، ويقال: جأر الرجل، إذا صاح ورفع صوته.

﴿لَا تُنصَرُونَ﴾؛ أي: لا تمنعون من عذابنا؛ أي: لا يجيركم أحد ولا ينصركم ﴿أَعْقَٰبِكُمْ﴾ جمع عقب، وهو مؤخر القدم، ورجوع الشخص على عقبه، رجوعه في طريقه الأولى، كما يقال: رجع على بدئه.

﴿تَنكِصُونَ﴾؛ أي: تعرضون عن سماعها، وأصل النكوص الرجوع على الأعقاب؛ أي: ترجعون القهقرى؛ أي: إلى جهة الخلف، وهذه أقبح المشيات، وهذا كناية عن إعراضهم عن الآيات، وفي «المختار»، ما يدل على أنه من بابي جلس ودخل.

﴿سَٰمِرًا﴾ السامر: مأخوذ من السمر، وهو سهر الليل. وقال الراغب: قيل: معناه: سماراً. فوضع الواحد موضع الجميع، تسمرون بذكر القرآن وبالطعن فيه. وقيل: بل السامر الليل المظلم، والسمر سواد الليل، ومنه قيل: للحديث بالليل سمر، وسمر فلان إذا تحدث ليلاً، وقيل: اسم جمع كحاج وحاضر وراكب وغائب، كما مر.

﴿تَهْجُرُونَ﴾: بفتح التاء وضم الجيم، مضارع هجر الثلاثي، من باب قتل، من الهجران وهو الترك، أو من هجر هجراً، إذا هذى وتكلم بغير معقول لمرض، أو لغيره؛ أي: تتكلمون في القرآن مالا ينبغي. وقرىء بضم التاء وكسر الجيم من أهجر إهجاراً، إذا أفحش في كلامه، يقال أهجر يهجر إهجاراً، كأكرم يكرم إكراماً، واسم المصدر الهجر بضم الهاء، وهو التكلم بالفحش.

﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ﴾ قال الراغب: التدبر: التفكر في دبر الأمور. ﴿بِهِۦ جِنَّةٌۢ﴾؛ أي: جنون.

﴿خَرْجًا﴾؛ أي: أجراً وجعلاً، ويغلب في الخرج أن يكون مال العتق، وفي الخراج مال العقار، ونقيض الدخل. وقيل: الخرج ما تبرعت به، والخراج ما لزمك أداؤه. والوجه: أن الخرج أخص من الخراج.

ومعنى الآية: أم تسألهم على هدايتك لهم قليلاً من عطاء الخلق، فالكثير من عطاء الخالق خير لك.

﴿لَنَٰكِبُونَ﴾؛ أي: لعادلون عن طريق الرشاد، يقال: نكب عن الطريق إذا زاغ عنه، وكل من لا يؤمن بالآخرة فهو ناكب، وفي «المصباح» نكب عن الطريق نكوباً من باب قعد إذا عدل عنه ومال إليه غيره، والنكوب والنكب: العدول والميل، ومنه النكباء للريح بين ريحين، سميت بذلك؛ لعدولها عن المهاب، ونكبت حوادث الدهر؛ أي: هبت هبوب النكباء. ا هـ. «سمين».

﴿ٱلصِّرَٰطِ﴾ في اللغة: الطريق، فسمي الدين طريقاً؛ لأنها تؤدي إليه تعالى. ﴿للجوا﴾ جواب لو، وقد توالى فيه لامان، وفيه تضعيف لقول من قال: إن جوابها إذا نفي بلم ونحوها مما صدر فيه حرف النفي باللام، أنه لا يجوز دخول اللام، فإذا قلت: لو قام زيد للم يقم عمرو لم يجز. قال ذلك القائل: لئلا يتوالى اللامان، وهذا موجود في الإيجاب كهذه الآية، ولم يمتنع، وإلا فما الفرق بين النفي والإثبات في ذلك. ا هـ. «فتوحات». وفي «المصباح» لج في الأمر لججاً من باب تعب، ولجاجاً ولجاجة فهو لجوج ولجوجة، مبالغة إذا لازم الشيء وواظبه. وباب ضرب لغةٌ. ا هـ.

﴿فِى طُغْيَٰنِهِمْ﴾: الطغيان: مجاوزة الحد في الشيء، وكل مجاوز حده في الطغيان طاغ. ﴿يَعْمَهُونَ﴾: في «المصباح» عمه في طغيانه عمها، من باب تعب إذا تردد متحيراً، وتعامه مأخوذ من قولهم أرض عمهاء إذا لم يكن فيها أمارات تدل على النجاة، فهو عمه وأعمه. ﴿فَمَا ٱسْتَكَانُوا۟﴾ يقال: استكان؛ أي: انتقل من كون إلى كون، كاستحال إذا انتقل من حال إلى حال. وأصله استكون، نقلت

حركة الواو إلى ما قبلها، ثم قلبت ألفاً. هذا ما قاله علماء اللغة، ولكن اعترض بعضهم على هذا التنظير، وحجته أن استكان على تأويله أحد أقسام استفعل الذي معناه التحول، كقولهم استحجر الطين استنوق الجمل. وأما استحال فثلاثية، حال إذا انتقل من حال إلى حال، وإذا كان الثلاثي يفيد التحول لم يبق لصيغة استفعل فيه أثر، فليس استحال من استفعل للتحول، ولكنه من استفعل بمعنى فعل، وهو أحد أقسامه إذا لم يزد السداسي فيه على الثلاثي معنىً، ثم نعود إلى تأويله، فنقول: المعنى عليه فما انتقلوا من كون التكبر والتجبر والاعتياص إلى كون الخضوع والضراعة إلى الله.

﴿مُبْلِسُونَ﴾ في «المصباح» البلاس مثل سلام: المسح، وهو فارسي معرب، والجمع بلس بضمتين. مثل عناق وعنق، وأبلس الرجل إبلاساً سكت. وأبلس أيس، وفي التنزيل فإذا هم مبلسون. ا هـ. ومنه إبليس ليأسه من رحمة الله. ا هـ.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ﴾؛ أي: لتحسوا بهما ما نصب من الآيات، وفيه تنبيه، على أن من لم يعمل هذه الأعضاء، فيما خلقت له.. فهو بمنزلة عادمها. ﴿ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: خلقكم وبثكم فيها. ﴿ٱخْتِلَٰفُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾؛ أي: تعاقبهما من قولهم: فلان يختلف إلى فلان؛ أي: يتردد عليه بالمجيء والذهاب. ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ واحدها أسطورة، كأحدوثة وأعجوبة، قاله المبرد وجماعة. ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾﴾ أصله تتذكرون، فقلبت التاء الثانية ذالاً فأدغمت الذال في الذال.

﴿مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ والواو والتاء في الملكوت زائدتان: للمبالغة كزيادتهما في الرحموت والرهبوت والجبروت للمبالغة في الرحمة والرهبة والجبر. ﴿وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ﴾ يقال: أجرت فلاناً إذا استغاث بك فحميته، وأجرت عليه إذا حميت عنه. ﴿فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ﴾؛ أي: فكيف تخدعون وتصرفون عن الرشد.

﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ قال الراغب: شرك الإنسان في الدين ضربان:

أحدهما: الشرك العظيم، وهو إثبات شريك لله تعالى، يقال: أشرك فلان

بالله، وذلك أعظم كفر.

والثاني: الشرك الصغير، وهو مراعاة غير الله معه في بعض الأمور، وذلك كالرياء والسمعة والنفاق. وفي الحديث: «والشرك في هذه الأمة أخفى من دبيب النمل على الصفا» نسأل الله سبحانه أن يجعلنا من المنقطعين عما سواه. والعاملين بالله لله في الله.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: جناس الاشتقاق في قوله: ﴿وَلَهُمْ أَعْمَٰلٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَٰمِلُونَ﴾.

ومنها: الاستعارة التمثيلية في قوله: ﴿فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ تَنكِصُونَ﴾ حيث مثل إعراضهم عن الحق، بالرجوع القهقرى إلى الخلف، وذكر شيئاً من لوازمه وهو الإعقاب.

ومنها: تخصيص اليوم بالذكر في قوله: ﴿لَا تَجْـَٔرُواْ ٱلْيَوْمَ﴾ وهو يوم القيامة؛ لتهويله والإيذان بتفويتهم وقت الجؤار.

ومنها: الاستفهام في قوله: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُواْ﴾؛ لإنكار الواقع واستقباحه.

ومنها: الإظهار في مقام الإضمار في قوله: ﴿فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ﴾؛ للتأكيد والتشنيع عليهم.

ومنها: الجناس المماثل الناقص بين ﴿خَرْجًا﴾ و﴿فَخَرَاجُ﴾ وهو في غاية البلاغة، حيث ذكر الأول: في جانب عوضهم، والثاني: في جانب ما يعطيه الله سبحانه، فالخراج، أبلغ من الخرج بلا ألف؛ لأن الخرج يقال لما يدفع مرة، ولا يجب تكراره، والخراج بالألف يقال للملتزم الذي يجب تكراره، كخراج الأرض.

ومنها: التأكيد بالجملة القسمية في قوله: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ﴾ للشرطية

قبلها، أعني قوله: ﴿وَلَوْ رَحِمْنَٰهُمْ﴾.

ومنها: عطف المضارع على الماضي في قوله: ﴿فَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾ لإفادة الماضي وجود الفعل وتحققه، وهو بالاستكانة أحق، بخلاف التضرع، فإنه أخبر عنهم بنفي ذلك في الاستقبال، وأما الاستكانة، فقد توجد منهم. ا هـ. «سمين».

ومنها: الامتنان بالنعم العظيمة عليهم في قوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾ تذكيراً لهم.

ومنها: إفراد السمع دون الأبصار والأفئدة، في قوله المذكور لوحدة المسموع، وهو الصوت دون المبصرات والمفكرات أو لأنه مصدر في الأصل، والمصادر لا تجمع فلمح فيه إلى الأصل.

ومنها: الطباق في قوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾.

ومنها: التنكير إفادةً للتقليل في قوله: ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾.

ومنها: زيادة ما فيه تأكيداً للقلة المستفادة من التنكير، والمعنى: شكراً قليلاً، وهو كناية عن عدم الشكر.

ومنها: الفصل في قوله: ﴿بَلْ قَالُوا۟ مِثْلَ مَا قَالَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾﴾؛ أي: قطع إحدى الجملتين عن الأخرى للاتحاد فقد فصل ﴿قَالُوٓا۟ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا﴾ الخ. عما قبله لقصد البدل لكونه أوفى بالمقصود من الأول؛ لأن ما قال الأولون أقوال كثيرة، ولا يدرى أي قول يراد من تلك الأقوال، والأحسن أن يقال: إن أريد بقوله: مثل ما قال الأولون ما نقل عنهم من قولهم: أئذا متنا الخ. وهو الظاهر كان بدل كل من كل.

ومنها: الاستفهام الذي غرضه الإنكار والتوبيخ في قوله: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ وقوله: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾﴾ وقوله: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾.

ومنها: حذف جواب الشرط ثقة بدلالة اللفظ عليه في قوله: ﴿إِن كُنتُمْ

﴿تَعْلَمُونَ﴾؛ أي: إن كنتم تعلمون ذلك فأخبروني.

ومنها: طباق السلب في قوله: ﴿وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ﴾.

ومنها: تأكيد الكلام بذكر حرف الجر الزائد في قوله: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ﴾ وقوله: ﴿وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ﴾؛ أي: ما اتخذ ولداً، وما كان معه إله تأكيداً وتثبيتاً للنفي.

ومنها: الطباق في قوله: ﴿عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ ﴿٩٣﴾ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٩٤﴾ وَإِنَّا عَلَىٰ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَادِرُونَ ﴿٩٥﴾ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ ۚ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّا ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا ۖ وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ ﴿١٠١﴾ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴿١٠٣﴾ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ ﴿١٠٤﴾ أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٠٥﴾ قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ ﴿١٠٧﴾ قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾ إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١٠﴾ إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿١١١﴾ قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١٤﴾ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ ۖ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾ وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ ۚ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴿١١٧﴾ وَقُل رَّبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴿١١٨﴾﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما ذكر(١) ما لهم من مقالات السوء، كإنكار البعث والجزاء واتخاذ الولد، ووصف الله بما لا يليق، وكان كل هذا مما يدعو إلى استئصالهم وأخذهم بالعذاب.. أمر رسوله أن يدعوه، بأن لا يجعله قريناً

(١) المراغي.

لهم، فيما يحيق بهم من العذاب، ثم ذكر أنه قدير على أن يعجل لهم العذاب، ولكنه أخره ليوم معلوم، ثم أرشده إلى الترياق النافع في مخالطة الناس، وهو إحسان المرء إلى من يسيء إليه، حتى تعود عداوته صداقةً، وعنفه ليناً، كما قال:

أَحْسِنْ إِلَىٰ ٱلنَّاسِ تَسْتَعْبِدْ قُلُوبَهُمُ فَطَالَمَا ٱسْتَعْبَدَ ٱلإِنْسَانَ إِحْسَانُ

ثم أمره أن يستعيذ من حيل الشياطين، وأن يحضروه في أي عمل من أعماله، ولا يكون كالكافرين الذين قبلوا همزها، وأطاعوا وسوستها حتى إذا ما حان وقت الاحتضار، تمنوا أن يعودوا إلى الدنيا ليعملوا صالحاً، وأنه لا يسمع لمثل هؤلاء دعاء، فإنه لا رجعة لهم بعد هذا، وأمامهم حاجز يحول بينهم وبين الرجوع إلى الدنيا إلى يوم البعث.

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه، لما ذكر أن وراء الرجوع إلى الدنيا حاجزاً إلى يوم القيامة.. أعقب ذلك بذكر أحوال هذا اليوم، فبين أنه عند البعث وإعادة الأرواح في الأجسام، لا تنفع الأحساب، ولا يسأل القريب قريبه، وهو يبصره، وأن من رجحت حسناته على سيئاته، فاز ونجا من النار، ودخل الجنة، ومن ثقلت سيئاته على حسناته خاب وهلك، وأدخل النار خالداً فيها أبداً، وكان عابس الوجه متقلص الشفتين من شدة الاحتراق، وأنه يقال: لأهل النار توبيخاً لهم على ما ارتكبوا من الكفر والآثام، ألست قد أرسلت إليكم الرسل، وأنزلت عليكم الكتب، فيقولون: بلى، ولكنا لم ننقد لها ولم نتبعها فضللنا، ربنا ارددنا إلى دار الدنيا، فإن نحن عدنا فإنا ظالمون مستحقون العقوبة، فيجيبهم ربهم: أمكثوا في النار صاغرين أذلاء، ولا تعودوا إلى سؤالكم هذا إنكم كنتم تستهزئون بعبادي المؤمنين، وكنتم منهم تضحكون، إنهم اليوم هم الفائزون، جزاء صبرهم على أذاكم واستهزائكم بهم.

قوله تعالى: ﴿كَمْ لَبِثْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى، لما ذكر إنكارهم للبعث، وأنهم لا يعترفون بحياة إلا ما كان في هذه الدنيا، وأنه بعد الفناء لا حياة، ولا إعادة..

ذكر هنا أنهم بعد أن يستقروا في النار، ويوقنوا أنهم مخلدون فيها أبداً، يسألون سؤال تقريع وتوبيخ عن مدة لبثهم في الأرض، ليستبين لهم أن ما ظنوه أمداً طويلاً يسير بالنسبة إلى ما أنكروه، وحينئذٍ يزدادون حسرة وألماً على ما كانوا يعتقدون في الدنيا، حين رأوا خلاف ما ظنوا، ثم بين بعدئذٍ ما هو كالدليل على وجود البعث، وهو تمييز المطيع من العاصي، ولولاه لكان خلق العالم عبثاً، تنزه ربنا عن ذلك، ثم أتبع هذا بالرد على من أشرك معه غيره، وأنذره بالعذاب الأليم. ثم أمر رسوله أن يطلب منه غفران الذنوب، وأن يثني عليه بما هو أهله.

التفسير وأوجه القراءة

﴿قُل﴾: يا محمد في الدعاء يا ﴿رَبِّ﴾؛ أي: يا مالك أمري. ﴿إِمَّا﴾ أصله (إن ما). و(ما) مزيدة لتأكيد معنى الشرط، كالنون في قوله: ﴿تريني﴾؛ أي: إن كان لا بد من أن تريني ﴿مَا يُوعَدُونَ﴾؛ أي: ما يوعد هؤلاء المشركون من العذاب الدنيوي المستأصل، والوعد يكون في الخير والشر، وأعاد[1] لفظ ﴿رَبِّ﴾ مبالغة في التضرع.. ﴿فَلَا تَجْعَلْنِي فِي ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾؛ أي: معهم في العذاب، ففي بمعنى مع؛ أي: لا تجعلني قريباً لهم في العذاب، وأخرجني من بين أيديهم سالماً. والمراد بالظلم: الشرك، وفيه إيذان بكمال فظاعة ما وعدوه من العذاب، وكونه بحيث يجب أن يستعيذ منه، من لا يكاد يمكن أن يحيق به، ورد لإنكارهم إياه، واستعجالهم به على طريقة الاستهزاء. وهذا يدل على أن البلاء ربما يعم أهل الولاء، كما قال: ﴿واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة﴾، وأن للحق سبحانه أن يفعل ما يريد، ولو عذب البر لم يكن ذلك منه ظلماً، ولا قبيحاً.

والمعنى: أي[2] قل يا محمد: رب إن عاقبتهم وأنا مشاهد ذلك.. فلا تجعلني فيهم، ولا تهلكني بما تهلكهم به، ونجني من عذابك وسخطك، واجعلني ممن رضيت عنهم من أوليائك.

---

(١) روح البيان. (٢) المراغي.

روى الإمام أحمد، والترمذي، أن النبي ﷺ كان يدعو: «وإذا أردت بقوم فتنة، فتوفني إليك غير مفتون». ومعلوم أنه عليه السلام[1]، معصوم مما يكون سبباً لجعله معهم، ولكنه أمره أن يدعو بذلك إظهاراً للعبودية، وتواضعاً لله تعالى. واستغفار رسول الله ﷺ إذا قام من مجلسه سبعين مرة من هذا القبيل، وقرأ الضحاك وأبو عمران الجوني: ﴿ترئني﴾ بالهمز بدل الياء، وهذا كما قرىء فإما ﴿ترئت﴾ و﴿لترؤن﴾ بالهمز، وهو إبدال ضعيف.

﴿وَإِنَّا عَلَىٰٓ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ﴾ من العذاب المستأصل ﴿لَقَـٰدِرُونَ﴾ ولكنا نؤخره لعلمنا بأن بعضهم أو بعض أعقابهم سيؤمنون، أو لأنا لا نعذبهم وأنت فيهم.

والمعنى: أي وإنا أيها الرسول لقاردون، على أن نريك ما ننزله بهم من العذاب، فلا يحزننك تكذيبهم بك، وإنما نؤخره حتى يبلغ الكتاب أجله، علماً منا أن بعضهم أو بعض أعقابهم سيؤمن، ومن جراء ذلك لا نستأصلهم، ولا نمحو آثارهم، ثم أرشده إلى ما يفعل بهم إذا لحقه أذاهم، فقال: ﴿ٱدْفَعْ﴾ يا محمد ﴿بِٱلَّتِى﴾؛ أي: بالطريقة التي ﴿هِىَ أَحْسَنُ﴾؛ أي: أحسن طرق الدفع من الحلم والصفح، ﴿ٱلسَّيِّئَةَ﴾ التي تأتيك منهم من الأذى والمكروه، وهو مفعول ادفع. والسيئة: الفعلة القبيحة، وهو ضد الحسنة.

قال بعضهم[2]: أي استعمل معهم ما جعلناك عليه من الأخلاق الكريمة والشفقة والرحمة، فإنك أعظم خطراً من أن يؤثر فيك ما يظهرونه من أنواع المخالفات.

وفي «التأويلات النجمية» يعني: مكافأة السيئة جائزة، لكن العفو عنها أحسن، ويقال: ادفع بالوفاء الجفاء. ويقال: الأحسن ما أشار إليه القلب بالمعافاة، والسيئة ما تدعو إليه النفس للمكافأة. **والمعنى**[3]؛ أي: قابل إساءتهم بما أمكن من الإحسان وتكذيبهم بالكلام الجميل، وبيان الأدلة على أحسن

---

(١) البحر المحيط.
(٢) روح البيان.
(٣) المراح.

الوجوه، قيل: هذه الآية محكمة؛ لأن المداراة محثوث عليها ما لم تؤد إلى وهن في الدين، أو نقصان في المروءة ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾ ويذكرون؛ أي: بما[1] يصفونك به على خلاف ما أنت عليه، كالسحر والشعر والجنون، والوصف: ذكر الشيء بحليته ونعته، فقد يكون حقّاً، وقد يكون باطلاً، وفيه وعيد لهم بالجزاء والعقوبة، وتسلية لرسول الله ﷺ، وإرشاد له إلى تفويض أمره إليه تعالى.

والخلاصة: أي ادفع[2] الأذى عنه، بالخصلة التي هي أحسن بالإغضاء والصفح عن جهلهم والصبر على أذاهم وتكذيبهم بما أتيتهم به من عند ربك، ونحن أعلم بما يصفوننا به، وينحلونه إيانا من الاختلاق والأكاذيب، وبما يقولون فيك من السوء، وهجر القول، ومجازوهم على ما يقولون فلا يحزنك ذلك، واصبر صبراً جميلاً.

ونحو الآية قوله: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾. روي عن أنس ـ رضي الله عنه ـ أنه قال في الآية: يقول الرجل لأخيه: ما ليس فيه، فيقول له: إن كنت كاذباً، فإني أسأل الله أن يغفر لك، وإن كنت صادقاً، فإني أسأل الله أن يغفر لي.

ولما أدب الله سبحانه رسوله أن يدفع بالحسن.. أمره أن يستعيذ من نخسات الشياطين، فقال: ﴿وَقُل﴾ يا محمد يا ﴿رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ﴾ والتجأ إليك. والعوذ: الالتجاء إلى الغير، والتعلق به، ﴿مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾؛ أي: وساوسهم المغرية على خلاف ما أمرت به، من المحاسن التي من جملتها، دفع السيئة بالحسنة، وهمزات الشياطين: نزعاتهم ووساوسهم، كما قاله المفسرون. والجمع فيه باعتبار المرات، أو لتنوع الوساوس، أو لتعدد المضاف إليه. ومن همزات الشيطان سورات الغضب التي لا يملك الإنسان فيها نفسه، وفيه إرشاد لهذه الأمة إلى التعوذ من الشيطان.

قال الزمخشري: فإن قلت: كيف يجوز أن يجعل نبيه المعصوم مع

---

(١) روح البيان. (٢) المراغي.

الظالمين حتى يطلب أن لا يجعله معهم؟

قلتُ: يجوز أن يسأل العبد ربه، ما علم أنه يفعله، وأن يستعيذ به مما علم أنه لا يفعله، إظهاراً للعبودية، وتواضعاً لربه، وإخباتاً له. انتهى.

﴿وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾﴾؛ أي: من أن يحضروني، ويحوموا حولي في حال من الأحوال صلاة، أو تلاوة، أو عند الموت، أو غير ذلك؛ لأنهم إنما يحضرون بقصد سوء، وكرر ذلك للمبالغة، والاعتناء بهذه الاستعاذة؛ أي: وقل رب في كل وقت؛ لأن العصمة والحفظ من الشيطان أمرها عظيم جداً، وهو وإن كان معصوماً فالمقصود تعليم أمته، وإظهار الالتجاء إليه، ذكره «الصاوي».

أي: وقل[١] رب إني ألتجيء إليك من أن يصل إلي الشياطين بوساوسهم، أو أن يبعثوا إلي أعداءك لإيذائي، وهكذا يدعو المؤمنون، فإن الشيطان لا يصل إليهم، إلا بأحد هذين الأمرين. وإذا انقطع العبد إلى مولاه وتبتل إليه، وسأله أن يعيذه من الشياطين استيقظ قلبه، وتذكر ربه فيما يأتي ويذر، ودعاه ذلك إلى التمسك بالطاعة، وازدجر عن المعصية، واستعاذ ﷺ أن تحضره الشياطين في عمل من أعماله، ولا سيما حين الصلاة، وقراءة القرآن، وحلول الأجل. أخرج أحمد وأبو داود، والترمذي وحسنه والبيهقي عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: كان رسول الله ﷺ يعلّمنا كلمات نقولها عند النوم خوف الفزع: «بسم الله، أعوذ بكلمات الله التامة من غضبه، وعقابه، وشر عباده، ومن همزات الشياطين، وأن يحضرون». قال: فكان ابن عمرو يعلمها من بلغ من أولاده أن يقولها عند نومه، ومن كان منهم صغيراً لا يعقل أن يحفظها كتبها له فيعلقها في عنقه.

وأخرج أحمد عن الوليد أنه قال: يا رسول الله، إني أجد وحشة، قال: «إذا أخذت مضجعك فقل: أعوذ بكلمات الله التامة من غضبه، وعقابه، وشر

---

(١) المراغي.

عباده، ومن همزات الشياطين، وأن يحضرون فإنه لا يحضرك، وبالحري لا يضرك».

وروى أبو داود أن رسول الله ﷺ، كان يقول: «اللهم إني أعوذ بك من الهرم، وأعوذ بك من الهدم، ومن الغرق، وأعوذ بك أن تتخبطني الشياطين عند الموت»، وكلمات الله كتبه المنزلة على أنبيائه، أو صفات الله، كالعزة والقدرة. وصفها بالتمام، لعرائها عن النقص والانقصام.

وحتى في قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ﴾ هي الابتدائية. دخلت على الجملة الشرطية، وهي مع ذلك غاية لما قبلها متعلقة بقوله: ﴿لَكَٰذِبُونَ﴾، وقيل: بـ﴿يَصِفُونَ﴾. والمراد بمجيء الموت مجيء علاماته؛ أي: هي[1] معمولة لمحذوف، يدل عليه ذلك، أي يستمر كفار مكة على التكذيب، أو على الوصف المذكور حتى إذا جاء أحدهم الموت، الذي لا مرد له، وظهرت له أحوال الآخرة.

﴿قَالَ﴾ ذلك الأحد تحسراً، على ما فرط من الإيمان والعمل ﴿رَبِّ﴾؛ أي: يا رب ﴿ٱرْجِعُونِ﴾؛ أي: ردني إلى دار الدنيا ﴿لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ﴾؛ أي: لكي أعمل عملاً ﴿صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ﴾؛ أي: في الإيمان الذي تركته، وقصرت فيه، وفي العبادات البدنية والمالية والحقوق؛ أي: لعلي أعمل في الإيمان الذي آتي به ألبتة، عملاً صالحاً، فلم ينظم الإيمان في سلك الرجاء، كسائر الأعمال الصالحة، بأن يقول: لعلي أومن فأعمل إلخ. للإشعار بأنه أمر مقرر الوقوع، غني عن الإخبار بوقوعه، فضلاً عن كونه مرجو الوقوع.

وقوله: ﴿ٱرْجِعُونِ﴾[2] خطاب لله. وجمع الضمير تعظيماً لله؛ لأن العرب تخاطب الواحد الجليل الشأن بلفظ الجماعة. وفيه رد على من يقول الجمع للتعظيم في غير المتكلم، إنما ورد في كلام المولدين.

وقيل: الخطاب للملائكة، الذين يقبضون الأرواح، من ملك الموت

---

(١) المراح.　　(٢) المراح.

وأعوانه. ورب للقسم، كما في «الكبير». واستعان بالله أولاً، ثم بهم كما في «الأسئلة المقحمة».

وقوله: ﴿لَعَلِّيٓ أَعۡمَلُ صَٰلِحٗا﴾ قبله حذف، تقديره: ثم إنه سبحانه يقول له: إلى أي شيء نردك، أتذهب إلى جمع المال، أو غرس الغراس، أو بناء البنيان، أو شق الأنهار؟ فيقول ذلك الكافر: لعلي أعمل صالحاً فيما تركت؛ أي: لكي أصير عند الرجعة مؤدياً لحق الله تعالى فيما قصرت فيه.

فيقول الجبار جل جلاله: ﴿كَلَّآۚ﴾ ردع وزجر له، عن طلب الرجعة، واستبعاد لها؛ أي: ليرتدع عما يقول، وينزجر، فإنه لا يرد إلى الدنيا أبداً ﴿إِنَّهَا﴾؛ أي: قولة: رب ارجعون ﴿كَلِمَةٌ﴾ الكلمة الطائفة من الكلام المنتظم بعضه مع بعض. ﴿هُوَ﴾؛ أي: ذلك الأحد ﴿قَآئِلُهَاۖ﴾ عند الموت لا محالة لتسلط الحزن عليه، ولكنه لا يجاب لها، ولا تفيده، وليس الأمر على ما يظنه، من أنه يجاب إلى الرجوع إلى الدنيا، أو المعنى: أنه لو أجيب إلى ذلك، لما حصل منه الوفاء، كما في قوله: ﴿وَلَوۡ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنۡهُ﴾. قال القرطبي: سؤال الرجعة غير مختص بالكافر؛ أي: بل يعم المؤمن المقصر.

وروي: أنه ﷺ قال لعائشة ـ رضي الله عنها ـ: «إذا عاين المؤمن الملائكة.. قالوا: نرجعك إلى دار الدنيا، فيقول إلى دار الهموم والأحزان، لا بل قدوماً على الله تعالى، وأما الكافر فيقال له: نرجعك، فيقول: ارجعون، فيقال له: إلى أي شيء ترغب؟ إلى جمع المال؟ أو غرس الغراس؟ أو بناء البنيان؟ أو شق الأنهار؟ فيقول: ﴿لَعَلِّيٓ أَعۡمَلُ صَٰلِحٗا فِيمَا تَرَكۡتُۚ﴾ فيقول الجبار ﴿كَلَّآۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَاۖ﴾».

والمعنى: أي[1] ولا يزال الكافر يجترح السيئات، ولا يبالي بما يأتي وما يذر، من الآثام والأوزار، حتى إذا جاءه الموت، وعاين ما هو قادم عليه من عذاب الله.. ندم على ما فات، وأسف على ما فرط في جنب الله، وقال: رب

---

(١) المراغي.

ارجعني إلى الدنيا، لأعمل صالحاً فيما قصرت فيه من عبادتك، وحقوق خلقك.

وخلاصة ذلك: أنه حين الاحتضار يعاين ما هو مقبل عليه من العذاب، فيتمنى أن يرجع إلى الدنيا ليصلح ما أفسد؛ ويطيع فيما عصى، ونحو الآية قوله: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾﴾ وقوله: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا﴾ وقوله: ﴿وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ﴾ وقوله: ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ﴾.

ومن كل هذا تعلم أنهم يطلبون الرجعة حين الاحتضار، وحين النشور، وحين العرض على الملك الجبار، وحين يعرضون على النار، وهم في غمرات جهنم، فلا يجابون إليها في كل حال ﴿كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا﴾؛ أي: إنا لا نجيبه إلى ما طلب؛ لأن طلبه الرد ليعمل صالحاً هو قوله فحسب، ولا عمل معه، وهو كاذب، ولو رد لما عمل، كما قال: ﴿وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾.

﴿وَمِن وَرَآئِهِم﴾؛ أي: ومن أمامهم، وهو ظرف مكان بمعنى خلف، ولكنه هنا بمعنى أمام؛ لأنه من اسم الأضداد؛ أي[1]: ومن أمام ذلك الأحد، والجمع باعتبار المعنى؛ لأنه في حكم كلهم، كما إن الإفراد في قال وما يليه، باعتبار اللفظ ﴿بَرْزَخٌ﴾؛ أي: حائل بينهم وبين الرجعة، وهو القبر. وفي «التأويلات النجمية» وهو ما بين الموت إلى البعث؛ أي: بين الدنيا والآخرة، وهو غير البرزخ الذي بين عالم الأرواح المثالي، وبين هذه النشأة العنصرية. ا هـ.

﴿إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ من قبورهم وهو يوم القيامة، وهو إقناط كلي من الرجعة إلى الدنيا، لما علم أن لا رجعة يوم البعث إلى الدنيا. وأما الرجعة حينئذ فإلى الحياة الأخروية.

---

(١) روح البيان.

واختلف في معنى الآية[1]، فقال الضحاك ومجاهد وابن زيد: حاجز بين الموت والبعث. وقال الكلبي: هو الأجل ما بين النفختين، وبينهما أربعون سنة، وقال السدي: هو الأجل، و﴿إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ﴾ هو يوم القيامة.

﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ﴾ لقيام الساعة، وهي النفخة الثانية، التي عندها البعث والنشور. والنفخ: نفخ الريح في الشيء. والصور مثل قرن ينفخ فيه. فيجعل الله ذلك سبباً لعود الأرواح إلى أجسادها، وقيل المعنى: فإذا نفخ في الأجساد أرواحها، على أن الصور جمع صورة لا القرن، ويدل على هذا قراءة[2] ابن عباس والحسن وابن عياض: ﴿الصُّوَرِ﴾ بفتح الواو مع ضم الصاد جمع صورة. وقرأ أبو رزين بكسر الصاد وفتح الواو، وكذا قوله: ﴿فَأَحۡسَنَ صُوَرَكُمۡ﴾ وجمع فعلة بضم الفاء على فعل بكسر الفاء شاذ.

﴿فَلَآ أَنسَابَ﴾ تنفعهم ﴿بَيۡنَهُمۡ﴾؛ أي: بين الخلائق، ﴿يوم إذٍ﴾؛ أي: يوم إذ نفخ في الصور، كما بينهم اليوم لزوال التراحم والتعاطف، من فرط الحيرة واستيلاء الدهشة، بحيث يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه، وصاحبته وبنيه، أو لا أنساب يفتخرون بها. والنسب: القرابة بين اثنين فصاعداً؛ أي: اشتراك من جهة أحد الأبوين. وذلك ضربان: نسب بالطول، كالاشتراك بين الآباء والأبناء، ونسب بالعرض، كالنسب بين الأخوة وبني الأعمام. ﴿وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾؛ أي: لا يسأل بعضهم بعضاً، فلا يقول له: من أنت، ومن أي قبيلة ونسب أنت، ونحو ذلك؛ لاشتغال كل منهم بنفسه؛ لشدة الهول، فلا يتعارفون ولا يتساءلون، كما أنه إذا عظم الأمر في الدنيا.. لم يتعرف الوالد لولده.

وقرأ عبد الله[3]: ﴿ولا يسألون﴾ بتشديد السين، أدغم التاء في السين، إذ أصله يتساءلون. والمعنى؛ أي[4]: فإذا أعيدت الأرواح إلى الأجساد حين البعث والنشور، لا تنفعهم الأنساب؛ لأن التعاطف يزول والود يختفي لاستيلاء؛

---

(١) الشوكاني.

(٢) البحر المحيط.

(٣) البحر المحيط.

(٤) المراغي.

الدهشة والحيرة عليهم، واشتغال كل امرىء بنفسه، كما جاء في قوله: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾﴾ ﴿وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾؛ أي: ولا يسأل القريب قريبه، وهو يبصره؛ لاشتغاله بأمر نفسه، كمال قال: ﴿وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ﴿١٠﴾﴾.

ولا يناقض ما[1] هنا قوله تعالى: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٥٠﴾﴾؛ لأن عدم التساؤل عند ابتداء النفخة الثانية قبل المحاسبة، والتساؤل بعد ذلك، وأيضاً يوم القيامة يوم طويل، فيه خمسون موطناً كل موطن ألف سنة، ففي موطن يشتد عليهم الهول والفزع، بحيث يشغلهم عن التساؤل والتعارف، فلا يفطنون لذلك، وفي موطن يفيقون إفاقة فيتساءلون ويتعارفون.

قال ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: يؤخذ بيد العبد والأمة يوم القيامة، فينصب على رؤوس الأولين والآخرين، ثم ينادي منادٍ: ألا إن هذا فلان بن فلان، فمن كان له عليه حق.. فليأت إلى حقه، فيفرح العبد يومئذٍ أن يثبت له حق على والده، أو ولده، أو زوجته أو أخيه، فلا أنساب بينهم يومئذٍ.

وعن قتادة: لا شيء أبغض إلى الإنسان يوم القيامة، من أن يرى من يعرفه، أن يثبت له عليه شيء، ثم تلا: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾﴾ الآية. قال محمد بن علي الترمذي ـ رحمه الله تعالى ـ: الأنساب كلها منقطعة، إلا من كانت نسبته صحيحة في عبودية ربه، فإن تلك نسبة لا تنقطع أبداً، وتلك النسبة المفتخر بها، لا نسبة الأجناس من الآباء والأمهات والأولاد.

فائدة: قال الأصمعي: كنت أطوف بالكعبة في ليلة مقمرة، فسمعت صوتاً حزيناً فتبعت الصوت، فإذا أنا بشابٍ حسن ظريف، تعلق بأستار الكعبة وهو يقول: نامت العيون، وغارت النجوم، وأنت الملك الحي القيوم، وقد غلقت الملوك أبوابها، وأقامت عليها حرسها وحجابها، وبابك مفتوح للسائلين، فها أنا سائلك ببابك، مذنباً فقيراً مسكيناً أسيراً جئت أنتظر رحمتك، يا أرحم الراحمين،

---

(١) روح البيان.

ثم أنشأ يقول:

يَا مَنْ يُجِيْبُ دُعَا ٱلْمُضْطَرِّ فِيْ ٱلظُّلَمِ ... يَا كَاشِفَ ٱلضُّرِّ وَٱلْبَلْوَىٰ مَعَ ٱلسَّقَمِ

قَدْ نَامَ وَفْدُكَ حَوْلَ ٱلْبَيْتِ وَٱنْتَبَهُوْا ... وَأَنْتَ يَا حَيُّ يَا قَيُّوْمُ لَمْ تَنَمِ

أَدْعُوْكَ رَبِّيْ وَمَوْلاَيَ وَمُسْتَنَدِيْ ... فَٱرْحَمْ بُكَائِيْ بِحَقِّ ٱلْبَيْتِ وَٱلْحَرَمِ

أَنْتَ ٱلْغَفُوْرُ فَجُدْ لِيْ مِنْكَ مَغْفِرَةً ... وَاعْفُ عَنِّيَ يَا ذَا ٱلْجُوْدِ وَٱلنِّعَمِ

إِنْ كَانَ عَفْوُكَ لاَ يَرْجُوْهُ ذُوْ جُرُمٍ ... فَمَنْ يَجُوْدُ عَلَىٰ ٱلْعَاصِيْنَ بِٱلْكَرَمِ

ثم رفع رأسه نحو السماء وهو ينادي: يا إلٰهي وسيدي ومولاي، إن أطعتك فلك المنة علي، وإن عصيتك فبجهلي، فلك الحجة علي، اللهم فبإظهار مننك علي، وإثبات حجتك لدي ارحمني، واغفر ذنوبي، ولا تحرمني رؤية جدي وقرة عيني، وحبيبك وصفيك ونبيك محمد ﷺ، ثم أنشأ يقول:

أَلاَ أَيُّهَا ٱلْمَامُوْلُ فِيْ كُلِّ شِدَّةٍ ... إِلَيْكَ شَكَوْتُ ٱلضُّرَّ فَٱرْحَمْ شِكَايَتِيْ

أَلاَ يَا رَجَائِيْ أَنْتَ كَاشِفُ كُرْبَتِيْ ... فَهَبْ لِيْ ذُنُوبِيْ كُلَّهَا وَٱقْضِ حَاجَتِيْ

فَزَادِيْ قَلِيْلٌ مَا أَرَاهُ مُبَلِّغِيْ ... عَلَىٰ ٱلزَّادِ أَبْكِيْ أَمْ لِبُعْدِ مَسَافَتِيْ

أَتَيْتُ بِأَعْمَالٍ قِبَاحٍ رَدِيْئَةٍ ... وَمَا فِيْ ٱلْوَرَىٰ خَلْقٌ جَنَىٰ كَجِنَايَتِيْ

فكان يكرر هذه الأبيات حتى سقط على الأرض مغشياً عليه، فدنوت منه، فإذا هو زين العابدين علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، فوضعت رأسه في حجري، وبكيت لبكائه بكاءً شديداً عليه، فقطر من دموعي على وجهه، فأفاق من غشيته وفتح عينيه وقال: من الذي شغلني عن ذكر مولاي؟ فقلت: أنا الأصمعي يا سيدي، ما هذا البكاء وما هذا الجزع؟ وأنت من أهل بيت النبوة، ومعدن الرسالة، أليس الله يقول: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾؟ قال: فاستوى جالساً وقال: يا أصمعي، هيهات! إن الله تعالى خلق الجنة لمن أطاعه، وإن كان عبداً حبشياً، وخلق النار لمن عصاه، وإن كان ملكاً قرشياً. أما سمعت قوله تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿١٠١﴾﴾.

ثم شرع سبحانه يبين أحوال السعداء، وأحوال الأشقياء حينئذٍ، فقال: ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾؛ أي: فمن رجحت موزونات حسناته وأخلاقه من العقائد والأعمال؛ أي: فمن كان له عقائد صحيحة، وأعمال صالحة يكون لها وزن وقدر عند الله تعالى، فهو جمع موزون، بمعنى العمل الذي له وزن وخطر عند الله تعالى.. ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾؛ أي: الفائزون بمطالبهم المحبوبة، الناجون من الأمور التي يخافونها. ولما كان لفظ ﴿من﴾ يصلح للواحد والجمع، وحد على اللفظ في قوله: ﴿موازينه﴾، وجمع على المعنى في قوله: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾.

﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ وهي أعماله الصالحة؛ أي: ومن لم يكن له من العقائد والأعمال ما له وزن وقدر عند الله تعالى، وهم الكفار لقوله تعالى: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا﴾، ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم﴾؛ أي: ضيعوها[1] وتركوا ما ينفعها بتضييع زمان استكمالها، وأبطلوا استعدادها لنيل كمالها، ﴿فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ﴾ بدل من صلة الموصول، أو خبر ثانٍ لاسم الإشارة؛ أي: ماكثون فيها مكثاً مؤبداً. وجملة قوله: ﴿تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ﴾ مستأنفة، ويجوز أن تكون في محل نصب على الحال من الضمير المستكن في خالدون، أو تكون خبراً آخر لأولئك؛ أي: تضربها وتأكل لحومها، وتحرق جلودها. يقال: لفحته النار بحرها إذا أحرقته كما في «القاموس». واللفح كالنفخ، إلا أنه أشد تأثيراً، كما في «الإرشاد» وغيره، وخص الوجوه بذلك؛ لأنها أشرف الأعضاء، وأعظم ما يصان منها، فبيان حالها أزجر عن المعاصي المؤدية إلى النار، وهو السر في تقديمها على الفاعل.

﴿وَهُمْ فِيهَا﴾؛ أي: في جهنم ﴿كَٰلِحُونَ﴾؛ أي: متقلصوا الشفتين عن الأسنان من شدة الاحتراق، والكلوح: تقلص الشفتين عن الأسنان وظهورها، كما ترى ذلك في الرؤوس المشوية. وفي الحديث[2]: «تشويه النار فتقلص شفته العليا حتى تبلغ وسط رأسه، وتسترخي شفته السفلى حتى تبلغ سرته». أخرجه

---

(١) روح البيان. (٢) الخازن.

الترمذي عن أبي سعيد الخدري، وقال: حديث حسن صحيح غريب.

وقرأ أبو حيوة وأبو بحرية وابن أبي عبلة ﴿كلحون﴾ بغير ألف. وجملة قوله: ﴿أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ مقول لقول محذوف، تقديره: فيقال لهم: تعنيفاً وتوبيخاً وتذكيراً، لما به استحقوا، ما ابتلوا به من العذاب: ألم تكن آياتي المنزلة تقرأ عليكم في الدنيا، تبين لكم بالدلائل الواضحة، كيفية سلوك الطريق الحق ﴿فَكُنتُم بِهَا﴾؛ أي: بآياتي ﴿تكذبون﴾ فصرتم مستحقين للعذاب الأليم، يعني قوارع القرآن وزواجره تخوفون بها في الدنيا فلا تنتهون بها، فصرتم اليوم مستحقين للعذاب الأليم بسبب تكذيبها، والاستفهام فيها للتقرير المضمن للتوبيخ والتقريع، وجملة قوله: قالوا: يا ﴿رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا﴾ ملكتنا ﴿شِقْوَتُنَا﴾ وآثامنا التي اقترفناها بسوء اختيارنا، فصارت أحوالنا مؤدية إلى سوء العاقبة. مستأنفة واقعة في جواب سؤال مقدر، فكأنه قيل: فماذا قالوا بعد التوبيخ المذكور، فقيل: قالوا: ربنا... إلخ. قال القرطبي: وأحسن[1] ما قيل: في معناه: غلبت علينا لذاتنا، وأهواؤنا، فسمى اللذات، والأهواء شقوة؛ لأنهما تؤديان إليها، فأطلق اسم المسبب على السبب، قال أبو تراب: الشقوة حسن الظن بالنفس، وسوء الظن بالخلق.

وقرأ عبد الله والحسن وقتادة وحمزة والكسائي والمفضل عن عاصم، وأبان والزعفراني وابن مقسم[2]: ﴿شقاوتنا﴾ بوزن السعادة، وهي لغة فاشية. وقرأ قتادة أيضاً والحسن في رواية خالد بن حوشب عنه كذلك، إلا أنه بكسر الشين. وباقي السبعة والجمهور بكسر الشين وسكون القاف، وهي لغة كثيرة في الحجاز. قال الفراء: أنشدني أبو شروان، وكان فصيحاً:

عُلِّقَ مِنْ عَنَائِهِ وَشِقْوَتِهْ ... بِنْتَ ثَمَانِي عَشْرَ مِنْ حُجَّتِهْ

وقرأ شبل في «اختياره» بفتح الشين وسكون القاف. ﴿وَكُنَّا﴾ بسبب ذلك

---

(١) القرطبي.
(٢) البحر المحيط.

﴿قَوْمًا ضَآلِّينَ﴾ عن الحق، ولذلك فعلنا ما فعلنا من التكذيب وسائر المعاصي.

والخلاصة[1]: إنا كنا نعرف الحق، ولكن العادة وخشية الناس ملكتا علينا أمرنا، فلم نقدر على الخلاص مما نحن فيه، وما مثلنا إلا مثل شاربي الخمر، والمولعين بحب الكبرياء والعظمة، والمغرمين بالإسراف، فإنهم يعرفون أضرارها، ثم لا يجدون سبيلاً إلى تركها ولا للبعد عنها.

ثم طلبوا ما لا يجابون إليه، فقالوا: ﴿رَبَّنَا﴾ ويا مالك أمرنا ﴿أَخْرِجْنَا مِنْهَا﴾؛ أي: من النار، ومن هذه الدار إلى دار الدنيا ﴿فَإِنْ عُدْنَا﴾ ورجعنا إلى الأعمال السيئة، وما كنا عليه من الكفر وعدم الإيمان ﴿فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ﴾ لأنفسنا بالعود إلى ذلك.

فأجاب الله عليهم بقوله: ﴿قَالَ﴾ تعالى لهم بطريق القهر، على لسان مالك، بعد قدر الدنيا مرتين، وقدرها قيل: سبعة آلاف سنة، بعدد الكواكب السيارة. وقيل: اثنا عشر ألف سنة بعدد البروج، وقيل: ثلاث مئة ألف سنة وستون ألف سنة بعدد أيام السنة. ا هـ. من تذكرة القرطبي.

﴿اخْسَـُٔوا﴾؛ أي: ذلوا ﴿فِيهَا﴾؛ أي: في النار، واسكتوا سكوت هوان، فإنها ليست مقام سؤال، وانزجروا انزجار الكلاب إذا زجرت، من خسأة الكلب إذا زجرته وطردته مستهيناً به فخسأ؛ أي: انزجر. وقال الزجاج: تباعدوا تباعد سخطٍ، وابعدوا بعد الكلب. فالمعنى على هذا أبعدوا في جهنم، كما يقال للكلب إخسأ؛ أي: أبعد. ﴿وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾؛ أي: في إخراجكم من النار، ورجوعكم إلى الدنيا، فإنه لا يكون أبداً، أو في رفع العذاب عنكم، وقيل: لا تكلمون رأساً.

والمعنى[2]: أي قالوا: ربنا أخرجنا من النار، واردُدنا إلى الدنيا، فإن عدنا إلى مثل ما سلف منا من الشرور والأثام كنا ظالمين لأنفسنا، جديرين بالعقوبة. ثم ذكر ما أجيبوا به عن طلبهم هذا، فقال: ﴿قَالَ اخْسَـُٔوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾﴾؛ أي: قال: امكثوا فيها أذلاء صاغرين، واسكتوا ولا تعودوا إلى مثل سؤالكم

---

(١) المراغي. (٢) المراح.

هذا، فإنه لا رجعة لكم إلى الدنيا، وإنما يكلمني من سمت نفسه إلى عالم الأرواح، ولبس رداء الخوف والخشية من ربه، واحتقر الدنيا وشهواتها، وعزف عنها لما يرجوه من ربه من ثواب عميم ونعيم مقيم.

ثم بين سبحانه السبب فيما نالهم من العذاب، فقال: ﴿إِنَّهُ﴾؛ أي: إن الشأن والحال، وقرأ أبيّ بفتح الهمزة؛ أي: لأنه ﴿كَانَ فَرِيقٌ﴾؛ أي: طائفة ﴿مِّنْ عِبَادِي﴾ المؤمنين. قيل: هم الصحابة. وقيل: هم المهاجرون. وقيل: هم أهل الصفة ﴿يَقُولُونَ﴾ في الدنيا ﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا﴾؛ أي: صدقنا بك، وبجميع ما جاء من عندك ﴿فَٱغْفِرْ لَنَا﴾؛ أي: استر ذنوبنا ﴿وَٱرْحَمْنَا﴾؛ أي: وانعم علينا بنعمتك، التي من جملتها الفوز بالجنة، والنجاة من النار ﴿وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ وأفضلهم وأرحم علينا من الوالدين؛ لأن رحمتك منبع كل رحمة ﴿فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ﴾؛ أي: فجعلتموهم ﴿سخرياً﴾؛ أي: مهزوءاً بهم تسخرون منهم وتستهزئون بهم؛ أي: فاتخذتموهم هزأة تهزؤون منهم، وهذا محط التعليل الذي سيقت له ﴿إنّ﴾؛ لأن جملة ﴿إنّ﴾ تعليل لما قبلها من الزجر عن دعائهم بالخروج منها، بقوله ولا تكلمون؛ أي: اسكتوا عن الدعاء، بقولكم: ربنا أخرجنا إلخ؛ لأنكم كنتم تستهزؤون بالداعين بقولهم ربنا آمنا إلخ. وتتشاغلون باستهزائهم، ﴿حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ﴾؛ أي: حتى أنساكم الاستهزاء بهم، فإن أنفسهم ليست سبب الإنساء ﴿ذِكْرِي﴾؛ أي: ذكركم إياي والخوف مني، والعمل بطاعتي من فرط اشتغالكم باستهزائهم فلم تخافوني في أوليائي ﴿وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ﴾ في الدنيا استهزاء بهم، وذلك غاية الاستهزاء، وقال مقاتل: نزلت في بلال وعمار وخباب وصهيب وأمثالهم من فقراء الصحابة، كان كفار قريش كأبي جهل وعتبة وأبي بن خلف وأضرابهم يستهزئون بهم وبإسلامهم، ويؤذونهم.

وقرأ حمزة والكسائي ونافع[1]: ﴿سُخرياً﴾ بضم السين، وباقي السبعة بالكسر. وقال ابن عطية: وقرأ أصحاب عبد الله وابن أبي إسحاق والأعرج بضم

---

(١) المراغي.

(٢) البحر المحيط.

السين كل ما في القرآن. وقرأ الحسن وأبوعمرو بالكسر، إلا التي في الزخرف فإنهما ضما السين كما فعل الناس. انتهى.

والخلاصة[1]: إنكم أضفتم إلى سيئاتكم الاستهزاء بمن يفعلون الحسنات، ويتقربون إلى رب الأرض والسماوات. ونحو الآية قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾﴾.

ثم ذكر ما جازى به أولئك المستضعفين فقال: ﴿إِنِّى جَزَيْتُهُمُ﴾؛ أي: أولئك الفريق ﴿ٱلْيَوْمَ﴾ يعني: يوم الآخرة ﴿بِمَا صَبَرُوٓا۟﴾؛ أي: بسبب صبرهم على إذايتكم إياهم. والصبر: حبس النفس عن الشهوات، وعلى المشاق. ﴿أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ بفتح همزة أن ثاني مفعولي الجزاء؛ أي: جزيتهم بسبب صبرهم فوزهم بمجامع مراداتهم، مخصوصين به. وعلى كسرها مفعول الجزاء الثاني محذوف. وجملة إن مسوقة للتعليل، والتقدير: إني جزيتهم اليوم النعيم المقيم؛ لأنهم هم الفائزون بمراداتهم.

والخلاصة: أنهم صبروا فجوزوا أحسن الجزاء.

وقرأ زيد بن علي وحمزة والكسائي، وخارجة عن نافع ﴿إنهم هم﴾ بكسر الهمزة. وباقي السبعة بالفتح، ومفعول جزيتهم الثاني محذوف، تقديره: الجنة، أو رضواني. وقال الزمخشري: في قراءة من قرأ ﴿أنهم﴾ بالفتح هو المفعول الثاني؛ أي: جزيتهم فوزهم، انتهى. والظاهر أنه تعليل؛ أي: جزيتهم لأنهم. والكسر هو على الاستئناف، وقد يراد به التعليل، فيكون الكسر مثل الفتح من حيث المعنى، فإن الاستئناف يعلل به أيضاً، لا من حيث الإعراب؛ لاضطرار المفتوحة إلى عامل.

وفي «التأويلات النجمية»: وفيه[2] من اللطائف أن أهل السعادة كما ينتفعون بمعاملاتهم الصالحة مع الله من الله، ينتفعون بإنكار منكريهم، واستخفاف

---

(١) المراغي.
(٢) البحر المحيط.

مستهزئيهم. وأن أهل الشقاوة كما يخسرون بمعاملاتهم الفاسدة مع أنفسهم، يخسرون باستهزائهم وإنكارهم على الناصحين المرشدين.

﴿قَالَ﴾ الله تعالى، تذكيراً لما لبثوا فيما سألوا الرجوع إليه، من الدنيا بعد التنبيه على استحالته بقوله: ﴿ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾؛ أي: قال الله لهم بلسان مالك ﴿كَمْ لَبِثْتُمْ﴾ وأقمتم ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ التي تدعون أن ترجعوا إليها. يقال لبث بالمكان، إذا أقام به ملازماً له. ﴿عَدَدَ سِنِينَ﴾ تمييز[1] لكم، لما في كم من الإبهام، و﴿سنين﴾ بفتح النون على أنها نون الجمع. ومن العرب من يخفضها وينونها.

والمراد بالأرض هي الأرض التي طلبوا الرجوع إليها، ويحتمل أن يكون السؤال عن جميع ما لبثوه في الحياة، وفي القبور. والاستفهام هنا إنكاري لتوبيخهم بإنكار الآخرة. ا هـ. «شهاب». وقال زاده: القصد من هذا الاستفهام التبكيت، والإلزام؛ لأنهم كانوا ينكرون اللبث في الآخرة رأساً لإنكارهم للبعث.

وقرأ حمزة والكسائي وابن كثير[2]: ﴿قل كم﴾ والمخاطب ملك يسألهم، أو بعض أهل النار. وقرأ باقي السبعة ﴿قَالَ﴾ والقائل الله تعالى، أو المأمور بسؤالهم من الملائكة. وقال الزمخشري: ﴿قَالَ﴾ في مصاحف أهل الكوفة. و﴿قل﴾ في مصاحف أهل الحرمين والبصرة والشام. وقال ابن عطية: وفي المصاحف قال فيهما إلا في مصحف الكوفة، فإن فيه ﴿قل﴾ بغير ألف، وتقدم إدغام ثاء لبثت في البقرة. وعبارة «زاد المسير» هنا وأبو عمرو وحمزة والكسائي يدغمون ثاء ﴿لبثتم﴾، والباقون لا يدغمونها فمن أدغم فلتقارب الثاء والتاء، ومن لم يدغم فلتباين المخرجين. انتهى.

سألهم سؤال توقيف على المدة. وقرأ الجمهور ﴿عدد سنين﴾ على الإضافة، و﴿كم﴾ في موضع نصب على ظرف الزمان، وتمييزها ﴿عدد﴾. وقرأ

---

(١) روح البيان.
(٢) روح البيان.
(٣) البحر المحيط.

الأعمش والمفضل عن عاصم ﴿عدداً﴾ بالتنوين، والمعنى؛ أي: قال الملك المأمور بسؤالهم: كم لبثتم في الأرض والدنيا التي تطلبون أن ترجعوا إليها عدداً من السنين، والغرض من هذا السؤال: التبكيت؛ لأنهم كانوا لا يعدون اللبث إلا في دار الدنيا، ويظنون أن الفناء يدوم بعد الموت، ولا إعادة. فلما حصلوا في النار، وأيقنوا أنهم مخلدون فيها، سألهم الله: كم لبثتم في الأرض، فإنهم فيها تمكنوا من العلم والعمل، تذكيراً لهم بأن الذي ظنوه طويلاً فهو قليل بالنسبة إلى ما أنكروه، فحينئذٍ تحصل لهم الحسرة على ما كانوا يعتقدونه في الدنيا، حيث أيقنوا خلافه، ﴿قَالُوا۟﴾؛ أي: قال أهل النار جواباً لسؤال ربهم ﴿لَبِثْنَا يَوْمًا﴾ ثم شكوا في ذلك فقالوا: ﴿أَوْ﴾ لبثنا ﴿بَعْضَ يَوْمٍۢ﴾ استقصاراً لمدة لبثهم فيها بالنسبة إلى دخولهم في النار، أو لأنها كانت أيام السرور وأيام السرور قصار، أو لأنها منقضية، والمنقضي كالمعدوم، وقد اعترفوا بالنسيان، حيث قالوا: ﴿فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ﴾؛ أي: الذين يعلمون عدد أيام الدنيا وساعاتها أو الذين يحصون الأعمال وأوقات الحياة والممات إن أردت تحقيقها فإنا لما نحن فيه من العذاب مشغولون عن تذكرها وإحصائها.

وفي «التأويلات النجمية»: ﴿فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ﴾ يعني: الذين يعدون أنفاسنا وأيامنا ولياليَنا، من الملائكة الموكلين علينا. ا هـ. وقال قتادة: يعني الحساب. وقرأ الحسن والزهري وأبو عمران الجوني والكسائي: ﴿العَادِينَ﴾ بتخفيف الدال؛ أي: الظلمة رؤساءنا الذين أضلونا. وقرىء: ﴿العاديين﴾ بياء مشددة، جمع عادى؛ أي: القدماء المعمرين. ﴿قَٰلَ﴾ الله سبحانه لهم بلسان مالك ﴿إِن لَّبِثْتُمْ﴾؛ أي: ما لبثتم في الدنيا ﴿إِلَّا﴾ زماناً ﴿قَلِيلًا﴾ تصديقاً لهم في تقليلهم لسني لبثهم في الدنيا. وقليلاً صفة مصدر محذوف؛ أي: لبثاً قليلاً، أو زمان محذوف؛ أي: زماناً قليلاً ﴿لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ شيئاً من العلم، لعلمتم يومئذٍ قلة لبثكم في الدنيا، كما علمتم اليوم.

---

(١) المراح.

وفي «بحر العلوم»: أي لو كنتم تعلمون مقدار لبثكم من الطول، لما أجبتم بهذه المدة، وفي «المراح»: لو كنتم تعلمون أن لبثكم في الآخرة لا نهاية له.. لأصلحتم أعمالكم في الدنيا، ولتقربتم بها إلى الله تعالى.

وقرأ ابن كثير ونافع وعاصم وأبو عمرو وابن عامر[1]: ﴿قَـٰلَ إِن لَّبِثْتُمْ﴾. وقرأ حمزة والكسائي ﴿قل إن لبثتم﴾ على معنى: قل أيها السائل عن لبثهم. وزعموا أن في مصحف أهل الكوفة ﴿قل﴾ في الموضعين. فقرأهما حمزة والكسائي على ما في مصاحفهم.

وحاصل معنى الآية[2]: أنه قد نسي هؤلاء الأشقياء مدة لبثهم في الدنيا، لعظيم ما هم فيه من البلاء والعذاب، وقصر عندهم الأمد الذي مكثوه فيها ما حل بهم من نعمة الله، حتى حسبوا أنهم لم يمكثوا إلا يوماً أو بعض يوم، ولعل بعضهم يكون قد أقام بها الزمان الطويل والسنين الكثير.

﴿فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ﴾؛ أي: فاسأل الحفظة العارفين لأعمال العباد وأعمارهم. كما روي ذلك جماعة عن مجاهد ﴿قَـٰلَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١٤﴾﴾؛ أي: قال لهم الملك: ما لبثتم إلا زمناً يسيراً، ولو كنتم تعلمون شيئاً من العلم، لعملتم على مقتضى ذلك، ولما صدر منكم ما أوجب خلودكم في النار، ولما قلنا لكم: اخسئوا فيها ولا تكلمون.

روي مرفوعاً: «أن الله تعالى إذا أدخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، قال: يا أهل الجنة كم لبثتم في الأرض عدد سنين؟ قالوا: لبثنا يوماً أو بعض يوم، قال: لنعم ما أنجزتم في يوم أو بعض يوم، رحمتي ورضواني وجنتي، امكثوا فيها خالدين مخلدين، ثم يقول: يا أهل النار، كم لبثتم في الأرض عدد سنين؟ قالوا: لبثنا يوماً، أو بعض يوم، فيقول: بئسما أنجزتم في يوم أو بعض يوم ناري وسخطي، امكثوا فيها خالدين مخلدين».

---

(١) زاد المسير.
(٢) المراغي.

فعلى العاقل[1] أن يتدارك حاله، ويصلح أعماله، قبل أن تنفد الأنفاس، وينهدم الأساس. وقيل شعراً:

أَلاَ إِنَّمَا ٱلدُّنْيَا كَظِلٍّ سَحَابَةٍ ... أَظَلَّتْكَ يَوْمَاً ثُمَّ عَنْكَ ٱضْمَحَلَّتِ
فَلاَ تَكُ فَرْحَانَاً بِهَا حِيْنَ أَقْبَلَتْ ... وَلاَ تَكُ جَزْعَانَاً بِهَا حِيْنَ وَلَّتِ

قال بعضهم: لا تركنن إلى الدنيا فإنها لا تبقى على أحد، ولا تتركها فإن الآخرة لا تنال إلا بها. وقال الزمخشري: استغنم تنفس الأجل وإمكان العمل، واقطع ذكر المعاذير والعلل، فإنك في أجل محدود، وعمر غير ممدود. وقال بعضهم: لو علمت أن ما فات من عمرك لا عوض له.. لم يصح منك غفلة ولا إهمال. ولكنت تأخذ بالعزم والحزم، بحيث تبادر الأوقات وتراقب الحالات خوف الفوات عاملاً على قول القائل:

السِّبَاقَ ٱلسِّبَاقَ قَوْلاً وَفِعْلاً ... حَذِّرِ ٱلنَّفْسَ حَسْرَةَ ٱلْمَسْبُوْقِ

وما حصل من عمرك، إذا علمت أن لاقيمة له كنت تستغرق أوقاتك في شكر الحاصل وتحصيل الواصل. قال عليّ ـ رضي الله عنه ـ: بقية عمر المرء ما لها ثمن، يدرك به منها ما فات، ويحيي ما مات. وقد جاء في الخبر: «نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس الصحة والفراغ»، ومعناه: أن الصحيح ينبغي أن يكون مشغولاً بدين أو دنيا، فهو مغبون فيهما.

ثم زاد في توبيخهم على تماديهم في الغفلة، وتركهم النظر الصحيح، فيما يرشد إلى حقية البعث والقيامة، فقال: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا﴾ الهمزة[2]: فيه للاستفهام الإنكاري، المضمن للتوبيخ، داخله على محذوف، و﴿الفاء﴾: عاطفة على ذلك المحذوف. والحِسبان بالكسر الظن. وعبثاً حال من نون العظمة، بمعنى عابثين، وهو ما ليس لفاعله غرض صحيح، أو ارتكاب أمر غير معلوم الفائدة. والتقدير: أغفلتم وظننتم من فرط غفلتكم، أنا خلقناكم بغير حكمة، ولا ثواب ولا عقاب. ﴿وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ عطف على إنما

(١) روح البيان. (٢) روح البيان.

خلقناكم؛ أي: وحسبتم عدم رجوعكم إلينا، يعني: أن الحكمة من خلقكم الأمر بالعمل، ثم البعث للجزاء. ومعنى الرجوع إلى الله إلى حيث لا مالك ولا حاكم سواه.

قال الترمذي: إن الله خلق الخلق ليعبدوه، فيثيبهم على العبادة، ويعاقبهم على تركها. فإن عبدوه.. فإنهم عبيد أحرار، كرام من رق الدنيا، ملوك في دار السلام. وإن رفضوا العبودية.. فهم اليوم عبيد أُبَّاق، سقاط لئام، وغداً أعداء في السجون، بين أطباق النيران.

والمعنى: أي[1] أظننتم أيها الأشقياء أنا إنما خلقناكم إذ خلقناكم لعباً وباطلاً، كلا، بل خلقناكم لنهذبكم ونعلمكم، لترتقوا إلى عالم أرقى مما أنتم فيه، لا كما ظننتم أنكم لا ترجعون إلينا للحساب والجزاء. وفي هذا إشارة إلى أن الحكمة تقتضي تكليفهم وبعثهم لمجازاتهم على ما قدموا من عمل، وأسلفوا من سعي في الحياة الدنيا.

حكاية

وعن بهلول[2] قال: كنت يوماً في بعض شوارع البصرة، فإذا بصبيان يلعبون بالجوز واللوز، وإذا أنا بصبي ينظر إليهم ويبكي، فقلت: هذا صبي يتحسر على ما في أيدي الصبيان، ولا شيء معه فيلعب به، فقلت: أي بني ما يبكيك، أشتري لك من الجوز واللوز ما تلعب به مع الصبيان؟ فرفع بصره إليّ، وقال: يا قليل العقل، ما للعب خلقنا؟ فقلت: أي بني لماذا خلقنا؟ فقال: للعلم والعبادة، فقلت: من أين لك ذلك، بارك الله فيك، قال: من قول الله تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾﴾ قلت: أي بني أراك حكيماً فعظني وأوجز، فأنشأ يقول:

أَرَىٰ ٱلدُّنْيَا تُجَهِّزُ بِٱنْطِلاَقِ ... مُشَمِّرَةً عَلَىٰ قَدَمٍ وَسَاقِ

---

(١) المراغي. (٢) روح البيان.

فَـلاَ ٱلـدُّنْـيَـا بِـبَـاقِـيَـةٍ لِـحَـيٍّ ... وَلاَ حَـيٌّ عَـلَـىٰ ٱلـدُّنْـيَـا بِـبَـاقِ

كَـأَنَّ ٱلْـمَـوْتَ وَٱلْـحَـدَثَـانِ فِـيْـهَـا ... إِلَـىٰ نَـفْـسِ ٱلْـفَـتَـىٰ فَـرَسَـا سِـبَـاقِ

فَـيَـا مَـغْـرُوْرُ بِـٱلـدُّنْـيَـا رُوَيْـدَاً ... وَمِـنْـهَـا خُـذْ لِـنَـفْـسِـكَ بِـٱلْـوِثَـاقِ

ثم رمق السماء بعينيه، وأشار إليها بكفيه، ودموعه تتحدر على خديه، وهو يقول:

يَـا مَـنْ إِلَـيْـهِ ٱلْـمُـبْـتَـهَـلْ ... يَـا مَـنْ عَـلَـيْـهِ ٱلْـمُـتَّـكَـلْ

يَـا مَـنْ إِذَا مَـا آمِـلٌ ... يَـرْجُـوْهُ لَـمْ يُـخْـطِ الأَمَـلْ

قال: فلما أتمّ كلامه، خر مغشياً عليه، فرفعت رأسه إلى حجري ونفضت التراب عن وجهه بكمي، فلما أفاق قلت له: أي بني ما نزل بك وأنت صبي صغير، لم يكتب عليك ذنب؟ قال: إليك عني يا بهلول، إني رأيت والدتي توقد النار بالحطب الكبار، فلا تتقد إلا بالصغار، وإني أخشى أن أكون من صغار حطب جهنم، قال: فسألت عنه؟ فقالوا: ذلك من أولاد الحسين بن علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ. قلت: قد عجبت من أن تكون هذه الثمرة إلا من تلك الشجرة. نفعنا الله تعالى بعلمه، وبعلوم آبائه، آمين.

وقرأ الأخوان حمزة والكسائي[1] ﴿لَا تُرْجَعُونَ﴾ بفتح التاء مبنياً للفاعل. وقرأ باقي السبعة ابن كثير وأبو عمرو وعاصم، بضم التاء مبنيّاً للمفعول. وقيل[2]: إنه يجوز عطف ﴿وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ على ﴿عَبَثًا﴾، معنى: إنما خلقناكم للعبث ولعدم الرجوع.

ثم نزّه الله نفسه عما يصفه به المشركون، فقال: ﴿فَتَعَـٰلَى ٱللَّهُ﴾ سبحانه؛ أي: ترفع بذاته عن كل ما لا يليق به، من الصاحبة والولد والشريك، وتنزه عن مماثلة المخلوقين في ذاته وصفاته وأفعاله، وعن خلو أفعاله عن الحكم

(١) البحر المحيط.

(٢) الشوكاني.

والمصالح والغايات الجليلة. ﴿ٱلْمَلِكُ﴾؛ أي: الذي[1] يحق له الملك على الإطلاق إيجاداً وإعداماً، بدأً وإعادةً وإحياءً وإماتةً وعقاباً وإثابةً، وكل ما سواه مملوك له، مقهور تحت ملكه العظيم. قال الغزالي ـ رحمه الله ـ: الملك هو الذي يستغني في ذاته وصفاته وأفعاله عن كل موجود، ويحتاج إليه كل موجود.

﴿ٱلْحَقُّ﴾؛ أي: الثابت الوجود في ذاته وصفاته وأفعاله. وفي المفردات ﴿الحق﴾ موجود الشيء بحسب ما تقتضيه الحكمة.

وعبارة «المراح» هنا: ﴿فَتَعَـٰلَى ٱللَّهُ﴾؛ أي[2]: تبرأ الله سبحانه عن العبث، وعن خلو أفعاله عن المصالح والغايات الحميدة، ﴿ٱلْمَلِكُ﴾؛ أي: المتصرف في كل شيء ﴿ٱلْحَقُّ﴾؛ أي: الثابت الذي لا يزول ملكه ﴿لَآ إِلَـٰهَ﴾؛ أي: لا معبود بحق في الوجود ﴿إِلَّا هُوَ﴾ سبحانه وتعالى، فإن كل ما عداه عبيده. ﴿رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ﴾ فكيف لا يكون إلٰهاً ورباً لما هو دون العرش الكريم من المخلوقات، وإنما خص العرش بالذكر؛ لأنه أعظم المخلوقات. ووصف[3] العرش بالكريم، لنزول الرحمة والخير منه، أو باعتبار من استوى عليه، كما يقال: بيت كريم، إذا كان ساكنوه كراماً. **وقيل**: معنى الكريم الرفيع المرتفع كما في «الخازن». وقال ابن الجوزي: والكريم في صفة الجهاد الحسن. ا هـ.

وقرأ أبان بن تغلب وابن محيصن وأبو جعفر وإسماعيل عن ابن كثير ﴿الكريم﴾ بالرفع على أنه صفة لرب، أو صفة للعرش، ويكون مقطوعاً على معنى المدح. وقرأ الباقون، بالجر على أنه نعت للعرش. وقال القرطبي: وليس في القرآن وصف العرش بالكريم في غير هذا الموضع. ا هـ.

وإنما وصف العرش هنا بالكريم وفيما تقدم بالعظيم للتفنن، أو لمناسبة السياق؛ لأن السياق هنا في ذكر الرحمة والغفران، والكرم يناسبها، وفيما تقدم

---

(١) روح البيان.
(٢) المراح.
(٣) الشوكاني.

في إثبات الربوبية والتصرف له تعالى والعظمة تناسبها. هكذا ظهر لي بعد الإمعان. والله أعلم بأسرار كتابه.

ومعنى الآية: أي تنزه ربنا ذو الملك والملكوت الذي لا يزول، وليس هناك معبود سواه، وهو ذو العرش الكريم، الذي يدبر فيه نظام الكون علويه وسفليه، وجميع ما خلق عن أن يخلق الخلق عبثاً، وأن تخلو أفعاله عن الحكم والمقاصد الحميدة، وأن يكون له ولد أو شريك.

وبعد أن ذكر أنه الملك الحق الذي لا إلٰه إلا هو.. أتبعه ببيان أن من ادعى أن في الكون إلٰهاً سواه.. فقد ادعى باطلاً، وركب شططاً. فقال: ﴿وَمَن يَدْعُ﴾ ويعبد ﴿مَعَ ٱللَّهِ﴾ الذي لا إله إلا هو. ﴿إِلَـٰهًا ءَاخَرَ﴾ إفراداً أو اشتراكاً. ﴿لَا بُرْهَـٰنَ﴾ ولا حجة ﴿له﴾؛ أي: لذلك العابد. ﴿بِهِۦ﴾؛ أي: على عبادته معه. فالباء بمعنى على. وجملة[1] لا برهان، صفة لازمة لإلٰهاً. كقوله: ﴿يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾ إذ لا يكون في الآلهة ما يجوز أن يقوم عليه برهان، إذ الباطل ليس له برهان. جيء بها للتأكيد وبناء الحكم عليها، تنبيهاً على أن الدين بما لا دليل عليه باطل، فكيف بما شهدت بداهة العقول بخلافه. وجواب الشرط قوله: ﴿فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ﴾ وجملة ﴿لا برهان له به﴾ معترضة بين الشرط والجزاء؛ أي: فإنما جزاؤه وعقابه على تلك الفعلة القبيحة، معد له عند ربه في الآخرة، مجاز له على قدر ما يستحقه. وقيل: إن جواب الشرط قوله: ﴿لا برهان له به﴾، على حذف فاء الجزاء، كقول الشاعر:

مَنْ يَفْعَلِ ٱلْحَسَنَاتِ ٱللَّهُ يَشْكُرُهَا

وجملة قوله: ﴿إِنَّهُۥ﴾؛ أي: إن الشأن والحال ﴿لَا يُفْلِحُ﴾ ولا يفوز ولا يسعد ﴿ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ بعبادة غير الله سبحانه معه، مستأنفة مسوقة لتعليل جواب الشرط؛ أي: وإنما كان عذابه مدخراً له في الآخرة؛ لأنه لا ينجو يومئذٍ من سوء الحساب وأليم العذاب.

---

(١) روح البيان.

وقرأ الحسن[1] وقتادة بفتح همزة أن من قوله: ﴿أنه لا يفلح﴾ على التعليل؛ أي: لا يفلح هو، فوضع الكافرون موضع الضمير، حملاً على معنى من؛ لأن من يدع في معنى الجمع. وقرأ الجمهور: بالكسر على الاستئناف. وقرأ الحسن: ﴿يفلح﴾ بفتح الياء واللام مضارع فلح بمعنى أفلح، ففعل وأفعل فيه بمعنى واحد.

والمعنى[2]: أي ومن يعبد مع ذلك المعبود، الذي لا تصلح العبادة إلا له، معبوداً آخر لا بينة له به، فجزاؤه مهيأ له عند ربه في الآخرة، وهو موفيه ما يستحقه من جزاء وعقاب. وفي ذلك من شديد التوبيخ والتقريع ما لا يخفى. ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾؛ أي: إنه سبحانه لا يسعد أهل الشرك، ولا ينجيهم من العذاب، وما ألطف افتتاح السورة بفلاح المؤمنين وختمها بخيبة الكافرين، وعدم فوزهم بما يؤملون. فانظر تفاوت ما بين الافتتاح والاختتام.

وبعد أن شرح أحوال الكافرين وجهلهم في الدنيا وعذابهم في الآخرة.. أمر رسوله بالانقطاع إليه والالتجاء إلى غفرانه ورحمته بقوله: ﴿وَقُل﴾ أيها الرسول ﴿رَّبِّ ٱغۡفِرۡ﴾.

وقرأ ابن محيصن ﴿رب﴾ بضم الباء؛ أي: يا رب استر ذنوبي بعفوك عنها ﴿وَٱرۡحَمۡ﴾؛ أي: وارحمني بقبول توبتي، وترك عقابي على ما اجترحت من آثام وأوزار. ﴿وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾؛ أي: وأنت ربنا خير من رحم ذا ذنب، فقبل توبته وتجاوز عن عقابه، إنك ربنا خير غافر، وإنك المتولي للسرائر، والمرجو لإصلاح الضمائر.

أخرج البخاري ومسلم والترمذي وابن حبان في جماعة عن أبي بكر أنه قال: يا رسول الله، علمني دعاء أدعو به في صلاتي. قال: «قل: اللهم إني ظلمت نفسي ظلماً كثيراً، وإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت، فاغفر لي مغفرة من عندك، وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم».

---

(١) البحر المحيط. (٢) المراغي.

واعلم: أنه سبحانه أمر[1] رسوله ﷺ، بالاستغفار والاسترحام، إيذاناً بأنهما من أهم الأمور الدينية، حيث أمر به، من غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر فكيف بمن عداه، كما قال: في «التأويلات النجمية» الخطاب مع محمد ﷺ يشير إلى أنه مع كمال محبوبيته، وغاية خصوصيته، ورتبة نبوته ورسالته محتاج إلى مغفرته ورحمته، فكيف بمن دونه وبمن يدعو مع الله إلٰهاً آخر؛ أي: فلا بدّ لأمته من الاقتداء به في هذا الدعاء. والله أعلم بأسرار كتابه.

الإعراب

﴿قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ ﴿٩٣﴾﴾.

﴿قُل﴾: فعل أمر وفاعل مستتر يعود على محمد، والجملة مستأنفة. ﴿إِمَّا تُرِيَنِّي﴾: إلى قوله: ﴿الظَّالِمِينَ﴾: مقول محكي. وإن شئت قلت: ﴿رَبِّ﴾: منادى مضاف إلى ياء المتكلم المحذوفة، وجملة النداء في محل النصب مقول ﴿قُل﴾. ﴿إِمَّا﴾: ﴿إن﴾: حرف شرط جازم. ﴿ما﴾: زائدة. ﴿تُرِيَنِّي﴾: فعل مضارع في محل الجزم بـ﴿إن﴾ الشرطية على كونها فعل شرط لها، مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة، وفاعله ضمير مستتر، يعود على الله، والنون للوقاية، وياء المتكلم في محل النصب مفعول أول له. و﴿مَا﴾: مفعول ثان له، فهي بصرية تعدت لمفعولين بواسطة الهمزة؛ لأنه من أرى الرباعي. ﴿يُوعَدُونَ﴾: فعل ونائب فاعل، والجملة صلة ﴿ما﴾ الموصولة، والعائد محذوف، تقديره: يوعدون به من العذاب.

﴿رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٩٤﴾﴾.

﴿رَبِّ﴾: منادى مضاف إلى ياء المتكلم المحذوفة، وكرر مبالغةً في التضرع والابتهال إلى الله سبحانه. ﴿فَلَا تَجْعَلْنِي﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿إن﴾ الشرطية وجوباً لكون الجواب جملة طلبية، (لا) دعائية جازمة. ﴿تَجْعَلْنِي﴾: فعل

---

(١) روح البيان.

مضارع وفاعل مستتر يعود على الله مجزوم بـ﴿لا﴾ الدعائية. والنون للوقاية، وياء المتكلم في محل النصب مفعول أول. ﴿فِي ٱلْقَوْمِ﴾: جار ومجرور في محل المفعول الثاني. و﴿فِي﴾: بمعنى مع ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾: صفة للقوم، والجملة الفعلية في محل الجزم بـ﴿إن﴾ الشرطية على كونها جواباً لها، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية: في محل النصب مقول لـ﴿قُل﴾.

﴿وَإِنَّا عَلَىٰٓ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَٰدِرُونَ ﴿٩٥﴾ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ ۚ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾﴾.

﴿وَإِنَّا﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿إنا﴾: ناصب واسمه. ﴿عَلَىٰٓ﴾: حرف جر. ﴿أَن﴾: خرف نصب ومصدر. ﴿نُّرِيَكَ﴾: فعل مضارع ومفعول أول، منصوب بـ﴿أَن﴾ المصدرية، وفاعله ضمير يعود على الله. ﴿مَا﴾: مفعول ثان ﴿لنرى﴾، وتقدم القول: في أرى البصرية آنفاً. ﴿نَعِدُهُمْ﴾: فعل مضارع ومفعول به وفاعله ضمير مستتر فيه، يعود على الله، والجملة صلة لـ﴿مَا﴾ الموصولة، والعائد محذوف، تقديره: ما نعدهم به. والجملة الفعلية صلة ﴿أَن﴾ المصدرية، أن مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بعلى، تقديره: على إراءتك ﴿مَا نَعِدُهُمْ﴾ الجار والمجرور متعلق بـ﴿قادرون﴾. ﴿لَقَٰدِرُونَ﴾: (اللام): لام الابتداء زحلقت إلى الخبر. ﴿قادرون﴾: خبر ﴿إنا﴾، وجملة ﴿إن﴾ مستأنفة. ﴿ٱدْفَعْ﴾: فعل أمر وفاعل مستتر على محمد، والجملة مستأنفة مسوقة لحث النبي ﷺ على الصفح عن مساءتهم. ﴿بِٱلَّتِى﴾: جار ومجرور متعلق بادفع. ﴿هِىَ أَحْسَنُ﴾: مبتدأ وخبر. والجملة صلة الموصول. ﴿ٱلسَّيِّئَةَ﴾: مفعول به. ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ﴾: مبتدأ وخبر. ﴿بِمَا﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿أَعْلَمُ﴾. ﴿يَصِفُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة ﴿مَا﴾ الموصولة، والعائد محذوف، تقديره: بما يصفونه. ويجوز أن تكون ما مصدرية؛ أي: بوصفهم لك، وسوء ذكرهم، والجملة الاسمية مستأنفة.

﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾﴾.

﴿وَقُل﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿قُل﴾: أمر وفاعل مستتر يعود على محمد.

والجملة معطوفة على جملة قل الأول. ﴿رَبِّ﴾: منادى مضاف إلى ياء المتكلم المحذوفة، وجملة النداء في محل النصب مقول ﴿قُل﴾. ﴿أَعُوذُ﴾: فعل مضارع وفاعله ضمير يعود على محمد. ﴿بِكَ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿أَعُوذُ﴾ والجملة الفعلية في محل النصب مقول ﴿قُل﴾ على كونها جواب النداء. ﴿مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿أَعُوذُ﴾، والجملة الفعلية معطوفة على جملة ﴿أَعُوذُ﴾ الأول. ﴿وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ﴾: منادى مضاف، كرر اعتناء بالاستعاذة. ﴿أَن يَحْضُرُونِ﴾: ﴿أَن﴾: حرف نصب ومصدر، ﴿يَحْضُرُونِ﴾: فعل مضارع منصوب بـ﴿أَن﴾ المصدرية، وعلامة نصبه حذف النون؛ لأنه من الأفعال الخمسة، و﴿الواو﴾: فاعل. و(النون): للوقاية، وياء المتكلم المحذوفة اجتزىء عنها بكسرة نون الوقاية ولرعاية الفاصلة، في محل النصب مفعول به، والجملة الفعلية في تأويل مصدر مجرور بحرف جر محذوف، تقديره: وأعوذ بك رب من حضورهم إياي.

﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ (٩٩) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ﴾.

﴿حَتَّىٰ﴾: حرف ابتداء لدخولها على الجملة التي تبدأ بها، وحرف غاية لكونها غاية لمحذوف. ﴿إذا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان. ﴿جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ﴾: فعل ومفعول وفاعل. والجملة الفعلية في محل الخفض، فبإضافة إذا إليها، على كونها فعل شرط لها. ﴿قَالَ﴾: فعل ماضٍ وفاعله ضمير مستتر يعود على الأحد، وجملة ﴿قَالَ﴾: جواب ﴿إذا﴾، لا محل لها من الإعراب. وجملة إذا في محل الجر بحتى الواقعة غاية لمحذوف، تقديره: ويستمر كفار مكة على التكذيب أو على الوصف المذكور إلى قول أحدهم رب ارجعون وقت مجيء الموت إياه، والجملة المحذوفة مستأنفة. ﴿رَبِّ﴾: منادى مضاف إلى ياء المتكلم المحذوفة، وجملة النداء في محل النصب مقول قال: ﴿ارْجِعُونِ﴾: فعل دعاء مبني على حذف النون، و﴿الواو﴾: فاعل، و(النون): للوقاية، وياء المتكلم المحذوفة، اجتزىء عنها بكسرة نون الوقاية، في محل النصب مفعول به.

والجملة الفعلية في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾ على كونها جواب النداء، وإنما جمع ضمير الفاعل في ﴿ٱرۡجِعُونِ﴾ مع كون المخاطب واحداً، وهو الله سبحانه للتعظيم. ﴿لَعَلِّيٓ﴾: ﴿لعل﴾: حرف نصب وترج. والياء: ضمير المتكلم في محل النصب اسمها. ﴿أَعۡمَلُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير مستتر، تقديره: أنا، ﴿صَٰلِحٗا﴾: مفعول به أو مفعول مطلق، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿لعل﴾، وجملة ﴿لعل﴾: في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾ على كونها جواب الطلب المذكور قبلها. ﴿فِيمَا﴾: جار ومجرور صفة لصالحاً؛ أي: صالحاً بدلاً عما تركت، أو متعلق بـ﴿أَعۡمَلُ﴾: ﴿تَرَكۡتُۚ﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة لـ﴿مَا﴾. والعائد محذوف، تقديره: فيما تركته.

﴿كَلَّآۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَاۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرۡزَخٌ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ﴾.

﴿كَلَّآۚ﴾: حرف ردع وزجر. ﴿إِنَّهَا﴾: ناصب واسمه. ﴿كَلِمَةٌ﴾: خبرها. ﴿هُوَ قَآئِلُهَاۖ﴾: مبتدأ وخبر. والجملة في محل الرفع صفة لـ﴿كَلِمَةٌ﴾. وجملة ﴿إن﴾: مستأنفة. ﴿وَمِن وَرَآئِهِم﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، خبر مقدم. ﴿بَرۡزَخٌ﴾: مبتدأ مؤخر. ﴿إِلَىٰ يَوۡمِ﴾: جار ومجرور صفة لـ﴿بَرۡزَخٌ﴾، والجملة الاسمية معطوفة على جملة ﴿إن﴾. ﴿يُبۡعَثُونَ﴾: فعل ونائب فاعل، والجملة في محل الجر مضاف إليه لـ﴿يَوۡمِ﴾؛ أي: إلى يوم بعثهم.

﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿١٠١﴾﴾.

﴿فَإِذَا﴾ ﴿الفاء﴾: استئنافية. ﴿إذا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان، ﴿نُفِخَ﴾: فعل ماض مغير الصيغة. ﴿فِي ٱلصُّورِ﴾: جار ومجرور في محل الرفع نائب فاعل، والجملة الفعلية في محل الجر مضاف إليه لـ﴿إذا﴾ على كونها فعل شرط لها، والظرف متعلق بما في الجواب من معنى النفي، وانتفى ذلك النسب وقت النفخ في الصور. ﴿فَلَآ﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿إذا﴾ الشرطية. ﴿لا﴾: نافية. ﴿أَنسَابَ﴾: في محل النصب اسمها. ﴿بَيۡنَهُمۡ﴾: ظرف ومضاف إليه، متعلق بمحذوف خبر ﴿لا﴾؛ أي: فلا أنساب كائنة بينهم، وجملة ﴿لا﴾ جواب ﴿إذا﴾، لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿إذا﴾ مستأنفة. ﴿يَوۡمَئِذٖ وَلَا

﴿يَتَسَآءَلُونَ﴾. ﴿يوم﴾: منصوب على الظرفية، وهو مضاف. ﴿إذا﴾: ظرف لما مضى من الزمان في محل الجر مضاف إليه. والتنوين عوض عن الجملة المحذوفة؛ أي: يوم إذ نفخ في الصور، والظرف متعلق بما تعلق به الظرف المذكور قبله، أو الأول: صفة لأنساب، والثاني: خبر لـ﴿لا﴾؛ أي: فلا أنساب كائنة بينهم في الدنيا، نافعة يومئذٍ. ﴿وَلَا﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿لا﴾: نافية. ﴿يَتَسَآءَلُونَ﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿لا﴾ النافية.

﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ ﴿١٠٤﴾﴾.

﴿فَمَن﴾: ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفت أنه لا أنساب بينهم يوم القيامة، وأردت بيان حالهم في ذلك اليوم، بالنسبة إلى الفلاح والخسران.. فأقول لك: ﴿من ثقلت﴾. ﴿من﴾: اسم شرط جازم في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الشرط، أو الجواب، أو هما. ﴿ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾: فعل وفاعل في محل الجزم بـ﴿من﴾ على كونه فعل شرط لها. ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿من﴾ الشرطية وجوباً. ﴿أولئك﴾: مبتدأ ﴿هُمُ﴾: ضمير فصل. ﴿ٱلْمُفْلِحُونَ﴾: خبره، والجملة الاسمية في محل الجزم بـ﴿من﴾ الشرطية على كونها جواباً لها، وجملة ﴿من﴾ الشرطية: في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة. ﴿وَمَنْ خَفَّتْ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿من﴾: اسم شرط في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الشرط أو الجواب. ﴿خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾: فعل وفاعل في محل الجزم بـ﴿من﴾ على كونه فعل شرط لها. ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿من﴾ الشرطية ﴿أولئك الذين﴾: مبتدأ وخبر، والجملة الاسمية في محل الجزم بـ﴿من﴾ الشرطية على كونها جواباً لها. وجملة ﴿من﴾ الشرطية في محل النصب، معطوفة على جملة ﴿من﴾ الأولى، على كونها، مقولاً لجواب إذا المقدرة. ﴿خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾: فعل وفاعل ومفعول صلة الموصول. ﴿فِى جَهَنَّمَ﴾: متعلق بـ﴿خَٰلِدُونَ﴾. ﴿خَٰلِدُونَ﴾: خبر مبتدأ محذوف، أو خبر بعد خبر. ﴿تَلْفَحُ﴾: فعل مضارع.

﴿وُجُوهَهُمُ﴾: مفعول به. ﴿ٱلنَّارُ﴾: فاعل، والجملة الفعلية إما مستأنفة، أو خبر ثان لـ﴿أولئك﴾، أو في محل النصب حال من فاعل ﴿خَسِرُوٓاْ﴾، ﴿وَهُمْ﴾: مبتدأ. ﴿فِيهَا﴾: متعلق بـ﴿ كَٰلِحُونَ﴾. ﴿ كَٰلِحُونَ﴾: خبر المبتدأ، والجملة في محل النصب حال من ضمير ﴿وُجُوهَهُمُ﴾.

﴿أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٠٥﴾﴾.

﴿أَلَمْ تَكُنْ﴾: الهمزة: الاستفهام التقريري. ﴿لم تكن﴾: جازم ومجزوم. ﴿ءَايَٰتِى﴾: اسم ﴿تَكُنْ﴾، وجملة ﴿تُتْلَىٰ﴾: خبرها. ﴿عَلَيْكُمْ﴾: متعلق بـ﴿تُتْلَىٰ﴾. وجملة ﴿تَكُنْ﴾ جملة إنشائية مستأنفة، لا محل لها من الإعراب. ﴿فَكُنتُم﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة. ﴿كنتم﴾: فعل ناقص واسمه. ﴿بِهَا﴾: متعلق بـ﴿تُكَذِّبُونَ﴾، وجملة ﴿تُكَذِّبُونَ﴾: خبر ﴿كان﴾: وجملة ﴿كان﴾ معطوفة على جملة ﴿أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى﴾.

﴿قَالُواْ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴿١٠٧﴾﴾.

﴿قَالُواْ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿رَبَّنَا﴾: منادى مضاف، وجملة النداء في محل النصب مقول ﴿قَالُواْ﴾. ﴿غَلَبَتْ﴾: فعل ماض. ﴿عَلَيْنَا﴾: متعلق به. ﴿شِقْوَتُنَا﴾: فاعل ومضاف إليه، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالُواْ﴾ على كونها جواب النداء. ﴿وَكُنَّا﴾: فعل ناقص واسمه معطوف على ﴿غَلَبَتْ﴾. ﴿قَوْمًا﴾: خبر ﴿كان﴾. ﴿ضَآلِّينَ﴾: صفة ﴿قَوْمًا﴾. ﴿رَبَّنَا﴾: منادى مضاف كرره للعناية به. ﴿أَخْرِجْنَا﴾: فعل دعاء ومفعول به، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالُواْ﴾. ﴿مِنْهَا﴾: متعلق بـ﴿أَخْرِجْنَا﴾. ﴿فَإِنْ عُدْنَا﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة. ﴿إن﴾: حرف شرط. ﴿عُدْنَا﴾: فعل وفاعل في محل الجزم بـ﴿إن﴾ الشرطية على كونها فعل شرط لها. ﴿فَإِنَّا﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿إن﴾ الشرطية وجوباً. ﴿إنا﴾: ناصب واسمه. ﴿ظَٰلِمُونَ﴾: خبره، والجملة الاسمية في محل الجزم بـ﴿إن﴾ الشرطية على كونها جواباً لها، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية في محل النصب معطوفة على جملة ﴿أَخْرِجْنَا﴾.

﴿قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾ إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّى أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١٠﴾﴾.

﴿قَالَ﴾: فعل ماض وفاعل مستتر يعود على الله، والجملة مستأنفة. ﴿اخْسَئُوا فِيهَا﴾ إلى قوله: ﴿هُمُ الْفَائِزُونَ﴾: مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿اخْسَئُوا﴾: فعل وفاعل. ﴿فِيهَا﴾: متعلق به، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿لا﴾: ناهية جازمة. ﴿تُكَلِّمُونِ﴾: فعل وفاعل مجزوم بـ﴿لا﴾ الناهية. و(النون): نون الوقاية، وياء المتكلم المحذوفة اجتزىء عنها بكسرة نون الوقاية، في محل النصب مفعول به، والجملة في محل النصب معطوفة على جملة ﴿اخْسَئُوا﴾. ﴿إِنَّهُ﴾: ناصب واسمه. ﴿كَانَ فَرِيقٌ﴾: فعل ناقص واسمه. ﴿مِنْ عِبَادِي﴾: جار ومجرور ومضاف إليه صفة لـ﴿فَرِيقٌ﴾، وجملة ﴿يَقُولُونَ﴾: في محل النصب خبر ﴿كَانَ﴾، وجملة ﴿كَانَ﴾: في محل الرفع خبر ﴿إن﴾ مستأنفة، مسوقة لتعليل النهي قبلها على كونها مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿رَبَّنَا﴾: منادى مضاف، وجملة النداء في محل النصب مقول ﴿يَقُولُونَ﴾. ﴿آمَنَّا﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل النصب مقول ﴿يَقُولُونَ﴾ على كونها جواب النداء. ﴿فَاغْفِرْ﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة تفريعية. ﴿اغفر﴾: فعل دعاء، وفاعله ضمير يعود على الله. والجملة معطوفة على جملة ﴿آمَنَّا﴾. ﴿لَنَا﴾: متعلق باغفر. ﴿وَارْحَمْنَا﴾: فعل وفاعل مستتر، ومفعول به معطوف على ﴿اغفر﴾. ﴿وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾: مبتدأ وخبر ومضاف إليه، والجملة الاسمية في محل النصب، حال من فاعل ﴿ارحمنا﴾. ﴿فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة تفريعية. ﴿اتخذتموهم﴾: فعل وفاعل ومفعول أول. و(الميم): علامة الجمع، و﴿الواو﴾: حرف زائد لإشباع ضمة الميم. ﴿سِخْرِيًّا﴾: مفعول ثان لـ﴿اتخذ﴾، والجملة معطوفة مفرعة على جملة ﴿يَقُولُونَ﴾ على كونها مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿حَتَّى﴾: حرف جر وغاية. ﴿أَنْسَوْكُمْ﴾: فعل ماض وفاعل ومفعول أول، في محل النصب بأن مضمرة بعد ﴿حَتَّى﴾ الجارة. ﴿ذِكْرِي﴾: مفعول ثان ومضاف إليه، والجملة الفعلية صلة أن المضمرة، ﴿أن﴾ مع صلتها في تأويل مصدر، مجرور بـ﴿حَتَّى﴾ بمعنى إلى،

الجار والمجرور متعلق بـ﴿اتخذتموهم﴾؛ أي: إلى إنساءهم إياكم ذكري. ﴿وَكُنتُم﴾: فعل ناقص واسمه ﴿مِنْهُمْ﴾: متعلق بـ﴿تَضْحَكُونَ﴾. وجملة ﴿تَضْحَكُونَ﴾: في محل النصب خبر ﴿كان﴾، وجملة ﴿كان﴾: في محل الجر معطوفة على جملة ﴿أَنسَوْكُمْ﴾ على كونها في تأويل مصدر مجرور بـ﴿حَتَّىٰ﴾.

﴿إِنِّي جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿١١١﴾ قَٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ ﴿١١٣﴾﴾.

﴿إِنِّي﴾: ناصب واسمه. ﴿جَزَيْتُهُمُ﴾: فعل وفاعل ومفعول أول. ﴿ٱلْيَوْمَ﴾: ظرف متعلق بـ﴿جَزَيْتُهُمُ﴾، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿إن﴾، وجملة ﴿إن﴾: مستأنفة. ﴿بِمَا﴾: (الباء): حرف جر وسبب. ﴿ما﴾: مصدرية. ﴿صَبَرُوٓا۟﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة ﴿ما﴾ المصدرية، ﴿ما﴾ مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بالباء، الجار والمجرور متعلق بـ﴿جزيت﴾؛ أي: جزيتهم بسبب صبرهم. ﴿أَنَّهُمْ﴾: ناصب واسمه. ﴿هُمُ﴾ للتأكيد ﴿ٱلْفَآئِزُونَ﴾: خبره، وجملة ﴿أن﴾ في تأويل مصدر منصوب على كونه مفعولاً ثانياً لـ﴿جزيت﴾؛ أي: جزيتهم فوزهم بسبب صبرهم. ﴿قَٰلَ﴾: فعل ماض وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة مستأنفة. ﴿كَمْ﴾: اسم استفهام في محل النصب على الظرفية الزمانية مبني على السكون، وهو متعلق بـ﴿لَبِثْتُمْ﴾. ﴿لَبِثْتُمْ﴾: فعل وفاعل. ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾: متعلق بـ﴿لبثتم﴾ أيضاً، أو بمحذوف حال من فاعل ﴿لَبِثْتُمْ﴾، ﴿عَدَدَ﴾: تمييز لـ﴿كم﴾، منصوب به. ﴿سِنِينَ﴾: مضاف إليه، وجملة ﴿لَبِثْتُمْ﴾: في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿قَالُوا۟﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿لَبِثْنَا﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالُوا۟﴾. ﴿يَوْمًا﴾: ظرف متعلق بـ﴿لَبِثْنَا﴾، ﴿أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾: معطوف على ﴿يَوْمًا﴾. ﴿فَسْـَٔلِ﴾: ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفت جوابنا وشكنا وجهلنا، وأردت بيان الحقيقة.. فنقول لك: ﴿اسأل العادين﴾. ﴿اسأل﴾ فعل أمر وفاعله ضمير يعود على الله. ﴿ٱلْعَآدِّينَ﴾: مفعول أول لـ﴿اسأل﴾، والثاني محذوف، تقديره: فاسأل العادين عددها، والجملة الفعلية في محل

النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة.

﴿قَٰلَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١٤﴾﴾.

﴿قَٰلَ﴾: فعل ماض وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة مستأنفة. ﴿إِن﴾: نافية. ﴿لَّبِثْتُمْ﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ. ﴿قَلِيلًا﴾: صفة لظرف محذوف، أو مصدر محذوف؛ أي: زمناً قليلاً أو لبثاً قليلاً. ﴿لَّوْ﴾: حرف شرط غير جازم وامتناع لامتناع. ﴿أَنَّكُمْ﴾: ناصب واسمه. ﴿كُنتُمْ﴾: فعل ناقص واسمه، وجملة ﴿تَعْلَمُونَ﴾: خبر ﴿كان﴾، ومفعول العلم محذوف، تقديره: مقدار ﴿لبثكم﴾، وجملة ﴿كان﴾: في محل الرفع خبر ﴿أن﴾، وجملة ﴿أن﴾: في تأويل مصدر مرفوع على الفاعلية لفعل محذوف، هو فعل شرط لـ﴿لَّوْ﴾، وجواب ﴿لَّوْ﴾ الشرطية محذوف، والتقدير: لو ثبت علمكم مقدار لبثكم في الطول.. لما أجبتم بهذه المدة القليلة، أعني لبثنا يوماً أو بعض يوم، وجملة ﴿لَّوْ﴾: في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾.

﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾﴾.

﴿أَفَحَسِبْتُمْ﴾: (الهمزة): للاستفهام الإنكاري التوبيخي، داخلة على محذوف. و﴿الفاء﴾: عاطفة على ذلك المحذوف، والتقدير: أغفلتم وظننتم من فرط غفلتكم أنما خلقناكم، والجملة المحذوفة مستأنفة. ﴿حسبتم﴾: فعل وفاعل، والجملة معطوفة على تلك المحذوفة. ﴿أَنَّمَا﴾: ﴿أن﴾: حرف نصب وتوكيد، ولكن بطل عملها لدخول ﴿ما﴾ الكافة عليها. ﴿ما﴾: كافة لكفها ما قبلها عن العمل فيما بعدها. ﴿خَلَقْنَٰكُمْ﴾: فعل وفاعل ومفعول به. ﴿عَبَثًا﴾: منصوب على الحالية من فاعل ﴿خَلَقْنَٰكُمْ﴾؛ أي: حالة كوننا ﴿عابثين﴾، أو منصوب على المصدرية؛ أي: خلقاً عبثاً، أو على أنه مفعول لأجله؛ أي: لأجل العبث، والجملة الفعلية في تأويل مصدر، ساد مسد مفعولي ﴿حسب﴾؛ أي: أغفلتم وظننتم حلقنا إياكم عبثاً. ﴿وَأَنَّكُمْ﴾: ناصب واسمه. ﴿إِلَيْنَا﴾: جار

ومجرور متعلق بـ﴿تُرْجَعُونَ﴾، وجملة ﴿لَا تُرْجَعُونَ﴾: في محل الرفع خبر ﴿أن﴾، وجملة ﴿أن﴾: في محل النصب معطوفة على جملة ﴿أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ﴾ على كونها في تأويل مصدر ساد مسد مفعولي ﴿حسب﴾؛ أي: وعدم رجوعكم إلينا.

﴿فَتَعَالَى اللَّهُ﴾: ﴿الفاء﴾: استئنافية. ﴿تعالى الله﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿الْمَلِكُ الْحَقُّ﴾: صفتان للجلالة. ﴿لا﴾: نافية. ﴿إِلَٰهَ﴾: اسمها. ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ، ﴿هُوَ﴾ في محل الرفع بدل من الضمير المستكن في خبر ﴿لَا﴾؛ أي: لا إلٰه موجود هو إلا هو سبحانه، وجملة ﴿لا﴾: في محل النصب حال من الجلالة في قوله: فتعالى الله. ﴿رَبُّ الْعَرْشِ﴾: صفة ثالثة ومضاف إليه. ﴿الْكَرِيمِ﴾: بالجر صفة للعرش، وبالرفع صفة للرب.

﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ ۚ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ (١١٧)﴾.

﴿وَمَن﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿مَن﴾: اسم شرط جازم في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الجواب، أو الشرط، أو هما على الخلاف المذكور في محله. ﴿يَدْعُ﴾: فعل مضارع مجزوم بـ﴿مَن﴾ على كونه فعل شرط لها، وجزمه حذف حرف العلة وفاعله ضمير يعود على ﴿مَن﴾. ﴿مَعَ اللَّهِ﴾: ظرف ومضاف إليه متعلق بيدع. ﴿إِلَٰهًا﴾: مفعول به ليدع. ﴿آخَرَ﴾: صفة أولى له، ﴿لا﴾: نافية للجنس. ﴿بُرْهَانَ﴾: في محل النصب اسمها. ﴿لَهُ﴾: جار ومجرور خبر ﴿لا﴾. ﴿بِهِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿بُرْهَانَ﴾. و(الباء) بمعنى على، أي لا برهان عليه كائن له. وجملة لا في محل النصب صفة ثانية لـ﴿إلٰهاً﴾، وهي صفة لازمة لا مفهوم لها. ﴿فَإِنَّمَا﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿من﴾ الشرطية. ﴿إنما﴾: أداة حصر. ﴿حِسَابُهُ﴾: مبتدأ ومضاف إليه. ﴿عِندَ رَبِّهِ﴾: خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل الجزم بـ﴿من﴾ الشرطية على كونها جواباً لها، وجملة ﴿من﴾ الشرطية: مستأنفة. ﴿إِنَّهُ﴾: ناصب واسمه، وجملة ﴿لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ في محل الرفع خبر ﴿إن﴾، وجملة ﴿إن﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿وَقُل رَّبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ (١١٨)﴾.

﴿وَقُل﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿قُل﴾: فعل أمر وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة مستأنفة. ﴿رَبِّ﴾: منادى مضاف إلى ياء المتكلم المحذوفة، وجملة النداء في محل النصب مقول قال. ﴿ٱغْفِرْ﴾: فعل دعاء وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة في محل النصب مقول لـ﴿قل﴾ على كونها جواب النداء. ﴿وَٱرْحَمْ﴾: معطوف على ﴿اغفر﴾. ﴿وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾: مبتدأ وخبر ومضاف إليه، والجملة في محل النصب حال من فاعل ﴿ارحم﴾، والله أعلم.

التصريف ومفردات اللغة

﴿هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾: جمع همزة،وهي النخسة والدفعة بيد أو بغيرها، والمهماز، مفعال من ذلك كالمحراث من الحرث، والهمَّاز الذي يعيب الناس، كأنه يدفع بلسانه، وينخس به. ا هـ. «سمين».

وفي «الأساس» و«اللسان» همز رأسه عصره، وهمز الجوزة بكفه، ومن المجاز همز الرجل في قفاه غمز بعينه، ورجل همزة وهماز، والشيطان يهمز الإنسان، يهمس في قلبه وسواساً، ويقال: أعوذ بالله من همسه وهمزه ولمزه.

وأعوذ بك من همزات الشيطان. وفي «المختار» وهمزات الشيطان: خطراته التي يخطرها بقلب الإنسان. ا هـ. وفي «البيضاوي» وأصل الهمز النخس. ومنه مهماز الرائض، شبه حثهم الناس على المعاصي، بهمز الرائض الدواب على المشي، والجمع للمرات، أو لتنوع الوساوس، أو لتعدد المضاف إليه. ا هـ. فلا يرد ما يقال: الهمزة الواحدة أيضاً ينبغي أن يتعوذ منها، فما وجه الجمع ا هـ «كرخي». قلت: مهماز الرائض: حديدة توضع في مؤخر الرحل ينخس بها الدابة لتسرع. ا هـ.

﴿كَلَّآ﴾: كلمة تستعمل للردع والزجر عن حصول ما يطلب. ﴿مِّن وَرَآئِهِم﴾؛ أي: من أمامهم. ﴿بَرْزَخٌ﴾؛ أي: حاجز بينهم وبين الرجعة؛ أي: حاجز يصدهم عن الرجوع إلى الدنيا، وهو المدة التي من حين الموت إلى البعث. وفي «السمين» البرزخ: الحاجز بين المتنافيين، وقيل: الحجاب بين الشيئين يمنع أن

يصل أحدهما إلى الآخر، وهو بمعنى الأول، وقال الراغب: أصله برزه بالهاء، فعرب، وهو في القيامة الحائل بين الإنسان وبين المنازل الرفيعة، والبرزخ قيل: هو الحائل بين الإنسان وبين الرجعة التي يتمناها ا هـ.

﴿فِي ٱلصُّورِ﴾: الصور واحدها صورة، نحو بسر وبسرة؛ أي: نفخت في الأجساد أرواحها. ﴿فَلَآ أَنسَابَ بَيۡنَهُمۡ﴾ جمع نسب، والنسب: القرابة بين اثنين فصاعداً؛ أي: اشتراك من جهة أحد الأبوين، وذلك ضربان: نسب بالطول، كالاشتراك بين الآباء والأبناء، ونسب بالعرض، كالنسب بين الأخوة وبني الأعمام، كما مر في مبحث التفسير.

﴿فَمَن ثَقُلَتۡ مَوَٰزِينُهُۥ﴾؛ أي: موزونات أعماله، فالموازين جمع موزون، ويجوز كونه جمع ميزان. وجمعه حينئذٍ مع وحدته لتعدد الموزون ا هـ «شهاب»؛ أي: ثقلت موازينه بالحسنات، بثقلها على السيئات، بأن تجسم وتصور بصور حسان، وتوضع في كفة الميزان اليمنى، التي على يمين العرش، أو خفت موازينه بالحسنات، بثقل السيئات عليها بسبب زيادتها على الحسنات، بأن تجسم السيئات وتصور بصور ظلمانية، وتوضع في كفة الميزان اليسرى، التي هي على يسار العرش ا هـ. «شيخنا».

﴿تَلۡفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ﴾؛ أي: تحرقها، واللفح: أشد النفخ؛ لأنه الإصابة بشدة، والنفح الإصابة مطلقاً، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَئِن مَّسَّتۡهُمۡ نَفۡحَةٞ مِّنۡ عَذَابِ رَبِّكَ﴾ وفي «القاموس» لفح يلفح من باب فتح فلاناً بالسيف ضربه به، ولفحت النار لفحاً ولفحاناً، أو السموم بحرها فلاناً، أصابت وجهه، وأحرقته ﴿كَٰلِحُونَ﴾؛ أي: عابسون، الكلوح أن تتقلص الشفتان، وتتشمرا عن الأسنان، كما ترى الرؤس المشوية.

وفي «المختار» الكلوح تكشر في عبوس، وبابه خضع. قلت: ومنه كلوح الأسد؛ أي: تكشيره عن أنيابه، ودهر كالح وبرد كالح؛ أي: شديد.

﴿غَلَبَتۡ عَلَيۡنَا شِقۡوَتُنَا﴾ أحد مصادر شقي. وفي «المختار» الشقاء والشقاوة بالفتح: ضد السعادة. وقرأ قتادة شقاوتنا بالكسر، وهي لغة، وقد شقي بالكسر

شقاء وشقاوة أيضاً. وأشقاه الله فهو شقي؛ أي: بين الشقوة. وفي «القاموس» وشرحه شقى يشقى من باب تعب شقاً، وشقاوة وشقاوة وشقوة وشقوة ضد سعد فهو شقي، والجمع أشقياء. والشقاوة سوء العاقبة.

﴿ٱخۡسَـُٔواْ﴾؛ أي: ذلوا فيها وانزجروا، كما تنزجر الكلاب إذا زجرت. وفي «الصحاح» خسأت الكلب وخسأ يتعدى بنفسه، ولا يتعدى. وفي «المختار» خسأ الكلب طرده، من باب قطع وخسأ هو بنفسه إذا خضع.

﴿سِخۡرِيًّا﴾ بضم السين وكسرها، أصله سخراً بضم السين وكسرها أيضاً، وزيدت فيه ياء النسب، للدلالة على المبالغة في قوة الفعل، وهو المسخرة. ا هـ. «شيخنا». وفي «السمين» وزيدت الياء للدلالة على قوة الفعل، فالسخرى أقوى من السخر، كما قيل في الخصوص: خصوصية دلالة على قوة ذلك. وفي «المصباح» سخرت منه سخراً من باب تعب هزئت به، والسخري بالكسر لغة فيه، والسخرة وزان غرفة ما سخرت من خادم، أو دابة بلا أجر، والسخرى بالضم بمعناه، وسخرته في العمل بالتثقيل استعملته مجاناً، وسخر الله الإبل ذللها وسهلها. ا هـ.

﴿كَمۡ لَبِثۡتُمۡ﴾ واللبث: الإقامة، ﴿ٱلۡعَآدِّينَ﴾ بتشديد الدال جمع عاد من عدّ الشيء يعده، بضم العين في المضارع إذا أحصاه وحبسه. والمراد هنا: الحفظة العادين لأعمال العباد وأعمارهم، كما مر.

﴿عَبَثٗا﴾: العبث بفتحتين: اللعب، وما لا فائدة فيه، وكل ما ليس فيه غرض صحيح، يقال: عبث يعبث عبثاً إذا خلط عمله بلعب، وأصله من قولهم: عبثت الأقط؛ أي: خلطته، والعبث طعام مخلوط، ومنه العوثباني لتمرٍ وسويق وسمن مختلط.

﴿ٱلۡحَقُّ﴾ الثابت الذي لا يبيد ولا يزول ملكه. وفي «البيضاوي» ﴿ٱلۡمَلِكُ ٱلۡحَقُّۖ﴾؛ أي: الذي يحق له الملك مطلقاً، فإن ما عداه مملوك بالذات، مالك بالعرض من وجه دون وجه، وفي حال دون حال. ا هـ.

و﴿ٱلْعَرْشِ﴾: هو مركز تدبير العالم، ووصفه بالكريم لشرفه، وكل ما شرف في جنسه يوصف بالكرم، كما في قوله: ﴿وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾﴾ وقوله: ﴿وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ وفي «أبي السعود» قوله: ﴿رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ﴾؛ أي: فكيف بما تحته وما أحاط به من المخلوقات، كائناً ما كان، ووصف بالكرم، إما لأنه ينزل منه الوحي الذي منه القرآن الكريم، أو الخير والبركة والرحمة، أو لنسبته إلى أكرم الأكرمين تعالى من حيث أنه أعظم مخلوقاته ا هـ.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: التأكيد بإن وباللام وباسمية الجملة في قوله: ﴿وَإِنَّا عَلَىٰٓ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَـٰدِرُونَ ﴿٩٥﴾﴾ لإنكار المخاطبين ذلك.

ومنها: الطباق المعنوي في قوله: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ﴾؛ لأن المعنى: ادفع بالحسنة السيئة، فهو طباق بالمعنى لا باللفظ.

وفي قوله أيضاً: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ من البلاغة العدول عن مقتضى السياق لسر بليغ، فالظاهر أن يقول ادفع بالحسنة السيئة، ولكنه عدل عن مقتضى الكلام لما فيه من التفصيل، والمعنى: ادفع السيئة بما أمكن من الإحسان، حتى إذا اجتمع الصفح والإحسان، وبذل الاستطاعة فيه كانت حسنة مضاعفة بإزاء سيئة.

ومنها: إعادة لفظ الرب في قوله: ﴿رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِى فِى ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٩٤﴾﴾ مبالغة في الابتهال والتضرع..

ومنها: الإظهار في مقام الإضمار في قوله: ﴿فَلَا تَجْعَلْنِى فِى ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ تسجيلاً عليهم باسم الظلم؛ لأن الأصل فلا تجعلني فيهم.

ومنها: إعادة كل من العامل والنداء في قوله: ﴿وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾﴾ مبالغةً وزيادة اعتناء بهذه الاستعاذة.

ومنها: الإتيان بضمير الجمع، مع كون المرجع المفرد المعظم المنزه في قوله: ﴿رَبِّ ٱرْجِعُونِ﴾ تعظيماً لله تعالى.

ومنها: جمع الضمير في قوله: ﴿مِّن وَرَآئِهِم﴾ مع عوده إلى الأحد، اعتباراً بالمعنى؛ لأنه في حكم كلهم، كما أن الإفراد في الضمائر الأول باعتبار اللفظ، ذكره «أبو السعود».

ومنها: المجاز المرسل في قوله: ﴿إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا﴾ حيث أطلق الكلمة على الجملة، وهو من إطلاق الجزء، وإرادة الكل.

ومنها: فن التنكيت في قوله: ﴿فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ﴾ فقد قصد بنفي الأنساب، وهي موجودة أمراً آخر لنكتة فيه، فإن الأنساب ثابتة لا يصح نفيها.

وقد كان العرب يتفاخرون بها في الدنيا، ولكنه جنح إلى نفيها، إما لأنها تلغو في الآخرة، إذ يقع التقاطع بينهم فيتفرقون معاقبين، أو مثابين، أو أنه قصد بالنفي صفة للأنساب محذوفة؛ أي: يعتد بها حيث تزول بالمرة، وتبطل لزوال التراحم والتعاطف، من فرط الحيرة، واستيلاء الدهشة عليهم.

ومنها: المقابلة اللطيفة بين ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ وبين ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾.

ومنها: الاستفهام التقريري في قوله: ﴿أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى﴾.

ومنها: جناس الاشتقاق في قوله: ﴿وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾.

ومنها: الإسناد المجازي في قوله: ﴿حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى﴾ حتى أنساكم استهزاؤهم ذكري، فهو من إسناد ما للشيء إلى صاحبه.

ومنها: الاستفهام التبكيتي الإلزامي في قوله: ﴿كَمْ لَبِثْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ والاستفهام التوبيخي في قوله: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ﴾.

ومنها: القصر في قوله: ﴿أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾.

ومنها: التعبير بالمضارع في قوله: ﴿وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ﴾ استحضاراً

للصورة الماضية.

ومنها: حذف جواب لو في قوله: ﴿لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ثقةً بدلالة ما سبق عليه.

ومنها: الإظهار في مقام الإضمار في قوله: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ للنداء عليه بهذا الوصف القبيح. وفيه أيضاً مراعاة معنى من؛ لأن الأصل إنه لا يفلح.

ومنها: تقديم المغفرة على الرحمة في قوله: ﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ﴾؛ لأن باب التخلية مقدم على باب التحلية.

ومنها: تفاوت ما بين الافتتاح والاختتام، حيث بدأ السورة بقوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١﴾، وأورد في خاتمتها أنه لا يفلح الكافرون. ذكره في «البحر».

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

خلاصة ما تضمنته هذه السورة من الحكم والأحكام والآداب

اشتملت هذه السورة على المقاصد التالية:

١ ـ فوز المؤمنين ذوي الصفات الفاضلة، بدخول الجنات خالدين فيها أبداً.

٢ ـ ذكر حال النشأة الأولى.

٣ ـ خلق السماوات السبع وإنزال المطر من السماء، وإنشاء الجنات من النخيل والأعناب، وذكر منافع الحيوان للإنسان.

٤ ـ قصص بعض الأنبياء، كنوح وشعيب وموسى وهارون وعيسى عليهم السلام، ثم أمرهم جميعاً بأكل الطيبات وعمل الصالحات.

٥ ـ أنه لا يكلف الله عباده، إلا بما فيه يسر وسماحة.

٦ ـ وصف ما يلقاه الكافرون من النكال والوبال يوم القيامة، وتأنيبهم على عدم الإيمان بالرسول، وتفنيد المعاذير التي اعتذروا بها.

٧ ـ ذكر ما أنعم به على عباده، من الحواس والمشاعر.

٨ ـ إنكار المشركين للبعث والجزاء، والحجاج على إثبات ذلك.

٩ ـ النعي على من أثبت الولد، والشريك لله تعالى.

١٠ ـ دعاء النبي ﷺ ربه أن لا يجعله في القوم الظالمين، حين عذابهم.

١١ ـ تعليم نبيه ﷺ الأدب في معاملة الناس، وأمره أن يدعوه بدفع همزات الشياطين عنه.

١٢ ـ طلب الكفار العودة إلى الدنيا، حين رؤية العذاب، لعلهم إذا عادوا عملوا صالحاً.

١٣ ـ وصف أهوال يوم القيامة، وبيان ما فيها من الشدائد.

١٤ ـ أوصاف السعداء والأشقياء.

١٥ ـ تأنيب الكافرين على طلبهم العودة إلى الدنيا، وزجرهم على هذا الطلب.

١٦ ـ سؤال المشركين عن مدة لبثهم في الدنيا، وبيان أنهم ينسون ذلك.

١٧ ـ النعي على من عبد مع الله إلهاً آخر.

وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين[١].

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

---

(١) قد تمّ تفسير سورة المؤمنون بعون الله تعالى، وتوفيقه، بتاريخ ٧/ ١٢/ ١٤١٢ هـ. وفي أوائل الليلة السابعة من شهر الله ذي الحجة من شهور سنة ألف وأربع مئة واثني عشرة سنة، من الهجرة النبوية، على صاحبها أفضل الصلاة، وأزكى التحية.

سورة النور

مدنية بالإجماع، كما في «القرطبي»، وهي[1] اثنتان أو أربع وستون آية، وألف وثلاث مئة وست عشر كلمة، وخمسة آلاف وتسع مئة وثمانون حرفاً.

ومن فضائلها[2]: ما روى أبو عبد الله الحاكم في «صحيحه»، وابن مردويه والبيهقي في «الشعب» عن عائشة مرفوعاً «لا تنزلوهن الغرف ولا تعلموهن الكتابة» يعني النساء «وعلموهن الغزل وسورة النور».

وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر والبيهقي عن مجاهد قال: قال رسول الله ﷺ: «علموا رجالكم سورة المائدة، وعلموا نسائكم سورة النور» وهو مرسل.

وأخرج أبو عبيد في فضائله عن حارثة بن مضرب قال: كتب إلينا عمر بن الخطاب، أن تعلموا سورة النساء والأحزاب والنور.

الناسخ والمنسوخ: قال أبو عبد الله[3] محمد بن حزم رحمه الله تعالى: جملة ما في سورة النور من المنسوخ سبع آيات:

أولاهن: قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَـٰدَةً أَبَدًاۚ﴾ الآية (٤) نسخت بقوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟﴾ (٥).

الآية الثانية: قوله تعالى: ﴿ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً﴾ (٣) هذه الآية من أعاجيب آيات القرآن، لأن لفظها لفظ الخبر، ومعناها: النهي، تقدير الكلام: ـ والله أعلم ـ لا تنكحوا زانيةً ولا مشركةً، ناسخها قوله تعالى: ﴿وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ﴾ الآية (٣٢) النور.

---

(١) المراح.
(٢) زاد المسير والشوكاني.
(٣) الناسخ والمنسوخ.

الآية الثالثة: قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنفُسُهُمْ﴾ الآية (٦) نسخها بالآيتين اللتين بعدها، وهما قوله تعالى: ﴿وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ۝٧﴾ (٧) وكذلك ﴿وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِن كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ ۝٩﴾ (٩).

الآية الرابعة: قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ﴾ الآية (٢٧) نسخت بقوله تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ﴾ الآية (٢٩).

الآية الخامسة: قوله تعالى: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ﴾ الآية (٣١) نسخ بعضها بقوله تعالى: ﴿وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ﴾ الآية.

الآية السادسة: قوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ﴾ الآية (٥٤). نسخها آية السيف.

الآية السابعة: قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ الآية (٥٨) نسخها بالآية التي تليها، وهي قوله تعالى: ﴿وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنكُمُ الْحُلُمَ﴾ الآية (٥٩) انتهى.

ومناسبة هذه السورة لما قبلها من وجهين:

١ ـ أنه قال في السورة السالفة: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ۝٥﴾ وذكر هنا أحكام من لم يحفظ فرجه من الزانية والزاني، وما اتصل بذلك من شأن القذف، وقصة الإفك، والأمر بغضّ البصر الذي هو داعية الزنا، وأمر من لم يقدر على النكاح بالاستعفاف، والنهي عن إكراه الفتيات على الزنا.

٢ ـ أنه تعالى لما قال فيما سلف أنه لم يخلق عبثاً، بل للأمر والنهي، ذكر هنا جملةً من الأوامر والنواهي. وتسميتها بسورة النور لذكر لفظ النور فيها.

والله أعلم

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١﴾ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ ۖ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۖ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ الزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ ۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٤﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ ۙ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٦﴾ وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٧﴾ وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ ۙ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٨﴾ وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِن كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾﴾.

المناسبة

مناسبة هذه السورة لما قبلها قد مرت قريباً: قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ...﴾ الآيتين، مناسبة هاتين الآيتين لما قبلهما: أن الله سبحانه[1] لما نفَّر من نكاح الزانيات، وإنكاح الزانين، وبين أن ذلك عمل لا يليق بالمؤمنين الذين أشربت قلوبهم حب الإيمان والتصديق برسله.. نهى هنا عن رمي المحصنات به، وشدد في عقوبته الدنيوية والأخروية، فجعل عقوبته في الدنيا الجلد، وأن لا تقبل له شهادة أبداً، فيكون ساقط الاعتبار في نظر الناس، ملغى القول، لا تسمع له كلمة، وجعل عقوبته في الآخرة العذاب المؤلم الموجع، إلا

(١) المراغي.

إذا تاب إلى الله، وأناب وأصلح أعماله، فإنه يزول عنه اسم الفسوق وتقبل شهادته.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَاءُ...﴾ الآيات، مناسبتها لما قبلها: أنه لما بين الله سبحانه حكم قاذف الأجنبيات بالزنا، وذكر أنه لا يعفى القاذف عن العقوبة، إلا إذا أتى بأربعة شهداء.. ذكر هنا ما هو في حكم الاستثناء من ذلك، وهو قذف الزوجات، فإن الزوج القاذف يعفى من الحد إذا شهد الشهادات المبينة في الآية؛ لأن في تكليف الزوج إحضار الزوج إعناتاً وإحراجاً، ولما يلحقه من الغيرة على أهله، ثم كظم الغيظ إذ لم يجد مخلصاً من ضيقه.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿الزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً...﴾ الآية، اختلف العلماء[1] في سبب نزول هذه الآية، فقال قوم: قدم المهاجرون المدينة وفيهم فقراء لا مال لهم، ولا عشائر، وفي المدينة نساء بغايا، هن أخصب أهل المدينة، فرغب ناس من فقراء المسلمين في نكاحهن، لينفقن عليهم، فاستأذنوا رسول الله ﷺ في ذلك فنزلت هذه الآية، فحرم على المؤمنين أن يتزوجوا تلك البغايا؛ لأنهن كن مشركات. وهذا قول مجاهد وعطاء وقتادة والزهري والشعبي ورواية عن ابن عباس.

وقال عكرمة: نزلت في نساءٍ كن بمكة والمدينة، لهن رايات يعرفن بها، منهن أم مهزول جارية السائب بن أبي السائب المخزومي، وكان في الجاهلية من ينكح الزانية يتخذها مأكلة، فأراد ناس من المسلمين نكاحهن على تلك الصفة، فاستأذن رجل رسول الله ﷺ في نكاح أم مهزول، واشترطت له أن تنفق عليه، فأنزل الله عز وجل هذه الآية.

---

(١) الخازن.

وروى عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: كان رجل يقال له: مرثد بن أبي مرثد الغنوي، وكان يحمل الأسارى من مكة حتى يأتي بهم المدينة، وكانت بمكة بغي، يقال لها: عناق، وكانت صديقة له في الجاهلية، فلما أتى مكة دعته عناق إلى نفسها، فقال مرثد: إن الله حرّم الزنا، قالت: فانكحني، فقال: حتى أسأل رسول الله ﷺ، قال: فأتيت النبي ﷺ فقلت: يا رسول الله أنكح عناقاً؟ فأمسك رسول الله ﷺ، فلم يرد شيئاً، فنزلت آية ﴿ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ﴾ فدعاني، فقرأها علي، وقال: «لا تنكحها». أخرجه الترمذي والنسائي وأبو داود، بألفاظ متقاربة المعنى.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمْ فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝٦ . . .﴾ الآيات، قال الإمام[1] البخاري رحمه الله تعالى في (ج ١/ ص ٦٤): حدثنا إسحاق، حدثنا محمد بن يوسف الفريابي، حدثنا الأوزاعي قال: حدثني الزهري عن سهل بن سعد، أن عويمراً أتى عاصم بن عدي، وكان سيد بني عجلان، فقال: كيف تقولون في رجل وجد مع امرأته رجلاً أيقتله فتقتلونه، أم كيف يصنع؟ سل لي رسول الله ﷺ عن ذلك، فأتى عاصم النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، فكره رسول الله ﷺ السائل، فسأله عويمر، فقال: إن رسول الله ﷺ كره المسائل، وعابها، قال عويمر: والله لا أنتهي حتى أسأل رسول الله ﷺ عن ذلك، فجاء عويمر فقال: يا رسول الله، رجل وجد مع امرأته رجلاً، أيقتله فتقتلونه أم كيف يصنع؟ فقال رسول الله: «قد أنزل الله القرآن فيك، وفي صاحبتك»، فأمره رسول الله ﷺ بالملاعنة بما سمى الله في كتابه، فلاعنها، ثم قال: يا رسول، إن حبستها فقد ظلمتها، فطلقها، فكانت سنة لمن كان بعدهما في المتلاعنين، ثم قال رسول الله ﷺ: «انظروا، فإن جاءت به أسحم، أدعج العينين، عظيم الإليتين، خدلج الساقين.. فلا أحسب عويمراً إلا قد صدق عليها. وإن جاءت به أحمر كأنه وحرة، فلا أحسب عويمراً إلا قد كذب عليها» فجاءت به على النعت الذي نعت به رسول الله ﷺ

(١) البخاري.

من تصديق عويمر، فكان بَعدُ ينسب إلى أمه. والحديث أخرجه أيضاً مسلم وأبو داود والنسائي وابن ماجه وأحمد ومالك والدارمي والدارقطني وابن جرير.

وأخرج البزار عن حذيفة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ لأبي بكر: «لو رأيت مع أم رومان رجلاً ما كانت فاعلاً به»؟ قال: كنت والله فاعلاً به شرّاً. «فأنت يا عمر»؟ قال: كنت والله قاتله، كنت أقول: لعن الله الأعجز، فإنه خبيث فنزلت: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمْ﴾.

وأخرج البخاري من طريق عكرمة عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أن هلال بن أمية قذف امرأته عند النبي ﷺ، فقال له النبي ﷺ: «البينة أو حد في ظهرك» فقال يا رسول الله، إذا رأى أحدنا مع امرأته رجلاً، ينطلق يلتمس البينة؟! فجعل النبي ﷺ يقول: «البينة أو حد في ظهرك»، فقال هلال: والذي بعثك بالحق إني لصادق، ولينزلن الله ما يبرىء ظهري من الحد، فنزل جبريل، فأنزل الله عليه: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ﴾ فقرأ حتى بلغ ﴿إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾.

وأخرجه أحمد بلفظ لما نزلت: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ﴾ فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة أبداً. قال سعد بن عبادة وهو سيد الأنصار: أهكذا نزلت يا رسول الله: «يا معشر الأنصار، ألا تسمعون ما يقول سيدكم»؟ قالوا: يا رسول الله لا تلمه، فإنه رجل غيور، والله ما تزوج امرأة قط فاجترأ رجل منا أن يتزوجها من شدة غيرته. فقال سعد: والله يا رسول الله، إني أعلم أنها حق، وأنها من الله، ولكني تعجبت أني لو وجدت لكاع قد تفخذها رجل، لم يكن لي أن أنحيه ولا أحركه حتى آتي بأربعة شهداء، فوالله لا أتي بهم حتى يقضي حاجته، قال: فما لبثوا إلا يسيراً حتى جاء هلال بن أمية، هو أحد الثلاثة الذين تيب عليهم، فجاء من أرضه عشاء، فوجد عند أهله رجلاً، فرأى بعينيه، وسمع بأُذنه فلم يهجه حتى أصبح، فغدا إلى رسول الله ﷺ، وقال له: إني جئت أهلي عشاء، فوجدت عندها رجلاً، فرأيت بعيني وسمعت بأذني، فكره رسول الله ﷺ ما جاء به، واشتد عليه، واجتمعت الأنصار، فقالوا: قد ابتلينا بما قال سعد بن عبادة: الآن يضرب رسول الله ﷺ هلال بن أمية، ويبطل شهادته في

الناس، فقال هلال: والله إني لأرجو أن يجعل الله لي منه مخرجاً، فوالله إن رسول الله ﷺ يريد أن يأمر بضربه، فأنزل الله عليه الوحي، فأمسكوا عنه حتى فرغ من الوحي، فنزلت: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ أَزۡوَٰجَهُمۡ...﴾ الآية.

وأخرج أبو يعلى مثله من حديث أنس، قال الحافظ ابن حجر: اختلف الأئمة في هذه المواضع، فمنهم من رجح أنها نزلت في شأن عويمر. ومنهم من رجح أنها نزلت في شأن هلال. ومنهم من جمع بينهما؛ بأن أول من وقع له ذلك هلال وصادق بمجيء عويمر أيضاً فنزلت في شأنهما معاً. وإلى هذا جنح النووي، وتبعه الخطيب، فقال: لعلهما اتفق لهما ذلك في وقت واحد. قال الحافظ ابن حجر: ويحتمل أن النزول سبق بسبب هلال، فلما جاء عويمر ولم يكن له علم بما وقع لهلال أعلمه النبي ﷺ بالحكم، ولذا قال في قصة هلال: فنزل جبريل، وفي قصة عويمر قد أنزل الله فيك، فيؤول قوله: قد أنزل الله فيك؛ أي: فيمن وقع له مثل ما وقع لك. وبهذا أجاب ابن الصباغ في «الشامل»، وجنح القرطبي إلى تجويز نزول الآية مرتين.

التفسير وأوجه القراءة

قال القرطبي: مقصود هذه السورة ذكر أحكام العفاف والستر وغيرها، من الأحكام الدينية المفصلة. ﴿سُورَةٌ﴾. قرأ الجمهور سورة بالرفع؛ أي: هذه الآيات الآتي ذكرها سورة أنزلناها، على أنه خبر مبتدأ محذوف، وجوزوا أن يكون مبتدأ خبره محذوف؛ أي: سورة أنزلناها فيما أوحينا إليك يا محمد أو فيما يتلى عليك. قال الزجاج: وهذا قبيح[1]؛ لأنها نكرة وإنما الرفع على إضمار هذه.

وقرأ عمر بن عبد العزيز ومجاهد وعيسى بن عمر الثقفي البصري وعيسى بن عمر الهمداني الكوفي وابن أبي عبلة وأبو حيوة ومحبوب عن أبي عمرو وأم الدرداء ﴿سُورَةً﴾ بالنصب بفعل محذوف يفسره المذكور بعده، فيكون من باب الاشتغال؛ أي: أنزلنا سورة أنزلناها، أو بفعل مقدر غير مفسر، تقديره: أتل

---

(١) زاد المسير.

سورة أنزلناها، أو اتبعوا سورة أنزلناها أو على الإغراء؛ أي: دونك سورة أنزلناها. قاله الزمخشري.

وسورة القرآن[1] طائفة منه محيطة بما فيها من الآيات والكلمات والعلوم والمعارف، مأخوذة من سور المدينة، وهو حائطها المشتمل عليها، وإنما أشير إليها في قولنا هذه سورة مع عدم سبق ذكرها؛ لأنها باعتبار كونها في شرف الذكر في حكم الحاضر المشاهد، والتنكير مفيد للفخامة من حيث الذات، كما في قوله: ﴿أَنزَلْنَٰهَا﴾: مفيد لها من حيث الصفة؛ أي: أنزلنا إليك من عالم القدس بواسطة جبريل، أو أعطيناكها أيها الرسول.

﴿وَفَرَضْنَٰهَا﴾: قرأ الجمهور بتخفيف الراء؛ أي: أوجبنا[2] ما فيها من الأحكام إيجاباً قطعياً، وألزمناكم العمل بها، فإن أصل الفرض قطع الشيء الصلب، والتأثير فيه، كقطع الحديد. وقيل معناه: قدرنا ما فيها من الحدود. وقيل: أوجبناها عليكم، وعلى من بعدكم إلى يوم القيامة، وفيه من الإيذان بغاية وكادة الفرضية ما لا يخفى.

وقرأ[3] عبد الله وعمر بن عبد العزيز ومجاهد وقتادة وأبو عمرو وابن كثير بتشديد الراء لتأكيد[4] الإيجاب، أو لكثرة الفرائض فيها، كالزنا والقذف واللعان والاستئذان وغض البصر وغير ذلك.

﴿وَأَنزَلْنَا فِيهَآ﴾؛ أي: في تضاعيف السورة وأثنائها ﴿ءَايَٰتٍ﴾ نيطت بها الأحكام المفروضة، كما هو الظاهر، لا جميع الآيات ﴿بَيِّنَٰتٍ﴾؛ أي: واضحات الدلالة على أحكامها المفروضة، لتكون لكم أيها المؤمنون قبساً ونبراساً. وقيل معنى: ﴿وَأَنزَلْنَا فِيهَآ ءَايَٰتٍ بَيِّنَٰتٍ﴾؛ أي: أمثالاً[5] ومواعظ وأحكاماً ليس فيها مشكل يحتاج إلى تأويل.

---

(١) روح البيان.
(٢) الخازن.
(٣) البحر المحيط.
(٤) أبو السعود.
(٥) البحر المحيط.

وفي «الشهاب» قال الإمام الرازي: ذكر الله في أول السورة أنواعاً من الأحكام والحدود، وفي آخرها دلائل التوحيد، فقوله: ﴿وَفَرَضْنَاهَا﴾ إشارة إلى الأحكام وقوله: ﴿وَأَنزَلْنَا فِيهَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾ إشارة إلى ما بين فيها من دلائل التوحيد ويؤيده قوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾. فإن الأحكام لم تكن معلومة حتى نؤمر بتذكرها.

وتكرير[1] أنزلناها مع استلزام إنزال السورة لإنزالها، لإبراز كمال العناية بشأنها، فكأنه يقول: ما أنزلتها عليكم لمجرد التلاوة، وإنما أنزلتها للعمل والتطبيق. ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾؛ أي: تتعظون فتتقون المحارم؛ أي: لكي تتعظوا، وتعتبروا بهذه الأحكام، وتعملوا بموجبها.

وقرأ حفص وحمزة والكسائي بتخفيف الذال[2]، وحذف إحدى التائين. والباقون بالتشديد. وفيه إيذان بأن حقها أن تكون على ذكر منهم، بحيث متى مست الحاجة إليها استحضروها.

والحاصل: أن الله سبحانه وتعالى[3] امتن على عباده بما أنزل عليهم في هذه السورة من الفرائض والأحكام، وفصله لهم من أدلة التوحيد وبيناته الواضحة، التي لا تقبل جدلاً، ليعدهم بذلك؛ لأن يتعظوا ويعملوا بما جاء فيها مما فيه سعادتهم في دنياهم وآخرتهم وفي صلاحهم، فإن في حفظ الفروج صيانة للأنساب، واطمئناناً على سلامتها مما يشوبها، كما أن فيه أمناً من حصول الضغائن والأحقاد، التي قد تجر إلى القتل، وارتكاب أفظع الجرائم بين الأفراد، وأمناً على الصحة، والبعد من الأمراض التي قد تودي بحياة المرء وتوقعه في أشد المصائب، وأعظم ألوان المهالك.

كما جاء فيها توثيق روابط المودة بين أفراد المجتمع، ففيها نظام دخول البيت للتزاور، وفيها حفظ الألسنة، وصونها عن الولوغ في الأعراض بما لا ينبغي أن يقال، حتى لا ينتشر الفحش بين الناس. وفيها تحذير للعباد من ذلك

---

(١) أبو السعود.

(٢) المراح.

(٣) المراغي.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

والخلاصة: أنه تعالى ذكر في أول السورة أنواعاً من الأحكام والحدود الشرعية، وفي آخرها الدلائل على وحدانيته وكامل قدرته. فأشار إلى الأول بقوله: ﴿وَفَرَضْنَٰهَا﴾ وإلى الثانية بقوله: ﴿وَأَنزَلْنَا فِيهَآ ءَايَٰتٍ بَيِّنَٰتٍ﴾ والفائدة في كل هذا اتقاء المحارم والبعد عنها، ومعرفة الله حق المعرفة، التي تجعل المرء يخضع لجلاله وعظيم سلطانه، ويشعر بأنه محاسب على كل ما يعمل من عمل قل أو كثر، فإذا تمّ له ذلك.. صلحت نظم الفرد ونظم المجتمع، وسادت السكينة والطمأنينة بين الناس.

مبحث في عقوبة الزنا

الزاني والزانية إما أن يكونا محصنين؛ أي: متزوجين، أو غير محصنين؛ أي: غير متزوجين. وعقوبة الزنا إما دنيوية، وإما أخروية. أما الدنيوية: فإن كان الزانيان محصنين، واستوفيا الشروط الآتية، وهي أن يكونا بالغين عاقلين، حرين متزوجين بعقد نكاح صحيح.. وجب رجمهما؛ أي: رميهما بالحجارة حتى يموتا. ويكون ذلك في حقل عام للمسلمين، ليعتبر بهما غيرهما. واعتبرت[1] الحنفية الإسلام أيضاً. وهو مردود برجمه ﷺ يهوديين، ولا يعارضه حديث «من أشرك بالله فليس بمحصن» إذ المراد بالمحصن فيه هو الذي يقتص له من المسلم، ولا رجم على الرقيق؛ لأنه لا ينتصف.

وقد ثبت هذا بالسنة المتواترة. ورواه الثقات عن النبي ﷺ. فقد رواه أبو بكر وعمر وعلي وجابر بن عبد الله وأبو سعيد الخدري وأبو هريرة وزيد بن خالد وبريدة الأسلمي مع آخرين من الصحابة. وجاء في رواياتهم: (أن رجلاً من الصحابة يسمى ماعزاً أقرّ بالزنا فرجم. وأن امرأتين من بني لخم وبني غامد أقرتا بالزنا فرجمتا على مشهد من الناس، ومرأى منهم).

---

(١) الخازن.

وإن كان الزانيان غير محصنين.. فالعقوبة مئة جلدة بمحضر جمع من المسلمين، كما بينته الآية، ليفتضح أمرهما، كما مر ذلك قريباً، والرقيق على النصف من ذلك.

وزاد الشافعي[1]: عليه تغريب الحر سنة، لقوله عليه الصلاة والسلام: «البكر بالبكر، جلد مئة وتغريب عام». وليس في الآية ما يدفعه لنسخ أحدهما بالآخر نسخاً مقبولاً، أو مردوداً. وله في العبد ثلاثة أقوال. وقال أبو حنيفة: التغريب إلى رأي الإمام. وقال مالك: يجلد الرجل مئة جلدة ويغرب. وتجلد المرأة ولا تغرب.

طريق إثبات الزنا

يثبت الزنا بأحد أمور ثلاثة:

١ ـ الإقرار به. وهذا هو الطريق الذي ثبت به الزنا في الإسلام، وبه أوقع النبي ﷺ وصحابته العقوبة على من زنى.

٢ ـ الحبل للمرأة بلا زوج معروف لها.

٣ ـ شهادة أربعة من الشهود يرونهما وهما متلبسان بالجريمة.

عقوبة الزنا الأخروية

تقدم بياننا المساوي والأضرار التي تنشأ من الزنا للأفراد والجماعات في الدنيا، وهنا نذكر حكمه الأخروي، فنقول: اتفقت الأمة على أن الزنا من أكبر الآثام، وأنه من الذنوب التي شدد الدين في تركها، وأغلظ في العقوبة على فعلها، وجاء فيه من النصوص ما لم يأت في غيره، مما حرم الله تعالى، فقد قرن بالشرك في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾﴾.

---

(١) البيضاوي.

وروي عن حذيفة بن اليمان: أن النبي ﷺ، قال: «يا معشر الناس، اتقوا الزنا، فإن فيه ست خصال، ثلاث في الدنيا، وثلاث في الآخرة، أما التي في الدنيا: فيذهب البهاء، ويورث الفقر، وينقص العمر. وأما التي في الآخرة: فسخط الله سبحانه وتعالى، وسوء الحساب، وعذاب النار».

وعن عبد الله بن مسعود قال: قلت: يا رسول الله، أي الذنب أعظم عند الله؟ قال: «أن تجعل لله نداً وهو خلقك». قلت: ثم أي: قال: «وأن تقتل ولدك خشية أن يأكل معك»، قلت: ثم أي: قال: «وأن تزني بحليلة جارك»، فأنزل الله تصديقها. ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقۡتُلُونَ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَلَا يَزۡنُونَۚ﴾. متفق عليه.

ثم شرع سبحانه في تفصيل ما أجمل من الآيات البينات، فقال: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي﴾ مبتدأ خبره جملة قوله: ﴿فَٱجۡلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا مِاْئَةَ جَلۡدَةٖۖ﴾ فأل فيهما موصولة بمعنى: التي، والذي. فلذلك ربط الخبر بالفاء، لما في المبتدأ من معنى الشرط، وهو العموم، والتقدير: التي زنت من النساء، والذي زنى من الرجال، وهما حران بالغان عاقلان غير محصنين بزوجين، فاجلدوا كلا منهما مئة جلدة، عقوبة له على ما أتى من معصية الله.

والزاني[١]: من وطىء المرأة من غير عقد شرعي، ولا شبهة.

والزانية: هي المرأة المطاوعة للزنى الممكنة منه، كما تبنىء عنه الصيغة. لا المزنية كرها. وكذلك الزاني، والخطاب في هذه الآية للأئمة ومن قام مقامهم، وقيل: للمسلمين أجمعين.

فإن قلت: لم قدمت[٢] المرأة في آية حد الزنا، وأخرت في آية حد السرقة؟

قلت: إن الزنا إنما يتولد بشهوة الوقاع، وهي في المرأة أقوى وأكثر،

---

(١) روح البيان. (٢) الفتوحات بتصرف.

ولكون الداعية فيها أوفر، ولولا تمكينها منه لم يقع، والسرقة إنما تتولد من الجسارة والقوة والجرأة، وهي في الرجل أقوى وأكثر، كما مرّ في المائدة.

والجلد[1]: الضرب بالجلد، وهو بكسر الجيم قشر البدن. يقال: جلده إذا ضرب جلده، مثل بطنه إذا ضرب بطنه، ورأسه إذا ضرب رأسه. وقالت الحنفية: وهذا دليل على أن التغريب ليس بمشروع؛ لأن الفاء إنما يدخل على الجزاء، وهو اسم للكافي. والتغريب المروي منسوخ بالآية، كما نسخ الحبس والأذى في قوله: ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ﴾ وقوله: ﴿فَآذُوهُمَا﴾ بهذه الآية. ذكره النسفي في تفسيره.

تنبيه: وكان[2] هذا الحكم عامّاً في المحصن وغيره، وقد نسخ في المحصن قطعاً بالقرآن المنسوخ لفظه الباقي حكمه، وهو: ﴿الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما ألبتة نكالاً من الله والله عزيز حكيم﴾ وبالسنة المتواترة، وبإجماع أهل العلم. ويكفينا في حق الناسخ القطع بأنه عليه السلام قد رجم ماعزاً وغيره، فيكون من باب نسخ الكتاب بالكتاب، وبالسنة المشهورة. فحد المحصن الرجم، وحد غير المحصن الجلد.

وشرائط الإحصان في باب الرجم ستة عند أبي حنيفة، كما مرّ: الإسلام، والحرية، والعقل، والبلوغ، والنكاح الصحيح، والدخول. فلا إحصان عند فقد واحدة منها. وفي باب القذف: الأربع الأول والعفة.

فمعنى قولهم: حدّ الزنا رجم محصن؛ أي: مسلم حر عاقل بالغ متزوج ذي دخول. ومعنى قولهم: من قذف محصناً؛ أي: مسلماً حراً عاقلاً بالغاً عفيفاً، وإذا فقدت واحدة منها فلا إحصان.

وقرأ الجمهور[3]: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي﴾ بالرفع، وعبد الله ﴿والزان﴾ بغير ياء. وقرأ عيسى الثقفي ويحيى بن يعمر وعمرو بن فائد وأبو جعفر وشيبة وأبو السمال

---

(١) الشوكاني.
(٢) روح البيان بزيادة.
(٣) البحر المحيط.

ورويس ﴿الزانيةَ والزاني﴾ بنصبهما على الاشتغال؛ أي: واجلدوا الزانية والزاني، كقولك زيداً فاضربه، ولدخول الفاء هنا وفي أمثاله تقرير ذكر في علم النحو، والنصب هنا أحسن منه في ﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا﴾ لأجل الأمر.

وقال أبو حيان: وقد تضمنت[1] هذه السورة أحكاماً كثيرةً فيما يتعلق بالزنا، ونكاح الزناة، وقذف المحصنات، والتلاعن والحجاب وغير ذلك، فبدىء بالزنا لقبحه، وما يحدث عنه من المفاسد والعار، وكان قد نشأ في العرب وصار من إمائهم أصحاب رايات.

﴿وَلَا تَأْخُذْكُم﴾ أيها المسلمون ﴿بِهِمَا﴾؛ أي: بالزانية والزاني ﴿رَأْفَةٌ﴾؛ أي: رحمة ورقة، وقيل: الرأفة في دفع المكروه، والرحمة في إيصال المحبوب. كما في «النسفي». وتنكيرها للتقليل؛ أي[2]: لا يأخذكم شيء قليل من الرحمة والشفقة عليهما ﴿فِي دِينِ اللَّهِ﴾ سبحانه؛ أي: في طاعته وإقامة حده، فتعطلوه أو تسامحوا فيه بعدم الإيجاع ضرباً، والتكميل حدّاً، ولذلك قال عليه السلام: «لو سرقت فاطمة بنت محمد لقطعت يدها». وذلك أن المضروب يفعل أثناء الضرب أفعالاً غريبة، ويتضرع ويستغيث، ويسترحم، وربما يغشى عليه، فيرأف به الإمام، أو الضارب أو بعض الحاضرين، لا سيما إذا كان أحب الناس إليه، كالولد والأخ مثلاً، فلا يستوفي حد الله وحقه، ولا يكمل جلده مئة بل ينقصه بترك شيء منها، أو بتخفيف الضرب، فنهاهم الله سبحانه عن ذلك. وفيه تنبيه على أن الله تعالى إذا أوجب أمراً قبح استعمال الرحمة فيه.

وفي الحديث: «يؤتى بوالٍ نقَّص من حدٍ سوطاً، فيقال: لم نقصت؟ فيقول: رحمة لعبادك، فيقال له: أنت أرحم مني، انطلقوا به إلى النار، ويؤتى بمن زاد سوطاً. فيقال: لم زدت؟ فيقول: لينتهوا عن معاصيك، فيقال له: أنت أحكم مني فيؤمر به إلى النار».

قال في «الأسئلة المقحمة»: إن الله تعالى نهى عن الرأفة والرحمة، وعلى

---

(١) البحر المحيط. (٢) روح البيان.

هذا، إن وجدنا واحداً بقلبه إشفاق على أخيه المسلم حيث وقع في المعصية هل يؤاخذ بها؟ والجواب: أنه لم يرد الرأفة الجبلية والرحمة الغريزية، فإنها لا تدخل تحت التكليف، وإنما أراد بذلك الرأفة التي تمنع عن إقامة حدود الله،وتفضي إلى تعطيل أحكام الشرع، فهي منهي عنها.

قال في «بحر العلوم»: وفيه دلالة على أن المخاطبين يجب عليهم أن يجتهدوا في حد الزنى، ولا يخففوا الضرب بل يوجعوها ضرباً، وكذلك حق القذف عند الزهري، لا حدّ الشرب، وعن قتادة يخفف في حدّ الشرب والقذف، ويجتهد في حدّ الزنى.

وقرأ الجمهور ﴿وَلَا تَأۡخُذۡكُم﴾ بالتاء لتأنيث لفظ الرأفة. وقرأ أبو عبد الرحمٰن[1] السلمي وأبو رزين والضحاك وابن يعمر والأعمش ﴿يأخذكم﴾ بالياء. وقرأ الجمهور: نافع وأبو عمرو وابن عامر وعاصم وحمزة والكسائي ﴿رَأۡفَةٌ﴾ بسكون الهمزة بوزن رحمة. وقرأ أبو المتوكل ومجاهد وأبو عمران الجوني وابن كثير ﴿رأفة﴾ بفتح الهمزة وقصرها على وزن رعفة. وقرأ سعيد بن جبير والضحاك وأبو رجاء العطاردي ﴿رأفة﴾ بفتح الهمزة ومدها على وزن سآمة وكآبة، وكلها مصادر أشهرها الأول.

فصل

واختلف[2] العلماء في شدة الضرب في الحدود، فقال الحسن البصري: ضرب الزنا أشد من القذف، والقذف أشد من الشرب، وضرب الشارب أشد من ضرب التعزير، وعلى هذا مذهب أصحابنا. وقال أبو حنيفة: التعزير أشد الضرب. وضرب الزنا أشد من ضرب الشارب، وضرب الشارب أشد من ضرب القذف. وقال: مالك: الضرب في الحدود كلها سواء غير مبرح.

---

(١) زاد المسير.

(٢) زاد المسير.

فأما ما يضرب من الأعضاء: فنقل الميموني عن أحمد في جلد الزاني، قال: يجرد ويعطى كل عضو حقه، ولا يضرب وجهه ولا رأسه، ونقل يعقوب بن بختان لا يضرب الرأس ولا الوجه ولا المذاكير، وهو قول أبي حنيفة. وقال مالك: لا يضرب إلا في الظهر. وقال الشافعي: يتقى الفرج والوجه. وكيفية الضرب: أن يكون[١] بسوط لين له رأس واحدة، ويجرد الرجل من ثيابه إلا من إزار كما سيأتي. والمرأة مما يقيها ألم الضرب، وتوضع في قفة فيها تراب للستر.

والخلاصة: ولا تأخذكم[٢] بهما رحمة ورقة في تنفيذ حكم الله تعالى؛ فتعطلوا الحدود، أو تخففوا الضرب، بل الواجب عليكم أن تتصلبوا في دين الله، ولا يأخذكم اللين والهوادة في استيفاء الحدود، وكفى برسول الله ﷺ أسوة لكم في ذلك، إذ قال: «لو سرقت فاطمة بنت محمد لقطعت يدها». ﴿إِن كُنتُمْ﴾ أيها المسلمون ﴿تُؤْمِنُونَ﴾ وتصدقون ﴿بِٱللَّهِ﴾ ربكم ﴿وَ﴾ بأنكم تبعثون للحشر في ﴿ٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾؛ أي: يوم القيامة، وتجازون بالثواب والعقاب، فإن من كان مصدّقاً بذلك لا يخالف أمر الله ونهيه، خوف عقابه على معاصيه. وفي هذا[٣] تهييج وتحريض والتهاب الغضب لله، ولدينه ولتنفيذ حدوده، وإقامة شريعته. فإن الإيمان بهما يقتضي الجد في طاعته، والاجتهاد في إجراء الأحكام.

قال الجنيد ـ رحمه الله ـ: الشفقة على المخالفين، كالإعراض عن الموافقين، وذكر اليوم الآخر؛ لتذكر ما فيه من العقاب في مقابلة المسامحة، والتعطيل. وإنما سمى يوم القيامة اليوم الآخر؛ لأنه لا يكون بعده ليل فيصير كله بمنزلة يوم واحد. وقد قيل: إنه تجتمع الأنوار كلها، وتصير في الجنة يوماً واحداً، وتجتمع الظلمات كلها وتصير في النار ليلة واحدة.

﴿وَلْيَشْهَدْ﴾؛ أي: وليحضر وجوباً نظراً لظاهر الأمر، لكن الفقهاء قالوا

---

(١) الصاوي.
(٢) المراغي.
(٣) روح البيان.

بالاستحباب ﴿عَذَابَهُمَا﴾؛ أي: حدهما إذا أقيم عليهما ﴿طَآئِفَةٌ﴾؛ أي: جماعة ﴿مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ يحصل بهما التشهير لأمرهما، أقلهم ثلاثة، وأكثرهم عشرة فما فوقها، فإنهما إذا جلدا بمحضر من الناس كان ذلك أبلغ في زجرهما، وأنجع في ردعهما، والزيادة في تأنيبهما على ما فعلا.

والطائفة[1]: الفرقة التي تكون حافة حول الشيء من الطوف، أقل الطائفة ثلاثة، وقيل: اثنان، وقيل: واحد، وقيل: أربعة، وقيل: عشرة.

تنبيه: فحد غير المحصن[2]: جلد مئة وسطاً بسوط لا ثمرة له، ويجلد الرجل قائماً وينزع عنه ثيابه إلا إزاره، ويفرق على بدنه إلا رأسه ووجهه. وتجلد المرأة قاعدةً لا ينزع من ثيابها إلا الحشو والفرو، وجاز الحفر لها، لا له. ولا يجمع بين جلد ورجم، ولا بين جلد ونفي إلا سياسة، ويرجم مريض زنى، ولا يجلد حتى يبرأ، وحامل زنت ترجم حين وضعت، وتجلد بعد النفاس، وللعبد والأمة نصفها، ولا يحدهما سيدهما إلا بإذن الإمام خلافاً للشافعي.

وفي الحديث: «إقامة حدّ بأرض، خير لأهلها من مطر أربعين ليلة» واعلم أن الزنا حرام وكبيرة، وقد تقدم ما فيه من المساوي والإضرار، ومن الزنى زنى النظر، والنظرة سهم مسموم من سهام إبليس اللعين.

ثم ذكر سبحانه شيئاً يختص بالزاني والزانية، فقال: ﴿ٱلزَّانِى﴾؛ أي: الرجل الذي زنى، وقد تقدم حدّ الزنا، بأنه وطء الرجل للمرأة في فرجها، من غير نكاح ولا شبهة نكاح، وقيل: هو إيلاج فرج في فرج مشتهى طبعاً محرماً شرعاً. ﴿لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً﴾؛ أي[3]: الخبيث الذي من شأنه الزنا، لا يرغب في نكاح الصوالح من النساء ولا يتزوجها، وإنما يرغب في خبيثة من شكله، أو في مشركة. ﴿وَٱلزَّانِيَةُ﴾؛ أي: والمرأة التي طاوعت الزنا، ومكنت منه؛ أي: والخبيثة التي من شأنها الزنا ﴿لَا يَنكِحُهَآ﴾؛ أي: لا يتزوجها ﴿إلا زان﴾ مثلها ﴿أو

---

(١) الشوكاني.
(٢) روح البيان.
(٣) النسفي.

مشرك﴾؛ أي: لا يرغب في نكاحها الصلحاء من الرجال، وإنما يرغب في نكاحها وتزوجها من هو من شكلها من الفسقة، أو المشركين؛ أي: إنما يتزوجها من هو مثلها، أو أخس منها.

وهذا حكم[1] مؤسس على الغالب المعتاد، جيء به لزجر المؤمنين عن نكاح الزواني، بعد زجرهم عن الزنا بهن، يعني الغالب أن المائل إلى الزنا والتقحب لا يرغب في نكاح الصوالح من النساء، وإنما يرغب في نكاح فاسقة من شكله، أو مشركة، والمسافحة لا يرغب في نكاحها الصلحاء من الرجال، وينفرون عنها، وإنما يرغب فيها فاسق مثلها، أو مشرك. فإن المشاكلة سبب الائتلاف والاجتماع، كما أن المخالفة سبب الوحشة والافتراق. فالآية تزهد في نكاح البغايا، إذ الزنا عديل الشرك في القبح، والإيمان قرين العفاف والتحصن، وهذا نظير قوله تعالى: ﴿الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ﴾ وقيل: كان نكاح الزانية محرماً في أول الإسلام، ثم نسخ بقوله: ﴿وَأَنكِحُوا الْأَيَامَىٰ مِنكُمْ﴾.

وقدم الزاني على الزانية في هذه الآية عكس ما تقدم؛ لأن الرجل في النكاح من حيث إنه هو الطالب، ومنه تبدأ الخطبة؛ ولأن الآية نزلت في فقراء المهاجرين الذين رغبوا في نكاح موسرات كن بالمدينة من بغايا المشركين، لينفقن عليهم من أكسابهن على عادة الجاهلية.

والمعنى[2]: أن الفاسق الفاجر الذي من شأنه الزنا والفسق، لا يرغب في نكاح الصوالح من النساء، وإنما يرغب في فاسقة خبيثة، أو في مشركة مثله، والفاسقة المستهترة لا يرغب في نكاحها الصالحون من الرجال، بل ينفرون منها، وإنما يرغب فيها من هو من جنسها من الفسقة، ولقد قالوا في أمثالهم: إن الطيور على أشكالها تقع.

ولا شك أن هذا حكم الأعم الأغلب، كما يقال: لا يفعل الخير إلا الرجل التقي، وقد يفعل الخير من ليس بتقي، فكذا هذا، فإن الزاني قد ينكح

---

(١) روح البيان. (٢) المراغي.

المؤمنة العفيفة، والزانية قد ينكحها المؤمن العفيف.

قال ابن جرير الطبري: (١٨/ ٧٥) وأولى الأقوال[١] في ذلك عندي بالصواب، قول من قال: عني بالنكاح في هذا الموضع الوطء، وأن الآية نزلت في البغايا المشركات ذوات الرايات، وذلك لقيام الحجة على أن الزانية من المسلمات حرام على كل مشرك، وأن الزاني من المسلمين حرام عليه كل مشركة من عبدة الأوثان. فمعلوم إذ كان ذلك كذلك أنه لم يعن بالآية أن الزاني من المؤمنين لا يعقد عقد نكاح على عفيفة من المسلمات، لا ينكح إلا بزانية أو مشركة، وإذاكان ذلك كذلك، فبين أن معنى الآية: الزاني لا يزني إلا بزانية، لا تستحل الزنا، أو بمشركة تستحله.

قال ابن كثير: ومن[٢] ها هنا ذهب الإمام أحمد ابن حنبل ـ رحمه الله ـ إلى أنه لا يصح العقد من الرجل العفيف على المرأة البغي ما دامت كذلك حتى تستتاب، فإن تابت صح العقد عليها وإلا فلا، وكذلك لا يصح تزويج المرأة الحرة العفيفة بالرجل الفاجر المسافح، حتى يتوب توبة صحيحة، لقوله تعالى: ﴿وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

وقد اختلف[٣] في جواز تزوج الرجل بامرأة قد زنى هو بها، فقال الشافعي وأبو حنيفة: بجواز ذلك، وروي عن ابن عباس وروي عن عمر وابن مسعود وجابر أنه لا يجوز. قال ابن مسعود: إذا زنى الرجل بالمرأة ثم نكحها بعد ذلك، فهما زانيان أبداً وبه قال مالك.

وقال الزمخشري: فإن قلت[٤]: أي فرق بين معنى الجملة الأولى، أعني قوله: ﴿ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً﴾ ومعنى الجملة الثانية، أعني قوله: ﴿وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ﴾؟

قلت: معنى الأولى وصف الزاني بكونه غير راغب في العفائف، ولكن في

---

(١) الطبري.

(٢) ابن كثير.

(٣) الشوكاني.

(٤) الكشاف.

الفواجر. ومعنى الثانية، وصف الزانية بكونها غير مرغوب فيها للأعفاء، ولكن للزناة. وهما معنيان مختلفان.

وعن عمرو بن عبيد ﴿لَا يَنكِحْ﴾ بالجزم على النهي، والمرفوع فيه معنى النهي. ولكن هو أبلغ وآكد، كما أن رحمك على ذلك، وعلى المؤمن أن لا يدخل نفسه تحت هذه العادة، ويتصون عنها، انتهى.

﴿وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ﴾؛ أي: نكاح الزواني والمشركات. وقيل: الضمير يعود للزنا. قاله الفراء. ذكره ابن الجوزي. ﴿عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ لما فيه من التشبه بالفسقة، والتعرض للتهمة، والتسبب بسوء المقالة، والطعن في النسب، وغير ذلك من المفاسد اللاتي لا تكاد تليق بأحد من الأداني والأراذل، فضلاً عن المؤمنين، ولذلك عبر عن كراهة التنزيه بالتحريم مبالغة في الزجر. والحكم إما مخصوص بسبب النزول، أو منسوخ بقوله تعالى: ﴿وَأَنكِحُواْ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ﴾ فإنه متناول للمسافحات. وبقوله: ﴿فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم﴾ ويؤيده ما روي أنه عليه الصلاة والسلام سئل عن ذلك فقال: «أوله سفاح وآخره نكاح» والحرام لا يحرم الحلال.

وفي الآية إشارة إلى الحذر عن أخدان السوء، والحث على مخالطة أهل الصحبة والأخدان في الله تعالى، فإن الطبع من الطبع يسرق، والمقارنة مؤثرة، والأمراض سارية. وفي الحديث: «لا تسكنوا مع المشركين، ولا تجامعوهم، فمن ساكنهم أو جامعهم فهو منهم وليس منا»؛ أي: لا تسكنوا مع المشركين في المسكن الواحد، ولا تجامعوا معهم في المجلس الواحد، حتى لا تسري إليكم أخلاقهم، وسيرهم القبيحة بحكم المقارنة، وللناس أشكال، وكل يطير بشكله، وكل مساكن مثله، كما قال قائلهم:

عَنِ ٱلْمَرْءِ لاَ تَسْأَلْ وَأَبْصِرْ قَرِيْنَهُ ... فَإِنَّ ٱلْقَرِيْنَ بِٱلْمُقَارَنِ يَقْتَدِيْ

فأما أهل الفساد فالفساد يجمعهم، وإن تناءت ديارهم، أما أهل السداد، فالسداد يجمعهم وإن تباعد مزارهم، ومن بلاغات الزمخشري «لا ترض لمجالستك إلا أهل مجانستك»؛ أي: لا ترض أن تكون جليس أحد من غير

جنسك، فإنه العذاب الشديد ليس إلا. وجاء في مسائل الفقه أن من رأى نصرانية سمينة أو جميلة فتمنى أن يكون نصرانياً ليتزوجها كفر، فعلى العاقل أن يصون نفسه بقدر الإمكان، فإن الله تعالى غيور ينبغي أن يخاف منه كل آنٍ.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ﴾ مشدداً مبنياً للمفعول. وقرأ أبو البرهشيم: ﴿وحرم ذلك﴾ مبنياً للفاعل؛ أي: حرم الله ذلك. وقرأ زيد بن علي ﴿وحرم ذلك﴾ بفتح الحاء وضم الراء مخففة. وقرأ أبيّ بن كعب وأبو المتكل وأبو الجوزاء ﴿وحرم الله ذلك﴾ بزيادة اسم الله عز وجل مع فتح حروف حرم كلها.

والمعنى: أي إن نكاح المؤمن المتسم بالصلاح الزانية، ورغبته فيها، واندماجه في سلك الفسقة المشهورين بالزنا، محرم عليه، لما فيه من التشبه بالفساق، ومن حضور مواضع الفسق والفجور، التي قد تسبب له سوء القالة، واغتياب الناس له، وكم في مجالسه الفساق من التعرض لاقتراف الآثام فما بالك بمزاوجة الزواني والفجار.

وجاء في الخبر: «من حام حول الحمى، يوشك أن يقع فيه».

مبحث حكم قذف غير الزوجة من النساء

﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ﴾؛ أي: يشتمون ويقذفون ﴿الْمُحْصَنَاتِ﴾؛ أي: الحرائر المكلفات العفيفات، من حرائر المسلمين فيرمونهن بالزنا، وظاهر قوله: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ﴾ الذكور، ولكن حكم الراميات كحكمهم. ﴿ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا﴾ إلى الحكام على ما رموهن به من ذلك ﴿بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ﴾ ذكور عدول، يشهدون بأنهم رأوهن يفعلن ذلك ﴿فَاجْلِدُوهُمْ﴾؛ أي: فاضربوا أيها الحكام أولئك القاذفين ﴿ثَمَانِينَ جَلْدَةً﴾؛ أي: ضربة، جزاء لهم على ما فعلوا من ثلم العرض، وهتك الستر دون أن يكون ذلك بوجه الحق لظهور كذبهم بعجزهم عن الإتيان بالشهداء.

---

(١) زاد المسير.

والمراد بالمحصنات هنا[1]: الأجنبيات؛ لأن رمي الأزواج؛ أي: النساء الداخلات تحت نكاح الرامين حكمه سيأتي، وتخصيص المحصنات لشيوع الرمي فيهن، وإلا فقذف الذكر والأنثى سواء في الحكم المذكور.

وبيان حكم الآية[2]: أن من قذف محصناً، أو محصنة بالزنا، فقال له أو لها: يا زاني أو يا زانية، أو زنيت، أو يا ابن الزاني، يا ابن الزانية، أو يا ولد الزنى، أو لست لأبيك، ويا ابن فلان.. فيجب عليه جلد ثمانين إن كان القاذف حرّاً، وإن كان عبداً يجلد أربعين، وإن كان المقذوف غير محصن فعلى القاذف التعزير. وأجمعوا على أن شرائط إحصان القذف خمسة: الحرية والبلوغ والعقل والإسلام والعفة من الزنا، حتى لو زنى في عمره مرة واحدة، ثم تاب وحسنت توبته بعد ذلك، ثم قذفه قاذف، فلا حدّ عليه، فإن أقر المقذوف على نفسه بالزنا، أو أقام القاذف أربعة شهود يشهدون عليه بالزنا، سقط الحد عن القاذف؛ لأن الحد إنما وجب عليه لأجل الفرية وقد ثبت صدقه.

وأما الكنايات في القذف، مثل أن يقول: يا فاسق، أو يا فاجر، أو يا خبيث، أو يا مؤاجر، أو يقول امرأتي لا ترد يد لامس، فهذا ونحوه لا يكون قذفاً إلا إذا أراد بذلك القذف. وأما التعريض، مثل أن يقول: أما أنا فما زنيت، أو ليست امرأتي زانية، فليس بقذف عند الشافعي وأبي حنيفة. وقال مالك: يجب فيه الحد. وقال أحمد: هو قذف في حال الغضب، دون حال الرضا.

والقذف[3] بغير الزنا مثل أن يقول: يا شارب الخمر، يا آكل الربا يا نصراني، يا يهودي، يا مجوسي، فيوجب التعزير، كقذف غير المحصن. وأكثر التعزير تسعة وثلاثون سوطاً وأقله ثلاثة؛ لأن التعزير ينبغي أن لا يبلغ أقل الحد أربعين جلدة وهي حدّ العبيد في القذف والزنا.

والفرق بين التعزير والحد: أن الحد مقدر، والتعزير مفوض إلى رأي

---

(١) روح البيان.

(٢) الخازن.

(٣) روح البيان.

الإمام، وأن الحد يندرىء بالشبهات دونه، وأن الحد لا يجب على الصبي، والتعزير شرع فيه، والحد يطلق على الذمي إن كان مقدراً، والتعزير لا يطلق عليه، لأن التعزير شرع للتطهير والكافر ليس من أهل التطهير. وإنما يسمى في حق أهل الذمة إذا كان غير مقدر عقوبةً، وإن التقاوم يسقط الحد دون التعزير، وإن التعزير حق العبد كسائر حقوقه، يجوز فيه الإبراء والعفو والشهادة على الشهادة، ويجري فيه اليمين، ولا يجوز شيء منها في الحد.

وفي كلمة[1] ﴿ثم﴾ في قوله: ﴿ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ﴾ إشعار بجواز تأخيره الإتيان بالشهود، وفي كلمة ﴿لم﴾ إشارة إلى العجز عن الإتيان بهم، ولا بدّ من اجتماع الشهود عند الأداء عند أبي حنيفة ـ رحمه الله ـ؛ أي: الواجب أن يحضروا في مجلس واحد.

وإن جاؤوا متفرقين كانوا قذفة، وفي قوله: ﴿بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ﴾ دلالة على أنهم إن شهدوا ثلاثة يجب حدهم لعدم النصاب، وكذا إن شهدوا عمياناً، أو محدودين في قذف، أو أحدهم محدود، أو عبد لعدم أهلية الشهادة.

وانتصاب ثمانين كانتصاب المصادر، ونصب جلدة على التمييز، كما سيأتي في مبحث الإعراب. أي: اضربوا كل واحد من الرامين ثمانين ضربة، إن كان القاذف حرّاً، وأربعين إن كان رقيقاً، كما مرّ، لظهور كذبهم وافترائهم بعجزهم عن الإتيان بالشهداء، كما سبق.

وقوله: ﴿وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً﴾ عطف[2] على ﴿اجلدوا﴾ داخل في حكمه تتمة له لما فيه من معنى الزجر؛ لأنه مؤلم للقلب، كما أن الجلد مؤلم للبدن وقد آذى المقذوف بلسانه فعوقب بإهدار منافعه جزاء وفاقاً؛ أي: فاجمعوا لهم بين الأمرين الجلد وترك قبول الشهادة؛ لأنهم قد صاروا بالقذف غير عدول، بل فسقة كما حكم الله به عليهم في آخر هذه الآية. ذكره الشوكاني.

---

(١) روح البيان.

(٢) روح البيان.

وفائدتها: تخصيص الرد بشهادتهم الناشئة عن أهليتهم الثابتة لهم عند الرمي، وهو السر في قبول شهادة الكافر المحدود في القذف بعد التوبة والإسلام؛ لأنها ليست ناشئة عن أهليته السابقة، بل أهليته لها حدثت بعد إسلامه، فلا يتناولها الرد.

والمعنى: لا تقبلوا من القاذفين شهادةً من الشهادات حال كونها حاصلة لهم عند القذف ﴿أَبَدًا﴾؛ أي[1]: ما داموا مصرين على عدم التوبة، وهذا هو المراد بالأبدية بدليل الاستثناء الآتي، وهذا على مذهب الإمام الشافعي ومالك، من رد الاستثناء إلى الجملتين، وأما على مذهب أبي حنيفة من رده إلى الأخير فقط.. فالمراد بالأبد مدة حياتهم، وإن تابوا وأصلحوا.

﴿وَأُولَٰٓئِكَ﴾ القاذفون ﴿هُمُ﴾ لا غيرهم ﴿ٱلْفَٰسِقُونَ﴾؛ أي: المحكوم عليهم بالفسق؛ أي: الكاملون في الفسق، والخروج عن الطاعة، والتجاوز عن الحدود. قال في «الكبير»: يفيد أن القذف من الكبائر؛ لأن الفسق لا يقع إلا على صاحبه.

والمعنى: أي[2] وأولئك هم الخارجون عن طاعة ربهم، إذ أنهم فسقوا عن أمره، وارتكبوا كبيرة من الكبائر، باتهامهم المحصنات الغافلات المؤمنات كذباً وبهتاناً، وهم إن كانوا صادقين فقد هتكوا ستر المؤمنات، وأوقعوا السامعين في شك من أمرهن دون أن يكون في ذلك فائدة دينية ولا دنيوية، وقد أمرنا بستر العرض إذا لم يكن في ذلك مصلحة في الدين.

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟﴾ ورجعوا عما قالوا، وندموا على ما تكلموا. ﴿مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾؛ أي: من بعد ما اقترفوا ذلك الذنب العظيم، والقذف الذميم، ﴿وَأَصْلَحُوا۟﴾ أعمالهم بالتدارك، ومنه الاستسلام لحد، والاستحلال من المقذوف.

وقد[3] اختلف في هذا الاستثناء، أيعود إلى الجملة الأخيرة فقط، وهي

---

(١) الفتوحات.
(٢) المراغي.
(٣) المراغي.

جملة الحكم عليهم بالفسق، فترفع التوبة الفسق فقط، ويبقى مردود الشهادة أبداً، وإن تاب، وإلى هذا ذهب من السلف القاضي شريح وسعيد بن جبير وأبو حنيفة، أم يعود إلى الجملتين الأخيرتين الثانية، وهي جملة عدم قبول الشهادة والثالثة هي جملة الحكم عليهم بالفسق، وعليه فتقبل شهادته ويرفع عنه حكم الفسق؛ لأن سبب ردها، وهو ما كان متصفاً به من الفسق بسبب القذف قد زال بالتوبة بالإجماع، فتكون شهادته مقبولة، وعلى هذا القول جمهور العلماء، منهم سعيد بن المسيب وجماعة من السلف، وهو رأي مالك والشافعي وأحمد، وهذا[1] هو القول الحق الراجح؛ لأن تخصيص التقييد بالجملة الأخيرة دون ما قبلها، مع كون الكلام واحداً في واقعة شرعية من متكلم واحد خلاف ما تقتضيه لغة العرب، وهذا الاختلاف بعد اتفاقهم على أن الاستثناء لا يعود إلى جملة الجلد، بل يجلد التائب كالمصر.

وقد اختلف العلماء في صورة توبة القاذف، فقال عمر بن الخطاب والشعبي والضحاك وأهل المدينة: إن توبته لا تكون إلا بأن يكذب نفسه في ذلك القذف الذي وقع منه، وأقيم عليه الحد بسببه، وقالت فرقة منهم مالك وغيره: أن توبته تكون بأن يحسن حاله ويصلح عمله، ويندم على ما فرط منه، ويستغفر الله من ذلك، ويعزم على ترك العود إلى مثله، وإن لم يكذب نفسه، ولا رجع عن قوله، ويؤيد هذا القول الآيات والأحاديث الواردة في التوبة، فإنها مطلقة غير مقيدة بمثل هذا القيد.

وأجمعت الأمة على أن التوبة تمحو الذنب، ولو كان كفراً، فتمحو ما هو دون الكفر بالأولى، هكذا حكى الإجماع القرطبي.

وجملة قوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ تعليل لما تضمنه الاستثناء من عدم المؤاخذة للقاذف بعد التوبة وصيرورته مغفوراً له، مرحوماً من الرحمٰن الرحيم، غير فاسق ولا مردود الشهادة، ولا مرفوع العدالة، كأنه قيل: فحينئذٍ لا يؤاخذهم

---

(١) الشوكاني.

الله سبحانه بما فرط منهم، ولا ينظمهم في سلك الفاسقين؛ لأنه مبالغ في المغفرة والرحمة؛ أي: فإن الله ستار لذنوبهم التي أقدموا عليها، بعد أن تابوا عنها، رحيم بهم، فيزيل عنهم ذلك العار، الذي لحقهم بعدم قبول شهادتهم ووسمهم بميسم الفسوق الذي وصفوا به.

وفي الآية[1]: إشارة إلى غاية كرم الله تعالى، ورحمته على عباده، بأن يستر عليهم ما أراد بعضهم إظهاره على بعض، وإن لم يظهر صدق أحدهما أو كذبه، ولتأديبهم أوجب عليهم الحد، ورد قبول شهادتهم أبداً، وسماهم الفاسقين، وليتصفوا بصفاته الستارية والكريمية والرحيمية فيما يسترون عيوب إخوانهم المؤمنين. ولا يتبعوا عوراتهم.

حكم قذف الرجل زوجه

ثم بعد أن ذكر سبحانه حكم قذف المحصنات على العموم ذكر حكم نوع من أنواع القذف، وهو قذف الزوج للمرأة التي تحته بعقد النكاح، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ أَزۡوَٰجَهُمۡ﴾؛ أي: والأزواج الذين يقذفون زوجاتهم بالزنا، ﴿وَلَمۡ يَكُن لَّهُمۡ شُهَدَآءُ﴾ يشهدون لهم بصحة ما قذفوهن به من الفاحشة ﴿إِلَّآ أَنفُسُهُمۡ فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمۡ أَرۡبَعُ شَهَٰدَٰتِۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾؛ أي: فعلى كل منهم أن يشهد أربع شهادات بالله على أنه صادق فيما رماها به من الزنا، فجملة: ﴿إنه لمن الصادقين﴾، هي المشهود به، وأصله (على أنه)، فحذف الجار وكسرت إن وعلق العامل عنها.

﴿و﴾ الشهادة ﴿الخامسة﴾ للأربع المتقدمة؛ أي: الجاعلة لها خمساً بانضمامها إليهن، وهي مبتدأ خبره قوله: ﴿أَنَّ لَعۡنَتَ ٱللَّهِ﴾ سبحانه، وطرده من رحمته في الدنيا والآخرة ﴿عَلَيۡهِ﴾؛ أي: على الملاعن ﴿إِن كَانَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾ فيما رماها به من الزنا، فإذا لاعن الرجل.. حبست الزوجة حتى تعترف فترجم، أو تلاعن.

---

(١) روح البيان.

وفي «الفتوحات»[1] قوله: ﴿أَزْوَٰجَهُمْ﴾ جمع زوج بمعنى الزوجة، فإن حذف التاء منها أفصح من إثباتها، إلا في الفرائض، ولم يقيدها بالمحصنات، إشارة إلى أن اللعان يشرع في قذف المحصنة وغيرها، فهو في قذف المحصنة يسقط الحد عن الزوج، وفي قذف غيرها يسقط التعزير، كأن كانت ذمية أو أمة، أو صغيرة تحتمل الوطء بخلاف الصغيرة التي لا تحتمله، وبخلاف قذف الكبيرة التي ثبت زناها ببينة أو إقرار، فإن الواجب في قذفها التعزير، لكنه لا يلاعن لدفعه كما في كتب الفروع.

وقوله: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَآءُ﴾ لا مفهوم لهذا القيد، فإنه يلاعن ولو كان واجداً للشهود الذين يشهودن بزناها، وعبارة «المنهج مع شرحه»: ويلاعن ولو مع إمكان بينة بزناها؛ لأنه حجة كالبينة، وصدنا عن الأخذ بظاهر قوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمْ﴾ من اشتراط تعذر البينة الإجماع، فالآية مؤولة بأن يقال: فإن لم يرغب في البينة فيلاعن، كقوله تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ﴾، على أن هذا القيد خرج على سبب، وسبب الآية: كان الزوج فيه فاقداً للبينة، وشرط العمل بالمفهوم أن لا يخرج القيد على سبب فيلاعن مطلقاً لنفي الولد ولدفع العقوبة حداً أو تعزيراً. ا هـ.

وصورة قذفها بأن يقول لها[2]: يا زانية أو زنيت، أو رأيتك تزني. قال في «بحر العلوم»: إذا قال: يا زانية، وهما محصنان، فردت بلا بل أنت حدت؛ لأنها قذفت الزوج، وقذفه إياها لا يوجب الحد بل اللعان، وما لم ترفع القاذف إلى الإمام لم يجب اللعان.

وقرأ الجمهور[3]: ﴿بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ﴾ بإضافة أربعة إلى شهداء. وقرأ أبو زرعة وعبد الله بن مسلم ﴿بأربعة﴾ بالتنوين، وهي قراءة فصيحة؛ لأنه إذا اجتمع اسم العدد والصفة، كان الاتباع أجود من الإضافية، ولذلك رجح ابن جني هذه

---

(١) الجمل.
(٢) روح البيان.
(٣) البحر المحيط.

القراءة على قراءة الجمهور، من حيث أخذ مطلق الصفة، وليس كذلك؛ لأن الصفة إذا جرت مجرى الأسماء وباشرتها العوامل جرت في العدد وفي غيره مجرى الأسماء، فتكون الإضافة فيها أرجح من الاتباع.

وقرأ الجمهور: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمْ﴾ بالياء وهو الفصيح؛ لأنه إذا كان العامل مفرغاً لما بعد إلا، وهو مؤنث، فالفصيح أن يقول: ما قام إلا هند. وقرأ أبو المتوكل وابن يعمر والنخعي ﴿تكن﴾ بالتاء الفوقية. وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو وابن عامر وأبو بكر عن عاصم ﴿أَرْبَعَ شَهَٰدَٰتٍ﴾ بفتح العين بالنصب على المصدرية، وارتفع فشهادة على كونه خبراً لمحذوف؛ أي: فالحكم أو الواجب شهادة أحدهم، أو على كونه مبتدأ خبره محذوف؛ أي: فشهادة أحدهم كافية، أو واجبة، أو فعليهم شهادة أحدهم، وبالله من صلة شهادات. ويجوز أن يكون من صلة فشهادة. قاله ابن عطية. وقال الزجاج: من رفع ﴿أربع﴾ فالمعنى: فشهادة أحدهم التي تدرأ حداً لقذف أربع. ومن نصب فالمعنى: فعليهم أن يشهد أحدهم أربع. ا هـ.

وقرأ الأخوان - حمزة والكسائي - وحفص والحسن وقتادة والزعفراني وابن مقسم وأبو حيوة وابن أبي عبلة وأبو بحرية وأبان وابن سعدان ﴿أربع﴾ بالرفع خبراً للمبتدأ. وهو فشهادة. وبالله من صلة شهادات على هذه القراءة. ولا يجوز أن يتعلق، بـ﴿فشهادة﴾ للفصل بين المصدر ومعموله بحرف الجر. ولا يجوز ذلك. وقرأ الجمهور: ﴿وَٱلْخَٰمِسَةُ﴾ بالرفع في الموضعين. وقرأ طلحة والسلمي والحسن وقتادة والأعمش وخالد بن أياس ويقال: ابن الياس بالنصب فيهما. وقرأ حفص والزعفراني بنصب الثانية دون الأولى. فالرفع على الابتداء، وما بعده الخبر. ومن نصب الأولى فعطف على أربع في قراءة من نصب أربع. وعلى إضمار فعل يدل عليه المعنى في قراءة من رفع أربع؛ أي: وتشهد الخامسة. ومن نصب الثانية فعطف على أربع. وعلى قراءة النصب في الخامسة يكون أن بعده على إسقاط حرف الجر؛ أي: بأن. وجوز أن يكون أن وما بعده بدلاً من الخامسة.

وقرأ نافع: ﴿أن لعنة﴾ بتخفيف أن، ورفع لعنة. و﴿أن غضب﴾، بتخفيف

أن، وغضب فعل ماض، والجلالة بعد مرفوعة، وهي أن المخففة من الثقيلة لما خففت حذف اسمها وهو ضمير الشأن. وقرأ أبورجاء وقتادة وعيسى وسلام وعمرو بن ميمون والأعرج ويعقوب بخلاف عنهما. والحسن ﴿أن لعنة﴾ كقراءة نافع، و﴿أن غضب﴾ بتخفيف أن وغضب مصدر مرفوع وما بعده خبره. وهي أن المخففة من الثقيلة. وقرأ باقي السبعة: ﴿أن لعنة الله﴾، و﴿أن غضب الله﴾ بتشديد أن ونصب ما بعدها اسماً لها، وخبرها ما بعدها. قال ابن عطية: وأن الخفيفة على قراءة نافع في قوله: ﴿أن غضب﴾ قد وليها الفعل. قال أبو علي: وأهل العربية يستقبحون أن يليها الفعل، إلا أن يفصل بينهما وبينه بشيء، نحو قوله: ﴿عَلِمَ أَن سَيَكُونُ﴾. وقوله: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ﴾.

فصل في بيان حكم الآية

واعلم: أن الرجل إذا قذف[1] امرأته فموجبه موجب قذف الأجنبية، وجوب الحد عليه إن كانت محصنة، أو التعزير إن كانت غير محصنة، غير أن المخرج منهما مختلف، فإذا قذف أجنبياً أو أجنبية يقام عليه الحد، إلا أن يأتي بأربعة يشهدون بالزنا، أو يقر المقذوف بالزنا، فيسقط عنه الحد. وفي الزوجة إذا وجد أحد هذين، أو لاعن، سقط عنه الحد. فاللعان في قذف الزوجة بمنزلة البينة؛ لأن الرجل إذا رأى مع امرأته رجلاً، ربما لا يمكنه إقامة البينة، ولا يمكنه الصبر على العار، فجعل الله اللعان حجة له على صدقه. فقال تعالى: ﴿فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَٰدَٰتٍ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾. وإذا أقام الزوج بينة على زناها، أو اعترفت هي بالزنا.. سقط عنه الحد واللعان إلا أن يكون هناك ولد يريد نفيه، فله أن يلاعن لنفيه، وإذا أراد الإمام أن يلاعن بينهما.. بدأ بالرجل فيقيمه، ويلقنه كلمات اللعان، فيقول: قل: أشهد بالله إني لمن الصادقين فيما رميت به زوجتي فلانة من الزنا، وإن كان قد رماها برجل بعينه.. سماه في اللعان، ويقول كما يلقنه الإمام، وإن كان ولد أو حمل يريد نفيه، يقول: وإن هذا الولد، أو هذا الحمل لَمِنَ الزنا، ما هو مني، ويقول في الخامسة: علي لعنة

---

(١) الخازن.

الله إن كنت من الكاذبين فيما رميت به فلانة، وإذا أتى بكلمة من كلمات اللعان من غير تلقين الإمام، لا تحسب. فإذا فرغ الرجل من اللعان، وقعت الفرقة بينه وبين الزوجة، وحرمت عليه على التأبيد، وانتفى عنه النسب، وسقط عنه الحد، ووجب على المرأة حد الزنا. فهذه خمسة أحكام تتعلق بلعان الزوج.

﴿وَيَدْرَؤُا﴾؛ أي: يدفع ﴿عَنْهَا﴾؛ أي: عن المرأة المرمية ﴿ٱلْعَذَابَ﴾ الدنيوي، وهو الحد. وفاعل يدرأ قوله: ﴿أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ﴾؛ أي: أن تحلف بالله أربعة أيمان ﴿إِنَّهُۥ﴾؛ أي: أن الزوج الذي رماني ﴿لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ فيما رماني به من الزنا؛ أي: ويدفع عن المرأة الحد، شهادتها أربع شهادات بالله، إن هذا الزوج الذي رماني لمن الكاذبين فيما رماني به.

﴿والْخَامِسَةَ﴾ بالنصب عطفاً على أربع شهادات؛ أي: وتشهد المرة الخامسة للمرات الأربع. كذلك قرأ[1] حفص والحسن والسلمي وطلحة والأعمش. وقرأ الباقون: بالرفع على الابتداء وخبره ﴿أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ﴾ سبحانه ﴿عليها﴾؛ أي: علي ﴿إِن كَانَ﴾ هذا الزوج الذي رماني ﴿لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ فيما رماني به من الزنا.

والغضب[2]: ثوران دم القلب لإرادة الانتقام، ولذلك قال ﷺ: «اتقوا الغضب، فإنه جمرة توقد في قلب ابن آدم، ألم تروا إلى انتفاخ أوداجه وحمرة عينيه». فإذا وصف الله به فالمراد لازمه، وهو الانتقام دون غيره، وتخصيص الغضب بجانب المرأة، واللعن بجانب الرجل للتغليظ عليها لكونها أصل الفجور ومادته؛ لأن الغضب أشد من اللعنة؛ لأن اللعنة مطلق الطرد من الرحمة، والغضب الطرد من الرحمة مع إرادة الانتقام منه، ولأن النساء يكثرن اللعن في العادة، فربما تجترىء على التفوه به لسقوط وقعه على قلوبهن بخلاف الغضب.

ومعنى الآية: أي[3] ويدفع عنها العقوبة الدنيوية، وهي الحد، أن تحلف

---

(١) الشوكاني.
(٢) روح البيان.
(٣) المراغي.

بالله أربعة أيمان أن زوجها الذي رماها بما رماها، من الفاحشة، لمن الكاذبين فيما قال، والشهادة الخامسة أن غضب الله عليها إن كان زوجها صادقاً فيما اتهمها به. وخصت الملاعنة بأن تخمس بغضب الله عليها؛ تغليظاً عليها؛ لأنها هي سبب الفجور ومنبعه بخديعتها وإطماعها الرجل في نفسها، كما مر آنفاً.

نبذة من أحكام اللعان

واعلم: أن الزوج إذا لاعن[1].. وجب على المرأة حدّ الزنا، فإن أرادت إسقاطه عن نفسها فإنها تلاعن، فتقوم وتشهد بعد تلقين الحاكم أربع شهادات بالله إنه لمن الكاذبين فيما رماني به، وتقول في الخامسة: علي غضب الله إن كان زوجي من الصادقين فيما رماني به. ولا يتعلق بلعانها إلا هذا الحكم الواحد، وهو إسقاط الحد عنها، ولو أقام الزوج بينة لم يسقط الحد عنها باللعان.

وعند أصحاب الرأي: لا حد على من قذف زوجته بل موجبه اللعان، فإن لم يلاعن حبس حتى يلاعن، فإذا لاعن الزوج وامتنعت المرأة من اللعان، حبست حتى تلاعن. وعند الآخرين اللعان حجة صدقه، والقاذف إذا قعد عن إقامة البينة على صدقه لا يحبس، بل يحد، كقاذف الأجنبي إذا قعد عن إقامة البينة. وعند أبي حنيفة: موجب اللعان وقوع الفرقة، ونفي النسب، وهما لا يحصلان إلا بلعان الزوجين جميعاً، وقضاء القاضي وفرقة اللعان فرقة فسخ عند الأكثرين. وبه قال الشافعي. وتلك الفرقة متأبدة حتى لو أكذب الزوج نفسه يقبل ذلك فيما عليه، لا فيما له، فيلزمه الحد، ويلحقه الولد، لكن لا يرتفع تأبيد التحريم. وعند أبي حنيفة فرقة اللعان فرقة طلاق، فإذا أكذب نفسه.. جاز له أن ينكحها. وإذا أتى ببعض كلمات اللعان لا يتعلق به الحكم. وعند أبي حنيفة إذا أتى بأكثر كلمات اللعان قام مقام الكل. وكل من صح يمينه.. صح لعانه حرّاً كان أو عبداً مسلماً كان أو ذمياً. وهو قول سعيد بن المسيب وسليمان بن يسار

(١) الفتوحات.

والحسن، وبه قال ربيعة ومالك والثوري والشافعي وأكثر أهل العلم.

وقال الزهري والأوزاعي وأصحاب الرأي: لا يجري اللعان إلا بين مسلمين حرين غير محدودين، فإن كان أحد الزوجين رقيقاً أو ذمياً أو محدوداً في قذف، فلا لعان بينهما. وظاهر القرآن حجة لمن قال: يجري اللعان بينهما؛ لأن الله تعالى قال: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ﴾ ولم يفصل بين الحر والعبد والمحدود وغيره.

ولا يصح اللعان إلا عند الحاكم أو نائبه، ويغلظ اللعان بأربعة أشياء، بتعدد الألفاظ وبالمكان والزمان، وأن يكون بمحضر جماعة من الناس. أما تعدد الألفاظ فيجب، ولا يجوز الإخلال بشيء منها. وأما المكان: فهو أن يلاعن في أشرف الأماكن، فإن كان بمكة فبين الركن والمقام، وإن كان بالمدينة فعند منبر النبي ﷺ. وفي سائر البلاد في الجامع عند المنبر. وأما الزمان: فهو أن يكون بعد العصر. وأما الجمع فأقله أربعة، والتغليظ بالجمع سنة، فلو لاعن الحاكم بينهما وحده جاز. وفي التغليظ بالزمان والمكان قولان. وبيان اللعان متبعاً موضعه كتب الفروع، فيطلب هناك، وكذا القذف.

وبعد أن ذكر حكم الرامي للمحصنات وللأزواج، بين أن في هذا تفضلاً على عباده، ورحمة بهم، فقال: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ﴾؛ أي: تفضله سبحانه ﴿عَلَيْكُمْ﴾ أيها القاذفون والمقذوفات ﴿وَرَحْمَتُهُۥ﴾ سبحانه بالستر لكم؛ أي: لولا تفضله عليكم بالستر ورحمته لكم به في القذف. وجواب ﴿لولا﴾ محذوف، تقديره: لنال الكاذب منكم عذاب عظيم. وفي قوله: عليكم[1] التفات عن الغيبة في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ﴾. وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ﴾ إلى الخطاب. والخطاب لكل من الفريقين؛ أي: القاذفين والمقذوفات، ففي الكلام تغليب صيغة الذكور على صيغة الإناث، حيث لم يقل: عليكم وعليكن.

وجملة قوله: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه ﴿تَوَّابٌ﴾ بعوده على من يرجع عن

---

(١) الفتوحات.

المعاصي بالرحمة. ﴿حَكِيمٌ﴾؛ أي: فيما فرضه من الحدود. معطوفة على مدخول ﴿لولا﴾. وحذف[1] جواب ﴿لولا﴾ للتهويل والإشعار بضيق العبارة عن حصره، كأنه قيل: لولا تفضله عليكم ورحمته، أيها الرامون والمرميات. وأنه تعالى مبالغ في قبول التوبة. حكيم في جميع أفعاله وأحكامه، التي من جملتها ما شرع لكم من حكم اللعان، لكان ما كان مما لا يحيط به نطاق البيان. ومن جملته أنه تعالى لو لم يشرع لهم ذلك.. لوجب على الزوج حدّ القذف، مع أن الظاهر صدقه؛ لأنه أعرف بحال زوجته، وأنه لا يفتري عليها؛ لاشتراكهما في الفضاحة.

وبعدما شرع لهم ذلك، لو جعل شهاداته موجبة لحدّ القذف عليه.. لفات النظر له، ولا ريب في خروج الكل عن سنن الحكمة والفضل والرحمة، فجعل شهادات كل منهما، مع الجزم بكذب أحدهما حتماً، دارئة لما توجه إليه من الغائلة الدنيوية. وقد ابتلي الكاذب منهما في تضاعيف شهاداته من العذاب بما هو أتم مما درأه عنه وأطم. وفي ذلك من أحكام الحكم البالغة وآثار التفضل والرحمة ما لا يخفى. أما على الصادق فظاهر، وأما على الكاذب فهو إمهال له، والستر عليه في الدنيا، ودرأ الحد عنه، وتعريضه للتوبة، حسبما ينبىء عنه التعرض لعنوان توابيته، سبحانه ما أعظم شأنه، وأوسع رحمته وأدق حكمته.

والخلاصة[2]: أي ولولا تفضله سبحانه ورحمته بكم، وأنه قابل لتوبتكم في كل آن، وأنه حكيم في جميع أفعاله وأحكامه التي منها ما شرعه لكم من اللعان.. لفضحكم وعاجلكم بالعقوبة، ولكنه ستر عليكم، ودفع عنكم الحد باللعان، إذ لو لم يشرع لكم ذلك.. لوجب على الزوج حدّ القذف، مع أن قرائن الأحوال تدل على صدقه؛ لأنه أعرف بحال زوجه، وأنه لا يفتري عليها لاشتراكهما في الفضيحة. ولو جعل شهادته موجبةً لحد الزنا عليها.. لأهمل أمرها، وكثر افتراء الزوج عليها، لضغينة قد تكون في نفسه من أهلها. وفي كل

---

(١) روح البيان. (٢) المراغي.

هذا خروج من سابق الحكمة والفضل والرحمة. ومن ثم جعل شهادات كل منهما مع الجزم بكذب أحدهما، دارئة عند العقوبة الدنيوية. وإن كان قد ابتلي الكاذب منهما في تضاعيف شهادته بأشد مما درأه عن نفسه، وهو العقاب الأخروي.

تنبيه: وكررت[1] ﴿لولا﴾ في هذا السياق أربع مرات، لاختلاف الأجوبة فيها، إذ جواب الأول منها محذوف، تقديره: لفضحكم. وجواب الثاني مذكور، وهو قوله: ﴿لَمَسَّكُمْ فِي مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾. وجواب الثالث محذوف، تقديره: لعجل لكم العذاب. وجواب الرابع مذكور. وهو قوله: ﴿مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾.

قال ابن جرير الطبري: (١٨/ ٨٦) يقول تعالى ذكره: ولولا[2] فضل الله عليكم أيها الناس ورحمته بكم، وأنه عواد على خلقه بلطفه وطوله، حكيم في تدبيره إياهم وسياسته لهم.. لعاجلكم بالعقوبة على معاصيكم، وفضح أهل الذنوب منكم بذنوبكم، ولكنه ستر عليكم ذنوبكم وترك فضيحتكم بها عاجلاً رحمة منه بكم، وتفضلاً عليكم، فاشكروا نعمه وانتهوا عن التقدم عما عنه نهاكم من معاصيه. وترك الجواب في ذلك، اكتفاء بمعرفة السامع المراد منه. ا هـ.

الإعراب

﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَآ ءَايَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ۝١﴾.

﴿سُورَةٌ﴾: خبر لمبتدأ محذوف، تقديره: هذه الآيات الآتي ذكرها. أو مبتدأ خبره محذوف، تقديره: فيما أوحينا إليك سورة أنزلناها. وسوغ الابتداء بالنكرة وصفها بجملة ﴿أَنزَلْنَاهَا﴾. والجملة الاسمية مستأنفة. ﴿أَنزَلْنَاهَا﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة الفعلية في محل الرفع صفة لـ﴿سُورَةٌ﴾. ﴿وَفَرَضْنَاهَا﴾: فعل وفاعل ومفعول. والجملة الفعلية في محل الرفع، معطوفة على جملة ﴿أَنزَلْنَاهَا﴾. وكذلك جملة ﴿وَأَنزَلْنَا﴾ معطوفة على جملة ﴿أَنزَلْنَاهَا﴾. ﴿فِيهَآ﴾ متعلق بـ﴿أنزلنا﴾. ﴿ءَايَاتٍ﴾:

---

(١) فتح الرحمٰن. (٢) الطبري.

مفعول به لـ﴿أنزلنا﴾. ﴿بَيِّنَٰتٍ﴾: صفة لـ﴿ءَايَٰتٍ﴾. ﴿لَّعَلَّكُمْ﴾: ناصب واسمه، وجملة ﴿تَذَكَّرُونَ﴾ في محل الرفع خبر ﴿لعل﴾، وجملة ﴿لعل﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ﴾.

﴿ٱلزَّانِيَةُ﴾: مبتدأ. ﴿وَٱلزَّانِى﴾: معطوف عليه. ﴿فَٱجْلِدُوا۟﴾ ﴿الفاء﴾: رابطة الخبر بالمبتدأ لشبه المبتدأ بالشرط في العموم، كما مر. ﴿اجلدوا﴾: فعل وفاعل. ﴿كُلَّ وَٰحِدٍ﴾: مفعول به. ﴿مِّنْهُمَا﴾: صفة لـ﴿واحد﴾. ﴿مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ﴾: منصوب على المفعولية المطلقة، لنيابته عن المصدر، والجملة في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية مستأنفة، مسوقة لتفصيل ما ذكر من الآيات البينات. وفي «الفتوحات» قوله: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى﴾ في رفعهما وجهان:

أحدهما: مذهب سيبويه، أنه مبتدأ خبره محذوف؛ أي: فيما يتلى عليكم، حكم الزانية والزاني. و﴿الفاء﴾: في ﴿فَٱجْلِدُوا۟﴾ على هذا الوجه: تفصيلية للحكم المتلو المجمل؛ لأنه لما تشوف السامع إلى تفصيل هذا المجمل.. ذكر حكمهما مفصلاً بقوله: ﴿فَٱجْلِدُوا۟﴾؛ لأنه أوقع في النفس من ذكره أول وهلة.

وثانيهما: مذهب الأخفش وغيره، وهو أنه مبتدأ، والخبر جملة الأمر، كما جرينا عليه في إعرابنا؛ لأن عدم التقدير أولى من التقدير. ودخلت الفاء حينئذٍ، لشبه المبتدأ بالشرط. فالفاء: رابطة الخبر بالمبتدأ، لكونه جملة طلبية، وقد تقدم الكلام على هذه المسألة مستوفى عند قوله: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا﴾. فجدد به عهداً.

﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

﴿وَلَا تَأْخُذْكُم﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿لا﴾: ناهية جازمة. ﴿تَأْخُذْكُم﴾: فعل ومفعول مجزوم بـ﴿لا﴾ الناهية. ﴿بِهِمَا﴾: جار ومجرور متعلق به. ﴿رَأْفَةٌ﴾: فاعل، والجملة الفعلية في محل الرفع، معطوفة على جملة ﴿فَٱجْلِدُوا۟﴾. ﴿فِى دِينِ

﴿ٱللَّهِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بـ﴿تَأۡخُذۡكُم﴾ أيضاً. وهذه الجملة دالة على جواب الشرط بعدها، أو هي نفس الجواب عند بعضهم. ا هـ. «سمين». ﴿إِن﴾: حرف شرط جازم. ﴿كُنتُمۡ﴾: فعل ناقص واسمه في محل الجزم بـ﴿إِن﴾، على كونه فعل شرط لها، وجملة ﴿تُؤۡمِنُونَ﴾ في محل النصب خبر ﴿كان﴾. ﴿بِٱللَّهِ﴾: متعلق بـ﴿يُؤۡمِنُونَ﴾. ﴿وَٱلۡيَوۡمِ﴾: معطوف على الجلالة. ﴿ٱلۡأٓخِرِۖ﴾: صفة لـ﴿اليوم﴾. وجواب ﴿إِن﴾ الشرطية معلوم مما قبلها، تقديره: إن كنتم تؤمنون بالله، واليوم الآخر، فلا تأخذكم بهما رأفة في دين الله، وجملة ﴿إِن﴾ الشرطية معترضة. ﴿وَلۡيَشۡهَدۡ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، و(اللام): لام الأمر. ﴿يشهد﴾: فعل مضارع مجزوم بلام الأمر. ﴿عَذَابَهُمَا﴾: مفعول به. ﴿طَآئِفَةٞ﴾: فاعل. ﴿مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾: صفة لـ﴿طائفة﴾، والجملة الفعلية معطوفة على جملة قوله: ﴿فَٱجۡلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا﴾.

﴿ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوۡ مُشۡرِكَةٗ وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوۡ مُشۡرِكٞۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٣﴾.

﴿ٱلزَّانِي﴾: مبتدأ. ﴿لَا يَنكِحُ﴾: فعل وفاعل مستتر. ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ. ﴿زَانِيَةً﴾: مفعول به. ﴿أَوۡ مُشۡرِكٞۚ﴾: معطوف عليه، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية مستأنفة، مسوقة لبيان حال الفاسق الخبيث. ﴿وَٱلزَّانِيَةُ﴾: مبتدأ. ﴿لَا يَنكِحُهَآ﴾: فعل ومفعول به. ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ. ﴿زَانٍ﴾: فاعل مرفوع، وعلامة رفعه ضمة مقدرة على الياء المحذوفة، للتخلص من التقاء الساكنين؛ لأنه اسم منقوص. ﴿أَوۡ مُشۡرِكٞۚ﴾ معطوف عليه، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية معطوفة على الجملة التي قبلها. ﴿وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ﴾ فعل ونائب فاعل. ﴿عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ متعلق به. والجملة الفعلية مستأنفة، مسوقة لبيان حكم نكاح الزواني والمشركات.

﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ثُمَّ لَمۡ يَأۡتُواْ بِأَرۡبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجۡلِدُوهُمۡ ثَمَٰنِينَ جَلۡدَةٗ وَلَا تَقۡبَلُواْ لَهُمۡ شَهَٰدَةً أَبَدٗاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ٤ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ وَأَصۡلَحُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٥﴾.

﴿وَالَّذِينَ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿الذين﴾: مبتدأ. ﴿يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة صلة الموصول. ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف وتراخ. ﴿لَمْ يَأْتُوا﴾: جازم وفعل مجزوم وفاعل. ﴿بِأَرْبَعَةِ﴾: متعلق بـ﴿يأتوا﴾. ﴿شُهَدَاءَ﴾: مضاف إليه مجرور بالفتحة، لمنعه من الصرف، لمكان ألف التأنيث الممدودة، والجملة معطوفة على جملة ﴿يرمون﴾. ﴿فَاجْلِدُوهُمْ﴾ ﴿الفاء﴾: رابطة لخبر الموصول المتضمن معنى الشرط. ﴿اجلدوهم﴾: فعل أمر وفاعل ومفعول به، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر المبتدأ. ﴿ثَمَانِينَ﴾: منصوب على المفعولية المطلقة. ﴿جَلْدَةً﴾: تمييز له منصوب به والجملة الاسمية مستأنفة، مسوقة لبيان نوع آخر من حدود الزنا. ﴿وَلَا تَقْبَلُوا﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿لا﴾: ناهية جازمة. ﴿تَقْبَلُوا﴾: فعل وفاعل مجزوم بـ﴿لا﴾ الناهية، والجملة الفعلية في محل الرفع، معطوفة على جملة ﴿فَاجْلِدُوهُمْ﴾. ﴿لَهُمْ﴾: جار ومجرور متعلق بمحذوف، حال من ﴿شَهَادَةً﴾؛ لأنه صفة نكرة قدمت عليها. ﴿شَهَادَةً﴾: مفعول به. ﴿أَبَدًا﴾: منصوب على الظرفية الزمانية، متعلق بـ﴿تَقْبَلُوا﴾. ﴿وَأُولَئِكَ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿أولئك﴾: مبتدأ. ﴿هُمُ﴾: ضمير فصل، أو مبتدأ ثان. ﴿الْفَاسِقُونَ﴾: خبر عن ﴿أولئك﴾، أو خبرهم، والجملة الاسمية في محل الرفع، معطوفة على جملة قوله: ﴿فَاجْلِدُوهُمْ﴾ على كونها خبر الموصول. ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء. ﴿الَّذِينَ﴾: اسم موصول للجمع المذكر، في محل النصب على الاستثناء. ﴿تَابُوا﴾: فعل وفاعل صلة الموصول. ﴿مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق به. ﴿وَأَصْلَحُوا﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿تَابُوا﴾. واختلف في هذا الاستثناء، فقيل: هو متصل؛ لأن المستثنى منه في الحقيقة ﴿الذين يرمون﴾، والتائبون من جملتهم لكنهم مخرجون من الحكم. وهذا شأن المتصل. وقيل: هو منقطع؛ لأنه لم يقصد إخراجه من الحكم السابق، بل قصد به إثبات أمر آخر، وهو أن التائب لا يبقى فاسقاً؛ ولأنه غير داخل في صدر الكلام؛ لأنه غير فاسق ا هـ. «شهاب». وهذا التوجيه ضعيف جداً، إذ يلزم عليه، أن يكون كل استثناء منقطعاً، لجريان التوجيه المذكور فيه تأمل. ﴿فَإِنَّ اللَّهَ﴾ ﴿الفاء﴾: تعليلية. ﴿إن الله﴾: ناصب واسمه. ﴿غَفُورٌ﴾: خبر أول لها. ﴿رَحِيمٌ﴾: خبر ثان. والجملة الاسمية مستأنفة،

مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ۝٦﴾.

﴿وَالَّذِينَ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿الذين﴾: مبتدأ أول. ﴿يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ﴾: فعل وفاعل ومفعول به، والجملة صلة الموصول ومتعلق ﴿يرمون﴾ محذوف، تقديره: بالزنا. ﴿وَلَمْ يَكُن﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿لم يكن﴾: جازم ومجزوم. ﴿لَّهُمْ﴾: خبر ﴿يَكُن﴾ مقدم على اسمها. ﴿شُهَدَاءُ﴾: اسمها مؤخر. ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء. ﴿أَنفُسُهُمْ﴾: بدل من ﴿شهداء﴾. ويجوز أن تكون ﴿إِلَّا﴾: بمعنى غير. فتكون ﴿أَنفُسُهُمْ﴾: نعتاً لـ﴿شُهَدَاءُ﴾. وقد ظهر عليها إعراب إلا على حد قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾. ﴿فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة الخبر بالمبتدأ، لشبه الموصول بأسماء الشروط في العموم. ﴿شهادة أحدهم﴾: مبتدأ شأن ومضاف إليه. ﴿أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ﴾ بالرفع خبر للمبتدأ الثاني ومضاف إليه. ﴿بِاللَّهِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿شَهَادَاتٍ﴾، أو ﴿بشهادة﴾. فالمسألة من باب التنازع، والجملة من المبتدأ الثاني وخبره في محل الرفع خبر للأول، والجملة من المبتدأ الأول وخبره، مستأنفة مسوقة لبيان أحكام اللعان، وهو مبسوط في كتب الفقه. وقرأ الجمهور: ﴿أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ﴾ بالنصب، فيكون خبر فـ﴿شَهَادَةُ﴾ مقدراً، إما مقدماً، تقديره: فعليهم شهادة أحدهم، أربع شهادات. أو مؤخراً، تقديره: فشهادة أحدهم، أربع شهادات كائنة، أو واجبة. أو هو خبر لمبتدأ محذوف؛ أي: فالواجب شهادة أحدهم: أربع منصوب على المفعولية المطلقة، والعامل فيه مصدر مثله. نظيره قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَّوْفُورًا﴾ وقد ناب هنا عن المصدر عدده، ﴿إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾ ﴿إِنَّهُ﴾: ناصب واسمه، وكسرت همزة ﴿إن﴾ لوجود اللام المزحلقة و(اللام): حرف ابتداء ﴿مِنَ الصَّادِقِينَ﴾: جار ومجرور خبر ﴿إن﴾ وجملة ﴿إن﴾: وما بعدها في محل النصب معمول ﴿شَهَادَاتٍ﴾، أو شهادة؛ لأن أصله يشهد على أنه صادق، فحذف الجار وكسرت ﴿إن﴾، وعلق العامل عنها لأجل اللام في الخبر.

﴿وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ۝٧﴾.

﴿وَٱلْخَٰمِسَةُ﴾ ﴿الواو﴾: اعتراضية. ﴿الخامسة﴾: مبتدأ؛ أي: الشهادة الخامسة. ﴿أَنَّ﴾: حرف نصب ومصدر. ﴿لَعْنَتَ ٱللَّهِ﴾: اسمها ومضاف إليه. ﴿عَلَيْهِ﴾: جار ومجرور خبر ﴿أَنَّ﴾، وجملة ﴿أَنَّ﴾ في تأويل مصدر مرفوع على الخبرية. للمبتدأ، والتقدير: والخامسة إثبات لعنة الله عليه، والجملة الاسمية معترضة. ﴿إِن﴾: حرف شرط. ﴿كَانَ﴾: فعل ماض ناقص، في محل الجزم بأن على كونه فعل شرط لها، واسمها ضمير يعود على الملاعن؛ أي: الزوج. ﴿مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾: جار ومجرور خبر ﴿كَانَ﴾، وجواب ﴿إِن﴾ الشرطية محذوف دل عليه ما قبله؛ أي: إن كان من الكاذبين فيما رماها به، فعليه لعنة الله سبحانه، وجملة ﴿إِن﴾ الشرطية معترضة. ويقرأ: الخامسة، بالنصب على تقدير ويشهد الخامسة، والتقدير: ويشهد الخامسة بأن لعنة الله عليه. ويجوز أن يكون بدلاً، من الخامسة. ذكره أبو البقاء.

﴿وَيَدْرَؤُا عَنْهَا ٱلْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٨﴾﴾.

﴿وَيَدْرَؤُا﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿يدرأ﴾: فعل مضارع. ﴿عَنْهَا﴾: متعلق به. ﴿ٱلْعَذَابَ﴾: مفعول به. ﴿أَن﴾: حرف نصب ﴿تَشْهَدَ﴾: فعل مضارع منصوب بـ﴿أن﴾ المصدرية وفاعله ضمير يعود على الملاعنة ﴿أَرْبَعَ شَهَٰدَٰتٍۭ﴾: منصوب على المفعولية المطلقة. ﴿بِٱللَّهِ﴾: متعلق بـ﴿شَهَٰدَٰتٍۭ﴾: أو بـ﴿تَشْهَدَ﴾. والجملة الفعلية في تأويل مصدر مرفوع على الفاعلية، والتقدير: ويدرأ عنها العذاب شهادة أربع شهادات بالله، والجملة الفعلية معطوفة على الجملة الاسمية في قوله: والذين يرمون المحصنات. ﴿إِنَّهُۥ﴾ ناصب واسمه. ﴿لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾: خبره. و(اللام): حرف ابتداء، وجملة ﴿إن﴾ ومعموليها في محل النصب معمول لـ﴿تَشْهَدَ﴾، ولكنه علق عنه باللام: وذلك كسرت همزة ﴿إن﴾، والأصل أن تشهد أربع شهادات، على أنه لمن الكاذبين.

﴿وَٱلْخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٩﴾﴾.

﴿وَٱلْخَٰمِسَةَ﴾: بالنصب معطوف على ﴿أَرْبَعَ﴾؛ أي: وتشهد الخامسة. ﴿أَنَّ﴾ حرف نصب ومصدر. ﴿غَضَبَ ٱللَّهِ﴾: اسمها. ﴿عَلَيْهَآ﴾: جار ومجرور خبر

﴿أن﴾. وجملة ﴿أن﴾ في تأويل مصدر، مجرور بحرف جر محذوف؛ أي: وتشهد الخامسة على كون ﴿غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَآ﴾. وبالرفع مبتدأ، والخبر جملة أن غضب الله عليها. ﴿إن﴾ حرف شرط. ﴿كَانَ﴾ في محل الجزم بـ﴿أن﴾، واسمها ضمير يعود على الزوج. ﴿مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ خبرها. وجواب الشرط محذوف، دل عليه ما قبله، تقديره: إن كان من الصادقين، فعلي غضب الله.

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾﴾.

﴿وَلَوْلَا﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية ﴿لولا﴾: حرف امتناع لوجود. ﴿فَضْلُ ٱللَّهِ﴾ مبتدأ ومضاف إليه. ﴿عَلَيْكُمْ﴾ متعلق بـ﴿فَضْلُ ٱللَّهِ﴾، وخبر المبتدأ محذوف وجوباً، تقديره: ولولا فضل الله عليكم موجود. ﴿وَرَحْمَتُهُۥ﴾ معطوف على ﴿فَضْلُ ٱللَّهِ﴾، وجواب ﴿لولا﴾ محذوف، تقديره: لبين الحق في ذلك، وعاجل بالعقوبة لمن يستحقها، وجملة ﴿لولا﴾ مستأنفة، ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ﴾ ناصب واسمه. ﴿تَوَّابٌ﴾ خبر أول له. ﴿حَكِيمٌ﴾: خبر ثان له. وجملة ﴿أن﴾ في تأويل مصدر، معطوف على ﴿فَضْلُ ٱللَّهِ﴾ على كونه مبتدأ محذوف الخبر، وتقديره: ولولا كون الله تواباً حكيماً موجود.. لنال الكاذب منهما عذاب عظيم.

التصريف ومفردات اللغة

﴿سُورَةٌ﴾: السورة: في اللغة المنزلة السامية، والمكانة الرفيعة. قال النابغة:

أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَعْطَاكَ سُوْرَةً   تَرَىٰ كُلَّ مُلْكٍ دُوْنَهَا يَتَذَبْذَبُ

وسميت المجموعة من الآيات لها بدء ونهاية: سورةً، لشرفها وارتفاعها، كما يسمى السور للمرتفع من الجدار.

﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى﴾ قال في المفردات: الزنى: يقصر، وقد يمد، فيقال: الزناء، ويصح أن يكون الممدود مصدر المفاعلة، والنسبة إليه زنوى. انتهى. فبنية الزنا والزناء بالقصر، والمد قال الفرزدق:

أَبَا خَالِدٍ مَنْ يَزْنِ يُعْلَمْ زِنَاؤُهُ   وَمَنْ يَشْرَبِ ٱلْخُرْطُومَ يُصْبِحْ مُسَكَّرَا

قال الفراء: المقصور من زنى الثلاثي والممدود من زاني الرباعي. يقال:

زاناها مزاناة وزناء، وخرجت فلانة تزاني وتباغي، وقد زنى بها. وجمع الزاني زناة، كالطاغي والطغاة والباغي والبغاة. وجمع الزانية الزواني كالجارية والجواري، وزناة تزنية نسبه إلى الزنا، وهو ولد زنية بفتح الزاي وكسرها.

﴿رَأْفَةٌ﴾: في «المختار» والرأفة: أشد الرحمة، وقد رؤف بالضم، رآفة ورأف به يرأف مثل قطع يقطع. ورئف به من باب طرب، كله من كلام العرب، فهو رؤوف على وزن فعول. ورؤف على وزن فعل اهـ.

﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ الشهود: الحضور. والعذاب: الإيجاع الشديد، قال بعضهم: العذاب: إكثار الضرب بعذبة السوط؛ أي: بطرفه. وقيل: غير ذلك. وفي تسميته عذاباً دليل على أنه عقوبة، ويجوز أن يسمى عذاباً؛ لأنه ألم مانع من معاودة، كما يسمى نكالاً؛ أي: عقاباً يردع عن المعاودة. والطائفة: فرقة يمكن أن تكون حافة حول الشيء، وحلقة من الطوف. والمراد به جمع يحصل به التشهير والزجر.

﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ﴾ الرمي يقال في الأعيان كالسهم والحجر، ويقال: في المقال كناية عن الشتم كالقذف، فإنه في الأصل الرمي بالحجارة ونحوها مطلقاً. قال في «الإرشاد»: في التعبير عن التفوه، بما قالوا في حقهن بالرمي المنبي عن صلابة الآلة، وإيلام المرمي، وبعده إيذان بشدة تأثيره فيهن. والمحصنات: العفائف وهو بالفتح، يقال: إذا تصور حصنها من نفسها وبالكسر يقال: إذا تصور حصنها من غيرها، والحصن في الأصل معروف، ثم تجوز به في كل تحرز. ومنه درع حصينة لكونها حصناً للبدن وفرس حصان؛ لكونه حصناً لراكبه، وامرأة حصان، للعفيفة. وأصل الإحصان المنع، سميت العفيفة (محصنة)؛ لأنها منعت نفسها عن القبيح. ومنه الحصن؛ لأنه يمنع من الأعداء. (يدرأ)؛ أي: يدفع من الدرء، وهو الدفع.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان

والبديع:

فمنها: الإيجاز بالحذف في قوله تعالى: ﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا﴾ حيث حذف المبتدأ أو الخبر. وأشير إليها بالمبتدأ المحذوف. مع عدم سبق ذكرها؛ لأنها باعتبار كونها في شرف الذكر في حكم الحاضر المشاهد.

ومنها: التنكير في سورة للتفخيم؛ أي: هذه سورة عظيمة الشأن جليلة القدر أنزلها الله سبحانه.

ومنها: الإطناب بتكرير لفظ أنزلنا في قوله: ﴿وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾؛ لإبراز كمال العناية بشأنها، وهو من باب ذكر الخاص بعد العام، للعناية والاهتمام به.

ومنها: التهييج والإلهاب في قوله: ﴿إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾؛ أي: التحريض وإثارة الغضب لله وإلهاب الحفاظ لدين الله وحكمه. وكذا في قوله: ﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ﴾ لما في النهي والشرط من التحريض، وإثارة المؤمنين على أن يتصلبوا في دينهم، وأن لا تأخذهم هوادة أولين، في تنفيذ ما أمرهم به، لاستيفاء حدوده.

ومنها: الحصر في قوله: ﴿إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً﴾؛ لأن ظاهر النظم يشعر بأن الزاني لا ينكح المؤمنة العفيفة، وأن الزانية لا ينكحها المؤمن التقي، ولما كان ذلك غير ظاهر الصحة، كان لا بد من حمل الأخبار على الأعم الأغلب، كما في قولك لا يفعل الخير إلا الرجل التقي، وقد يفعل الخير من ليس بتقي.

ومنها: الاستعارة التصريحية التبعية في قوله: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ﴾؛ لأن أصل الرمي القذف بالحجارة، أو بشيء صلب، ثم استعير للقذف باللسان، بجامع الإيذاء في كل، لكونه جناية بالقول، كما قال النابغة: وجرح اللسان كجرح اليد.

ومنها: صيغ المبالغة في قوله: ﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ وقوله: ﴿تَوَّابٌ حَكِيمٌ﴾ فإن فعولاً وفعيلاً وفعالاً من أوزان المبالغة، وكلها تفيد بلوغ النهاية في هذه الصفات.

ومنها: الطباق بين ﴿ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾ و﴿ٱلْكَـٰذِبِينَ﴾.

ومنها: حذف جواب لولا للتهويل في قوله: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ﴾ وللإشعار بضيق العبارة عن حصره، حتى يذهب الوهم في تقديره كل مذهب، فيكون أبلغ في البيان، وأبعد في التهويل والزجر.

ومنها: الالتفات في قوله: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ فقد التفت من الغيبة في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَـٰتِ﴾ إلى الخطاب لتسجيل المنة على المخاطبين، بحيث لا تبقى لديهم أعذار واهية، يتشبثون بها إذا هم تجاوزوا حدود ما بينه لهم.

ومنها: التغليب في قوله: ﴿عَلَيْكُمْ﴾ فقد غلب صيغة الذكور على صيغة الإناث حيث لم يقل عليكم وعليكن؛ لأنه بصدد مخاطبة الفريقين؛ أي: القاذفين والمقذوفات.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.

تتمة: في التعبير بالإحصان في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَـٰتِ﴾ إشارة لطيفة إلى أن قذف العفيف من الرجال أو النساء موجب لحد القذف، وأما إذا كان الشخص معروفاً بالفجور، أو مشهوراً بالاستهتار، والمجون فلا حد على قاذفه؛ لأنه كرامة للفاسق الماجن، فتدبر.

دقيقة: لماذا عدل عن قوله: ﴿تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾ إلى قوله: ﴿تَوَّابٌ حَكِيمٌ﴾ مع أن الرحمة تناسب التوبة، والجواب أن الله عز وجل، أراد الستر على العباد بتشريع اللعان بين الزوجين، فلو لم يكن اللعان مشروعاً، لوجب على الزوج حد القذف، مع أن الظاهر صدقه ولو اكتفى لعانه.. لوجب على الزوجة حدّ الزنا، فكان من الحكمة وحسن النظر لهما جميعاً، أن شرع هذا الحكم، ودرأ عنهما العذاب بتلك الشهادات. فسبحانه ما أوسع رحمته وأجلّ حكمته.

قال بعضهم: وإنما قال الله تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ﴾ ولم يقل: ولولا فضل عبادتكم وصلاتكم وجهادكم وحسن قيامكم بأمر الله ﴿مَا زَكَىٰ

﴿مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾، لنعلم أن العبادات وإن كثرت فإنها من نتائج الفضل والإحسان. اللهم اجعلنا من أهل الفضل والعطاء والمحبة والولاء.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُمۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْۚ لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِۚ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾ لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُواْ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾ لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَۚ فَإِذْ لَمْ يَأْتُواْ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُوْلَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٣﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُواْ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِۚ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢١﴾ وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُواْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ ﴿٢٥﴾ ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِۚ أُوْلَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَۖ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٢٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهْلِهَاۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِن لَّمْ تَجِدُواْ فِيهَآ أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْۖ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُواْ فَٱرْجِعُواْۖ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨﴾ لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُواْ بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَٰعٌ لَّكُمْۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٢٩﴾﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْۚ...﴾ الآيات، مناسبة هذه

الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما ذكر[1] حكم من قذف الأجنبيات، وحكم من قذف الزوجات.. ذكر في هذه الآيات العشر، براءة عائشة أم المؤمنين مما رماها به أهل الإفك والبهتان من المنافقين، صيانة لعرض رسول الله ﷺ.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ...﴾ الآيات، مناسبة[2] هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما ذكر قصص أم المؤمنين عائشة - رضي الله عنها - وبين عقاب من اتهمها بالإفك، وشديد عذابه يوم القيامة، وأسهب في هذا.. أعقب ذلك ببيان حكم عام، وهو أن كل من اتهم محصنة مؤمنة غافلة بالخنا والفجور، فهو مطرود من رحمة الله تعالى، بعيد عن دار نعيمه، معذب في جهنم إلا إذا تاب وأحسن التوبة وعمل صالحاً.

قوله تعالى: ﴿ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه لما برأ عائشة مما رميت به من الإفك، ثم ذكر أن رامي المحصنات الغافلات مطرود من رحمة الله تعالى.. أردف ذلك دليلاً ينفي الريبة عن عائشة بأجلى وضوح. ذلك أن السنة الجارية بين الخلق، مبنية على مشاكلة الأخلاق، والصفات بين الزوجين، فالطيبات للطيبين والخبيثات للخبيثين. ورسول الله تعالى من أطيب الطيبين، فيجب كون الصديقة من أطيب الطيبات، على مقتضى المنطق السليم، والعادة الشائعة بين الخلق.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ...﴾ الآيات، إلى قوله: ﴿وَمَا تَكْتُمُونَ﴾ مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما ذكر حكم قذف المحصنات الأجنبيات، وحكم قذف الزوجات، ثم أتبع ذلك بقصص أهل الإفك، وبسط ذلك غاية البسط، وكان مما يسهل السبيل إلى التهمة في كل هذا وجود الخلوة بين رجل وامرأة.. أعقب ذلك بحكم دخول المرء بيت غيره، وبين أنه لا يدخله إلا بعد الاستئذان والسلام، حتى لا يوجد بحال تورث

---

(١) المراغي.
(٢) المراغي.

التهمة التي أمرنا بالابتعاد عنها جهد الطاقة، إلى أن الإنسان قد يكون في بيته ومكان خلوته على حال لا يود أن يراه غيره عليها.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ...﴾ من آية (١١) إلى آية (٢٢)، سبب نزولها[١]: ما أخرجه البخاري في (ج ٦ ص/١٩٨) قال: حدثنا أبو الربيع سليمان بن داود، وأفهمني بعضه أحمد قال: حدثني فليح عن ابن شهاب عن عروة بن الزبير وسعيد بن المسيب وعلقمة بن وقاص الليثي وعبيد بن عبد الله بن عتبة، عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ زوج النبي ﷺ، حين قال لها أهل الإفك ما قالوا فبرأها الله منه. قال الزهري: وكلهم حدثني طائفة من حديثها، وبعضهم أوعى من بعض له اقتصاصاً، وقد وعيت عن كل واحد منهم الحديث الذي حدثني عن عائشة، وبعض حديثهم يصدق بعضاً، زعموا أن عائشة قالت: «كان رسول الله ﷺ إذا أراد أن يخرج سفراً، أقرع بين أزواجه، فأيتهن خرج سهمها خرج بها معه، فأقرع بيننا في غزاة، وهي غزوة المريسيع، وتسمى أيضاً غزوة بني المصطلق، وكانت في السنة الرابعة، وقيل: في السادسة، فسرنا حتى إذا فرغ رسول الله ﷺ من غزوته تلك، وقفل ودنونا من المدينة، آذن ليلة بالرحيل، فقمت حين آذنوا بالرحيل، فمشيت حتى جاوزت الجيش، فلما قضيت شأني أقبلت إلى الرحيل، فلمست صدري فإذا عقد لي جزع أظفار قد انقطع، فرجعت فالتمست عقدي، فحبسني ابتغاؤه، فأقبل الذين يرحلون لي، فاحتملوا هودجي، فرحلوه على بعيري الذي أركب، وهم يحسبون أني فيه، وكان النساء إذ ذاك خفافاً، لم يثقلن ولم يغشهن اللحم، وإنما يأكلن العلقة من الطعام، فلم يستنكر القوم حين رفعوه ثقل الهودج، فاحتملوه وكنت جارية حديثة السن، فبعثوا الجمل، وساروا، فوجدت عقدي بعد ما استمر الجيش، فجئت منزلهم وليس فيه أحد، فأممت منزلي الذي كنت فيه، وظننت أنهم سيفقدوني فيرجعون إلي، فبينما

---

(١) البخاري.

أنا جالسة، غلبتني عيناي فنمت، وكان صفوان بن المعطل السلمي ثم الذكواني من وراء الجيش، فأصبح عند منزلي، فرأى سواد إنسان نائم، وأتاني وكان يراني قبل الحجاب، يعني قبل نزول الحجاب، وهو قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍۚ﴾ فاستيقظت باسترجاعه حتى أناخ راحلته فوطىء يدها، فركبتها فانطلق يقود بي الراحلة حتى أتينا الجيش بعد ما نزلوا معرسين في نحر الظهيرة، فهلك من هلك، وكان الذي تولى الإفك عبد الله بن أبي بن سلول، فقدمنا المدينة، فاشتكيت بها شهراً، والناس يفيضون من قول أصحاب الإفك، ويريبني في وجيهي أني لا أرى من النبي ﷺ اللطف الذي كنت أرى منه حين أمرض، إنما يدخل فيسلم، ثم يقول: كيف تيكم، لا أشعر بشيء من ذلك، حتى نقهت، فخرجت أنا وأم مسطح قبل المناصع متبرزنا لا نخرج إلا ليلاً إلى ليل، وذلك قبل أن نتخذ الكنف قريباً من بيوتنا، وأمرنا أمر العرب الأول في البرية، أو في التنزه، فأقبلت أنا وأم مسطح بنت أبي رهم نمشي، فعثرت في مرطها. فقالت: تعس مسطح، فقلت لها: بئس ما قلت: أتسبين رجلاً شهد بدراً، فقلت: يا هنتاه ألم تسمعوا ما قالوا؟ فأخبرتني بقول أهل الإفك، فازددت مرضاً إلى مرض.

فلما رجعت إلى بيتي، دخل على رسول الله ﷺ فسلم، فقال: كيف تيكم؟ فقلت: ائذن لي إلى أبوي، قالت: وأنا حينئذٍ أريد أن أستيقن الخبر من قبلهما، فأذن لي رسول الله ﷺ، فأتيت أبوي، فقلت لأمي ما يتحدث به الناس، فقالت: يا بنية هوني على نفسك الشأن، فوالله لقلما كانت امرأة قط وضيئة عند رجل يحبها، ولها ضرائر إلا أكثرن عليها، فقلت: سبحان الله، أو لقد يتحدث الناس بهذا! قالت: فبت تلك الليلة حتى أصبحت لا يرقأ لي دمع، ولا أكتحل بنوم، ثم أصبحت، فدعا رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب، وأسامة بن زيد حين استلبث الوحي يستشيرهما في فراق أهله، فأما أسامة فأشار عليه بالذي يعلم في نفسه من الود لهم، فقال أسامة: أهلك يا رسول الله، ولا نعلم والله إلا خيراً. وأما علي فقال: يا رسول الله لم يضيّق الله عليك والنساء سواها كثير، وسل الجارية تصدقك، فدعا رسول الله ﷺ بريرة، فقال: يا بريرة، هل رأيت فيها شيئاً يريبك،

فقالت بريرة: لا، والذي بعثك بالحق، إن رأيت منها أمراً أغمصه عليها قط، أكثر من أنها جارية حديثة السن، تنام عن العجين، فتأتي الداجن، فتأكله. فقام رسول الله ﷺ من يومه، فاستعذر من عبد الله بن أبي بن سلول. فقال رسول الله ﷺ: «من يعذرني من رجل بلغني أذاه في أهلي، فوالله ما علمت على أهلي إلا خيراً وقد ذكروا رجلاً ما علمت عليه إلا خيراً. وما كان يدخل على أهلي إلا معي». فقام سعد بن معاذ، فقال: يا رسول الله، أنا والله أعذرك منه، إن كان من الأوس ضربنا عنقه، وإن كان من إخواننا من الخزرج أمرتنا ففعلنا فيه أمرك. فقام سعد بن عبادة وهو سيد الخزرج، وكان قبل ذلك رجلاً صالحاً، ولكن احتملته الحمية، فقال: كذبت لعمر الله لا تقتله، ولا تقدر على ذلك. فقام أسيد بن الحضير، فقال: كذبت لعمر الله، والله لنقتلنه، فإنك منافق تجادل عن المنافقين، فثار الحيان الأوس والخزرج، حتى هموا أن يقتتلوا، ورسول الله ﷺ قائم على المنبر، فنزل وخفضهم حتى سكتوا وسكت.

وبكيت يومي لا يرقأ لي دمع، ولا أكتحل بنوم، فأصبح عندي أبواي، وقد بكيت ليلتي ويوماً، حتى ظننت أن البكاء فالق كبدي، قالت: فبينما هما جالسان عندي، وأنا أبكي، إذ استأذنت امرأة من الأنصار، فأذنت لها، فجلست تبكي معي، فبينما نحن كذلك، إذ دخل رسول الله ﷺ، فجلس، ولم يجلس عندي من يوم قيل فيَّ ما قيل قبلها. وقد مكث شهراً لا يوحى إليه في شأني شيء.

قالت: فتشهَّد ثم قال: يا عائشة، فإنه بلغني عنك كذا وكذا، فإن كنت بريئة فسيبرئك الله، وإن كنت ألممت بذنب، فاستغفري الله وتوبي إليه، فإن العبد إذا اعترف بذنبه ثم تاب.. تاب الله عليه. فلما قضى رسول الله ﷺ مقالته، قلص دمعي حتى ما أحسُّ منه قطرة، وقلت لأبي: أجب عني رسول الله ﷺ. قال: والله ما أدري ما أقول لرسول الله ﷺ. فقلت لأمي: أجيبي عني رسول الله ﷺ فيما قال. قالت: والله ما أدري ما أقول لرسول الله ﷺ. قالت: وأنا جارية حديثة السن، لا أقرأ كثيراً من القرآن، فقلت: إني والله لقد علمت أنكم سمعتم ما يتحدث به الناس، ووقر في أنفسكم، وصدقتم به، ولئن قلت لكم: إني بريئة،

والله يعلم إني لبريئة، لا تصدقوني بذلك، ولئن اعترفت لكم بأمر، والله يعلم إني بريئة منه لتصدُّقُنّي، والله ما أجد لي ولكم مثلاً إلا أبا يوسف، إذ قال: فصبر جميل، والله المستعان على ما تصفون. ثم تحولت على فراشي، وأنا أرجو أن يبرئني الله، ولكن والله ما ظننت أن ينزل الله في شأني وحياً، ولأنا أحقر في نفسي من أن يتكلم الله فيّ بأمر يتلى، ولكني كنت أرجو أن يرى رسول الله ﷺ في النوم رؤيا يبرئني الله بها. فوالله ما رام مجلسه ولا خرج أحد من أهل البيت حتى أنزل عليه فأخذه ما كان يأخذه من البُرَحاء، حتى إنه ليتحدر منه مثل الجمان من العرق في يوم شاتٍ من ثقل القول الذي ينزل عليه. فلما سرى عن رسول الله ﷺ، وهو يضحك، فكان أول كلمة تكلم بها أن قال لي: يا عائشة احمدي الله، فقد برأك الله. فقالت أمي: قومي إلى رسول الله. فقلت: لا والله لا أقوم إليه ولا أحمد إلا الله. فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ﴾ الآيات العشر. فلما أنزل الله هذا في براءتي، قال أبو بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ وكان ينفق على مسطح بن أثاثة لقرابته منه وفقره: والله لا أنفق على مسطح شيئاً أبداً بعد ما قاله لعائشة. فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ﴾ إلى قوله: ﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾. فقال أبو بكر: بلى والله إني لأحب أن يغفر الله لي، فرجع إلى مسطح الذي كان يجري عليه، وكان رسول الله ﷺ يسأل زينب بنت جحش عن أمري، فقال: يا زينب ما علمت ما رأيت؟ فقالت: أحمي سمعي وبصري، والله ما علمت عليها إلا خيراً. قالت: وهي التي كانت تساميني، فعصمها الله تعالى بالورع، وطفقت أختها حمنة تحارب لها، فهلكت فيمن هلك». الحديث أخرجه البخاري في غير ما موضع. وكذا أخرجه مسلم مختصراً. والترمذي وغيرهم.

وقال عروة: لم يسم لي من أهل الإفك إلا حسان بن ثابت ومسطح بن أثاثة وحمنة بنت جحش في ناس آخرين لا علم لي بهم، غير أنهم عصبة، كما قال الله تعالى. قال عروة: كانت عائشة تكره أن يسب عندها حسان، وتقول: إنه الذي قال:

فَإِنَّ أَبِي وَوَالِدَتِي وَعِرْضِي ... لِعِرْضِ مُحَمَّدٍ مِنْكُمْ وِقَاءُ

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ...﴾ الآية، سبب[1] نزول هذه الآية: ما أخرجه الطبراني عن الضحاك بن مزاحم، قال: نزلت هذه الآية في نساء النبي ﷺ خاصة، إلى قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ...﴾ الآية، سبب نزولها: ما أخرجه الطبراني بسند رجاله ثقات، عن عبد الرحمٰن بن زيد بن أسلم، قال: هذه الآية نزلت في عائشة حين رماها المنافق بالبهتان والفرية، فبرأها الله تعالى من ذلك.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتًا...﴾ الآية، سبب نزولها: ما أخرجه الفريابي وابن جرير عن عدي بن ثابت، قال: جاءت امرأة من الأنصار فقالت: يا رسول الله، إني أكون في بيتي على الحال التي لا أحب أن يراني عليها أحد لا والد ولا ولد، فيأتيني آت فيدخل علي وأنا على تلك الحال. فكيف أصنع؟ فنزلت: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ...﴾ الآية. فقال أبو بكر: يا رسول الله، أفرأيت الخانات والمساكن في طرق الشام، ليس فيها ساكن، فأنزل الله ﴿ليس عليكم جناح..﴾ الآية «القرطبي».

التفسير وأوجه القراءة

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو﴾ واختلقوا ﴿بِٱلْإِفْكِ﴾؛ أي: بأشد الكذب وأبلغه، وتكلموا به. مأخوذ[2] من الإفك وهو القلب؛ أي: الصرف؛ لأنه مأفوك عن وجهه وسننه. والمراد به ما أفك على عائشة ـ رضي الله عنها ـ، وذلك أن عائشة كانت تستحق الثناء بما كانت عليه من الأمانة والعفة والشرف، فمن رماها بالسوء.. قلب الأمر عن وجهه. ﴿عُصْبَةٌ﴾ خبر إن؛ أي: جماعة قليلة. ﴿مِّنكُمْ﴾ أيها المؤمنون، هم زيد بن رفاعة وحسان بن ثابت ومسطح بن أثاثة وعباد بن المطلب وحمنة بنت جحش وهي زوجة طلحة بن عبيد الله وعبد الله بن أبي بن سلول ومن ساعدهم؛ أي: إن الذين أتوا بالكذب في أمر عائشة، جماعة كائنة منكم في

---

(١) لباب النقول. (٢) روح البيان.

كونهم موصوفين بالإيمان وعبد الله بن أبي أيضاً كان من جملة من حكم له بالإيمان ظاهراً، وإن كان رئيس المنافقين خفية.

والمعنى: أي[1] إن الذين جاؤوا بالكذب والبهتان في حق عائشة جماعة منكم أيها المؤمنون، تعاونوا وأجمعوا أمرهم على إعلانه وإذاعته بين الناس، لمقاصد لهم أخفوها. والله عليم بما يفعلون. والعصبة والعصابة: جماعة من العشرة إلى الأربعين، وفي التعبير بعصبة: بيان أن هؤلاء شرذمة قليلون، وأنهم هم الذين ينشرونه، لا أنهم عدد كثير من الناس.

وقوله: ﴿لَا تَحۡسَبُوهُ﴾ كلام مستأنف؛ أي: لا تظنوا أيها المؤمنون ذلك الإفك والكذب ﴿شَرّٗا لَّكُمۖ﴾؛ أي: ضرراً لكم، والخطاب فيه للنبي ﷺ، وأبي بكر وعائشة وصفوان، وكل من ساءه ذلك الإفك، تسلية لهم أول الأمر، ﴿بَلۡ هُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۚ﴾؛ أي: لا تظنوا أن فيه فتنة وشرّاً، بل هو خير لكم لاكتسابكم به الثواب العظيم؛ لأنه كان بلاء مبيناً ومحنة ظاهرة، وإظهار كرامتكم على الله تعالى بإنزال قرآن يتلى مدى الدهر في براءتكم وتعظيم شأنكم، وتهويل الوعيد لمن يتكلم فيكم، والثناء على من ظن بكم خيراً، إلى نحو ذلك من الفوائد الدينية، والآداب التي لا تخفى على من تأملها.

فإن[2] قصة الإفك كانت في حق النبي ﷺ وفي حق عائشة وأبويها، وفي حق جميع الصحابة امتحاناً لهم وتهذيباً، فإن البلاء للأولياء كاللهب للذهب، كما قال ﷺ: «إن أشد الناس بلاء الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل» وقال ﷺ: «يبتلى الرجل على قدر دينه»؛ أي: وذلك لأن الله سبحانه غيور على قلوب خواص عباده المحبوبين، فإذا حصلت مساكنة بعضهم إلى بعض.. أجرى الله تعالى ما يرد كل واحد منهم عن صاحبه، ويرده إلى حضرته. وأن النبي ﷺ لما قيل له: أيُّ الناس أحب إليك؟ قال: «عائشة»، فساكنها وقال: «يا عائشة حبك في قلبي كالعقدة».

---

(١) المراغي. (٢) المراح.

وفي بعض الأخبار أن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: يا رسول الله، إني أحبك وأحب قربك. ا هـ. فأجرى الله تعالى حديث أهل الإفك، حتى رد الله سبحانه رسوله عن عائشة إلى الله بانحلال عقدة حبها عن قلبه، ورد عائشة عنه ﷺ إلى الله تعالى، حتى قالت لما ظهرت براءة ساحتها: بحمد الله لا بحمدك.

والشر[1] ما زاد ضره على نفعه، والخير ما زاد نفعه على ضره. وأما الخير الذي لا شر فيه فهو الجنة، والشر الذي لا خير فيه فهو النار. ووجه كونه خيراً لهم أنه يحصل لهم به الثواب العظيم مع بيان براءة أم المؤمنين، وصيرورة قصتها هذه شرعاً عاماً.

﴿لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ﴾؛ أي: على كل إنسان ﴿مِّنْهُم﴾؛ أي: من تلك العصبة. فاللام بمعنى على، والمرء: الإنسان، والرجل كالمرء، والألف فيه للوصل. ﴿مَّا ٱكْتَسَبَ﴾؛ أي: جزاء ما اجترح ﴿مِنَ ٱلْإِثْمِ﴾ والذنب بقدر ما خاض فيه، فإن بعضهم تكلم، وبعضهم كالمسرور الراضي بما سمع، وبعضهم أقل وبعضهم أكثر، فقدر العقاب يكون بقدر الخوض في الإثم، وفي «التأويلات النجمية» على حسب سعايتهم وفساد ظنهم، وهتك حرمة حرم نبيهم يكون عقابهم. انتهى.

﴿وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ﴾؛ أي: تحمل معظم ذلك الإثم وأكثره ﴿مِنْهُمْ﴾؛ أي: من أولئك العصبة؛ أي: والذي ابتدأ به، ورغب في إشاعته، وهو عبد الله بن أبي ﴿له﴾؛ أي: لذلك المتولي ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾؛ أي: شديد في الدنيا والآخرة. أما في الدنيا فبإظهار نفاقه على رؤوس الأشهاد، وأما في الآخرة فبعذاب لا يقدر قدره إلا العليم الحكيم، وقد كان هو أول من اختلقه لإمعانه في عداوة رسول الله ﷺ.

واختلف[2] في هذا الذي تولى كبره من عصبة الإفك من هو منهم. فقيل: هو عبد الله بن أبي، وقيل: هو حسان، والأول هو الصحيح. وقد روى محمد بن إسحاق وغيره أن النبي ﷺ جلد في الإفك رجلين وامرأة، وهو مسطح بن أثاثة

---

(١) الشوكاني. (٢) الشوكاني.

وحسان بن ثابت وحمنة بنت جحش، وقيل: جلد عبد الله بن أبي وحسان بن ثابت وحمنة بنت جحش ولم يجلد مسطحاً؛ لأنه لم يصرح بالقذف، ولكن كان يسمع ويشيع من غير تصريح، وقيل: لم يجلد أحداً منهم.

قال القرطبي: المشهور من الأخبار، والمعروف عند العلماء، أن الذين حدُّوا: حسان ومسطح وحمنة ولم يسمع بحدٍّ لعبد الله بن أبيّ، ويؤيد هذا ما في سنن أبي داود عن عائشة قالت: لما نزل عذري قام النبي ﷺ فذكر ذلك وتلا القرآن، فلما نزل من المنبر أمر بالرجلين والمرأة فضربوا حدهم، وسماهم حسان ومسطح بن أثاثة وحمنة بنت جحش، وكان مسطح في آخر عمره مكفوف البصر، وهو ابن خالة أبي بكر الصديق، وصار حسان في آخر عمره أعمى أشل اليدين.

واختلفوا في وجه تركه ﷺ لجلد عبد الله بن أبيّ. فقيل: لتوفير العذاب العظيم له في الآخرة، وحَدَّ من عداه؛ ليكون ذلك تكفيراً لذنبهم. كما ثبت عنه ﷺ في الحدود أنه قال: «إنها كفارة لمن أقيمت عليه»، وقيل: ترك حده تألُّفاً لقومه واحتراماً لابنه، فإنه كان من صالحي المؤمنين، وإطفاءً لنائرة الفتنة، فقد كانت ظهرت مباديها من سعد بن عبادة ومن معه، كما في «صحيح» مسلم.

وقيل[1]: الذي تولى كبره حسان كما تقدم، والعذاب العظيم عناه وحده، وضرب صفوان له بالسيف على رأسه. وقال له:

تَوَقَّ ذُبَابَ ٱلسَّيْفِ عَنِّيْ فَإِنَّنِيْ غُلَامٌ إِذَا هُوْجِيْتُ لَسْتُ بِشَاعِرِ
وَلَكِنَّنِيْ أَحْمِيْ حِمَايَ وَأَتَّقِيْ مِنَ ٱلْبَاهِتِ ٱلرَّامِيْ ٱلْبَرِيْءِ ٱلظَّوَاهِرِ

وأنشد حسان أبياتاً يثني فيها على أم المؤمنين ويظهر براءته مما نسب إليه وهي:

حَصَانٌ رَزَانٌ مَا تَزِنُّ بِرِيْبَةٍ وَتُصْبِحُ غَرْثَىٰ مِنْ لُحُوْمِ ٱلْغَوَافِلِ
حَلِيْلَةُ خَيْرِ ٱلنَّاسِ دِيْنَاً وَمَنْصِبَاً نَبِيُّ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْمَكْرُمَاتِ ٱلْفَوَاضِلِ

---

(١) البحر المحيط.

عَقِيلَةُ حَيٍّ مِنْ لُؤَيِّ بْنِ غَالِبِ كِرَامِ ٱلْمَسَاعِي مَجْدُهَا غَيْرُ زَائِلِ
مُهَذَّبَةٌ قَدْ طَيَّبَ ٱللَّهُ خَيْمَهَا وَطَهَّرَهَا مِنْ كُلِّ شَيْنٍ وَبَاطِلِ
فَإِنْ كَانَ مَا بُلِّغْتِ عَنِّيَ قُلْتُهُ فَلاَ رَفَعَتْ سَوْطِيْ إِلَيَّ أَنَامِلِيْ
وَكَيْفَ وَوِدِّيْ مَا حَيِيْتُ وَنُصْرَتِيْ بِآلِ رَسُوْلِ ٱللَّهِ زَيْنِ ٱلْمَحَافِلِ
لَهُ رُتَبٌ عَالٍ عَلَىٰ ٱلنَّاسِ فَضْلُهَا تَقَاصَرَ عَنْهَا سُوْرَةُ ٱلْمُتَطَاوِلِ

وقرأ الجمهور:[1] ﴿كِبْرَهُۥ﴾ بكسر الكاف. وقرأ الحسن وعمرة بنت عبد الرحمٰن والزهري وأبو رجاء ومجاهد وأبو البرهشيم والأعمش وحميد وابن أبي عبلة وسفيان الثوري ويزيد بن قطيب ويعقوب والزعفراني وابن مقسم وسورة عن الكسائي ومحبوب عن أبي عمرو بضم الكاف، والكِبْرُ والكُبْرُ مصدران لكَبُرَ الشيء إذا عَظُمَ، لكن استعمال العرب الضم ليس إلا في السن يقال: هذا كبر القوم؛ أي: كبيرهم سناً أو مكانة، وفي الحديث في قصة حويصة ومحيصة (الكُبر الكُبر) بضم. وقيل: كبره بالضم معظمه، وبالكسر البداءة بالإفك. وقيل: بالكسر الإثم.

ثم صرف سبحانه الخطاب عن رسول الله ﷺ ومن معه إلى المؤمنين بطريق الالتفات، وعاتبهم وغيرهم وزجرهم بتسعة زواجر:

الأول: هذا.

والثاني: ﴿لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ...﴾ الخ.

والثالث: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ...﴾ إلخ.

والرابع: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ...﴾ إلخ.

والخامس: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ...﴾ إلخ.

والسادس: ﴿يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ...﴾ إلخ.

---

(١) البحر المحيط.

والسابع: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ...﴾ إلخ.

والثامن: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ...﴾ إلخ.

والتاسع: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ...﴾ إلى ﴿سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾. اهـ. «شيخنا». ذكره في «الفتوحات».

قال: ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ﴾ لولا هنا تحضيضية، بمعنى (هلا) جيء بها تأكيداً للتوبيخ والتقريع، ومبالغة في معاتبتهم، ومعناها[1]: إذا دخلت على الماضي التوبيخ واللوم على ترك الفعل، إذ لا يتصور الطلب في الماضي، وإذا دخلت على المضارع فمعناها الحض على الفعل والطلب له، فهي في المضارع بمعنى الأمر؛ أي: هلا إذ سمعتم الإفك إيها الخائضون؛ أي: الشارعون في القول الباطل ﴿ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ﴾؛ أي: بأبناء دينهم ﴿خَيْرًا﴾؛ أي: عفافاً وصلاحاً، وفيه عدول إلى الغيبة لتأكيد التوبيخ فإن مقتضى الإيمان الظن بالمؤمن خيراً، وذب الطاعنين فيه، فمن ترك هذا الظن والذب، فقد ترك العمل بمقتضى الإيمان.

المراد بأنفسهم أبناء جنسهم ودينهم، النازلون منزلة أنفسهم، كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾ فإن المراد لا يعيب بعضكم بعضاً، فإن المؤمنين كنفس واحدة إذ كان الواجب أن يظن المؤمنون والمؤمنات أول ما سمعوا الإفك ممن اخترعه بالذات أو بالواسطة من غيره من غير توقف ولا تردد بأمثالهم من آحاد المؤمنين خيراً؛ أي: كان ينبغي للمؤمنين حين سمعوا مقالة أهل الإفك أن يقيسوا ذلك على أنفسهم، فإن كان ذلك يبعد فيهم، فهو في أم المؤمنين أبعد.

والمعنى: هلا ظن المؤمنون والمؤمنات بأمثالهم من المؤمنين خيراً وعفافاً وقت سماعهم ذلك الإفك، ﴿وَقَالُوا۟﴾؛ أي: وقال المؤمنون ﴿هَٰذَآ﴾ الإفك المنسوب إلى عائشة - رضي الله عنها - ﴿إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾؛ أي: كذب ظاهر بين كونه إفكاً، فكيف بالصديقة بنت الصديق أم المؤمنين حرمة رسول الله ﷺ.

---

(١) روح البيان.

وإنما عدل[١] عن الخطاب إلى الغيبة، وعن الضمير إلى الظاهر، ولم يقل: ظننتم بأنفسكم خيراً وقلتم، ليبالغ في التوبيخ بطريق الالتفات، وليدل التصريح بلفظ الإيمان، على أن الاشتراك فيه يقتضي أن لا يصدق مؤمن على أخيه، ولا مؤمنة على أختها قول عائب ولا طاعن، وهذا من الأدب الحسن، الذي قل القائم به والحافظ، وليتك تجد من يسمع فيسكت، ولا يشيع ما سمعه بإخوانه.

وإنما[٢] جاز الفصل بين لولا وفعله بالظرف؛ لأنه منزل منزلته من حيث إنه لا ينفك عنه، ولذلك يتسع فيه ما لا يتسع في غيره، وذلك لأن ذكر الظرف أهم. فإن التحضيض على أن لا يخلوا بأوله؛ أي: هلا إذ سمعتم[٣] ما قال أهل الإفك في عائشة.. ظننتم بمن اتهم بذلك خيراً وعفافاً؛ لأن الإيمان يحملكم على إحسان الظن ويكفكم عن إساءتكم الظن بأمثالكم من المؤمنين الذين هم كأنفسكم، وهلا قلتم حينئذٍ هذا إفك ظاهر، فإن الذي وقع لم يكن فيه ما يرتاب منه.

ذاك أن مجيء أم المؤمنين راكبة جهرةً على راحلة صفوان وقت الظهيرة والجيش أجمعه يشاهد ذلك، ورسول الله بين أظهرهم، ينفي كل شك، وإنما قيل لحسد في القلوب كامن وبغض في النفوس مكتوم.

وقيل المعنى: ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ﴾؛ أي: هذا[٤] إذ سمعتم أيتها العصبة الكاذبة قذف عائشة ﴿ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ من العصبة الكاذبة، وهم حسان ومسطح ﴿وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ﴾ وهي حمنة بنت جحش ﴿بِأَنفُسِهِمْ﴾؛ أي: بأمهاتهم أو بأخواتهم أو بأهل دينهم ﴿خَيْرًا﴾؛ أي: صلاحاً وعفافاً ﴿وَقَالُوا۟ هَٰذَآ﴾ القذف لعائشة ﴿إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾؛ أي: كذب ظاهر لا حقيقة له.

ثم علّل سبحانه كذب الآفكين، ووبخهم على ما اختلقوه وأذاعوه بقوله[٥]:

---

(١) النسفي.
(٢) البيضاوي.
(٣) المراغي.
(٤) زاد المسير.
(٥) البحر المحيط.

﴿لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ﴾ وهذا إما من تمام ما يقوله المؤمنون؛ أي: وقالوا: هلا جاء الخائضون ﴿بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ﴾ على ما قالوا، أو ابتداء كلام من الله سبحانه؛ أي: هلا جاءت العصبة الكاذبة على قذفهم عائشة، بأربعة شهداء يشهدون على ثبوت ما قالوا، وما رموها به؛ أي: يشهدون بأنهم عاينوا ما رموها به. فجعل الله[1] سبحانه فصلاً بين الرمي الصادق والرمي الكاذب ثبوت أربعة شهداء وانتفائها.

وقرأ الضحاك وعاصم الجحدري بأربعة منونة. ﴿فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ﴾ الأربعة؛ أي: فحين لم يقيموا بينةً على ما قالوا ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ﴾ المفسدون الخائضون في الإفك ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾؛ أي: في حكمه وشرعه المؤسس على الدلائل الظاهرة المتقنة.. ﴿هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾؛ أي: الكاملون في الكذب المشهود عليه بذلك، المستحقون لإطلاق الاسم عليهم دون غيرهم.

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ﴾ ولولا هنا[2] امتناعية؛ أي: امتناع الشيء لوجود غيره. والخطاب للسامعين والمسلمين جميعاً؛ أي: ولولا تفضله سبحانه عليكم أيها المسلمون ﴿فِى ٱلدُّنْيَا﴾ بضروب النعم التي من أجلها الإمهال للتوبة ﴿و﴾ رحمته لكم في ﴿الآخرة﴾ بضروب الآلاء، التي من جملتها العفو والمغفرة بعد التوبة المقدران لكم ﴿لَمَسَّكُمْ﴾ عاجلاً ﴿فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ﴾؛ أي: بسبب الإفك الذي أفضتم وخضتم فيه، فما موصولة، والباء سببية. ويصح أن تكون مصدرية.

والمعنى: حينئذٍ لمسكم بسبب إفاضتكم وخوضكم فيه؛ أي: في الإفك ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ في الدنيا والآخرة؛ أي: شديد يستحقر دونه التوبيخ والجلد الذي وقع لهم، غير ابن سلول فإن عذابه محتم في الآخرة، كما تقدم في قوله: ﴿وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ...﴾ إلخ؛ أي: لعجل لكم العقاب في الدنيا، من جراء ما خضتم فيه من حديث الإفك والبهتان.

ثم بين سبحانه وقت حلول العذاب الذي كانوا يستحقونه لولا الفضل والرحمة بقوله: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ﴾ بحذف إحدى التاءين ظرف للمس أو للإفاضة؛ أي:

---

(١) زاد المسير. (٢) روح البيان.

أي: لمسكم ذلك العذاب العظيم، وقت تلقيكم واستقبالكم ومواجهتكم ذلك الإفك، وأخذكم إياه من المخترعين ﴿بِأَلْسِنَتِكُمْ﴾ يأخذه ويرويه بعضكم من بعض. وذلك أن الرجل منهم يلقى الرجل، فيقول له: ما وراءك، فيحدثه بحديث الإفك، حتى شاع وانتشر، فلم يبق بيت ولا دار إلا طارَ فيه.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿تَلَقَّوْنَهُ﴾ بفتح الثلاث وشد القاف، وشد التاء البزي وأدغم ذال إذ في التاء، وكذلك النحويان أبو عمر والكسائي وحمزة؛ أي: يأخذه بعضكم من بعض وقرأ عمر بن الخطاب ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُ﴾ بتاء واحدة خفيفة مضمومة وإسكان اللام وقاف منقوطة بنقطتين مضمومة خفيفة، من ألقى يلقي. وقرأ معاوية وابن السميقع مثله إلا أنهما فتحا التاء والقاف من لقي الثلاثي، وقرأ ابن مسعود ﴿إذ تتلقونه﴾ بتاءين مفتوحتين مع نصب اللام وتشديد القاف. وقرأ أبيّ بن كعب وعائشة ومجاهد وأبو حيوة وابن عباس وعيسى وابن يعمر وزيد بن علي ﴿تلقونه﴾ بتاء واحدة خفيفة مفتوحة وكسر اللام ورفع القاف. ومعناه: إذ تسرعون بالكذب. يقال: ولق يلق إذا أسرع في الكذب. وقرأ ابن أسلم وأبو جعفر ﴿تألقونه﴾ بفتح التاء وهمزة ساكنة بعدها لام مكسورة من الألق. وهو الكذب. وقرأ يعقوب في رواية المازني ﴿تيلقونه﴾ بتاء مكسورة بعدها ياء ولام مفتوحة، كأنه مضارع ولق بكسر اللام كما قالوا تيجل مضارع وجلت. وقال سفيان: سمعت أمي تقرأ ﴿إذ تثقفونه﴾ يعني مضارع ثقف. قال: وكان أبوها يقرأ بحرف ابن مسعود.

﴿وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ﴾؛ أي: تقولون بأفواهكم كلاماً مختصاً بالأفواه لا مساعد له من القلوب؛ لأنه ليس تعبيراً عما تعلمه وتعتقده قلوبكم، وإنما[2] قيد بالأفواه، مع أن القول لا يكون إلا بالفم؛ لأن الشيء المعلوم يكون علمه في القلب أولاً، ثم يترجم عنه اللسان. وهذا الإفك ليس إلا قولاً يجري على الألسنة من غير علم به في القلب. نظير قوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ

(١) البحر المحيط وزاد المسير. (٢) النسفي.

بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾، وهو حرام لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾.

والمعنى[1]: وتقولون قولاً مختصاً بالأفواه، من غير أن يكون له مصداق ومنشأ في القلوب؛ لأنه ليس بتعبير عن علم به في قلوبكم؛ أي: إن قولهم هذا مختص بالأفواه، من غير أن يكون واقعاً في الخارج، معتقداً في القلوب. وقيل: إن ذكر الأفواه للتأكيد كما في قوله: ﴿ويطير بجناحيه﴾ والضمير في قوله: ﴿وَتَحْسَبُونَهُۥ﴾ راجع إلى الحديث الذي وقع الخوض فيه والإذاعة له، وتظنون حديث الإفك ﴿هَيِّنًا﴾؛ أي: شيئاً سهلاً لا تبعة له، أو ليس له كثير عقوبة، أو شيئاً يسيراً لا يلحقكم فيه إثم، حيث سكتم عن إنكاره.

وجملة قوله: ﴿وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ﴾ حال من ضمير المفعول؛ أي: وتحسبون ذلك الإفك هيناً، والحال أنه عند الله عظيم ذنبه وعقابه. وفي كلام بعض السلف: لا تقولن لشيء من سيئاتك نقير فلعله عند الله نخلة وهو عندك نقير. وقيل المعنى: وتحسبونه هيناً؛ أي: ذنباً صغيراً وهو عند الله عظيم؛ أي: ذنب كبير.

ومعنى الآية[2]: ولولا تفضله ورحمته لكم لمسكم ذلك العذاب وقت تلقيكم ما أفضتم فيه من الإفك، وأخذ بعضكم إياه من بعض بالسؤال عنه. وقولكم قولاً بأفواه دون أن يكون له منشأ في القلوب يؤيده، وظنكم إياه هيناً سهلاً لا يعبأ به، وهو من العظائم والكبائر عند الله تعالى.

وخلاصة ذلك: أنه وصفهم بارتكاب ثلاثة آثام وعلق مس العذاب العظيم بها.

١ ـ تلقي الإفك بالألسنة، فقد كان الرجل يلقى أخاه، فيقول له: ما وراءك، فيحدثه حديث الإفك حتى شاع وانتشر، حتى لم يبق بيت ولا نادٍ إلا طار فيه، فهم قد فعلوا جهد المستطاع في نشره.

---

(١) روح البيان. (٢) المراغي.

٢ ـ أنه قول بلا روية ولا فكر، فهو قول باللسان لا يترجم عما في القلب، إذ ليس هناك علم يؤيده، ولا قرائن أحوال وشواهد تصدقه.

٣ ـ استصغار ذلك وحسبانه مما لا يؤبه له، وهو عند الله عظيم الوزر، مستحقة لشديد العقوبة.

و﴿لَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ﴾ وهذا عتاب لجميع المؤمنين؛ أي: هلا إذ سمعتم حديث الإفك ﴿قُلْتُم﴾ تكذيباً للخائضين فيه المفترين له ﴿مَا يَكُونُ﴾ وينبغي ﴿لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا﴾ الإفك العظيم، ولا يمكننا أن نخوض فيه، ولا يصدر ذلك منا بوجه من الوجوه ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾؛ أي: ننزهك يا ربنا، عن أن تجعل لنبيك زوجة فاجرة، حالة كوننا متعجبين ممن تفوه بهذا الحديث. ﴿هَٰذَآ﴾ الإفك الذي لا يصح لأحد أن يتكلم به. ﴿بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ﴾؛ أي: كذب عظيم عند الله، التقاول به مصدر بهته؛ أي: قال: عليه ما لم يفعله. كما في «التأويلات النجمية».

وأصل سبحانك[1]، للتعجب من عظم الأمر. ومعنى التعجب في كلمة التسبيح: أن الأصل أن يسبح الله عند رؤية العجب من صنائعه، ثم كثر حتى استعمل في كل متعجب منه. أو لتنزيه الله من أن تكون حرمة نبيه فاجرة. وإنما جاز أن تكون امرأة النبي كافرة، كامرأة نوح ولوط، ولم يجز أن تكون فاجرة؛ لأن النبي ﷺ مبعوث إلى الكفار ليدعوهم، فيجب أن لا يكون معه ما ينفرهم عنه، والكفر غير منفر عندهم وأما الكشخنة فمن أعظم المنفرات.

والمعنى: أي[2] وهلا حين سمعتموه ممن بدأ به، وانتحله، أو ممن تابعه في القول قلتم تكذيباً له، وتهويلاً لشأن ما ارتكبه من الجرم: لا يحل لنا أن نتكلم بهذا، ولا ينبغي لنا أن نتفوه به. سبحانك رب هذا كذب صراح، يحير السامعين أمره، لما فيه من جرأة على بيت كريم شهير بالعفاف والطهر، ولما فيه من مس عرض ذلك البيت المقدس بيت النبوة الذي هو بالعليا من الإجلال والاحترام، وعظيم المكانة. وإذا جاز الخوض فيه على هذه الشاكلة. فماذا يبقى

---

(١) النسفي.　　　　(٢) المراغي.

للمؤمنين بعدئذ، أفليس هؤلاء هم الأسوة الحسنة وينبوع الطهر، ومنهم يقتبس المؤمنون فضائل الدين، وشريف الأخلاق، وإنا لنبرأ إليك ربنا منه، أن تلوكه ألسنتنا، وأن يحمل الهواء تلك النبرات الصوتية لتصل إلى أسماعنا، كما نبرأ إليك ربنا من كل أفاك أثيم، سولت له نفسه أن يكون الوسيلة في انتشار هذا القول الكاذب بين المؤمنين.

وخلاصة هذا: تنزه ربنا أن يرضى بظلم هؤلاء القاذفين، وأن لا يعاقبهم على عظيم ما ارتكبوا، وكبير ما اجترحوا من الإثم والفسوق، وأن توسم زوج نبيه بالفجوز، والعقل والدين يمنعان الخوض في مثل هذا؛ لأن فيه إيذاء للنبي ﷺ. والله يقول: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ ولأن فيه إشاعة الفاحشة التي أمر الله بسترها، ولأن في إظهار محاسن الناس وترك معايبهم تخلقاً بأخلاق الله، والنبي ﷺ يقول: «تخلقوا بأخلاق الله».

قال الزمخشري: فإن قلت: كيف جاز الفصل بين ﴿لولا﴾ و﴿قلتم﴾؟

قلت: للظروف شأن، وهو تنزلها من الأشياء منزلة نفسها لوقوعها فيها، وأنها لا تنفك عنها، فلذلك يتسع فيها ما لا يتسع في غيرها. انتهى.

قلت[1]: وما ذكره من أدوات التحضيض يوهم أن ذلك مختص بالظرف، وليس كذلك بل يجوز تقديم المفعول به على الفعل، فتقول: لولا زيداً ضربت، وهلا عمراً قتلت.

وقال الزمخشري أيضاً: فإن قلت: فأي فائدةٍ في تقديم الظرف حتى أوقع فاصلاً؟.

قلت: الفائدة بيان أنه كان الواجب عليهم، أن ينقادوا حال ما سمعوه بالإفك وينزجروا عن التكلم به، فلما كان ذكر الوقت أهم وجب التقديم. فإن قلت: ما معنى يكون، والكلام بدونه تام، لو قيل: ما لنا أن نتكلم بهذا؟

---

(١) البحر المحيط.

قلت: معناه: ما ينبغي ويصح؛ أي: ما ينبغي لنا أن نتكلم بهذا، ولا يصح لنا. ومثله قوله: ﴿مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾.

ثم حذر عباده المؤمنين أن يعودوا لمثل هذا، فقال: ﴿يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ﴾ سبحانه الوعظ والنصح والتذكير بالعواقب؛ أي: ينصحكم الله سبحانه، ويذكركم أيها الخائضون في أمر عائشة. ويعظكم بهذه المواعظ، التي بها تعرفون عظم هذا الذنب، وكبر هذا الجرم، وأن فيه النكال والعقاب بالحد في الدنيا، والعذاب في الآخرة، كراهية ﴿أَن تَعُودُواْ﴾ وترجعوا، أو من أن تعودوا، أو في أن تعودوا. ﴿لِمِثْلِهِۦٓ﴾؛ أي: لمثل هذا القذف. ﴿أَبَدًا﴾؛ أي: مدة حياتكم، أو ما دمتم أحياء مكلفين. ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾؛ أي: مصدقين بالله وبرسوله وباليوم الآخر، تتعظون بعظات الله، وتأتمرون بأمره، وتنتهون عما نهاكم عنه، فإن ذلك من مقتضى الإيمان الكامل، فإن الملك من مقتضى الإيمان الكامل. وفي قوله: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ إيماء[1] إلى أن الإيمان يمنع من فعل هذا. وفيه[2] حث لهم على الاتعاظ، وتهييج عظيم، وتقريع بالغ، لأن من شأن المؤمن الاحتراز مما يشينه من القبائح.

قال في «الكبير»: يدخل في هذا من قال وسمع ولم ينكر، لاستوائهما في فعل ما لا يجوز، وإن كان المقدم أعظم ذنباً.

﴿وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ﴾؛ أي: ويفصل الله سبحانه وتعالى لأجلكم أيها المؤمنون في كتابه. ﴿ٱلْأَيَٰتِۚ﴾ الدالة على الشرائع ومحاسن الآداب دلالة واضحة، لتتعظوا وتتأدبوا بها؛ أي: ينزلها مبينة ظاهرة الدلالة على معانيها، لا أنه يبينها بعد أن لم تكن كذلك. ﴿وَٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى. ﴿عَلِيمٌ﴾ بأحوال جميع مخلوقاته جلائلها ودقائقها، لا يخفى عليه شيء منها. فيجازي المحسن منكم بإحسانه والمسيء بإساءته ﴿حَكِيمٌ﴾ في تدبير شؤونكم وفيما كلفكم به، مما فيه سعادتكم في معاشكم ومعادكم. وبه تسمو نفوسكم وترقى إلى عالم الأرواح، وتكونون خير

---

(١) المراغي. (٢) البحر المحيط.

الأمم في ساحات الشعوب وعمارة الأرض وإقامة ميزان العدل بين أفرادها.

﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ ولقد صدق الله سبحانه وعده، وعمر أسلافنا الأولون ما كان معروفاً في ذلك الحين، وبثوا فيه فضائل الدين وسماحته، حتى صاروا مضرب الأمثال، فلما انحرفوا عن الصراط المستقيم والنهج القويم، تقلص ظلهم، وذهب ريحهم، وصاروا أذلاء مستعبدين، بعد أن كانوا سادةً حاكمين، ولله الأمر من قبل ومن بعد.

ولما كان من أنفع المواعظ بيان ما يستحقه المذنب من العقاب على جرمه بين ذلك بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ﴾ هم عبد الله بن أبيّ ومن تبعه في حديث الإفك ﴿يُحِبُّونَ﴾؛ أي: يريدون ﴿أَن تَشِيعَ﴾ وتنتشر ﴿ٱلْفَٰحِشَةُ﴾ ويظهر خبرها بين الناس. والفاحشة: ما عظم قبحه من الأفعال والأقوال. والمراد هنا الزنا.

﴿فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ بالله ورسوله، وأخلصوا دينهم لله سبحانه. وأحصنوا فروجهم عن المحرمات، كعائشة وصفوان ﴿لَهُمْ﴾؛ أي: لأولئك الذين أشاعوا الفاحشة بسبب ذلك. ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾؛ أي: موجع بإقامة حدّ القذف عليهم ﴿فِى ٱلدُّنْيَا﴾ واللعن والذم من الناس لهم فيها. ﴿و﴾ بعذاب النار في ﴿الآخرة﴾ وبئس القرار.

قال ابن الشيخ[1]: ليس معناه مجرد وصفهم بأنهم يحبون شيوعها في حق الذين آمنوا من غير أن يشيعوا ويظهروا، فإن ذلك لا يوجب الحد في الدنيا، بل المعنى: أن الذين يشيعون الفاحشة والزنا في الذين آمنوا، كعائشة وصفوان عن قصد ومحبة لإشاعتها، وفي «الإرشاد» يحبون شيوعها، ويتصدون مع ذلك لإشاعتها وإنما لم يصرح به اكتفاء بذكر المحبة، فإنها مستتبعة له لا محالة.

وفي «الصحيح»: أن رسول الله ﷺ قال: «المسلم من سلم المسلمون من يده ولسانه، والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه» وعنه ﷺ أنه قال: «لا يستر عبد

---

(١) روح البيان.

مؤمن عورة عبد مؤمن إلا ستره الله يوم القيامة، ومن أقال عثرة مسلم، أقال الله عثرته يوم القيامة». و﴿الله﴾ سبحانه وتعالى ﴿يَعْلَمُ﴾ جميع الأمور وخصوصاً ما في ضمائر من أحب الإشاعة، فردوا الأمور إلى ربكم ترشدوا ﴿وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ فلا ترووا ما لا علم لكم به، وابنوا الأمر في الحد وغيره على الظواهر، والله يتولى السرائر.

ثم كرر فضله ورحمته على عباده، للمنة عليهم بترك المعاجلة بالعقاب. فقال: ﴿وَلَوْلَا﴾ هنا امتناعية، حذف جوابها لدلالة ما قبلها عليه؛ أي: ولولا ﴿فَضْلُ اللَّهِ﴾؛ أي: تفضله ﴿عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ﴾؛ أي: إنعامه لكم. وجملة ﴿وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ معطوفة على فضل الله؛ أي: ولولا فضله عليكم ورحمته لكم، وأنه بليغ الرأفة والرحمة بكم، لعاجلكم بالعقاب على ما صدر منكم، ومن رأفته بعباده أن لا يعاجلهم بذنوبهم. ومن رحمته لهم أن يقدم إليهم بمثل هذا الإعذار والإنذار.

وفي الآيتين إشارات:

منها: أن أهل الإفك كما يعاقبون على الإظهار، يعاقبون بإسرار محبة الإشاعة، فدل على وجوب سلامة القلب للمؤمنين، كوجوب كف الجوارح والقول عما يضرهم. وفي الحديث: «أيما رجل أشاع على رجل مسلم كلمة، وهو منها بريء، يرى أن يشينه بها في الدنيا، كان حقاً على الله أن يرميه بها في النار». فالصنيع الذي ذكر من أهل الإفك ليس صنيع أهل الإيمان، فإن من صنيع أهل الإيمان ما قاله عليه السلام: «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً». وقال: «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم، كنفس واحدة، إذا اشتكى منها عضو، تداعى سائر الجسد بالحمى والسهر». فمن أركان الدين: مظاهرة المسلمين، وإعانة أهل الدين وإرادة الخير بكافة المؤمنين. والذي يود الفتنة وافتضاح الناس فهو شر الخلق كالخناس.

ومنها: أن ترك المعاجلة بالعذاب تعريض للتوبة. فدل على أن عذاب الآخرة، إنما هو من تقدير الإصرار.

ومنها: غاية كرم الله ورحمته وفضله على عباده، حيث يتفضل عليهم، ويرحمهم ويزكيهم عن أوصافهم الذميمة مع استحقاقهم العذاب الأليم في الدنيا والآخرة، فإنه خلق الخلق للرحمة لا للعذاب، ولو كان للعذاب.. لكان من جهتهم بسوء اختيارهم. عصمنا الله وإياكم من الأوصاف الذميمة الموجبة للعذاب الأليم، وشرفنا بالأخلاق الحميدة، الباعثة على الدرجات والتنعمات في دار النعيم.

والمعنى[1]: ولولا أن الله تفضل عليكم، وأبقاكم بعد الخوض في الإفك، ومكنكم من التلافي بالتوبة لهلكتم، لكنه لرأفته بعباده لا يدع ما هو أصلح للعبد وإن جنى على نفسه.

وبعدئذٍ حذر عباده من اتباع وساوس الشيطان فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بالله ورسوله ﴿لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾؛ أي: لا تسلكوا سبل الشيطان وطرقه، ولا تقتفوا آثاره بإشاعتكم الفحشاء في الذين آمنوا بروايتكم إياها عمَّن نقلها إليكم، والخطوات[2] في الأصل جمع خطوة بضم الخاء، وهي ما بين القدمين كما سيأتي في مباحث اللغة، ثم استعمل اتباع الخطوات في الاقتداء، وإن لم يكن ثمة خطو. والمراد بها هنا سيرة الشيطان وطريقته. والمعنى: لا تسلكوا الطرق التي يدعوكم إليها الشيطان، ويوسوس بها في قلوبكم ويزينها لأعينكم، ومن جملتها إشاعة الفاحشة في المؤمنين وحبّها.

وقرأ الجمهور[3]: ﴿خطوات﴾ بضم الخاء والطاء. وقرأ عاصم والأعمش بضم الخاء وإسكان الطاء.

ثم ذكر سبب النهي، فقال: ﴿وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾؛ أي: ومن اتبع وسلك طرق الشيطان، ومسالكه ومذاهبه.. فقد ارتكب الفحشاء والمنكر. فقوله:

---

(١) المراغي.
(٢) روح البيان.
(٣) الشوكاني.

﴿فَإِنَّهُۥ﴾؛ أي: فإن الشيطان ﴿يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ علة للجزاء وضعت موضعه؛ لأن دأبه أن يستمر آمراً لغيره بهما. والفحشاء ما أفرط قبحه من المنكرات كالزنا. والمنكر كل ما ينكره الشرع. وضمير إنه للشيطان. وقيل: للشأن. والأولى أن يكون عائداً إلى من يتبع خطوات الشيطان؛ لأن من اتبع الشيطان صار مقتدياً به في الأمر بالفحشاء والمنكر. وعبارة أبي السعود هنا. وقيل: إن الضمير في أنه عائد على من؛ أي: فإن المتبع للشيطان يأمر الناس بهما؛ فإن شأن الشيطان هو الإضلال، فمن اتبعه فإنه يترقى من رتبة الضلال والفساد إلى رتبة الإضلال والإفساد.

والمعنى: أي ومن اتبع الشيطان ارتكب الفحشاء والمنكر، فإنه لا يأمر إلا بهما. ومن هذا شأنه لا ينبغي اتباعه ولا طاعته.

ثم أكد منته على عباده، فقال: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ﴾ سبحانه ﴿عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ﴾ لكم بهذه البيانات، والتوفيق للتوبة الماحية للذنوب، وشرع الحدود المكفرة لها.. ﴿مَا زَكَىٰ﴾؛ أي: ما طهر من دنس الذنوب ﴿مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ﴾ ﴿من﴾: الأولى بيانية، والثانية: زائدة، و﴿أَحَدٍ﴾ في حيز الرفع على الفاعلية. ﴿أَبَدًا﴾؛ أي: آخر الدهر لا إلى نهاية، وجملة ﴿زَكَىٰ﴾ جواب ﴿لَوْلَا﴾ الامتناعية.

والمعنى: أي[1] ولولا فضل الله عليكم ورحمته لكم، بتوفيقكم للتوبة التي تمحو الذنوب، وتغسل أدرانها.. ما طهر أحد منكم من ذنبه ما دام حياً، وكانت عاقبته النكال والوبال. ولعاجلكم بالعقوبة، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ﴾.

وقال الكسائي[2]: إن قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ معترض. وقوله: ﴿مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾ جواب لقوله أولاً وثانياً. ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ﴾ وقوله: ﴿مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ﴾ يفيد[3] أنهم قد طهروا وتابوا،

---

(١) المراغي.
(٢) الشوكاني.
(٣) الفتوحات.

وهو كذلك يعني: غير عبد الله بن أبيّ، فإنه استمر على الشقاوة حتى هلك. ا هـ. شيخنا.

وقرأ الجمهور: ﴿زكى﴾ بالتخفيف. وقرأ الأعمش وابن محيصن وأبو جعفر بالتشديد؛ أي: ما طهره الله. وقراءة التخفيف أرجح لقوله: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ﴾ من عباده بالتفضُّل عليهم، والرحمة لهم؛ أي: ولكن الله جلت قدرته يطهر من يشاء من خلقه بقبول توبتهم من تلك الذنوب، التي اجترحوها تفضلاً منه ورحمة، كما فعل بمن سلم من داء النفاق، ممن وقع في حديث الإفك، كحسان ومسطح وغيرهما. ﴿وَٱللَّهُ﴾ سبحانه ﴿سَمِيعٌ﴾ لما تقولون بأفواهكم من القذف وإثبات البراءة. ﴿عَلِيمٌ﴾ بما في قلوبكم، من محبة إشاعة الفاحشة أو كراهتها، ومجازيكم بكل ذلك. وفي هذا حث لهم على الإخلاص في التوبة، والابتعاد جهد المستطاع عن المعصية، وارتكاب الأوزار والآثام: وتهييج عظيم لعباده التائبين ووعيد شديد لمن يتبع الشيطان ويحب أن تشيع الفاحشة في عباد الله المؤمنين ولا يزجر نفسه بزواجر الله سبحانه.

﴿وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ﴾؛ أي: ولا يحلف أصحاب الفضل والدرجة في الدين ﴿مِنكُمْ﴾ أيها المؤمنون ﴿و﴾ أصحاب ﴿السعة﴾ في المال على ﴿أَن﴾ لا ﴿يُؤْتُوٓاْ﴾ ولا يعطوا شيئاً من الأموال ولا يحسنوا بالإنفاق. فهو على إسقاط الخافض، وتقدير: لا. وهو كثير شائع ﴿أُوْلِي ٱلْقُرْبَىٰ﴾؛ أي: أصحاب القرابة. وقال أبو عبيدة: لا حاجة إلى تقدير: لا؛ أي: لا يقصروا في أن يحسنوا إليهم، وإن كانت بينهم شحناء لذنب اقترفوه.

وقوله: ﴿وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾[1] صفات لموصوف واحد، جيء بها بطريق العطف، تنبيهاً على أن كلاً منها علة مستقلة، لاستحقاق الإيتاء؛ لأن الكلام فيمن كان كذلك؛ لأن مسطحاً قريب ومسكين ومهاجر. والمعنى: ولا يحلف أولو الفضل والسعة، على أن لا يعطوا ناساً جامعين لصفة القرابة

---

(١) روح البيان.

والمسكنة والهجرة نفقة من أموالهم. ومسطح[1] كان ابن خالة أبي بكر الصديق ـ رضي الله عنهما ـ، وكان من المهاجرين وممن شهد بدراً، وكان مسكيناً، وكان ما نسب إليه داعياً أبا بكر أن لا يحسن إليه، فأمر هو ومن جرى مجراه بالعفو والصفح.

وقرأ الجمهور: ﴿وَلَا يَأْتَلِ﴾. وقرأ عبد الله بن عياش بن ربيعة وأبو جعفر مولاه وزيد بن أسلم والحسن وأبو العالية وابن أبي عبلة. ﴿ولا يتأل﴾ بهمزة مفتوحة بين التاء واللام وتشديد اللام على وزن يتعل. وقرأ أبو حيوة وابن قطيب وأبو البرهشيم: ﴿أن تؤتوا﴾ بالتاء على الالتفات ويناسبه ﴿ألا تحبون﴾.

﴿وَلْيَعْفُواْ﴾؛ أي: وليتجاوز أولو الفضل عن ذنب الخائضين، الذي أذنبوه عليهم، وجنايتهم التي اقترفوها، من عفا الربع إذا درس. والمراد: محو الذنب، حتى لا يبقى له أثر. ﴿وَلْيَصْفَحُوٓاْ﴾؛ أي: وليعرضوا عن لومهم بالإغضاء عن الجاني، والإغماض عن جنايته.

قال الراغب: الصفح ترك التثريب، وهو أبلغ من العفو. وقد يعفو الإنسان ولا يصفح. ا هـ. وقرأ عبد الله والحسن وسفيان بن الحسين وأسماء بنت يزيد ﴿ولتعفوا ولتصفحوا﴾ بالتاء بأمر خطاب الحاضرين.

أي[2]: وليتركوا عقوبتهم على ذلك، بحرمانهم مما كانوا يؤتونهم، وليعودوا لهم إلى مثل الذي كان لهم عليهم من الأفضال. ثم ذكر سبحانه ترغيباً عظيماً لمن عفا وصفح فقال: ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْۗ﴾ بهمزة الاستفهام التوبيخي؛ أي: ألا تحبون يا أرباب الفضل والسعة، أن يستر الله عليكم ذنوبكم بأفضاله عليكم، والجزاء من جنس العمل، فكما تغفر ذنب من أذنب إليك يغفر الله لك، وكما تصفح يصفح الله عنك. فحينئذٍ قال الصديق: بلى والله، نحب أن يغفر لنا ربنا. ثم رجع إلى مسطح ما كان يصله من النفقة وكفر عن يمينه. وقال والله لا أنزعها منه أبداً. ﴿وَٱللَّهُ﴾ سبحانه ﴿غَفُورٌ﴾ لذنوب من أطاعه واتبع أمره.

---

(١) البحر المحيط.
(٢) المراغي.

﴿رَّحِيمٌ﴾ به، لا يعذبه على ما كان له من زلة قد استغفر منها وتاب إليه من فعلها، فكيف لا يقتدي العباد بربهم في العفو والصفح عن المسيئين إليهم. وفي هذا ترغيب عظيم في العفو، ووعد كريم عليه بالمغفرة من الذنوب. وحث على مكارم الأخلاق.

وفي «معجم الطبراني الكبير» أنه أضعف له النفقة التي كان يعطيه إياها قبل القذف؛ أي: أعطاه ضعف ما كان يعطيه قبل ذلك. وقال بعضهم:

مَنْ كَانَ يَرْجُوْ عَفْوَ مَنْ فَوْقَهُ فَلْيَعْفُ عَنْ ذَنْبِ ٱلَّذِيْ دُوْنَهُ

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ﴾؛ أي: يقذفون بالزنا ﴿ٱلْمُحْصَنَٰتِ﴾؛ أي: العفائف مما رمين به من الفاحشة والزنا، وأجمعوا على أن حكم المحصنين من الرجال حكم المحصنات من النساء في حدّ القذف. ﴿ٱلْغَٰفِلَٰتِ﴾ عن الفاحشة على الإطلاق، بحيث لم يخطر ببالهن شيء منها، ولا من مقدماتها أصلاً. ففيها من الدلالة على كمال النزاهة ما ليس من المحصنات ﴿ٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾؛ أي: المتصفات بالإيمان بكل ما يجب أن يؤمن به من الواجبات، والمحظورات وغيرها، إيماناً حقيقياً تفصيلياً، كما ينبيء عنه تأخير المؤمنات عما قبلها، مع أصالة وصف الإيمان. والمراد بها عائشة الصديقة ـ رضي الله عنها ـ. والجمع باعتبار أن رميها رمي لسائر أمهات المؤمنين، لاشتراك الكل في العصمة والنزاهة، والانتساب إلى رسول الله ﷺ. كما في قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾﴾ ونظائره.

وجملة قوله: ﴿لُعِنُوا۟﴾ خبر ثان؛ أي[١]: لعنوا وطردوا من رحمة الله تعالى بسبب ما قالوا في المحصنات وهتكوا حرمتهن ﴿فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ حيث يلعنهم اللاعنون من المؤمنين والملائكة أبداً. وأصل اللعنة: الطرد والإبعاد على سبيل السخط، وذلك من الله تعالى في الآخرة عقوبة، وفي الدنيا انقطاع عن قبول فيضه وتوفيقه، ومن الإنسان دعاء على غيره.

﴿وَلَهُمْ﴾؛ أي: لأولئك الرامين مع ما ذكر من اللعن الأبدي ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾

---

(١) روح البيان.

لعظم ذنوبهم. قال مقاتل: هذا خاص في عبد الله بن أبي ابن سلول المنافق.

وفي «الشوكاني» وقد[1] اختلف في هذه الآية، هل هي خاصة أم عامة؟ فقال سعيد بن جبير: هي خاصة فيمن رمى عائشة ـ رضي الله عنها ـ. وقال مقاتل: هي خاصة بعبد الله بن أبي رأس المنافقين. وقال الضحاك والكلبي: هذه الآية هي في عائشة وسائر أزواج النبي ﷺ دون سائر المؤمنون والمؤمنات، فمن قذف إحدى أزواج النبي ﷺ، فهو من أهل هذه الآية.

قال الضحاك: ومن أحكام هذه الآية: أنه لا توبة لمن رمى إحدى أزواجه ﷺ. ومن قذف غيرهن.. فقد جعل الله له التوبة، كما تقدم في قوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟﴾ وقيل: إن هذه الآية خاصة بمن أصر على القذف، ولم يتب. وقيل: إنها تعم كل قاذف ومقذوف من المحصنات والمحصنين. واختاره الناس. وهو الموافق لما قرره أهل الأصول، من أن الاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب. وقيل: إنها خاصة بمشركي مكة؛ لأنهم كانوا يقولون للمرأة إذا خرجت مهاجرة إنما خرجت لتفجر. قال أهل العلم: إن كان المراد بهذه الآية المؤمنين من القذفة.. فالمراد باللعنة الإبعاد وضرب الحد وهجر سائر المؤمنين لهم وزوالهم عن رتبة العدالة والبعد عن الثناء الحسن على ألسنة المؤمنين. وإن كان المراد من قذف عائشة خاصة، كانت هذه الأمور في جانب عبد الله بن أبي رأس المنافقين. وإن كان في مشركي مكة فإنهم ملعونون.

وقيل المعنى[2]: ﴿لُعِنُوا۟﴾؛ أي: عذبوا ﴿فِى ٱلدُّنْيَا﴾ بالحد وفي ﴿الآخرة﴾ بالنار ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ هو عذاب الكفر.

والخلاصة: أي[3] إن الذين يتهمون بالفاحشة العفيفات الغافلات عنها، المؤمنات بالله ورسوله يبعدون من رحمة الله في الدنيا والآخرة، ولهم في الآخرة عذاب عظيم جزاء ما اقترفوا من جناياتهم، فهم مصدر قالة السوء في المؤمنات،

---

(١) الشوكاني.
(٢) المراح.
(٣) المراغي.

وإشاعة الفاحشة بين المؤمنين، والقدوة السيئة لمن يتكلم بها، فعليهم وزرها ووزر من تكلم بها. كما ورد في الحديث «من سن سنة سيئة فعليه وزرها، ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة».

﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ﴾ هذه الجملة مقررة لما قبلها، مبينة لوقت حلول ذلك العذاب بهم وتعيين اليوم لزيادة التهويل، بما فيه من العذاب الذي لا يحيط به وصف. والعامل في الظرف الاستقرار الذي تعلق به الخبر، والتقدير: وعذاب عظيم كائن لهم، ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ﴾ إلخ. وإنما[1] لم يجعل منصوباً بالمصدر وهو عذاب؛ لأن شرط عمله عند البصريين أن لا يوصف وهنا قد وصف، وأجيب عن هذا، بأن الظرف يتسع فيه ما لا يتسع في غيره. ا هـ. من «السمين».

وتقديم[2] ﴿عَلَيْهِمْ﴾ على الفاعل، للمسارعة إلى بيان كون الشهادة ضارة لهم. والشهادة معناها: قول صادر عن علم، حصل بمشاهدة بصر، أو بصيرة؛ أي: تشهد عليهم ألسنتهم بغير اختيار منهم ذنوبهم التي اقترفوها. فالمشهود به محذوف. وهذا قبل أن يختم على أفواههم، فلا تعارض بينه وبين قوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ﴾ ﴿وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ فتخبر كل جارحة بما صدر من أفاعيل صاحبها، لا أن كلاً منها تخبر بجنايتها المعهودة فقط. فالموصول عبارة عن جميع أعمالهم السيئة.

وقيل المعنى[3]: تشهد ألسنة بعضهم على بعض في ذلك اليوم. وقيل: تشهد عليهم ألسنتهم في ذلك اليوم، بما تكلموا به، وأيديهم وأرجلهم بما عملوا بها في الدنيا. وأن الله سبحانه ينطقها بالشهادة عليهم.

وقرأ الأخوان[4] حمزة والكسائي والزعفراني وابن مقسم وابن سعدان ﴿يشهد﴾ بياء من تحت؛ لأنه تأنيث مجازي، ووقع الفصل، وباقي السبعة بالتاء.

---

(١) الفتوحات.

(٢) روح البيان.

(٣) الشوكاني.

(٤) البحر المحيط.

أي: ولهم[1] ذلك العذاب الذي لا يقدر قدره، يوم يجحدون ما اكتسبوا في الدنيا من الذنوب حين سؤالهم عنها، فتشهد عليهم أيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون، من قول أو فعل. إذ ينطقها الله سبحانه بقدرته، فتخبر كل جارحة بما صدر منها من أفاعيل صاحبها. ونحو الآية قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ﴾.

وعن أبي سعيد الخدري، أن النبي ﷺ قال: «إذا كان يوم القيامة، عرف الكافر بعمله، فيجحد ويخاصم، فيقال: هؤلاء جيرانك يشهدون عليك. فيقول: كذبوا. فيقال: أهلك وعشيرتك. فيقول: كذبوا. فيقال: احلفوا فيحلفون. ثم يصمهم الله، فتشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم، ثم يدخلهم النار». ويرى فريق من المفسرين أن الشهادة هنا ليست الشهادة باللسان، لئلا يعارض قوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ﴾ بل شهادة الإثبات والبيان. إذ كل ما يعمله الإنسان في الدنيا من قول أو فعل تنطبع له صورة على العضو الذي فعله، فالكلمة يقولها تنطبع لها صورة على اللسان، واليد التي تمتد لفعل شيء والرجل التي تخطو إلى عمل، كل ذلك يحفظ على نفس الجارحة التي فعلته، فما أشبه ذلك بالصور التي تؤخذ اليوم لأصابع المجرمين وبصمات أيديهم وأرجلهم في فلم تحقيق الشخصية للرجوع إليها إذا دعت الحاجة إلى ضبط أولئك المجرمين. فما ينطبع إذ ذاك على اللسان واليد والرجل يكون كافياً جد الكفاية في إثبات الجرم على أولئك المجرمين والطغاة الظالمين.

﴿يَوْمَئِذٍ﴾؛ أي: يوم إذ تشهد عليهم جوارحهم بأعمالهم القبيحة. ﴿يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ﴾؛ أي: يعطيهم الله سبحانه جزاءهم الحق الثابت، الذي لا شك في ثبوته على أعمالهم موفراً كاملاً. والتوفية[2] بذل الشيء وافياً. والوافي الذي بلغ التمام والدين الجزاء والحق منصوب على أنه صفة للدين.

والمعنى: أي يوم إذ تشهد جوارحهم بأعمالهم القبيحة يعطيهم الله جزاءهم

---

(١) المراغي. (٢) روح البيان.

الثابت الواجب الذي هم أهله وافياً كاملاً. ﴿وَيَعْلَمُونَ﴾ عند معاينتهم الأهوال والخطوب ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ سبحانه ﴿هُوَ الْحَقُّ﴾؛ أي: الثابت الوجود ﴿الْمُبِينُ﴾؛ أي: الظاهر حقيته، لما أنه أبان لهم حقية ما كان يعدهم به في الدنيا من الجزاء.

والخلاصة[1]: أي في هذا اليوم يوفيهم الله جزاءهم على أعمالهم، ويعلمون أن ما كانوا يوعدون به في حياتهم الدنيا من العذاب هو الحق الذي لا شك فيه. ويزول عنهم كل ريب كان قد ألم بهم في الدار الأولى.

وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: «اجتنبوا السبع الموبقات، قيل: وما هن يا رسول الله؟ قال: الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات». رواه الشيخان.

قال صاحب «الكشاف»: ولو قلبت القرآن كله، وفتشت عما أوعد به العصاة، لم تر أن الله قد غلظ في شيء تغليظه في إفك عائشة ـ رضوان الله عليها ـ، ولا أنزل من الآيات القوارع المشحونة بالوعيد الشديد، والعقاب البليغ، والزجر العنيف واستعظام ما ركب من ذلك، واستفظاع ما أقدم عليه على طرق مختلفة وأساليب مفتنة، كل واحد منها كافٍ في بابه. ولو لم ينزل إلا هذه الثلاث.. لكفى بها، حيث جعل القذفة ملعونين في الدارين جميعاً، وتوعدهم بالعظيم في الآخرة، وبأن ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم تشهد عليهم بما أفكوا وبهتوا. وأنه يوفيهم جزاءهم الحق الذي هم أهله. اهـ.

وقرأ زيد بن علي[2]: ﴿يُوَفِيهِمُ﴾ مخففاً من أوفى، وقرأ من عداه: بالتشديد من وفى. وقرأ الجمهور ﴿الحق﴾ بالنصب صفة لدينهم. وقرأ عبد الله ومجاهد وأبو حيوة: بالرفع على أنه صفة للجلالة. وروي ذلك عن ابن مسعود. قال أبو عبيدة: ولولا كراهة خلاف الناس.. لكان الوجه الرفع، ليكون نعتاً لله عز وجل، ولتكون موافقة لقراءة أبيّ. وذلك أن جرير بن حازم قال: رأيت في مصحف أبي

---

(١) المراغي. (٢) البحر المحيط.

﴿يوفيهم الله الحق دينهم﴾ قال النحاس: وهذا الكلام من أبي عبيدة غير مرضي؛ لأنه احتج بما هو مخالف للسواد الأعظم، ولا حجة فيه أيضاً؛ لأنه لو صح أنه مصحف أبي كذلك جاز أن يكون دينهم بدلاً من الحق.

قال الزمخشري: فإن قلت: ما معنى قوله: ﴿هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ﴾؟ قلت: معناه: ذو الحق المبين، العادل الذي لا ظلم في حكمه، والمحق الذي لا يوصف بباطل، ومن هذه صفته لم تسقط عنده إساءة مسيء، ولا إحسان محسن. فحق مثله أن يتقى ويجتنب محارمه. انتهى.

وفي الآية أمور(١):

منها: بيان جواز اللعنة على من كان من أهلها. قال الإمام الغزالي رحمه الله تعالى: الصفات المقتضية للعن ثلاث: الكفر، والبدعة، والفسق. وله في كل واحدة، ثلاث مراتب:

الأولى: اللعن بالوصف الأعم، كقولك: لعنة الله على الكافرين، أو المبتدعة، أو الفسقة.

والثانية: اللعن بأوصاف أخص منه، كقولك: لعنة الله على اليهود والنصارى، أو على القدرية والخوارج والروافض، أو على الزناة، والظلمة وآكل الربا. وكل ذلك جائز، ولكن في لعن بعض أصناف المبتدعة خطر؛ لأن معرفة البدعة غامضة، فما لم يرد فيه لفظ مأثور ينبغي أن يمنع منه العوام؛ لأن ذلك يستدعي المعارضة بمثله، ويثير نزاعاً وفساداً بين الناس.

والثالثة: اللعن على الشخص، فينظر فيه، إن كان ممن ثبت كفره شرعاً، فيجوز لعنه إن لم يكن فيه أذى على مسلم، كقولك: لعنة الله على النمرود وفرعون وأبي جهل؛ لأنه ثبت أن هؤلاء ماتوا على الكفر، وعرف ذلك شرعاً. وإن كان ممن لم يثبت حال خاتمته بعد، كقولك: زيد لعنه الله، وهو يهودي أو

---

(١) روح البيان.

فاسق، فهذا فيه خطر؛ لأنه ربما يسلم، أو يتوب فيموت مقرباً عند الله تعالى، فكيف يحكم بكونه ملعوناً.

ومنها: شهادة الأعضاء، وذلك بإنطاق الله تعالى، فكما تشهد على المذنبين بذنوبهم تشهد للمطيعين بطاعتهم، فاللسان يشهد على الإقرار وقراءة القرآن، واليد تشهد بأخذ المصحف، والرجل تشهد بالمشي إلى المسجد، والعين تشهد بالبكاء، والأذن تشهد باستماع كلام الله تعالى. وقيل[1]: شهادة الأعضاء في القيامة مؤجلة، وشهادتها في المحبة اليوم معجلة من صفرة الوجه وتغير اللون ونحافة الجسم وانسكاب الدموع وخفقان القلب وغير ذلك.

ثم ختم سبحانه الآيات الواردة في أهل الإفك بكلمة جامعة، فقال: ﴿ٱلْخَبِيثَٰتُ﴾ من النساء ﴿لِلْخَبِيثِينَ﴾ من الرجال لا يتجاوزونهم ﴿وَٱلْخَبِيثُونَ﴾ من الرجال ﴿لِلْخَبِيثَٰتِ﴾ من النساء؛ لأن المجانسة من دواعي الألفة ودوام العشرة ﴿وَٱلطَّيِّبَٰتُ﴾ من النساء ﴿لِلطَّيِّبِينَ﴾ من الرجال، لما قد عرفت من الأنس بمن يحاكيك في الصفات، ويجانسك في الفضل والكمال. ﴿وَٱلطَّيِّبُونَ﴾ منهم أيضاً ﴿لِلطَّيِّبَٰتِ﴾ منهن، لا تجاوزوهن إلى من عداهن. وإذا كان رسول الله ﷺ من أطيب الأطيبين، وخيرة الأولين والآخرين.. استبان أن الصديقة ـ رضي الله عنها ـ من أطيب الطيبات، واستبان بطلان ما أشاعه المرجفون من أهل الإفك.

قال مجاهد وسعيد بن جبير وعطاء وأكثر المفسرين[2]: المعنى: الكلمات الخبيثات من القول للخبيثين من الرجال، والخبيثون من الرجال للخبيثات من الكلمات، والكلمات الطيبات من القول للطيبين من الناس، والطيبون من الناس للطيبات من الكلمات. قال النحاس: وهذا أحسن ما قيل. قال الزجاج: ومعناه: لا يتكلم بالخبيثات إلا الخبيث من الرجال والنساء. ولا يتكلم بالطيبات إلا الطيب من الرجال والنساء. وهذا ذم للذين قذفوا عائشة بالخبيث، ومدح للذين برؤوها.

---

(١) روح البيان.
(٢) الشوكاني.

وقيل: إن هذه الآية مبنية على قوله تعالى: ﴿ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً﴾. فالخبيثات الزواني والطيبات العفائف. وكذا الخبيثون والطيبون.

والإشارة في قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ﴾ راجعة إلى الطيبين والطيبات؛ أي: أولئك الطيبون والطيبات، ومنهم صفوان وعائشة مبرؤون مما يقول الخبيثون من الرجال والخبيثات من النساء. وقيل: الإشارة إلى أزواج النبي ﷺ. وقيل: إلى رسول الله ﷺ وعائشة وصفوان بن المعطل. وقيل: عائشة وصفوان فقط. قال الفراء: وجمع كما قال تعالى: ﴿فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخْوَةٌ﴾ والمراد أخوان.

وقال في «الأسئلة المقحمة»[1]: آية الإفك نزلت في عائشة وصفوان، فكيف ذكرها بلفظ الجمع؟ والجواب: لأن الشين وعار الزنا والمعرة بسببه تتعدى إلى رسول الله ﷺ؛ لأنه زوجها وإلى أبي بكر الصديق؛ لأنه أبوها، وإلى عامة المسلمين؛ لأنها أمهم، فذكر الكل بلفظ الجمع؛ أي: أولئك الموصوفون بعلو الشأن، يعني أهل البيت مبرؤون؛ أي: منزهون مما يقوله أهل الإفك في حقهم من الأكاذيب الباطلة في جميع الأعصار والأطوار إلى يوم القيامة. ﴿لَهُم﴾؛ أي: لأولئك المبرئين ﴿مَّغْفِرَةٌ﴾ عظيمة لما لا يخلو عنه البشر من الذنوب التي اقترحوها من قبل. ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾؛ أي: كثير أو حسن عند ربهم في جنات النعيم.

روي: أن[2] عائشة كانت افتخرت بأشياء أعطيتها لم تعطها امرأة غيرها:

منها: أن جبريل عليه السلام أتى بصورتها في سرقة حرير، وقال: هذه زوجتك. وروي أنه أتى بصورتها في راحته.

ومنها: أن النبي ﷺ لم يتزوج بكراً غيرها، وقبض رسول الله ﷺ في حجرها وفي يومها ودفن في بيتها. وكان ينزل عليه الوحي وهي معه في اللحاف. ونزلت براءتها من السماء. وأنها ابنة الصديق وخليفة رسول الله ﷺ. وخلقت

---

(١) روح البيان.

(٢) الخازن.

طيبة، ووعدت مغفرةً ورزقاً كريماً، وكان مسروق إذا حدث عن عائشة يقول: حدثتني الصديقة بنت الصديق، حبيبة رسول الله ﷺ، المبرأة من السماء.

وفي «القرطبي»: قال[1] بعض أهل التحقيق: إن يوسف عليه السلام، لما رمي بالفاحشة برأه الله على لسان صبي في المهد. وأن مريم لما رميت بالفحشاء برأها الله على لسان ولدها عيسى عليه السلام، وأن عائشة لما رميت بالفاحشة برأها الله بالقول، ما رضي لها براءة صبي ولا نبي حتى برأها الله بكلامه من القذف والبهتان. ا هـ.

ولما فرغ سبحانه من ذكر الزجر عن الزنا والقذف شرع في ذكر الزجر عن دخول البيوت بغير استئذان، لما في ذلك من مخالطة الرجال بالنساء. فربما يؤدي إلى أحد الأمرين المذكورين. وأيضاً أن الإنسان يكون في بيته وتكون خلوته على حالة قد لا يحب أن يراه عليها غيره. فنهى الله سبحانه عن دخول بيوت الغير إلى غاية هي قوله: ﴿حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا﴾ فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بالله ورسوله ﴿لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا﴾ لستم تملكونها ولا تسكنونها ﴿غَيْرَ بُيُوتِكُمْ﴾ التي تسكنونها بملك أو إجارة، أو إعارة مثلاً.

ووصف[2] البيوت بمغايرة بيوتهم خارجة مخرج العادة التي هي سكنى كل أحد في ملكه، وإلا فالمؤجر والمعير لا يدخلان إلا بإذنٍ ﴿حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا﴾؛ أي: حتى تستأذنوا الدخول ممن يملك الإذن من أصحابها، وتستكشفوا الحال هل يراد دخولكم أم لا، وحتى يؤذن لكم. فالدخول بالإذن من الآداب الجميلة والأفعال المرضية المستتبعة لسعادة الدارين، مأخوذ من الاستئناس، بمعنى الاستسلام من آنس الشيء إذا أبصره مكشوفاً فعلم به، فإن المستأذن مستعلم للحال مستكشف أنه هل يؤذن له أو لا. ومن الاستئناس الذي هو خلاف الاستيحاش، لما أن المستأنس مستوحش، خائف أن لا يؤذن له، فإذا أذن له.. استأنس، ولهذا يقال في جواب القادم المستأذن مرحباً: أهلاً وسهلاً؛ أي:

---

(١) القرطبي.
(٢) روح البيان.

وجدت مكاناً واسعاً وأتيت أهلاً لا أجانب، ونزلت مكاناً سهلاً لا حزناً ليزول به استيحاشه وتطيب نفسه. فيؤول المعنى إلى أن يؤذن لكم، فهو من باب الكناية، حيث ذكر الاستئناس اللازم وأريد الإذن الملزوم.

﴿وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهْلِهَاۚ﴾؛ أي: على سكانها عند الاستئذان، بأن يقول الواحد منكم: السلام عليم، أأدخل ـ ثلاث مرات ـ فإن أذن له، دخل وسلم ثانياً، وإلا رجع. كما ورد في الحديث. وقال عطاء: الاستئذان واجب على كل محتلم. والظاهر مطلق الاستئذان، فيكفي فيه المرة الواحدة. وفي الحديث الاستئذان ثلاث يعني كمالُهُ فإن أذِنَ له وإلا فليرجع، ولا يزيد على ثلاث، إلا أن يتحقق أن من في البيت لم يسمع. ذكره في «البحر».

واختلفوا هل[1] يقدم الاستئذان على السلام أو بالعكس. فقيل: يقدم الاستئذان، فيقول: أأدخل، سلام عليكم، لتقديم الاستئناس في الآية على السلام. وقال الأكثرون: يقدم السلام على الاستئذان. فيقول السلام عليكم أأدخل. وهو الحق؛ لأن البيان منه ﷺ للآية كان هكذا. وتقدير الآية: حتى تسلموا على أهلها وتستأذنوا، وهو كذلك في مصحف ابن مسعود. ويكون كل من السلام والاستئذان ثلاث مرات يفصل بين كل مرتين بسكونٍ يسير، فالأول: إعلام، والثاني: للتهيء، والثالث: استئذان في الدخول أو الرجوع. وإذا أتى الباب، لم يستقبله من تلقاء وجهه، بل يجيء من جهة ركنه الأيمن أو الأيسر. وقيل: إن وقع بصره على أحد في البيت، قدم السلام، وإلا قدم الاستئذان ثم يسلم. ا هـ. «خازن».

وروى[2] الشيخان وغيرهما عن جابر بن عبد الله قال: استأذنت على النبي ﷺ فقال: من هذا؟ فقلت: أنا. فقال النبي ﷺ: أنا أنا. كأنه كره ذلك. قال علماؤنا: إنما كره النبي ﷺ ذلك؛ لأن قوله: أنا لا يحصل به تعريف، وإنما الحكم في ذلك أن يذكر اسمه، كما فعل عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ وأبو

---

(١) الخازن بتصرف. (٢) القرطبي.

موسى الأشعري؛ لأن في ذكر الاسم إسقاط كلمة السؤال والجواب، وقد ثبت عن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ أنه أتى النبي ﷺ وهو في مشربة له فقال: السلام عليك يا رسول الله، السلام عليكم، أيدخل عمر؟ وفي «صحيح مسلم» أن أبا موسى جاء إلى عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنهما ـ فقال: السلام عليكم هذا أبو موسى، السلام عليكم، هذا الأشعري. الحديث. ا هـ. من «القرطبي».

وقد أدب الله سبحانه عباده المؤمنين بآداب نافعة في بقاء الود وحسن العشرة بينهم ومن ذلك: أن لا يدخلوا بيوت غيرهم إلا بعد الاستئذان والسلام، حتى لا يطلعوا على عورات غيرهم، ولا ينظروا إلى ما لا يحل لهم النظر إليه، ولا يقفوا على الأحوال التي يطويها الناس في العادة، ويستحفظون من اطلاع أحد عليها، إلى أن في هذا تصرفاً في ملك غيرك، فلا بد أن يكون برضاه.

﴿ذَٰلِكُمْ﴾ الاستئذان والتسليم والانتظار حتى يؤذن لكم. ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ من[1] الدخول بغتة بغير استئذان، ولو على الأم، فإنها تحتمل أن تكون عريانة. أو من الدخول على عادة الجاهلية، حيث كان الرجل منهم إذا أراد أن يدخل بيتاً غير بيته، يقول: حييتم صباحاً، حييتم مساءً، ثم يدخل، فربما أصاب الرجل مع امرأته في لحاف واحد.

وقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ متعلق بمحذوف تقديره: أمرتكم بالاستئذان كي تذكروا وتتعظوا وتعلموا بموجبه. وقرأ حمزة والكسائي وحفص: بتخفيف الذال. والباقون بالتشديد. ا هـ. «مراح».

واعلم: أن[2] السلام من سنة المسلمين، وهو تحية أهل الجنة، ومجلبة للمودة، وناف للحقد والضغينة. روي عنه عليه السلام قال: «لما خلق الله تعالى آدم، ونفخ فيه الروح، عطس، فقال: الحمد لله، فقال الله تعالى: يرحمك ربك يا آدم. اذهب إلى هؤلاء الملائكة وملأ منهم جلوس فقل: السلام عليكم، فلما فعل ذلك رجع إلى ربه. قال: هذه تحيتك وتحية ذريتك».

---

(١) أبو السعود.
(٢) روح البيان.

ثم اعلم: أنه إذا عرض أمر في دار من حريق أو هجوم سارق، أو قتل نفس بغير حق، أو ظهور منكر يجب إزالته، فحينئذ لا يجب الاستئذان والتسليم، فإن كان ذلك مستثنى بالدليل، وهو ما قاله الفقهاء: من أن مواقع الضرورات مستثناة من قواعد الشرع؛ لأن الضرورات تبيح المحظورات. قال صاحب «الكشاف»: وكم من باب من أبواب الدين هو عند الناس كالشريعة المنسوخة، قد تركوا العمل بها، وباب الاستئذان من ذلك. ا هـ.

﴿فَإِن لَّمْ تَجِدُواْ فِيهَآ﴾؛ أي: في تلك البيوت ﴿أَحَدًا﴾ ممن يملك الإذن، على أنَّ من لا يمكله من النساء والولدان والعبيد وجدانه كفقدانه، فلا يدخله حتى يأذن له من يملك الإذن، وهو رب الدار، أو لم تجدوا فيها أحداً أصلاً. ﴿فَلَا تَدْخُلُوهَا﴾ فاصبروا ﴿حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾؛ أي[1]: من جهة من يملك الإذن عند إتيانه، فإن في دخول بيت فيه النساء والولدان اطلاعٌ على العورات، وفي دخول البيوت الخالية اطلاعٌ على ما يعتاد الناس إخفاءه، مع أن التصرف في ملك الغير محظور مطلقاً. والمعنى: إن لم تجدوا في البيوت التي لغيركم أحداً ممن يستأذن عليه فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم بدخولها من جهة من يملك الإذن.

والظاهر[2]: أنه يجوز للإنسان أن يدخل بيت نفسه من غير استئذان ولا سلام لقوله: ﴿غَيْرَ بُيُوتِكُمْ﴾.

﴿وَإِن قِيلَ لَكُمُ﴾؛ أي: وإن قال لكم أهل البيت الذي تستأذنون فيه، ﴿ٱرْجِعُواْ﴾؛ أي: انصرفوا، ﴿فَٱرْجِعُواْ﴾؛ أي: فاذهبوا ولا تقفوا على أبواب الناس؛ أي: إن أمرتم من جهة أهل البيت بالرجوع، سواء كان الأمر ممن يملك الإذن أم لا، فارجعوا ولا تلحُّوا بتكرير الاستئذان. كما في الوجه الأول، أو لا تلحُّوا بالإصرار على الانتظار على الأبواب إلى أن يأتي الإذن، كما في الثاني. فإنَّ ذلك مما يجلب الكراهة في قلوب الناس، ويقدح في المروءة أيَّ قدحٍ.

﴿هُوَ﴾؛ أي: الرجوع والانصراف ﴿أَزْكَىٰ﴾ وأطهر ﴿لَكُمْ﴾ مما لا يخلو عنه

---

(١) روح البيان. (٢) البحر المحيط.

الوقوف على الأبواب من دنس الدناءة والرزانة. وأفضل لكم في دينكم ودنياكم؛ لأن رب الدار قد يستوحش ويتأذى بوقوف غيره على بابه بعد منع الاستئذان. ولما في ذلك من الدناءة والتسكع على بيوت الناس، وربما ظُنَّ بأهل البيت سوءٌ من وقوف الأجانب على أبوابهم، ﴿وَٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ لا تخفى عليه من أعمالكم خافية، فيعلم ما تأتون وما تذرون مما كلفتموه، فيجازيكم عليه. وفي ذلك توعد لأهل التجسس على البيوت، وطلب الدخول على غيره، والنظر لما لا يحل.

ولما بين سبحانه حكم البيوت المسكونة.. بين حكم البيوت غير المسكونة، فقال: ﴿لَّيۡسَ عَلَيۡكُمۡ﴾ أيها المؤمنون ﴿جُنَاحٌ﴾؛ أي: إثم ولا حرج في ﴿أَن تَدۡخُلُواْ﴾ بغير استئذان ﴿بُيُوتًا غَيۡرَ مَسۡكُونَةٖ﴾؛ أي: غير معدة لسكنى قوم معينين، وطائفة مخصوصة فقط، بل هي معدة لينتفع ويتمتع بها من يحتاج ويضطر إليها كائناً من كان، من غير أن يتخذها سكناً. كالفنادق والحوانيت والحمامات والرُّبَط ونحوها؛ فإنها معدة لمصالح الناس كافةً، كما ينبىء عنه قوله تعالى: ﴿فِيهَا مَتَٰعٞ لَّكُمۡۚ﴾ فإنه صفة للبيوت؛ أي: لكم فيها حق التمتع والانتفاع بها، كالمبيت فيها والاستكنان بها من الحر والبرد، وإيواء الأمتعة والرحال، والشراء والبيع، والاغتسال فيها، وغير ذلك مما يليق بحال البيوت وداخلها، كقضاء حاجة الإنسان من البول والغائط. فلا بأس في دخولها بغير استئذان من قُوَّام الرباطات وأصحاب الحوانيت ومتصرفي الحمامات ونحوهم؛ لأن السبب الذي لأجله منع دخول البيت وهو الاطلاع على عورات الناس والوقوف على أسرارهم غير موجود فيها.

روي: أن أبا بكر قال: يا رسول الله، إن الله قد أنزل عليك آية في الاستئذان، وإنا لنختلف في تجارتنا، فننزل هذه الخانات، أفلا ندخلها إلا بإذن؟ فنزلت هذه الآية. ﴿وَٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿يَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ﴾؛ أي: ما تظهرون بألسنتكم من الاستئذان إذا استأذنتم على أهل البيوت المسكونة. ﴿وَمَا تَكۡتُمُونَ﴾؛ أي: ما تضمرون من حب الاطلاع على عورات الناس، أو من قصد

ريبة أو فساد، وفيه وعيد لمن لم يتأدب بآداب الله في دخول بيوت الغير.

الإعراب

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ﴾: ناصب واسمه. ﴿جَآءُو﴾: فعل وفاعل صلة الموصول. ﴿بِٱلْإِفْكِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿جاء﴾. ﴿عُصْبَةٌ﴾: خبر ﴿إِنَّ﴾. ﴿مِّنكُمْ﴾: صفة لـ﴿عُصْبَةٌ﴾. وجملة ﴿إِنَّ﴾: مستأنفة. ﴿لَا﴾: ناهية جازمة. ﴿تَحْسَبُوهُ﴾: فعل وفاعل ومفعول أول، مجزوم بـ﴿لَا﴾ الناهية. ﴿شَرًّا﴾: مفعول ثان لحسب. ﴿لَّكُم﴾: متعلق بـ﴿شَرًّا﴾. والجملة الفعلية مستأنفة مسوقة لتسلية النبي ﷺ، ولكل من تأسف بذلك الإفك. ﴿بَلْ﴾: حرف عطف وإضراب. ﴿هُوَ خَيْرٌ﴾: مبتدأ وخبر. ﴿لَّكُمْ﴾: متعلق بـ﴿خَيْرٌ﴾. والجملة الاسمية معطوفة على الجملة الفعلية. ﴿لِكُلِّ ٱمْرِئٍ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه خبر مقدم. ﴿مِّنْهُم﴾: صفة لامرىء. ﴿مَّا﴾: اسم موصول في محل الرفع مبتدأ مؤخر. والجملة الاسمية مستأنفة. ﴿ٱكْتَسَبَ﴾: فعل ماض وفاعله ضمير مستتر يعود على ﴿ٱمْرِئٍ﴾، والجملة الفعلية صلة الموصول، والعائد محذوف تقديره: ما اكتسبه. ﴿مِنَ ٱلْإِثْمِ﴾: جار ومجرور حال من العائد المحذوف. ﴿وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿الذي﴾: مبتدأ. ﴿تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ﴾: فعل وفاعل مستتر، ومفعول صلة الموصول. ﴿مِنْهُمْ﴾: جار ومجرور حال من فاعل ﴿تَوَلَّىٰ﴾. ﴿له﴾: خبر مقدم. ﴿عَذَابٌ﴾: مبتدأ ثان مؤخر. ﴿عَظِيمٌ﴾: صفة لـ﴿عَذَابٌ﴾. والجملة من المبتدأ الثاني وخبره خبر للمبتدأ الأول، أعني الموصول، وجملة الأول مستأنفة.

﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾﴾.

﴿لَّوْلَآ﴾: حرف تحضيض بمعنى هلا، متضمن معنى الزجر والتوبيخ. ﴿إِذْ﴾: ظرف لما مضى من الزمان، في محل النصب على الظرفية، متعلق

بـ﴿ظَنَّ﴾ الذي هو مدخول ﴿لَّوْلَآ﴾. ﴿سَمِعْتُمُوهُ﴾: فعل وفاعل ومفعول به، والجملة في محل الجر مضاف إليه لـ﴿إِذْ﴾. ﴿ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾: فعل وفاعل. ﴿وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ﴾: معطوف على ﴿ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾. ﴿بِأَنفُسِهِمْ﴾: جار ومجرور في محل المفعول الأول لـ﴿ظن﴾. ﴿خَيْرًا﴾: مفعول ثان له، وجملة ﴿ظَنَّ﴾: مستأنفة. ﴿وَقَالُوا۟﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿ظَنَّ﴾. ﴿هَٰذَآ إِفْكٌ﴾: مبتدأ وخبر. ﴿مُّبِينٌ﴾: صفة ﴿إِفْكٌ﴾، والجملة الاسمية في محل النصب مقول ﴿قالوا﴾.

﴿لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ ۚ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٣﴾﴾.

﴿لَّوْلَا﴾: حرف تحضيض بمعنى هلا أيضاً. ﴿جَآءُو﴾: فعل وفاعل. ﴿عَلَيْهِ﴾: متعلق بـ﴿شهداء﴾. ﴿بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿جَآءُو﴾، والجملة الفعلية مستأنفة. ﴿فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة، ﴿إِذْ﴾: ظرف لما مضى من الزمان، في محل النصب على الظرفية، متعلق بـ﴿ٱلْكَٰذِبُونَ﴾. ﴿لَمْ يَأْتُوا۟﴾: جازم وفعل مجزوم وفاعل، والجملة في محل الجر مضاف إليه لـ﴿إِذْ﴾. ﴿بِٱلشُّهَدَآءِ﴾: متعلق بـ﴿يَأْتُوا۟﴾ ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿إِذْ﴾. ﴿أولئك﴾: مبتدأ. ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾: ظرف ومضاف إليه متعلق بـ﴿ٱلْكَٰذِبُونَ﴾. ﴿هُمُ﴾: ضمير فصل. ﴿ٱلْكَٰذِبُونَ﴾: خبر المبتدأ، والجملة الاسمية جواب ﴿إِذْ﴾. وجملة ﴿إِذْ﴾ مع جوابها معطوفة على جملة ﴿لَّوْلَا جَآءُو﴾.

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾﴾.

﴿وَلَوْلَا﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿لَوْلَا﴾: حرف امتناع لوجود. ﴿فَضْلُ ٱللَّهِ﴾: مبتدأ ومضاف إليه. ﴿عَلَيْكُمْ﴾: متعلق بـ﴿فَضْلُ ٱللَّهِ﴾. ﴿وَرَحْمَتُهُۥ﴾: معطوف على ﴿فَضْلُ ٱللَّهِ﴾. ﴿فِى ٱلدُّنْيَا﴾: جار ومجرور، حال من الفضل والرحمة. ﴿وَٱلْءَاخِرَةِ﴾: معطوف على الدنيا، والتقدير: حالة كونهما كائنين في الدنيا والآخرة، وخبر ﴿لَّوْلا﴾ محذوف وجوباً لقيام جواب ﴿لَّوْلا﴾ مقامه تقديره: موجودان، والجملة الاسمية شرط لـ﴿لَّوْلا﴾ لا محل لها من الإعراب. ﴿لَمَسَّكُمْ﴾

(اللام): رابطة لجواب ﴿لَّوْلا﴾. ﴿مسكم﴾: فعل ومفعول. ﴿فِي﴾: حرف جر وسبب. ﴿مَا﴾: موصولة في محل الجر بـ﴿فِي﴾. الجار والمجرور متعلق بـ﴿مسكم﴾. ﴿أَفَضْتُمْ﴾: فعل وفاعل. ﴿فِيهِ﴾: متعلق به والجملة صلة الموصول، والعائد ضمير ﴿فيه﴾. ﴿عَذَابٌ﴾: فاعل لـ﴿مسكم﴾. ﴿عَظِيمٌ﴾: صفة ﴿عَذَابٌ﴾، والجملة الفعلية جواب ﴿لَّوْلا﴾، وجملة ﴿لَّوْلا﴾ معطوفة على جملة ﴿لَّوْلا﴾ الأولى.

﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾﴾.

﴿إِذْ﴾: ظرف لما مضى، متعلق بـ﴿أَفَضْتُمْ﴾، أو بـ﴿مسكم﴾. ﴿تَلَقَّوْنَهُۥ﴾: فعل وفاعل ومفعول. والجملة في محل الخفض، مضاف إليه لـ﴿إِذْ﴾. ﴿بِأَلْسِنَتِكُمْ﴾: متعلق بـ﴿تَلَقَّوْنَهُۥ﴾. ﴿وَتَقُولُونَ﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿تَلَقَّوْنَهُۥ﴾. ﴿بِأَفْوَاهِكُم﴾: متعلق بـ﴿تقولون﴾. ﴿مَّا﴾: موصولة في محل النصب مفعول ﴿تقولون﴾؛ لأنه بمعنى تذكرون. ﴿لَيْسَ﴾: فعل ماض ناقص. ﴿لَكُم﴾: خبر ﴿لَيْسَ﴾. ﴿بِهِۦ﴾: متعلق بـ﴿عِلْمٌ﴾. ﴿عِلْمٌ﴾: اسم ﴿لَيْسَ﴾، وجملة ﴿لَيْسَ﴾: صلة ﴿مَّا﴾ الموصولة. ﴿وَتَحْسَبُونَهُۥ﴾: فعل وفاعل ومفعول به أول. ﴿هَيِّنًا﴾: مفعول ثان. والجملة معطوفة على جملة ﴿لَيْسَ﴾. ﴿وَهُوَ﴾: ﴿الواو﴾: واو الحال. ﴿هو﴾: مبتدأ. ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾: حال من ﴿عَظِيمٌ﴾؛ لأنه صفة نكرة قدمت عليها. ﴿عَظِيمٌ﴾: خبر المبتدأ. والجملة الاسمية في محل النصب، حال من المفعول ﴿تحسبونه﴾.

﴿وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا۟ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾﴾.

﴿وَلَوْلَآ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿لولا﴾: حرف تحضيض وتوبيخ. ﴿إِذْ﴾: ظرف لما مضى متعلق بـ﴿قُلْتُم﴾. ﴿سَمِعْتُمُوهُ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة في محل الجر، مضاف إليه لـ﴿إِذْ﴾. ﴿قُلْتُم﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿مَّا﴾: نافية. ﴿يَكُونُ﴾: فعل ناقص. ﴿لَنَآ﴾: خبر ﴿يَكُونُ﴾ مقدم. ﴿أَن﴾: حرف

نصب. ﴿نَّتَكَلَّمَ﴾: في تأويل مصدر مرفوع، على كونه اسم ﴿يَكُونُ﴾ والتقدير: ما يكون التكلم بهذا كائناً لنا. وجملة ﴿يَكُونُ﴾: في محل النصب مقول ﴿قُلْتُم﴾. ﴿بِهَٰذَا﴾ متعلقان بـ﴿نَّتَكَلَّمَ﴾ ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾: منصوب على المفعولية المطلقة، بفعل محذوف، تقديره: نسبحك سبحاناً. والجملة المحذوفة، في محل النصب مقول ﴿قُلْتُم﴾، أو حال من فاعل ﴿قُلْتُم﴾، والتقدير: هلا قلتم، ما ينبغي لنا، أن نتكلم بهذا، حال كونكم متعجبين من هذا الأمر، العجيب الغريب. ﴿هَٰذَا﴾: مبتدأ. ﴿بُهْتَٰنٌ﴾: خبر. ﴿عَظِيمٌ﴾: صفة ﴿بُهْتَٰنٌ﴾. والجملة في محل النصب مقول ﴿قُلْتُم﴾. ﴿يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ﴾: فعل ومفعول وفاعل. والجملة مستأنفة. ﴿أَن تَعُودُوا﴾: فعل وفاعل منصوب بأن المصدرية، والجملة في تأويل مصدر منصوب بنزع الخافض المتعلق بـ﴿يَعِظُكُمُ﴾، والتقدير: يعظكم من عودكم لمثله أبداً. ﴿لِمِثْلِهِۦٓ﴾: متعلق بـ﴿تَعُودُوا﴾. ﴿أَبَدًا﴾: ظرف متعلق بـ﴿تَعُودُوا﴾ أيضاً. ﴿إِن﴾: حرف شرط. ﴿كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾: فعل ناقص واسمه وخبره، وجواب الشرط محذوف، تقديره: إن كنتم مؤمنين، فلا تعودوا لمثله. وجملة الشرط مستأنفة.

﴿وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾﴾.

﴿وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿يَعِظُكُمُ﴾. ﴿لَكُمُ﴾: متعلق بـ﴿يبين﴾. ﴿ٱلْءَايَٰتِ﴾: مفعول به. ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾: مبتدأ وخبر أول. ﴿حَكِيمٌ﴾: خبر ثان. والجملة الاسمية في محل النصب حال من فاعل ﴿يبين﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ﴾: ناصب واسمه. ﴿يُحِبُّونَ﴾: فعل وفاعل صلة الموصول. ﴿أَن﴾: حرف نصب ومصدر. ﴿تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ﴾: فعل وفاعل منصوب بـ﴿أَن﴾ المصدرية. والجملة في تأويل مصدر منصوب على المفعولية. والتقدير: إن الذين يحبون شيوع الفاحشة. ﴿فِى ٱلَّذِينَ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿تَشِيعَ﴾. ﴿ءَامَنُوا۟﴾: فعل وفاعل صلة الموصول. ﴿لَهُمْ﴾: خبر مقدم. ﴿عَذَابٌ﴾: مبتدأ مؤخر. ﴿أَلِيمٌ﴾: صفة ﴿عَذَابٌ﴾. ﴿فِى ٱلدُّنْيَا﴾: صفة ثانية لـ﴿عَذَابٌ﴾. ﴿وَٱلْءَاخِرَةِ﴾:

معطوف على ﴿ٱلدُّنۡيَا﴾. والجملة من المبتدأ والخبر في محل الرفع، خبر ﴿أن﴾. وجملة ﴿أن﴾: مستأنفة. ﴿وَٱللَّهُ﴾: مبتدأ. وجملة ﴿يَعۡلَمُ﴾: خبره. والجملة الاسمية مستأنفة. ﴿وَأَنتُمۡ﴾: مبتدأ. وجملة ﴿لَا تَعۡلَمُونَ﴾: خبره. والجملة الاسمية معطوفة على جملة ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ﴾.

﴿وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ ٢٠﴾.

﴿وَلَوۡلَا﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿لوْلاَ﴾: حرف امتناع لوجود. ﴿فَضۡلُ ٱللَّهِ﴾: مبتدأ. ﴿عَلَيۡكُمۡ﴾: متعلق به. ﴿وَرَحۡمَتُهُۥ﴾: معطوف على ﴿فَضۡلُ ٱللَّهِ﴾. وخبر المبتدأ محذوف وجوباً، تقديره: موجودات. ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٞ﴾: ناصب واسمه وخبره. ﴿رَّحِيمٞ﴾: خبر ثان. وجملة ﴿أَنَّ﴾ في تأويل مصدر معطوف على ﴿فَضۡلُ﴾؛ أي: وكون الله رؤوفاً رحيماً موجوداً. وجواب ﴿لوْلاَ﴾ محذوف، تقديره: لعاجلكم بالعقوبة. وجملة ﴿لوْلاَ﴾: مستأنفة.

﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ وَمَن يَتَّبِعۡ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۚ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ أَبَدٗا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ٢١﴾.

﴿يا﴾: حرف نداء. ﴿أي﴾: منادى نكرة مقصودة. ﴿والهاء﴾: حرف تنبيه زائد تعويضاً عما فات. ﴿أي﴾: من الإضافة. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: في محل النصب أو الرفع صفة لـ﴿أي﴾. وجملة النداء مستأنفة. ﴿ءَامَنُواْ﴾: فعل وفاعل صلة الموصول. ﴿لَا﴾: ناهية جازمة. ﴿تَتَّبِعُواْ﴾: فعل وفاعل مجزوم بـ﴿لَا﴾ الناهية. ﴿خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ﴾ مفعول به ومضاف إليه، والجملة الفعلية جواب النداء، لا محل لها من الإعراب. ﴿وَمَن يَتَّبِعۡ﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿مَن﴾: اسم شرط جازم، في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الشرط أو الجواب أو هما. ﴿يَتَّبِعۡ﴾: فعل مضارع، مجزوم بـ﴿مَن﴾ الشرطية على كونه، فعل شرط لها. وفاعله: ضمير يعود على ﴿مَن﴾. ﴿خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ﴾: مفعول به ومضاف إليه. ﴿فَإِنَّهُۥ﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿مَن﴾ الشرطية. ﴿إنه﴾: ناصب واسمه. ﴿يَأۡمُرُ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر يعود على ﴿ٱلشَّيۡطَٰنِۚ﴾. ﴿بِٱلۡفَحۡشَآءِ﴾: متعلق به.

﴿وَٱلۡمُنكَرِۚ﴾: معطوف على ﴿الفحشاء﴾. والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿إن﴾. وجملة ﴿إن﴾ في محل الجزم بـ﴿من﴾ الشرطية على كونها جواباً لها. وجملة ﴿من﴾ الشرطية مستأنفة. ﴿وَلَوۡلَا﴾: ﴿الواو﴾: استنافية. ﴿لوْلاَ﴾: حرف امتناع لوجود. ﴿فَضۡلُ ٱللَّهِ﴾: مبتدأ ومضاف إليه. ﴿عَلَيۡكُمۡ﴾: متعلق به. ﴿وَرَحۡمَتُهُۥ﴾: معطوف عليه، وخبر المبتدأ محذوف وجوباً، تقديره: موجودات. ﴿ما﴾: نافية. ﴿زَكَىٰ﴾: فعل ماض. ﴿مِنكُم﴾: حال من ﴿أَحَدٍ﴾. ﴿مِّنۡ﴾: زائدة. ﴿أَحَدٍ﴾: فاعل ﴿زَكَىٰ﴾. ﴿أَبَدٗا﴾: ظرف متعلق بـ﴿زَكَىٰ﴾. والجملة الفعلية جواب ﴿لوْلاَ﴾ لا محل لها من الإعراب. وجملة ﴿لوْلاَ﴾: مستأنفة. ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿لكن الله﴾: ناصب واسمه. ﴿يُزَكِّي﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر يعود على ﴿ٱللَّهَ﴾. ﴿مَن﴾: اسم موصول، في محل النصب مفعول به. وجملة ﴿يَشَآءُۗ﴾: صلة الموصول. وجملة ﴿يُزَكِّي﴾ في محل الرفع خبر ﴿لكن﴾. وجملة ﴿لكن﴾ معطوفة على جملة ﴿لوْلاَ﴾. ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ﴾: مبتدأ وخبر أول. ﴿عَلِيمٞ﴾: خبر ثان له. والجملة الاسمية في محل النصب حال من فاعل ﴿يُزَكِّي﴾.

﴿وَلَا يَأۡتَلِ أُوْلُواْ ٱلۡفَضۡلِ مِنكُمۡ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤۡتُوٓاْ أُوْلِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينَ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ﴾.

﴿وَلَا﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿لا﴾: ناهية جازمة. ﴿يَأۡتَلِ﴾: فعل مضارع مجزوم بـ﴿لا﴾ الناهية، وعلامة جزمه حذف حرف العلة وهي الياء. ﴿أُوْلُواْ﴾: فاعل ملحق بجمع المذكر السالم. ﴿ٱلۡفَضۡلِ﴾: مضاف إليه. ﴿مِنكُمۡ﴾: حال من الفاعل. ﴿وَٱلسَّعَةِ﴾: معطوف على ﴿ٱلۡفَضۡلِ﴾. والجملة مستأنفة. ﴿أَن يُؤۡتُوٓاْ﴾: ناصب وفعل وفاعل. ﴿أُوْلِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾: مفعول به ومضاف إليه. ﴿وَٱلۡمَسَٰكِينَ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ﴾: معطوفان على ﴿أُوْلِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾. ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾: متعلق بـ﴿المهاجرين﴾. وجملة ﴿يُؤۡتُوٓاْ﴾ في تأويل مصدر مجرور بحرف جر محذوف، مع تقدير ﴿لَا﴾ النافية؛ أي: عدم إيتاء ﴿أُوْلِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾: والجار المحذوف متعلق بـ﴿يَأۡتَلِ﴾.

﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

﴿وَلْيَعْفُوا﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة. و(اللام): لام الأمر. ﴿يعفوا﴾: فعل مضارع، وفاعل مجزوم بلام الأمر. والجملة معطوفة على جملة ﴿يَأْتَلِ﴾. ﴿وَلْيَصْفَحُوا﴾: فعل وفاعل، معطوف على ﴿وَلَا يَأْتَلِ﴾ أيضاً. ﴿أَلَا تُحِبُّونَ﴾: (الهمزة): للاستفهام التوبيخي. ﴿لَا﴾: نافية. ﴿تُحِبُّونَ﴾: فعل وفاعل. والجملة مستأنفة. ﴿أَن يَغْفِرَ اللَّهُ﴾: ناصب وفعل وفاعل. ﴿لَكُمْ﴾: متعلق به. والجملة في تأويل مصدر، منصوب على المفعولية؛ أي: ألا تحبون مغفرة الله لكم. ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ﴾: مبتدأ وخبر أول. ﴿رَّحِيمٌ﴾: خبر ثان. والجملة الاسمية في محل النصب، حال من فاعل ﴿يَغْفِرَ﴾.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٢٣)﴾.

﴿إِنَّ الَّذِينَ﴾: ناصب واسمه. ﴿يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ﴾: فعل وفاعل ومفعول صلة الموصول. ﴿الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ﴾: صفتان للمحصنات. ﴿لُعِنُوا﴾: فعل ونائب فاعل. ﴿فِي الدُّنْيَا﴾: متعلق به. ﴿وَالْآخِرَةِ﴾: معطوف على ﴿الدُّنْيَا﴾. والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إن﴾ مستأنفة. ﴿وَلَهُمْ﴾: خبر مقدم. ﴿عَذَابٌ﴾: مبتدأ مؤخر. ﴿عَظِيمٌ﴾: صفة ﴿عَذَابٌ﴾. والجملة الاسمية في محل النصب حال من واو ﴿لُعِنُوا﴾.

﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٤) يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ (٢٥)﴾.

﴿يَوْمَ﴾: منصوب على الظرفية، متعلق بالاستقرار. الذي تعلق به الجار والمجرور في قوله: ﴿وَلَهُمْ﴾ والتقدير: عذاب عظيم كائن لهم، يوم تشهد عليهم، ويجوز تعلقه بالمصدر، وهو عذاب؛ لأن الظروف يتوسع فيها ما لا يتوسع في غيرها. ﴿تَشْهَدُ﴾: فعل مضارع. ﴿عَلَيْهِمْ﴾: متعلق به. ﴿أَلْسِنَتُهُمْ﴾: فاعل. ﴿وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم﴾: معطوفان عليه. والجملة الفعلية في محل الجر مضاف إليه لـ﴿يَوْمَ﴾. ﴿بِمَا﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿تَشْهَدُ﴾. ﴿كَانُوا﴾: فعل ناقص واسمه.

وجملة ﴿يَعۡمَلُونَ﴾: خبره. وجملة ﴿كان﴾: صلة الموصول، والعائد محذوف، تقديره: بما كانوا يعملونه. ﴿يَوۡمَئِذٍ﴾: ﴿يَوۡمَ﴾: منصوب على الظرفية، متعلق بـ﴿يُوَفِّيهِمُ﴾. ﴿يَوۡمَ﴾: مضاف، ﴿إذٍ﴾: ظرف لما مضى من الزمان مضاف ليوم والتنوين عوض عن الجملة المحذوفة، والتقدير: يوم إذ تشهد عليهم ألسنتهم الخ. ﴿يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ﴾: فعل وفاعل ومفعول أول وفاعل. والجملة مستأنفة. ﴿دِينَهُمُ﴾: مفعول ثان. ﴿ٱلۡحَقَّ﴾: صفة لـ﴿دِينَهُمُ﴾. ﴿وَيَعۡلَمُونَ﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿يُوَفِّيهِمُ﴾. ﴿أَنَّ ٱللَّهَ﴾: ناصب واسمه ﴿هو﴾ ضمير فصل. ﴿ٱلۡحَقُّ﴾: خبر أن. ﴿ٱلۡمُبِينُ﴾: صفة لـ﴿ٱلۡحَقُّ﴾. وجملة ﴿أَنَّ﴾ في تأويل مصدر، ساد مسد مفعولي ﴿يعلمون﴾.

﴿ٱلۡخَبِيثَٰتُ لِلۡخَبِيثِينَ وَٱلۡخَبِيثُونَ لِلۡخَبِيثَٰتِۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِۚ أُوْلَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَۖ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ﴿٢٦﴾﴾.

﴿ٱلۡخَبِيثَٰتُ﴾: مبتدأ. ﴿لِلۡخَبِيثِينَ﴾: جار ومجرور خبر المبتدأ. والجملة مستأنفة، مسوقة لبيان سنة الله في خلقه، في أن يسوق كل صنف إلى صنفه، وأن يقع كل طير على شكله. ﴿وَٱلۡخَبِيثُونَ﴾: مبتدأ. ﴿لِلۡخَبِيثَٰتِۖ﴾: خبر. والجملة معطوفة على الجملة التي قبلها. ﴿وَٱلطَّيِّبَٰتُ﴾: مبتدأ. ﴿لِلطَّيِّبِينَ﴾: خبر. والجملة معطوفة. ﴿وَٱلطَّيِّبُونَ﴾: مبتدأ. ﴿لِلطَّيِّبَٰتِۚ﴾: خبر للمبتدأ. والجملة معطوفة. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾: مبتدأ. ﴿مُبَرَّءُونَ﴾: خبر. والجملة مستأنفة. ﴿مِمَّا﴾: متعلق بـ﴿مُبَرَّءُونَ﴾. ﴿يَقُولُونَۖ﴾: فعل وفاعل صلة الموصول، والعائد محذوف، تقديره: يقولونه. ﴿لَهُم﴾: خبر مقدم. ﴿مَّغۡفِرَةٞ﴾: مبتدأ مؤخر. ﴿وَرِزۡقٞ﴾: معطوف على ﴿مغفرة﴾. ﴿كَرِيمٞ﴾: صفة ﴿رزق﴾. والجملة الاسمية خبر ثان لـ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ بُيُوتِكُمۡ حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهۡلِهَاۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾﴾.

﴿يا﴾: حرف نداء، ﴿أي﴾: منادى نكرة مقصودة. ﴿ها﴾: حرف تنبيه زائد. وجملة النداء مستأنفة. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: اسم موصول صفة لـ﴿أي﴾. ﴿ءَامَنُواْ﴾: فعل وفاعل صلة الموصول. ﴿لَا تَدۡخُلُواْ﴾: ﴿لَا﴾: ناهية جازمة. ﴿تَدۡخُلُواْ﴾:

فعل وفاعل مجزوم بـ﴿لَا﴾ الناهية. ﴿بُيُوتًا﴾: مفعول به. ﴿غَيْرَ﴾: صفة لـ﴿بُيُوتًا﴾. ﴿بُيُوتِكُمْ﴾: مضاف إليه. وجملة النهي جواب النداء، لا محل لها من الإعراب. ﴿حَتَّىٰ﴾: حرف جر، وغاية بمعنى إلى. ﴿تَسْتَأْنِسُوا﴾: فعل وفاعل منصوب بأن المضمرة وجوباً. بعد ﴿حَتَّىٰ﴾ بمعنى إلى. ﴿وَتُسَلِّمُوا﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿تَسْتَأْنِسُوا﴾. ﴿عَلَىٰ أَهْلِهَا﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿تسلموا﴾. وجملة ﴿تَسْتَأْنِسُوا﴾ صلة أن المضمرة. أن مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بـ﴿حَتَّىٰ﴾ بمعنى إلى. تقديره: إلى استئناسكم، وتسليمكم على أهلها. الجار والمجرور متعلق بـ﴿تَدْخُلُوا﴾. ﴿ذَٰلِكُمْ﴾: مبتدأ. ﴿خَيْرٌ﴾: خبر. ﴿لَّكُمْ﴾: متعلق بخير. والجملة الاسمية مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها. ﴿لَعَلَّكُمْ﴾: ناصب واسمه وجملة ﴿تَذَكَّرُونَ﴾: خبره. وجملة لعل مستأنفة، مسوقة لتعليل فعل محذوف، تقديره: أنزل هذا عليكم لكي تتذكروا به.

﴿فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ ۖ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا ۖ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾.

﴿فَإِن﴾: ﴿الفاء﴾: استئنافية. ﴿إن﴾: حرف شرط لها. ﴿لَّمْ تَجِدُوا﴾ مضارع مجزوم بلم ﴿فِيهَا﴾: متعلق بـ﴿تَجِدُوا﴾. ﴿أَحَدًا﴾: مفعول به؛ لأنه من وجد الضالة، فيتعدى لمفعول واحد. ﴿فَلَا﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿إن﴾ الشرطية وجوباً. ﴿لَا﴾: ناهية جازمة. ﴿تَدْخُلُوهَا﴾: فعل وفاعل ومفعول مجزوم بـ﴿لَا﴾ الناهية. والجملة الفعلية في محل الجزم بـ﴿إن﴾ الشرطية على كونها جواباً لها. وجملة ﴿إن﴾ الشرطية مستأنفة. ﴿حَتَّىٰ﴾: حرف جر وغاية. ﴿يُؤْذَنَ﴾: فعل مضارع منصوب، بأن مضمرة بعد حتى. ﴿لَكُمْ﴾: جار ومجرور في محل الرفع نائب فاعل لـ﴿يُؤْذَنَ﴾. والجملة الفعلية في تأويل مصدر مجرور بـ﴿حَتَّىٰ﴾، بمعنى إلى. تقديره: إلى إذن أهلها لكم الجار والمجرور متعلق بـ﴿لَا تَدْخُلُوا﴾. ﴿وَإِن﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿إن﴾: حرف شرط جازم. ﴿قِيلَ﴾: فعل ماض مغير الصيغة في محل الجزم بإن الشرطية، على كونه فعل شرط لها. ﴿لَكُمُ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿قِيلَ﴾. ﴿ارْجِعُوا﴾: فعل أمر، وفاعل مبني على

حذف النون. والجملة الفعلية في محل الرفع نائب فاعل لـ﴿قيل﴾. ﴿فَارْجِعُوا﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة الجواب. ﴿ارْجِعُوا﴾: فعل وفاعل. والجملة في محل الجزم، جواب ﴿إن﴾ الشرطية. وجملة ﴿إن﴾ الشرطية معطوفة على جملة ﴿إن﴾ الأولى. ﴿هُوَ﴾: مبتدأ. ﴿أَزْكَى﴾: خبر. ﴿لَكُم﴾: متعلق به. والجملة الاسمية مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها. ﴿وَاللَّهُ﴾: مبتدأ. ﴿بِمَا﴾: متعلق بـ﴿عَلِيمٌ﴾. وجملة ﴿تَعْمَلُوْنَ﴾: صلة ﴿ما﴾ الموصولة. ﴿عَلِيمٌ﴾: خبر المبتدأ. والجملة الاسمية مستأنفة.

﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٢٩﴾﴾.

﴿لَيْسَ﴾: فعل ماض ناقص. ﴿عَلَيْكُمْ﴾: خبر ﴿لَيْسَ﴾ مقدم. ﴿جُنَاحٌ﴾: اسمها مؤخر، وجملة ﴿لَيْسَ﴾: مستأنفة. ﴿أَن﴾: حرف نصب ومصدر. ﴿تَدْخُلُوا﴾: فعل وفاعل، منصوب بـ﴿أن﴾ المصدرية. ﴿بُيُوتًا﴾: مفعول به. ﴿غَيْرَ مَسْكُونَةٍ﴾: صفة لـ﴿بُيُوتًا﴾. والجملة الفعلية في تأويل مصدر مجرور بحرف جر محذوف، تقديره: في دخولكم بيوتاً. والجار المحذوف، صفة لـ﴿جناح﴾. ﴿فِيهَا﴾: خبر مقدم. ﴿مَتَاعٌ﴾: مبتدأ مؤخر. ﴿لَّكُمْ﴾: صفة ﴿مَتَاعٌ﴾. والجملة الاسمية في محل النصب، صفة ثانية لـ﴿بُيُوتًا﴾. ﴿وَاللَّهُ﴾: مبتدأ. وجملة ﴿يَعْلَمُ﴾: خبره، والجملة الاسمية مستأنفة. ﴿ما﴾: موصولة في محل النصب مفعول به لـ﴿يَعْلَمُ﴾. ﴿تُبْدُونَ﴾: فعل وفاعل صلة الموصول، والعائد محذوف، تقديره: ما تبدونه. ﴿وَمَا تَكْتُمُونَ﴾: معطوف على ﴿مَا تُبْدُونَ﴾. والله أعلم.

التصريف ومفردات اللغة

﴿الإفك﴾: أبلغ ما يكون من الكذب والافتراء. وقيل: هو البهتان، لا تشعر به حتى يفجأك. وأصله الإفك؛ لأنه قول مأفوك عن وجهه؛ أي: مصروف عن وجهه كما مر في مبحث التفسير.

﴿عُصْبَةٌ﴾: والعصبة وكذا العصابة الجماعة، وكثر إطلاقها على العشرة فما

فوقها إلى الأربعين. ﴿كِبْرَهُۥ﴾ بكسر الكاف وضمها وسكون الباء؛ أي: معظمه فقد كان يجمعه ويذيعه ويشيعه.

﴿لَّوْلَآ﴾ كلمة بمعنى: هلا تفيد التحضيض، والحث على فعل ما بعدها. ﴿مُّبِينٌ﴾؛ أي: ظاهر مكشوف ﴿أَفَضْتُمْ﴾؛ أي: خضتم في حديث الإفك.

﴿تَلَقَّوْنَهُۥ﴾؛ أي: تتلقونه ويأخذه بعضكم من بعض. يقال: تلقى القول من فلان وتلقنه وتلقفه ولقفه إذا أخذ من لفظه وفهمه. وفي «الإرشاد» التلقي والتلقف والتلقن معان متقاربة، خلا أن في الأول: معنى الاستقبال، وفي الثاني معنى الخطف والأخذ بسرعة. وفي الثالث: معنى الحذق والمهارة. ا هـ. «أبو السعود». وفي «الشهاب» الأفعال المذكورة متقاربة المعاني، إلا أن في التلقي معنى الاستقبال. وفي التلقن الحذق في التناول.

وفي التلقن الاحتيال فيه، كما ذكره الراغب. وقوله: معنى الاستقبال، المراد به المقابلة والمواجهة، كما في كتب اللغة.

﴿سُبْحَٰنَكَ﴾: تعجب ممن تفوه به. ﴿بُهْتَٰنٌ﴾؛ أي: كذب يبهت سامعه ويحيره لفظاعته. ﴿يَعِظُكُمُ﴾؛ أي: ينصحكم. ﴿تَشِيعَ﴾: تنشر.

﴿خُطُوَٰتِ﴾: جمع خطوة بفتح الخاء وضمها وسكون الطاء. وكل ما كان على وزن فعل بكسر الفاء أو فعل بفتح الفاء مع سكون العين فيهما. يجوز فيه إذا أردنا جمعه جمعاً مؤنثاً سالماً، الإتباع والفتح والتسكين. فنقول في خطوة خطوات بضمتين، وخطوات بضم ففتح. وخطوات بضم فسكون والخطوة بضم الخاء في الأصل هي ما بين القدمين؛ أي: ما بين رجلي الخاطي. وبالفتح المرة الواحدة من الخطو، ثم استعمل اتباع الخطوات في الاقتداء، وإن لم يكن ثمة خطوٌ.

يقال: اتبع خطوات فلان ومشى على عقبه، إذا استن بسنته، والمراد ههنا، سيرة الشيطان وطريقته.

﴿الفحشاء﴾: الخصلة المفرطة في القبح، وهي الزنا. وفي «الروح»

والفحشاء والفاحشة: ما عظم قبحه عرفاً وعقلاً، سواء كان فعلاً أو قولاً. ﴿وَٱلْمُنكَرِ﴾: ما ينكره الشرع. وقال أبو الليث: المنكر ما لا يعرف في شريعة ولا سنة. وفي «المفردات» المنكر كل شيء تحكم العقول الصحيحة بقبحه أو تتوقف في استقباحه العقول، وتحكم بقبحه الشريعة.

﴿زَكَىٰ﴾: طهر من دنس الذنوب. ﴿وَلَا يَأْتَلِ﴾: ﴿لَا﴾: ناهية والفعل مجزوم بحذف الياء لأنه معتل بها كما مر يقال: ائتلى يأتلي بوزن انتهى ينتهي من الألية كهدية. ومعناها: الحلف. يقال: ألية وألايا بوزن هدية وهدايا. ا هـ. شيخنا. وفي «المختار» آلى يؤلي إيلاءً إذا حلف وتألى وائتلى مثله. قلت: ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ﴾. والألية: اليمين. وجمعها ألايا. ا هـ. وعبارة «أبو السعود» ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ﴾ في الدين وكفى به دليلاً على فضل الصديق، والسعة في المال. ا هـ. فالفضل الزيادة في الدين، والسعة: الغنى.

﴿وَلْيَعْفُواْ﴾ عن ذنبهم. ﴿وَلْيَصْفَحُوٓاْ﴾؛ أي: ليعرضوا عن لومهم، فإن العفو أن يتجاوز عن الجاني. والصفح: أن يتناسى جرمه. وقيل: العفو بالفعل، والصفح بالقلب. ا هـ. زاده. وقال الراغب: الصفح: ترك التثريب، وهو أبلغ من العفو. وقد يعفو الإنسان ولا يصفح.

﴿ٱلْغَٰفِلَٰتِ﴾؛ أي: السليمات الصدور، النقيات القلوب، اللاتي ليس فيهن دهاء ولا مكر، لأنهن لم يجربن الأمور، ولم يرزَنَّ الأحوال، فلا يفطنَّ لما تفطن له بالمجرِّبات العرَّافات. قال الشاعر:

وَلَقَدْ لَهَوْتُ بِطِفْلَةٍ مَيَّالَةٍ   بَلْهَاءَ تُطْلِعُنِي عَلَىٰ أَسْرَارِهَا

لهوت تلاهيت ولعبت بطفلة بالفتح؛ أي: امرأة ناعمة لينة. يقال: امرأة طفلة الأنامل؛ أي: رخصتها لينتها، ميالة مختالة وبلهاء، غافلة لا مكر عندها ولا دهاء، فلذلك تطلعني على ضمائرها. وقال في «التعريفات» الغفلة عن الشيء، هو أن لا يخطر ذلك بباله. ا هـ.

﴿لُعِنُوا﴾؛ أي: طردوا من رحمة الله في الآخرة، وعذبوا في الدنيا بالحد. ﴿يُوَفِّيهِمُ﴾ التوفية بذل الشيء وافياً. والوافي الذي بلغ التمام. والدين الجزاء، ومنه (كما تدين تدان). ﴿ٱلۡحَقَّ﴾ الثابت الذي يحق لهم لا محالة. ﴿أَنَّ ٱللَّهَ﴾؛ أي: وعده ووعيده. ﴿هُوَ ٱلۡحَقُّ﴾؛ أي: العدل الذي لا جور فيه.

﴿وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ﴾ قال الراغب: كل شيء يشرف في بابه، فإنه يوصف بالكرم، وقال بعضهم: الرزق الكريم: هو الكفاف الذي لا منّة فيه لأحد في الدنيا، ولا تبعة له في الآخرة.

﴿ٱلۡخَبِيثَٰتُ﴾: وقال الراغب: الخبيث ما يكره رداءة وخساسةً محسوساً كان أو معقولاً. وذلك يتناول الباطل في الاعتقاد. والكذب في المقال، والقبيح في الفعال ﴿وَٱلطَّيِّبَٰتُ﴾: وأصل الطيب ما يستلذه الحواس.

﴿حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ﴾؛ أي: حتى تستأذنوا إذ بالاستئذان يحصل أنس أهل البيت، وبدونه يستوحشون، يشق عليهم الدخول. ﴿تَذَكَّرُونَ﴾؛ أي: تتعظون. ﴿أَزۡكَىٰ﴾؛ أي: أطهر. ﴿جُنَاحٌ﴾؛ أي: خرج. ﴿مَتَٰعٞ﴾؛ أي: حق تمتع ومنفعة، كإيواء الأمتعة والرحال.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: الطباق في قوله: ﴿لَا تَحۡسَبُوهُ شَرّٗا لَّكُمۖ بَلۡ هُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۚ﴾ وكذلك قوله: ﴿وَتَحۡسَبُونَهُۥ هَيِّنٗا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٞ﴾. فقد طابق بين الشر والخير، وبين الهين والعظيم.

ومنها: الالتفات عن الخطاب إلى الغيبة، وعن الضمير إلى الظاهر في قوله: ﴿ظَنَّ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ فإنه كان الأصل ظننتم. وفي قوله: قالوا: فإنه كان الأصل وقلتم.

وسياق الكلام أن يقال: لولا إذ سمعتموه ظننتم بأنفسكم خيراً وقلتم. عدل

عن مقتضى السياق إلى ما قال مبالغةً في التوبيخ، وإشعاراً بأن الإيمان يقتضي ظن الخير بالمؤمنين والكف عن الطعن فيهم، وذب الطاعنين عنهم، كما يذبونهم عن أنفسهم. ا هـ. «كرخي».

ومنها: التحضيض في قوله: ﴿لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ﴾؛ أي: هلا جاؤوا، وغرضه التوبيخ واللوم.

ومنها: الإبهام في قوله: ﴿فِى مَآ أَفَضْتُمْ﴾ لتهويل أمره.

ومنها: المبالغة في قوله: ﴿وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم﴾ تعريضاً وإشعاراً بأن هذه الإفك ليس إلا قولاً يجري على ألسنتكم، ويدور في أفواهكم، من غير ترجمة عن علمٍ به في القلب.

ومنها: التعجب في قوله: ﴿سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ﴾ ففيه تعجب ممن يقول ذلك والأصل في ذكر هذه الكلمة ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾ أن يسبح الله تعالى، عند رؤية العجيب من صنائعه تنزيهاً له من أن يخرج مثله عن قدرته. ثم كثر حتى استعمل في كل متعجب منه.

ومنها: التقديم والتأخير في قوله: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم﴾ قدم الظرف لفائدة هامة، وهي بيان أنه كان من الواجب أن ينزجروا أول ما سمعوا بالإفك عن التكلم به، فلما كان ذكر الوقت أهم وجب التقديم.

ومنها: الاستعارة اللطيفة في قوله: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ شبه سلوك طريق الشيطان، والسير في ركابه بمن يتتبع خطوات الآخر. خطوةً خطوةً بطريق الاستعارة التصريحية التبعية.

ومنها: الإيجاز بالحذف في قوله: ﴿أَن يُؤْتُوٓا﴾؛ أي: أن لا يؤتوا، حذفت منه لدلالة المعنى عليه، وهو كثير في اللغة.

ومنها: صيغة التعظيم في قوله: ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ والمراد به أبو بكر الصديق.

ومنها: العموم في قوله: ﴿يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ﴾ وإن كان الكلام مسوقاً في عائشة، والمقصود بذكرهن على العموم وعيد من وقع في عائشة على أبلغ الوجوه لأنه إذا كان هذا وعيد قاذف آحاد المؤمنات، فما الظن بوعيد من وقع في قذف سيدتهن.

ومنها: المجاز العقلي، في شهادة الأيدي والأرجل.

ومنها: الجناس الناقص بين ﴿يَعْمَلُونَ﴾ و﴿تَعْلَمُونَ﴾.

ومنها: المقابلة اللطيفة بين ﴿ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ﴾، ﴿وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ﴾.

ومنها: الطباق بين ﴿تُبْدُونَ﴾ و﴿تَكْتُمُونَ﴾.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلَّ وعلا :

﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ (٣٠) وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ ۖ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ۚ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٣١) وَأَنكِحُوا الْأَيَامَىٰ مِنكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ ۚ إِن يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ۗ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٣٢) وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ۗ وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ۖ وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ ۚ وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۚ وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِن بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٣٣) وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ وَمَثَلًا مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ (٣٤) ۞ اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ ۖ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ ۚ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ ۗ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٣٥) فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ (٣٦) رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ ۙ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ (٣٧) لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ ۗ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٨) وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ ۗ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٣٩) أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ۚ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا ۗ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ (٤٠)﴾ .

المناسبة

قوله تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ...﴾ الآيات، مناسبة هذه[1] الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما نهى عن دخول البيوت إلا بعد الاستئذان والسلام على أهلها منعاً للقيل والقال والاطلاع على عورات الناس وأسرارهم.. أمر رسوله أن يرشد المؤمنين إلى غضّ البصر عن المحارم، لمثل السبب المتقدم، إذ ربما كان ذلك ذريعة إلى وقوع المفاسد وانتهاك الحرمات التي نهى الدين عنها.

قوله تعالى: ﴿وَأَنكِحُوا الْأَيَامَىٰ مِنكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى، لما أمر بغضّ الأبصار، وحفظ الفروج ونحوهما، مما يفضي إلى السفاح.. أعقبه بالأمر بإنكاح الأيامى؛ لأنه الوسيلة لبقاء هذا النوع، وحفظ الأنساب الذي يستدعي مزيد الشفقة على الأولاد، وحسن تربيتهم، ودوام الألفة بينهم. ثم ذكر حكم من يعجز عن ذلك لعدم وجود المال لديه. ثم رغب في مكاتبة الأرقاء، ليصيروا أحراراً في أنفسهم وفي أموالهم يتزوجون كما يشاؤون. وبعدئذ أردف ذلك بالنهي عن إكراه الإماء على الفجور ـ إن أردن العفة ـ ابتغاء ظل زائل من عرض الدنيا.

ثم ختم هذا، ببيان أنه أنزل عليكم في هذه السورة وفي غيرها، آيات مبينات لكل ما أنتم في حاجة إلى بيانه من أحكام وآداب وحدود زاجرة وعقوبات رادعة وقصص عجيبة من الماضين وأمثال مضروبة، لتكون عبرة وذكرى لكم.

قوله تعالى: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه[2] لما ذكر أنه أنزل في هذه السورة آيات مبينات لكل ما يحتاج إليه الناس، في صلاح أحوالهم في معاشهم ومعادهم من الشرائع والأحكام والآداب والأخلاق.. بين أنه نور السماوات والأرض بما بث فيهما من الآيات الكونية، والآيات التي أنزلها على رسله دالة على وجوده ووحدانيته،

---

(١) المراغي. (٢) المراغي.

وسائر صفاته من قدرة وعلم، إلى نحو أولئك، هادية إلى صلاح أمورهم في الدنيا والآخرة.

قوله تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه لما ذكر نوره لعباده، وهدايته إياهم على أتم الوجوه.. بين هنا حال من حصلت لهم الهداية بذلك النور، وذكر بعض أعمالهم القلبية والحسية.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ...﴾ الآيتين، مناسبة هاتين الآيتين لما قبلهما: أن الله سبحانه لما بين أحوال المؤمنين، وأنهم في الدنيا يكونون في نور الله، وبه يستمسكون بالعمل الصالح، وفي الآخرة يفوزون بالنعيم المقيم والثواب العظيم.. أردف ذلك ببيان حال أضدادهم وهم الكفار، فذكر أنهم يكونون في الآخرة في أشد الخسران والبوار، وفي الدنيا في ظلمات متراكمة بعضها فوق بعض. وضرب لكلتا الحالتين مثلاً يوضحها أتم الإيضاح والبيان.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ...﴾ الآية، سبب نزول هذه الآية: ما[1] أخرجه ابن أبي حاتم عن مقاتل قال: بلغنا أن جابر بن عبد الله: حدث أن أسماء بنت مرثد كانت في نخل لها، فجعل النساء يدخلن عليها غير متأزرات، فيبدو ما في أرجلهن، يعني الخلاخل، وتبدو صدورهن وذوائبهن. فقالت أسماء: ما أقبح هذا. فأنزل في ذلك ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ...﴾ الآية.

وأخرج ابن جرير عن حضرمي أن امرأة اتخذت صرتين من فضة، واتخذت جزعاً، فمرت على قوم، فضربت برجلها، فوقع الخلخال على الجزع، فصوت، فأنزل الله ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ...﴾ الآية.

---

(١) لباب النقول.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَبۡتَغُونَ ٱلۡكِتَٰبَ...﴾ الآية، سبب نزول هذه الآية: ما أخرجه ابن السكن في «معرفة الصحابة»، عن عبد الله بن صبيح عن أبيه، قال: كنت مملوكاً لحويطب بن عبد العزى، فسألته الكتاب، فنزلت ﴿وَٱلَّذِينَ يَبۡتَغُونَ ٱلۡكِتَٰبَ...﴾ الآية.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تُكۡرِهُواْ فَتَيَٰتِكُمۡ...﴾ الآية، سبب نزول هذه الآية: ما أخرجه مسلم، قال: حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة وأبو كريب جميعاً عن أبي معاوية واللفظ لأبي كريب حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش عن أبي سفيان عن جابر قال: كان عبد الله بن أبي بن سلول يقول لجارية: له اذهبي فابغينا شيئاً. فأنزل الله عز وجل: ﴿وَلَا تُكۡرِهُواْ فَتَيَٰتِكُمۡ عَلَى ٱلۡبِغَآءِ إِنۡ أَرَدۡنَ تَحَصُّنٗا لِّتَبۡتَغُواْ عَرَضَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ وَمَن يُكۡرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعۡدِ إِكۡرَٰهِهِنَّ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾.

وأخرج مسلم أيضاً من طريق آخر تنتمي إلى الأعمش عن أبي سفيان بهذا الحديث. وفيه أن جارية لعبد الله بن أبي يقال لها: مسيكة، وأخرى يقال لها: أميمة فكان يكرههما على الزنا، فشكتا ذلك إلى النبي ﷺ، فأنزل الله عز وجل ﴿ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء﴾ الآية.

وأخرج الحاكم من طريق أبي الزبير، عن جابر قال: كانت مسيكة لبعض الأنصار فقالت: إن سيدي يكرهني على البغاء، فنزلت: ﴿وَلَا تُكۡرِهُواْ فَتَيَٰتِكُمۡ عَلَى ٱلۡبِغَآءِ...﴾ الآية.

وأخرج البزار والطبراني بسند صحيح عن ابن عباس قال: كانت لعبد الله بن أبي جارية تزني في الجاهلية، فلما حرم الزنا، قالت: لا والله، لا أزني أبداً، فنزلت: ﴿وَلَا تُكۡرِهُواْ فَتَيَٰتِكُمۡ عَلَى ٱلۡبِغَآءِ﴾.

التفسير وأوجه القراءة

ولما ذكر سبحانه حكم الاستئذان، أتبعه بذكر حكم النظر على العموم، فيندرج فيه غضّ البصر من المستأذن. كما قال ﷺ: «إنما جعل الإذن من أجل

البصر». فقال: ﴿قُل﴾ يا محمد ﴿لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ وخص[1] على غيرهم لكون قطع ذرائع الزنا التي منها النظر هم أحق من غيرهم بها، وأولى بذلك ممن سواهم. وقيل: إن في الآية دليلاً على أن الكفار غير مخاطبين بالشرعيات كما يقوله بعض أهل العلم ومقول القول أمر قد حذف لدلالة جوابه عليه، تقديره: قل لهم: غضوا. ﴿يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ﴾؛ أي: يكفوا أبصارهم عن الحرام. والغض[2] إطباق الجفن، بحيث يمنع الرؤية. ومنه قول جرير:

وَغُضَّ ٱلطَّرْفَ إِنَّكَ مِنْ نُمَيْرٍ   فَلاَ كَعْباً بَلَغْتَ وَلاَ كِلاَبَا

وقول عنترة:

وَأَغُضُّ طَرْفِيْ مَا بَدَتْ لِيْ جَارَتِيْ   حَتَّىٰ تُوَارِيْ جَارَتِيْ مَأْوَاهَا

و(من) في قوله: ﴿مِنْ أَبْصَارِهِمْ﴾ زائدة، أو تبعيضية. وإليه ذهب الأكثرون؛ لأن الغالب أن الاحتراز عن النظرة الأولى لا يمكن؛ لأنها تقع بغير قصد، فوقع العفو عنها. سواء قصدها، أو لم يقصدها، ولا يجوز أن يكرر النظر إلى الأجنبية. لقوله ﷺ: «يا علي لا تتبع النظرة النظرة، فإن لك الأولى وليست لك الآخرة». وفي هذه الآية دليل على تحريم النظر إلى غير من يحل النظر إليه.

ومعنى ﴿وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ﴾: أنه يجب عليهم حفظها عما يحرم عليهم. وقيل: المراد ستر فروجهم عن أن يراها من لا تحل له رؤيتها، ولا مانع من إرادة المعنيين فالكل يدخل تحت حفظ الفرج. والفرج الشق بين الشيئين، كفرجة الحائط. والفرج ما بين الرجلين، وكنى به عن السوءة، وكثر حتى صار كالصريح فيه.

وأتى بمن التبعيضية[3] في جانب الأبصار دون الفروج، مع أن المأمور به حفظ كل واحد منهما عن بعض ما تعلقا به. فإن المستثنى من البصر كثير، فإن الرجل يحل له النظر إلى جميع أعضاء أزواجه، وأعضاء ما ملكت يمينه. وكذا لا

---

(١) الشوكاني.

(٢) الشوكاني.

(٣) روح البيان.

بأس عليه في النظر إلى شعور محارمه، وصدورهن، وأيديهن، وأعضائهن، وسوقهن وأرجلهن وكذا لا بأس عليه في النظر من أمة الغير حال عرضها للبيع، ومن الحرة الأجنبية إلى وجهها وكفيها وقدميها. في رواية القدم بخلاف المستثنى من الفرج فإنه شيء نادر قليل، وهو فرج زوجته وأمته. فلذلك أطلق لفظ الفرج، ولم يقيد بما استثنى منه لقلته، وقيد غضّ البصر بحرف التبعيض.

والمعنى[1]: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ﴾؛ أي: قل أيها الرسول للمؤمنين، كفوا أبصاركم عما حرم الله عليكم، ولا تنظروا إلا إلى ما يباح لكم النظر إليه، فإن وقع البصر على محرم من غير قصد، فليصرفوا أبصارهم عنه سريعاً. كما رواه مسلم عن جرير بن عبد الله البجلي، قال: سألت النبي ﷺ عن نظرة الفجأة؟ فأمرني أن أصرف بصري. وروى أبو داود أن النبي ﷺ قال لعلي: «يا علي لا تتبع النظرة النظرة، فإن لك الأولى وليس لك الآخرة». كما مر. وفي «الصحيح» عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «إياكم والجلوس على الطرقات». قالوا: يا رسول الله، لا بدّ لنا من مجالسنا نتحدث فيها. فقال ﷺ: «إن أبيتم فأعطوا الطريق حقه». قالوا: وما حق الطريق يا رسول الله؟ قال: «غضّ البصر، وكف الأذى، ورد السلام، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر».

والحكمة في ذلك[2]: أن في غض البصر سداً لباب الشر، ومنعاً لارتكاب المآثم والذنوب. ولله در أحمد شوقي حيث يقول:

نَـظْـرَةٌ فَـٱبْـتِـسَـامَـةٌ فَـسَـلَامُ   فَـكَـلَامٌ فَـمَـوْعِـدٌ فَـلِـقَـاءُ

﴿وَيَحْفَظُواْ فُرُوجَهُمْ﴾ بمنعها من عمل الفاحشة، أو بحفظها من أن أحداً ينظر إليها. وقد جاء في الحديث: «احفظ عورتك إلا من زوجتك، أو ما ملكت يمينك».

---

(١) المراغي.
(٢) المراغي.

﴿ذَٰلِكَ﴾؛ أي: ما ذكر من غض البصر وحفظ الفروج. ﴿أَزْكَىٰ لَهُمْ﴾؛ أي: أطهر لهم من دنس الريبة، وأنفع لهم ديناً ودنيا. فقد قالوا: النظر بريد الزنا ورائد الفجور. ولله در شاعرهم:

كُلُّ ٱلْحَوَادِثِ مَبْدَاهَا مِنَ ٱلنَّظَرِ ... وَمُعْظَمُ ٱلنَّارِ مِنْ مُسْتَصْغَرِ ٱلشَّرَرِ
كَمْ نَظْرَةٍ فَعَلَتْ فِيْ قَلْبِ فَاعِلِهَا ... فِعْلَ ٱلسِّهَامِ بِلاَ قَوْسٍ وَلاَ وَتَرِ
وَٱلْمَرْءُ مَا دَامَ ذَا عَيْنٍ يُقَلِّبُهَا ... فِيْ أَعْيُنِ ٱلْعِيْنِ مَوْقُوْفٌ عَلَىٰ ٱلْخَطَرِ
يَسُرُّ نَاظِرَهُ مَا ضَرَّ خَاطِرَهُ ... لاَ مَرْحَباً بِسُرُوْرٍ عَادَ بِٱلضَّرَرِ

﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿خَبِيرٌ﴾؛ أي: عليم ﴿بِمَا يَصْنَعُونَ﴾؛ أي: بما يصنع المؤمنون وغيرهم من سائر العباد، فلا يخفى عليه شيء مما يصدر منهم من الأفعال. كإجالة النظر، واستعمال سائر الحواس، وماذا يراد بذلك فليكونوا على حذر منه تعالى في حركة وسكون، وفي كل ما يأتون وما يذرون.

روي[1] عن عيسى بن مريم عليه السلام، أنه قال: إياكم والنظرة، فإنها تزرع في القلب شهوة، وفي الأثر «يا ابن آدم لك النظرة الأولى، فما بال الثانية». وفي الحديث: «اضمنوا لي ستاً من أنفسكم أضمن لكم الجنة، أصدقوا إذا حدثتم، أوفوا إذا وعدتم، وأدوا ما ائتمنتم، واحفظوا فروجكم، وغضوا أبصاركم وكفوا أيديكم».

وبعد أن أمر سبحانه رسوله بأمر المؤمنين بغضّ أبصارهم.. أمره بأن يأمر المؤمنات بذلك فقال: ﴿وَقُل﴾ يا محمد ﴿لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ﴾ فلا ينظرن إلى ما لا يحل لهن النظر إليه، من عورات الرجال والنساء (ما بين السرة والركبة) عند أبي حنيفة وأحمد. وعند مالك ما عدا الوجه والأطراف. والأصح من مذهب الشافعي أنها لا تنظر إليه كما لا ينظر هو إليها. وإذا نظرت إلى ما عدا ذلك، أعني ما بين السرة والركبة بشهوة حرم، وبدونها لا يحرم، ولكن غض البصر عن الأجانب أولى بهن وأجمل، لما روى أبو داود والترمذي عن أم سلمة

(١) روح البيان.

أنها كانت عند رسول الله ﷺ، وميمونة، إذا أقبل ابن أم مكتوم، فدخل عليه بعد ما أمرنا بالحجاب، فقال رسول الله ﷺ: «احتجبا منه». فقلت: يا رسول الله أليس هو لا يبصرنا، ولا يعرفنا؟ فقال رسول الله ﷺ: «أو عمياوان أنتما، أو لستما تبصرانه».

والحاصل[١]: أن الله سبحانه أمر المؤمنين والمؤمنات بغض الأبصار، فلا يحل للرجل أن ينظر إلى المرأة، ولا للمرأة أن تنظر إلى الرجل، فإن علاقتها به كعلاقته بها، وقصدها منه كقصده منها. وقال مجاهد: إذا أقبلت المرأة جلس إبليس على رأسها، فزينها لمن ينظر، وإذا أدبرت جلس على عجيزتها فزينها لمن ينظر. ا هـ. «قرطبي». وخص[٢] سبحانه الإناث بهذا الخطاب على طريق التأكيد لدخولهن تحت خطاب المؤمنين تغليباً، كما في سائر الخطابات القرآنية.

وظهر التضعيف في يغضضن، ولم يظهر في يغضوا؛ لأن لام الفعل من الأول متحركة، ومن الثاني ساكنةً. وهما في موضع جزم جواباً للأمر. وبدأ سبحانه في الموضعين بالغضّ قبل حفظ الفرج؛ لأن النظر وسيلة إلى عدم حفظ الفرج. والوسيلة مقدمة على المتوسل إليه.

ومعنى يغضضن من أبصارهن كمعنى يغضوا من أبصارهم، فيستدل به على تحريم نظر النساء إلى ما يحرم عليهن. وكذلك يجب عليهن حفظ فروجهن على الوجه الذي تقدم في حفظ الرجال لفروجهم، وقد اشتملت هذه الآية على خمسة وعشرين ضميراً للإناث، ما بين مرفوع ومجرور، ولم يوجد لها نظير في القرآن في هذا الشأن. ا هـ. «كرخي».

﴿وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾ عما لا يحل لهن من الزنا والسحاق، ويسترنها حتى لا يراها أحد، ولا خلاف[٣] بين الأئمة في وجوب ستر العورة عن أعين الناس. واختلفوا كما سبق في العورة ما هي. فقال أبو حنيفة: عورة الرجل ما تحت

---

(١) الفتوحات.

(٢) الشوكاني.

(٣) روح البيان.

سرته إلى تحت ركبته، والركبة عورة. وفي «نصاب الاحتساب» من لم يستر الركبة ينكر عليه برفق؛ لأن في كونها عورةً اختلافاً مشهوراً. ومن لم يستر الفخذ يعنف عليه ولا يضرب؛ لأن في كونها عورة خلاف بعض أهل الحديث. ومن لم يستر السوءة يؤدب إذ لا خلاف في كونها عورة انتهى.

ومثل الرجل الأمة، وبالأولى بطنها وظهرها؛ لأنه موضع مشتهى. والمكاتبة وأم الولد والمدبرة كالأمة. وجميع الحرة عورة إلا وجهها وكفيها. والصحيح عنده أن قدميها عورة خارج الصلاة، لا في الصلاة.

وقال مالك: عورة الرجل فرجاه وفخذاه. والأمة مثله. وكذا المدبرة والمعتقة إلى أجل، والحرة كلها عورة: إلا وجهها ويديها، ويستحب عنده لأم الولد أن تستر من جسدها ما يجب على الحرة ستره. والمكاتبة مثلها.

وقال الشافعي وأحمد: عورة الرجل ما بين السرة والركبة، وليست الركبة من العورة، وكذا الأمة والمكاتبة وأم الولد والمدبرة والمعتق بعضها. والحرة كلها عورة سوى الوجه والكفين عند الشافعي، وعند أحمد سوى الوجه فقط على الصحيح. وأما سرة الرجل فليست من العورة بالاتفاق، كما في «فتح الرحمٰن».

﴿وَلَا يُبْدِينَ﴾؛ أي: ولا يظهرن ﴿زِينَتَهُنَّ﴾ للأجانب؛ أي: ما يتزين به من الحلية وغيرها. وهي ثلاثة أمور[1]: أحدها: الثياب، وثانيها: الحلي كالخاتم والسوار. وثالثها: الأصباغ كالكحل والخضاب بالوسمة في حاجبيها، والغمزة في خديها، والحناء في كفيها وقدميها، وفي النهي عن إبداء الزينة نهيٌ عن إبداء مواضعها من أبدانهن بالأولى.

ثم استثنى سبحانه من هذا النهي فقال: ﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ كالجلباب والخمار ونحوهما مما على الكف والقدمين من الحلية ونحوها.

والمراد بالزينة هنا محلها من البدن، وهو الوجه والكفان، كذلك يراد بها

---

(١) المراح.

البدن في قوله: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ﴾ إلخ. وأما في قوله: ﴿لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ﴾ فالمراد ما يتزين. ذكره «الجمل».

قال القرطبي في «تفسيره» الزينة[1] على قسمين، خلقية ومكتسبة. فالخلقية وجهها، فإنه أصل الزينة، والزينة المكتسبة ما تحاوله المرأة في تحسين خلقها، كالثياب والحلي والكحل والخضاب. ومنه قوله تعالى: ﴿خُذُواْ زِينَتَكُمْ﴾.

وقول الشاعر:

يَأْخُذْنَ زِيْنَتَهُنَّ أَحْسَنَ مَا تَرَىٰ وَإِذَا عَطِلْتَ فَهُنَّ خَيْرُ عَوَاطِلِ

قال ابن الشيخ[2]: الزينة ما تزينت به المرأة، من حلي أو كحل، أو ثوب أو صبغ، فما كان منها ظاهراً كالخاتم والفتخة، وهي ما لا فص فيه من الخاتم، والكحل والصبغ فلا بأس بإبدائه للأجانب بشرط الأمن من الشهوة. وما خفي منها كالسوار والدملج، وهي حلقة تحملها المرأة على عضدها، والوشاح والقرط فلا يحل لها إبداؤها إلا للمذكورات فيما بعد بقوله: ﴿إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ...﴾ الآية.

والخلاصة: أي[3] ولا يظهرن شيئاً من الزينة للأجانب إلا ما لا يمكن إخفاؤه مما جرت العادة بظهوره كالخاتم والكحل فلا يؤاخذن إلا في إبداء ما خفي منها كالسوار والخلخال والدملج والقلادة؛ لأن هذه الزينة واقعة في مواضع من الجسد لا يحل النظر إليها إلا لمن استثنى في الآية بعد. وهي: الذراع والساق والعضد والعنق والرأس والصدر والأذن.

ولما نهى عن إبداء الزينة أرشد إلى إخفاء بعض مواضعها، فقال: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ﴾؛ أي: وليلقين ويضعن خمرهن ﴿عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ ليسترن بذلك شعورهن وأعناقهن وصدورهن عن الأجانب، حتى لا يرى منها شيء. والمراد بالجيب هنا محله وهو العنق، وإلا فهو في الأصل طوق القميص. كما سيأتي.

---

(١) القرطبي.
(٢) روح البيان.
(٣) المراغي.

قال المفسرون: إن[1] نساء الجاهلية، كن يسدلن خمرهن من خلفهن، وكانت جيوبهن من قدام واسعة، فكانت تنكشف نحورهن وقلائدهن فنهين عن ذلك، وأمرن أن يضربن مقانعهن على الجيوب، لتستر بذلك ما كان يبدو. قالت عائشة ـ رضي الله عنها ـ: رحم الله النساء المهاجرات الأول، لما أنزل الله: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ شققن مروطهن فاختمرن بها.

وفي لفظ الضرب مبالغة في الإلقاء الذي هو الإلصاق. والخمر جمع خمار، وهو ما تغطي به المرأة رأسها. والجيوب: جمع جيب، وهو موضع القطع من الدرع والقميص، مأخوذ من الجوب وهو القطع، وهذا هو معناه الحقيقي، الذي فسر به الجمهور. وقال مقاتل: إن معنى على جيوبهن: على صدورهن، فيكون في الآية مضاف محذوف؛ أي: على مواضع جيوبهن.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ﴾ بإسكان اللام التي للأمر. وقرأ عياش عن أبي عمرو: بكسرها على الأصل؛ لأن أصل لام الأمر الكسر، ورويت هذه القراءة عن ابن عباس. وقرأ الجمهور: ﴿بِخُمُرِهِنَّ﴾ بتحريك الميم، وقرأ طلحة بن مصرف: بسكونها. وقرأ الجمهور: ﴿جُيُوبِهِنَّ﴾ بضم الجيم. وقرأ ابن كثير وبعض الكوفيين: بكسرها. وكثير من متقدمي النحويين لا يجوِّزون هذه القراءة. وقال الزجاج: يجوز أن يبدل من الضمة كسرة. فأما ما روي عن حمزة من الجميع بين الضم والكسر فمحال، لا يقدر أحد أن ينطق به إلا على الإيماء.

ثم كرر سبحانه النهي عن إبداء الزينة لأجل ما سيذكره من الاستثناء، فقال: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ﴾؛ أي: ولا يظهرن زينتهن الخفية المنهية عن إبدائها للأجانب، كالسوار والدملج والوشاح والقرط ونحوها، فضلاً عن إبداء مواقعها. كرره لبيان من يحل له الإبداء، ومن لا يحل له.

وفي «الخطيب»: ولا يبدين زينتهن؛ أي: الزينة الخفية التي لم يبح لهن كشفها في الصلاة ولا للأجانب. وهي ما عدا الوجه والكفين. ا هـ.

---

(١) الشوكاني.

(٢) الشوكاني والبحر المحيط.

وقال أبو الليث[1]: لا يظهرن مواضع زينتهن، وهو الصدر والساق والساعد والرأس؛ لأن الصدر موضع الوشاح، والساق موضع الخلخال، والساعد موضع السوار، والرأس موضع الإكليل، فقد ذكر الزينة وأراد بها موضع الزينة، انتهى.

﴿إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ﴾؛ أي: إلا لأزواجهن وسادتهن، فإن البعل هو الزوج والسيد في كلام العرب. وجملة المستثنيات اثنا عشر نوعاً، آخرها أو الطفل. اهـ. «شيخنا».

وقدم البعولة على غيرهم؛ لأنهم المقصود خصوصاً، إذا كان النظر لتقوية الشهوة، إلا أنه يكره له النظر إلى الفرج بالاتفاق، حتى إلى فرج نفسه، لأنه يروى أنه يورث الطمس والعمى. وفي كلام عائشة ـ رضي الله عنها ـ ما رأى مني، ولا رأيت منه؛ أي: العورة.

قال في «النصاب»: إن الزينة الباطنة يجوز إبداؤها لزوجها وذلك لاستدعائه ورغبته فيها. ولذلك لعن رسول الله ﷺ السلقاء والمرهاء. فالسلقاء: التي لا تختضب. والمرهاء: التي لا تكتحل.

﴿أَوْ ءَابَآئِهِنَّ﴾ وإن عَلَوْا سواء كانوا من جهة الذكران أو الإناث. ﴿أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ﴾، وإن عَلوا، سواء كانوا من النسب أو الرضاع. ﴿أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ﴾ وإن سفلوا من النسب أو الرضاع. ﴿أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ﴾ من غيرهن، وإن سفلوا. ﴿أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ﴾ من النسب أو الرضاع. جمع أخ، كالإخوة. فهو جمع له أيضاً. ﴿أَوْ بَنِيٓ إِخْوَٰنِهِنَّ﴾ كذلك ﴿أَوْ بَنِيٓ أَخَوَٰتِهِنَّ﴾ كذلك.

والمراد[2] بأبناء بعولتهن: ذكور أولاد الزوج، ويدخل في قوله: ﴿أو أبنائهن﴾ أولاد الأولاد، وإن سفلوا. وأولاد بناتهن، وإن سفلوا. وكذا آباء البعولة يدخل فيه آباء الآباء، وآباء الأمهات، وإن علوا. وكذلك أبناء البعولة، وإن سفلوا وكذلك أبناء الإخوة والأخوات.

---

(١) بحر العلوم. (٢) الشوكاني.

وذهب الجمهور: إلى أن العم والخال كسائر المحارم في جواز النظر إلى ما يجوز لهم. وعدم ذكر الأعمام والأخوال لما أن الأحوط أن يستترن منهم حذراً من أن يصفوهن لأبنائهم. والمعنى: إن سائر القرابات تشترك مع الأب والابن في المحرمية، إلا ابن العم والخال. وهذا من الدلالات البليغة في وجوب الاحتياط عليهن في النسب. ا هـ. «كرخي». وليس في الآية ذكر الرضاع وهو كالنسب. وقال الشعبي وعكرمة: ليس العم والخال من المحارم.

والمعنى: أي[1] قل يا محمد للمؤمنات لا يظهرن هذه الزينة الخفية إلا لأزواجهن فإنهم المقصودون بزينتهن، والمأمورات نساؤهم بصنعها لهم، حتى إن لهم ضَرْبَهُنَّ على تركها، ولهم النظر إلى جميع بدنهن. أو لآباء النساء، أو لآباء الأزواج، أو لأبنائهن أو لأبناء أزواجهن، أو لإخوانهن، أو لأبناء الإخوة، أو لأبناء الأخوات؛ لكثرة المخالطة بينهم وبينهن، وقلة توقع الفتنة من قبلهم، ولأن الطباع السليمة تأبى أن تفتتن بالقريبات إلا أنهن محتاجات إلى صحبتهم في الأسفار للركوب أو النزول.

﴿أَوْ﴾ إلا لـ﴿نِسَآئِهِنَّ﴾؛ أي: نساء[2] أهل دينهن المختصات بهن بالصحبة والخدمة، من حرائر المؤمنات. فإن الكوافر لا يتأثمن عن وصفهن للرجال، فيكون تصور الأجانب إياها بمنزلة نظرهم إليها. فإن وصف مواقع زينة المؤمنات للرجال الأجانب معدود من جملة الآثام عند المؤمنات.

فالمراد بنسائهن نساء أهل دينهن. وهذا قولُ أكثر السلف، فإنهم جعلوا المرأة اليهودية والنصرانية والمجوسية والوثنية في حكم الرجل الأجنبي، فمنعوا المسلمة من كشف بدنها عندهن؛ إلا أن تكون أمةً لها. كما منعوها من التجرد عند الأجانب. والظاهر أن العلة شيئان: عدم المجانسة ديناً، فإن الإيمان والكفر فرق بينهما. وعدم الأمن من الوصف المذكور. وإضافة النساء إليهن تدل على

---

(١) المراغي.

(٢) روح البيان.

اختصاص ذلك بالمؤمنات. وقال الإمام: قول السلف محمول على الاستحباب. والمذهب أن المراد بقوله: أو نسائهن، جميع النساء.

﴿أَوْ﴾ إلا لـ﴿مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ﴾ من الإماء، أما العبيد[1] فقد اختلفوا فيهم، فقال قوم: عبد المرأة محرم لها. فيجوز له الدخول عليها إذا كان عفيفاً، وله أن ينظر إلى مولاته إلا ما بين السرة والركبة كالمحارم. وروي ذلك عن عائشة وأم سلمة. وقد روي أنَّ عائشة كانت تمتشط وعبدها ينظر إليها. وقال قوم: هو كالأجنبي معها. وهو رأي ابن مسعود والحسن وابن سيرين. ومن ثم قالوا: لا ينظر العبد إلى شعر مولاته، فهو بمنزلة الأجنبي منها، خصياً كان أو فحلاً. وهو قول أبي حنيفة. وعليه عامة العلماء، فلا يجوز لها الحج ولا السفر معه وإن جاز رؤيته إياها إذا وجد الأمن من الشهوة.

وقال ابن الشيخ[2]: فإن قيل: ما الفائدة في تخصيص الإماء بالذكر بعد قوله: ﴿أَوْ نِسَآئِهِنَّ﴾؟ فالجواب ـ والله أعلم ـ أنه تعالى لما قال: ﴿أَوْ نِسَآئِهِنَّ﴾ دل ذلك على أن المرأة لا يحل لها أن تبدي زينتها للكافرات، سواء كن حرائر أو إماءً لغيرها أو لنفسها، فلما قال: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ﴾ مطلقاً؛ أي: مؤمنات كن أو مشركات، علم أنه يحل للأمة أن تنظر إلى زينة سيدتها مسلمةً كانت الأمة أو كافرة، لما في كشف مواضع الزينة الباطنة لأمتها الكافرة في أحوال استخدامها إياها من الضرورة التي لا تخفى. ففارقت الحرة الكافرة بذلك.

﴿أَوْ﴾ إلا لـ﴿ٱلتَّٰبِعِينَ﴾ الذين يتبعون القوم إلى بيوتهم، ليصيبوا من فضل طعامهم لا غرض ولا همة لهم إلا ذلك. ﴿غَيْرِ أُوْلِي ٱلْإِرْبَةِ﴾ والحاجة إلى النساء حالة كونهم ﴿مِنَ ٱلرِّجَالِ﴾ الذين طعنوا في السن، ففنيت شهواتهم إذا كانوا معهن غضوا أبصارهم. وقيل[3]: المراد بغير أولي الإربة من الرجال الحمقى الذين لا حاجة لهم في النساء. وقيل: العنين. وقيل: الخصي ـ من قطع خصيتاه ـ،

---

(١) المراغي.

(٢) روح البيان.

(٣) الشوكاني.

وقيل: المجبوب ـ من قطع ذكره ـ. وقيل: المخنث، وهو الذي في أعضائه لين، وفي لسانه تكسر في أصل الخلقة، فلا يشتهي النساء، ولا حاجة لهذا التخصيص، بل المراد بالآية ظاهرها، وهم من يتبع أهل البيت، ولا حاجة له في النساء ولا يحصل منه ذلك في حال من الأحوال. فيدخل من هؤلاء من هو بهذه الصفة ويخرج من عداه.

قال ابن عطية: ويدخل في هذه الصفة المجنون والمعتوه والمخنث والشيخ الفاني والزَّمِن الموقوذ بزمانته. وقال بعضهم[1]: قوله تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ﴾ محكم. وقوله: و﴿ٱلتَّـٰبِعِينَ﴾ مجمل. والعمل بالمحكم أولى، فلا رخصة للمذكورين من الخصي ونحوه في النظر إلى محاسن النساء، وإن لم يكن هناك احتمال الفتنة.

وفي «الكشاف»: لا يحل إمساك الخصيان واستخدامهم وبيعهم وشرائهم، ولم ينقل عن أحد من السلف إمساكهم. انتهى. وعن ميسون بنت بحدل زوجة معاوية، أن معاوية دخل عليها ومعه خصي، فتقنعت منه، فقال: هو خصي، فقالت: يا معاوية، أترى المثلة تحلل ما حرم الله من النظر؟ فتعجب من فطنتها وفهمها. ذكره في «كتاب النصاب».

وفي «البستان» أنه لا يجوز خصاء بني آدم؛ لأنه لا منفعة فيه؛ لأنه لا يجوز للخصي أن ينظر إلى النساء، كما لا يجوز للفحل. بخلاف خصاء سائر الحيوانات، ألا ترى أن خصي الغنم أطيب لحماً، وأكثر شحماً. وقس عليه غيره.

وروى مسلم عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: كان يدخل على أزواج النبي ﷺ مخنث، وكانوا يعدونه من غير أولي الإربة، فدخل رسول الله ﷺ يوماً وهو عند بعض نسائه، وهو ينعت امرأةً ـ بنت غيلان ـ، قال: إذا أقبلت أقبلت بأربع، وإذا أدبرت أدبرت بثمان، فقال النبي ﷺ: «ألا أرى هذا يعرف ما ههنا،

---

(١) روح البيان.

لا يدخل عليكن فاحجبوه». زاد أبو داود في رواية: «وأخرجوه إلى البيداء، يدخل كل جمعة فيستطعم».

وقرأ ابن عامر وأبو بكر[1]: ﴿غَيْرَ﴾ بالنصب على الحال أو الاستثناء. وباقي السبعة بالجر على النعت. وعطف قوله: ﴿أَوِ ٱلطِّفْلِ﴾ على من الرجال، فقسم التابعين غير أولي الإربة إلى قسمين: رجال، وأطفال. والمفرد المحكي بأل يكون للجنس فيعم. ولذلك وصفه بالجمع في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُواْ﴾ ولم يطلعوا ﴿عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ﴾ ولم يكشفوها للمجامعة؛ أي: حال كون غير أولي الإربة من الرجال البالغين، أو من الأطفال الذين لم يبلغوا سن الشهوة والقدرة على ملامسة النساء وفي مصحف أبيّ ﴿الأطفال﴾؛ أي[2]: الذين لم يكشفوا عن عورات النساء للجماع، فيطلعوا عليها. وقيل: لم يعرفوا العورة من غيرها من الصغر. وقيل: لم يطيقوا أمر النساء. وقيل: لم يبلغوا حد الشهوة. وقيل: الطفولية اسم للصبي ما لم يحتلم.

وفي «الروضة»: وجعل الإمام أمر الصبي ثلاثة درجات[3]:

إحداها: أن لا يبلغ أن يحكي ما رأى.

والثانية: أن يبلغه ولا يكون فيه ثوران شهوة.

والثالثة: أن يكون فيه ذلك.

فالأول: حضوره كغيبته، ويجوز التكشف له من كل وجه. والثاني: كالمحرم. والثالث: كالبالغ. واعلم أن الصبي لا تكليف عليه، وإذا جعلناه كالبالغ، فمعناه: أنه يلزم المنظور إليها الاحتجاب منه كما أنه يلزمها الاحتجاب من المجنون قطعاً.

قلت: وإذا جعلنا الصبي كالبالغ لزم الولي أن يمنعه النظر، كما يلزمه أن يمنعه من الزنا وسائر المحرمات. والله أعلم. ا هـ.

---

(١) البحر المحيط.

(٢) الخازن.

(٣) الفتوحات.

وقال الفناري في تفسير الفاتحة: حد الطفل من أول ما يولد إلى أن يستهل صارخاً إلى انقضاء ستة أعوام. وقال في «فتح القريب»: العورة كل ما يستحى منه إذا ظهر. وسيأتي البسط عنه في مبحث المفردات.

وقال بعضهم[1]: يفهم من عبارة الطفل، أن التقوى منع الصبيان حضرة النساء بعد سبع سنين، فإن ابن السبع، وإن لم يكن في حد الشهوة، لكنه في حد التمييز، مع أن بعض من لم يبلغ حدّ الحلم مشتهىً، فلا خير في مخالطة النساء. وفي «ملتقط الناصري» الغلام إذا بلغ مبلغ الرجال، ولم يكن صبيحاً فحكمه حكم الرجال. وإن كان صبيحاً فحكمه حكم النساء، وهو عورة من قرنه إلى قدمه، يعني لا يحل النظر إليه عن شهوة، فأما السلام والنظر بلا شهوة فلا بأس به. ولهذا لم يؤمر بالنقاب، ويكره مجالسة الأحداث والصبيان والسفهاء؛ لأنه يذهب بالمهابة. كما في «البستان».

قال في «أنوار المشارق»: يحرم على الرجل النظر إلى وجه الأمرد إذا كان حسن الصورة، سواء نظر بشهوة أم لا. وسواء أمن الفتنة أم خافها. ويجب على من في الحمام أن يصون نظره ويده وغيرهما عن عورة غيره. وأن يصون عورته عن نظر غيره. ويجب الإنكار على كاشف العورة.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿عَوْرَٰتِ﴾ بسكون الواو. وهي لغة أكثر العرب. لا يحركون الواو والياء في نحو هذا الجمع. وروي عن ابن عباس تحريك واو عورات بالفتح. والمشهور في كتب النحو أن تحريك الواو والياء في مثل هذا الجمع هو لغة هذيل بن مدركة.

ثم نهى عن إظهار وسوسة الحلي بعد النهي عن إبداء مواضعه، فقال: ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ﴾ الأرض ﴿لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ﴾؛ أي: ما يخفينه من الرؤية. ﴿مِن زِينَتِهِنَّۚ﴾؛ أي: خلاخلهن؛ أي[3]: لا يضربن النساء المؤمنات بأرجلهن الأرض،

---

(١) روح البيان.
(٢) البحر المحيط.
(٣) روح البيان.

ليتقعقع ويصوت خلخالهن. فيعلم أنهن ذوات خلخال. فإن ذلك مما يورث الرجال ميلاً إليهن، ويوهم أن لهن ميلاً إليهم. وإذا كان إسماع صوت خلخالها للأجانب حراماً. . كان رفع صوتها بحيث يسمع الأجانب كلامها حراماً بطريق الأولى؛ لأن صوت نفسها أقرب إلى الفتنة من صوت خلخالها. ولذلك كرهوا أذان النساء؛ لأنه يُحتاج فيه إلى رفع الصوت.

وفي «الشهاب»: وهذا سدٌّ لباب المحرمات، وتعليم للأحوط، وإلا فصوت النساء ليس بعورة عند الشافعي، فضلاً عن صوت خلخالهن. ا هـ.

وفي «القرطبي»: من فعل ذلك منهن فرحاً بحليهن فهو مكروه، ومن فعل ذلك منهن تبرجاً وتعرضاً للرجال فهو حرام مذموم. وكذلك من ضرب بنعله الأرض من الرجال، إن فعل ذلك عجباً حرم، فإن العجب كبيرة، وإن فعل ذلك تبرجاً لم يحرم. ا هـ.

وللنساء أفانين في هذا الباب[1]، فقد يجعلن الخرز ونحوه في جوف الخلخال، فإذا مشين ولو هوناً كان له رنين وصوت خاص، ومن الناس من تهيجه وسوسة الحلي أكثر مما يهيجه رؤيته.

﴿وَتُوبُوٓاْ﴾ وارجعوا من عمل المعاصي ﴿إِلَى﴾ طاعة ﴿ٱللَّهِ﴾ سبحانه وتعالى حالة كونكم ﴿جميعاً﴾؛ أي: مجتمعين عليها ﴿أيها المؤمنون﴾ بالله ورسوله، إذ لا يكاد يخلو أحدكم من تفريط في أمره ونهيه، سيما في الكف عن الشهوات. و﴿أيها المؤمنون﴾ تأكيد للإيجاب وإيذان بأن وصف الإيمان موجب للامتثال حتماً. وفي هذه الآية دليل على أن الذنب لا يخرج العبد عن الإيمان؛ لأنه تعالى قال: ﴿أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ بعد ما أمر بالتوبة التي تتعلق بالذنب. ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾؛ أي: تفوزون بسعادة الدارين. وصَّى الله سبحانه جميع المؤمنين بالتوبة والاستغفار؛ لأن العبد الضعيف لا ينفك عن تقصير يقع منه وإن اجتهد في رعاية تكاليف الله تعالى.

---

(١) المراغي.

والمعنى: أي ارجعوا أيها المؤمنون إلى طاعة الله فيما أمركم به ونهاكم عنه، من غض البصر وحفظ الفرج، وترك دخول بيوت غيركم بلا استئذان ولا تسليم، تفوزوا بسعادة الدنيا والآخرة. وأخرج أحمد والبخاري والبيهقي في «شعب الإيمان» عن ابن عمر قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «أيها الناس توبوا إلى الله، فإني أتوب إليه كل يوم مئة مرة».

ومن شرط التوبة[1]: الإقلاع عن الذنب، والندم على ما مضى، والعزم على أن لا يعود إليه. ورد الحقوق إلى أهلها. لا كما يظن الناس الآن، أنها كلمة تلاك باللسان، دون أن يكون لها أثر في القلب ولا عزم على عدم العود، حتى إن كثيراً ممن يزعمون أنهم تابوا من الذنب يحكون ما فعلوه من الآثام على وجه الفخر والاستلذاذ بذكره، وهذا دليل على أنهم كاذبون في توبتهم، مراؤون في أفعالهم.

والجمهور[2] على فتح الهاء، وإثبات ألفٍ بعد الهاء في ﴿أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ وهي ها، التي للتنبيه. وقرأ ابن عامر: ﴿أيه المؤمنون﴾ هنا، و﴿يا أيه الساحر﴾ في الزخرف. و﴿أيه الثقلان﴾ في الرحمٰن بضم الهاء وصلاً، وإذا وقف سكن. ووجهه أنها كانت مفتوحة لوقوعها قبل الألف، فلما سقطت الألف لالتقاء الساكنين استثقلت الفتحة على الهاء، فأتبعت حركتها حركة ما قبلها، فضمت الهاء إتباعاً للرسم، وضم ها، التي للتنبيه بعد أي لغة لبني مالك رهط شقيق ابن سلمة وقد رسمت هذه المواضع الثلاثة دون ألف، فوقف أبو عمرو والكسائي بألف. والباقون بدونها اتباعاً للرسم، ولموافقة الخط للفظ. وثبتت في غير هذه المواضع، حملاً لها على الأصل نحو ﴿يا أيها الناس﴾، ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾. وبالجملة فالرسم سنة متبعة. ا هـ. «سمين».

وقال بعضهم: إن الله[3] سبحانه وتعالى طالب المؤمنين جميعاً في هذه

---

(١) المراغي.
(٢) الفتوحات والبحر المحيط.
(٣) روح البيان.

الآية بالتوبة. ومن آمن بالله وترك الشرك.. فقد تاب، وصحت توبته ورجوعه إلى الله، وإن خطر عليه خاطر، أو جرى عليه معصية في حين التوبة، فإن المؤمن إذا جرى عليه معصية.. ضاق صدره واهتم قلبه، وندم روحه ورجع سره. ا هـ.

ولما أمر سبحانه بغض الأبصار، وحفظ الفروج.. أرشد بعد ذلك إلى ما يحل للعباد من النكاح الذي يكون به قضاء الشهوة، وسكون دواعي الزنا، ويسهل بعده غض البصر عن المحرمات، وحفظ الفرج عما لا يحل. فقال: ﴿وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ﴾ جمع أيم[1]. والأيم: من لا زوج له من الرجال والنساء، بكراً كان أو صبياً. وقال أبو عمرو والكسائي: اتفق أهل اللغة على أن الأيم في الأصل، هي المرأة التي لا زوج لها بكراً كانت أو ثيباً. قال أبو عبيد: يقال: رجل أيم، وامرأة أيم. وأكثر ما يكون من النساء. وهو كالمستعار في الرجال. ومنه قول أمية بن أبي الصلت:

لِلَّهِ دَرُّ بَنِيْ عَلِيّ ... أَيِّمٌ مِنْهُمْ وَنَاكِحْ

والخطاب في الآية للأولياء. وقيل: للأزواج. والأول: أرجح. وفيه دليل على أن المرأة لا تنكح نفسها. وقد خالف في ذلك أبو حنيفة. **والمعنى**: زوجوا أيها الأولياء من لا زوج له من أحرار قومكم وحرائر عشيرتكم، فإن النكاح سبب لبقاء النوع، وحافظ من السفاح. والمراد بذلك مديد المساعدة بكل الوسائل حتى يتسنى لهم ذلك كإمدادهم بالمال، وتسهيل الوسائل التي بها يتم ذلك الزواج والمصاهرة.

واختلف أهل العلم في النكاح[2]، هل هو مباح، أو مستحب، أو واجب. فذهب إلى الأول الشافعي وغيره. وإلى الثاني مالك وأبو حنيفة، وإلى الثالث بعض أهل العلم على تفصيل لهم في ذلك، فقالوا: إن خشي على نفسه الوقوع في المعصية.. وجب عليه، وإلا فلا. والظاهر أن القائلين بالإباحة والاستحباب لا يخالفون في الوجوب مع تلك الخشية.

---

(١) الشوكاني.
(٢) الشوكاني.

وبالجملة فهو مع عدمها سنة من السنن المؤكدة؛ لقوله ﷺ في الحديث الصحيح ـ بعد ترغيبه في النكاح ـ: «ومن رغب عن سنتي فليس مني»، ولكن مع القدرة عليه وعلى مؤنه.

والمراد بالأيامى هنا الأحرار والحرائر. وأما المماليك فقد بين ذلك بقوله تعالى: ﴿وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنۡ عِبَادِكُمۡ وَإِمَآئِكُمۡۚ﴾؛ أي: وزوجوا أيها السادات الصالحين؛ أي: المؤمنين من عبادكم وإمائكم لحصن دينهم. وهم الذين تنزلونهم منزلة الأولاد في المودة، في بذل المال والمنافع. وقال في «الوسيط»: معنى الصلاح هاهنا: الإيمان. وتقييد[1] الأرقاء بالصالحين دون الأحرار فلأن من لا صلاح له من الأرقاء بمعزل من أن يكون خليقاً بأن يعتني مولاه بشأنه ويشفق عليه ويتكلف في نظم مصالحه بما لا بدّ منه شرعاً وعادةً من بذل المال والمنافع، بل حقه أن لا يستبقيه عنده. وأما عدم اعتبار الصلاح في الأحرار والحرائر، فإن الغالب فيهم الصلاح، بخلاف المماليك؛ ولأنهم مستقلون في التصرفات المتعلقة بأنفسهم وأموالهم.

وقيل المعنى: وزوجوا أيها السادات الصالحين والصالحات من عبادكم وإمائكم؛ أي[2]: القادرين والقادرات على النكاح، والقيام بحقوق الزوجية، بأن يقوم العبد بما يلزم لها، وتقوم الأمة بما يلزم للزوج. أو المراد بالصلاح أن لا تكون صغيرة لا تحتاج إلى النكاح.

والخلاصة: أن في الآية أمراً للأولياء بتزويج من لهم عليهم حق الولاية، وللسادة بتزويج العبيد والإماء. والجمهور قد حملوا الأمر على الاستحسان، لا على الوجوب؛ لأنه قد كان في عصر النبي ﷺ، وفي سائر العصور بعده أيامى من الرجال والنساء، ولم ينكر ذلك أحد عليهم. والظاهر أن الأمر يكون للوجوب إذا خيفت الفتنة، وغلب على الظن حصول السفاح من الرجل أو المرأة.

---

(١) روح البيان.

(٢) المراغي.

وفي الآية دليل على أن المملوك لا يزوِّج نفسه، وإنما يزوجه مالكه. وقد ذهب الجمهور إلى أنه يجوز للسيد أن يكره عبده وأمته على النكاح. وقال مالك: لا يجوز. وقرأ مجاهد والحسن: ﴿من عبيد﴾، بالياء مكان الألف وفتح العين. ذكره في «البحر».

فإن قلت[1]: قد أطلق سبحانه في هذه الآية الكريمة العبد والأمة على الغلام والجارية. وقد قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح كما رواه مسلم: «لا يقولن أحدكم عبدي وأمتي، كلكم عبيد الله، كلُّ النساء إماء الله، ولكن ليقل غلامي وجاريتي، وفتاي وفتاتي».

قلت: إن ذلك إنما يكره إذا قاله على طريق التطاول على الرقيق، والتحقير لشأنه، والتعظيم لنفسه. فسقط التعارض. والحمد لله تعالى.

ثم رجع سبحانه إلى الكلام في الأحرار، فقال: ﴿إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ﴾؛ أي: لا تمتنعوا أيها الأولياء من تزويج الأحرار والحرائر بسبب فقرهم؛ لأنهم إن يكونوا فقراء عادمي المال ﴿يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿مِن فَضْلِهِۦ﴾ ورزقه؛ أي[2]: لا تنظروا إلى فقر من يخطب إليكم، أو فقر من تريدون زواجها. ففي فضل الله سبحانه ما يغنيهم، والمال غاد ورائح. والله سبحانه يرزق من يشاء من حيث لا يحتسب. قال بعضهم: من صح افتقاره إلى الله.. صح استغناؤه بالله.

قال الزجاج[3]: حث الله سبحانه على النكاح، وأعلم أنه سبب لنفي الفقر، ولا يلزم أن يكون هذا حاصلاً لكل فقير إذا تزوج، فإن ذلك مقيد بالمشيئة، وقد يوجد في الخارج كثير من الفقراء لا يحصل لهم الغنى إذا تزوجوا. وإنما كان النكاح يسبب الغنى؛ لأن العقد الديني يجلب العقد الدنيوي، إما من حيث لا يحتسبه الفقير، أو من حيث أن النكاح سبب للجد في الكسب، والكسب ينفي الفقر. وقيل المعنى: إنه يغنيه بغنى النفس. وقيل المعنى: إن يكونوا فقراء إلى

---

(١) روح البيان.
(٢) روح البيان.
(٣) الشوكاني.

النكاح.. يغنيهم الله من فضله بالحلال ليتعففوا عن الزنا. والوجه الأول أولى. ويدل عليه قوله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ﴾ فيحمل المطلق هنا على المقيد هناك.

وجملة قوله: ﴿وَٱللَّهُ﴾ سبحانه ﴿وَٰسِعٌ﴾؛ أي: ذو سعة وغنى. فلا انتهاء لفضله، ولا حد لقدرته، فهو يسع هذين الزوجين وغيرهما. ﴿عَلِيمٌ﴾ بأحوال خلقه، يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر، بحسب ما تقتضيه الحكمة والمصلحة. مؤكدة لما قبلها، ومقررة لها.

والمعنى: أنه سبحانه ذو سعة، ولا ينقص من سعة ملكه غنى من يغنيه من عباده، عليم بمصالح خلقه، يغني من يشاء، ويفقر من يشاء. وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة حق على الله عونهم: الناكح يريد العفاف، والمكاتب يريد الأداء، والغازي في سبيل الله». أخرجه ابن ماجه في سننه، والترمذي والنسائي أيضاً.

وبعد أن بيَّن سبحانه حال القادرين على النكاح ووسائله.. بين حال العاجزين عن تلك الوسائل، فقال: ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ﴾؛ أي: وليطلب العفة عن الزنا، والحرام والاجتناب عنه. ﴿ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ﴾ ولا يقدرون ﴿نِكَاحًا﴾؛ أي: سبب نكاح ووسيلته وهو المال. وقيل: النكاح هنا ما تنكح به المرأة من المهر والنفقة، كاللحاف اسم لما يلتحف به، واللباس اسم لما يلبس؛ أي: وليجتهد[1] في العفة وقمع الشهوة من لا يجد أسباب نكاح من مهر ونفقة - فإنه لا معنى لوجدان نفس العقد والتزوج - وذلك بالصوم. كما قال عليه السلام: «ومن لم يستطع فعليه بالصوم، فإنه له وجاء» معناه: إن الصوم يضعف شهوته، ويقهرها على طلب الجماع، فيحصل بذلك صيانة الفرج وعفته. والأمر في ﴿ليستعفف﴾ محمول على الوجوب في صورة التوقان.

ثم قيد سبحانه هذا الأمر بغايةٍ هي قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن

---

(١) الشوكاني.

﴿فَضْلِهِۦ﴾؛ أي: وليجتهدوا في الاستعفاف حتى يرزقهم الله سبحانه رزقاً يستغنون به، ويتمكنون بسببه من النكاح.

والخلاصة: أي وليجتهد في العفة وصون النفس من لا يتمكن من المال الذي به يتم النكاح، ولينتظر أن يغنيه الله من فضله، حتى يصل إلى بغيته من النكاح، ثم لما رغب سبحانه في تزويج الصالحين من العبيد والإماء، أرشد المالكين إلى طريقة يصير بها المملوك من جملة الأحرار، فقال: ﴿وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَٰبَ﴾؛ أي: والمماليك الذين يطلبون المكاتبة والإعتاق على المال ﴿مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ وأيديكم من عبيدكم وإماءكم، ليصيروا أحراراً، والموصول في محل رفع مبتدأ خبره ﴿فَكَاتِبُوهُمْ﴾؛ أي: فصيروهم أحراراً بعقد الكتابة. والفاء لتضمن الموصول معنى الشرط. ويجوز أن يكون الموصول في محل نصب على إضمار فعل يفسره ما بعده؛ أي: وكاتبوا الذين يبتغون الكتاب. والأمر فيه للندب؛ لأن الكتابة عقد يتضمن الإرفاق، فلا تجب كغيرها.

﴿إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ﴾؛ أي: في أولئك المماليك ﴿خَيْرًا﴾؛ أي: أمانةً ورشداً، وقدرةً على أداء مال الكتابة بتحصيله من وجه حلال، وصلاحاً بحيث لا يؤذي الناس بعد العتق وإطلاق العنان. وهو شرط في استحباب[1] عقد الكتابة المفهوم من قوله تعالى: ﴿فَكَاتِبُوهُمْ﴾. فاللام من انتفاء هذا القيد، انتفاء الاستحباب، لا انتفاء الجواز.

فصل في بيان معنى الكتابة وحكمها وكيفيتها

والكتابة لغة: مصدر كاتب يكاتب كتابة وكتاباً ومكاتبة. نظير قاتل يقاتل قتالاً ومقاتلة. وشرعاً: أن يقول[2] السيد لمملوكه: كاتبتك على كذا من المال، ويسمى مالاً معلوماً، تؤدي ذلك في نجمين، أو في نجوم معلومة، في كل نجم كذا. فإذا أديت ذلك.. فأنت حر، ويقبل العبد ذلك. فإذا أدى العبد ذلك المال عتق، ويصير العبد أحق بمكاسبه بعد الكتابة. وإذا عتق بأداء المال، فما فضل

---

(١) روح البيان. (٢) الخازن.

في يده من المال فهو له، ويتبعه أولاده الذين حصلوا في الكتابة في العتق. وإذا عجز عن أداء المال، كان لمولاه أن يفسخ كتابته، ويرده إلى الرق. وما في يده من المال فهو لسيده لما روى عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: قال رسول الله ﷺ: «المكاتب عبد ما بقي عليه درهم». أخرجه أبو داود.

وذهب بعض أهل العلم إلى أن قوله تعالى: ﴿فَكَاتِبُوهُمْ﴾ أمر إيجاب، يجب على السيد أن يكاتب عبده الذي علم فيه خيراً إذا سأل العبد ذلك على قيمته، أو على أكثر من قيمته، وإن سأل على أقل من قيمته لا يجب. وهو قول عطاء وعمرو بن دينار. لما روي أن سيرين أبا محمد بن سيرين سأل أنس بن مالك أن يكاتبه ـ وكان كثير المال ـ فأبى، فانطلق سيرين إلى عمر فشكاه، فدعاه عمر فقال له: كاتبه، فأبى، فضربه بالدرَّة، وتلا ﴿فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾ فكاتبه.

ولا تجوز الكتابة على أقل من نجمين عند الشافعي؛ لأنه عقد جوز إرفاقاً بالعبد. ومن تتمة الإرفاق أن يكون ذلك المال عليه إلى أجل، حتى يؤديه على مهلٍ، فيحصل المقصود. وجوز أبو حنيفة الكتابة حالة منجمة بنجم واحد.

ومعنى المفاعلة[1] في هذا العقد: أن المولى يكتب؛ أي: يفرض، ويوجب على نفسه أن يعتق المكاتب إذا أدى البدل، ويكتب العبد على نفسه أن يؤدي البدل من غير إخلال. وأيضاً بدل هذا العقد مؤجل منجم على المكاتب، والمال المؤجل يكتب فيه كتاب على من عليه المال غالباً.

واختلفوا في معنى: ﴿إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾ فقال ابن عمر: قوةً على الكسب. وهو قول مالك والثوري. وقيل: مالاً. روي أن عبداً لسلمان الفارسي قال له: كاتبني، قال: ألك مال؟ قال: أتريد أن تطعمني أوساخ الناس، ولم يكاتبه. قيل: لو أراد به المال لقال: إن علمتم لهم خيراً. وقيل: صدقاً وأمانةً. وقال الشافعي: أظهر معاني الخير في العبد، الاكتساب مع الأمانة، فأحب أن لا يمنع من الكتابة إذا كان هكذا. وقيل: معنى الخير، أن يكون العبد عاقلاً بالغاً.

---

(١) روح البيان.

فأما الصبي والمجنون فلا تصح كتابتهما؛ لأن الابتغاء منهما لا يصح. وجوز أبو حنيفة كتابة الصبي المراهق.

والمعنى: أي والمماليك الذين يطلبون من سادتهم أن يكاتبوهم على أداء مال معين نجوماً، ليصيروا بعد أدائها أحراراً، ويكونوا قادرين على الكسب، وأداء ما كوتبوا عليه مع الأمانة والصدق فكاتبوهم، ويكونون بعد انتهاء الأجل وأداء ما أوجبوه على أنفسهم أحراراً في رقابهم وفي كسبهم.

ثم حث المؤمنين جميعاً على تحرير الرقاق، فقال: ﴿وَءَاتُوهُم﴾؛ أي: واعطوا أيها السادة المكاتبين شيئاً ﴿مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ﴾؛ أي: أعطاكم، وليس لكم فيه فضل، فإن الله ربكم ورب عبيدكم، وأموالكم ملكه. أو أعطوا أيها الحكام المكاتبين سهامهم التي جعلها الله لهم في بيت المال في مصارف الزكاة بقوله: ﴿وَفِى ٱلرِّقَابِ﴾؛ أي: وفي تحرير الأرقاء.

وعلى القول بأن الخطاب للسادة.. فالواجب إما أن يعطوهم شيئاً من المال، أو يحطوا عنهم مما كوتبوا عليه. وظاهر الآية عدم تقدير ذلك بمقدار. وقيل: الثلث. وقيل: الربع. وقيل: العشر. ولعل وجه تخصيص الموالي بهذا الأمر هو كون الكلام فيهم وسياق الكلام معهم، فإنهم المأمورون بالكتابة. وقال الحسن والنخعي وبريدة: إن الخطاب بقوله: ﴿وَءَاتُوهُم﴾ لجميع الناس.

ثم إنه سبحانه لما أرشد الموالي إلى نكاح الصالحين من المماليك.. نهى المسلمين عما كان يفعله أهل الجاهلية من إكراه إمائهم على الزنا، فقال: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا۟﴾؛ أي: لا تجبروا أيها السادة ﴿فَتَيَـٰتِكُمْ﴾؛ أي: إمائكم، فإن كلا من الفتى والفتاة كناية مشهورة عن العبد والأمة. وباعتبار المفهوم الأصلي، وهو أن الفتى: الطري من الشباب، ظهر مزيد مناسبة الفتيات لقوله: ﴿عَلَى ٱلْبِغَآءِ﴾ وهو الزنا من حيث صدوره عن الشواب؛ لأنهن اللاتي يتوقع منهن ذلك غالباً، دون ما عداهن من العجائز والصغار.

﴿عَلَى ٱلْبِغَآءِ﴾؛ أي: على الزنا، مصدر بغت المرأة تبغي بغاءً، إذا زنت وفجرت، وذلك لتجاوزها إلى ما ليس لها. ثم الإكراه إنما يحصل متى حصل

التخويف بما يقتضي تلف النفس، أو تلف العضو. وأما باليسير من التخويف فلا تصير مكرهة ﴿إِنْ أَرَدْنَ﴾ تلك الفتيات ﴿تَحَصُّنًا﴾؛ أي: تعفيفاً عن الزنا؛ أي: جعلن أنفسهن في عفة كالحصن. وهذا[1] القيد، ليس لتخصيص النهي بصورة إرادتهن التعفف عن الزنا. وإخراج ما عداها من حكمه، بل للمحافظة على عادتهم المسمرة، حيث كانوا يكرهونهن على البغاء وهن يردن التعفف عنه.

وكان لعبد الله بن أبيّ ست جوارٍ جميلةٍ، وهي معاذة ومسيكة وأميمة وعمرة وأروى وفتيلة، يكرههن على الزنا. وضرب عليهن ضرائب، جمع ضريبة ـ وهي الغلة المضروبة على العبيد ـ والجزية، فشكت اثنتان إلى رسول الله ﷺ وهي معاذة ومسيكة، فنزلت.

وفيه من زيادة تقبيح حالهم وتشنيعهم على ما كانوا يفعلونه من القبائح ما لا يخفى، فإن من له أدنى مروءة لا يكاد يرضى بفجور من يحويه من إمائه، فضلاً عن أمرهن وإكراههن عليه، لاسيما عند إرادتهن التعفف. وفي[2] ذلك إشارة إلى أن للسادة إكراههن على النكاح، فليس للأمة أن تمتنع على السيد إذا زوجها.

وفي «الخازن» واختلف العلماء[3] في معنى قوله تعالى: ﴿إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا﴾ على أقوالٍ:

أحدها: إن الكلام ورد على سبب، وهو الذي ذكر في سبب نزول الآية، فخرج النهي على صفة السبب وإن لم يكن شرطاً فيه.

الثاني: إنما شرط إرادة التحصن؛ لأن الإكراه لا يتصور إلا عند إرادة التحصن، فأما إذا لم ترد المرأة التحصن؛ فإنها تبغي بالطبع طوعاً.

الثالث: (إنَّ) (إنْ) بمعنى إذا؛ أي: إذا أردن، وليس معناه الشرط؛ لأنه لا

---

(١) روح البيان.
(٢) المراح.
(٣) الخازن.

يجوز إكراههن على الزنا إن لم يردن تحصناً. كقوله: ﴿وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾؛ أي: إذا كنتم مؤمنين.

القول الرابع: إن في هذه الآية تقديماً وتأخيراً، فيكون هذا القيد راجعاً إلى الأيامى. ويكون تقدير الكلام؛ أي: وانكحوا الأيامى والصالحين من عبادكم إن أردن تحصناً، ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء. ا هـ.

وقيل[1]: إن هذا الشرط ملغى. وقيل: إن هذا الشرط خرج مخرج الغالب؛ لأن الغالب أن الإكراه لا يكون إلا عند إرادة التحصن، فلا يلزم منه جواز الإكراه عند عدم إرادة التحصن. وهذا الوجه أقوى هذه الوجوه. فإن الأمة قد تكون غير مريدة للحلال، ولا للحرام، كما فيمن لا رغبة لها في النكاح. والصغيرة فتوصف بأنها مكرهة على الزنا مع عدم إرادتها للتحصن، فلا يتم ما قيل من أنه لا يتصور الإكراه إلا عند إرادة التحصن.

ثم علل سبحانه هذا النهي بقوله: ﴿لِّتَبْتَغُوا۟ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾؛ أي: لا تكرهوهن أيها السادة على الزنا، لتطلبوا بهذا الإكراه حطام هذه الحياة الدنيا. والعرض[2] ما لا يكون له ثبوت. ومنه استعار المتكلمون العرض، لما لا ثبات له قائماً بالجوهر. كاللون والطعم. وقيل: الدنيا عرض حاضر، تنبيهاً على أن لا ثبات لها.

والمعنى: لا تفعلوا ما أنتم عليه من إكراههن على البغاء لطلب المتاع السريع الزوال من كسبهن وبيع أولادهن. وهذا التعليل أيضاً خارج مخرج الغالب.

والمعنى: أن هذا العرض هو الذي كان يحملهم على إكراه الإماء على البغاء في الغالب؛ لأن إكراه الرجل لأمته على البغاء لا لفائدة له أصلاً لا يصدر مثله عن العقلاء، فلا يدل هذا التعليل على أنه يجوز له أن يكرهها إذا لم يكن مبتغياً بإكراهها عرض الحياة الدنيا.

---

(١) الشوكاني. (٢) روح البيان.

﴿وَمَن يُكْرِههُّنَّ﴾؛ أي: ومن يكره منكم أيها السادة الإماء على البغاء ﴿فَإِنَّ اللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ﴾؛ أي: من بعد إكراهكم إياهن، فهو مصدر مضاف إلى المفعول؛ أي: من بعد كونهن مكرهات على البغاء ﴿غَفُورٌ﴾ لهن ما قد يعرض لهن في تضاعيف الزنا، وتكراره من شائبة المطاوعة إما بحكم الجبلة البشرية، أو بكون الإكراه قاصراً عن حد الإلجاء المزيل للاختيار. ﴿رَّحِيمٌ﴾ بهن بعدم مؤاخذتهن على البغاء، وفي هذا التفسير جواب عما يقال: إن المكرهة على الزنا غير آثمة.

ويشهد لهذا المعنى قراءة ابن مسعود وجابر بن عبد الله وسعيد بن جبير ﴿لهن غفور رحيم﴾ بزيادة لهن، وتوسيط[1] الإكراه بين اسم إن وخبرها للإيذان. بأن ذلك هو السبب للمغفرة والرحمة.

وفيه دلالة على أن المكرهين محرومون منهما بالكلية. وحاجتهن إلى المغفرة المنبئة عن سابقة الإثم، باعتبار أنهن وإن كن مكرهات، لا يخلون في تضاعيف الزنا عن شائبة مطاوعة ما بحكم الجبلة البشرية. كما مرّ آنفاً. أو أتي بالمغفرة لغاية تهويل أمر الزنا وحث المكرهات على التثبت في التجافي عنه، والتشديد في تحذير المكرهين، ببيان أنهن حيث كنَّ عرضة للعقوبة. لولا أن تداركتهن المغفرة والرحمة، مع قيام العذر في حقهن، فما حال من يكرههن في استحقاق العقاب. ا هـ. «أبو السعود».

وفي «الكواشي» المغفرة هاهنا عدم الإثم؛ لأنها لا إثم عليها إذا أكرهت على الزنا بقتل أو ضرب مفضٍ إلى تلف النفس، أو تلف العضو. وأما الرجل فلا يحل له الزنا، وإن أكره عليه؛ لأن الفعل من جهته ولا يتأتى إلا بعزيمة منه فيه، فكان كالقتل بغير حق، لا يبيحه الإكراه بحال. انتهى. وقيل: إن المعنى: فإن الله من بعد إكراههن غفور رحيم لهم، إما مطلقاً أو بشرط التوبة.

ولما فرغ سبحانه من بيان تلك الأحكام.. شرع[2] في وصف القرآن

---

(١) روح البيان. (٢) الشوكاني.

بصفات ثلاث:

الأول: كونه آيات مبينات. والثانية: كونه مثلاً. والثالثة: كونه موعظة. فقال: ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ﴾؛ أي: وعزتي وجلالي، لقد أنزلنا إليكم أيها المؤمنون في هذه السورة الكريمة آيات مبينات، لكل ما بكم حاجة إلى بيانه من الحدود وسائر الأحكام والآداب والتبيين في الحقيقة لله تعالى. وإسناده إلى الآيات مجاز عقلي.

وقرأ[1] ﴿مبينات﴾ بفتح الياء الحرميان نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو بكر؛ أي: بين الله في هذه السورة وأوضح آياتٍ تضمنت أحكاماً وحدوداً وفرائض. فتلك الآيات هي المبينة. ويجوز أن يكون المراد مبيناً فيها ثم اتبع، فيكون المبين في الحقيقة غيرها. وهي ظرف للمبين. وقرأ باقي السبعة والحسن وطلحة والأعمش بكسر الياء. فإما أن تكون متعدية؛ أي: مبينات غيرها من الأحكام والحدود. فأسند ذلك إليها مجازاً. وإما أن تكون لا تتعدى؛ أي: بينات في نفسها، لا تحتاج إلى موضح، بل هي واضحة. لقولهم في المثل:

قد بين الصبح لذي عينين؛ أي: قد ظهر ووضح.

﴿وَمَثَلًا﴾ معطوف على آيات؛ أي: وأنزلنا[2] إليكم مثلاً كائناً ﴿مِّنَ﴾ قبيل أمثال ﴿ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟﴾؛ أي: مضوا ﴿مِن قَبْلِكُمْ﴾ من القصص العجيبة، والأمثال المضروبة لهم في الكتب السابقة، والكلمات الجارية على ألسنة الأنبياء. فتنتظم قصة عائشة الحاكية لقصة يوسف وقصة مريم في القرابة وسائر الأمثال الواردة انتظاماً واضحاً، فإن في قصتهما ذكر تهمة من هو بريء مما اتهم به. فيوسف اتهمته زليخا، ومريم اتهمتها اليهود مع براءتهما.

أي: وأنزلنا إليكم قصة غريبة من جنس قصص الذين خلوا من قبلكم في الغرابة. وهي[3] قصة عائشة ـ رضي الله عنها ـ فإنها كقصة يوسف ومريم، ولقد

---

(١) البحر المحيط.
(٢) روح البيان بتصرف.
(٣) البيضاوي.

برأ الله سبحانه أربعة بأربعة. برأ يوسف بلسان الشاهد، وبرأ موسى من قول اليهود فيه بالحجر الذي ذهب بثوبه، وبرأ مريم بإنطاق ولدها، وبرأ عائشة بتلك الآيات. وفي هذا تخويف لهم، أن يلحقهم ما لحق من قبلهم من المكذبين.
﴿و﴾ أنزلنا إليكم ﴿موعظة﴾ وتذكرةً ﴿لِّلْمُتَّقِينَ﴾؛ أي: للذين يتقون الشرك والكبائر، يتعظون بها وينزجرون عما لا ينبغي لهم من المحرمات والمكروهات، وسائر ما يخل بمحاسن الآداب، ومدار[1] العطف هو التغاير العنواني المنزل منزلة التغاير الذاتي، فالموعظة ما وعظ به في الآيات. من[2] قوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ﴾ وقوله: ﴿يعظكم أن تعودوا لمثله أبدا﴾ وخص المتقين بالذكر مع شمول الموعظة للكل حسب شمول الإنزال؛ لأنهم المنتفعون بها، المغتنمون لآثارها، المقتبسون من أنوارها. وأما غير المتقين، فإن الله سبحانه قد ختم على قلوبهم، وجعل على بصرهم غشاوةً عن سماع المواعظ، والاعتبار بقصص الذين خلوا، وفهم ما تشتمل عليه الآيات.

والمعنى: أي ولقد أنزلنا إليكم آيات القرآن مبينات لما أنتم في حاجة إليه من الأحكام والآداب. كما أنزلنا قصصاً من أخبار الأمم السالفة، كقصة يوسف وقصة مريم، وفيهما شبه بقصة عائشة. وفيهما عظة لمن اتقى الله وخاف عقابه، وخشي عذابه.

وأثر عن علي ـ كرم الله وجهه ـ في وصف القرآن. فيه حكم ما بينكم، وخبر ما قبلكم، ونبأ ما بعدكم، وهو الفصل ليس بالهزل، من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى من غيره أضلّه الله ا هـ.

فإن قلت: لم قال[3] هنا: ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ﴾ بذكر واو العطف. وقال فيما سيأتي: ﴿لقد أنزلنا﴾ بدون الواو، وزاد هنا ﴿إِلَيْكُمْ﴾ بخلاف ما سيأتي؟

قلت: لأن اتصال ما هنا بما قبله أشد. إذ قوله هنا: ﴿وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾

---

(١) روح البيان.
(٢) البحر المحيط.
(٣) فتح الرحمٰن.

مصروف إلى الجمل السابقة من قوله: ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا﴾ إلى آخره، وفيه معطوفان بالواو، فناسب ذكرها بالعطف، وذكر ﴿إِلَيْكُمْ﴾ ليفيد أن الآيات المبينات نزلت في المخاطبين في الجمل السابقة. وما ذكر بعدُ خالٍ عن ذلك، فناسبه الاستئناف والحذف.

ثم ذكر الله سبحانه وتعالى مثلين:

أحدهما: في بيان أن دلائل الإيمان في غاية الظهور.

والثاني: في بيان أن أديان الكفرة في غاية الظلمة.

أما المثل الأول: فقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: مظهرهما[1] ومبديهما وموجدهما من العدم بكمال القدرة الأزلية.

وقال ابن عباس: أي الله هادي أهل السماوات والأرض، فهم بنوره يهتدون، وبهداه من حيرة الضلالة ينجون. فمعنى النور هو الهداية؛ أي: ذو نور؛ أي: ذو هداية لأهلهما. وقيل: معناه[2] الله منور السماوات والأرض. نور السماء بالملائكة. ونور الأرض بالأنبياء والعلماء والمؤمنين. وقيل: زين الأرض بالنبات والأشجار.

واعلم: أن النور على أربعة أوجه[3]:

أولها: نور يظهر الأشياء للأبصار وهو لا يراها، كنور الشمس وأمثالها، فهو يظهر الأشياء المخفية في الظلمة ولا يراها.

وثانيها: نور البصر، وهو يظهر الأشياء للإبصار ولكنه يراها. وهذا النور أشرف من الأول.

وثالثها: نور العقل، وهو يظهر الأشياء المعقولة المخفية في ظلمة الجهل

---

(١) روح البيان.

(٢) الخازن.

(٣) روح البيان.

للبصائر، وهو يدركها ويراها.

ورابعها: نور الحق تعالى، وهو يظهر الأشياء المعدومة المخفية في العدم للأبصار والبصائر من الملك والملكوت، وهو يراها في الوجود. كما كان يراها في العدم؛ لأنها كانت موجودة في علم الله، وإن كانت معدومة في ذاتها، فما تغير علم الله، ورؤيته بإظهارها في الوجود، بل كان التغير راجعاً إلى ذوات الأشياء وصفاتها عند الإيجاد والتكوين. ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ﴾؛ أي: صفة نوره الفائض منه تعالى على الأشياء المستنيرة، وهو القرآن المبين، كما في «الإرشاد». فهو تمثيل له في جلاء مدلوله، وظهور ما تضمنه من الهدى بالمشكاة المنعوتة.

والمراد بالمثل الصفة العجيبة؛ أي: صفة نوره العجيب، وإضافته إلى ضميره تعالى، دليل على أن إطلاقه عليه لم يكن على ظاهره. كما في «البيضاوي».

﴿كَمِشْكَوٰةٍ﴾؛ أي: كصفة كوة، غير نافذة في الجدار في الإنارة. قال بعض أهل المعاني: معنى الآية، كمثل مصباح في مشكاة. فهو من المقلوب ذكره ابن الجوزي.

﴿فِيهَا﴾؛ أي: في تلك المشكاة ﴿مِصْبَاحٌ﴾؛ أي: سراج ضخم ثاقب ﴿ٱلْمِصْبَاحُ﴾؛ أي: ذلك المصباح كائن ﴿فِى زُجَاجَةٍ﴾؛ أي: في قنديل من الزجاج الصافي الأزهر. وفائدة جعل المصباح في زجاجة. والزجاجة في كوة، غير نافذة شدة الإضاءة؛ لأن المكان، كلما تضايق، كان أجمع للضوء. بخلاف الواسع، فالضوء ينتشر فيه. وخص الزجاج؛ لأنه أحكى الجواهر لما فيه.

﴿ٱلزُّجَاجَةُ﴾؛ أي: تلك الزجاجة والقنديل ﴿كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ﴾؛ أي: نجم متلألىء وقَّاد شبيه بالدر في صفائه وزهرته، كالمشتري والزهرة والمريخ ودرازى الكواكب عظامها المشهورة ومحل الجملة الأولى الرفع على أنها صفة لزجاجة، واللام مغنية عن الرابط كأنه قيل فيها مصباح هو في زجاجة هي كأنها كوكب دري. وفي إعادة المصباح والزجاجة معرفين عقب ذكرهما منكرين. والإخبار بما بعدهما مع انتظام الكلام، بأن يقال: كمشكاة فيها مصباح في زجاجة كأنها

كوكب دري من تفخيم شأنها بالتفسير بعد الإبهام ما لا يخفى.

﴿يُوقَدُ﴾ ذلك المصباح؛ أي: يبتدأ إيقاد ذلك المصباح ﴿مِن﴾ زيت ﴿شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ﴾؛ أي: كثيرة المنافع؛ لأن الزيت يسرج به، وهو إدام، ودهان ودباغ ويوقد بحطب الزيتون وبثفله، ورماده يغسل به الأبريسم. ولا يحتاج في استخراج دهنه إلى عصار. وفيه زيادة الإشراق، وقلة الدخان. وهو مصحة من الباسور. ﴿زَيْتُونَةٍ﴾ بدل من شجرة خصها من بين سائر الأشجار؛ لأن دهنها أضوأ وأصفى. قال في إنسان العيون: شجرة الزيتون تعمِّر ثلاثة آلاف سنة. وهو أول شجرة نبت في الدنيا، وأول شجرة نبتت بعد الطوفان، ونبتت في منازل الأنبياء والأرض المقدسة. ودعا لها سبعون نبياً بالبركة. منهم إبراهيم، ومنهم محمد ﷺ فإنه قال مرتين: «اللهم بارك في الزيت والزيتون». ا هـ. «مراح».

﴿لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾؛ أي: لا شرقية تطلع عليها الشمس في وقت شروقها فقط. ولا غربية تقع عليها حين الغروب فقط، بل بحيث تقع عليها طول النهار، فلا يسترها عن الشمس في وقت من النهار شيء، كالتي على قمة جبل، أو صحراء. فتكون ثمرتها أنضج، وزيتها أصفى. أولا في مضحى، تشرق الشمس عليها دائماً فتحرقها، ولا في مغيباة تغيب عنها دائماً فتتركها نيئاً، أو لا نابتة في شرق المعمورة نحو كنكدزٍ وديار الصين. ولا في غربها، نحو طنجة وطرابلس وديار قيروان. بل في وسطها، وهو الشام. فإن زيتونته أجود الزيتون أو في خط الاستواء بين المشرق والمغرب. وهي قبة الأرض، فلا توصف بأحد منهما، فلا يصل إليها حر ولا برد مضران. وقبة الأرض وسط الأرض عامرها خرابها. وهو في مكان تعتدل فيه الأزمان في الحر والبرد، ويستوي الليل والنهار فيها أبداً، لا يزيد أحدهما على الآخر؛ أي: يكون كل منهما اثنتي عشرة ساعة.

وعبارة «المراغي» هنا: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ﴾؛ أي: الله هادي أهل السماوات والأرض، بما نصب من الأدلة في الأكوان. وبما أنزل على رسله من الآيات البينات فهم بنوره إلى الحق يهتدون، وبهداه من حيرة الضلال ينجون.

﴿مَثَلُ نُورِهِۦ﴾ سبحانه؛ أي: صفة نور الله عز وجل في قلب المؤمن. وهو

النور الذي يهتدى به ﴿كَمِشْكَوٰةٍ﴾؛ أي: كصفة نور مشكاة؛ أي: كوة غير نافذة في شدة الإشراق والإضاءة، أو مثل أدلته التي بثها في الآفاق. وهدى بها من شاء من عباده، كمثل نور مشكاة فيها ﴿مِصْبَاحٌ﴾؛ أي: سراج ضخم ثاقب، له الصفات الآتية. ﴿ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ﴾؛ أي: ذلك المصباح في قنديل من الزجاج الصافي الأزهر ﴿ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ﴾؛ أي: تلك الزجاجة، كأنها كوكب ضخم مضيء من دراري النجوم.

النجوم وعظامها: كالزهرة والمشتري.

﴿يُوقَدُ﴾ ذلك المصباح والسراج ﴿مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ﴾؛ أي: رويت وشربت فتيلته وخيطه من زيت شجرة زيتونة، كثيرة المنافع زرعت على جبل عال، أو صحراء واسعة، فهي ضاحية للشمس لا يظللها جبل ولا شجر، ولا يحجبها عنها حاجب من حين طلوعها إلى حين غروبها. فزيتها أشد ما يكون صفاء. ﴿لَّا شَرْقِيَّةٍ﴾ فحسب ﴿وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾ فحسب بل هي شرقية غربية، تصيبها الشمس من حين طلوعها إلى حين غروبها. كما يقال: فلان لا مسافر ولا مقيم، إذا كان يسافر أحياناً ويقيم أخرى.

وقوله: ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا﴾؛ أي: يقرب زيتها. صفة لشجرة أيضاً؛ أي: من شجرة مباركة موصوفة بأنه يكاد زيتها لشدة صفائه ﴿يُضِىٓءُ﴾ المكان بنفسه ﴿وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾ أصلاً. وهذه[1] الجملة معطوفة على جملة محذوفة وقعت حالاً، والتقدير: يكاد زيتها يضيء، لو مسته نار ولو لم تمسسه نار؛ أي: تضيء كائناً على كل حال، من وجود الشرط وعدمه. فالجملة حالية جيء بها لاستقصاء الأحوال، حتى في هذه الحال.

والمعنى: أن هذا الزيت في صفائه وإنارته، يكاد يضيء بنفسه على كل حال؛ أي: سواء مسته النار أو لم تمسسه، وفي «السمين» قوله: ﴿وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾ جواب لو محذوف؛ أي: لأضاء لدلالة ما تقدم عليه.

---

(١) روح البيان.

والمعنى: أي[1] زيتها لصفائه وبريقه ولمعانه، كأنه يضيء بنفسه دون أن تمسه النار؛ لأن الزيت إذا كان خالصاً صافياً ثم رئي من بعد يرى كأن له شعاعاً، فإذا مسته النار ازداد ضوءاً على ضوء. كذلك قلب المؤمن يعمل بالهدى قبل أن يأتيه العلم، فإذا جاءه ازداد نوراً على نور وهدى على هدى.

قال يحيى بن سلام: قلب المؤمن يعرف الحق قبل أن يبين له، لموافقته إياه، وهو المراد من قوله ﷺ: «اتقوا فراسة المؤمن، فإنه ينظر بنور الله».

وارتفاع ﴿نُورٌ﴾ على أنه خبر لمبتدأ محذوف و﴿عَلَىٰ نُورٍ﴾ متعلق بمحذوف، هو صفة لـ﴿نور﴾ مؤكدة له؛ أي: ذلك النور الذي عبر به عن القرآن، ومثلت صفته العجيبة الشأن، بما فصل من صفة المشكاة؛ أي: نور المصباح نور كائن على نور؛ أي: نور متضاعف. فإن نور المصباح زاد في إنارته صفاء الزيت، وزهرة القنديل، وضبط المشكاة لأشعته، فليس عبارةً عن مجموع نورين اثنين فقط. بل المراد به التكثير. كما يقال: فلان يضع درهماً على درهم. ولا يراد به درهمان.

أي: نور المصباح نور مترادف متضاعف، قد تناصرت فيه المشكاة والزجاجة. والمصباح والزيت حتى لم يبق بقية مما يقوي النور، ويزيده إشراقاً، ويمده بإضاءة. ذلك أن المصباح إذا كان في مكان ضيق كالمشكاة.. كان أضوأ له، وأجمع لنوره بخلاف المكان الواسع، فإن الضوء ينبعث فيه وينتشر. والقنديل أعون شيء على زيادة الإنارة وكذلك الزيت وصفاؤه.

فإن قلت: ولم مثل الله نوره؛ أي: معرفته في قلب المؤمن بنور المصباح، دون نور الشمس، مع أن نورها أتم؟

قلت: لأن المقصود، تمثيل النور في القلب. والقلب في الصدر، والصدر في البدن كالمصباح، والمصباح في الزجاجة والزجاجة في القنديل. وهذا التمثيل لا يتقيم إلا فيما ذكر؛ ولأن نور المعرفة له آلات يتوقف هو على اجتماعها

---

(١) المراغي.

كالذهن والفهم والعقل واليقظة وغيرها من الصفات الحميدة. كما أن نور القنديل يتوقف على اجتماع القنديل والزيت والفتيلة وغيرها، أو لأن نور الشمس يشرق متوجهاً إلى العالم السفلي، ونور المعرفة يشرق متوجهاً إلى العالم العلوي كنور المصباح. ولكثرة نفع الزيت، وخلوصه عما يخالطه غالبا، وقع التشبيه في نوره دون نور الشمس مع أنه أتم من نور المصباح. ا هـ. «فتح الرحمٰن».

﴿يَهْدِي ٱللَّهُ﴾ سبحانه هداية[1] خاصةً موصلة إلى المطلوب حتماً، وليس المراد بالهداية هنا مجرد الدلالة. ﴿لنوره﴾؛ أي: لذلك النور المتضاعف العظيم الشأن. ﴿مَن يَشَآءُ﴾ هدايته من عباده، بأن يوقفهم لفهم ما فيه من دلائل حقيته. وكونه من عند الله من الإعجاز، والإخبار عن الغيب، وغير ذلك من موجبات الإيمان. وهذا من قبيل الهداية الخاصة. ولذا قال: من يشاء من عباده. وفيه إيذان بأن مناط هذه الهداية، وملاكها ليس إلا مشيئته. وأن تظاهر الأسباب بدونها بمعزل عن الإفضاء إلى المطلوب.

والمعنى: أي[2] يوفق الله من يشاء من عباده لإصابة الحق، بالنظر والتدبر، وتوجيه الفكر لسلوك الطريق الجادة الموصلة إليه. ومن لم يتدبر، فهو كالأعمى. سواء لديه جنح الليل الدامس، وضحوة النهار الشامس. وعن علي - رضي الله عنه - ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، ونشر فيهما الحق وبثه فأضاء له بنوره.

﴿وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ﴾ سبحانه ﴿ٱلْأَمْثَٰلَ﴾؛ أي: الأشباه ويبينها ﴿لِلنَّاسِ﴾ تقريباً إلى الأفهام، وتسهيلاً لسبل الإدراك؛ أي: يبين الأشياء بأشباهها ونظائرها، تقريباً لها إلى الأفهام والأذهان، وتسهيلاً لإدراكها؛ لأن إبراز المعقول في هيئة المحسوس، وتصويره بصورته يزيده وضوحاً وبياناً. وهذا من قبيل الهداية العامة. ولذا قال: للناس.

والمعنى: أي ويسوق الله الأمثال للناس في تضاعيف هدايتهم، بحسب ما تدعو إليه حالهم، لما فيها من الفوائد في النصح والإرشاد. إذ بها تتفتق الأذهان

---

(١) روح البيان.　　(٢) المراغي.

للوصول إلى الحق، وبها تأنس النفس بتصويرها المعاني بصور المحسوسات التي تألفها، وتدين بها. ولأمر ما كثرت في القرآن الكريم فقلما ساق حجاجاً، أو أقام دليلاً إلا أردفه بالمثل ليكون أدعى إلى الإقناع، وأرجىء للاقتناع.

﴿وَٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿بِكُلِّ شَيۡءٍ﴾ من الأشياء من ضرب الأمثال وغيره من دقائق المعقولات، والمحسوسات، وحقائق الجليات، والخفيات ﴿عَلِيمٌ﴾ لا يغيب عن علمه شيء من الأشياء معقولاً كان أو محسوساً، ظاهراً أو باطناً، فيعطي هدايته من يستحقها ممن صفت نفوسهم، واستعدوا لتلقي أحكام الدين وآدابه. وكذلك يجعل وسائلها على ضروب شتى، بحسب اختلاف أحوال عباده، لتقوم له الحجة عليهم.

وفي هذا وعد وبشارة لمن تدبر الأمثال ووعاها، ووعيد وإنذار لمن يتفكر فيها ولم يكترث بها. فإنه لا يصل إلى الحق ولا يهتدي لطريقه.

وخلاصة ذلك: ما قاله ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ: هذا مثل نور الله، وهداه في قلب المؤمن. فكما يكاد الزيت الصافي يضيء قبل أن تمسه النار، فإذا مسته ازداد ضوءاً على ضوء، يكاد قلب المؤمن يعمل بالهدى، قبل أن يأتيه العلم، فإذا جاءه ازداد هدىً على هدىً، ونوراً على نور.

فصل في بيان القراءة الجارية في الآية

وقرأ علي[1] بن أبي طالب وأبو جعفر وعبد العزيز المكي وزيد بن علي وثابت بن أبي حفصة ومسلمة بن عبد الملك وأبو عبد الرحمٰن السلمي والقورصي وعبد الله بن عياش بن أبي ربيعة: ﴿اللَّهُ نَوَّرَ﴾ فعلاً ماضياً. ﴿السَّمَوَاتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ بالنصب.

وقرأ أبو[2] رجاء العطاردي ونصر بن عاصم في رواية ابن مجاهد وابن أبي عبلة: ﴿في زَجاجة الزَّجاجة﴾ بفتح الزاي فيهما. وقرأ معاذ القاري وعاصم

---

(١) البحر المحيط.

(٢) زاد المسير والبحر المحيط.

الجحدري وابن يعمر بكسر الزاي فيهما. وقرأ الجمهور: بضم الزاي فيهما. وقرأ الجمهور من السبعة نافع وابن عامر وحفص عن عاصم وابن كثير: ﴿درى﴾ بضم الدال وتشديد الراء والياء من غير مد ولا همز، والظاهر نسبة الكوكب إلى الدر لبياضه وصفائه. ويحتمل أن يكون أصله الهمز، فأبدل وأدغم.

وقرأ أبو عمرو والكسائي وأبان عن عاصم بكسر ﴿دريىء﴾ بكسر الدال وتخفيف الياء ممدوداً مهموزاً. وهو بناء كثير في الأسماء، نحو سكين. وفي الأوصاف نحو: سكِّير قال ابن قتيبة: المعنى على هذا إنه من الكواكب الدرارىء، وهي اللاتي يدرأن عليك؛ أي: يطلعن. وقال الزجاج: هو مأخوذ من درأ يدرأ إذا اندفع منقضاً فتضاعف نوره. يقال: تدارأ الرجلان إذا تدافعا. وقرأ عبد الله بن عمر والزهري والمفضل عن عاصم ﴿درى﴾ بكسر الدال وتشديد الياء من غير همز ولا مد. وقرأ عثمان بن عفان وابن عباس وعاصم الجحدري ﴿دريىء﴾ بفتح الدال وكسر الراء ممدوداً مهموزاً. وقرأ أبيّ بن كعب وسعيد بن المسيب وقتادة وزيد والضحاك ﴿دريّ﴾ بفتح الدال وتشديد الراء والياء من غير مد ولا همز. وقرأ ابن مسعود وسعيد بن جبير وعكرمة وقتادة وابن يعمر ﴿درىء﴾ بفتح الدال وكسر الراء مهموزاً مقصوراً. وقرأ حمزة وأبو بكر عن عاصم والوليد بن عتبة عن ابن عامر ﴿دريىء﴾ بضم الدال وتخفيف الياء مع إثبات الهمزة والمد.

وقرأ الأخوان ـ حمزة والكسائي ـ وأبو بكر عن عاصم والحسن وزيد بن علي وقتادة وابن وثاب وطلحة وعيسى والأعمش: ﴿توقد﴾ بضم التاء والدال؛ أي: الزجاجة؛ أي: مصباحها مضارع أوقدت مبنياً للمفعول. وقرأ[1] نافع وابن عامر وحفص عن عاصم: ﴿يوقد﴾ بالياء مضمومة مع ضم الدال؛ أي: المصباح. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو ﴿توقد﴾ بفتح الحروف الأربعة وتشديد القاف فعلاً ماضياً من باب تفعل؛ أي: المصباح أيضاً؛ لأنه هو الذي يوقد. وقرأ

---

(١) البحر المحيط.

الحسن والسلمي وقتادة وابن محيصن وسلام ومجاهد وابن أبي إسحاق والمفضل عن عاصم: ﴿توقد﴾ بفتح الحروف الثلاثة الأولى، وضم الدال مضارع توقد، وأصله تتوقد؛ أي: الزجاجة يعني مصباحها. وقرأ عبد الله ﴿وقد﴾ بغير تاء وشدد القاف جعله فعلاً ماضياً؛ أي: وقد المصباح. وقرأ السلمي وقتادة وسلام أيضاً كذلك. إلا أنه بالياء من تحت ﴿يوقد﴾ وجاء كذلك عن الحسن وابن محيصن. وأصله يتوقد؛ أي: المصابح إلا أن حذف التاء في تتوقد مقيس لدلالة ما أبقى على ما حذف. وفي يتوقد شاذ جداً؛ لأن الياء الباقية لا تدل على التاء المحذوفة. وله وجه من القياس. وهو حمله على يعد، إذ حمل يعد على تعد في حذف الواو. وكذلك هذا لما حذفوا من تتوقد بالتاءين حذفوا التاء مع الياء، وإن لم يكن اجتماع التاء والياء مستثقلاً.

وقرأ الجمهور: ﴿لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾ بالخفض على أنه صفة لزيتونة. وقرأ الضحاك بالرفع؛ أي: لا هي شرقية ولا غربية. والجملة في موضع الصفة. وقرأ الجمهور: ﴿تَمْسَسْهُ﴾ بالتاء، وابن عباس والحسن بالباء من تحت وحسنه الفصل وإن تأنيث النار مجازي. وهو مؤنث بغير علامة.

وقوله: ﴿فِي بُيُوتٍ﴾ متعلق بمحذوف، صفة لمشكاة، والتقدير: مثل نوره سبحانه كمثل نور مشكاة وكوة كائنة في بيوت ومساجد. ﴿أَذِنَ ٱللَّهُ﴾ سبحانه وأمر ﴿أَن تُرْفَعَ﴾؛ أي: أن تبنى تلك البيوت والمساجد رفيعةً وتطهر وتنظف من الأنجاس والأقذار. وقيل: تعظم فلا يذكر فيها الفحش من القول.

وقد كره[1] بعض العلماء تعليم الصبيان في المساجد، ورأى أنه من باب البيع، وهذا إذا كان بأجرة. فلو كان بغير أجرة، لمنع أيضاً من وجه آخر، وهو أن الصبيان لا يتحرزون من الأقذار والأوساخ، فيؤدي ذلك إلى عدم تنظيف المساجد. وقد أمر رسول الله ﷺ بتنظيفها وتطييبها. فقال: «جنبوا مساجدكم صبيانكم ومجانينكم، وسل سيوفكم، وإقامة حدودكم، ورفع أصواتكم

---

(١) المراح والقرطبي.

وخصوماتكم، وجمروها في الجمع، واجعلوا لها على أبوابها المطاهر».

وفي «الفتوحات» قوله: ﴿فِي بُيُوتٍ﴾ فيه ستة أوجه:

أحدها: أنه صفة لمشكاة؛ أي: كمشكاة كائنة في بيوت؛ أي: في بيت من بيوت الله.

الثاني: أنه صفة لمصباح.

الثالث: أنه صفة لزجاجة.

الرابع: أنه متعلق بتوقد، وعلى هذه الأقوال لا يوقف على عليم.

والخامس: أنه متعلق بمحذوف. كقوله تعالى: ﴿فِي تِسْعِ ءَايَٰتٍ﴾؛ أي: سبحوه في بيوت.

السادس: أنه متعلق بيسبح؛ أي: يسبح رجال في بيوت. ولفظ فيها حينئذٍ مكرر للتوكيد. كقوله تعالى: ﴿فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ وعلى هذين القولين فيوقف على عليم. ا هـ. «سمين».

قيل[1]: المراد بالبيوت هنا، جميع المساجد. فقد قال ابن عباس: بيوت الله في الأرض تضيء لأهل السماء، كما تضيء النجوم لأهل الأرض. وقيل: المراد بها أربعة مساجد لم يبنها إلا نبي، الكعبة بناها إبراهيم وإسماعيل فجعلاها قبلةً. وبيت المقدس بناه داود وسليمان. ومسجد المدينة، ومسجد قباء، بناهما رسول الله ﷺ. ا هـ. «خازن».

وقيل: المراد بها[2] بيوت بيت المقدس. روي ذلك عن الحسن.

وقيل: بيوت النبي ﷺ رواه مجاهد. وقيل: هي البيوت كلها، والقول الأول أظهر لقوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ﴾.

---

(١) الخازن.

(٢) الشوكاني.

وقد يقال: على تقدير تعلقه بمشكاة أو بمصباح، أو بتوقد ما الوجه، في توحيد المصباح والمشكاة وجمع البيوت، ولا تكون المشكاة الواحدة، ولا المصباح الواحد إلا في بيت واحد. وأجيب بأن هذا من الخطاب، الذي يفتح أوله بالتوحيد، ويختم بالجمع، كقوله سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ ونحوه.

وقيل: معنى في بيوت، في كل واحد من البيوت فكأنه قال: في كل بيت، أو في كل واحد من البيوت. وقوله: ﴿وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾ معطوف على ﴿ترفع﴾؛ أي: وأمر أن يذكر فيها اسمه. واسم[1] الله تعالى كل ما يصح أن يطلق عليه بالنظر إلى ذاته كلفظ الجلالة، أو باعتبار صفة من صفاته السلبية كالقدوس، أو الثبوتية كالعليم. أو باعتبار فعل من أفعاله كالخالق. لكنها توفيقية عند بعض العلماء. وذكر الله هنا عام في كل ذكر توحيداً كان أو تسبيحاً أو تحميداً أو تكبيراً أو تلاوة قرآن، أو مذكرة علوم شرعية، أو ما كان آلةً لها، أو آذاناً، أو إقامة، أو نحوها.

والمعنى مثل نوره كمشكاة، كمصباح موضوع في مشكاة كائنة في بيوت أمر الله بتطهيرها من الأنجاس الحسية، والمعنوية، كاللغو ورفث الحديث. وأمر بذكره فيها، وإخلاص العبادة له.

﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ﴾ سبحانه ﴿فِيهَآ﴾؛ أي: في تلك البيوت، وينزهه ويقدسه عما لا يليق به. ﴿بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ﴾؛ أي: في أول النهار وآخره. ﴿رِجَالٌ﴾ فاعل ﴿يسبح﴾. وخصوا بالذكر؛ لأن النساء ليس عليهن حضور المسجد لجمعة ولا لجماعة. ا هـ. «سمين».

ولفظ فيها تكرير، لقوله: في بيوت للتأكيد والتذكير، لما بينهما من الفاصلة. إن قلنا إن قوله: ﴿في بيوت﴾ متعلق بـ﴿يسبح﴾. وللإيذان بأن التقديم للاهتمام، لا لقصر التسبيح على الوقوع في البيوت فقط. والتسبيح تنزيه الله

---

(١) روح البيان.

تعالى عما لا يليق به، وجعل عاماً في جميع العبادات قولاً كان أو فعلاً أو نيةً. ولكن أريد به هنا الصلوات المفروضة. كما ينبىء عنه تعيين الأوقات، بقوله: ﴿بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ﴾؛ أي: بالغدوات والعشيات.

فالمراد بالغدو وقت صلاة الفجر؛ لأنها مؤداة فيه. وبالآصال ما عداه من أوقات صلوات الظهر والعصر والعشائين؛ لأن الأصيل يجمعها ويشملها. كما في «الكواشي» وغيره؛ أي: يسبح له فيها رجال موصوفون بأنهم ﴿لَّا تُلْهِيهِمْ﴾؛ أي: لا تشغلهم من غاية الاستغراق في مقام الشهود، وهو في محل رفع صفة أولى لرجال. ﴿تجارة﴾؛ أي: تقليب المال لغرض الربح؛ أي: التصرف في رأس المال طالباً الربح. وتخصيص[1] التجارة لكونها أقوى الصوارف عندهم، وأشهرها؛ أي: لا يشغلهم نوع من أنواع التجارة ﴿ولا بيع﴾ لأموالهم، ﴿ولا﴾ شراء لأموال غيرهم. فالبيع ضابطه إعطاء المثمن وأخذ الثمن، والشراء إعطاء الثمن وأخذ المثمن؛ أي: ولا فرد من أفراد البيوع. وعطف البيع على التجارة من عطف الخاص على العام، لشمول التجارة للبيع والشراء. وإن كان في غاية الربح. وإفراده بالذكر من اندراجه تحت التجارة، لكونه أهم من قسمي التجارة، فإن الربح يتحقق بالبيع، ويتوقع بالشراء؛ أي: ربح الشراء متوقع في ثاني الحال عند البيع، فلم يكن ناجزاً كربح البيع، فإذا لم يلههم المقطوع، فالمظنون أولى.

فإن قلت: لم عطف البيع على التجارة مع شمولها له؟

قلت: لأن التجارة هي التصرف في المال، لقصد الربح، والبيع أعم من ذلك، فعطفه عليها لئلا يتوهم القصور على بيع التجارة، أو أريد بالتجارة الشراء لقصد الربح، وبالبيع البيع مطلقاً. ا هـ. «فتح الرحمٰن».

﴿عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ بالتسبيح والتمجيد، أو عن حضور المسجد لإقامة الصلاة كما في «الخازن». ﴿وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ﴾؛ أي: وعن إقامتها، وأدائها جماعة في مواقيتها من غير تأخير؛ لأن من أخر الصلاة عن وقتها لا يكون من مقيمي

---

(١) روح البيان.

الصلاة. وقد أسقطت التاء المعوضة عن العين الساقطة بالإعلال، وعوض عنها الإضافة.

قال الراغب: قوله تعالى: ﴿لَّا تُلۡهِيهِمۡ﴾ الآية. ليس ذلك نهياً عن التجارة وكراهيةً لها، بل نهى عن التهافت والاشتغال عن الصلوات والعبادات بها. انتهى.

قال ابن الشيخ: إقامة الصلاة إتمامها برعاية جميع ما اعتبره الشرع من الأركان والشروط والسنن والآداب، فمن تساهل في شيء منها.. لا يكون مقيماً لها.

﴿وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ﴾؛ أي: إعطاء المال الذي فرض إخراجه للمستحقين. وإيراده ههنا، وإن لم يكن مما يفعل في البيوت، لكونه قرين إقامة الصلاة لا يفارقها في عامة المواضع. وقيل: المراد بالزكاة طاعة الله والإخلاص فيها، إذ ليس لكل مؤمن مال.

ومعنى الآية: ينزه الله[1] ويقدسه في أول النهار وآخره، رجال لا تشغلهم الدنيا وزخرفها، ولا بيوعهم، ولا تجارتهم عن ذكر ربهم. وهو خالقهم ورازقهم. إذ يعلمون أن ما عنده خير لهم، وأنفع مما بأيديهم. فما عندهم ينفد وما عند الله باقٍ. ويؤدون الصلاة في مواقيتها، على الوجه الذي رسمه الدين، ويؤتون الزكاة المفروضة عليهم، تطهيراً لأنفسهم من الأرجاس. ونحو الآية قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ﴾ الآية. وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَۚ﴾.

وقرأ الجمهور[2] ابن كثير وحفص عن عاصم ونافع وأبو عمرو وحمزة والكسائي: ﴿يُسَبِّحُ﴾ بالياء التحتانية المضمومة والباء الموحدة المشددة المكسورة، و﴿رجال﴾ فاعل له. وقرأ ابن وثاب وأبو حيوة ومعاذ القارىء ﴿تسبح﴾ بالتاء الفوقانية المضمومة وكسر الباء المشددة، و﴿رجال﴾ فاعل له.

---

(١) المراغي. (٢) البحر المحيط.

وإنما أنث الفعل لكون جمع التكسير يعامل معاملة المؤنث في بعض الأحوال. وقرأ ابن عامر وأبو بكر عن عاصم والبختري عن حفص ومحبوب عن أبي عمرو والمنهال عن يعقوب والمفضل وأبان ﴿يسبح﴾ بالياء المضمومة التحتانية، والباء الموحدة المفتوحة على صيغة المبني للمفعول، وأحد المجرورات الثلاثة المذكورة بعده في موضع المفعول الذي لم يسم فاعله. والأولى منها الذي يلي الفعل؛ لأن طلب الفعل للمرفوع أقوى من طلبه للمنصوب الفضلة. وعلى هذه القراءة، فرجال مرفوع بفعل محذوف، تقديره: يسبحه رجال، أو خبر لمبتدأ محذوف، تقديره: المسبحون له رجال.

وقرأ أبو جعفر: ﴿تسبح﴾ بالتاء الفوقية المضمومة، وفتح الباء الموحدة على صفة المبني للمجهول. قال الزمخشري: ووجه هذه القراءة أن تسند إلى أوقات الغدو والآصال على زيادة الباء، وتجعل الأوقات مسبحة. والمراد ربُّها كـ: صِيْدَ عليه يومان. والمراد وحشهما انتهى.

ويجوز أن يكون النائب عن الفاعل ضمير التسبيحة الدال عليه تسبح؛ أي: تسبح له هي؛ أي: التسبيحة. كما قالوا.

﴿ليجزى قوماً﴾ في قراءة من بناه للمفعول، ليجزى هو؛ أي: الجزاء. وقرأ أبو مجلز ﴿والإيصال﴾ بدل الآصال.

وقوله: ﴿يَخَافُونَ﴾ يجوز أن يكون نعتاً ثانياً لرجال، وأن يكون حالاً من مفعول تلهيهم. ﴿يَوْمًا﴾ مفعول به، لا ظرف على الأظهر، وهو يوم القيامة. ﴿تَتَقَلَّبُ﴾ صفة لـ﴿يوماً﴾، كما سيأتي في مبحث الإعراب؛ أي: يسبح له فيها رجال يخافون عذاب يوم تتقلب وتضطرب ﴿فِيهِ ٱلْقُلُوبُ﴾ والأفئدة من شدة الهول والفزع. ﴿و﴾ تشخص فيه ﴿الأبصار﴾ من الهلع والحيرة، والرعب والخوف.

وقرأ ابن محيصن ﴿تقلب﴾ بإدغام التاء في التاء؛ أي: يخافون[1] يوماً

---

(١) المراغي.

تتقلب في ذلك اليوم القلوب بين طمع في النجاة وخوف من الهلاك، وتتقلب فيه الأبصار من أي ناحية يؤمر بهم، أمن ناحية اليمين، أم من ناحية الشمال. ومن أي ناحية يعطون كتابهم، أمن قبل اليمين، أم من قبل الشمال؛ أي: فإنهم وإن بالغوا في ذكر الله تعالى، والطاعات خائفون لعلمهم بأنهم ما عبدوا الله حق عبادته.

وقيل: تتقلب القلوب عما كانت عليه في الدنيا من الشك إلى اليقين، وتنفتح الأبصار من الأغطية. وقيل: يتقلب القلب في الجوف فيرتفع إلى الحنجرة، فلا ينزل ولا يخرج. ويتقلب البصر فيشخص من هول الأمر وشدته. ونحو الآية قوله: ﴿وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ﴾ وقوله: ﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾.

ثم بين مآل أمرهم وحسن عاقبتهم، فقال: ﴿لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ﴾ سبحانه ﴿أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟﴾ واللام[1] فيه للعاقبة والصيرورة لا للعلة متعلقة بمحذوف تقديره: يفعلون ما يفعلون من التسبيح والذكر، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، ليجزيهم الله سبحانه أحسن ما عملوا؛ أي: حسن ما عملوا. فالمفاضلة ليست على بابها، فالمحترز عنه، المجازاة على العمل القبيح. فالمعنى: ليجزيهم الله سبحانه على ما عملوا من الحسنات حسبما وعدهم، من تضعيف ذلك إلى عشرة أمثاله، وإلى سبع مئة ضعف.

قال تعالى: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ ولا يجزون على ما عملوا من السيئات؛ أي: عملوا ما عملوا ليصير مآل أمرهم، وعاقبته الجزاء الحسن، فليست اللام للعلة، كما مر آنفاً؛ لأن هذه مرتبة عامة المؤمنين، وتلك الأوصاف إنما هي لكامل الإيمان.

﴿وَيَزِيدَهُم﴾ سبحانه ﴿مِّن فَضْلِهِۦ﴾ وإحسانه وكرمه أشياء لم يعدهم بها على أعمالهم، ولم تخطر ببالهم. وهو العطاء الخاص لا لعمل؛ أي: فلا يقتصر في

---

(١) الصاوي.

إعطائهم على جزاء أعمالهم، بل يعطون أشياء لم تخطر ببالهم. ﴿وَٱللَّهُ﴾ سبحانه ﴿يَرۡزُقُ﴾ ويعطي ﴿مَن يَشَآءُ﴾ إعطاءه ﴿بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾؛ أي: من غير أن يحاسبه على ما أعطاه، أو أن عطاءه لا نهاية له. والرزق: العطاء الجاري، والحساب: استعمال العدد؛ أي: يفيض ويعطي من يشاء ثواباً لا يدخل تحت حساب الخلق. يقال: فلان ينفق بغير حساب؛ أي: يوسع كأنه لا يحسب ما ينفقه، فهو كناية عن كون الله يعطيهم ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر. بغير نهاية فوق ما وعدهم به. وهذا تذييل ووعد كريم، بأنه تعالى يعطيهم فوق أجور أعمالهم من الخيرات ما لا يفي به الحساب.

قال بعض السلف[1]: نزلت هذه الآية في أهل الأسواق الذين إذا سمعوا النداء بالصلاة.. تركوا كل شغل وبادروا إليها؛ أي: لا في أصحاب الصفة، وأمثالهم الذين تركوا التجارة ولزموا المسجد، فإنه تعالى قال: ﴿وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ﴾ وأصحاب الصفة وأمثالهم لم يكن عليهم الزكاة. ا هـ.

ولما ضرب[2] الله سبحانه المثل للمؤمنين بأشرف الأمثال وأعلاها.. ضرب المثل للكفار بأشر الأشياء وأخسها، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ﴾.

والحاصل: أن الله سبحانه ضرب للكفار مثلين: مثل لأعمالهم الحسنة بقوله: ﴿كَسَرَابِۭ﴾ الخ، ومثل لأعمالهم السيئة بقوله: ﴿أَوۡ كَظُلُمَٰتٖ﴾ الخ. والاسم الموصول مبتدأ أول، و﴿كَفَرُوٓاْ﴾ صلته، و﴿أَعۡمَٰلُهُمۡ﴾ مبتدأ ثان، ﴿كَسَرَابِۭ﴾ خبر الثاني. والمبتدأ الثاني وخبره خبر الأول.

أي: والذين كفروا بالله ورسوله، أعمالهم التي هي من أبواب البر كصلة الأرحام وعتق الأرقاء، وعمارة البيت، وسقاية الحاج، وإغاثة الملهوفين، وقرى الأضياف، وإراقة الدماء، ونحو ذلك، مما لو قارنه الإيمان لاستتبع الثواب ولا تتوقف صحته على نية كائنة، كسراب ﴿بِقِيعَةٖ﴾؛ أي: كائن في قيعة. فالباء

---

(١) روح البيان. (٢) الصاوي.

بمعنى في. والسراب هو شبه[1] ماء يرى نصف النهار، عند شدة الحر في البراري، يظنه من رآه ماء. فإذا قرب منه، لم ير شيئاً، وسمي سراباً؛ لأنه يتسرب؛ أي: يجري كالماء. ويسمى آلاً أيضاً. قال الشاعر:

إِذَا أَنَــا كَــالَّــذِيْ يَــجْــرِيْ لِــوِرْدِهِ إِلَــىٰ آلٍ فَــلَــمْ يُــدْرِكْ بِــلاَلاَ

والقيعة: جمع قاع، كجيرة جمع جار، وهي الأرض المنبسطة المستوية، قد انفجرت عنها الجبال.

﴿يَحْسَبُهُ﴾؛ أي: يتوهمه ويظنه ﴿الظمآن﴾ أي: العطشان. وكذا كل من رآه ﴿مَآءً﴾ حقيقةً، وتخصيص الحسبان بالظمآن مع شموله لكل من يراه كائناً من كان من العطشان، والريان لتكميل التشبيه بتحقيق شركة طرفيه في وجه الشبه. وهو الابتداء المطمع والانتهاء المؤيس. ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ﴾؛ أي: جاء ما توهمه ماءً، وعلق به رجاءه ليشرب منه، فهو غاية لمحذوف؛ أي: يستمر سائراً إليه حتى إذا جاءه. ﴿لَمْ يَجِدْهُ﴾؛ أي: لم يجد ما حسبه ماء. ﴿شَيْـًٔا﴾ أصلاً، لا متحققاً ولا متوهماً، كما يراه من قبل، فضلاً عن وجدان ماءٍ فيزداد عطشاً.

كذلك الكافر، يحسب أن عمله كصدقة ينفعه، حتى إذا مات وقدم على ربه، لم يجد عمله؛ أي: لم ينفعه. ﴿وَوَجَدَ ٱللَّهَ﴾ سبحانه؛ أي: وجد وعد الله بالجزاء على عمله، والمعنى: وجد عذاب الله له، عند مجيئه.

﴿فَوَفَّىٰهُ﴾؛ أي: أعطاه وافياً كاملاً ﴿حِسَابَهُۥ﴾؛ أي: حساب عمله وجزاءه. يعني: ظهر له بعد ذلك، من سوء الحال، ما لا قدر عنده، للخيبة والقنوط أصلاً. كمن يجيء إلى باب السلطان للصلة، فيضرب ضرباً وجيعاً.

والحاصل[2]: أنه شبه حال الكافر من حيث اعتقاده، أن عمله الصالح ينفعه في الآخرة، فإذا جاء يوم القيامة، لم يجد الثواب الذي كان يظنه، بل وجد العقاب العظيم، والعذاب الأليم، فتغير ظن النفع العظيم إلى تيقن الضُّر العظيم.

---

(١) الخازن.

(٢) الصاوي.

فعظمت حسرته، بحال الظمآن الذي اشتدت حاجته إلى الماء، فإذا شاهد السراب تعلق به، فإذا جاءه لم يجده شيئاً، وإفراد[1] الضمير الراجع إلى الذين كفروا في قوله: ﴿فوفاه حسابه﴾ لإرادة الجنس، أو لإرادة كل واحد منهم. ﴿وَٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ لا يشغله حساب عن حساب؛ لأنه عالم بجميع المعلومات، فلا يشق عليه الحساب.

وقرأ مسلمة بن محارب[2]: ﴿بقيعاه﴾ بهاء مدورة. كما يقال: رجل عزهاه. وروي أنه قرأ ﴿بقيعات﴾ بتاء مبسوطة. قيل: يجوز أن تكون الألف متولدة من إشباع العين على الأول. وجمع قيعة على الثاني. وروي عن نافع وأبي جعفر وشيبة أنهم قرؤوا ﴿الظمان﴾ بغير همز. والمشهور عنهم الهمز.

وحاصل معنى الآية: أنه[3] سبحانه وتعالى شبه الأعمال الصالحة التي يعملها، من جحدوا توحيد الله وكذبوا بهذا القرآن وبمن جاء به ويظنون أنها تنفعهم عند الله وتنجيهم من عذابه، ثم تخيب في العاقبة آمالهم، ويلقون خلاف ما قدروا بالسراب، يراه من اشتد به العطش، فيحسبه ماء فيطلبه ويظن أنه قد حصل على ما يبغي، حتى إذا جاءه لم يجد شيئاً، هكذا حال الكافرين يحسبون أعمالهم نافعةً منجية لهم من بأس الله، حتى إذا جاءهم العذاب يوم القيامة، لم تنفعهم ولم تغنهم من عقابه، إلا كما ينتفع بالسراب من اشتد ظمؤه، واحتاج إلى ما به يروي غلته.

ثم بين شديد عقابه بقوله تعالى: ﴿وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ﴾؛ أي: ووجد عقاب الله الذي توعد به الكافرين أمامه، وتحول ما كان يظنه نفعاً عظيماً إلى ضرر محقق، وتجيؤه الزبانية تعتله وتسوقه إلى جهنم، وتسقيه الحميم والفساق، ونحو الآية قوله: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾﴾، ﴿وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ لا يشغله حساب عبد عن حساب آخر.

---

(١) المراح.

(٢) الشوكاني.

(٣) المراغي.

وخلاصة ما سلف: أن الخيبة والخسران في الآخرة لمن عملوا صالح الأعمال في الدنيا، كصلة الأرحام وإغاثة الملهوفين ونحو ذلك، وظنوا أنها تنجيهم من عذاب ربهم، وهم مع ذلك جاحدوا وحدانية الله، مكذبون لرسله، فما مثلهم إلا مثل من اشتد ظمؤه ورأى السراب فخاله ماء، وظن أنه قد وجد ضالته فسعى إليه حتى إذا جاءه لم يجد شيئاً، ورجع بخفي حنين.

هذه حالهم في الآخرة، أما حالهم في الدنيا فكما قال تعالى: ﴿أَوْ كَظُلُمَٰتٍ﴾ معطوف على كـ﴿سراب﴾، ولكنه على[1] حذف مضاف واحد، تقديره: أو كذي ظلمات، ودل على هذا المضاف قوله تعالى: ﴿إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا﴾ فالضمير يعود إلى المضاف المحذوف، وهو قول أبي علي، أو على حذف مضافين، تقديره: أو كأعمال ذي ظلمات، فقدر ذي، ليصح عود الضمير إليه في قوله: ﴿إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ﴾. وقدر أعمال، ليصح تشبيه أعمال الكفار، بأعمال صاحب الظلمات، إذ لا معنى لتشبيه العمل بصاحب الظلمات. وقيل: لا حاجة إلى حذف ألبتة.

والمعنى: أنه شبه أعمال الكفار في حيلولتها بين القلب، وما يهتدى به بالظلمة، وأما الضميران في ﴿أَخْرَجَ يَدَهُۥ﴾ فيعودان على محذوف دل عليه المعنى؛ أي: إذا أخرج يده من فيها. ا هـ. «سمين».

و﴿أَوْ﴾ فيه إما للتقسيم؛ لأن أعمال الكفار تنقسم إلى قمسين، قسم: كالسراب، وهو العمل الصالح. وقسم: كالظلمات، وهو العمل السيء. ا هـ. «شيخنا».

وفي «البيضاوي»: أن ﴿أَوْ﴾ فيه، إما للإباحة، فإن أعمالهم لكونها لاغية، لا منفعة لها، كالسراب، ولكونها خالية عن نور الحق، كالظلمات المتراكمة من لجج البحر والسحاب والأمواج. فكأنه قال: إن شئت مثل بالسراب، وإن شئت مثل بهذه الظلمات. أو للتنويع فإن أعمالهم إن كانت حسنة فكالسراب، وإن

---

(١) الفتوحات.

كانت سيئةً فكالظلمات. أو للتقيم باعتبار وقتين، فإنها كالظلمات في الدنيا، وكالسراب في الآخرة. ا هـ.

أي: والذين كفروا أعمالهم كسراب، أو كظلمات كائنة. ﴿فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ﴾؛ أي: في بحر عميق كثير الماء. منسوب إلى اللج، وهو معظم ماء البحر. ﴿يَغْشَاهُ مَوْجٌ﴾ صفة ثانية لبحر؛ أي: يستر ذلك البحر، ويغطيه بالكلية موج. والموج: ما ارتفع من الماء. ﴿مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ﴾ مبتدأ وخبر. والجملة صفة لـ﴿مَوْجٌ﴾؛ أي: من فوق ذلك الموج الأول موج آخر؛ أي: أمواج متراكمة بعضها على بعض. ﴿مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ﴾؛ أي: غيم. صفة لـ﴿مَوْجٌ﴾ الثاني؛ أي: من فوق الموج الثاني، الأعلى سحاب غطى النجوم، وحجب أنوارها، وفيه إيماء إلى غاية تراكم الأمواج وتضاعفها، حتى كأنها بلغت السحاب، ﴿ظلمات﴾؛ أي: هذه المذكورات من الأمواج والسحاب، ظلمات متكاثفة متراكمة، ﴿بعضها فوق بعض﴾.

وفي «الخازن»[1]: معناه أن البحر اللجي، يكون قعره مظلماً جداً بسبب غمورة الماء وكثرته وارتفاعه، فإذا ترادفت الأمواج ازدادت الظلمة، فإن كان فوق الأمواج سحاب بلغت الظلمة النهاية القصوى. ووجه الشبه، أن الله عز وجل، ذكر ثلاثة أنواع من الظلمات، ظلمة البحر، وظلمة الأمواج وظلمة السحاب. وكذلك الكافر له ثلاث ظلمات، ظلمة الاعتقاد، وظلمة القول وظلمة العمل.

وقيل: شبه بالبحر اللجي قلبه، وبالموج ما يتغشى قلبه من الجهل والشك والحيرة، وبالسحاب الختم والطبع على قلبه، ولكن هذا بعيد عن لغة العرب. كما في «الشوكاني». قال أبيّ بن كعب: الكافر يتقلب في خمس من الظلم، كلامه ظلمة وعمله ظلمة، ومدخله ظلمة، ومخرجه ظلمة، ومصيره إلى الظلمات يوم القيامة في النار.

والمعنى[2]: أو الذين كفروا أعمالهم القبيحة كظلمات كائنة في بحر عميق،

---

(١) الخازن.
(٢) المراح.

يعلوه موج كائن من فوقه موج كائن من فوق ذلك الموج الثاني سحاب ستر ضوء النجوم. وما تقدم ذكره ظلمات متراكمة، وهي ظلمة البحر وظلمة الموج الأول، وظلمة الموج الثاني، وظلمة السحاب. وهذا بيان لكمال شدة الظلمات. كما أن قوله تعالى: ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾ بيان لغاية قوة النور. إلا أن ذلك متعلق بالمشبه وهذا بالمشبه به.

وقرأ سفيان[1] بن حسين ﴿أو كظلمات﴾ بفتح الواو، جعلها واو عطف تقدمت عليها الهمزة التي لتقرير التشبيه، الخالي عن محض الاستفهام، وقرأ الجمهور: ﴿سحاب﴾ بالتنوين. ﴿ظلمات﴾ بالرفع، على أنه خبر لمبتدأ محذوف؛ أي: هذه، أو تلك ظلمات. وقرأ البزي وابن محيصن ﴿سحاب ظلمات﴾ بإضافة ﴿سحاب﴾ إلى ﴿ظلمات﴾، وجه الإضافة أن السحاب يرتفع وقت هذه الظلمات، فأضيف إليها لهذه الملابسة. وقرأ قنبل ﴿سحابٌ﴾ بالتنوين، ﴿ظلمات﴾ بالجر بدلاً من ﴿ظلمات﴾ الأولى.

ثم بالغ سبحانه، في هذه الظلمات المذكورة، بقوله: ﴿إِذَآ أَخْرَجَ﴾؛ أي: من[2] ابتلي بهذه الظلمات، أو الحاضر فيها، وإضماره من غير ذكره لدلالة المعنى عليه، دلالة واضحة ﴿يَدَهُۥ﴾ وهي أقرب أعضائه المرئية إليه، وجعلها بمرأى منه قريبةً من عينه لينظر إليها. ﴿لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا﴾؛ أي: لم يقرب أن يراها لشدة الظلمة فضلاً عن أن يراها.

قال الزجاج وأبو عبيدة: المعنى لم يرها، ولم يكد. وقال الفراء إن ﴿يكد﴾ زائدة.

والمعنى: إذا أخرج يده لم يرها. كما تقول: ما كدت أعرفه. وقال المبرد، يعني: لم يرها إلا من بعد الجهد. قال النحاس: أصح الأقوال في هذا، أن المعنى: لم يقارب رؤيتها، فإذا لم يرها رؤيةً بعيدةً، ولا قريبةً.

وجملة قوله: ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ مقررة لما قبلها، من

---

(١) البحر المحيط. (٢) روح البيان.

كون أعمال الكفرة على تلك الصفة.

والمعنى: ومن لم يجعل الله له هدايةً، فماله من هداية. قال الزجاج: ذلك في الدنيا. والمعنى من لم يهده الله لم يهتد؛ أي: ومن لم يشأ الله سبحانه أن يهديه لنور القرآن، ولم يوفقه للإيمان به فما له من نور؛ أي: فما له هداية ما من أحد أصلاً.

وقيل المعنى: من لم يجعل الله له نوراً يمشي به يوم القيامة، فما له من نور يهتدي به إلى الجنة.

وخلاصة ذلك: من لم يوله الله نور توفيقه ولطفه، فهو في ظلمة الباطل لا نور له.

الإعراب

﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾.

﴿قُل﴾: فعل أمر، وفاعل مستتر يعود على محمد. والجملة مستأنفة، مسوقة لبيان أحكام كلية شاملة. ﴿لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾: كافةً يندرج فيها، حكم المستأذنين عند دخولهم البيوت، اندراجاً كليّاً. ﴿لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾: متعلق بـ﴿قُل﴾، ومقوله محذوف، تقديره: قل للمؤمنين غضوا أبصاركم، لدلالة جوابه عليه، وهو ﴿يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ﴾: ﴿يَغُضُّوا﴾: فعل مضارع وفاعل مجزوم بالطلب السابق. ﴿مِنْ أَبْصَارِهِمْ﴾: جار ومجرور متعلق به. و﴿مِنْ﴾ قيل: تبعيضية. وقيل: زائدة. وقيل: ابتدائية. والجملة الفعلية جملة جوابية، لا محل لها من الإعراب. ﴿وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ﴾: فعل وفاعل ومفعول به، معطوف على ﴿يَغُضُّوا﴾ على كونه مجزوماً بالطلب. ﴿ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ﴾: مبتدأ وخبر. والجملة مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها. ﴿لَهُمْ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿أَزْكَىٰ﴾. ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾: ناصب واسمه. ﴿خَبِيرٌ﴾: خبره والجملة مستأنفة. ﴿بِمَا﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿خَبِيرٌ﴾. ﴿يَصْنَعُونَ﴾: فعل وفاعل. والجملة صلة الموصول، والعائد محذوف، تقديره: بما يصنعونه.

﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ﴾.

﴿وَقُل﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿قُل﴾: فعل أمر وفاعله ضمير مستتر يعود على محمد. ﴿لِّلْمُؤْمِنَٰتِ﴾: متعلق به، ومقوله محذوف، تقديره: اغضضن من أبصاركن، والجملة معطوفة على جملة ﴿قُل﴾ الأولى. ﴿يَغْضُضْنَ﴾: فعل مضارع، وفاعل في محل الجزم بالطلب السابق، مبني على السكون، لاتصاله بنون الإناث. ﴿مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿يَغْضُضْنَ﴾. والجملة جملة جوابية، لا محل لها من الإعراب. ﴿وَيَحْفَظْنَ﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿يَغْضُضْنَ﴾. ﴿فُرُوجَهُنَّ﴾: مفعول به ومضاف إليه. ﴿وَلَا يُبْدِينَ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿لا﴾: ناهية جازمة. ﴿يُبْدِينَ﴾: فعل وفاعل في محل الجزم بـ﴿لا﴾ الناهية، مبني على السكون لاتصاله بنون الإناث. ﴿زِينَتَهُنَّ﴾: مفعول به ومضاف إليه. والجملة معطوفة على جملة ﴿يَغْضُضْنَ﴾ على كونها جوابية. ﴿إِلَّا﴾ أداة استثناء مفرغ. ﴿ما﴾: اسم موصول في محل النصب بدل من ﴿زينتهن﴾. ﴿ظَهَرَ﴾: فعل ماض وفاعله ضمير يعود على ﴿ما﴾. ﴿مِنْهَا﴾: متعلق بـ﴿ظَهَرَ﴾. والجملة صلة الموصول. ﴿وَلْيَضْرِبْنَ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة. و(اللام): لام الأمر. ﴿يضربن﴾: فعل مضارع في محل الجزم بلام الأمر. مبني على السكون لاتصاله بنون الإناث، ونون الإناث: في محل الرفع فاعل. والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿وَلَا يُبْدِينَ﴾. ﴿بِخُمُرِهِنَّ﴾: (الباء): زائدة، أو تبعيضية. ﴿خمرهن﴾: مفعول به. ﴿عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿يضربن﴾. ﴿وَلَا﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿لا﴾: ناهية جازمة. ﴿يُبْدِينَ﴾: فعل وفاعل في محل الجزم بـ﴿لا﴾ الناهية، مبني على السكون لاتصاله بنون الإناث. والجملة معطوفة على جملة ﴿وليضربن﴾. ﴿زِينَتَهُنَّ﴾ مفعول به ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ. ﴿لِبُعُولَتِهِنَّ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿يُبْدِينَ﴾، ﴿أَوْ ءَابَآئِهِنَّ﴾: معطوف على ﴿بعولتهن﴾ ومضاف إليه.

﴿أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُو۟لِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا۟ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ﴾.

﴿أَوْ ءَابَآءِ﴾: معطوف على ﴿بُعُولَتِهِنَّ﴾، وهو مضاف ﴿بُعُولَتِهِنَّ﴾: مضاف إليه. ﴿أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ﴾: معطوف على بعولتهن أيضاً. ﴿أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ﴾: معطوف ومضاف إليه. ﴿أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ﴾ معطوف على بعولتهن. ﴿أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ﴾: معطوف ومضاف إليه. وكذا قوله: ﴿أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ﴾ معطوفان على بعولتهن. ﴿أَوْ مَا﴾: اسم موصول في محل الجر معطوف على ﴿بُعُولَتِهِنَّ﴾. ﴿مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ﴾: فعل وفاعل. والجملة صلة الموصول، والعائد محذوف، تقديره: أو ما ملكته أيمانهن. ﴿أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ﴾: معطوف على ﴿بعولتهن﴾ مجرور بالياء ﴿غَيْرِ﴾: بالجر صفة لـ﴿ٱلتَّٰبِعِينَ﴾، وبالنصب على الاستثناء. أو على الحال، وهو مضاف. ﴿أُو۟لِى﴾ مضاف إليه مجرور بالياء المحذوفة؛ لأنه ملحق بجمع المذكر السالم. أولي مضاف. ﴿ٱلْإِرْبَةِ﴾: مضاف إليه. ﴿مِنَ ٱلرِّجَالِ﴾: حال من ﴿ٱلتَّٰبِعِينَ﴾. ﴿أَوِ ٱلطِّفْلِ﴾: معطوف على ﴿بُعُولَتِهِنَّ﴾. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: صفة لـ﴿ٱلطِّفْلِ﴾؛ لأنه بمعنى الأطفال. ﴿لَمْ يَظْهَرُوا۟﴾: فعل وفاعل مجزوم بـ﴿لَمْ﴾. والجملة صلة الموصول. ﴿عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿يَظْهَرُوا۟﴾.

﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

﴿وَلَا يَضْرِبْنَ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿لا﴾: ناهية جازمة. ﴿يَضْرِبْنَ﴾: فعل وفاعل في محل الجزم بـ﴿لا﴾ الناهية، مبني على السكون لاتصاله بنون الإناث. ﴿بِأَرْجُلِهِنَّ﴾: متعلق به والمفعول محذوف، تقديره: الأرض. والجملة معطوفة على جملة ﴿وَلَا يُبْدِينَ﴾. ﴿لِيُعْلَمَ﴾: (اللام): حرف جر وتعليل. ﴿يعلم﴾: فعل مضارع مغير الصيغة، منصوب بأن مضمرة بعد لام كي. ﴿ما﴾: اسم موصول في محل الرفع نائب فاعل، وعلم هنا بمعنى عرف، يتعدى لمفعول

واحد؛ أي: ليعلم الرجال ما يخفين. والجملة الفعلية صلة أن المضمرة، أن مع صلتها في تأويل مصدر مجرور باللام، تقديره: لعلم الرجال ﴿مَا يُخْفِينَ﴾ الجار والمجرور متعلق بـ﴿يَضْرِبْنَ﴾. ﴿يُخْفِينَ﴾: فعل وفاعل مبني على السكون لاتصاله بنون الإناث. والجملة صلة الموصول، والعائد محذوف، تقديره: ما يخفينه. ﴿مِن زِينَتِهِنَّ﴾: جار ومجرور حال من ﴿ما﴾ الموصولة، أو من العائد المحذوف. ﴿وَتُوبُوٓاْ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿توبوا﴾: فعل أمر مبني على حذف النون. و﴿الواو﴾: فاعل. ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾: متعلق به. ﴿جَمِيعًا﴾: حال من فاعل ﴿توبوا﴾. والجملة معطوفة على الجملة التي قبلها، أو مستأنفة. ﴿أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾: (أي): منادى نكرة مقصودة، حذف منه حرف النداء، في محل النصب مبني على الضم. (ها): حرف تنبيه زائد، تعويضاً عما فات؛ أي: من الإضافة مبني بسكون على الألف المحذوفة لفظاً، لالتقاء الساكنين، وخطاً تبعاً للرسم، للفظ على قاعدة رسم المصحف العثماني؛ لأن اتباعها واجب. ﴿ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾: صفة لأي، تابع للفظه. وجملة النداء واقعة في جواب الطلب، لبيان المخاطبين، لا محل لها من الإعراب. ﴿لَعَلَّكُمْ﴾: ناصب واسمه، وجملة ﴿تُفْلِحُونَ﴾: خبره، وجملة ﴿لعل﴾: مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها؛ أي: توبوا إلى الله سبحانه، لكي تفلحوا.

﴿وَأَنكِحُواْ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّـٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْۚ إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٢﴾﴾.

﴿وَأَنكِحُواْ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿وَأَنكِحُواْ ٱلْأَيَـٰمَىٰ﴾: فعل وفاعل ومفعول به. ﴿مِنكُمْ﴾: حال من الأيامى. ﴿وَٱلصَّـٰلِحِينَ﴾: معطوف على ﴿ٱلْأَيَـٰمَىٰ﴾. ﴿مِنْ عِبَادِكُمْ﴾: حال من ﴿الصالحين﴾. ﴿وَإِمَآئِكُمْۚ﴾: معطوف على ﴿عِبَادِكُمْ﴾. والجملة الفعلية مستأنفة، مسوقة لتقرير حكم النكاح. ﴿إِن﴾: حرف شرط جازم. ﴿يَكُونُواْ﴾: فعل ناقص واسمه مجزوم بـ﴿إِن﴾ الشرطية على كونه فعل شرط لها. ﴿فُقَرَآءَ﴾: خبر ﴿يَكُونُواْ﴾. ﴿يُغْنِهِمُ﴾: فعل ومفعول مجزوم بـ﴿إن﴾ الشرطية على كونه جواباً لها. وعلامة جزمه حذف حرف العلة. ولفظ الجلالة فاعل له. ﴿مِن

﴿فَضْلِهِۦ﴾: متعلق به. وجملة ﴿إِن﴾ الشرطية مستأنفة مسوقة لتعليل النهي المحذوف، تقديره: لا تمتنعوا أيها الأولياء من تزويج الأحرار والحرائر، بسبب فقرهم؛ لأنهم إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله. ﴿وَٱللَّهُ﴾: مبتدأ. ﴿وَٰسِعٌ﴾: خبر له، ﴿عَلِيمٌ﴾: خبر ثان. والجملة الاسمية مستأنفة، مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ۖ وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ﴾.

﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة. و(اللام): حرف أمر وجزم. ﴿يستعفف﴾: فعل مضارع، مجزوم بلام الأمر. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: فاعل. والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَٰمَىٰ﴾. ﴿لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا﴾: فعل وفاعل ومفعول. والجملة صلة الموصول. ﴿حَتَّىٰ﴾: حرف جر وغاية. ﴿يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ﴾: فعل ومفعول وفاعل منصوب بأن مضمرة وجوباً بعد ﴿حَتَّىٰ﴾ بمعنى إلى. ﴿مِن فَضْلِهِۦ﴾ متعلق بـ﴿يُغْنِيَهُمُ﴾. والجملة الفعلية صلة أن المضمرة ﴿أن﴾ مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بـ﴿حَتَّىٰ﴾ بمعنى إلى، تقديره: إلى إغناء الله سبحانه إياهم، الجار والمجرور متعلق بـ﴿يستعفف﴾. ﴿وَٱلَّذِينَ﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: اسم موصول، منصوب على الاشتغال بفعل محذوف وجوباً، يفسره المذكور بعده، تقديره: وكاتبوا الذين يبتغون الكتاب، فكاتبوهم، أو مبتدأ خبره جملة ﴿فَكَاتِبُوهُمْ﴾. والأول أرجح لمكان. ﴿فَكَاتِبُوهُمْ﴾. ﴿كاتبوا﴾: فعل وفاعل. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: مفعول به. والجملة المحذوفة مستأنفة. ﴿يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَٰبَ﴾: فعل وفاعل ومفعول. والجملة صلة الموصول. ﴿مِمَّا﴾: جار ومجرور حال من فاعل ﴿يَبْتَغُونَ﴾. ﴿مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾: فعل وفاعل. والجملة صلة الموصول، والعائد محذوف، تقديره: مما ملكته أيمانكم. ﴿فَكَاتِبُوهُمْ﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة لما في الموصول من معنى الشرط. ﴿كاتبوهم﴾: فعل وفاعل ومفعول. والجملة إما مفسرة للمحذوف، لا محل لها من الإعراب، أو خبر المبتدأ في محل الرفع. ﴿إِنْ﴾: حرف شرط جازم. ﴿عَلِمْتُمْ﴾: فعل وفاعل في محل الجزم بـ﴿إِنْ﴾: الشرطية على كونه فعل شرط لها. ﴿فِيهِمْ﴾: متعلق بـ﴿عَلِمْتُمْ﴾. ﴿خَيْرًا﴾: مفعول

به. وجواب ﴿إِنْ﴾ الشرطية محذوف، دل عليه ﴿فَكَاتِبُوهُمْ﴾؛ أي: إن علمتم فيهم خيراً، فكاتبوهم. وجملة الشرط مستأنفة. ﴿وَءَاتُوهُم﴾: فعل وفاعل ومفعول أول معطوف على ﴿كاتبوا﴾؛ لأنه بمعنى أعطى ﴿مِّن مَّالِ ٱللَّهِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بـ﴿آتوهم﴾، والمفعول الثاني محذوف، تقديره: ما يستعينون به على أداء النجوم. ﴿ٱلَّذِىٓ﴾: اسم موصول في محل الجر صفة للمال. ﴿ءَاتَىٰكُمْ﴾: فعل ومفعول أول، وفاعله ضمير يعود على الله، والمفعول الثاني محذوف، تقديره: آتاكموه، وهو العائد على الموصول. الجملة صلة الموصول.

﴿وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَـٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا۟ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

﴿وَلَا﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿لا﴾: ناهية جازمة. ﴿تُكْرِهُوا۟﴾: فعل وفاعل مجزوم بـ﴿لا﴾: الناهية. والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَـٰمَىٰ﴾. ﴿فَتَيَـٰتِكُمْ﴾: مفعول به ومضاف إليه، ﴿عَلَى ٱلْبِغَآءِ﴾ متعلق بـ﴿تُكْرِهُوا۟﴾. ﴿إِنْ﴾: حرف شرط جازم. ﴿أَرَدْنَ﴾: فعل وفاعل في محل الجزم بـ﴿إن﴾ الشرطية على كونه فعل شرط لها ﴿تَحَصُّنًا﴾: مفعول به وجواب ﴿إن﴾ الشرطية معلوم مما قبلها تقديره إن أردن تحصناً لا تكرهوهن على البغاء. والجملة الشرطية معترضة، لا محل لها من الإعراب. ﴿لِّتَبْتَغُوا۟﴾: اللام: حرف جر وتعليل. ﴿تبتغوا﴾: فعل وفاعل منصوب بأن مضمرة جوازاً بعد لام كي. ﴿عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ﴾: مفعول به ومضاف إليه ﴿ٱلدُّنْيَا﴾ صفة لـ﴿ٱلْحَيَوٰةِ﴾. والجملة الفعلية، مع أن المضمرة، في تأويل مصدر مجرور بلام التعليل، تقديره لابتغائكم ﴿عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾: الجار والمجرور متعلق بـ﴿تُكْرِهُوا۟﴾. ﴿وَمَن﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿من﴾: اسم شرط جازم، في محل الرفع مبتدأ. والخبر جملة الشرط، أو الجواب، أو هما. ﴿يُكْرِههُّنَّ﴾: فعل ومفعول وفاعل مستتر يعود على ﴿من﴾ مجزوم بمن الشرطية، على كونه فعل شرط لها. ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب من الشرطية وجوباً. ﴿إن الله﴾: ناصب واسمه ﴿مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ﴾: جار ومجرور ومضاف

إليه متعلق بـ﴿غَفُورٌ﴾. ﴿غَفُورٌ﴾: خبر أول لـ﴿إن﴾. ﴿رَّحِيمٌ﴾: خبر ثان لها، وجملة ﴿إن﴾: في محل الجزم بـ﴿من﴾ الشرطية على كونها جواباً لها. وجملة ﴿من﴾: الشرطية معطوفة على جملة قوله: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَٰتِكُمْ﴾.

﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٣٤﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية. و(اللام): موطئة للقسم. ﴿قد﴾: حرف تحقيق. ﴿أَنزَلْنَآ﴾: فعل وفاعل. ﴿إِلَيْكُمْ﴾: متعلق به. ﴿ءَايَٰتٍ﴾: مفعول به. ﴿مُّبَيِّنَٰتٍ﴾: صفة لها. والجملة الفعلية جواب القسم. وجملة القسم مستأنفة، مسوقة لبيان حقيقة الآيات المنزلة. ﴿وَمَثَلًا﴾: معطوف على آيات. ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ﴾: صفة لمثلاً. ﴿خَلَوْا۟﴾: فعل وفاعل صلة الموصول. ﴿مِن قَبْلِكُمْ﴾: حال من فاعل ﴿خَلَوْا۟﴾، أو متعلق بـ﴿خَلَوْا۟﴾. ﴿وَمَوْعِظَةً﴾: معطوف على ﴿ءَايَٰتٍ﴾. ﴿لِّلْمُتَّقِينَ﴾: صفة لـ﴿موعظة﴾.

﴿۞ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾﴾.

﴿ٱللَّهُ﴾: مبتدأ. ﴿نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾: خبر ومضاف إليه. ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾: معطوف على ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾. والجملة مستأنفة. ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ﴾: مبتدأ ومضاف إليه. ﴿كَمِشْكَوٰةٍ﴾: (الكاف): اسم بمعنى مثل، في محل الرفع خبر، وهو مضاف. ﴿مشكاة﴾: مضاف إليه. ويجوز إعراب الكاف: حرف جر والجار والمجرور خبر ﴿مَثَلُ﴾. والجملة من المبتدأ والخبر، جملة مفسرة لما قبلها، لا محل لها من الإعراب. ﴿فِيهَا﴾: خبر مقدم. ﴿مِصْبَاحٌ﴾: مبتدأ مؤخر. والجملة في محل الجر صفة لـ﴿مشكاة﴾. ﴿ٱلْمِصْبَاحُ﴾: مبتدأ ﴿فِى زُجَاجَةٍ﴾: جار ومجرور خبر المبتدأ. والجملة تفسير لما قبلها، لا محل لها من الإعراب. ﴿ٱلزُّجَاجَةُ﴾: مبتدأ ﴿كَأَنَّهَا﴾:

ناصب واسمه. ﴿كَوْكَبٌ﴾: خبره. ﴿دُرِّيٌّ﴾: صفة لـ﴿كَوْكَبٌ﴾. وجملة ﴿كأن﴾: في محل الرفع خبر المبتدأ. والجملة من المبتدأ والخبر، جملة مفسرة لما قبلها، لا محل لها من الإعراب. ﴿يُوقَدُ﴾: فعل مضارع مغير الصيغة، ونائب فاعله ضمير يعود على ﴿ٱلْمِصْبَاحُ﴾. ﴿مِن شَجَرَةٍ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿يُوقَدُ﴾، ولكنه على تقدير مضاف، من زيت شجرة. والجملة الفعلية في محل النصب، حال من الضمير المستكن في الجار والمجرور في قوله: ﴿فِي زُجَاجَةٍ﴾، العائد إلى المصباح، تقديره: المصباح كائن هو في زجاجة حالة كونه يوقد من زيت شجرة. ﴿مُّبَٰرَكَةٍ﴾: صفة لـ﴿شَجَرَةٍ﴾. ﴿زَيْتُونَةٍ﴾: بدل ﴿مِن شَجَرَةٍ﴾. ﴿لَّا شَرْقِيَّةٍ﴾: صفة ثانية لـ﴿شَجَرَةٍ﴾، وزيدت ﴿لا﴾ لتفيد النفي، فلا تكون فاصلة بين الصفة والموصوف. ﴿وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾: معطوف على ﴿شَرْقِيَّةٍ﴾. ﴿يَكَادُ﴾: فعل مضارع ناقص من أفعال المقاربة. ﴿زَيْتُهَا﴾: اسمها. وجملة ﴿يُضِيٓءُ﴾: خبرها. وجملة ﴿يَكَادُ﴾ في محل الجر صفة ثالثة لـ﴿شَجَرَةٍ﴾. ﴿وَلَوْ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة على جملة شرط محذوف، وقعت حالاً من فاعل ﴿يُضِيٓءُ﴾، تقديره: يضيء زيتها لو مسته نار لأضاء، ولو لم تمسسه نار لأضاء. ﴿لو﴾: حرف شرط غير جازم. ﴿لَمْ﴾: حرف جزم. ﴿تَمْسَسْهُ﴾ فعل ومفعول مجزوم بلم. ﴿نَارٌ﴾: فاعل. والجملة فعل شرط لـ﴿لو﴾. وجوابها محذوف، تقديره: لأضاء ذلك الزيت. وجملة ﴿لو﴾ في محل النصب على الحال، معطوفة على شرط محذوف. كما قدرناه آنفاً، والتقدير: يكاد زيتها يضيء، حالة مس النار إياه، وحالة عدم مسها إياه. ﴿نُّورٌ﴾: خبر لمبتدأ محذوف، تقديره: نور المصباح الذي شبه به الحق، نور على نور؛ أي: نور بالزيت كائن من نور بالنار. ﴿عَلَىٰ نُورٍ﴾: جار ومجرور صفة لـ﴿نُّورٌ﴾؛ أي: هذا النور نور كائن مع نور، فعلى بمعنى مع. والجملة الاسمية مستأنفة، مسوقة لبيان فخامة ذلك النور. ﴿يَهْدِى ٱللَّهُ﴾: فعل وفاعل. والجملة مستأنفة مسوقة لتقرير تنفيذ مشيئته تعالى: ﴿لِنُورِهِۦ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿يَهْدِى﴾. ﴿مَن﴾: اسم موصول في محل النصب مفعول ﴿يَهْدِى﴾. وجملة ﴿يَشَآءُ﴾ صلة الموصول، والعائد محذوف تقديره: من يشاؤه. ﴿وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ﴾: فعل وفاعل ومفعول. والجملة معطوفة على جملة ﴿يَهْدِى﴾.

﴿لِلنَّاسِ﴾: متعلق بـ﴿يضرب﴾. ﴿وَاللَّهُ﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية، أو عاطفة. ﴿الله﴾: مبتدأ. ﴿بِكُلِّ شَيْءٍ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿عَلِيمٌ﴾. ﴿عَلِيمٌ﴾: خبر المبتدأ، والجملة الاسمية مستأنفة، أو معطوفة على جملة ﴿يضرب﴾.

﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ﴿٣٧﴾﴾.

﴿فِي بُيُوتٍ﴾: جار ومجرور صفة لـ﴿مشكاة﴾؛ أي: كمصباح مشكاة كائنة في بيوت، أو لمصباح، أو لزجاجة، أو متعلق بـ﴿يُوقَدُ﴾. وعلى هذا لا يوقف على عليم. ولك أن تقف على عليم، فتعلقه بمحذوف، تقدير: سبحوه في بيوت، أو بيسبح. ﴿أَذِنَ اللَّهُ﴾: فعل وفاعل. والجملة في محل الجر صفة لـ﴿بُيُوتٍ﴾. ﴿أَن﴾: حرف نصب. ﴿تُرْفَعَ﴾: فعل مضارع منصوب بأن ونائب فاعله ضمير يعود على ﴿بُيُوتٍ﴾. والجملة في تأويل مصدر، مجرور بحرف جر محذوف. تقديره: أذن الله في رفعها وتطهيرها، وهي المساجد، والجار المحذوف متعلق بـ﴿أَذِنَ﴾ ﴿وَيُذْكَرَ﴾ معطوف على ترفع. ﴿فِيهَا﴾ متعلق بـ﴿يذكر﴾ ﴿اسْمُهُ﴾ نائب فاعل. ﴿يُسَبِّحُ﴾: فعل مضارع ﴿لَهُ﴾: متعلق بـ﴿يُسَبِّحُ﴾. ﴿فِيهَا﴾: متعلق به أيضاً. ﴿بِالْغُدُوِّ﴾: جار ومجرور حال من ﴿رِجَالٌ﴾. ﴿وَالْآصَالِ﴾: معطوف على ﴿الغدو﴾؛ أي: ملتبسين بالغدو والآصال. ﴿رِجَالٌ﴾: فاعل ﴿يُسَبِّحُ﴾ وجملة ﴿يُسَبِّحُ﴾ في محل الجر صفة ثانية لـ﴿بُيُوتٍ﴾. ﴿لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ﴾: فعل ومفعول وفاعل. والجملة في محل الرفع صفة لـ﴿رِجَالٌ﴾ ﴿وَلَا بَيْعٌ﴾: معطوف على ﴿تِجَارَةٌ﴾. ﴿عَن ذِكْرِ اللَّهِ﴾: متعلق بـ﴿تُلْهِيهِمْ﴾. ﴿وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ﴾ معطوفات على ﴿ذِكْرِ اللَّهِ﴾. ﴿يَخَافُونَ﴾: فعل وفاعل. ﴿يَوْمًا﴾: مفعول به. والجملة في محل الرفع صفة لـ﴿رِجَالٌ﴾. أو في محل النصب حال من مفعول ﴿تُلْهِيهِمْ﴾. ﴿تَتَقَلَّبُ﴾: فعل مضارع. ﴿فِيهِ﴾: متعلق بـ﴿تَتَقَلَّبُ﴾. ﴿الْقُلُوبُ﴾: فاعل لتتقلب. ﴿وَالْأَبْصَارُ﴾: معطوف على القلوب.

﴿لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٨﴾﴾.

﴿لِيَجْزِيَهُمُ﴾ (اللام): حرف جر وتعليل. ﴿يجزيهم الله﴾: فعل مضارع ومفعول أول، وفاعل منصوب بأن مضمرة جوازاً بعد لام كي. ﴿أَحْسَنَ مَا﴾: مفعول ثان ومضاف إليه. وجملة ﴿عَمِلُوا۟﴾ صلة الموصول. وجملة ﴿يجزيهم﴾ مع أن المضمرة في تأويل مصدر مجرور باللام. الجار والمجرور متعلق بمحذوف، تقديره: فعلوا ما ذكر من التسبيح والصلاة والزكاة لجزاء الله سبحانه إياهم أحسن ما عملوا، أي رجاء جزائه سبحانه. ﴿وَيَزِيدَهُم﴾: فعل ومفعول به وفاعل مستتر يعود على الله معطوف على ﴿يجزيهم﴾ ﴿مِّن فَضْلِهِۦ﴾ متعلقان به. ﴿وَٱللَّهُ﴾ مبتدأ. ﴿يَرْزُقُ مَن﴾: فعل مضارع ومفعول به وفاعل مستتر يعود على الله. والجملة في محل الرفع خبر المبتدأ. والجملة الاسمية مستأنفة. وجملة ﴿يَشَآءُ﴾ صلة الموصول. ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ متعلق بـ﴿يَرْزُقُ﴾، أو حال من فاعل ﴿يَرْزُقُ﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٣٩﴾﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: مبتدأ أول. ﴿كَفَرُوٓا۟﴾: صلة الموصول. ﴿أَعْمَٰلُهُمْ﴾: مبتدأ ثان. ﴿كَسَرَابٍۭ﴾: جار ومجرور خبر للمبتدأ الثاني. والمبتدأ الثاني مع خبره، خبر الأول. وجملة الأول مستأنفة، مسوقة لبيان حال عمل الكفار، بعد أن بين المؤمنين بضرب مثل لهم، بقوله: ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ﴾. ﴿بِقِيعَةٍ﴾: جار ومجرور صفة لـ﴿سراب﴾. ﴿يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ﴾: فعل ومفعول أول وفاعل. ﴿مَآءً﴾: مفعول ثان له. والجملة الفعلية في محل الجر، صفة ثانية لـ﴿سراب﴾. ﴿حَتَّىٰٓ﴾: حرف جر وغاية. ﴿إِذَا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان. ﴿جَآءَهُۥ﴾: فعل ومفعول وفاعل مستتر يعود على ﴿ٱلظَّمْـَٔانُ﴾. والجملة في محل الخفض بإضافة ﴿إِذَا﴾ إليها على كونها فعل شرط لها. والظرف متعلق بالجواب الآتي. ﴿لَمْ﴾: حرف نفي وجزم. ﴿يَجِدْهُ شَيْـًٔا﴾: فعل ومفعولان مجزوم بـ﴿لَمْ﴾ وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱلظَّمْـَٔانُ﴾. والجملة جواب ﴿إِذَا﴾ لا

محل لها من الإعراب. وجملة ﴿إِذَا﴾ في محل الجر بـ﴿حَتَّىٰ﴾ و﴿حَتَّىٰ﴾ متعلقة بمحذوف وقعت غاية له، تقديره: واستمر ذاهباً إليه إلى عدم وجدانه شيئاً، وقت مجيئه إياه. والجملة المحذوفة معطوفة على جملة ﴿يَحْسَبُهُ﴾. ﴿وَوَجَدَ ٱللَّهَ﴾: فعل وفاعل مستتر، ومفعول به معطوف على جواب ﴿إِذَا﴾. ﴿عِندَهُۥ﴾: ظرف ومضاف إليه، في محل المفعول الثاني لوجد؛ أي: وجد الله كائناً عنده. ﴿فَوَفَّىٰهُ﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة. ﴿وفاه حسابه﴾: فعل ومفعولان معطوف على وجد. وفاعله ضمير يعود على الله. ﴿وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾: مبتدأ وخبر ومضاف إليه. والجملة مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾﴾.

﴿أَوْ﴾: حرف عطف وتقسيم. ﴿كَظُلُمَٰتٍ﴾: جار ومجرور معطوف على قوله كسراب. ﴿فِى بَحْرٍ﴾: جار ومجرور صفة لظلمات. ﴿لُّجِّىٍّ﴾: صفة لبحر؛ أي: منسوب إلى اللج. ﴿يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ﴾: فعل ومفعول وفاعل. والجملة في محل الجر، صفة ثانية لـ﴿بَحْرٍ﴾. ﴿مِّن فَوْقِهِۦ﴾: جار ومجرور خبر مقدم. ﴿مَوْجٌ﴾: مبتدأ مؤخر. والجملة الاسمية في محل الرفع صفة لموج الأول. ﴿مِّن فَوْقِهِۦ﴾ خبر مقدم. ﴿سَحَابٌ﴾ مبتدأ مؤخر. والجملة في محل الرفع صفة لموج الثاني. ﴿ظُلُمَٰتٌۢ﴾: خبر لمبتدأ محذوف، تقديره: هذه ظلمات. والجملة جملة مفسرة لما قبلها لا محل لها من الإعراب. ﴿بَعْضُهَا﴾: مبتدأ. ﴿فَوْقَ بَعْضٍ﴾: خبر. والجملة في محل الرفع صفة لظلمات. ﴿إِذَآ﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان. ﴿أَخْرَجَ﴾: فعل ماض وفاعله ضمير يعود على المبتلى بتلك الظلمات. ﴿يَدَهُۥ﴾: مفعول به. والجملة في محل الخفض فعل شرط لـ﴿إِذَآ﴾. والظرف متعلق بالجواب. ﴿لَمْ يَكَدْ﴾: جازم وفعل مضارع ناقص مجزوم بـ﴿لَمْ﴾، واسمها ضمير يعود على صاحب اليد. ﴿يَرَىٰهَا﴾: فعل ومفعول به لأنها بصرية، وفاعله ضمير يعود على صاحب اليد. والجملة الفعلية في محل النصب خبر يكد. وجملة ﴿لَمْ

﴿يَكَدْ﴾ جواب ﴿إِذَا﴾. وجملة ﴿إِذَا﴾ مستأنفة مسوقة لبيان حال من في تلك الظلمات. ﴿وَمَن﴾. ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿مَن﴾: اسم شرط جازم في محل الرفع مبتدأ والخبر جملة الشرط، أو الجواب، أو هما. ﴿لَّمْ﴾: حرف جزم. ﴿يَجْعَلِ اللَّهُ﴾: فعل وفاعل مجزوم بلم. ﴿له﴾: جار ومجرور في محل المفعول الثاني لجعل. ﴿نُورًا﴾ مفعول أول له. والجملة في محل الجزم بـ﴿من﴾ الشرطية على كونها فعل شرط لها. ﴿فَمَا﴾ ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب من الشرطية. ﴿ما﴾: نافية. ﴿له﴾: خبر مقدم ﴿مِن﴾ زائدة. ﴿نُورٍ﴾: مبتدأ مؤخر مجرور لفظاً، مرفوع محلاً. والجملة الاسمية في محل الجزم بـ﴿مَن﴾ الشرطية على كونها جواباً لها. وجملة من الشرطية مستأنفة.

التصريف ومفردات اللغة

﴿يَغُضُّوا﴾ الغضّ: إطباق الجفن، بحيث يمنع الرؤية. ا هـ. «سمين». وفي «المصباح»: غض الرجل صوته وطرفه ومن صوته ومن طرفه غضاً من باب قتل إذا خفض. ومنه يقال: غض من فلان غضاً، وغضغضه إذا انتقصه. ا هـ. وأدغم أحد المثلين هنا في الثاني بخلاف قوله الآتي: يغضضن. وذلك لأن الثاني هنا متحرك، فأدغم فيه الأول، وفيما سيأتي ساكن، فلم يتأت إدغام الأول فيه أشار له «القرطبي».

﴿فُرُوجَهُمْ﴾: جمع فرج، والفرج الشق بني الشيئين، كفرجة الحائط، والفرج ما بين الرجلين، وكنى به عن السوأة، وكثر حتى صار كالصريح فيه.

﴿أَزْكَى لَهُمْ﴾؛ أي: أطهر لهم من دنس الريبة، وأفعل هنا: إما مجرد عن معنى التفضيل، أو المراد أنه أزكى من كل شيءٍ نافعٍ، أو أبعد عن الريبة ا هـ. «شهاب».

﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾: يقال: بدا الشيء بدواً وبدواً؛ أي: ظهر ظهوراً بيناً. وأبدى إذا أظهر. والزينة ما تزينت به المرأة، من حلي أو كحل، أو غير ذلك.

﴿بِخُمُرِهِنَّ﴾ الخمر بضم الخاء والميم جمع خمار بكسر الخاء، وهو ما تغطي به المرأة رأسها والستر عموماً، ويجمع على أخمرة وخمرٍ بضم الخاء وسكون الميم وخمر بضمتين.

﴿عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ جمع جيب. والجيب من القميص طوقه، وهو فتحة في أعلى القميص يبدو منها بعض الجسد. والجيب أيضاً: القلب والصدر. وعند العامة، الجيب: هو كيس يخاط في جانب الثوب من الداخل، ويجعل فمه من الخارج.

﴿إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ﴾ والبعولة: الأزواج، واحدهم بعل. قال في «المفردات» البعل هو الذكر من الزوجين، وجمعه بعولة كفحل وفحولة ا هـ.

﴿أَوْ إِخْوَانِهِنَّ﴾ جمع أخ، كالأخوة، فهو جمع له أيضاً. وفي «المصباح» الأخ لامه محذوفة، وهي واو. وترد في التثنية على الأشهر، فيقال: أخوان، وفي لغة، يستعمل منقوصاً، فيقال: أخان، وجمعه إخوة وإخوان بكسر الهمزة فيهما وضمها لغة. وقل جمعه بالواو والنون، وعلى آخاء وزان آباء أقل. والأنثى أخت، وجمعها أخوات، وهو جمع مؤنث سالم ا هـ.

﴿أَوِ ٱلتَّـٰبِعِينَ﴾: جمع تابع. قال ابن عباس: التابع: هو الأحمق العنين. وقيل: هو الذي لا يستطيع غشيان النساء، ولا يشتهيهن. وقيل: غير ذلك. كما مر في «مبحث التفسير». وبعضهم فسر التابعين بالممسوحين، وهو ظاهر.

﴿غَيْرِ أُوْلِي ٱلْإِرْبَةِ﴾؛ أي: غير أصحاب الإربة، والحاجة إلى النساء، والإربة الحاجة. وفي «المصباح» الإرب بفتحتين، والإربة بالكسر، والمأربة بفتح الراء وضمها الحاجة، والجمع المآرب. والأرب في الأصل مصدر من باب تعب. يقال: أرب الرجل إلى الشيء إذا احتاج إليه فهو آرب على فاعل. والإرب بالكسر، يستعمل في الحاجة وفي العضو. والجمع آراب مثل حمل وأحمال ا هـ.

﴿أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُواْ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ﴾. والطفل: جنس، وضع موضع الجمع، اكتفاءً بدلالة الوصف عليه، كالعدو، في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ﴾ قال في «المفردات» الطفل: الولد ما دام ناعماً، ويطلق على المثنى

والجمع. والطفيلي رجل معروف بحضور الدعوات. وقال الفناري: حد الطفل من أول ما يولد إلى انقضاء ستة أعوام. والعورات جمع عورة، وهي ما يريد الإنسان ستره من بدنه، وغلب في السوءتين. الدبر والقبل، وأصلها من العار، وذلك لما يلحق في ظهورها من العار؛ أي: المذمة ولذلك سمي النساء عورة، ومن ذلك العوراء؛ أي: الكلمة القبيحة، كما في «المفردات» وقال أهل اللغة: سميت العورة عورة لقبح ظهورها. ولغض الأبصار عنها، مأخوذ من العور، وهو النقص والقبح، ومنه عور العين ا هـ. والعامة: على عورات بسكون الواو، وهي لغة عامة العرب، سكنوها تخفيفاً لحرف العلة.

﴿وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ﴾ الأيامى مقلوب أيايم، جمع أيّم، كيتامى مقلوب يتايم جمع يتيم. فقلب قلب مكان، ثم أبدلت الكسرة فتحة والياء ألفاً فصار أيامى. والأيم: من لا زوج له من الرجال والنساء بكراً كان أو ثيباً. وقال في «المفردات». الأيم المرأة التي لا بعل لها، وقد قيل: للرجل الذي لا زوج له، وذلك على طريق التشبيه بالمرأة لا على التحقيق ا هـ.

وفي «السمين» قوله: ﴿ٱلْأَيَـٰمَىٰ﴾: جمع أيم بزنة فيعل، يقال منه آم يئيم، كباع يبيع، وقياس جمعه أيائم كسيد وسيائد، وأيامى فيه وجهان، أظهرها من كلام سيبويه ـ رحمه الله تعالى ـ أنه جمع على فعالى غير مقلوب، وكذلك يتامى. وقيل: إن الأصل أيائم ويتايم في أيم ويتيم فقلبا. وعن رسول الله ﷺ: «اللهم إني أعوذ بك من العيمة والغيمة، والأيمة والكزم والقرم» قلت: أما العيمة بالمهملة فشدة شهوة اللبن، وبالمعجمة شدة العطش، والأيمة طول العزبة والكزم شدة شهوة الأكل، والقرم شدة شهوة اللحم ا هـ.

﴿وَٱلصَّـٰلِحِينَ﴾؛ أي: الصالحين للنكاح والقيام بحقوقه. وفي «المفردات» الصلاح: ضد الفساد، وهما مختصان في أكثر الاستعمال بالأفعال.

﴿مِنْ عِبَادِكُمْ﴾ جمع عبد؛ أي: رقيق، وله جموع كثيرة، تبلغ نحو اثنين وعشرين صيغة، منها، عبيد وأعابد، وأعبد ذكرتها في كتابي «سلم المعراج على خطبة المنهاج».

﴿وَإِمَآئِكُمۡۚ﴾ جمع أمة، وهي الرقيقة غير الحرة، ﴿وَلۡيَسۡتَعۡفِفِ﴾ استعفف من استفعل، والعفة حصول حالة للنفس، تمتنع بها عن غلبة الشهوة، والمتعفف: المتعاطي لذلك، بضرب من الممارسة والقهر، والاستعفاف طلب العفة، والمعنى يجتهد في العفة وقمع الشهوة.

﴿وَٱلَّذِينَ يَبۡتَغُونَ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ والكتاب والمكاتبة كالعتاب والمعاتبة، يراد بها شرعاً إعتاق المملوك، بعد أداء شيء من المال منجماً؛ أي: في موعدين أو أكثر فيقول له: كاتبتك على كذا درهماً، ويقبل المملوك ذلك، فإذا أداه عتق وصار أحق بمكاسبه، كما صار أحق بنفسه، ومعناه كتبت لك على نفسي أن تعتق مني إذا وفيت بالمال، وكتبت لي على نفسك أن تفي بذلك، أو كتبت لك الوفاء بالمال، وكتبت عليَّ العتق، وله أحكام مبسوطة في كتب الفقه. وفي «الأساس» و«اللسان» كتب عليه كذا قضي عليه، وكتب الله الأجل والرزق، وكتب على عباده الطاعة، وعلى نفسه الرحمة، وهذا كتاب الله؛ أي: قدره. قال الجعدي:

يَا بِنْتَ عَمِّيْ كِتَابُ ٱللَّهِ أَخْرَجَنِيْ عَنْكُمْ وَهَلْ أَمْنَعَنَّ ٱللَّهَ مَا فَعَلاَ

فالمكاتبة: مفاعلة من الجانبين؛ لأن السيد كتب على نفسه العتق، والعبد كتب على نفسه النجوم. ا هـ. «شخينا».

﴿وَلَا تُكۡرِهُواْ فَتَيَٰتِكُمۡ﴾ جمع فتاة. وفي «المختار» والفتى الشاب والفتاة الشابة. وقد فتى بالكسر فتاء بالفتح والمد، فهو فتى السن؛ أي: بين الفتاء والفتى أيضاً السخي الكريم، وجمع الفتى في القلة فتية، وفي الكثرة فتيان وجمع الفتاة فتيات ا هـ.

﴿عَلَى ٱلۡبِغَآءِ﴾ البغاء: الزنا، وبغت فلانة بغاءً وهي بغي طلوب للرجال، وهن بغايا. ومنه قيل: للإماء البغايا، لأنهن كن يباغين في الجاهلية، يقال: قامت البغايا على رؤوسهم. وفي «المصباح» وبغت المرأة تبغي بغاء بالكسر والمد من باب رمى إذا فجرت، وهي بغي، والجمع البغايا، وهو وصف مختص بالمرأة، فلا يقال: للرجل بغي. قاله الأزهري. والبغي القينة، وإن كانت عفيفة، لثبوت الفجور لها في الأصل. قاله الجوهري. ولا يراد به الشتم؛ لأنه اسم جعل

كاللقب، والأمة تباغي؛ أي: تزاني ا هـ.

﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾؛ أي: منورهما، وإنما أولناه باسم الفاعل؛ لأن حقيقة النور كيفية؛ أي: عرض يدرك بالبصر، فلا يصح حمله على الذات الأقدس ا هـ. «شيخنا». وعبارة «البيضاوي» النور في الأصل، كيفية تدركها بالباصرة أولاً، وتدرك بواسطتها سائر المبصرات، كالكيفية الفائضة من النيرين على الأجرام الكثيفة المحاذية لهما، وهو بهذا المعنى، لا يصح إطلاقه على الله سبحانه، إلا بتقدير مضاف، كقولك زيد عدل بمعنى ذو عدل، أو على معنى منور السماوات والأرض. وفي «القرطبي» واختلف العلماء في تأويل هذه الآية. فقيل: المعنى؛ أي: به وبقدرته أنارت أضواؤهما، واستقامت أمورهما، وقامت مصنوعاتهما. فالكلام على التقريب للذهن، كما يقال: الملك نور أهل البلد؛ أي: به قوام أهلها، وصلاح جملتها، وفلان قمر الزمن، وشمس العصر. ومنه قول النابغة:

فَإِنَّكَ شَمْسٌ وَالْمُلُوكُ كَوَاكِبُ ... إِذَا ظَهَرَتْ لَمْ يَبْقَ مِنْهُنَّ كَوْكَبُ

وقول الآخر:

هَلاَّ قَصَدْتَ مِنَ الْبِلاَدِ لِمُفْضِلٍ ... قَمَرِ الْقَبَائِلِ خَالِدِ بْنِ يَزِيْدِ

ومن ذلك قول الشاعر:

إِذَا سَارَ عَبْدُ اللَّهِ مِنْ مَرْوَ لَيْلَةً ... فَقَدْ سَارَ مِنْهَا نُوْرُهَا وَجَمَالُهَا

وقول الآخر:

نَسَبٌ كَأَنَّ عَلَيْهِ مِنْ شَمْسِ الضُّحَىٰ ... نُوْراً وَمِنْ فَلَقِ الصَّبَاحِ عَمُوْدَا

فيجوز إطلاق النور على الله سبحانه، على طريقة المدح، لكونه أوجد الأشياء المنورة وأوجد أنوارها ونورها.

﴿كَمِشْكَوٰةٍ﴾ المشكاة: الكورة غير النافذة. وقيل: هي الحديدة، أو الرصاصة التي يوضع فيها الزيت. وقيل: هي العمود الذي يوضع على رأسه المصباح. وقيل: ما يعلق فيه القنديل من الحديدة. وفي «القاموس» وشرحه

المشكاة: كل كوة غير نافذة، وكل ما يوضع فيه، أو عليه المصباح. وقيل: المشكاة حبشية معربة، ورسمت بالواو كالصلاة والزكاة.

﴿زُجَاجَةٍ﴾ الزجاج بفتح الزاي وضمها، وكسرها: جسم شفاف يصنع من الرمل والقلى، والإناء: والقطعة منه، زجاجة بتثليث الزاي أيضاً. وأراد به قنديلاً من زجاج صافي أزهر.

﴿مِصْبَاحٌ﴾ المصباح: السراج الضخم الثاقب. ﴿كَوْكَبٌ﴾ والكوكب: كل نجم مضيء. ﴿دُرِّيٌّ﴾؛ أي: مضيء، بضم الدال من غير همز، وبالتشديد منسوب إلى الدرّ، شبه به لصفائه وإضاءته. ويجوز أن يكون أصله الهمز، ولكن خففت الهمزة، وهو فعيل من الدر، وهو دفع الظلمة بضوئه. ويقرأ بالكسر على معنى الوجه الثاني، ويكون على فعيل كسكين وصديق. وفي «المختار» الدرء الدفع، وبابه قطع، وذرأ طلع مفاجأة، وبابه خضع. ومنه كوكب دري كسكيت لشدة توقده وتلألئه، ودري بالضم منسوب إلى الدر. وفيه أيضاً، ومن المجاز درأ الكوكب إذا طلع كأنه يدرأ الظلام، ودرأت النار أضاءت.

﴿وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ﴾؛ أي: يبين الله للناس الأشباه والنظائر. تقريباً للمعقول من المحسوس. اهـ. «بيضاوي».

﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ﴾ قال في «المفردات» أصل البيت: مأوى الإنسان بالليل. ثم قد يقال: من غير اعتبار الليل فيه. وجمعه أبيات وبيوت، لكن البيوت بالمسكن أخص، والأبيات بالشعر. ويقع ذلك على المتخذ من حجر ومدر، ومن صوف ووبر، وبه شبه بيت الشعر، وعبر عن مكان الشيء، بأنه بيته. والمراد بالبيوت هنا: المساجد كلها، لقول ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: المساجد بيوت الله في الأرض، تضيء لأهل السماء، كما تضيء النجوم في الأرض. اهـ.

والإذن في الشيء: الإعلام بإجازته والرخصة فيه. وقال الإمام الراغب: والرفع يقال: تارة في الأجسام الموضوعة إذا أعليتها من مقرها. كقوله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ﴾ وتارةً في البناء إذا طولته كقوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ﴾ وتارةً في الذكر إذا توهته، كقوله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ (٤)﴾.

وتارة في المنزلة إذا شرفتها، كقوله تعالى: ﴿وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ﴾.

﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا﴾ والتسبيح تنزيه الله تعالى، وأصله المرُّ السريع في عبادة الله، فإن السبح المر السريع في الماء، أو في الهواء، ويستعمل باللام وبدونها أيضاً. وجعل عاماً في العبادات قولاً كان أو فعلاً أو نية، أريد به ههنا الصلوات المفروضة، كما ينبيء عنه تعين الأوقات، بقوله تعالى: ﴿بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْأَصَالِ﴾ و(الغدو) في الأصل مصدر، يقال غدا يغدو غدواً من باب سما، أي دخل في وقت الغدوة، وهي ما بين صلاة الغداة وطلوع الشمس. والمصدر لا يقع فيه الفعل فأطلق على الوقت حسبما يشعر اقترانه بالآصال وهو جمع أصيل، وهو العشي؛ أي: من زوال الشمس إلى طلوع الفجر. وقيل: الآصال جمع أصيل، وهو الوقت بين العصر والمغرب، ويجمع أيضاً على أصائل وأصل وأصلان.

﴿لَّا تُلْهِيهِمْ﴾ يقال: ألهاه عن كذا، إذا شغله عما هو أهم. ﴿تِجَٰرَةٌ﴾ قال في «المفردات»: التجارة: التصرف في رأس المال طالباً للربح، وليس في كلامهم تاء بعدها جيم، غير هذه اللفظة. ﴿بَيْعٌ﴾ والبيع إعطاء المثمن وأخذ الثمن، والشراء إعطاء الثمن وأخذ المثمن. كما مرّ.

﴿وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ قال الزجاج: وإنما حذفت الهاء؛ لأنه يقال: أقمت الصلاة إقامة، وكان الأصل إقواماً، ولكن قلبت الواو ألفاً فاجتمعت ألفان فحذفت إحداهما لالتقاء الساكنين، فبقي أقمت الصلاة إقاماً، فأدخلت الهاء عوضاً من المحذوف، وقامت الإضافة هنا في التعويض، مقام الهاء المحذوفة. وهذا إجماع من النحويين. انتهى.

﴿يَخَافُونَ﴾ والخوف: توقع مكروه عن إمارة مظنونة أومعلومة. كما أن الرجاء والطمع توقع محبوب عن إمارة مظنونة أو معلومة، ويضاد الخوف والأمن. ا هـ. من «الروح». ﴿تَتَقَلَّبُ﴾ والتقلب: التصرف والتغير من حال إلى حال، وقلب الإنسان سمي به لكثرة تقلبه من وجه إلى وجه، والبصر يقال: للجارحة الناظرة، وللقوة التي فيها.

﴿كَسَرَابٍ﴾ السراب: ما يشاهد نصف النهار من اشتداد الحر، كأنه ماء

تنعكس فيه البيوت والأشجار وغيرها، ويضرب به المثل في الكذب والخداع. يقال: أخدع من السراب، وسمي سراباً؛ لأنه يسرب؛ أي: يجري كالماء. يقال: سرب الفحل؛ أي: مضى وسار، ويسمى الآل أيضاً. ولا يكون إلا في البرية والحر، فيغتر به الظمآن.

﴿يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ﴾ في «المختار» حسبت زيداً صالحاً، بالكسر أحسبه بالفتح والكسر محسبةً، ومحسبةً بكسر السين وفتحها، وحسباناً بالكسر ظننته. ا هـ. وفي «المصباح» وحسبت زيداً قائماً، أحسبه، ما باب تعب، في لغة جميع العرب، إلا بني كنانة، فإنهم يكسرون المضارع مع كسر الماضي أيضاً على غير قياس، وحسباناً بمعنى ظننت. ا هـ.

﴿ٱلظَّمْـَٔانُ﴾: العطشان؛ أي: وكذا غيره من كل من يراه، وخص الظمآن؛ لأنه أحوج إليه من غيره، فالتشبيه به أتم. ا هـ. «شيخنا». وهو صفة من ظمىء بالكسر يظمأ، والظمىء بالكسر ما بين الشربتين والورودين، والظمأ: العطش الذي يحدث من ذلك. ا هـ. «الروح».

﴿بِقِيعَةٍ﴾ القيعة بمعنى القاع، أو جمع قاع، وهو: المنبسط المستوى من الأرض. وفي «المصباح» والقاع: المستوى من الأرض، والجمع أقواع وقيعان، فصارت الواو ياء لكسر ما قبلها، والقيعة مثل القاع، وهو أيضاً من الواوي، وبعضهم يقول: هو جمع. وقال الهروي: والقيعة جمع القاع، مثل جيرة وجار. وفي «الأساس» هو كسراب بقيعة وبقاع، ونزلوا بسراب قيعان، ولهم قاعة واسعة وهي عرصة الدار، وأهل مكة يسمون سفل الدار القاعة، ويقولون: فلان في العلية، ووضع قماشة في القاعة. وفي «القاموس» و«التاج» ما يفهم منه أن القاع أرض سهلة مطمئنة، قد انفرجت منها الجبال والآكام، ويجمع على أقواع وأقوع، وقيع وقيعان وقيعة.

﴿لُّجِّيٍّ﴾ اللجي العميق الكثير الماء منسوب إلى اللج، وهو معظم البحر، هكذا قال الزمخشري، وقال غيره: منسوب إلى اللجة بالتاء، وهي أيضاً معظمه،

فاللجي هو الماء الكثير العميق.

﴿مِّن فَوۡقِهِۦ سَحَابٌۚ﴾ وأصل السحب الجر، وسمي به السحاب إما لجر الريح أو لجره الماء.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: دخول من الجارة على غض الأبصار، دون الفروج في قوله تعالى: ﴿قُل لِّلۡمُؤۡمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِمۡ وَيَحۡفَظُواْ فُرُوجَهُمۡۚ﴾ إشعاراً بأن باب النظر موسع دون الفرج؛ لأنه ينظر من المحارم ما سوى العورة، بخلاف الفرج، فإنه لا يحل له إلا فرج حليلته.

ومنها: تقديم غض الأبصار على حفظ الفروج إيذاناً بأن النظر بريدة الزنا، ورائده الذي لا يخطىء.

ومنها: الإيجاز بالحذف في قوله: ﴿يَغُضُّواْ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِمۡ﴾؛ لأن المراد عما حرم الله تعالى، لا عن كل شيء، فحذف ذلك أكتفاءً بفهم المخاطبين.

ومنها: المجاز المرسل في قوله: ﴿وَلَا يُبۡدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾؛ لأن المراد منه مواقع الزينة، وهو من باب إطلاق اسم الحال على المحل. قال الزمخشري: وذكر الزينة دون مواقعها للمبالغة في الأمر بالتستر والتصون. وفي قوله: ﴿عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّۖ﴾؛ لأن المراد على أعناقهن، وإلا فهو في الأصل طوق القميص.

ومنها: الاحتراس في قوله تعالى: ﴿إِنۡ أَرَدۡنَ تَحَصُّنٗا﴾ فقد أقحم هذا الاعتراض ليبشع ذلك الإكراه عند المخاطب، ويحذره من الوقوع فيه، ولكي يستيقظ أنه كان ينبغي له أن يأنف من هذه الرذيلة، وإن لم يكن زاجز شرعي ووجه التبشيع عليه أن مضمون الآية النداء عليه، بأن أمته خير منه؛ لأنها آثرت التحصن عن الفاحشة، وهو يأبى إلا إكراهها.

ومنها: إطلاق المصدر على اسم الفاعل، للمبالغة في قوله: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ بمعنى منورهما، عبر عنه بالمصدر، كأنه عين نورهما. قال الشريف الرضي: وفي الآية استعارة على تفسير بعض العلماء. والمراد عندهم أنه هادي أهل السماوات والأرض، بصوادع برهانه، ونواصع بيانه، كما يهتدى بالأنوار الثاقبة والشهب اللامعة.

ومنها: التشبيه المرسل في قوله: ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ الآية. فقد جاء التشبيه هنا بواسطة الأداة، وهي الكاف. والمراد النور الذي شبه به الحق، نور متضاعف قد اجتمع فيه المشكاة والزجاجة، والمصباح، والزيت، حتى لم تبق بقية مما يقوى النور. واختلفوا في هذا التشبيه، هل هو تشبيه تمثيل؛ أي: مركب قصد فيه تشبيه جملة بجملة، من غير نظر إلى مقابلة جزء بجزء، بل قصد تشبيه هداه وإتقانه، صنعته في كل مخلوق على الجملة بهذه الجملة، من النور الذي تتخذونه، وهو أبلغ صفات النور عندكم. أو تشبيه غير تمثيل؛ أي: غير مركب قصد فيه مقابلة جزءٍ بجزءٍ، وأجاز «القرطبي» الوجهين فراجعه.

ومنها: الطباق في قوله: ﴿لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾ وقد تكلم علماء البيان كثيراً عن هذا الطباق، والمقصود منه.

ومنها: التنكير في قوله: ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾ إشعاراً بفخامة شأنه، وبأنه لا أرشق ولا أجمل منه.

ومنها: تشابه الأطراف في هذه الآية، وهو أن ينظر المتكلم إلى لفظة وقعت في آخر جملة من الفقرة في النثر، أو آخر لفظة وقعت في آخر المصراع الأول في النظم، فيبتدىء بها، تأمل في تشابه أطراف هذه الجمل المتلاحقة ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ﴾ ومن أمثلته في الشعر، قول ليلى الأخيلية في الحجاج بن يوسف:

إِذَا نَزَلَ ٱلْحَجَّاجُ أَرْضاً مَرِيضَةً تَتَبَّعَ أَقْصَىٰ دَائِهَا فَشَفَاهَا
شَفَاهَا مِنَ ٱلدَّاءِ ٱلْعُضَالِ ٱلَّذِيْ بِهَا غُلَامٌ إِذَا هَزَّ ٱلْقَنَاةَ سَقَاهَا

سَقَاهَا فَرَوَّاهَا بِشُرْبِ سِجَالُهُ   دِمَاءُ رِجَالٍ يَحْلِبُوْنَ حِرَاهَا

ومنها: الإطناب بذكر الخاص بعد العام، تنويهاً بشأنه في قوله: ﴿عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ﴾؛ لأن الصلاة من ذكر الله تعالى.

ومنها: فن الغلو في قوله: ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾ والغلو: الإفراط في وصف الشيء المستحيل، عقلاً وعادةً، وهو ينقسم إلى قمسين: مقبول وغير مقبول:

القسم الأول: فالمقبول لا بد أن يقربه المتكلم إلى القبول، بأداة التقريب، إلا أن يكون الغلو في مدح النبي ﷺ فلا غلو حينئذٍ. ويجب على المتكلم أن يسبكه في قالب التخيلات، التي تدعو العقل إلى قبولها في أول وهلة، كالآية الكريمة، فإن إضاءة الزيت من غير مس النار مستحيلة عقلاً، ولكن لفظة يكاد قربته فصار مقبولاً.

والقسم الثاني: وهو الغلو غير المقبول، كقول أبي نواس:

وَأَخَفْتَ أَهْلَ ٱلشِّرْكِ حَتَّىٰ أَنَّهُ   لَتَخَافُكَ ٱلنُّطَفُ ٱلَّتِي لَمْ تُخْلَقِ

ومنها: المجاز العقلي في قوله: ﴿يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ﴾ فقد أسند إلى القلوب والأبصار التقلب والاضطراب من الهول والفزع، وحق الإسناد أن يكون لصاحبها.

ومنها: التشبيه التمثيلي الرائع في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍ﴾ إلخ. وكذلك في قوله: ﴿أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ﴾ الآية. ووجه التشبيه، أن الذي يأتي به الكافر من أعمال البر، ويعتقد أن له ثواباً عند الله تعالى، وليس كذلك، فإذا وفى عرصات القيامة، لم يجد الثواب الذي كان يظنه، بل وجد العقاب العظيم، والعذاب الأليم. فعظمت حسرته، وتناهى غمه، فشبه حاله بحال الظمآن، الذي اشتدت حاجته إلى الماء، فإذا شاهد السراب في البر.. تعلق قلبه، فإذا جاءه.. لم يجده شيئاً، فكذلك حال الكافر، يحسب أن عمله نافعة، فإذا احتاج إلى عمله.. لم يجده أغنى عنه شيئاً.

ومنها: العطف على محذوف في قوله: ﴿وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ﴾ فإنه معطوف على مقدر، وليست الجملة معطوفة على ﴿لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا﴾ بل على ما يفهم منه، بطريق التمثيل، من عدم وجدان الكفرة، من أعمالهم المذكورة عيناً، ولا أثراً، كأنه قيل: حتى إذا جاء الكفرة يوم القيامة أعمالهم، التي كانوا في الدنيا يحسبونها نافعةً لهم في الآخرة، لم يجدوها شيئاً، ووجدوا حكم الله وقضاءه لهم بالمرصاد.

ومنها: المبالغة في التشبيه في قوله: ﴿إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا﴾؛ أي: لم يقرب أن يراها. فضلاً عن أن يراها.

ومنها: التقسيم أو التنويع في قوله: ﴿أَوْ كَظُلُمَٰتٍ﴾.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ (٤١) وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ (٤٢) أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن يَشَاءُ ۖ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ (٤٣) يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ (٤٤) وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ ۖ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ أَرْبَعٍ ۚ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٤٥) لَّقَدْ أَنزَلْنَا آيَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ ۚ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٤٦) وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَا أُولَٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ (٤٧) وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ (٤٨) وَإِن يَكُن لَّهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ (٤٩) أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ ۚ بَلْ أُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٥٠) إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٥١) وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ (٥٢) ۞ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ ۖ قُل لَّا تُقْسِمُوا ۖ طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ ۚ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (٥٣) قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا ۚ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (٥٤) وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٥٥) وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٥٦) لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ ۚ وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ ۖ وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ (٥٧)﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما وصف[1] قلوب المؤمنين

---

(١) المراغي.

بالنور والهداية وقلوب الكافرين بالظلمة.. أردف ذلك بذكر دلائل التوحيد وساق منها أربعةً.

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَـٰتٍ مُّبَيِّنَـٰتٍ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه لما ذكر لي الآيات السابقة ما يدل على وجوده من أحوال السماء والأرض والآثار العلوية، وأحوال الحيوان.. ذكر هنا أن هذه وغيرها آيات واضحات، دالة على وجود الخالق المدبر للكون، لا خفاء فيها.

قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ﴾ إلى قوله: ﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَـٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه لما ذكر الأدلة الواضحة على توحيده، وأتم بيانها، ثم ذكر أنه يهدي من يشاء، من عباده إلى صراط مستقيم.. أعقبه بذكر من لم يهتد بها، وهم المنافقون الذين يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم، فيقولون: آمنا بالله وبالرسول، ثم يفعلون ضد ما يقولون. فإذا دعوا ليحكم بينهم الرسول فيما يتنازعون فيه.. أبوا وخافوا أن يحيف عليهم. والمؤمن الصادق الإيمان، إذا ما دعي إلى الله والرسول.. قال: سمعاً وطاعةً.

ثم بين بعض أكاذيبهم التي يراؤون بها، ويدعون الإخلاص فيها، فمنها أنهم يحلفون أغلظ الأيمان أنهم مطيعون للرسول في كل ما يأمرهم به، حتى لو أمرهم بالخروج والجهاد لبوا الأمر سراعاً، ثم أمر الرسول بنهيهم عن الحلف والأيمان؛ لأن طاعتهم معروفة، لا تحتاج إلى يمين، وبأن يقول لهم: أطيعوا الله حقّاً، لا رياءً، فإن أبيتم، فإنما علي التبليغ، وعليكم السمع والطاعة. فإن أطعتموني اهتديتم، وإن توليتم، فقد فعلت ما كلفت به، وعلى الله الحساب والجزاء.

قوله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ...﴾ الآيات. مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه لما بين أن من أطاع الرسول.. فقد اهتدى إلى الحق، ومن اهتدى إلى الحق، فجزاؤه دار النعيم.. أردف ذلك وعده الكريم، بأنه سيجعل المؤمنين المطيعين لله ورسوله، خلفاء في الأرض، ويؤيدهم

بالنصرة والإعزاز، ويبدلهم من بعد خوفهم من العدو أمناً، فيعبدون الله وحده، وهم آمنون. ومن جحد هذه النعم من بعد ذلك.. فقد عصى ربه، وكفر أنعمه.

قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما[1] بشر المؤمنين بأنه سيمكن لهم في الأرض، ويجعل لهم من بعد الخوف أمناً.. أردف ذلك بأمرهم، بإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة شكراً له، على ما أنعم به عليهم. وإحساناً إلى عباده البائسين الفقراء، كما أحسن إليهم بتبديل ذلهم عزةً، وضعفهم قوةً. ثم أعقبه برفع استبعاد تحقق الوعد السابق، مع كثرة عددهم وعُددهم، وبعدئذ ذكر أن مآلهم إلى النار وبئس القرار.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ...﴾ الآية، سبب نزول هذه الآية: ما أخرجه ابن أبي حاتم من مرسل الحسن، قال: كان الرجل إذا كان بينه وبين الرجل الآخر منازعة، فدعي إلى النبي ﷺ وهو محق أذعن وعلم أن النبي ﷺ سيقضي له بالحق، وإذا أراد أن يظلم فدعي إلى النبي ﷺ أعرض. فقال: «انطلق إلى فلان»، فأنزل الله ﴿وَإِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ...﴾ الآية.

قوله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ...﴾ الآية، سبب[2] نزول هذه الآية: ما أخرجه الحاكم بسنده، عن أبي بن كعب ـ رضي الله عنه ـ قال: لما قدم رسول الله ﷺ وأصحابه المدينة، وآوتهم الأنصار، رمتهم العرب عن قوس واحدة، كانوا لا يبيتون إلا بالسلاح، ولا يصبحون إلا فيه، فقالوا: ترون أنا نعيش حتي نكون آمنين مطمئنين، لا نخاف إلا الله، فنزلت: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾ إلى قوله: ﴿وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ يعني بالنعمة ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ هذا حديث صحيح الإسناد لم

---

(١) المراغي. (٢) لباب النقول.

بَعۡدَ ذَٰلِكَ﴾ يعني بالنعمة ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾ هذا حديث صحيح الإسناد لم يخرجاه وأقرّه الذهبي.

التفسير وأوجه القراءة

والاستفهام[1] في قوله: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ للتقرير. والمراد من الرؤية، رؤية القلب. فإن التسبيح الآتي لا يتعلق به نظر البصر؛ أي: قد علمت يا محمد علماً يشبه المشاهدة في القوة واليقين بالوحي، أو الاستدلال، أن الله سبحانه وتعالى، ينزهه على الدوام في ذاته وصفاته وأفعاله، عن كل ما لا يليق بشأنه من نقص، وآفة أهل السماوات والأرض، من العقلاء وغيرهم، وعبر بـ﴿مَن﴾ الموضوعة للعقلاء، تغلباً لهم على غيرهم.

﴿وَٱلطَّيۡرُ﴾ بالرفع عطف على من، جمع طائر، كركب وراكب. والطائر: كل ذي جناح يسبح في الهواء. وتخصيصها بالذكر مع اندراجها في جملة ما في الأرض، لعدم استقرارها قرار ما فيها؛ لأنها تكون بين السماء والأرض غالباً؛ أي: تسبحه تعالى حالة كونها ﴿صَٰٓفَّٰتٖ﴾؛ أي: باسطات أجنحتها في الهواء تصففن. وأصل الصف البسط. ولهذا سمي اللحم القديد صفيفاً؛ لأنه يبسط.

والمعنى: أي[2] ألم تعلم يا محمد، أو أيها المخاطِب، بالدليل أن الله سبحانه ينزهه آناً فآناً، في ذاته وصفاته وأفعاله، جميع ما في السماوات والأرض من العقلاء وغيرهم، تنزيهاً تفهمه أرباب العقول السليمة، إذ كل المخلوقات في وجودها وبقائها، دالة على وجود خالقٍ لها، متصف بصفات الكمال منزه عن صفات النقص. وخصّ التنزيه بالذكر، مع دلالة ما فيهما على اتصافه بجميع أوصاف الكمال، من جراء أن سياق الكلام لتقبيح شأن الكفار الذين أخلوا بالتنزيه، فجعلوا الجمادات شركاء له سبحانه، ونسبوا له اتخاذ الولد إلى نحو أولئك، تعالى ربنا عما يقول الكافرون علواً كبيراً.

---

(١) روح البيان. (٢) المراغي.

كما ذكر الطير، مع دخولها في جملة ما في الأرض، من قبل أنها غير مستقرة فيهما. وكثرة لبثها في الهواء، وهو ليس من السماء ولا من الأرض، ولاستقلالها ببديع الصنع، وإنبائها عن كمال قدرة خالقها، ولطف تدبير مبدعها، فإن منح تلك الأجرام الثقيلة، الوسائل التي تتمكن بها من الوقوف في الجو، وتتحرك كيف تشاء، وإرشادها إلى طريق استعمالها بالقبض والبسط والتحريك يميناً وشمالاً حجة واضحة الدلالة، على كمال قدرة الصانع المجيد، وحكمة المبدع المعيد. وفي ذلك تقريع للكفار، وتوبيخ لهم، حيث جعلوا الجمادات التي من شأنها التسبيح لله سبحانه شركاء له، يعبدونها كعبادته عز وجل.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿وَٱلطَّيْرُ﴾ مرفوعاً عطفاً ﴿مَن﴾، و﴿صَٰٓفَّٰتٍۖ﴾ نصب على الحال وقرأ الأعرج: والطيرَ، بالنصب على أنه مفعول معه، وقرأ الحسن وخارجة عن نافع: والطير صافات برفعهما مبتدأ وخبراً، تقديره: يسبحن. قيل: وتسبيح الطير حقيقي. قاله الجمهور.

﴿كُلٌّ﴾؛ أي: كل واحد من المخلوقات ﴿قَدْ عَلِمَ﴾ هو ﴿صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥۗ﴾؛ أي: دعاءه وتسبيحه، اللذين ألهمهما الله تعالى إياه، فالضمائر[2] كلها عائدة على كل. قيل: والصلاة هنا بمعنى التسبيح، وكرر للتأكيد، والصلاة قد تسمى تسبيحاً. وفائدة الإخبار بأن كل واحد قد علم ذلك أن صدور هذا التسبيح هو عن علم قد علمها الله ذلك وألهمها إليه، لا أن صدوره منها على طريقة الاتفاق بلا روية.

والمعنى: إن[3] كل مصل ومسبح يعلم ما يجب عليه من الصلاة والتسبيح اللذين كلف بهما، وليس بالبعيد أن يلهم الله الطير دعاءه وتسبيحه، كما ألهمها سائر العلوم الدقيقة، التي لا يكاد العقلاء يهتدون إليها.

انظر إلى النحل كيف تبني بيوتها السداسية الأشكال، التي لا يتمكن من

---

(١) البحر المحيط.
(٢) المراح.
(٣) المراغي.

بنائها فطاحل المهندسين، إلا بدقيق الآلات. وإلى العنكبوت، كيف تفعل الحيل اللطيفة، لاصطياد الذباب. وإلى الدب يستلقي في ممر الثور، حتى إذا قرب منه ورام نطحه، شبَّث ذراعيه بقرنيه، ولا يزال ينهش ما بين ذراعيه حتى يثخنه ثم يفترسه. وهذا التسبيح محمول عند البعض على ما كان بلسان المقال، فإنه يجوز أن يكون لغير العقلاء أيضاً تسبيح حقيقة، لا يعمله إلا الله، ومن شاء من عباده. كما في «الكواشي». وقال بعضهم: تسبيح الحيوان والجماد محمول على ما كان بلسان الحال، فإن كل شيء يدل بوجوده وأحواله على وجود صانع واجب الوجود، متصف بصفات الكمال، مقدس عن كل ما لا يليق بشأنه.

وروي عن أبي ثابت قال: كنت جالساً عند محمد بن جعفر الباقر، فقال لي: أتدري ماتقول هذه العصافير عند طلوع الشمس، وبعد طلوعها؟ قلت: لا. قال: فإنهن يقدسن ربهن، ويسألنه قوت يومهن. وقال بعض العلماء: إنا نشاهد أن الله تعالى ألهم الطيور وسائر الحشرات أعمالاً لطيفة يعجز عنها أكثر العقلاء. وهذا دليل على أن الله تعالى يلهمها معرفته ودعاءه وتسبيحه. وقال مجاهد: الصلاة للبشر، والتسبيح لما عداهم.

وقيل: إن الضمير[1] في ﴿قد علم﴾ يعود على الله سبحانه؛ أي: كل مصل منهم ومسبح، قد علم الله سبحانه صلاته وتسبيحه. ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفۡعَلُونَ﴾؛ أي: بما يفعلونه من الطاعة والصلاة والتسبيح، لا يخفى عليه شيء من أفعالهم، طاعتها، ومعصيتها، وعلمه محيط بها، ومجازيهم عليها.

والمعنى على هذا القول أي: كل واحد من هذه المسبحة قد علم الله صلاته له، وتسبيحه إياه. والأول أرجح، لاتفاق القراء على رفع كل. ولو كان الضمير في ﴿علم لله﴾، لكان نصب (كل) أولى. وذكر بعض المفسرين أنها قراءة طائفة من القراء. وقرأ الحسن[2] وعيسى وسلام وهارون عن أبي عمرو ﴿تفعلون﴾ بتاء الخطاب. وفيه وعيد وتخويف لكفرة الثقلين، حيث لا تسبيح لهم

---

(١) المراغي. (٢) البحر المحيط.

طوعاً واختياراً.

ثم بين سبحانه، أن المبدأ منه والمعاد إليه. فقال: ﴿﴿وَلِلَّهِ﴾ سبحانه وتعالى لا لغيره ﴿مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ﴾؛ لأنه الخالق لهما، ولما فيهما من الذوات والصفات، وهو المتصرف في جميعها إيجاداً وإعداماً، إبداءً وإعادةً. ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ﴾ سبحانه خاصة لا إلى غيره ﴿ٱلْمَصِيرُ﴾ والرجوع بالفناء، والبعث بعد الموت، فعلى العاقل أن يعبد هذا المالك القوي، ويسبحه باللسان الصوري والمعنوي.

والمعنى: أن لله سبحانه وتعالى ملك السماوات والأرض، وهو الحاكم المتصرف فيهما إيجاداً وإعداماً، بدءاً وإعادةً، وإليه وحده مصيركم ومعادكم، فيوفيكم أجور أعمالكم التي عملتموها في الدنيا، فأحسنوا عبادته، واجتهدوا في طاعته، وقدموا لأنفسكم صالح الأعمال.

ثم ذكر سبحانه دليلاً آخر على وحدانيته وقدرته من الآثار العلوية، فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا﴾ والاستفهام فيه للتقرير. والرؤية هنا بصرية، والخطاب فيه لمحمد ﷺ، أو لكل ما يصلح للخطاب. والإزجاء: سوق الشيء برفق وسهولة، كما سيأتي. والسحاب: الغيم. سمي به[1] لانسحابه في الهواء؛ أي: انجراره والمراد هنا: قطع السحاب بقرينة إضافة بين إلى ضميره؛ لأنه لا يضاف إلا إلى متعدد. قال كعب الأحبار: السحاب غربال المطر، ولولاه لأفسد المطر ما يقع عليه.

والمعنى: قد رأيت يا محمد، أو أيها المخاطب، رؤية بصرية أن الله يسوق غيماً إلى حيث يشاء.

﴿ثُمَّ يُؤَلِّفُ﴾ سبحانه ويجمع ﴿بَيْنَهُۥ﴾؛ أي: بين أجزائه، فيضم بعضه إلى بعض، ويجمعه بعد تفرقه، فيجعله شيئاً واحداً بعد أن كان قطعا، ليقوى ويتصل ويكثف.

---

(١) روح البيان.

قال الفراء: إن الضمير في بينه راجع إلى جملة السحاب، كما تقول: الشجر قد جلست بينه؛ لأنه جمع وإفراد الضمير باعتبار اللفظ. ا هـ. وقرأ[1] ورش: ﴿يولف﴾ بالواو. وباقي السبعة بالهمز. وهو الأصل.

﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ﴾؛ أي: ثم يجعل سبحانه السحاب ﴿رُكَامًا﴾؛ أي: متراكماً متراكباً مجتمعاً بعضه فوق بعض، فإنه إذا اجتمع شيء فوق شيء، فهو ركوم مجتمع. ﴿فَتَرَى﴾؛ أي: تبصر أيها الناظر ﴿ٱلْوَدْقَ﴾؛ أي: المطر إثر تكاثف السحاب وتراكمه. وجملة قوله: ﴿يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ﴾؛ أي: من ثقبه، حال[2] من الودق؛ لأن الرؤية بصرية. والخلال جمع خلل، كجبال وجبل. وقيل: هو مفرد، كحجاب. وهو فرجة بين الشيئين. والمراد ههنا: مخارج القطر. **والمعنى**: حال كون ذلك الودق، يخرج من أثناء ذلك السحاب، وفتوقه التي حدثت بالتراكم وانعصار بعضه من بعض.

وقرأ ابن مسعود[3] وابن عباس والضحاك وأبو العالية ومعاذ العنبري عن أبي عمرو والزعفراني ﴿من خلله﴾ بالإفراد.

﴿وَيُنَزِّلُ﴾ سبحانه ﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾؛ أي: من الغمام، فإن كل ما علاك سماء، وسماء كل شيء أعلاه. ﴿مِن جِبَالٍ﴾؛ أي: من قطع عظام، تشبه الجبال في العظم كائنة ﴿فِيهَا﴾؛ أي: في السماء، فإن السماء من المؤنثات السماعية. ﴿مِنۢ بَرَدٍ﴾ مفعول (ينزل) على أن ﴿من﴾ تبعيضية، والأوليان لابتداء الغاية، على أن الثانية بدل اشتمال من الأولى بإعادة الجار. والبرد محركةً الماء المنعقد؛ أي: ما يبرد من المطر في الهواء فيصلب، كما في «المفردات».

والمعنى: ويُنزل الله سبحانه مبتدئاً من السماء من جبال كائنة فيها بعض برد. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو ينزل بسكون النون من أنزل، والباقون بفتحها وتشديد الزاي من نزل من باب فعل المضعف. قال بعضهم[4]: إن الله تعالى

---

(١) البحر المحيط.

(٢) روح البيان.

(٣) البحر المحيط.

(٤) روح البيان.

خلق جبالاً كثيرة في السماء، من البرد والثلج، ووكل بها ملكاً من الملائكة، فإذا أراد أن يرسل البرود والثلج على قطر من أقطار الأرض، يأمره بذلك، فثلج هناك ما شاء الله تعالى، بوزن ومقدار في صحبة كل حبة منها ملك يضعها حيث أمر بوضعها.

والمشهور أن الأبخرة إذا تصاعدت ولم تحللها حرارة، فبلغت الطبقة الباردة من الهواء، وقوي البرد.. اجتمعت هناك، وصارت سحاباً، فإن لم يشتد البرد.. تقاطرت مطراً وإن اشتد، فإن وصل إلى الأجزاء البخارية قبل اجتماعها.. نزل برداً. وقد يبرد الهواء برداً مفرطاً، فينقبض وينعقد سحاباً، وينزل منه المطر، أو الثلج، وكل ذلك مستند إلى إرادة الله تعالى ومشيئته المبنية على الحكم والمصالح. وفي «شرح القانون» الفرق بين الدخان والبخار، هو أن تركيب الدخان من الأجزاء الأرضية والنارية، وتركيب البخار من المائية والهوائية. فيكون البخار ألطف من الدخان.

﴿فَيُصِيبُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿بِهِۦ﴾؛ أي: بما ينزل من البرد. والباء للتعدية ﴿مَن يَشَآءُ﴾ من عباده، فيناله ما يناله من ضرر في نفسه وماله، نحو الزرع والضرع والثمرة. ﴿وَيَصْرِفُهُۥ﴾؛ أي: يصرف سبحانه ذلك البرد ويرده ﴿عَن مَّن يَشَآءُ﴾ فيأمن غائلته وضرره. ﴿يَكَادُ﴾ ويقرب ﴿سَنَا بَرْقِهِۦ﴾؛ أي: ضوء برق السحاب، فإن السنا بالقصر بمعنى الضوء، وبالمد بمعنى الرفعة والعلو، والبرق لمعان السحاب. ﴿يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ﴾؛ أي: يخطف الأبصار الناظرة له، ويسلبها من فرط الإضاءة، وسرعة ورودها. فسبحان من يظهر الضد من الضد.

وقرأ الجمهور: ﴿سَنَا﴾ مقصوراً. ﴿بَرْقِهِۦ﴾ مفرداً. وقرأ طلحة بن مصرف ﴿سناء﴾ ممدوداً. ﴿برقه﴾ بضم الباء وفتح الراء جمع برقة بضم الباء. وهي المقدار من البرق، كالغرفة واللقمة، وعنه بضم الباء والراء، أتبع حركة الراء لحركة الباء. كما أتبعت في ظلمات. وأصلها السكون. والسناء بالمد ارتفاع الشأن، كأنه شبه المحسوس من البرق لارتفاعه في الهواء بغير المحسوس من الإنسان، فإن ذلك صيِّب، لا يحس به بصر.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿يَذْهَبُ﴾ بفتح الياء والهاء، وأبو جعفر ﴿يذهب﴾ بضم الياء وكسر الهاء. وخرج ذلك على زيادة الباء؛ أي: يذهب الأبصار، أو على أن الباء، بمعنى من، والمفعول محذوف، تقديره: يذهب النور من الأبصار.

﴿يُقَلِّبُ ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ بالمعاقبة[2] بينهما، أو بنقص أحدهما أو زيادة الآخر، أو بتغيير أحوالهما بالحر والبرد، والظلمة والنور، وغيرها مما يقع فيهما من الأمور التي من جملتها ما ذكر، من إزجاء السحاب، وما يترتب عليه.

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ الذي فصل من الإزجاء إلى التقليب ﴿لَعِبْرَةً﴾؛ أي: لدلالة واضحة على وجود الصانع القديم، ووحدته، وكمال قدرته، وإحاطة عمله بجميع الأشياء، ونفاذ مشيئته، وتنزهه عما لا يليق بشأنه العلي. ﴿لِّأُوْلِى ٱلْأَبْصَٰرِ﴾؛ أي: لأصحاب العقول الكاملة، والبصائر السليمة؛ أي: لكل من يبصر بقلبه، وجارحته.

ويقال: لقوة القلب المدركة: بصيرة وبصر، ولا يكاد يقال: للجارحة بصيرة. كما في «المفردات»، يعني لمن له بصيرة يعبر بها من المذكور إلى معرفة المدبر الحكيم. وسئل سعيد بن المسيب: أي العبادة أفضل؟ قال: التفكر في خلقه، والتفقه في دينه. فعلى العاقل الاعتبار آناء الليل، وأطراف النهار.

وخلاصة معنى الآيتين[3]: أنظر أيها الرسول الكريم، إلى السحاب يسوقه الله بقدرته، أول ما ينشئه، ثم يجمع بين ما تفرق من أجزائه، ثم يجعل بعضه متراكماً فوق بعض، فينزل المطر من فوقه، وحيناً ينزل منه قطعاً كبيرة من البرد، كأنها الجبال فيصيب بما ينزل منه من يشاء من عباده، فيناله الخير والنفع العميم أو الضرر الشديد، إذا كان فوق الحاجة، ويصرفه عمن يشاء أن يصرفه عنه. وإلى ما في هذا السحاب من برق يضيء بشدة وسرعة، حتى ليكاد يخطف الأبصار.

---

(١) البحر المحيط.

(٢) روح البيان.

(٣) المراغي.

وهذا من أقوى الدلائل على كمال القدرة، إذ فيه توليد الضد من الضد. ففيه توليد النار من الماء.

وانظر أيضاً إلى اختلاف الليل والنهار، وتقلبهما بزيادة أحدهما ونقص الآخر، وإلى تغير أحوالهما بالحرارة والبرودة، إن في هذا لعبرة لمن اعتبر، وعظة لمن تأمل فيه، ممن له عقل. فهو واضح الدلالة على أن له مدبراً ومقلباً لا يشبهه شيء. وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «قال الله تعالى: يؤذيني ابن آدم يسب الدهر، وأنا الدهر، بيدي الأمر أقلب الليل والنهار». أخرجه البخاري ومسلم.

﴿وَٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿خَلَقَ﴾ وأوجد ﴿كُلَّ دَآبَّةٍ﴾؛ أي: كل حيوان يدب ويمشي على الأرض، والدابة كل ما يحرك أمامه قدماً، ويدخل فيه الطير. ا هـ من «البحر».

﴿مِّن مَّآءٍ﴾؛ أي[1]: من الماء، الذي هو أحد جزء مادته؛ أي: أحد العناصر الأربعة، على أن يكون التنوين فيه للوحدة الجنسية، فدخل فيه آدم المخلوق من تراب، وعيسى المخلوق من روح، أو خلقها من ماء مخصوص، الذي هو النطفة؛ أي: ماء الذكر والأنثى على أن يكون التنوين للوحدة النوعية، فيكون تنزيلاً للغالب منزلة الكل، إذ من الحيوان ما يتولد لا عن نطفة.

قال في «الكواشي»: تنكير ماء مؤذن أن كل دابة مخلوقة من ماء مختص بها، وهو النطفة، فجميع الحيوان سوى الملائكة والجن مخلوق من نطفة، وتعريف الماء في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾ نظراً إلى الجنس الذي خلق منه جميع الحيوان؛ لأن أصل جميع الخلق من الماء.

وعبارة أبي حيان هنا: فإن قلت: لم نكر الماء هنا، وعرفه في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾؟

---

(١) روح البيان.

قلتُ: لأن المعنى هنا: خلق كل دابة من نوع من الماء مختص بهذه الدابة، أو من ماء مخصوص أو هو النطفة. وهناك قصد أن أجناس الحيوان كلها مخلوقة من هذا الجنس، الذي هو جنس الماء، وهو الأصل الذي هو من العناصر الأربعة.

قالوا: خلق الله ماء فجعل بعضه ريحاً، فخلق منها الملائكة، وجعل بعضه ناراً فخلق منها الجن، وبعضه طيناً فخلق منه آدم، انتهى.

والمعنى على القول الأول؛ أي[1]: والله سبحانه وتعالى خلق كل حيوان يدب على الأرض، من ماء هو جزء مادته، وخص الماء بالذكر من بين ما يتركب منه من المواد لظهور احتياج الحيوان إليه، ولا سيما بعد كمال تركيبه، ولامتزاج الأجزاء الترابية به. ويخرج من هذا العموم الملائكة، فإنهم خلقوا من نور، والجان فإنهم خلقوا من نار.

وعبارة «الجمل» هنا: وهذا بحسب الأغلب في حيوانات الأرض المشاهدة، وإلا فالملائكة خلقوا من النور، وهم أكثر المخلوقات عدداً، والجن خلقوا من النار وهم بقدر تسعة أعشار الإنس، وآدم خلق من الطين، وعيسى خلق من الريح الذي نفخه جبريل في جيب مريم، والدود يخلق من نحو الفاكهة ومن العفونات. ا هـ. «شيخنا».

فإن قلت: لم خص[2] الدابة بالذكر، مع أن غيرها مثلها، كما شمله قوله في سورة الأنبياء: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾؟

قلت: لأن القدرة فيها أظهر وأعجب منها في غيرها. وقرأ[3] الجمهور ﴿خلق﴾ فعلاً ماضياً كل بالنصب. وقرأ حمزة والكسائي وابن وثاب والأعمش ﴿خالق﴾ اسم فاعل مضاف إلى كل.

---

(١) المراغي.

(٢) فتح الرحمٰن.

(٣) البحر المحيط.

ثم فصل سبحانه أقسام الحيوان، مما يدب على وجه الأرض، فقال: ﴿فَمِنْهُم﴾؛ أي: فمن الدواب ﴿مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ﴾ كالحيات والحوت ونحوهما. ولما[1] كانت الدابة تشمل المميز وغير المميز غلب المميز، فأعطى ما وراءه حكمه، كأن الدواب كلهم مميزون. فمن ثمة قال: فمنهم بضمير العقلاء، وإنما قال: يمشي على وجه المجاز، وإن كان حقيقة المشي بالرجل؛ لأنه جمعه مع الذي يمشي على وجه التبع، يعني أن تسمية حركة الحية مثلاً ومرورها مشياً، مع كونها زحفاً للمشاكلة، فإن المشي حقيقة هو قطع المسافة والمرور عليها، مع قيد كون ذلك المرور على الأرجل، وإشارة إلى كمال القدرة، وإنها مع عدم وجود آلة المشي كأنها تمشي. ﴿وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ﴾ كالإنس والطير ﴿وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ﴾ كالأنعام والوحوش والفرس والبغال والحمير. ومنهم من يمشي على أكثر من أربع، كالعقارب والعنكبوت والحيوان، والمعروف بأم أربع وأربعين. وإنما لم يذكر هذا القسم. إما لندوره، أو لأنه عند المشي يعتمد على أربع فقط، أو لدخوله في قوله: ﴿يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ مما ذكر ومما لم يذكر، بسيطاً كان أو مركباً، على ما شاء من الصور والأعضاء، والهيئات والحركات والطبائع، والقوى والأفعال مع اتحاد العنصر بمقتضى مشيئته.

وفي «الإرشاد»: وإنما لم يذكر ما يمشي على أكثر من أربع، كالعناكب ونحوها، من الحشرات لعدم الاعتداد بها. وقال في «فتح الرحمٰن»: إنما تركها؛ لأنها في الصورة كالتي تمشي على أربع، أو لأنها إنما تمشي على أربع منها.

وتذكير[2] الضمير في (منهم)، لتغليب العقلاء، والتعبير عن الأصناف بـ(من)، ليوافق التفصيل الإجمال، وهو (هم) في (منهم)، والترتيب حيث قدم الزاحف على الماشي على رجلين، وهو على الماشي على أربع؛ لأن المشي بلا آلة أدخل في القدرة من المشي على الرجلين، وهو أثبت لها بالنسبة إلى من مشى على أربع. وفي «فتح الرحمٰن» قوله تعالى: ﴿فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ﴾ الآية، فيه

---

(١) النسفي. (٢) روح البيان.

مجاز التغليب، حيث استعمل ﴿من﴾ وهي لمن يعقل في غيره، لوقوعه تفصيلاً لما يعمهما، وهو كل دابة. وفيه أيضاً مجاز التشبيه إذ إسناد ما ذكر إلى الحية، زحف لا مشي، لكنه يشبهه في السير. ا هـ.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ﴾ شاءه ﴿قَدِيرٌ﴾؛ أي: قادر، فيفعل ما يشاء كما يشاء، فلا يمنعه مانع؛ أي: إن الله على إحداث ذلك وخلقه وخلق ما يشاء من الأشياء لذو قدرة تامة، فلا يتعذر عليه شيء أراده. وعلى الجملة فاختلاف هذه الحيوانات في الأعضاء والقوى ومقادير الأبدان والأعمال. والاختلاف لا بد أن يكون بتدبير مدبر حكيم مطلع على أحوالها، وأسرار خلقها، لا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض، ولا في السماء، تعالى الله عما يقول الجاحدون علواً كبيراً.

﴿لَّقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ﴾؛ أي: وعزتي وجلالي لقد أنزلنا عليك يا محمد دلائل واضحات، على طريق الحق والرشاد، لكن لا يصل إلى فهمها إلا من أوتي بصيرة نيرة، وفطرة سليمة تضيء له الفكر، حتى يسير على نهج الحق، ويبتعد عن الغي والضلال.

ومن ثم قال: ﴿وَٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿يَهْدِى﴾ ويرشد ﴿مَن يَشَآءُ﴾ هدايته ﴿إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾؛ أي: إلى طريق سويٍّ لا اعوجاج فيه، موصل إلى الجنة، وإلى رضا الله سبحانه، وهو إخلاص العبادة له وحده، والإنابة إليه.

﴿وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ﴾؛ أي: ويقول هؤلاء المنافقون: صدقنا بالله وبالرسول. قال مقاتل: نزلت هذه الآية في بِشْرٍ المنافق، خاصم يهودياً في أرض، فدعاه إلى كعب بن الأشرف من أحبار اليهود، ودعاه اليهودي إلى النبي ﷺ ثم تحاكما إلى رسول الله ﷺ فحكم لليهودي، فلم يرض المنافق بقضائه عليه السلام، فقال: نتحاكم إلى عمر ـ رضي الله عنه ـ، فلما ذهبا إليه، قال له اليهودي: قضى لي النبي ﷺ فلم يرض بقضائه، فقال عمر للمنافق: أكذلك؟ قال: بلى. فقال: مكانكما حتى أخرج إليكما، فدخل عمر ـ رضي الله عنه ـ بيته، وخرج بسيفه، فضرب به عنق المنافق حتى برد، وقال: هكذا أقضي،

لمن لم يرض بقضاء الله ورسوله ﷺ. فصيغة الجمع للإيذان بأن للقائل طائفةً يساعدونه ويتابعونه في تلك المقالة، كما يقال: بنو فلان قتلوا فلاناً، والقاتل منهم واحد.

﴿وَأَطَعْنَا﴾ هما في الأمر والنهي، والإطاعة فعل يعمل بالأمر لا غير، لأنها الانقياد، وهو لا يتصور إلا بعد الأمر، بخلاف العبادة وغيرها. ﴿ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ﴾ ويعرض عن قبول حكمهما ﴿فَرِيقٌ مِّنْهُم﴾؛ أي: جماعة من القائلين ﴿مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ القول المذكور ﴿وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الذين يدعون الإيمان والإطاعة، ثم يتولى بعضهم الذين يشاركونهم في الاعتقاد والعمل ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ حقيقة؛ أي: بالمؤمنين المخلصين الثابتين على الإيمان، بل هم ممن في قلوبهم مرض، وقد مرنوا على النفاق، يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم.

وخلاصة ذلك: لا يدخل في زمرة المؤمنين من يقول آمنا بالله وبالرسول وأطعنا، ثم يعرض عما تقتضيه الطاعة، ويتجاوز إلى غير المؤمنين.

ثم بين هذا التولي بقوله: ﴿وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾؛ أي: وإذا دعي هؤلاء المنافقون إلى كتاب الله وإلى رسوله ﴿لِيَحْكُمَ﴾ الرسول ﴿بَيْنَهُمْ﴾ فيما اختصموا فيه بحكم الله تعالى. فالضمير في يحكم راجع إلى الرسول؛ لأنه المباشر للحكم، وإن كان الحكم حكم الله حقيقة. وذكر الله لتفخيمه ﷺ والإيذان بجلالة قدره عنده تعالى. ﴿وإذ فريق﴾ وجماعة ﴿مِّنْهُم﴾؛ أي: من المنافقين ﴿مُّعْرِضُونَ﴾ عن قبول الحكم، ومستكبرون عن اتباع حكمه؛ لأنه لا يحكم إلا بالحق.

وقرأ أبو جعفر ليحكم في الموضعين مبيناً للمفعول.

والمعنى: فاجأ فريق منهم الإعراض عن المحاكمة إليه ﷺ لكون الحق عليهم، وعلمهم بأنه عليه السلام يحكم بالحق عليهم، ولا يقبل الرشوة. وهذا شرح للتولي، ومبالغة فيه. وإذا الثانية للفجأة جواب إذا الأولى الشرطية. وهذا أحد الدلائل على أن الجواب لا يعمل في إذا الشرطية، خلافاً للأكثرين من النحاة؛ لأن إذا الفجائية لا يعمل ما بعدها فيما قبلها.

ونحو الآية قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى الطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓاْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِۦ وَيُرِيدُ الشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾﴾.

﴿وإن لم يكن لهم الحق﴾؛ أي: الحكم لهم لا عليهم ﴿يَأْتُوٓاْ إِلَيْهِ﴾؛ أي: إلى الرسول حالة كونهم ﴿مُذْعِنِينَ﴾؛ أي: منقادين لحكمه لجزمهم بأنه يحكم لهم فقوله: ﴿إِلَيْهِ﴾ متعلق بـ﴿يَأْتُوٓاْ﴾؛ لأن الإتيان والمجيء يتعديان بإلى، أو بـ﴿مُذْعِنِينَ﴾؛ لأنه بمعنى مسرعين في الطاعة.

والمعنى[1]: أي وإذا كانت الحكومة لهم لا عليهم.. جاؤوا إلى الرسول مطيعين، لعلمهم بأنه يحكم لهم؛ لأنه لا يحكم إلا بالحق، فإذعانهم لم يكن عن اعتقاد أن حكمه الحق، بل لأنه وافق هواهم، ومن جراء هذا لمَّا خالف الحق قصدهم، عدلوا عنه إلى غيره.

ثم فصل، ما يحتمل أن يكون السبب في عدولهم، عن قبول حكمه ﷺ إذا كان الحكم عليهم، بقوله: ﴿أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ والاستفهام فيه للإنكار والاستقباح لإعراضهم المذكور، وبيان لمنشأة؛ أي: أذلك الإعراض لأنه في قلوبهم مرض؛ أي: نفاق وكفر. ﴿أَمِ﴾ لأنهم ﴿ارْتَابُوٓاْ﴾؛ أي: شكوا في أمر نبوته عليه السلام، مع ظهور حقيقتها ﴿أَمِ﴾ لأنهم ﴿يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ﴾؛ أي: يجورا عليهم في الحكم، ويظلماهم فيه.

وفي «الفتوحات»: والاستفهام[2] في قوله: ﴿أَفِي قُلُوبِهِم﴾ للإنكار لكن النفي المستفاد به لا يتسلط على هذه الأمور الثلاثة؛ لأنها واقعة لهم وقائمة بهم. والواقع لا ينفي وإنما هو متسلط على منشئيتها وسببيتها لإعراضهم؛ أي: ليس منشؤه شيئاً من هذه الثلاثة، بل منشؤه شيء آخر وهو ظلمهم، فبينه بالإضراب الانتقالي بقوله: ﴿بَلْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ الظَّٰلِمُونَ﴾. ا هـ. «شيخنا».

---

(١) المراغي. (٢) جمل.

و﴿أَمِ﴾ في الموضعين منقطعة، تقدر عند الجمهور ببل الإضرابية، وهمزة الاستفهام، تقديره: بل أرتابوا بل أيخافون. ومعنى الاستفهام هنا التقرير والتوقيف والتوبيخ ليقروا بأحد هذه الوجوه التي عليهم في الإقرار؛ إبهاماً عليهم. وهذا التوقيف يستعمل في الأمور الظاهرة، ويبالغ به تارة في الذم وتارة في المدح. ا هـ. «سمين».

ثم أضرب عن الكل، وأبطل منشئيته، وحكم بأن المنشأ شيء آخر من شنائعهم حيث قال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ المعرضون عن حكم الله تعالى. ﴿هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ لأصحاب الحقوق عليهم؛ أي[1]: ليس إعراضهم عن الحكم لواحد من هذه الثلاثة، بل لأنهم هم الظالمون؛ أي: يريدون أن يظلموا من له الحق عليهم، ويتم لهم جحوده، فيأبون المحاكمة إليه ﷺ لعلمهم بأنه عليه الصلاة والسلام يقضي عليهم بالحق.

والحاصل: أنه[2] ليس ذلك الإعراض لشيء مما ذكر.

أما الأولان: فلأنه لو كان الإعراض لشيء منهما لأعرضوا عنه عليه السلام عند كون الحق لهم، ولما أتوا إليه مذعنين لحكمه لتحقق نفاقهم وارتيابهم حينئذٍ أيضاً. وأما الثالث فلانتفائه رأساً، حيث كانوا لا يخافون الحيف أصلاً، لمعرفتهم وتيقنهم أمانته ﷺ، وثباته على الحق، فمناط النفي المستفاد من الإضراب في الأولين هو وصف منشئيتهما في الإعراض فقط، مع تحققهما في نفسهما.

وفي الثالث: هو الوصف مع عدم تحققه في نفسه.

وفي الرابع: هو الأصل والوصف جميعاً.

ومعنى الآية: أي[3] أسبب إعراضهم عن المحاكمة إليه ﷺ أنهم مرضى القلوب بالكفر والنفاق أم سببه أنهم ارتابوا وشكوا في نبوته، عليه السلام على

---

(١) المراح.
(٢) روح البيان.
(٣) المراغي.

ظهور أمرها؟ أم سببه أنهم يخافون أن يجور الله ورسوله عليهم في الحكم؟

وخلاصة ذلك: لا يخرج أمرهم عن أن يكون في القلوب مرض لازم بالكفر والنفاق، أو عروض شك في الدين، أو خوف من أن يجور الله ورسوله عليهم، أيّاً كان الأمر، فهو كفر وضلال، والله عليم بما انطوت عليه قلوبهم من المرض.

ثم أبطل السببين الأولين، وأثبت الثالث، فقال: ﴿بَلْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾؛ أي: ليس العدول إلا للسبب الأول فحسب، فهم ما عدلوا إلا لما في قلوبهم من المرض والنفاق، وظلمهم لأنفسهم بمخالفة أمر ربهم، ومعصيتهم له فيما أمرهم به، من الرضا بحكم رسوله ﷺ فيما أحبوا وكرهوا، والتسليم لقضائه.

وبعد أن نفى عنهم الإيمان الحق، بين صفات المؤمن الكامل، فقال: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ بالنصب، على أنه خبر ﴿كَانَ﴾ وأن وما في حيزها اسمها. ﴿إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾؛ أي: إلى كتابه ﴿وَرَسُولِهِۦ﴾؛ أي: وإلى سنة رسوله ﷺ ﴿لِيَحْكُمَ﴾ الرسول ﴿بَيْنَهُمْ﴾ وبين خصومهم، سواء كانوا منهم أو من غيرهم ﴿أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا﴾ الدعاء وأجبناه ﴿وَأَطَعْنَا﴾ أمرهما بالإجابة، والقبول، والطاعة موافقة الأمر طوعاً، وهي تجوز لله ولغيره، كما في «فتح الرحمٰن».

وقرأ الجمهور[١]: قول المؤمنين بالنصب على أنه خبر كان، وأن يقولوا اسمها، وهذا أقوى صناعةً؛ لأن الأولى جعل الأعرف اسم كان، وأن يقولوا أوغل في التعريف؛ لأن الفعل المصدَّر بأن لا سبيل إلى تنكيره، بخلاف قول المؤمنين، فإنه يجوز تنكيره، بعزل الإضافة عنه.

والمعنى: إنما كان قول المؤمنين المخلصين عند الدعوة خصوصية، قولهم: سمعنا وأطعنا.

وقرأ علي[٢] وابن أبي إسحاق والحسن قول المؤمنين بالرفع، وهذا أفيد

---

(١) المراح.
(٢) المراح.

بحسب المعنى، لأن محط الفائدة هو الخبر، فالأحق بالخبرية ما هو أكثر فائدة، وأظهر دلالة على الحديث.

والمعنى: إنما كان مطلق القول الصادر عن المؤمنين خصوصيةً قولهم: سمعنا وأطعنا، لا قولاً آخر. وهذا تعليم أدب الشرع، بمعنى أنَّ ما يجب أن يسلك المؤمنون هكذا.

وقرأ أبو جعفر[1] والجحدري وخالد بن إلياس: ﴿ليحكم بينهم﴾، مبنياً للمفعول، والمفعول الذي لم يسم فاعله، هو ضمير المصدر؛ أي: ليحكم هو؛ أي: الحكم.

والمعنى: ليفعل الحكم بينهم. ومثله قولهم: جمع بينهما، وألف بينهما. وقوله تعالى: ﴿وحيل بينهم﴾.

﴿وَأُولَٰئِكَ﴾ المنعوتون بما ذكر من النعت الجميل ﴿هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾؛ أي: الناجون من غضب الله وسخطه، ومن عذاب النار، وبعد أن رتب الفلاح على هذا النوع، من الطاعة، أتبعه ببيان أن كل طاعة لله ورسوله موجبة للفوز. فقال: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ بامتثال ما أمرا به، واجتناب ما نهيا عنه كائناً من كان ﴿وَيَخْشَ ٱللَّهَ﴾ على ما مضى من ذنوبه، أن يكون مأخوذاً بها، فيحمله ذلك على الطاعة وترك المعاصي. ﴿وَيَتَّقْهِ﴾ فيما بقي من عمره بامتثال الأوامر، واجتناب النواهي.

وأصله[2]: يتقيه، فحذف الياء للجزم فصار يتقه بكسر القاف والهاء. ثم سكن القاف تخفيفاً على خلاف القياس؛ لأن ما هو على صيغة فعل إنما يسكن عينه إذا كانت كلمة واحدة، نحو كَتْفٍ في كَتِف فسُكِّن وسطه، كما سُكِّن وسط كَتْفٍ.

---

(١) البحر المحيط.

(٢) روح البيان.

﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ الموصوفون بالطاعة والخشية والاتقاء ﴿هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ بالنعيم المقيم. والخلود في جنات النعيم، والتقلب في رضا المولى الكريم، لا من عداهم. وهذه الآية على إيجازها حاوية لكل ما ينبغي للمؤمنين أن يفعلوه. وإنما فسرنا الفلاح فيما سبق بالنجاة والفوز هنا بالنعيم؛ لأن باب التخلية مقدم على باب التحلية، ولأنه المناسب لسياق الكلام.

وقرأ حفص[١] ﴿وَيَتَّقْهِ﴾ بإسكان القاف وكسر الهاء، باختلاس على نية الجزم، إجراء للمعتل مجرى الصحيح على لغة من قال: لم أر زيداً بإسكان الراء. ولم أشتر طعاماً، بإسكانها أيضاً. يسقطون الياء للجازم، ثم يسكنون الحرف الذي قبلها. ومنه قول الشار: قالت سليمى اشتر لنا دقيقاً.

وقرأ الباقون بكسر القاف؛ لأن جزم هذا الفعل بحذف آخره، ولكن قرأ ابن كثير وحمزة والكسائي وورش عن نافع: ﴿ويتقهي﴾ بياء موصولة. وقرأ قالون عن نافع: ﴿ويتقه﴾ بكسر الهاء، لا يصل بها الياء. وقرأ أبو عمرو وابن عامر وأبو بكر عن عاصم ﴿ويتقه﴾ بإسكان الهاء.

ثم حكى سبحانه عن المنافقين أنهم لما كرهوا حكمه.. أقسموا بأنه لو أمرهم بالخروج إلى الغزو لخرجوا، فقال: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ﴾؛ أي: أقسم المنافقون، وحلفوا بالله سبحانه وتعالى ﴿جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ﴾؛ أي: أقصى مراتب اليمين، وغايتها ونهايتها في الوكادة والشدة. قيل[٢]: جهد اليمين أن يحلف بالله ولا يزيد على ذلك شيئاً. وقيل: بتعداد أسماء الله وصفاته. وأصله من القسامة، وهي أيمان تقسم على المتهمين في الدم، ثم صار اسماً لكل حلف. والجهد بالفتح: الطاقة. والأيمان جمع يمين، واليمين في اللغة: القوة. وفي الشرع: تقوية أحد طرفي الخبر بذكر الله. قال الإمام الراغب: اليمين في الحلف مستعار من اليد، اعتباراً بما يفعله المجاهد والمعاهد عنده من المصافحة.

---

(١) الشوكاني وزاد المسير.

(٢) الخازن.

قال في «الإرشاد»[1]: جهد أيمانهم، نصب على أنه مصدر مؤكد لفعله المحذوف الذي هو في حيز النصب، على أنه من فاعل أقسموا؛ أي: أقسموا بالله تعالى يجهدون أيمانهم جهداً. ومعنى جهد اليمين: بلوغ غايتها بطريق الاستعارة من قولهم: جهد نفسه إذا بلغ أقصى وسعها وطاقتها؛ أي: أقسموا جاهدين بالغين أقصى مراتب اليمين في الشدة والوكادة، فمن قال: أقسم بالله، فقد جهد يمينه. ومعنى الاستعارة: أنه لما لم يكن لليمين وسعٌ وطاقةٌ، حتى يبلغ المنافقون أقصى وسع اليمين، وطاقتها، كان أصله، يجهدون أيمانهم جهداً، ثم حذف الفعل، وقدم المصدر، فوضع موضعه مضافاً إلى المفعول، نحو فضرب الرقاب، انتهى.

وقيل: هو منتصب على الحال، والتقدير: مجتهدين في أيمانهم، كقولهم: افعل ذلك جهدك وطاقتك جاهداً. ﴿لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ﴾؛ أي: بالخروج إلى الغزو، فإنهم كانوا يقولون لرسول الله ﷺ: أينما كنت تكن معك، ولئن خرجت خرجنا معك، وإن أقمت أقمنا، وإن أمرتنا بالجهاد جاهدنا.

﴿لَيَخْرُجُنَّ﴾ إلى الغزو جواب لأقسموا؛ لأن اللام الموطئة للقسم في قوله: ﴿لئن أمرتهم﴾ جعلت ما يأتي بعد الشرط المذكور جواباً للقسم، لا جزاء للشرط. وكان جزاء الشرط مضمراً، مدلولاً عليه بجواب القسم، وجواب القسم وجزاء الشرط، لما كانا متماثلين، اقتصر على جواب القسم، على القاعدة المشهورة عندهم، عند اجتماع القسم والشرط.

والمعنى: أي[2] وحلفوا بالله جاهدين أيمانهم بالغين غايتها، لئن أمرتهم بالخروج للجهاد، والغزو.. ليلبن الطلب، وليخرجن كما أمرت.

والخلاصة: أنهم أغلظوا الأيمان، وشددوها في أن يكونوا طوع أمرك ورهن إشارتك، وقالوا: أينما كنت نكن معك، فإن أقمت أقمنا، وإن أمرتنا بالجهاد جاهدنا، فرد الله عليهم وزجرهم عن التفوه بهذه الأيمان الفاجرة، وأمره

(١) روح البيان.
(٢) المراغي.

أن يقول بهم بقوله: ﴿قُل﴾ يا محمد، لهؤلاء المنافقين ﴿لَّا تُقْسِمُواْ﴾؛ أي: لا تحلفوا بالله، على ما تدعون من الطاعة والخروج إلى الجهاد، إن أمرتم به. وها هنا تمّ الكلام، ثم ابتدأ فقال: ﴿طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ﴾ وارتفاع طاعة على أنها خبر لمبتدأ محذوف. والجملة[1] تعليل للنهي المذكور؛ أي: لا تقسموا؛ لأن طاعتكم نفاقية، واقعة باللسان فقط، من غير مواطأة من القلب، وإنما عبر عنها بمعروفة، للإيذان بأن كونها كذلك مشهور معروف لكل أحد. كذا في «الإرشاد».

ويجوز أن يكون طاعة مبتدأ خبرها محذوف؛ لأنها قد خصصت بالصفة.

والمعنى: طاعة معروفة بالإخلاص وصدق النية خير لكم، وأمثل من قسمكم باللسان؛ فالمطلوب منكم هي، لا اليمين الكاذبة المنكرة.

وفي «التأويلات النجمية»: ﴿قُل لَّا تُقْسِمُواْ﴾ بالكذب قولاً، بل أطيعوا فعلاً. فإنه ﴿طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ﴾ بالأفعال غير دعوى القيل والقال. وقرأ زيد بن علي واليزيدي ﴿طَاعَةً﴾ بالنصب على المصدر لفعل محذوف؛ أي: أطيعوا طاعة. ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من الأعمال، وما تضمرونه من المخالفة، لما تنطق به ألسنتكم، ومطلع[2] على سرائركم، ففاضحكم ومجازيكم عليه. والتفت من الغيبة إلى الخطاب؛ لأنه أبلغ في تبكيتهم، ولمّا بكتهم بأنه مطلع على سرائرهم تلطف بهم، فأمرهم بطاعة الله، وطاعة الرسول، وهو أمر عام للمنافقين وغيرهم، فقال: ﴿قُل﴾ لهم يا محمد ﴿أَطِيعُواْ اللَّهَ﴾ سبحانه بأداء تكاليفه ﴿وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ﴾ باتباعه طاعةً ظاهرة وباطنةً بخلوص اعتقاد، وصحة نية.

وهذا التكرير منه تعالى[3]، لتأكيد وجوب الطاعة عليهم، فإن قوله: ﴿لَّا تُقْسِمُواْ طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ﴾ في حكم الأمر بالطاعة. وقيل: إنهما مختلفان.

فالأول: نهي بطريق الرد، والتوبيخ. والثاني: أمر بطريق التكليف لهم والإيجاب عليهم.

---

(١) روح البيان.

(٢) البحر المحيط.

(٣) الشوكاني.

ثم أكد الأمر السابق، وبالغ في إيجاب الامتثال به، والحمل عليه بالترغيب والترهيب بقوله: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾ خطاب للمأمورين، وأصله، فإن تتولوا، فحذف إحدى التاءين تخفيفاً؛ أي: فإن تتولوا وتعرضوا عن هذه الطاعة، إثر ما أمرتم بها، وجواب الشرط قوله: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْهِ﴾؛ أي: فاعلموا إنما عليه ﷺ ﴿مَا حُمِّلَ﴾؛ أي: ما كلف، وأمر به من تبليغ الرسالة، وقد فعل ﴿وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ﴾؛ أي: ما أمرتم به من الإجابة والطاعة. ولعل[1] التعبير هنا بالتحمل للإشعار بثقله، وكونه مؤونة وكلفة باقية في عهدتهم بعد، كأنه قيل: وحيث توليتم عن ذلك، فقد بقيتم تحت ذلك الحمل الثقيل، فهو وعيد لهم. وقيل: جواب الشرط محذوف، تقديره: فلا ضرر عليه. وقوله تعالى: ﴿فإنما عليه...﴾ إلخ. تعليل لهذا المحذوف.

والمعنى: أي فإن[2] تتولوا عن الطاعة، بعد أن أمركم الرسول بها.. فما ضررتم الرسول بشيء، بل ضررتم أنفسكم؛ لأنه عليه ما أمر به، من تبليغ الرسالة، وقد فعل، وعليكم ما أمرتم به من الطاعة، فإن أنتم لم تفعلوا وتوليتم.. فقد عرضتم أنفسكم لسخط الله وعذابه، وإن أطعتموه.. فقد خرجتم من الضلال إلى الهدى، فالنفع والضرر عائدان إليكم.

﴿وَإِن تُطِيعُوهُ﴾؛ أي: وإن تطيعوا الرسول فيما أمركم به من الطاعة.. ﴿تَهْتَدُوا﴾ إلى الحق الذي هو المقصد الأسنى، الموصل إلى كل خير، والمنجي من كل شر. وتأخيره[3] عن بيان حكم التولي، لما في تقديم الترهيب من تأكيد الترغيب، وجملة قوله: ﴿وَمَا عَلَى الرَّسُولِ﴾ محمد ﷺ. ويبعد أن يحمل على الجنس، كما في «الشوكاني»؛ لأنه أعيد معرفاً. ﴿إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ مقررة لما قبلها؛ أي: ما عليه إلا التبليغ الموضح لكل ما يحتاج إلى الإيضاح، وقد فعل، وإنما بقي ما حملتم، فإن أديتم فلكم، وإن توليتم فعليكم.

والمعنى: أي وإن تطيعوا الرسول فيما أمركم به ونهاكم عنه.. تهتدوا إلى

---

(١) روح البيان.
(٢) المراغي.
(٣) روح البيان.

الحق الموصل إلى كل خير، المنجي من كل شر، وما الرسول إلا ناصح، وهاد ومبلغ لكم، فإن أطعتموه لحظوظ أنفسكم أصبتم طريق الصواب، وإن خالفتموه. . أوقعتم أنفسكم في الهلكة.

والخلاصة: أن الرسول فعل ما يجب عليه من أداء الرسالة، وقد بقي عليكم أن تفعلوه. ونحو الآية قوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ﴾ وقوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾﴾.

قيل: يجوز[1] أن يكون قوله: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟﴾ ماضياً، وتكون الواو لضمير الغائبين، وتكون هذه الجملة الشرطية مما أمر به رسول الله ﷺ أن يقول لهم، ويكون في الكلام التفات من الخطاب إلى الغيبة. والأول أرجح، ويؤيده الخطاب في قوله تعالى: ﴿وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ﴾ وفي قوله تعالى: ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا۟﴾ ويؤيده أيضاً قراءة البزي ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟﴾ بتشديد التاء، وإن كانت ضعيفة، لما فيها من جمع الساكنين.

﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ الخطاب لعامة الكفرة. و(من) تبعيضية، أو له ﷺ ولمن معه من المؤمنين. و(من) بيانية؛ أي: الذين هم أنتم. وتوسيط الظرف بين المعطوفين لإظهار أصالة الإيمان. والمفعول الثاني محذوف، تقديره: الاستخلاف في الأرض، وتمكين دينهم، وتبديل خوفهم بالأمن.

وأما قوله: ﴿لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ فهو جواب لقسم محذوف، تقديره: وعدهم الله، وأقسم ليستخلفنهم في الأرض. وهذا الجواب، دال على المفعول المحذوف، أو جواب للوعد، بتنزيل وعده تعالى منزلة القسم لتحقق إنجازه لا محالة.

وهذه الجملة مقررة لما قبلها، من أن طاعتهم لرسول الله ﷺ سبب لهدايتهم، وهذا وعد من الله سبحانه لمن آمن بالله وعمل الأعمال الصالحات،

---

(١) الشوكاني.

بالاستخلاف لهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم من الأمم، وهو وعد يعم جميع الأمة.

وقيل: هو خاص بالصحابة، ولا وجه لذلك، فإن الإيمان وعمل الصالحات لا يختص بهم، بل يمكن وقوع ذلك من كل واحد من هذه الأمة، ومن عمل بكتاب الله وسنة رسوله.. فقد أطاع الله تعالى ورسوله ﷺ. وقد أبعد من قال: إنها مختصة بالخلفاء الأربعة، أو بالمهاجرين، أو بأن المراد بالأرض أرض مكة، وقد عرفت أن الاعتبار بعموم اللفظ، لا بخصوص السبب. وظاهر قوله: ﴿كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ كل من استخلفه الله سبحانه في أرضه، فلا يخص ذلك ببني إسرائيل، ولا أمة من الأمم دون غيرها.

والمعنى: وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات استخلافهم في الأرض وتمكين دينهم وتبديل خوفهم بالأمن. وأقسم سبحانه: وعزتي وجلالي، ليجعلنهم خلفاء في الأرض، متصرفين فيها تصرف الملوك في ممالكهم، استخلافاً كائناً، كاستخلاف الذين من قبلهم، وهم بنو إسرائيل، استخلفهم الله في مصر والشام، بعد إهلاك فرعون والجبابرة. وظاهر الآية العموم كما مر آنفاً.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿كَمَا ٱسْتَخْلَفَ﴾ بفتح الفوقية على البناء للفاعل. وقرأ عيسى بن عمر وأبو بكر والمفضل عن عاصم بضمها على البناء للمفعول وكسر اللام، فالموصول مرفوع.

وجملة قوله: ﴿وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ﴾ معطوفة على ليستخلفنهم، داخلة تحت حكمه، كائنة من جملة الجواب. والمراد بالتمكين هنا، التثبيت والتقرير؛ أي: يجعله الله ثابتاً مقرراً، ويوسع لهم في البلاد، ويظهر دينهم على جميع الأديان. والمراد بالدين هنا الإسلام؛ أي: وليثبتن الله لهم دينهم الذي اختار لهم، ويجعلنه مقرراً ثابتاً، بحيث يستمرون على العمل بأحكامه من غير منازع.

---

(١) الشوكاني.

قال في «التأويلات النجمية»: يعني[1] يمكن كل صنف من الخلفاء حمل أمانته التي ارتضى لهم من أنواع مراتب دينهم، فإنهم أئمة أركان الإسلام، ودعائم الملة الناصحون لعباده، الهادون من يسترشد في الله حفاظ الدين. وهم أصناف: قوم حفاظ أخبار الرسول عليه السلام، وحفاظ القرآن، وهم بمنزلة الخزنة. وقوم هم علماء الأصول من الرادّين على أهل العناد، أصحاب البدع بواضح الأدلة، غير مخلطين الأصول بعلوم الفلاسفة وشبههم، فإنها مهلكة عظيمة، لا يسلم منها إلا العلماء الراسخون، والأولياء القائمون بالحق، وهم بطارقة الإسلام وشجعانه. وقوم هم الفقهاء، الذين إليهم الرجوع في علوم الشريعة من العبادات وكيفية المعاملات، وهم في الدين بمنزلة الوكلاء، والمتصرفين في الملك.

وذكر سبحانه وتعالى الاستخلاف لهم أولاً، وهو جعلهم ملوكاً، وذكر التمكين ثانياً، فأفاد ذلك أن هذا الملك ليس على وجه العروض والطروّ، بل على وجه الاستقرار والثبات، بحيث يكون الملك لهم ولعقبهم من بعدهم.

وجملة ﴿وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗاۚ﴾ معطوفة على التي قبلها؛ أي: وليجعلن لهم مكان ما كانوا فيه من الخوف من الأعداء أمنا، ويذهب عنهم أسباب الخوف الذي كانوا فيه، بحيث لا يخشون إلا الله سبحانه، ولا يرجون غيره، وقد كان المسلمون قبل الهجرة وبعدها بقليل في خوف شديد من المشركين، لا يخرجون إلا في السلاح، ولا يمسون ويصبحون إلا على ترقب لنزول المضرة بهم من الكفار، ثم كانوا في غاية الأمن والدعة، وأذل الله لهم شياطين المشركين وفتح عليهم البلاد، ومهد لهم في الأرض، ومكنهم منها، فللّه الحمد.

وقال أبو العالية[2]: لما أظهر الله عز وجل رسوله ﷺ على جزيرة

---

(١) روح البيان.

(٢) البحر المحيط.

العرب.. وضعوا السلاح، وآمنوا، ثم قبض الله نبيه ﷺ فكانوا آمنين كذلك في إمارة أبي بكر وعمر وعثمان حتى وقعوا فيما وقعوا فيه وكفروا بالنعمة، فأدخل الله عليهم الخوف، فغيروا، فغير الله ما بهم.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿وَلَيُبَدِّلَنَّهُم﴾ بالتشديد من بدل المضعف، واختارها أبو عبيد. وقرأ ابن كثير وابن محيصن ويعقوب وأبو بكر والحسن بالتخفيف من أبدل. واختارها أبو حاتم، وهما لغتان. وزيادة البناء تدل على زيادة المعنى. فقراءة التشديد أرجح من قراءة التخفيف. قال النحاس: وزعم أحمد بن يحيى ثعلب أن بين التخفيف والتشديد فرقاً، وأنه يقال: بدلته؛ أي: غيرته، وأبدلته أزلته، وجعلت غيره. قال النحاس: وهذا القول صحيح.

والمعنى: أي[2] وعد الله المؤمنين منكم المصلحين لأعمالهم ليورثنهم أرض المشركين من العرب والعجم، وليجعلنهم ملوكها وساستها كما استخلف بني إسرائيل بالشام حين أهلك الجبابرة، وجعلهم ملوكها وسكانها. وقد وفى سبحانه بوعده، فإنه لم يمت عليه الصلاة والسلام حتى فتح الله عليه مكة وخيبر والبحرين وسائر جزيرة العرب، وأخذ الجزية من مجوسي هجر، ومن بعض أطراف الشام، وهاداه هرقل ملك الروم، والمقوقس في مصر، والنجاشي ملك الحبشة.

ولما قُبض ﷺ إلى الرفيق الأعلى.. قام بالأمر بعده الخلفاء الراشدون، فنهجوا منهجه، وملكوا خزائنهم، واستعبدوا أبناء القياصرة، وصدق قول رسوله ﷺ: «إن الله زوى لي الأرض، فرأيت مشارقها ومغاربها، وسيبلغ أمتي ما زوي لي منها».

﴿وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ﴾؛ أي: وليجعلن دين الإسلام راسخاً قوياً مقرراً، ثابت القدم، ويعظم أهله في نفوس أعدائه، الذين يواصلون الليل بالنهار، في التدبير لإطفاء أنواره، لتعفوا آثاره. ﴿وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾؛

(١) الشوكاني. (٢) المراغي.

أي: وليغيرن حالهم من الخوف إلى الأمن. قال الربيع بن أنس: كان النبي ﷺ وأصحابه بمكة نحواً من عشر سنين يدعون إلى الله وحده، وإلى عبادته وحده لا شريك له، وهم خائفون لا يؤمرون بالقتال، حتى أمروا بعد الهجرة إلى المدينة، فقدموها، فأمرهم الله سبحانه بالقتال، فكانوا بها خائفين، يمسون في السلاح، ويصبحون في السلاح، فصبروا على ذلك ما شاء الله تعالى، ثم إن رجلاً من الصحابة قال: يا رسول الله، أبد الدهر نحن خائفون هكذا، أما يأتي علينا يوم نأمن فيه، ونضع عنا السلاح؟ فقال رسول الله ﷺ: «لن تصبروا إلا يسيراً، حتى يجلس الرجل منكم في الملأ العظيم، محتبياً ليس فيه حديدة» فأنزل الله ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ﴾ إلى آخر الآية. ونحو الآية قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾﴾.

وجملة ﴿يَعْبُدُونَنِى﴾ في محل النصب حال من ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ لتقييد الوعد بالثبات على التوحيد؛ أي: وعد الله الذين آمنوا بالاستخلاف والتمكين، حالة كونهم مستمرين على عبادتي وتوحيدي. ويجوز أن تكون مستأنفة مسوقة للثناء عليهم.

وجملة ﴿لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا﴾ حال من الواو في ﴿يَعْبُدُونَنِى﴾؛ أي: يعبدونني[1] حالة كونهم غير مشركين بي في العبادة شيئاً من الأشياء.

وقيل معناه: لا يراؤون بعبادتي أحداً، وقيل معناه: لا يخافون غيري، وقيل معناه: لا يحبون غيري.

﴿وَمَن كَفَرَ﴾ وارتد ﴿بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾؛ أي: بعد ذلك الوعد الصحيح، أو من استمر على الكفر، ولم يتأثر بما مر من الترغيب والترهيب، فإن الإصرار[2] عليه بعد مشاهدة دلائل التوحيد كفر مستأنف، زائد على الأصل، أو من كفر هذه النعمة العظيمة بعد ذلك الوعد الصحيح. ﴿فَأُو۟لَـٰٓئِكَ﴾ الكافرون لهذه النعم ﴿هُمُ﴾

---

(١) الشوكاني. (٢) روح البيان.

لا غيرهم ﴿ٱلْفَٰسِقُونَ﴾؛ أي: الكاملون في الفسق والخروج عن الطاعة، وفي الطغيان حدود الكفر.

قال المفسرون: أول من كفر بهذه النعمة وجحد حقها الذين قتلوا عثمان ـ رضي الله عنه ـ فلما قتلوه غير الله ما بهم من الأمن، وأدخل عليهم الخوف الذي رفع عنهم، حتى صاروا يقتتلون بعد أن كانوا إخواناً متحابين. والله تعالى لا يغير نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم. وفي الحديث: «إذا وضع السيف في أمتي، لا يرفع عنها إلى يوم القيامة».

وجملة قوله: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ معطوفة[1] على مقدر يدل عليه السياق، كأنه قيل لهم: فآمنوا واعملوا صالحاً، وأقيموا الصلاة إلخ. وقيل: معطوف على ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ﴾. وقيل: التقدير: فلا تكفروا، وأقيموا الصلاة؛ أي: أدوا الصلوات الخمس في مواقيتها بأركانها وشروطها وآدابها، وأعطوا الزكاة المفروضة في أموالكم إلى مستحقيها.

﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ﴾؛ أي: اتبعوا الرسول محمد ﷺ، فيما أمركم به ونهاكم عنه، فهو من باب التكميل. ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾؛ أي: لكي تنالوا رحمة الله سبحانه في الدنيا والآخرة؛ أي: افعلوا ما ذكر من الإقامة والإيتاء والإطاعة، راجين أن يرحمكم الله سبحانه وتعالى بسبب امتثالكم هذه المأمورات. فهو متعلق بالأوامر الثلاثة. وكرر الأمر بطاعة الرسول للتأكيد، وخصه بالطاعة لأن طاعته طاعة الله تعالى. ولم يذكر ما يطيعونه فيه لقصد التعميم، كما يشعر به الحذف، على ما تقرر في علم المعاني، من أن مثل هذا الحذف مشعر بالتعميم.

﴿لَا تَحْسَبَنَّ﴾ يا محمد، أو يا من يصلح للخطاب كائناً من كان ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ مفعول أول للحساب. ﴿مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾[2]؛ أي: معجزين لله عن إدراكهم وإهلاكهم في قطر من الأقطار بما رحبت، فائتين عنه، وإن هربوا منها

---

(١) الشوكاني.
(٢) روح البيان.

كل مهرب ﴿وَمَأْوَىٰهُمُ﴾؛ أي: مسكنهم ومقرهم في الآخرة ﴿النَّارُ﴾؛ أي: نار جهنم.

والجملة الاسمية معطوفة على جملة النهي بتأويلها بجملة خبرية؛ أي: لا تحسبن الذين كفروا معجزين في الأرض، فإنهم مدركون، ومأواهم النار. ﴿وَلَبِئْسَ﴾ وقبح ﴿الْمَصِيرُ﴾ والمرجع لهم النار. والجملة جواب لقسم محذوف. والمخصوص بالذم محذوف؛ أي: وعزتي وجلالي لبئس المصير، والمرجع لهم. هي؛ أي: النار.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ﴾ بالتاء الفوقية؛ أي: لا تحسبن يا محمد. وقرأ حمزة وابن عامر وأبو حيوة ﴿لا يحسبن﴾ بالياء التحتيَّة، فيكون الموصول فاعلاً على هذه القراءة والمفعول الأول محذوف، أي لا يحسبن الذين كفروا أنفسهم معجزين في الأرض. قال النحاس: وما علمت أحداً بصرياً، ولا كوفياً إلا وهو يخطىء قراءة حمزة.

وفي الآية[2]: إشارة إلى كفران النعمة، فإن الذين أنفقوا النعمة في المعاصي، وغيروا ما بهم من الطاعات مأواهم نار القطيعة. قال علي - رضي الله عنه -: أقل ما يلزمكم لله أن لا تستعينوا بنعمه على معاصيه.

ومعنى الآيتين[3]: وأقيموا أيها الناس الصلاة على الوجه الذي رسمه الله في مواقيتها، ولا تضيعوها، وآتوا الزكاة التي فرضها الله على أهلها، لما فيها من الإحسان إلى الفقير والمسكين وذوي البؤس والحاجة، وأطيعوا رسول ربكم فيما أمركم به، ونهاكم عنه، لعل ربكم أن يرحمكم فينجيكم من شديد عذابه، ثم بين أن الكافرين سيحل بهم النكال، ولا يجدون مهرباً مما أوعدهم به ربهم فقال: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ﴾؛ أي: لا تظنن أيها الرسول الكافرين يجدون مهرباً في الأرض إذا أردنا إهلاكهم، بل نحن قادرون على أخذهم،

---

(١) البحر المحيط.
(٢) روح البيان.
(٣) المراغي.

والبطش بهم متى أردنا. وبعدئذٍ بين مآلهم في الآخرة، فقال: ﴿وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ وَلَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾؛ أي: كما أنا سنضيف عليهم في الدنيا، وننكل بهم، ولا يفلتون من عذابنا سنجعل عاقبة أمرهم ناراً تلظّى، لا يصلاها إلا الأشقى الذي كذب وتولى.

والخلاصة: أنه سيلحقهم سخطنا في الدنيا، وسينالهم الذل والصغار، وسيكون مصيرهم في الآخرة سعيراً وحميماً وغساقاً، جزاءً وفاقاً، إنهم كذبوا بآياتنا كذاباً.

الإعراب

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٤١﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٢﴾﴾.

﴿أَلَمْ﴾ (الهمزة): للاستفهام التقريري. ﴿لم تر﴾: جازم ومجزوم وفاعل مستتر يعود على محمد، والجملة مستأنفة مسوقة لتقرير هذه الحقيقة. ﴿أَنَّ ٱللَّهَ﴾: ناصب واسمه. ﴿يُسَبِّحُ﴾: فعل مضارع ﴿له﴾ متعلق به. ﴿مَن﴾: اسم موصول في محل الرفع فاعل ﴿فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾: جار ومجرور صلة الموصول. ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾ معطوف على ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾. وجملة ﴿يُسَبِّحُ﴾ في محل الرفع خبر ﴿أَنَّ﴾. وجملة ﴿أَنَّ﴾ في تأويل مصدر ساد مسد مفعولي رأى؛ لأن الرؤية هنا قلبية تتعدى إلى مفعولين؛ لأن تسبيح المسبحين لا تتعلق به رؤية البصر. ﴿وَٱلطَّيْرُ﴾: معطوف على ﴿مَن﴾. ﴿صَٰٓفَّٰتٍ﴾ حال من الطير ومفعول صافات محذوف؛ أي: باسطات أجنحتها. ﴿كُلٌّ﴾: مبتدأ، وسوغ الابتداء به لما فيه من معنى العموم. ﴿قَدْ﴾: حرف تحقيق. ﴿عَلِمَ﴾: فعل ماض وفاعله ضمير يعود على كل، أو على الله. وقال أبو البقاء: إن عودته على كل أرجح؛ لأن القراءة برفع كل على الابتداء، فيرجع ضمير الفاعل إليه. ولو كان فيه ضمير اسم الله لكان الأولى نصب كل، لأن الفعل الذي بعدها قد نصب ما هو من سببها، فيصير كقولك: زيداً ضرب عمرو غلامه. ﴿صَلَاتَهُۥ﴾: مفعول به. ﴿وَتَسْبِيحَهُۥ﴾: معطوف عليه. وجملة ﴿عَلِمَ﴾ في محل الرفع خبر المبتدأ. والجملة الاسمية مستأنفة. ﴿وَٱللَّهُ﴾: مبتدأ.

﴿عَلِيمٌ﴾: خبره. والجملة مستأنفة. ﴿بِمَا﴾: متعلق بـ﴿عَلِيمٌ﴾. وجملة ﴿يَفْعَلُونَ﴾ صلة لـ﴿ما﴾. ﴿وَلِلَّهِ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿لله﴾: خبر مقدم. ﴿مُلْكُ السَّمَاوَاتِ﴾: مبتدأ مؤخر ومضاف إليه. ﴿وَالْأَرْضِ﴾: معطوف على ﴿السَّمَاوَاتِ﴾ والجملة مستأنفة. ﴿وَإِلَى اللَّهِ﴾: خبر مقدم. ﴿الْمَصِيرُ﴾: مبتدأ مؤخر. والجملة معطوفة على ما قبلها.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ (٤٣)﴾.

﴿أَلَمْ﴾: (الهمزة): فيه للاستفهام التقريري. ﴿لم تر﴾: جازم وفعل مجزوم، وفاعل مستتر. تقديره أنت. والجملة مستأنفة. ﴿أَنَّ اللَّهَ﴾: ناصب واسمه. ﴿يُزْجِي سَحَابًا﴾: فعل وفاعل مستتر، يعود على الله ومفعول به. والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿أَنَّ﴾. وجملة ﴿أَنَّ﴾ في تأويل مصدر ساد مسد مفعولي تر، إن قلنا إنها قلبية، ويصح كونها بصرية، تقديره: ألم تر إزجاء الله سحاباً. ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف وتراخ. ﴿يُؤَلِّفُ﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر يعود على الله، معطوف على ﴿يُزْجِي﴾. ﴿بَيْنَهُ﴾: ظرف ومضاف إليه متعلق بـ﴿يُزْجِي﴾. ﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا﴾: فعل وفاعل مستتر يعود على الله، ومفعولان معطوف على ﴿يُؤَلِّفُ﴾. ﴿فَتَرَى الْوَدْقَ﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة. ﴿ترى الودق﴾: فعل وفاعل مستتر ومفعول به مطعوف على ﴿يَجْعَلُهُ﴾. ﴿يَخْرُجُ﴾: فعل وفاعل مستتر يعود على ﴿الْوَدْقَ﴾. ﴿مِنْ خِلَالِهِ﴾: متعلق بـ﴿يَخْرُجُ﴾. والجملة الفعلية في محل النصب حال من ﴿الْوَدْقَ﴾. ﴿وَيُنَزِّلُ﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر يعود على الله. والجملة معطوفة على جملة ﴿يُزْجِي﴾ على كونها خبراً لـ﴿أَنَّ﴾. ﴿مِنَ السَّمَاءِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿ينزل﴾. فـ﴿مِن﴾: ابتدائية. ﴿مِنْ جِبَالٍ﴾: جار ومجرور بدل من الجار والمجرور قبله، بدل اشتمال. ﴿فِيهَا﴾: جار ومجرور صفة لـ﴿جِبَالٍ﴾. ﴿مِنْ بَرَدٍ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿ينزل﴾. وهو في موضع مفعول الإنزال وهي تبعيضية. وفي «الفتوحات» قد ذكرت ﴿مِن﴾ هنا ثلاث مرات. فالأولى: ابتدائية

باتفاق المفسرين. والثانية: قيل زائدة. وقيل تبعيضية. وقيل: ابتدائية على جعل مدخولها بدلاً مما قبله بإعادة الجار. والثالثة: فيها هذه الأقوال الثلاثة. وتزيد بقول رابع: وهو أنها لبيان الجنس انتهى. ﴿فَيُصِيبُ﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة. ﴿يصيب﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر يعود على الله معطوف على ينزل. ﴿بِهِۦ﴾: متعلق بـ﴿يصيب﴾. ﴿مَن﴾ مفعول به لـ﴿يصيب﴾. وجملة ﴿يَشَآءُ﴾ صلة ﴿مَن﴾ الموصولة. والعائد محذوف، تقديره: من يشاء إصابته. ﴿وَيَصْرِفُهُۥ﴾: فعل ومفعول وفاعل مستتر يعود على الله، معطوف على يصيب. ﴿عَن مَّن﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿يصرف﴾ وجملة ﴿يَشَآءُ﴾ صلة ﴿من﴾ الموصولة ﴿يَكَادُ﴾: فعل مضارع ناقص من أفعال المقاربة. ﴿سَنَا بَرْقِهِۦ﴾ اسمها ومضاف إليه. وجملة ﴿يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ﴾ في محل النصب خبر ﴿يَكَادُ﴾. وجملة ﴿يَكَادُ﴾ في محل الجر صفة لـ﴿بَرَدٍ﴾.

﴿يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٤﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ ۖ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ ۚ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٥﴾﴾.

﴿يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ﴾: فعل وفاعل ومفعول. ﴿وَٱلنَّهَارَ﴾: معطوف على الليل. والجملة مستأنفة. ﴿إِنَّ﴾: حرف نصب وتوكيد. ﴿فِى ذَٰلِكَ﴾: جار ومجرور خبر مقدم لـ﴿إِنَّ﴾. ﴿لَعِبْرَةً﴾: اسمها مؤخر. واللام فيه حرف ابتداء. ﴿لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ﴾: جار ومجرور مضاف إليه صفة ﴿لَعِبْرَةً﴾. وجملة ﴿إن﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها. ﴿وَٱللَّهُ﴾: مبتدأ. ﴿خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ﴾: فعل وفاعل مستتر يعود على الله ومفعول به. والجملة الفعلية في محل الرفع خبر المبتدأ. والجملة الاسمية مستأنفة مسوقة لبيان أصناف الخلق. ﴿مِّن مَّآءٍ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿خَلَقَ﴾؛ أي: من نطفة. بحسب الأغلب. ﴿فَمِنْهُم﴾: ﴿الفاء﴾: حرف عطف وتفصيل. ﴿منهم﴾: جار ومجرور خبر مقدم. ﴿مَّن﴾: اسم موصول مبتدأ مؤخر. والجملة الاسمية معطوفة على الجملة التي قبلها، عطف مفصل على مجمل. ﴿يَمْشِى﴾: فعل مضارع وفاعله ضمير يعود على من. ﴿عَلَىٰ بَطْنِهِۦ﴾: متعلق به. والجملة

الفعلية صلة ﴿مَن﴾ الموصولة ﴿وَمِنْهُم﴾ خبر مقدم. ﴿من﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة معطوفة على الجملة التي قبلها. ﴿يَمْشِى﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر على ﴿من﴾. ﴿عَلَىٰ رِجْلَيْنِ﴾: متعلق بـ﴿يَمْشِى﴾. والجملة الفعلية صلة ﴿مَن﴾ الموصولة. ﴿وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ﴾ إعرابه نظير ما قبله، ومعطوف عليه ﴿يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا﴾: فعل وفاعل ومفعول به. والجملة مستأنفة. وجملة ﴿يَشَآءُ﴾ صلة ﴿ما﴾ الموصولة. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾: ناصب واسمه. ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿قَدِيرٌ﴾. ﴿قَدِيرٌ﴾: خبر ﴿إِنَّ﴾. وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿لَّقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٦﴾ وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾.

﴿لَّقَدْ﴾: اللام: موطئة للقسم. ﴿قد﴾: حرف تحقيق. ﴿أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍ﴾: فعل وفاعل ومفعول به. ﴿مُّبَيِّنَٰتٍ﴾: صفة ﴿ءَايَٰتٍ﴾. والجملة الفعلية لقسم محذوف، لا محل لها من الإعراب. وجملة القسم مستأنفة. ﴿وَٱللَّهُ﴾: مبتدأ. وجملة ﴿يَهْدِى﴾ خبره. والجملة الاسمية مستأنفة. ﴿من﴾: اسم موصول في محل النصب مفعول به لـ﴿يَشَآءُ﴾ وجملة ﴿يَشَآءُ﴾ صلة ﴿مَن﴾ الموصولة. ﴿إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾: جار ومجرور، وصفة متعلق بـ﴿يَهْدِى﴾. ﴿وَيَقُولُونَ﴾: فعل وفاعل. والجملة مستأنفة. ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾ إلى ﴿ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ﴾: مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿ءَامَنَّا﴾: فعل وفاعل. ﴿بِٱللَّهِ﴾: متعلق به. والجملة في محل النصب مقول ليقولون. ﴿وَبِٱلرَّسُولِ﴾ معطوف على بالله. ﴿وَأَطَعْنَا﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿ءَامَنَّا﴾. ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف. ﴿يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ﴾: فعل وفاعل معطوف على يقولون. ﴿مِّنْهُم﴾: صفة لـ﴿فَرِيقٌ﴾. ﴿مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿يَتَوَلَّىٰ﴾. ﴿وَمَآ﴾: ﴿الواو﴾: حالية ﴿ما﴾: حجازية. ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾: اسمها. ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾: خبرها. والباء: زائدة. والجملة الاسمية في محل النصب، حال من ﴿فَرِيقٌ﴾ لتخصصه بالصفة.

﴿وَإِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ

﴿ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓاْ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾﴾.

﴿وَإِذَا﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿إذا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان، متضمن معنى الشرط. ﴿دُعُوٓاْ﴾: فعل ونائب فاعل. ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾: متعلق بـ﴿دُعُوٓاْ﴾. ﴿وَرَسُولِهِۦ﴾: معطوف على الجلالة. والجملة الفعلية في محل الخفض بإضافة ﴿إذا﴾ إليها، على كونها فعل شرط لها. ﴿لِيَحْكُمَ﴾ (اللام): حرف جر وتعليل. ﴿يحكم﴾: فعل مضارع منصوب بأن مضمرة. جوازاً بعد لام كي، وفاعله ضمير يعود على الرسول. ﴿بَيْنَهُمْ﴾: متعلق بـ﴿يحكم﴾ والجملة مع أن المضمرة، في تأويل مصدر مجرور باللام، تقديره: لحكمه. ﴿بَيْنَهُمْ﴾: الجار والمجرور متعلق بـ﴿دُعُوٓاْ﴾. ﴿إِذَا﴾ فجائية، قائمة مقام الفاء، في ربط الجواب بشرطه. وهو ﴿إذا﴾ الأولى، حرف لا محل لها من الإعراب. ﴿فَرِيقٌ﴾: مبتدأ. ﴿مِّنْهُم﴾: صفة له. ﴿مُّعْرِضُونَ﴾: خبر المبتدأ. والجملة الاسمية جواب ﴿إذا﴾ الشرطية، لا محل لها من الإعراب. وجملة ﴿إذا﴾ الشرطية معطوفة على جملة قوله: ﴿وَيَقُولُونَ﴾.
﴿وَإِن يَكُن﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿إن﴾: حرف شرط جازم. ﴿يَكُن﴾: فعل مضارع ناقص. مجزوم بـ﴿إن﴾ الشرطية. ﴿لَّهُمُ﴾: خبر ﴿يَكُن﴾ مقدم على اسمها. ﴿ٱلْحَقُّ﴾: اسمها مؤخر. ﴿يَأْتُوٓاْ﴾: فعل وفاعل مجزوم بـ﴿إن﴾ الشرطية على كونه جواباً لها. ﴿إِلَيْهِ﴾ متعلق بـ﴿يَأْتُوٓاْ﴾. ﴿مُذْعِنِينَ﴾ حال من فاعل ﴿يَأْتُوٓاْ﴾. وجملة ﴿إن﴾ الشرطية معطوفة على جملة ﴿إذا﴾.

﴿أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓاْ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ ۚ بَلْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٥٠﴾﴾.

﴿أَفِى﴾ الهمزة فيه: للاستفهام التقريري. جيء بها للمبالغة في الذم. ﴿في قلوبهم﴾: جار ومجرور خبر مقدم. ﴿مَّرَضٌ﴾: مبتدأ مؤخر. والجملة مستأنفة، مسوقة لتقسيم الأمر في صدودهم عن حكومته، إذا كان الحق عليهم بين أن يكونوا مرضى القلوب منافقين، أو مرتابين في أمر نبوته، أو خائفين أن يحيف عليهم لمعرفتهم بحاله. ﴿أَمِ﴾: حرف عطف منقطعة، تقدر ببل الإضرابية. وهمزة الاستفهام التقريري. ﴿ٱرْتَابُوٓاْ﴾: فعل وفاعل. والجملة معطوفة على الجملة التي

قبلها. ﴿أَمْ﴾: عاطفة متقطعة تقدر ببل. وهمزة الاستفهام التقريري. ﴿يَخَافُونَ﴾ فعل وفاعل. والجملة معطوفة على ما قبلها. ﴿أن﴾ حرف نصب ومصدر. ﴿يَحِيفَ اللَّهُ﴾ فعل وفاعل منصوب بأن. ﴿عَلَيْهِمْ﴾ متعلق بـ﴿يَحِيفَ﴾. ﴿وَرَسُولُهُ﴾ معطوف على الجلالة. والجملة في تأويل مصدر منصوب على المفعولية، تقديره: أم يخافون حيف الله ورسوله عليهم. ﴿بَلْ﴾: حرف إضراب وابتداء. ﴿أُولَٰئِكَ﴾: مبتدأ. ﴿هُمُ﴾: ضمير فصل. ﴿الظَّالِمُونَ﴾: خبر المبتدأ والجملة مستأنفة.

﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾﴾.

﴿إِنَّمَا﴾: أداة حصر بمعنى ما النافية وإلا المثبتة. أو تقول: ﴿إن﴾: حرف نصب مكفوفة عن العمل. ﴿ما﴾: كافة. ﴿كَانَ﴾: فعل ماض ناقص. ﴿قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ﴾: خبرها مقدم على اسمها. ﴿إِذَا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان، مجرد عن معنى الشرط. ﴿دُعُوا﴾: فعل ونائب فاعل. ﴿إِلَى اللَّهِ﴾ متعلق بـ﴿دُعُوا﴾. ﴿وَرَسُولِهِ﴾: معطوف على الجلالة. والجملة في محل الخفض بإضافة ﴿إِذَا﴾ إليها. والظرف متعلق بقول المؤمنين. ﴿لِيَحْكُمَ﴾: (اللام): حرف جر وتعليل. ﴿يحكم﴾: فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام كي، وفاعله ضمير يعود على الرسول. ﴿بَيْنَهُمْ﴾: متعلق بـ﴿يحكم﴾. والجملة في تأويل مصدر مجرور باللام، تقديره: لحكمه. ﴿بَيْنَهُمْ﴾: الجار والمجرور متعلق بـ﴿دُعُوا﴾. ﴿أَن يَقُولُوا﴾: ناصب وفعل وفاعل. والجملة في تأويل مصدر مرفوع على كونه اسم كان مؤخراً، والتقدير: إنما كان قول سمعنا وأطعنا قول المؤمنين، وقت دعوتهم إلى الله، ورسوله ليحكم بينهم. وجملة كان مستأنفة. وإنما ترجح نصب قول المؤمنين على رفعه، لأنه متى اجتمع معرفتان فالأولى جعل أوغلهما في التعريف اسماً لكان. ولكن سيبويه لم يفرق بينهما. ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ مقول محكي ليقولوا. وإن شئت قلت: ﴿سَمِعْنَا﴾ فعل وفاعل. والجملة في محل النصب مقول ليقولوا. ﴿وَأَطَعْنَا﴾ فعل وفاعل معطوف على سمعنا. ﴿وَأُولَٰئِكَ﴾: مبتدأ. ﴿هُمُ﴾: ضمير فصل. ﴿الْمُفْلِحُونَ﴾: خبر. والجملة مستأنفة.

﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخۡشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقۡهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ﴿٥٢﴾ ۞ وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ لَئِنۡ أَمَرۡتَهُمۡ لَيَخۡرُجُنَّۖ قُل لَّا تُقۡسِمُواْۖ طَاعَةٞ مَّعۡرُوفَةٌۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴿٥٣﴾﴾.

﴿وَمَن﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿مَن﴾: اسم شرط جازم في محل الرفع مبتدأ. والخبر جملة الشرط، أو الجواب، أو هما. ﴿يُطِعِ ٱللَّهَ﴾: فعل ومفعول وفاعل مستتر يعود على ﴿مَن﴾ مجزوم بـ﴿مَن﴾ على كونه فعل شرط لها. ﴿وَرَسُولَهُۥ﴾: معطوف على الجلالة. ﴿وَيَخۡشَ ٱللَّهَ﴾: فعل ومفعول وفاعل مستتر يعود على ﴿من﴾ معطوف على ﴿يُطِعِ﴾ على كونه فعل شرط لمن. ﴿وَيَتَّقۡهِ﴾: فعل ومفعول وفاعل مستتر يعود على من معطوف على يطع، وعلامة جزمه حذف حرف العلة، وسكنت القاف على قراءة حفص للتخفيف، أو مجزوم بسكون القاف إجراء للمعتل مجرى الصحيح، كما مر في مبحث القراءة. ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة الجواب. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾: مبتدأ. ﴿هُمُ﴾: ضمير فصل. ﴿ٱلۡفَآئِزُونَ﴾ خبر المبتدأ. والجملة الاسمية في محل الجزم بـ﴿من﴾ الشرطية على كونها جواباً لها. وجملة من الشرطية مستأنفة. ﴿وَأَقۡسَمُواْ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿أقسموا﴾: فعل وفاعل. والجملة مستأنفة ﴿بِٱللَّهِ﴾ متعلق بـ﴿أقسموا﴾. ﴿جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ﴾: منصوب على المفعولية المطلقة، أو حال من فاعل ﴿أقسموا﴾؛ أي: مجتهدين في أيمانهم. ﴿لَئِنۡ﴾ (اللام): موطئة للقسم. ﴿إن﴾: حرف شرط. ﴿أَمَرۡتَهُمۡ﴾: فعل وفاعل ومفعول به في محل الجزم بـ﴿إن﴾ على كونه فعل شرط لها. ﴿لَيَخۡرُجُنَّ﴾ اللام: موطئة للقسم مؤكدة للأولى. ﴿يخرجن﴾: فعل مضارع مرفوع، وعلامة رفعه ثبات النون المحذوفة، لتوالي الأمثال، والواو المحذوفة: لالتقاء الساكنين في محل الرفع فاعل، ونون التوكيد الثقيلة: حرف لا محل لها من الإعراب. ولم يبن الفعل هنا، لأن النون لم تباشره. والجملة الفعلية جواب القسم، لا محل لها من الإعراب. وجملة القسم مستأنفة. وجواب الشرط محذوف لدلالة جواب القسم عليه، تقديره: إن أمرتهم، يخرجون. وجملة الشرط معترضة بين القسم وجوابه، لا محل لها من الإعراب. ﴿قُل﴾: فعل أمر وفاعل مستتر يعود على محمد. والجملة مستأنفة. ﴿لَّا﴾ ناهية جازمة. ﴿تُقۡسِمُواْ﴾: فعل

وفاعل مجزوم بـ﴿لَا﴾ الناهية. واالجملة الفعلية في محل النصب مقول ﴿قُل﴾. ﴿طَاعَةٌ﴾ مبتدأ ﴿مَّعْرُوفَةٌ﴾ صفته. وسوغ الابتداء بالنكرة هذا الوصف. والخبر محذوف، تقديره: خير لكم، أو خبر لمبتدأ محذوف، تقديره: أمركم الذي أنتم عليه طاعة معروفة؛ أي: نفاقية لسانية. قال الواسطي: وهذا الوجه أولى؛ لأن الخبر محط الفائدة، وعليه فالمعنى: أمركم الذي يطلب منكم طاعة معروفة، معلومة لا يشك فيها، ولا يرتاب ا هـ. «كرخي». والجملة الاسمية في محل النصب مقول ﴿قُل﴾. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾: ناصب واسمه. ﴿خَبِيرٌ﴾ خبره. ﴿بِمَا﴾ متعلق بـ﴿خَبِيرٌ﴾. وجملة ﴿تَعْمَلُونَ﴾ صلة ﴿ما﴾ الموصولة. وجملة ﴿إن﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿قُلْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُواْ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٥٤﴾﴾.

﴿قُلْ﴾: فعل وفاعل مستتر يعود على محمد. والجملة مستأنفة. ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ﴾: فعل وفاعل ومفعول. والجملة في محل النصب مقول ﴿قُل﴾. ﴿وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ فعل وفاعل ومفعول معطوف على أطيعوا الله. ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة، أو فصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفتم ما قلت لكم، من أمركم بالإطاعة وأردتم بيان حكم ما إذا تتولوا عن الطاعة فأقول لكم. ﴿إن تولوا﴾ ﴿إن﴾: حرف شرط جازم. ﴿تَوَلَّوْاْ﴾: فعل مضارع وفاعل مجزوم بـ﴿إن﴾ الشرطية على كونه فعل شرط لها. وعلامة جزمه حذف النون؛ لأن أصله تتولوا فحذفت إحدى التاءين للتخفيف. ﴿فَإِنَّمَا﴾: الفاء: رابطة الجواب. ﴿إنما﴾: أداة حصر. ﴿عَلَيْهِ﴾: جار ومجرور خبر مقدم. ﴿ما﴾: موصولة في محل الرفع مبتدأ مؤخر. ﴿حُمِّلَ﴾: فعل ماض مغير الصيغة ونائب فاعل مستتر يعود على ﴿ما﴾. والجملة الفعلية صلة الموصول. والجملة من المبتدأ والخبر في محل الجزم بـ﴿إن﴾ الشرطية على كونها جواباً لها. وجملة ﴿إن﴾ الشرطية في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة. وجملة إذا المقدرة مستأنفة. ﴿وَعَلَيْكُم﴾: خبر مقدم. ﴿مَّا حُمِّلْتُمْ﴾: مبتدأ مؤخر. والجملة الاسمية

في محل الجزم، معطوفة على الجملة التي قبلها، على كونها جواب ﴿إن﴾ الشرطية. ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿إن﴾: حرف شرط جازم. ﴿تُطِيعُوهُ﴾: فعل وفاعل ومفعول مجزوم بـ﴿إن﴾ الشرطية على كونه فعل شرط لها. ﴿تَهْتَدُوا﴾: فعل وفاعل مجزوم بـ﴿إن﴾ الشرطية على كونها جواباً لها. وجملة ﴿إن﴾ الشرطية في محل النصب معطوفة على جملة ﴿إن﴾ الأولى، على كونها مقولاً لجواب إذا المقدرة. ﴿وَمَا﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿ما﴾: نافية. ﴿عَلَى الرَّسُولِ﴾: جار ومجرور خبر مقدم. ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ. ﴿الْبَلَاغُ﴾: مبتدأ مؤخر. ﴿الْمُبِينُ﴾: صفته. والجملة الاسمية في محل النصب معطوفة على جملة قوله: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾.

﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾.

﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ﴾: فعل وفاعل ومفعول. والجملة مستأنفة. ﴿آمَنُوا﴾: فعل وفاعل صلة الموصول. ﴿مِنكُمْ﴾: جار ومجرور حال من فاعل ﴿آمَنُوا﴾. ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾: فعل وفاعل ومفعول معطوف على ﴿آمَنُوا﴾. ﴿لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ﴾: (اللام): واقعة في جواب قسم محذوف، تقديره: وأقسم. ﴿يستخلفنهم﴾ فعل مضارع، وفاعل مستتر يعود على الله. ونون التوكيد الثقيلة، ومفعول به في محل الرفع لتجرده عن الناصب والجازم، مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة. ﴿فِي الْأَرْضِ﴾: متعلق به. والجملة الفعلية جواب القسم، لا محل لها من الإعراب.

﴿كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾.

﴿كَمَا﴾: الكاف: حرف جر. ﴿ما﴾: مصدرية. ﴿اسْتَخْلَفَ﴾: فعل ماض وفاعل مستتر يعود على الله. ﴿الَّذِينَ﴾: مفعول به. ﴿مِن قَبْلِهِمْ﴾: جار ومجرور صلة الموصول. والجملة الفعلية صلة ﴿ما﴾ المصدرية (ما): مع صلتها

في تأويل مصدر، مجرور بالكاف، تقديره: كاستخلافه الذين من قبلهم، الجار والمجرور متعلق بواجب الحذف، لوقوعه صفة لمصدر محذوف، تقديره: ليستخلفنهم استخلافاً كائناً، كاستخلاف الذين من قبلهم. ﴿وَلَيُمَكِّنَنَّ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. و(اللام): موطئة للقسم. ﴿يمكنن﴾: فعل مضارع في محل الرفع، لتجرده عن الناصب، والجازم مبني على الفتح، لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة، وفاعله ضمير يعود على الله. والجملة الفعلية جواب القسم، لا محل لها من الإعراب. وجملة القسم، معطوفة على جملة القسم، في قوله: ﴿ليستخلفنهم﴾: ﴿لَهُمْ﴾: متعلق بـ﴿يمكنن﴾ ﴿دِينَهُمُ﴾: مفعول به. ﴿ٱلَّذِى﴾: اسم موصول في محل النصب صفة لـ﴿دِينَهُمُ﴾. ﴿ٱرْتَضَىٰ﴾: فعل ماض وفاعله ضمير يعود على الله. ﴿لَهُمْ﴾. متعلق به. والجملة صلة الموصول. والعائد محذوف، تقديره ارتضاه لهم. ﴿وَلَيُبَدِّلَنَّهُم﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. (واللام): موطئة للقسم. ﴿يبدلنهم﴾: فعل وفاعل مستتر يعود على الله ومفعول به أول، ونون توكيد ثقيلة. والجملة معطوفة على جملة ﴿لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ﴾. ﴿مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿ليبدلنهم﴾. ﴿أَمْنًاۚ﴾ مفعول ثان ليبدلن. ﴿يَعْبُدُونَنِى﴾ ﴿يعبدون﴾: فعل مضارع وفاعل مرفوع بثبات النون. والنون نون الوقاية. والياء مفعول به. والجملة الفعلية مستأنفة على الأرجح، استئنافاً بيانياً لا محل لها من الإعراب. كأنه قيل: ما بالهم بعد ذلك. فقيل: يعبدونني. ويجوز أن تكون حالاً من مفعول ليستخلفنهم؛ أي: حالة كونهم عابدين إياي. ﴿لَا يُشْرِكُونَ﴾. ﴿لَا﴾: نافية. ﴿يُشْرِكُونَ﴾: فعل وفاعل. ﴿بِى﴾: متعلق به. ﴿شَيْـًٔا﴾: مفعول به، أو مفعول مطلق. والجملة الفعلية في محل النصب بدل من جملة ﴿يَعْبُدُونَنِى﴾ أو حال من فاعل ﴿يَعْبُدُونَنِى﴾؛ أي: يعبدونني حالة كونهم موحدين. وهو جيد. ولك أن تجعلها استئنافية كسابقتها. ﴿وَمَن﴾ الواو: استئنافية. ﴿من﴾: اسم شرط في محل الرفع. مبتدأ. والخبر جملة الشرط، أو الجواب، أو هما ﴿كَفَرَ﴾ فعل ماض في محل الجزم بـ﴿من﴾ على كونه فعل شرط لها، وفاعله ضمير يعود على من. ﴿بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ متعلق بـ﴿كَفَرَ﴾. ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة الجواب. ﴿أولئك﴾: مبتدأ. ﴿هُمُ﴾: ضمير

فصل. ﴿ٱلْفَٰسِقُونَ﴾: خبر. والجملة الاسمية في محل الجزم بـ﴿مِن﴾ على كونها جواباً لها. وجملة ﴿من﴾ الشرطية، مستأنفة.

﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٥٦﴾﴾.

﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾: فعل وفاعل ومفعول به. والجملة معطوفة على محذوف، معلوم من السياق، تقديره: فآمنوا واعملوا صالحاً وأقيموا الصلاة، أو معطوفة على وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول. قال الزمخشري: وليس ببعيد أن يقع بين المعطوف والمعطوف عليه فاصل؛ لأن حق المعطوف أن يكون غير المعطوف عليه. ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ﴾ كلاهما فعل وفاعل ومفعول به معطوفان على ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾. ﴿لَعَلَّكُمْ﴾: ناصب واسمه. وجملة ﴿تُرْحَمُونَ﴾: خبر ﴿لعل﴾. مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ وَلَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٥٧﴾﴾.

﴿لَا﴾: ناهية جازمة. ﴿تَحْسَبَنَّ﴾: فعل مضارع في محل الجزم بـ﴿لَا﴾، مبني على الفتح، لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة، وفاعله ضمير مستتر يعود على محمد، أو على أي مخاطب. والجملة مستأنفة. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: اسم موصول للجمع المذكر، في محل النصب مفعول أول لحسب. وجملة ﴿كَفَرُوا۟﴾ صلة الموصول ﴿مُعْجِزِينَ﴾ مفعول ثان لحسب ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ متعلق بمحذوف حال من الضمير المستكن في ﴿مُعْجِزِينَ﴾ ومتعلق ﴿مُعْجِزِينَ﴾ محذوف، تقديره: لنا. ﴿وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ﴾: مبتدأ وخبر، أو بالعكس. والجملة معطوفة على جملة ﴿لَا تَحْسَبَنَّ﴾ عطف خبر على إنشاء، على رأي بعضهم، أو معطوفة على مقدر، تقديره: بل هم مقهورون مدركون ومأواهم الخ. وهذا أولى، لأنه يكون عطف خبر على خبر. ﴿وَلَبِئْسَ﴾. ﴿الواو﴾: استئنافية. و(اللام): موطئة للقسم. ﴿بئس﴾: فعل ماض جامد لإنشاء الذم. ﴿ٱلْمَصِيرُ﴾: فاعل والمخصوص بالذم محذوف وجوباً، تقديره: مصيرهم، يعني النار. والجملة الفعلية جواب لقسم محذوف. وجملة القسم مستأنفة.

التصريف ومفردات اللغة

﴿وَالطَّيْرُ﴾: جمع طائر، كركب وراكب. والطائر كل ذي جناح يسبح في الهواء. قال أبو عبيدة: وقطرب: الطير يقع على الواحد والجمع. وقال ابن الأنباري: الطير جماعة، وتأنيثها أكثر من التذكير. وفي «المصباح» الطائر على صيغة اسم الفاعل، من طار يطير طيراناً، وهو له في الجو كمشي الحيوان في الأرض، ويعدى بالهمزة. والتضعيف. فيقال: طيرته وأطرته. وجمع الطائر طير كصحب وصاحب. وجمع الطير طيور وأطيار.

﴿صَٰٓفَّٰتٍ﴾؛ أي: باسطات أجنحتهن في الهواء، من الصف، وهو البسط. ﴿يُزْجِي سَحَابًا﴾؛ أي: يسوق سوقاً برفق، والإزجاء سوق الشيء برفق وسهولة لينساق، غلب في سوق شيء يسير، أو غير معتد به. ومنه البضاعة المزجاة، فإنها يزجيها كل أحد، ويدفعها لقلة الاعتداد بها. ففيه إيماء إلى أن السحاب بالنسبة إلى قدرته تعالى، مما لا يعتد به. وفي «المختار» زجى الشيء تزجية، دفعه برفق، وتزجى بكذا اكتفى به. وأزجى الإبل ساقها. والمزجي الشيء القليل تسوقه. وفي «القاموس» وشرحه زجا يزجو زجواً وزجى تزجية وأزجى إزجاء وازدجاه: ساقه، ودفعه برفق. يقال: كيف تزجي أيامك؛ أي: كيف تدفعها. وزجى فلان حاجتي؛ أي: سهل تحصيلها، وأزجى الأمر أخره وأزجى الدرهم روجه.

وسمي السحاب سحاباً لانسحابه في الهواء؛ أي: انجراره، هو اسم جنس يصح إطلاقه على سحابة واحدة وما فوقها. والمراد ههنا، قطع السحاب بقرينة إضافة بين إلى ضميره، فإنه لا يضاف إلا إلى متعدد كما مر.

﴿رُكَامًا﴾: الركام بضم الراء المتراكم بعضه فوق بعض. قال في «المفردات»: يقال: سحاب مركوم؛ أي: متراكم، والركام ما يلقى بعضه على بعض. وفي «المختار» ركم الشيء إذا جمعه، وألقى بعضه على بعض، وبابه نصر، وارتكم الشيء وتراكم إذا اجتمع. والركام الرمل المتراكم. والسحاب

ونحوه. ا هـ.

﴿فَتَرَى ٱلۡوَدۡقَ﴾: الودق: المطر، قيل: هو خاص بالضعيف. وقيل: هو المطر ضعيفاً كان أو شديداً، وهو في الأصل مصدر. يقال: ودق السحاب يدق من باب وعد، وفي «المفردات» الودق قيل: ما يكون خلال المطر، كأنه غبار، وقد يعبر به عن المطر ا هـ.

﴿مِنۡ خِلَٰلِهِۦ﴾؛ أي: من ثقبه. وفي «القرطبي» الخلال جمع خلل، كجبال جمع جبل. وهي فرجه ومخارج القطر منه. وقد تقدم في البقرة، أن كعباً قال: إن السحاب غربال المطر، لولا السحاب حين ينزل المطر من السماء.. لأفسد ما يقع عليه من الأرض. ا هـ. ﴿مِنۢ بَرَدٍ﴾ البرد: محركة الماء المنعقد؛ أي: ما يبرد من المطر في الهواء، فيصلب. كما في «المفردات».

﴿سَنَا بَرۡقِهِۦ﴾ في «المختار» السنا: مقصوراً، ضوء البرق الساطع، والسنا أيضاً: هو نبت يتداوى به، وهو من ذي الواو، يقال: سنا يسنوا سناً؛ أي: أضاء يضيء ا هـ. «سمين». والسناء من الرفعة ممدود، والشيء الرفيع وأسناه رفعه، وسناه تسنية فتحه وسهله. وفي «القاموس» البرق واحد بروق السحاب، أو ضرب ملك السحاب، وتحريكه إياه لينساق. فترى النيران. وفي «إخوان الصفا» البرق: نار، تنقدح من احتكاك تلك الأجزاء الدخانية، في جوف السحاب.

﴿يَذۡهَبُ بِٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾؛ أي: يخطفها بسرعة، جمع بصر، بمعنى الجارحة. ﴿يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَۚ﴾؛ أي: يتصرف فيهما فيأخذ من طول هذا، في قصر ذاك، حتى يعتدلا، ويغير أحوالهما بالحر والبرد.

﴿لِّأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾؛ أي: لأهل العقول والبصائر، جمع بصيرة. ويقال: لقوة القلب المدركة بصيرة وبصر، ولا يكاد يقال للجارحة بصيرة. كما في «المفردات». ﴿كُلَّ دَآبَّةٖ﴾: الدب والدبيب مشي خفيف، ويستعمل ذلك في الحيوان وفي الحشرات أكثر، كما في «المفردات». والدابة هنا: ليست عبارة عن مطلق ما يمشي ويتحرك، بل هي اسم للحيوان الذي يدب على الأرض، ومسكنه

هنالك، فيخرج منها الملائكة والجن، فإن الملائكة خلقوا من نور، والجن من نار. وقال في «فتح الرحمٰن»: خلق كل حيوان يشاهد في الدنيا، ولا يدخل فيه الملائكة والجن، لأنا لا نشاهدهم. ا هـ.

والمعنى: خلق كل حيوان يدب على الأرض.

﴿يَمْشِى﴾ والمشي: ضابطه، هو قطع المسافة، والمرور عليها، مع قيد كون ذلك المرور على الأرجل. ﴿وَأَطَعْنَا﴾ من الإطاعة، وهو فعل يعمل بالأمر، لا غير؛ لأنها الانقياد، وهو لا يتصور إلا بعد الأمر، كما مر. ﴿لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ﴾ والحكم بالشيء، أن تقضي بأنه كذا، وليس بكذا، سواء ألزمت بذلك غيرك، أو لم تلزمه.

﴿مُعْرِضُونَ﴾ يقال: أعرض إذا أظهر عرضه؛ أي: ناحيته. ﴿مُذْعِنِينَ﴾؛ أي: منقادين. ﴿مَّرَضٌ﴾؛ أي: فساد من أصل الفطرة يحملهم على الضلال. ﴿أَرْتَابُوٓاْ﴾ شكوا في نبوتك. ﴿أَن يَحِيفَ﴾ والحيف الجور، والظلم، والميل في الحكم إلى أحد الجانبين. يقال: حاف في قضيته؛ أي: جار فيما حكم.

﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ﴾: فعل مضارع مجزوم بحذف النون؛ لأن أصله تتولوا بتاءين، إحداهما تاء المضارعة، والأخرى تاء المطاوعة؛ لأن ماضيه تولى من باب تفعل الخماسي.

﴿إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾ البلاغ اسم مصدر لبلغ المضعف، فهو بمعنى التبليغ، الذي هو مصدر بلغ. ﴿لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ قال الراغب: الخلافة النيابة عن الغير. إما لغيبة المنوب عنه، وإما لموته، وإما لعجزه، وإما لتشريف المستخلف. وعلى هذا الوجه الأخير استخلف الله أولياءه في الأرض.

﴿وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ﴾ التمكين جعل الشيء مكاناً لآخر. يقال: مكن له في الأرض؛ أي: جعلها مقراً له. يقال: مكنتك ومكنت لك مثل نصحتك ونصحت لك.

﴿وَلَيُبَدِّلَنَّهُم﴾ التبديل جعل الشيء مكان آخر، وهو أعم من العوض، فإن العوض هو أن يصير لك الثاني بإعطاء الأول، والتبديل يقال: للتغير وإن لم تأت ببدله.

﴿أَمْنًا﴾ وأصل الأمن طمأنينة النفس، وزوال الخوف. ﴿وَلَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾؛ أي: المرجع. يقال: صار إلى كذا؛ أي: انتهى إليه. ومنه صير الباب لمصيره الذي ينتهي إليه في تنقله وتحركه.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: ذكر الخاص بعد العام في قوله: ﴿وَٱلطَّيْرُ﴾ بعد قوله: ﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ وتخصيصها بالذكر مع اندراجها في جملة ما في الأرض لعدم استقرارها فيها قرار ما فيها؛ لأنها تكون بين السماء والأرض.

ومنها: فن العنوان في قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا﴾ الآية. وهو فن انفرد به القليل من علماء البيان، ويسمونه فن العنوان، وعرفوه بأنه أن يأخذ المتكلم في غرض له من وصف، أو فخر، أو مدح، أو عتاب، أو هجاء، أو غير ذلك من الفنون، ثم يأتي لقصد تكميله وتوكيده، بأمثلة من ألفاظ، تكون عنوانات لأخبار متقدمة، وقصص سالفة، ومنه نوع عظيم جداً، وهو ما يكون عنواناً للعلوم، وذلك أن تذكر في الكلام ألفاظ تكون مفاتيح العلوم، ومداخل لها، والآية التي نحن بصددها، فيها عنوان العلم المعروف بالآثار العلوية، والجغرافيا الرياضية وعلم الفلك.

ومنها: الطباق في قوله: ﴿يصيب﴾ وقوله: ﴿يصرفه﴾.

ومنها: الاستعارة اللطيفة في قوله: ﴿يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ إذ ليس المراد التقليب المادي للأشياء الذاتية، وإنما استعير لتعاقب الليل والنهار.

ومنها: الجناس التام في قوله: ﴿يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ﴾، ﴿لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ﴾

المراد بالأول العيون الباصرة، وبالثانية العقول المدركة.

ومنها: الإجمال ثم التفسير في قوله: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ﴾ الآية. فقد ذكر سبحانه أولاً الجنس الأعلى، حيث قال: كل دابة، فاستغرق أجناس كل ما دب، ثم فسر هذا الجنس الأعلى، بالأجناس المتوسطة. حيث قال: ﴿فَمِنْهُم﴾ و﴿مِّنْهُم﴾.

ومنها: الاستعارة المكنية في قوله: ﴿فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ﴾ فقد سمي الزحف على البطن مشياً على سبيل الاستعارة المكنية، كما قالوا في الأمر المستمر قد مشى هذا الأمر. ويقال فلان لا يتمشى له أمر.

ومنها: التغليب في قوله: ﴿مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ﴾ لأنه لما اختلط غير العاقل بالعاقل في قوله كل دابة، عبر بـ﴿من﴾ تغليباً للعاقل على غيره لشرفه.

ومنها: الالتفات من الغيبة إلى التكلم في قوله: ﴿لَّقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ﴾.

ومنها: حسن التقسيم في قوله: ﴿أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ الآية. لأن الآية لم تبق قسماً يقع في القلوب، من الصوارف عن القبول، إلا جاءت به، ألا ترى أنه تعالى بعد قوله: ﴿أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ ذكر الريبة؛ لأنه لا بد أن يكون الصارف عن الإجابة لحكم الله ورسوله، إما إبطان الكفر، وإظهار الإسلام، وهو المرض، أو التشكك والتردد، والتذبذب في حكم الله، هل هو جار على العدل، أو على غيره، وذلك هو الريبة. أو يكون الصارف خوف الحيف الذي لا يشعر به رجاء الإنصاف، فلم يبق قسم من الصوارف إلا ذكر فيها.

ومنها: الاستعارة اللطيفة في قوله: ﴿جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ﴾ شبه الأيمان التي يحلف بها المنافقون بالغين، فيها أقصى المراتب في الشدة، والتوكيد بـ﴿من﴾ يجهد نفسه في أمر شاق لا يستطيعه، ويبذل أقصى وسعه وطاقته بطريق الاستعارة التصريحية.

ومنها: المشاكلة في قوله: ﴿عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ﴾؛ أي: عليه أمر

التبليغ، وعليكم وزر التكذيب.

ومنها: الطباق بين الخوف والأمن في قوله: ﴿مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗاۚ﴾.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنْكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِنْ قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهِيرَةِ وَمِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَّافُونَ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٥٨) وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٥٩) وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ وَأَنْ يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَهُنَّ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٦٠) لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالَاتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُمْ مَفَاتِحَهُ أَوْ صَدِيقِكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٦١) إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٦٢) لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٦٣) أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٦٤)﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنْكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ . . .﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها؛ أن الله سبحانه وتعالى لما[1] نهى فيما سلف عن

(١) المراغي.

دخول الأجانب في البيوت، إلا بعد الاستئذان والتسليم على أهلها، وبين أن في ذلك الخير كل الخير لهم، فإن لم يجدوا فيها أحداً رجعوا، لما لذلك من كبير الأثر في المجتمع الإسلامي بصيانة الآداب العامة، ومنع القيل والقال، وحفظ الأعراض والأنساب.. استثنى في هذه الآيات دخول الأقارب بعضهم على بعض، ودخول المملوكين على سادتهم، وبين أن الاستئذان لا يكون في جميع الأوقات، بل في ثلاث أوقات، هي عورات لأرباب البيوت لما فيها من رفع الكلفة، وقلة التحفظ في الستر. ثم ذكر أن النساء الطاعنات في السن، إذا لم يطمعن في الزواج، فلا حرج عليهن إذا لم يستعملن الزينة، وعليهن أن يتعففن جهد الطاقة.

قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه، لما ذكر أن للمماليك والصبيان الدخول في البيوت في غير العورات الثلاث بلا استئذان، ولا إذن من أهل البيت.. ذكر هنا أنه لا حرج على أهل هذه الأعذار الثلاثة، في تركهم للجهاد وما يشبهه، وذلك يستلزم عدم الاستئذان منه ﷺ، فلهم القعود من غير استئذان، ولا إذن كما لا حرج عمن ذكروا بعدهم في الأكل، من البيوت المذكورة في الآية.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما أمر المؤمنين بالاستئذان عند الدخول، أمرهم بالاستئذان حين الخروج، ولا سيما إذا كانوا في أمر جامع مع الرسول ﷺ، كتشاور في قتال أحد، أو في حادث عرض، وبين أن من يفعل ذلك.. فهو من كامل الإيمان. ثم أمر رسوله أن يأذن لمن شاء منهم إذا استأذنه، ثم أمر المؤمنين أن يبجلوا نبيهم، ولا يسموه باسمه، بل يقولون يا نبي الله، ويا رسول الله. وليحذروا أن يخالفوا أمره. وسنته وشريعته، بل عليهم أن يزنوا أقوالهم وأفعالهم بأقواله وأفعاله، فما وافق ذلك قبل، وما خالفه، فهو مردود على فاعله وقائله، كائناً من كان. وقد ثبت في «الصحيحين» وغيرهما أن النبي ﷺ قال: «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد».

وقال أبو حيان[1]: لما افتتح الله سبحانه وتعالى، هذه السورة بقوله: ﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا﴾ وذكر أنواعاً من الأوامر والحدود، مما أنزله على الرسول عليه السلام.. اختتمها بما يجب له عليه السلام، على أمته من التتابع. والتشايع على ما فيه مصلحة الإسلام، ومن طلب استئذانه، إن عرض لأحد منهم عارض، ومن توقيره في دعائهم إياه.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ...﴾ الآية، روي[2] أن سبب نزول هذه الآية: أن رسول الله ﷺ بعث وقت الظهيرة إلى عمر ـ رضي الله عنه ـ غلاماً من الأنصار، يقال له: مدلج بن عمرو، وكان عمر نائماً فدق عليه الباب، ودخل، فاستيقظ وجلس فانكشف منه شيء، فقال: لوددت لو أن الله تعالى نهى آباءنا وأبناءنا، وخدمنا عن الدخول علينا في هذه الساعة إلا بإذن فانطلق معه إلى رسول الله ﷺ، فوجد الآية قد نزلت فخر ساجداً، وهذا أحد موافقات رأيه الصائب ـ رضي الله عنه ـ الوحي.

قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ...﴾ الآية، سبب نزول هذه الآية: ما أخرجه[3] عبد الرزاق عن معمر عن ابن أبي نجيح عن مجاهد قال: كان الرجل يذهب بالأعمى والأعرج والمريض إلى بيت أبيه، أو بيت أخيه أو بيت أخته أو بيت عمته أو بيت خالته، فكانت الزمنى يتحرجون من ذلك، يقولون إنما يذهبون بنا إلى بيوت غيرهم. فنزلت هذه الآية رخصةً لهم ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ...﴾ الآية.

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ قال: لما أنزل الله عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ﴾ تحرج المسلمون، وقالوا الطعام من أفضل الأموال، فلا يحل لأحد منا أن يأكل عند

(١) البحر المحيط.
(٢) المراغي.
(٣) لباب النقول.

أحد، فكف الناس عن ذلك، فنزل ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ﴾ إلى قوله: ﴿مَّفَاتِحَهُۥٓ﴾ الآية.

وأخرج الضحاك قال: كان أهل المدينة، قبل أن يبعث النبي ﷺ، لا يخالطهم في طعامهم أعمى، ولا مريض، ولا أعرج، لأن الأعمى لا يبصر طيب الطعام، والمريض لا يستوفي الطعام كما يستوفي الصحيح، والأعرج لا يستطيع المزاحمة على الطعام، فنزلت رخصة في مؤاكلتهم. وأخرج عن مقسم قال: كانوا يتقون أن يأكلوا مع الأعمى والأعرج فنزلت هذه الآية.

وأخرج[1] الثعلبي في «تفسيره» عن ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ قال: خرج الحارث غازياً مع رسول الله ﷺ، فخلف على أهله خالد بن زيد، فحرج أن يأكل من طعامه، وكان مجهوداً، فنزل قوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ﴾ الآية، وأخرج البزار بسند صحيح عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: كان المسلمون يرغبون في النفير فيدفعون مفاتيحهم إلى زمناهم ويقولون لهم: قد أحللنا لكم أن تأكلوا مما أحببتم، وكانوا يقولون إنه لا يحل لنا أنهم أذنوا عن غير طيب نفس، فأنزل الله: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ﴾ إلى قوله: ﴿أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ﴾.

وأخرج ابن جرير عن الزهري أنه سئل عن قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ﴾ ما بال الأعمى والأعرج والمريض ذكروا هنا، فقال: أخبرني عبد الله بن عبد الله، قال: إن المسلمين كانوا إذا غزوا، خلفوا زمناهم، وكانوا يدفعون إليهم مفاتيح أبوابهم، ويقولون: قد أحللنا لكم أن تأكلوا مما في بيوتنا، وكانوا يتحرجون من ذلك، ويقولون لا ندخلها وهم غيب، فأنزل الله عز وجل هذه الآية رخصةً لهم. وأخرج عن قتادة قال: نزلت: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا۟ جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا﴾ في حي من العرب، كان الرجل منهم لا يأكل طعامه وحده، وكان يحمله بعض يوم، حتى يجد من يأكله معه، فربما قعد، والطعام بين يديه،

---

(١) لباب النقول.

لا يجد من يؤاكله حتى يمسي، فيضطر إلى الأكل وحده. قال: بعض الشعراء:

إِذَا مـا صَنَعْتِ ٱلزَّادَ فَٱلْتَمِسِي لَهُ   أَكِيلاً فَإِنِّي لَسْتُ آكُلُهُ وَحْدِيْ

وأخرج عن عكرمة وأبي صالح، قالا: كانت الأنصار، إذا نزل بهم الضيف لا يأكلون حتى يأكل الضيف معهم، فنزلت رخصةً لهم.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ...﴾ الآية، أخرج[1] ابن إسحاق والبيهقي في «الدلائل» عن عروة ومحمد بن كعب القرظي وغيرهما، قالوا: لما أقبلت قريش عام الأحزاب، نزلوا بمجمع الأسيال من رومة بئر المدينة قائدها أبو سفيان، وأقبلت غطفان حتى نزلوا بنعمىٰ إلى جانب أحد، وجاء رسول الله ﷺ، الخبر فضرب الخندق على المدينة، وعمل فيه وعمل المسلمون فيه، وأبطأ رجال من المنافقين، وجعلوا يأتون بالضعيف من العمل، فيتسللون إلى أهليهم بغير علم، من رسول الله ﷺ، ولا إذن، وجعل الرجل من المسلمين، إذا نابته النائبة من الحاجة التي لا بد منها، يذكر ذلك لرسول الله ﷺ، يستأذنه في اللحوق لحاجته فيأذن له، وإذا قضى حاجته رجع، فأنزل الله في أولئك المؤمنين ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُواْ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ﴾ إلى قوله: ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمُۢ﴾.

قوله تعالى: ﴿لَّا تَجْعَلُواْ...﴾ الآية، سبب نزول هذه الآية: ما أخرجه[2] أبو نعيم في الدلائل من طريق الضحاك عن ابن عباس قال: كانوا يقولون: يا محمد، يا أبا القاسم، فأنزل الله: ﴿لَّا تَجْعَلُواْ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًاۚ﴾ فقالوا: يا نبي الله، يا رسول الله.

التفسير وأوجه القراءة

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ رجوع[3] إلى

---

(١) لباب النقول.

(٢) لباب النقول.

(٣) البيضاوي.

تتمة الأحكام السالفة، بعد الفراغ من الإلهيات، الدالة على وجوب الطاعة فيما سلف من الأحكام وغيره، والوعد عليها، والوعيد على الإعراض عنها. والمراد به خطاب الرجال والنساء غلب فيه الرجال. واللام في قوله: ﴿ليستأذنكم﴾ لام الأمر، والاستئذان[1] طلب الإذن، والإذن في الشيء إعلام بإجازته، والرخصة فيه؛ أي: يا أيها الذين أمنوا بالله ورسوله من الرجال والنساء، ليطلب منكم الإذن في الدخول عليكم الأناس، الذين ملكت أيديكم من العبيد والإماء الكبار. ﴿و﴾ الصبيان ﴿الذين لم يبلغوا الحلم﴾ أي لم يصلوا أوان البلوغ والاحتلام، القاصرون عن درجة البلوغ المعهود. والتعبير عن البلوغ بالاحتلام، لكونه أظهر دلائله، وبلوغ الغلام صيرورته بحال لو جامع لأنزل.

قرأ الجمهور ﴿الحلم﴾ بضمتين. وقرأ الحسن وأبو عمرو في رواية وطلحة ﴿الحلم﴾ بسكون اللام وهي لغة تميم، حالة كون الذين لم يبلغوا الحلم كائنين ﴿مِنكُمْ﴾ أيها الأحرار ﴿ثَلَٰثَ مَرَّٰتٍ﴾ ظرف[2] زمان ليستأذن؛ أي: ليستأذنوا في الدخول عليكم ثلاثة أوقات في اليوم والليلة؛ لأنها ساعات غرة وغفلة، أو منصوب على المصدرية؛ أي: ثلاث استئذانات. ورجح هذا الوجه أبو حيان. وعبر بالمرات عن الأوقات، لأن أصل وجوب الاستئذان هو بسبب مقارنة تلك الأوقات لمرور المستأذنين بالمخاطبين، لا نفس الأوقات.

ثم فسر تلك الأوقات بقوله: ﴿مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ﴾ لظهور أنه وقت القيام عن المضاجع، وطرح ثياب النوم، ولبس ثياب اليقظة. ومحله النصب، على أنه بدل من ثلاث مرات، بدل تفصيل من مجمل؛ أي: ليستأذنوا ثلاثة أوقات وقتاً من قبل صلاة الصبح. ﴿وَحِينَ تَضَعُونَ﴾ وتنزعون ﴿ثِيَابَكُم﴾ التي تلبسونها في النهار؛ أي: ووقتاً حين تخلعون ثيابكم عن أبدانكم لأجل القيلولة، وهي الاستراحة وسط النهار سواء كان معها نوم أم لا.

---

(١) روح البيان.
(٢) روح البيان.

وقوله: ﴿مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ﴾ بيان للحين، وهي شدة الحر عند انتصاف النهار؛ أي[1]: حين ذلك الوقت الذي هو الظهيرة. وقيل (من) بمعنى في؛ أي: تضعونها في الظهيرة، أو بمعنى اللام؛ أي: من أجل حر الظهيرة.

والتصريح[2] بمدار الأمر، أعني وضع الثياب في هذا الحين، دون الأول والآخر، لما أن التجرد عن الثياب فيه لأجل القيلولة لقلة زمانها ووقوعها في النهار، الذي هو مظنة لكثرة الورود والصدور، ليس من التحقق والاطراد بمنزلة ما في الوقتين، فإن تحقق التجرد واطراده فيهما أمر معروف لا يحتاج إلى التصريح به.

ثم ذكر سبحانه الوقت الثالث، فقال: ﴿وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ﴾ الآخرة ضرورة، أنه وقت التجرد عن اللباس والالتحاف باللحاف، وهو كل ثوب تغطيت به؛ أي: وقتاً بعد صلاة العشاء الآخرة.

وإنما خص[3] سبحانه هذه الثلاثة الأوقات، لأنها ساعات الخلوات، ووضع الثياب، فربما يبدو من الإنسان ما لا يجوز أن يراه أحد من العبيد والصبيان، فأمرهم بالاستئذان في هذه الأوقات. وغير العبيد والصبيان يستأذن في جميع الأوقات.

ثم أجمل سبحانه هذه الأوقات بعد التفصيل، فقال: ﴿ثَلَٰثُ عَوْرَٰتٍ﴾ كائنة، ﴿لَّكُمْ﴾ أيها المؤمنون والمؤمنات بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف؛ أي: هذه الثلاثة المذكورة ثلاث عورات لكم؛ أي: ثلاثة أوقات يختل فيها عادةً ستر عورات لكم. أو المعنى هذه ثلاث خلوات لكم. كما في «تنوير المقياس»، والعورة: الخلل الذي يرى منه ما يراد ستره. وسميت الأوقات المذكورة عورات مع أنها ليست نفس العورات، بل هذه أوقات العورات، على طريق تسمية الشيء باسم ما يقع فيه، مبالغة في كونه محلاً له.

---

(١) الفتوحات.

(٢) روح البيان.

(٣) الخازن.

قرأ[١] ابن كثير ونافع وأبو عمرو وابن عامر، وحفص عن عاصم ﴿ثلاث عورات﴾ برفع الثاء المثلثة من ثلاث.

والمعنى: هذه الأوقات هي ثلاث عورات، لأن الإنسان يضع فيها ثيابه، فربما بدت عورته. وقرأ حمزة والكسائي وأبو بكر عن عاصم ﴿ثلاث عورات﴾ بنصب المثلثة. قال أبو علي وجعلوه بدلاً من قوله: ﴿ثَلَٰثَ مَرَّٰتٍۚ﴾ والأوقات ليست بعورات، ولكن المعنى أنها أوقات ثلاث عورات، فلما حذف المضاف أعرب بإعراب المحذوف.

وقرأ[٢] أبو عبد الرحمٰن السلمي وسعيد بن جبير والأعمش ﴿عَوَرَاتٍ﴾ بفتح الواو وهي لغة هديل بن مدركة وبني تميم.

﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ﴾ أيها المؤمنون الأحرار والحرائر في تمكينهم من الدخول عليكم ﴿وَلَا عَلَيْهِمْ﴾؛ أي: ولا على المماليك والخدم والصبيان ﴿جُنَاحٌۢ﴾؛ أي: حرج وإثم في الدخول عليكم بغير استئذان لعدم ما يوجبه من مخالفة الأمر، والاطلاع على العورات، ولعدم تكليف الصبيان. ﴿بَعْدَهُنَّۚ﴾؛ أي: بعد مضي هذه الأوقات الثلاثة. فرفع الحرج عن الفريقين جميعاً؛ أي: بعد[٣] كل واحدة من تلك العورات الثلاث، وهي الأوقات المتخللة بين كل وقتين منهن، فالاستئذان لهؤلاء مشروع فيها، لا بعدها. ولغيرهم في جميع الأوقات. وهذه الجملة مستأنفة، مقررة للأمر بالاستئذان في تلك الأحوال خاصة. ويجوز أن تكون في محل رفع صفةً لثلاث عورات على قراءة الرفع فيها. والمعنى: هن ثلاث عورات مخصوصة بالاستئذان في تلك الأحوال خاصة.

ثم بين العلة في ترك الاستئذان في هذه الأوقات، بقوله: ﴿طَوَّٰفُونَ﴾ وهو خبر لمبتدأ محذوف؛ أي: هم يعني المماليك والصبيان جوالون ﴿عَلَيْكُم﴾ أيها الأحرار والحرائر للخدمة طوافاً كثير، يذهبون ويجيؤون. والطواف: الدوران

---

(١) زاد المسير.

(٢) البحر المحيط.

(٣) روح البيان.

حول الشيء. ومنه الطواف بالبيت. كما سيأتي في مباحث الصرف. ومنه أيضاً الحديث في الهرة: «إنما هي من الطوافين عليكم والطوافات»؛ أي: هم خدمكم فلا بأس أن يدخلوا عليكم في غير هذه الأوقات بغير إذن؛ أي: يدخلون عليكم في المنازل غدوة وعشية بغير إذن، إلا في تلك الأوقات الثلاثة. والجملة مستأنفة مبينة للعذر المرخص في ترك الاستئذان.

ومعنى ﴿بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾؛ أي: بعضكم يطوف، أو طائف، وهم المماليك والصغار على بعض، وهم الأحرار والكبار. وهذه[1] الجملة بدل مما قبلها، أو مؤكدة لها.

والمعنى: أن كلا منكم يطوف على صاحبه، العبيد على الموالي، والموالي على العبيد؛ أي: هم يطوفون عليكم للخدمة، وأنتم تطوفون عليهم للاستخدام. ولو كلفهم الاستئذان في كل طوفة؛ أي: في هذه الأوقات الثلاثة وغيرها.. لضاق الأمر عليهم. فلذا رخص لكم في ترك الاستئذان فيما وراء هذه الأوقات.

وقرأ ابن أبي عبلة[2]: ﴿طوافين﴾ بالنصب على الحال من ضمير عليهم. وقال الحسن: إذا بات الرجل خادمه معه، فلا استئذان عليه، ولا في هذه الأوقات الثلاثة. والإشارة في قوله: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ إلى مصدر الفعل الذي بعده، والكاف صفة لمصدر محذوف.

﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ﴾؛ أي: يبين الله سبحانه وتعالى لكم أيها المؤمنين، الآيات الدالة على الأحكام تبييناً كائناً مثل تبيين هذه الآيات المذكورة هنا؛ أي: ينزلها مبينة واضحة الدلالات عليها. لا أنه تعالى بينها بعد أن لم تكن كذلك. ﴿وَٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿عَلِيمٌ﴾؛ أي: مبالغ في العلم بجميع المعلومات جليلها ودقيقها، فيعلم أحوالكم. ﴿حَكِيمٌ﴾ في جميع أفاعيله فيشرع لكم ما فيه صلاح أمركم معاشاً ومعاداً.

---

(١) الشوكاني.
(٢) البحر المحيط.

وحاصل معنى الآية: أي لا يدخل[1] أيها المؤمنون، في بيوتكم عبيدكم، وإمائكم، ثلاث مرات في ثلاثة أوقات من ساعات ليلكم ونهاركم إلا بإذن قبل صلاة الفجر؛ لأنه وقت القيام من المضاجع وطرح ثياب النوم، ولبس ثياب اليقظة وكل ذلك مظنة انكشاف العورة، وحين تخلعون ثيابكم التي تلبسونها وقت الظهيرة، ومن بعد صلاة العشاء، لأنه وقت خلع ثياب اليقظة، ولبس ثياب النوم. وخص هذه الأوقات الثلاثة، لأنها ساعات الخلوة، ووضع الثياب والالتحاف باللحاف. وهكذا حكم حال الذين لم يبلغوا الحلم من أطفالكم، ثم علل طلب الاستئذان بقوله: ﴿ثَلَٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ﴾؛ أي: لأن هذه الأوقات الثلاثة ثلاث عورات لكم، يختل فيها التستر عادة.

وبعد أن بين حكم هذه الأوقات الثلاث، بين حكم ما عدا ذلك، فقال: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ﴾؛ أي: ليس عليكم معشر أرباب البيوت، ولا على الذين ملكت أيمانكم من العبيد والإماء، ولا على الذين لم يبلغوا الحلم من أطفالكم حرج، ولا إثم في غير هذه العورات الثلاث.

والخلاصة: لا حرج ولاإثم على الناس أن يدخل عليهم مماليكهم البالغون وصبيانهم الصغار بغير استئذان بعد هذه الأوقات الثلاث. أما من بلغ الحلم فإنه لا يدخل على الرجل وأهله إلا بإذن على كل حال.

ثم علل الإباحة في غيرها بقوله: ﴿طَوَّٰفُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾؛ أي: هؤلاء المماليك والصبيان الصغار يدخلون ويخرجون على مواليهم وأقربائهم في منازلهم غدوة وعشية بغير إذن؛ لأنهم يخدمونهم، أو لاحتياج الأقارب إليهم. كما أن السادة والأقارب يطوفون على ذوى قراباتهم ومماليكهم إذا عرضت لهم حاجة إليهم.

ثم بين فضله على عباده في بيان أحكام دينهم لهم. فقال: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾؛ أي: ومثل ذلك التبيين لتلك الأحكام يبين لكم

---

(١) المراغي.

أيها المؤمنون شرائع دينكم وأحكامه، والله عليم بما يصلح أحوال عباده. حكيم في تدبير أمورهم، فيشرع لهم ما يصلح أحوالهم في المعاش والمعاد.

روى سعيد بن جبير عن ابن عباس، ترك الناس ثلاث آيات، فلم يعملوا بهن ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ الآية. وقوله في النساء: ﴿وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُوْلُواْ ٱلْقُرْبَىٰ﴾ الآية. وقوله في الحجرات: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾.

وعن عكرمة عن ابن عباس، أن رجلين من أهل العراق، سألاه عن الاستئذان في العورات الثلاث، التي أمر الله بها في القرآن، فقال: إن الله ستير يحب الستر، كأن الناس ليس لهم ستور على أبوابهم. وحجال في بيوتهم، فربما فجأ الرجل خادمه، أو ولده، أو يتيمه في حجره، وهو على أهله، فأمرهم الله أن يستأذنوا في تلك العورات، ثم بسط الله عليهم الرزق فاتخذوا الستور، واتخذوا الحجال، فرأوا أن ذلك قد كفاهم، من الاستئذان الذي أمروا به.

ففيه[1] دليل على أن الحكم إذا ثبت لمعنى، فإذا زال المعنى، زال الحكم، فالتبسط في اللباس والمعاش والسكنى، ونحوها مرخص فيه، إذا لم يؤد إلى كبر واغترار. قال عمر ـ رضي الله عنه ـ: إذا وسع الله عليكم، فوسعوا على أنفسكم. ويقال: اليسار مفسدة للنساء، لاستيلاء شهواتهن على عقولهن. وفي الحديث: «إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده». يعني: إذا أتى الله عبده نعمته من نعم الدنيا، فليظهرها من نفسه، وليلبس ثياباً نظيفةً، يليق بحاله، ولتكن نيته في لبسه إظهار نعمة الله عليه، ليقصده المحتاجون لطلب الزكاة والصدقات، وليس لبس الخلق مع اليسار من التواضع.

وفي الآية رخصة في اتخاذ العبيد والإماء للخدمة، لمن قام بحقهم. وبيان أن حق الموالي عليهم الخدمة. ودلت الآية على أن من لم يبلغ، وقد عقل يؤمر بفعل الشرائع. وينهي عن ارتكاب القبائح، فإنه تعالى أمرهم بالاستئذان في

(١) روح البيان.

الأوقات المذكورة. وفي الحديث: «مروهم بالصلاة وهم أبناء سبع، واضربوهم على تركها وهم أبناء عشر». وإنما يؤمر بذلك ليعتاده، ويسهل عليه بعد البلوغ، ولذا كره إلباسه ذهباً أو حريراً لئلا يعتاده، والإثم على الملبس، كما في «القهستاني».

وقال ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ إذا بلغ الصبي عشر سنين، كتبت له حسناته، ولم تكتب سيئاته، حتى يحتلم. قال في الأشباه، وتصح عبادة الصبي، وإن لم تجب عليه، واختلفوا في ثوابها. والمعتمد أنه له، وللمعلم ثواب التعليم. وكذا جميع حسناته، وليس كالبالغ في النظر إلى الأجنبية، والخلوة بها. فيجوز له الدخول على النساء إلى خمس عشرة سنة. كما في «الملتقط»، فإن قلت: كيف أمر الله تعالى بالاستئذان لهم، مع أنهم غير مكلفين؟ قلت: الأمر في الحقيقة لأوليائهم ليؤدبوهم. كذا في «فتح الرحمٰن».

ولما بين الله سبحانه حكم الأرقاء والصبيان، الذين هم أطوع للأمر، وأقبل لكل خير.. أتبعه بحكم البالغين الأحرار بقوله: ﴿وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَٰلُ﴾ الأحرار الأجانب[1]، فخرج العبد البالغ، فإنه لا يستأذن في الدخول على سيدته في غير الأوقات الثلاثة المذكورة كما قال في التتمة: يدخل العبد على سيدته بلا إذنها بالإجماع. ﴿مِنكُمُ﴾ أيها المؤمنون ﴿ٱلْحُلُمَ﴾؛ أي: سن الاحتلام والبلوغ. ﴿فَلْيَسْتَـْٔذِنُوا۟﴾؛ أي: فليطلبوا الإذن في الدخول عليكم إن أرادوا الدخول. ﴿كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ﴾ بلغوا الحلم ﴿مِن قَبْلِهِمْ﴾؛ أي: كما يستأذن الذين ذكروا من قبلهم في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا۟﴾ الآية. فالمعنى: فليستأذنوا استئذاناً كائناً مثل استئذان المذكورين قبلهم، بأن يستأذنوا في جميع الأوقات، ويرجعوا إن قيل لهم: ارجعوا.

والمعنى: إن[2] هؤلاء الذين بلغوا الحلم، يستأذنون في جميع الأوقات، في أوقات العورات الثلاث وفي غيرها. كما استأذن الذين من قبلهم من الكبار،

---

(١) روح البيان.
(٢) الشوكاني.

الذين أمروا بالاستئذان من غير استثناء.

وذكر الله[1] سبحانه في هذه الآية حكم الأطفال إذا بلغوا، ولم يذكر حكم ما ملكت أيماننا، مع أن ما قبلها فيه ذكر المماليك والأطفال، لأن حكم ما ملكت اليمين واحد، كبارهم وصغارهم، وهو الاستئذان في الساعات الثلاث التي ذكرت في الآية قبل فقط. وقرأ الحسن ﴿الحلْم﴾ بسكون اللام فحذف الضمة لثقلها. كما مر.

ثم أكد نعمه عليهم ببيان أحكام دينهم بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ﴾؛ أي: كما بين لكم ما ذكر غاية البيان ﴿يُبَيِّنُ﴾ الله سبحانه وتعالى ﴿لَكُمْ﴾ أيها المؤمنون ﴿ءَايَـٰتِهِۦ﴾؛ أي: آيات أحكامه مما فيه سعادتكم في دنياكم وآخرتكم. ﴿وَٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿عَلِيمٌ﴾ بأحوال خلقه ظواهرها وبواطنها، فيجازيهم عليها. ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما دبره وشرعه لهم. كرره للتأكيد والمبالغة في الأمر بالاستئذان.

فائدة: فإن قلت: قوله تعالى: ﴿وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَـٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَـْٔذِنُوا۟﴾ الآية. ختم[2] هذه الآية بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ﴾ بالإضافة إلى ضميره. وختم ما قبلها وما بعدها بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ﴾ بالتعريف بأل، فما الفرق بينها، وبينهما؟

قلت: الفرق أن ما قبلها وما بعدها يشتملان على علامات يمكننا الوقوف عليها. وهي في الأولى: ﴿مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ﴾ وفي الأخيرة: ﴿مِنۢ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَـٰتِكُمْ﴾ الآية. فختم الآيتين بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ﴾ وأما بلوغ الأطفال، فلم يذكر له علامات يمكننا الوقوف عليها، بل تفرد تعالى بعلمه بذلك، فخصها بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ﴾ بالإضافة إليه. ا هـ. «فتح الرحمٰن».

ولما بين سبحانه، حكم الحجاب، حين إقبال الشباب، أتبعه بحكمه حين إدباره، فقال: ﴿وَٱلْقَوَٰعِدُ﴾ مبتدأ. جمع قاعد بلا هاء، ليدل حذفها على أنه قعود

---

(١) المراغي.

(٢) فتح الرحمٰن.

الكبر لا قعود الجلوس. كما قالوا: امرأة حامل، ليدل بحذف الهاء على أنه حمل حبل، لا حمل متاع. ويقال: قاعدة في بيتها بمعنى جالسة في بيتها، وحاملة على ظهرها. ﴿مِنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ حال من الضمير المستكن في القواعد؛ أي: والعجائز اللاتي قعدن عن الحيض والحمل حالة كونهن من النساء ﴿ٱلَّتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا﴾ وزواجاً، صفة للقواعد لا للنساء؛ أي: لا يطمعن في النكاح لكبرهن، فاعتبر فيهن القعود عن الحيض والحمل والكبر أيضاً، لأنه ربما ينقطع الحيض والرغبة فيهن باقية. ﴿فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ﴾. الجملة خبر المبتدأ؛ أي: فليس عليهن إثم ووبال في ﴿أَن يَضَعْنَ﴾ وينزعن ﴿ثِيَابَهُنَّ﴾؛ أي: الثياب الظاهرة كالجلباب والإزار فوق الثياب، والقناع فوق الخمار عند الرجال الأجانب، لا الثياب التي على العورة الخاصة. وإنما جاز لهن ذلك لانصراف الأنفس عنهن، إذ لا رغبة للرجال فيهن، فأباح الله سبحانه لهن ما لم يبحه لغيرهن تخفيفاً عليهن.

ثم استثنى حالةً من حالاتهن. فقال: ﴿غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتٍ بِزِينَةٍ﴾ حال من فاعل يضعن؛ أي: حالة كونهن غير مظهرات للزينة الخفية، التي أمرن بإخفائها في قوله: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾ كالسوار والخلخال والقلادة.

والمعنى[1]: من غير أن يردن بوضع الجلابيب إظهار زينتهن، ولا متعرضات بالتزين لينظر إليهن الرجال. والتبرج التكشف والظهور للعيون. ومنه بروج مشيدة، وبروج السماء. ومنه قولهم سفينة بارجة؛ أي: لا غطاء عليها.

وقال في «فتح الرحمٰن»، فإن قلت: كيف أباح تعالى بذلك للقواعد من النساء، وهن العجائز، التجرد من الثياب بحضرة الرجال؟

قلت: المراد بالثياب الزائدة على ما يسترهن.

والمعنى: أي[2] والنساء اللواتي قعدن عن الولد كبراً، وقد يئسن من التبعل، فلا يطمعن في الأزواج، فليس عليهن إثم، ولا حرج في أن يخلعن

---

(١) الشوكاني. (٢) المراغي.

ثيابهن الظاهرة. كالملحفة والجلباب الذي فوق الخمار، إذا كن لا يبدين زينة خفية، كشعر ونحر وساق لدى المحارم وغير المحارم من الغرباء.

وخلاصة ذلك: أنه لا جناح على القواعد من النساء أن يجلسن في بيوتهن بدرع وخمار ويضعن الجلباب، ما لم يقصدن بذلك الزينة، وإظهار ما يجب إخفاؤه. هذا إذا لم يكن فيهن بقية من جمالٍ تورث الشهوة، فإن كان فيهن ذلك، فلا يدخلن في حكم الآية.

﴿وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ﴾؛ أي: وإن يطلبن العفة بترك وضع الثياب. وهو مبتدأ خبره ﴿خَيْرٌ لَّهُنَّ﴾ من وضعها لبعده من التهمة؛ أي: استعفافهن بعدم إلقاء الجلباب خير لهن من الإلقاء؛ أي: وإن تعففن عن وضع جلابيبهن وأرديتهن، فلبسها كالشباب، كان ذلك خيراً لهن من خلعها، لتباعدهن حينئذٍ عن التهمة. ولقد قالوا: لكل ساقطة في الحي لاقطة.

وقرأ ابن مسعود[1]: ﴿وأن يعففن﴾ بغير سين. قال القاضي أبو يعلى: وفي هذه[2] الآية دلالة، على أنه يباح للعجوز كشف وجهها ويديها بين يدي الرجال. وأما شعرها فيحرم النظر إليه كشعر الشابة.

ثم توعد من يخالف تلك الأوامر فقال: ﴿وَاللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿سَمِيعٌ﴾ بما يجري بينهن وبين الرجال من الأحاديث والمقاولات ﴿عَلِيمٌ﴾ بمقاصدهن، لا تخفى عليه خافية من أمرهن، فاحذروا أن يسول لكم الشيطان مخالفة ما به أمر، وعنه نهى، فهو سبحانه سميع لما يقوله كل قائل، عليم بمقاصده. فيجازي كلا على عمله الظاهر والباطن، وفي ذكر هاتين الصفتين توعد وتحذير.

واعلم: أن العجوز[3] إذا كانت بحيث لا تشتهى جاز النظر إليها لا من الشهوة. وفيه إشارة إلى أن الأمور إذا خرجت عن معرض الفتنة، وسكنت نائرة الآفات سهل الأمر، وارتفعت الصعوبة، وأبيحت الرخص، ولكن التقوى فوق

---

(١) الشوكاني.
(٢) زاد المسير.
(٣) روح البيان.

أمر الفتوى. كما أشار إليه قوله تعالى: ﴿وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ﴾.

وفي الحديث: «لا يبلغ العبد أن يكون من المتقين حتى يدع ما لا بأس به، حذراً مما به بأس». قال ابن سيرين: ما غشيت امرأة قط، لا في يقظة ولا في نوم، غير أم عبد الله. وإني لأرى المرأة في المنام، فاعلم أنها لا تحل لي، فأصرف بصري. قال بعضهم: ليت عقلي في اليقظة كعقل ابن سيرين في المنام.

واعلم: أن عدم رجاء النكاح إنما هو من طرف الرجل لا من طرف العجوز غالباً، فإنه حكي أن عجوزاً مرضت، فأتى ابنها بطبيب، فرآها متزينة بأثواب مصبوغة فعرف حالها، فقال: ما أحوجها إلى الزوج. فقال الابن: ما للعجائز والأزواج. فقالت: ويحك أنت أعرف من الطبيب.

وحكي: أنه لما مات زوج رابعة العدوية، استأذن عليها الحسن البصري وأصحابه، فأذنت لهم بالدخول عليها، وأرخت ستراً، وجلست وراء الستر. فقال لها الحسن وأصحابه: إنه قد مات بعلك ولا بد لك منه. قالت: نعم وكرامةً. قالت: من أعلمكم حتى أزوِّجه نفسي، فقالوا: الحسن البصري. فقالت: إن أجبتني في أربع مسائل فأنا لك. فقال: سلي إن وفقني الله أجبتك. فقالت: ما تقول: لو مت أنا وخرجت من الدنيا، مت على الإيمان أم لا؟ قال: هذا غيب لا يعلمه إلا الله. ثم قالت: ما تقول: لو وضعت في القبر وسألني منكر ونكير أأقدر على جوابهما أم لا. قال: هذا غيب أيضاً. ثم قالت: إذا حشر الناس يوم القيامة وتطايرت الكتب أأعطى كتابي بيميني أم بشمالي. قال: هذا غيب أيضاً. ثم قالت: إذا نودي في الخلق: فريق في الجنة، وفريق في السعير، كنت أنا من أي الفريقين؟ قال: هذا غيب أيضاً. قالت: من كان ليس له علم هذه الأربعة، كيف يشتغل بالتزوج. ثم قالت: يا حسن أخبرني كم خلق الله العقل؟ قال: عشرة أجزاء تسعة للرجال وواحد للنساء. ثم قالت: يا حسن كم خلق الله الشهوة. قال: عشرة أجزاء، تسعة للنساء وواحد للرجال. قالت: يا حسن أنا أقدر على حفظ تسعة أجزاء من الشهوة بجزء من العقل. وأنت لا تقدر على حفظ جزء من الشهوة بتسعة أجزاء من العقل. فبكى الحسن وخرج من عندها.

وعن سليمان بن داود عليهما السلام، الغالب على شهوته أشد من الذي يفتح المدينة وحده.

﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ﴾؛ أي: على فاقد البصر ﴿حَرَجٌ﴾؛ أي: إثم ووبال ﴿وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ﴾ وهو من كان في رجله اعوجاج يمنعه من الاعتدال في المشي، أو من الاستواء في الجلوس. ﴿حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ﴾؛ أي: على من به آفة؛ أي: ليس[1] على هؤلاء الثلاثة حرج في مؤاكلتهم مع الأصحاء، كانت هذه الطوائف يتحرجون من مؤاكلة الأصحاء حذراً من استقذارهم إياهم، وخوفاً من تأذيهم بأفعالهم وأوضاعهم. فإن الأعمى ربما سبقت إليه عين مؤاكلة ولا يشعر به. والأعرج يتفسح في مجلسه، فيأخذ أكثر من موضعه فيضيق على جليسه. والمريض لا يخلو عن حالة تؤذي قرينه؛ أي: برائحة كريهة أو جرح يبدو، أو أنف يسيل، أو نحو ذلك. فأنزل الله عز وجل ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ﴾ إلخ؛ أي: لا بأس لهم بأن يأكلوا مع الناس ولا مأثم عليهم. وعلى هذا التأويل فـ(على) على معناها.

وقال ابن[2] عباس، لما أنزل الله سبحانه قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ﴾ تحرج المسلمون عن مؤاكلة المرضى والزمنى والعمي والعرج، وقالوا: الطعام أفضل الأموال، وقد نهانا الله عز وجل عن أكل الأموال بالباطل، والأعمى لا يبصر موضع الطعام الطيب، والأعرج لا يتمكن من الجلوس، ولا يستطيع المزاحمة على الطعام، والمريض يضعف عن التناول، فلا يستوفي من الطعام حقه. فأنزل الله هذه الآية.

فعلى هذا التأويل يكون (على) بمعنى في، أي: ليس في الأعمى. **والمعنى**: ليس عليكم في مؤاكلة الأعمى والمريض والأعرج حرج.

وقيل: نزلت ترخيصاً لهؤلاء، في الأكل من بيوت من سماهم في باقي الآية. وذلك أن هؤلاء كانوا يدخلون على الرجل في طلب الطعام فإذا لم يكن

---

(١) روح البيان. (٢) الخازن.

عنده شيء، ذهب بهم إلى بيت أبيه أو بيت أمه، أو بعض من سمى الله تعالى. فكان أهل الزمانة يتحرجون من ذلك، ويقولون ذهب بنا إلى غير بيته، فأنزل الله هذه الآية. وقيل: كان المسلمون إذا غزوا دفعوا مفاتيح بيوتهم إلى الزمنى، ويقولون لهم: قد أحللنا لكم أن تأكلوا مما في بيوتنا، فكانوا يتحرجون من ذلك، ويقولون: لا ندخلها وأصحابها غيب. فأنزل الله تعالى هذه الآية رخصة لهم.

وقيل: نزلت رخصة لهؤلاء في التخلف عن الجهاد، فعلى هذا التأويل، تم الكلام عند قوله: ﴿وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾ كلام مستأنف.

والحاصل[1]: أن رفع الحرج عن الأعمى والأعرج والمريض، إن كان باعتبار مؤاكلة الأصحاء، أو دخول بيوتهم.. فيكون ﴿وَلَا عَلَىٰ﴾ متصلاً بما قبله، وإن كان رفع الحرج عن أولئك باعتبار التكاليف، التي يشترط فيها وجود البصر، وعدم العرج وعدم المرض.. فقوله: ﴿ولا على أنفسكم﴾ ابتداء كلام، غير متصل بما قبله.

قيل: لما نزلت: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ﴾ قالوا لا يحل لأحد منا، أن يأكل عند أحد، فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا۟ مِنۢ بُيُوتِكُمْ﴾؛ أي: لا حرج عليكم أن تأكلوا من بيوت أولادكم وعيالكم وأزواجكم بغير إذن بالعدل، فالكلام على حذف[2] مضاف وإلا فانتفاء الحرج عن أكل الإنسان من بيت نفسه معلوم، فلا حاجة إلى بيانه، لأن بيت ولده أو زوجته كبيته، فنسبه إليه لما جاء في الحديث من قوله ﷺ: «أنت ومالك لأبيك». وقوله ﷺ: «إن أطيب ما يأكل المرء من كسبه، وإن ولده من كسبه». فلذا لم يذكر سبحانه بيوت الأولاد، وذكر بيوت الآباء وبيوت الأمهات، ومن بعدهم. وقيل[3]: إنما ذكره مع كونه معلوماً، ليعطف عليه ما بعده في اللفظ، وليساويه في الحكم.

---

(١) الشوكاني.
(٢) فتح الرحمٰن.
(٣) المراغي.

﴿أَوْ﴾ تأكلوا من ﴿بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ﴾ وإن علوا، جمع أب. والأب الوالد؛ أي[1]: حيوان يتولد من نطفته حيوان آخر. ﴿أَوْ﴾ من ﴿بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمْ﴾ وإن علون. جمع أم زيدت الهاء فيه كما زيدت في أهراق من أراق. والأم بإزاء الأب؛ أي: الوالدة. وقرأ طلحة: ﴿إمهاتكم﴾ بكسر الهمزة. ﴿أَوْ﴾ من ﴿بُيُوتِ إِخْوَٰنِكُمْ﴾ جمع أخ. والأخ: هو المشارك لآخر في الولادة من الطرفين، أو من أحدهما، أو من الرضاع، ويستعار لكل مشارك لغيره في القبيلة، أو في الدين، أو في صنعة، أو في معاملة، أو في مودة أو في غير ذلك من المناسبات. ﴿أَوْ﴾ من ﴿بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمْ﴾ جمع أخت. والأخت تأنيث الأخ. وجعل التاء فيها كالعوض عن المحذوف منه. ﴿أَوْ﴾ من ﴿بُيُوتِ أَعْمَٰمِكُمْ﴾ جمع عم. والعم أخ الأب، والعمة أخته. وأصل ذلك من العموم، وهو الشمول ومنه العامة لكثرتهم، وعمومهم في البلد، ومنه العمامة أيضاً لشمولها الرأس. ﴿أَوْ﴾ من ﴿بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمْ﴾ جمع عمة. وهي أخت الأب كما مر آنفاً. ﴿أَوْ﴾ من ﴿بُيُوتِ أَخْوَٰلِكُمْ﴾ جمع خال. والخال أخو الأم. والخالة أختها. ﴿أَوْ﴾ من ﴿بُيُوتِ خَٰلَٰتِكُمْ﴾ جمع خالة. وإنما نفى[2] سبحانه الحرج في الأكل من بيوت هؤلاء المذكورين، لما علم بالعادة، أن هؤلاء تطيب نفوسهم بأكل من يدخل عليهم من الأقارب.

وقيد بعض العلماء[3]، جواز الأكل من بيوت هؤلاء بالإذن منهم، وقال آخرون: لا يشترط الإذن. قيل: وهذا إذا كان الطعام مبذولاً، فإن كان محرزاً دونهم لم يجز لهم أكله.

ثم قال سبحانه: ﴿أَوْ﴾ أن تأكلوا من ﴿مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ﴾؛ أي: أو من البيوت التي تملكون التصرف فيها بإذن أربابها، وذلك كالوكلاء والعبيد والخزان، فإنهم يملكون التصرف في بيوت من أذن لهم بدخول بيته، بإعطائهم مفاتحه.

---

(١) روح البيان.
(٢) المراغي.
(٣) الشوكاني.

وقال بعضهم[1]: هو ما يكون تحت أيديهم، وتصرفهم من ضيعة، أو ماشية وكالةً أو حفظاً، فملك المفاتح حينئذٍ كناية عن كون المال في يد الرجل، وحفظه.

والمعنى: ليس عليكم جناح أن تأكلوا من أموال لكم عليها يد، لكن لا من أعيانها، بل من أتباعها وغلاتها، كثمر البستان، ولبن الماشية، فلا حرج على وكيل الرجل، وقيمه في ضيعته وماشيته، أن يأكل من ثمر الضيعة ويشرب من لبن الماشية، ولكن لا يحمل ولا يدخر. وهذا إذ لم يجعل له أجراً على ذلك، فإن جعل له أجراً فلا يحل له أكل شيء منها.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿ملكتم﴾ بفتح الميم واللام خفيفة. وقرأ ابن جبير: بضم الميم وكسر اللام مشددة. وقرأ الجمهور ﴿مَّفَاتِحَهُۥٓ﴾ جمع مفتح. وابن جبير: ﴿مفاتيحه﴾ جمع مفتاح. وقتادة وهارون عن أبي عمرو: مفتاحه مفرداً.

﴿أَوْ﴾ من بيوت ﴿صَدِيقِكُمْۚ﴾ قرىء بكسر الصاد اتباعاً لحركة الدال، حكاه حميد الخزاز. والصديق يكون للواحد والجمع. والصداقة: صدق الاعتقاد في المودة، كما سيأتي في مبحث اللغة. والمعنى: أو من بيوت أصدقائكم، الذين يصدقونكم المودة، وتصدقونهم، وإن لم يكن بينكم وبينهم قرابة نسبية، فإنهم أرضى بالتبسط، وأسر به من كثير من الأقرباء. هذا إذا علم رضاهم بذلك بالإذن، أو بشاهد الحال، ولا فرق بينهم وبين غيرهم، إذا وجد الإذن صراحةً.

وعن الحسن، أنه دخل يوماً بيته، فرأى جماعة من أصدقائه، قد أخذوا طعاماً من تحت سريره، وهم يأكلون فتهلل وجهه سروراً، وقال: هكذا وجدناهم، يعني: من لقي من البدريين.

وعن جعفر الصادق، من عظم حرمة الصديق، أن جعله الله تعالى من الأنس والثقة والانبساط، ورفع الحشمة بمنزلة النفس والأب والأخ. وقيل: لأفلاطون من أحب إليك أخوك أو صديقك؟ فقال: لا أحب أخي إلا إذا كان صديقي، ولكن أنى هو، فقد أثر عن هشام بن عبد الملك أنه قال: نلت ما نلت

---

(1) روح البيان. (2) البحر المحيط.

حتى الخلافة وأعوزني صديق لا أحتشم منه.

قال المفسرون[1]: هذا كله إذا علم رضا صاحبك بصريح الإذن، أو بقرينة دالة كالقرابة والصداقة ونحو ذلك. ولذلك خص هؤلاء بالذكر لاعتيادهم التبسط فيما بينهم. والمعنى: ليس عليكم جناح، في أن تأكلوا من منازل هؤلاء إذا دخلتموها، وإن لم يحضروا ويعلموا من غير أن تتزودوا وتحملوا.

قال الإمام الواحدي في «الوسيط»: وهذه الرخصة في أكل مال القرابات، وهم لا يعلمون ذلك كرخصته لمن دخل حائطاً، وهو جائع أن يصيب من ثمره، أو مر في سفر بغنم، وهو عطشان أن يشرب من رسلها توسعةً منه تعالى، ولطفاً بعباده، ورغبةً بهم عن دناءة الأخلاق وضيق النظر.

وإنما خص هؤلاء بالذكر لأنهم اعتادوا التبسط بينهم، والرضا فيهم محقق غالباً. والمقصود من هذه الآية، إثبات الإباحة في الجملة، لا إثبات الإباحة في جميع الأوقات.

قال ابن زيد[2]: وهذا شيء قد انقطع، إنما كان في أوله، ولم يكن لهم ستور أبواب، أو كانت الستور مرخاة فربما دخل الرجل البيت، وليس فيه أحد، وربما وجد الطعام وهو جائع، فسوغ له أن يأكل منه. ثم قال: ذهب ذلك اليوم، البيوت فيها أهلها، فإذا خرجوا أغلقوا. ا هـ.

ثم استأنف سبحانه، حكماً آخر من نوع ما قبله، فقال: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ﴾ أيها المؤمنون ﴿جُنَاحٌ﴾؛ أي: مأثم في ﴿أَن تَأْكُلُوا۟﴾ من بيوتكم حال كونكم ﴿جميعاً﴾؛ أي: مجتمعين ﴿أَوْ﴾ حال كونكم ﴿أَشْتَاتًا﴾؛ أي: متفرقين، جمع شت، بمعنى: متفرق على أنه صفة، كالحق، أو بمعنى تفرق على أنه مصدر، وصف به مبالغةً، وأما شتى فجمع شتيت، كمرضى ومريض؛ أي: ليس عليكم جناح أن تأكلوا من بيوتكم، مجتمعين أو متفرقين. وقد كان بعض العرب، يتحرج أن يأكل وحده، حتى يجد له أكيلاً يؤاكله فيأكل معه. وبعض العرب،

---

(١) روح البيان.

(٢) المراغي.

كان لا يأكل إلا مع ضيف، ومنه قول حاتم:

إِذَا مَا صَنَعْتِ ٱلزَّادَ فَٱلْتَمِسِيْ لَهُ   أَكِيْلاً فَإِنِّيْ لَسْتُ آكُلُهُ وَحْدِيْ

وفي الحديث: «شر الناس من أكل وحده، وضرب عبده ومنع رفده». وإنما ذم هذا؛ لأنه بخل بالقرى. وقال أكثر المفسرين: نزلت في بني ليث بن عمرو، وهم حي من كنانة، كانوا يتحرجون أن يأكلوا طعامهم منفردين، وكان الرجل منهم لا يأكل وحده، ويمكث يومه حتى يجد ضيفاً يأكل معه، فإن لم يجد من يؤاكله لم يأكل شيئاً، وربما قعد الرجل والطعام بين يديه، لا يتناوله من الصباح إلى الرواح. وربما كان معه الإبل الحفل، فلا يشرب من ألبانها، حتى يجد من يشاربه، فإذا أمسى ولم يجد أحداً أكل. فأعلم الله سبحانه وتعالى أن الرجل إذا أكل وحده لا حرج عليه. هذا قول ابن عباس.

وقيل: نزلت في قوم من الأنصار، كانوا لا يأكلون إذا نزل بهم ضيف إلا مع ضيفهم. فرخص لهم أن يأكلوا كيف شاؤوا، جميعاً؛ أي: مجتمعين، أو أشتاتاً؛ أي: متفرقين. قال النسفي رحمه الله، دل قوله تعالى: ﴿جَمِيعًا﴾ على جواز التناهد في الأسفار، وهو إخراج كل واحد من الرفقة نفقة على قدر نفقة صاحبه؛ أي: على السوية. وقال بعضهم: في خلط المال ثم أكل الكل منه والأولى أن يستحل كل منهم غذاء كل، أو يتبرعون لأمين، ثم يتبرع لهم الأمين، ا هـ. «من الروح».

ثم شرع سبحانه، يبين ما ينبغي رعايته، حين دخول البيت، بعد أن ذكر الرخصة فيه، فقال: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا﴾؛ أي: فإذا دخلتم، أيها المؤمنون بيوتاً، من البيوت المذكورة، أو غيرها، مسكونة كانت، أو غير مسكونة ولو مسجداً.

﴿فَسَلِّمُوا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾؛ أي: فابدأوا[1] بالسلام على أهلها، الذين هم بمنزلة أنفسكم، لما بينكم وبينهم من القرابة الدينية، والنسبية الموجبة لذلك، فالله تعالى، جعل أنفس المسلمين، كالنفس الواحدة، على حد قوله تعالى: ﴿وَلَا

---

(١) المراح.

﴿تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْۚ﴾ وقيل: معنى فسلموا على أنفسكم؛ أي: قولوا: السلام؛ أي: من الله علينا، وعلى عباد الله الصالحين. فإن الملائكة ترد عليهم، إن لم يكن بها أحد، وإلا فقولوا السلام عليكم. وقال ابن عباس: إن لم يكن في البيت أحد، فليقل السلام علينا من ربنا، وعلى عباد الله الصالحين. وإذا دخل المسجد، فليقل السلام على رسول الله وعلينا من ربنا.

وقال قتادة: إذا دخلت بيتك، فسلم على أهلك، فهم أحق بالسلام ممن سلمت عليهم، وإذا دخلت بيتاً لا أحد فيه، فقل السلام علينا، وعلى عباد الله الصالحين، وحدثنا أن الملائكة ترد عليه. وقال القفال: وإن كان في البيت أهل الذمة، فليقل السلام على من اتبع الهدى.

واختلفوا في البيوت[1]. فقيل: المراد غير البيوت التي تقدم ذكرها. وقيل: المراد البيوت المذكورة سابقاً. وعلى القول الأول فقال الحسن والنخعي: هي المساجد وقيل: المراد بالبيوت هنا، هي كل البيوت المسكونة وغيرها، المساجد وغيرها. فيسلم على أهل المسكونة. وأما غير المسكونة فيسلم على نفسه. قال ابن العربي: القول بالعموم في البيوت هو الصحيح.

وانتصاب ﴿تَحِيَّةً﴾ على المصدرية المعنوية بسلموا، لأنه بمعنى التسليم؛ أي: سلموا تسليماً وتحية. ثابتةً ﴿مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: بأمره مشروعةً من لدنه. ويجوز[2] أن يكون صلة تحية، فإنها طلب الحياة التي من عنده تعالى. والتسليم طلب السلامة من الله للمسلم عليه. ﴿مُبَـٰرَكَةً﴾؛ أي: مستتبعة بزيادة الخير والثواب ودوامها. ﴿طَيِّبَةًۚ﴾؛ أي: تطيب بها نفس المستمع.

والمعنى[3]: حيوا تحية ثابتة بأمره تعالى، مشروعة من لدنه، يرجى بها زيادة الخير والثواب، ويطيب بها قلب المستمع. وعن جابر بن عبد الله - رضي الله عنه - قال: إذا دخلت على أهلك، فسلم عليهم تحية من عند الله، مباركة

---

(١) الشوكاني بتصرف.

(٢) روح البيان.

(٣) المراغي.

طيبة. أخرجه البخاري وغيره.

روى الحافظ أبو بكر البزار عن أنس قال: أوصاني النبي ﷺ بخمس خصال. قال: «يا أنس، أسبغ الوضوء يزد في عمرك، وسلم على من لقيك من أمتي تكثر حسناتك، وإذا دخلت ـ يعني بيتك ـ فسلم على أهلك، يكثر خير بيتك، وصل صلاة الضحى فإنها صلاة الأوابين قبلك، يا أنس ارحم الصغير، ووقر الكبير، تكن من رفقائي يوم القيامة».

والإشارة في قوله: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ إلى مصدر الفعل الذي يذكر بعده؛ أي: مثل ذلك التبيين الذي بيناه في هذه الآية ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿لَكُمُ﴾ أيها المؤمنون ﴿ٱلْآيَٰتِ﴾ الدالة على الأحكام؛ أي: ينزلها مبينة واضحة الدلالات عليها ﴿لعلكم﴾؛ أي: لكي تفهموا ما في تضاعيفها من الشرائع والأحكام والآداب، وتعلموا بموجبها، وتفوزوا بذلك سعادة الدارين، فهو تأكيد لما قبله.

والمعنى[1]: هكذا يفصل الله لكم معالم دينكم، كما فصل لكم في هذه الآية ما أحل لكم فيها، عرفكم سبيل الدخول على من تدخلون عليه، لكي تفقهوا أمره ونهيه وأدبه، وبذا تفوزون سعادة الدارين، ويكون لكم المقام المحمود عند ربكم.

وفي الحديث: «إذا دخلتم بيوتكم، فسلموا على أهلها، وإذا طعم أحدكم طعاماً، فليذكر اسم الله عليه، فإن الشيطان إذا سلم أحدكم لم يدخل بيته معه، وإذا ذكر الله على طعامه، قال: لا مبيت لكم ولا عشاء، وإن لم يسلم حين يدخل بيته، ولم يذكر الله على طعامه، قال: أدركتم العشاء والمبيت».

والتسليم[2] على الصبيان العقلاء أفضل من تركه، كما في «البستان». ولا يسلم على جماعة النساء الشواب، كيلا يحصل بينهما معرفة، وانبساط، فيحدث من تلك المعرفة فتنة، ولا يبتدىء اليهود والنصارى بالسلام، فإنه حرام. لأنه إعزاز الكافر وذا لا يجوز. وكذا السلام على أهل البدعة والفسقة، ولو سلم على من لا يعرفه فظهر ذمياً، أو مبتدعاً أو فاسقاً، يقول: استرجعت سلامي تحقيراً

---

(١) المراغي.
(٢) روح البيان.

له، ولو احتاج إلى سلام أهل الكتاب يقول: السلام على من اتبع الهدى، ولو رد يقول: وعليكم فقط. وقد مر ما يتعلق بالسلام، مشبعاً في سورة النساء، عند قوله تعالى: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ﴾ الآية. فراجعه.

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ نزلت حين جمع النبي عليه السلام المسلمين يوم الجمعة، ليستشيرهم في أمر الغزو، وكان يثقل المقام عنده على البعض، فيخرج بغير إذنه، أو في حفر الخندق، وكان المنافقون ينصرفون بغير أمر رسول الله ﷺ، وكان الحفر من أهم الأمور، حتى حفر رسول الله بنفسه، وشغل عن أربع صلوات، حتى دخلت في حد القضاء، فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾؛ أي: الكاملون في الإيمان، وهو مبتدأ خبره قوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ عن صميم قلوبهم، وأطاعوهما في جميع الأحكام في السر والعلانية. ﴿وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ﴾ ﷺ ﴿عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ﴾ إلى آخره. معطوف على آمنوا، داخل معه في حيز الصلة؛ أي: على أمر مهم يجب اجتماعهم في شأنه كالجمعة والأعياد، والحروب والمشاورة في الأمور، وصلاة الاستسقاء وغيرها من الأمور الداعية إلى الاجتماع. ووصف الأمر بالجمع للمبالغة، في كونه سبباً لاجتماع الناس، فإن الأمر لكونه مهماً عظيم الشأن، صار كأنه قد جمع الناس، فهو من قبيل إسناد الفعل إلى السبب؛ أي: والذين إذا كانوا معه على أمر جامع ﴿لَّمْ يَذْهَبُوا۟﴾ من المجمع. ولم يفترقوا عنه لعروض عذر تجوز معه الإقامة في المسجد، كالزكام والصداع، فإن كان العذر يمنع المكث في المسجد، كالحيض والجنابة والإسهال، فإنهم لا يحتاجون إلى الاستئذان من النبي ﷺ، بل هم مأذون لهم شرعاً ا هـ. «شيخنا».

﴿حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ﴾ ﷺ في الذهاب فيأذن لهم، واعتبر في كمال الإيمان عدم الذهاب قبل الاستئذان، لأنه المميز للمخلص من المنافق. وقرأ اليماني (على أمر جميع).

والحاصل: أن الأمر الجامع، أو الجميع هو الذي يعم نفعه، أو ضرره. وهو الأمر الجليل الذي يحتاج إلى اجتماع أهل الرأي والتجارب. قال العلماء: كل أمر اجتمع عليه المسلمون مع الإمام لا يخالفونه ولا يرجعون عنه إلا بإذن.

ثم قال: لمزيد التأكيد: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ﴾؛ أي: يطلبون الإذن منك، رعاية للأدب، وتعظيماً لهذا الأمر. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ حق الإيمان لا غير المستأذنين، وهذا أدب على نهج سابقه، فكما أرشدهم من قبل إلى الاستئذان، حين الدخول، أمرهم بالاستئذان حين الانصراف، ولا سيما إذا كانوا في أمر جامع. روى الترمذي والنسائي عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «إذا انتهى أحدكم إلى المجلس، فليسلم، فإذا أراد أن يقوم، فليسلم، فليست الأولى بأحق من الآخرة».

ولما ذكر ما يلزم المؤمن، من الاستئذان، أعقبه بما يفعله الرسول حينئذٍ، فقال: ﴿فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ﴾، الفاء فيه: فاء الفصيحة؛ أي: إذا عرفت يا محمد، أن الكاملين في الإيمان، هم الجامعون بين الإيمان بهما، وبين الاستئذان.. فأقول لك: إذا طلبوا منك الإذن في الانصراف والذهاب ﴿لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ﴾؛ أي: لبعض أمرهم المهم، أو خطبهم المسلم.

والشأن[1] الحال والأمر، ولا يقال إلا فيما يعظم من الأحوال والأمور، كما في «المفردات». ولم يقل لشؤونهم بل قيد بالبعض تغليظاً عليهم في أمر الذهاب عن مجلس رسول الله ﷺ، مع العذر المبسوط ومساس الحاجة.

﴿فَأْذَن﴾ يا محمد، في الانصراف والذهب عن مجلسك، لحاجة مهمة ﴿لِّمَن شِئْتَ﴾ الإذن له ﴿مِنْهُمْ﴾ وأمنع من شئت، على حسب ما تقتضيه المصلحة التي تراها.

والمعنى: إن شئت فأذن، وإن شئت فلا تأذن. فالأمر مفوض إليك؛ أي: فإذا استأذنوك لبعض ما يعرض لهم من مهام أمورهم، فأذن لمن شئت منهم أن ينصرف لقضاء ما عرض له بحسب ما تقتضيه المصلحة التي تراها، كما وقع لعمر - رضي الله عنه - حين خرج مع النبي ﷺ في غزوة تبوك، حيث استأذن في الرجوع إلى أهله، فأذن له ﷺ وقال له: «ارجع فلست بمنافق».

---

(١) روح البيان.

﴿وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ﴾؛ أي: للمستأذنين الذين أذنت لهم ﴿ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى بعد الإذن، فإن الاستئذان، وإن كان لعذر قوي، لا يخلو عن شائنة تفضيل أمر الدنيا على الآخرة. ففيه إشارة إلى أن الأفضل، أن لا يحدث المرء نفسه بالذهاب، فضلاً عن الذهاب، أو أن الاستغفار في مقابلة تمسكهم بآداب الله تعالى، في الاستئذان؛ أي: وادع الله لهم، أن يتفضل عليهم بالعفو، والغفران عن تبعات ما بينه وبينهم. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿غَفُورٌ﴾؛ أي: كثير المغفرة لذنوب عباده التائبين. ﴿رَّحِيمٌ﴾ كثير الرحمة بهم، فلا يعاقبهم عليها بعد توبتهم منها.

وفي الآية بيان حفظ الأدب، بأن الإمام إذا جمع الناس لتدبير أمر من أمور المسلمين، ينبغي أن لايرجعوا إلا بإذنه، ولا يخالفوا أمير السرية، ويرجعوا بالإذن إذا خرجوا للغزو ونحوه، وللإمام أن يأذن، وله أن لا يأذن إلا على ما يرى. فمن تفرق بغير إذن صار من أهل الهوى والبدع. وكان عليه السلام إذا صعد المنبر يوم الجمعة وأراد رجل الخروج وقف حيث يراه، فيأذن له إن شاء.

وبعد أن ظهر في هذه السورة شرف الرسول، ولا سيما في هذه الآية التي بهرت العقول، أردف هذا ما يؤكده، فقال: ﴿لَّا تَجْعَلُواْ﴾ أيها المؤمنون ﴿دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ﴾ إما مصدر مضاف[1] إلى الفاعل؛ أي: لا تجعلوا دعوته وأمره إياكم في الاعتقاد والعمل بها ﴿كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًاۚ﴾؛ أي: لا تقيسوا دعوته إياكم إلى شيء من الأمور، على دعوة بعضكم بعضاً في جواز الإعراض والمساهلة في الإجابة، والرجوع بغير إذن، فإن المبادرة إلى إجابته ﷺ واجبة، والمراجعة بغير إذنه محرمة، بل أجيبوه فوراً وإن كنتم في الصلاة. إذا كان أمره فرضاً لازماً. وهذا قول المبرد والقفال: ومختار أبي العباس، وأقرب إلى نظم الآية. كما قاله ابن عادل والرازي وغيره.

وقيل[2]: لا تجعلوا دعاء الرسول ربهُ مثل ما يدعو صغيركم وكبيركم، فإنه

---

(١) روح البيان. (٢) المراح.

قد يجاب، وقد يرد، فإن دعوات الرسول مستجابة، فاحذروا سخطه، فإن دعاءه مجاب، ليس كدعاء غيره. وهذا كما قاله ابن عباس. وإما مصدر مضاف إلى المفعول. والمعنى: لا تجعلوا نداءكم إياه، وتسميتكم له، كنداء بعضكم بعضاً باسمه، مثل يا محمد، ويا ابن عبد الله، ويا أبا القاسم، ورفع الصوت به والنداء وراء الحجرات، بل نادوه بغاية التوقير. وبلقبه المعظم، مثل يا نبي الله ويا رسول الله، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ﴾ مع التواضع، وخفض الصوت، فلا تنادوه باسمه، ولا بكنيته. وروي هذا أيضاً عن ابن عباس. وقال أبو الليث في «تفسيره»: وفي الآية بيان توقير معلم الخير، لأن رسول الله ﷺ، كان معلم الخير، فأمر الله بتوقيره، وتعظيمه، معرفة حق الأستاذ. وفيه معرفة أهل الفضل. قال في «حقائق البقليّ»: إحترام الرسول من احترام الله، ومعرفته من معرفته، والأدب في متابعته، من الأدب مع الله تعالى.

وقرأ الحسن[1] ويعقوب في رواية: ﴿نبيكم﴾ بنون مفتوحة وباء موحدة مكسورة، وياء تحتانية مشدة، بدل قراءة الجمهور ﴿نبيكم﴾ ظرفاً. قال صاحب «اللوامح»: وهو النبي ﷺ على البدل من الرسول.

ثم توعد المنصرفين خفية بغير استئذان، فقال: ﴿قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ﴾؛ أي: يخرجون من المسجد خفيةً من بين الناس واحداً واحداً، حالة كونهم ﴿لِوَاذًا﴾؛ أي: متلاوذين بالناس؛ أي: متسترين بهم؛ أي: يعلم الله الذين يخرجون من الجماعة، قليلاً قليلاً على خفية.

و﴿قد﴾[2] هنا للتحقيق: بطريق الاستعارة لاقتضاء الوعيد إياه، كما أن رب يجيء للتكثير، وفي «الكواشي» قد هنا مؤذنة بقلة المتسللين؛ لأنهم كانوا أقل من غيرهم. وقيل: قد هنا بمعنى ربما مفيدة للتكثير.

---

(١) البحر المحيط.
(٢) روح البيان.
(٣) البحر المحيط.

وقرأ يزيد بن قطيب[1]: ﴿لِوَاذًا﴾ بفتح اللام، فاحتمل أن يكون مصدر، لاذ الثلاثي، ولم يقبل؛ لأنه لا كسرة قبل الواو، فهو كطاف طوافاً، واحتمل أن يكون مصدر لاوذ الرباعي، وكانت فتحة اللام لأجل فتحة الواو. واللواذ من الملاوذة. وهو أن تستتر بشيء مخافة من يراك. وقيل: اللواذ الفرار من الجهاد. وبه قال الحسن. ومنه قول حسان:

وَقُرَيْشٌ تَجُوْلُ مِنْكُمُ لِوَاذَا   لَمْ تُحَافِظْ وَجَفَّ مِنْهَا ٱلْحُلُوْمُ

والتسلل: الخروج بخفية.

والمعنى: قد يعلم الله الذين يخرجون متسللين من المسجد في الخطبة، واحداً بعد واحد، من غير استئذان، خفيةً مستترين بشيء. وإن عملهم هذا إن خفي على الرسول ﷺ، فلا يخفى على من يعلم السر والنجوى، ومن لا يعزب عنه مثقال ذرة، ويعلم الدواعي التي تحملهم على ذلك، ولديه الجزاء على ما يفعلون.

روى أبو داود أنه كان من المنافقين، من يثقل عليه استماع الخطبة، والجلوس في المسجد، فإذا استأذن أحد من المسلمين، قام المنافق إلى جنبه يستتر به، فأنزل الله سبحانه الآية.

والفاء في قوله: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ﴾ لترتيب الحذر[2]، أو الأمر به، على ما قبلها من علمه تعالى بأحوالهم، فإنه مما يوجب الحذر ألبتة، فإن قلت[3]: كيف عدى (خالف) بعن مع أنه يتعدى بنفسه؟

قلت: ضمن خالف بمعنى أعرض، أو عدل فعداه تعديته، أو يقال: عن متعلقه بمحذوف تقديره: يخالفونه تعالى، ويعدلون عن أمره أو هي زائدة على قول الأخفش. والضمير في أمره إما لله، لأنه الآمر حقيقة، أو للرسول، لأنه المقصود بالذكر.

---

(١) أبو السعود.
(٢) فتح الرحمٰن.
(٣) روح البيان.

أي: فليحذر ويجتنب الذين يخالفون أمره تعالى، ويعرضون عن طاعة رسوله ﷺ من ﴿أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ﴾ أي: محنة وبلية في الدنيا، إما في البدن أو في المال، أو في الولد، كالمرض والقتل والهلاك وتسلط السلطان الجائر عليهم ﴿أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾؛ أي: شديد في الآخرة وقال بعضهم: ﴿أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ﴾؛ أي: بلية تظهر نفاقهم ﴿أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾؛ أي: عاجل في الدنيا، انتهى.

وكلمة (أو) لمنع الخلو دون الجمع، وإعادة الفعل صريحاً للاعتناء بالتحذير، وفي ترتيب العذابين على المخالفة، دلالة على أن الأمر للوجوب، فيجب امتثال أمره، وتحرم مخالفته.

والآية تعم كل من خالف أمر الله تعالى، وأمر رسوله ﷺ واستمر على التقليد، من بعد ما تبين له الهدى، وظهر له الصواب، من الخطأ، وبعد أن أقام الأدلة على أنه نور السماوات والأرض. ثم حذر كل مخالف لرسوله ﷺ، ثم ختم السورة ببيان أنه المالك للموجودات بأسرها، خلقاً وملكاً وتصرفاً وإيجاداً وإعداماً، بدءاً وإعادةً، فقال: ﴿أَلَآ﴾؛ أي: انتبهوا أيها العباد، من سنة الغفلة، واعتقدوا بقلوبكم، وقولوا بألسنتكم ﴿إِنَّ لِلَّهِ﴾ سبحانه وتعالى لا لغيره ﴿مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: جميع ما فيهما من الموجودات بأسرها خلقاً وملكاً بدءاً وإعادةً. ﴿قَدْ﴾ يقال فيها، ما قيل في السابقة آنفاً ﴿يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ﴾ أيها المكلفون من الأحوال والأوضاع، التي من جملتها الموافقة والمخالفة والإخلاص والنفاق، فيجازيكم بحسب ذلك، ويعلم هنا بمعنى علم. ﴿وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ﴾ معطوف على ﴿ما أنتم عليه﴾. ﴿ويوم﴾ مفعول به، لا ظرف؛ أي: يعلم ما أنتم عليه من الأحوال، ويعلم تحقيقاً يوم ترجعون إليه؛ أي: يوم يرد الخلائق إليه للمجازاة، فيجازيكم فيه بما عملتم.

أو المعنى يعلم ما أنتم عليه أيها العباد، ويعلم يوم يرد المنافقون، المخالفون للأمر إليه تعالى، للجزاء والعقاب. فيرجعون من الرجع المتعدي، لا من الرجوع اللازم، والعلم بوقت وقوع الشيء، مستلزم للعلم بوقوعه على أبلغ وجه.

وقرأ الجمهور[1]: يرجعون مبنياً للمفعول. وقرأ ابن يعمر وابن أبي إسحاق وأبو عمرو، مبنياً للفاعل، من الرجوع اللازم. والتفت من ضمير الخطاب في أنتم إلى ضمير الغيبة في يرجعون. ويجوز أن يكون، ما أنتم عليه خطاباً عاماً، ويكون يرجعون للمنافقين. والظاهر من السياق، أن هذا الوعيد للمنافقين، كما في «الشوكاني».

﴿فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا﴾؛ أي: يخبر الخلائق بما عملوا في الدنيا، فلا يعاقبهم ولا يثيبهم إلا بعد إخبارهم بما عملوا وبيانه، أو يخبر المنافقين بما عملوا في الدنيا، من الأعمال السيئة، التي من جملتها مخالفة الأمر؛ أي[2]: يظهر لهم على رؤوس الأشهاد، ويعلمهم أي شيء شنيع عملوا في الدنيا، ويرتب عليه ما يليق به من الجزاء، وعبر عن إظهاره بالتنبئة، لما بينهما من الملابسة، في أنهما سببان للعلم، تنبيهاً على أنهم كانوا جاهلين بحال ما ارتكبوه، غافلين عن سوء عاقبته، لغلبة أحكام الكثرة الخلقية الإمكانية، وآثار الأمزجة الطبيعية الحيوانية نشأتهم.

﴿وَاللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، وإن كان المنافقون يجتهدون في ستر أعمالهم عن العيون، وإخفائها.

ومعنى الآية[3]: أي أنه تعالى مالك السماوات والأرض، وأنه عالم بما يعمل العباد، كما قال: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ۚ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾﴾.

وقال تعالى: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ ثم هدد وتوعد، فقال: ﴿وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا﴾؛ أي: ويوم يرجع الخلائق إلى ربهم

---

(١) البحر المحيط.
(٢) روح البيان.
(٣) المراغي.

حين العرض والحساب، فيخبرهم بما فعلوا في الدنيا، من جليل وحقير وكبير وصغير، كما قال: ﴿يُنَبَّؤُا الْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴿١٣﴾﴾ وقال: ﴿وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾.

ثم ذكر ما هو، كالدليل على ما سلف بقوله: ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾؛ أي: إنه سينبئهم بما عملوا في حياتهم الأولى؛ لأنه ذو علم بكل شيء، وإحاطة به، وهو موف كل عامل أمر عمله، يوم يرجعون إلى حكمه، إذ لا حَكَم يومئذٍ إلا هو.

قال بعضهم: كل ما ألهاك عن مولاك فهو دنياك، فعلى العاقل أن يقطع حبل العلاقات ويتصل بخالق البريات، ويتفكر في أمره، ويحاسب نفسه، قبل أن يجيء يوم الجزاء والمكافآت، فإن عقب هذه الحياة ممات، وهذا البقاء ليس على الدوام والثبات، وفي الأثر: ما قال الناس: «لقوم طوبى لكم إلا وقد خبأ لهم الدهر يوم سوء» قال الشاعر:

إِنَّ اللَّيَالِيَ لَمْ تُحْسِنْ إِلَىٰ أَحَدٍ ... إِلاَّ أَسَاءَتْ إِلَيْهِ بَعْدَ إِحْسَانِ

وقال الآخر:

أَحْسَنْتَ ظَنَّكَ بِالأَيَّامِ إِذْ حَسُنَتْ ... وَلَمْ تَخَفْ شَرَّ مَا يَأْتِي بِهِ الْقَدَرُ

وقال آخر:

لاَ صِحَّةُ الْمَرْءِ فِي الدُّنْيَا تُؤَخِّرُهُ ... وَلاَ يُقَدِّمُ يَوْمًا مَوْتَهُ الْوَجَعُ

الإعراب

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِّن قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ الظَّهِيرَةِ وَمِن بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَّكُمْ﴾.

﴿يا﴾: حرف نداء. ﴿أي﴾: منادى نكرة مقصودة في محل النصب، مبني على الضم. ﴿ها﴾: حرف تنبيه. ﴿الَّذِينَ﴾: صفة لأي. ﴿آمَنُوا﴾ صلة الموصول. وجملة النداء مستأنفة، مسوقة لبيان حكم الاستئذان. ﴿لِيَسْتَأْذِنكُمُ﴾: اللام: لام

الأمر. ﴿يستأذنكم﴾: فعل ومفعول به، مجزوم بلام الأمر. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: فاعل. والجملة جواب النداء، لا محل لها من الإعراب. ﴿مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ﴾ فعل وفاعل صلة الموصول، والعائد محذوف، تقديره: ملكتهم أيمانكم. ﴿وَٱلَّذِينَ﴾: معطوف عليه الموصول الأول. ﴿لَمۡ يَبۡلُغُواْ ٱلۡحُلُمَ﴾: فعل وفاعل ومفعول صلة الموصول. ﴿مِنكُمۡ﴾: جار ومجرور حال من فاعل ﴿يَبۡلُغُواْ﴾. ﴿ثَلَٰثَ مَرَّٰتٖ﴾: منصوب على الظرفية الزمانية، أو على المفعولية المطلقة، فإن قدرت بمعنى: ثلاثة أوقات، فهي ظرف، وإن قدرت بمعنى: ثلاث استئذانات، فهي مفعول مطلق. ﴿مِّن قَبۡلِ صَلَوٰةِ ٱلۡفَجۡرِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه في محل النصب، بدل من ثلاث مرات. ﴿وَحِينَ﴾ معطوف على محل ﴿مِّن قَبۡلِ صَلَوٰةِ ٱلۡفَجۡرِ﴾ وهو مضاف. ﴿تَضَعُونَ ثِيَابَكُم﴾: فعل وفاعل ومفعول به. والجملة الفعلية في محل الجر، مضاف إليه لـ﴿حين﴾. ﴿مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ﴾: حال من حين؛ أي: حال كون ذلك الوقت من الظهيرة. أو متعلق بـ﴿تَضَعُونَ﴾. ومن بمعنى في. ﴿وَمِنۢ بَعۡدِ صَلَوٰةِ ٱلۡعِشَآءِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، في محل النصب، معطوف على ما قبله، على كونه بدلاً من ثلاث مرات. ﴿ثَلَٰثُ عَوۡرَٰتٖ﴾ بالرفع خبر لمبتدأ محذوف، تقديره: هذه الأوقات ثلاث عورات. ﴿لَّكُمۡ﴾: جار ومجرور، صفة لـ﴿ثَلَٰثُ﴾؛ أي: كائنات لكم. وبالنصب، بدل من محل ما قبله. والجملة مستأنفة.

﴿لَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ وَلَا عَلَيۡهِمۡ جُنَاحُۢ بَعۡدَهُنَّۚ طَوَّٰفُونَ عَلَيۡكُم بَعۡضُكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ﴾.

﴿لَيۡسَ﴾: فعل ماض ناقص. ﴿عَلَيۡكُمۡ﴾: خبر ﴿لَيۡسَ﴾ مقدم. ﴿وَلَا عَلَيۡهِمۡ﴾: معطوف على ﴿عَلَيۡكُمۡ﴾. ﴿جُنَاحُۢ﴾: اسم ﴿لَيۡسَ﴾ مؤخر. ﴿بَعۡدَهُنَّۚ﴾: ظرف ومضاف إليه صفة لـ﴿جُنَاحُۢ﴾. وجملة ﴿لَيۡسَ﴾ في محل الرفع، صفة لـ﴿ثَلَٰثُ عَوۡرَٰتٖ﴾؛ أي: هن ثلاث عورات، موصوفة بعدم جناح بعدهن عليكم ولا عليهم. ﴿طَوَّٰفُونَ﴾: خبر لمبتدأ محذوف، تقديره: هم طوافون ﴿عَلَيۡكُم﴾ متعلق بـ﴿طَوَّٰفُونَ﴾. والجملة مستأنفة. ﴿بَعۡضُكُمۡ﴾: مبتدأ. ﴿عَلَىٰ بَعۡضٖ﴾: جار ومجرور خبر المبتدأ، أي: بعضكم طائف على بعض. والجملة بدل تفصيل لما قبلها. ﴿كَذَٰلِكَ﴾: جار ومجرور صفة لمصدر محذوف. ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ﴾: فعل

وفاعل. ﴿لَكُمُ﴾: متعلق به. ﴿ٱلْآيَٰتِ﴾: مفعول به. والجملة مستأنفة، والتقدير: ويبين الله لكم الآيات، تبييناً كائناً، مثل تبيين هذه الآية. ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾: مبتدأ وخبر أول. ﴿حَكِيمٌ﴾: خبر ثان، والجملة مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَـْٔذِنُوا۟ كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٩﴾﴾.

﴿وَإِذَا﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿إذا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان، مضمن معنى الشرط. ﴿بَلَغَ ٱلْأَطْفَٰلُ﴾: فعل وفاعل. والجملة في محل الجر مضاف إليه لـ﴿إذا﴾ على كونها فعل شرط لها. والظرف متعلق بالجواب الآتي. ﴿مِنكُمُ﴾: حال من ﴿ٱلْأَطْفَٰلُ﴾. ﴿ٱلْحُلُمَ﴾: مفعول به. ﴿فَلْيَسْتَـْٔذِنُوا۟﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿إذا﴾ وجوباً. و(اللام): لام الأمر. ﴿يستأذنوا﴾: فعل وفاعل، مجزوم بلام الأمر. والجملة جواب ﴿إذا﴾ لا محل لها من الإعراب. وجملة ﴿إذا﴾ مستأنفة، مسوقة لتقرير حكم ﴿ٱلْأَطْفَٰلُ﴾. ﴿كَمَا﴾: الكاف حرف جر. ﴿ما﴾: مصدرية. ﴿ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ﴾: فعل وفاعل. ﴿مِن قَبْلِهِمْ﴾: جار ومجرور صلة الموصول. والجملة الفعلية صلة ﴿ما﴾: المصدرية. ﴿ما﴾: مع صلتها في تأويل مصدر، مجرور بالكاف، تقديره: كاستئذان الذين قبلهم، الجار والمجرور صفة لمصدر محذوف، تقديره: فليستأذنوا استئذاناً كائناً كاستئذان الذين من قبلهم. ﴿كَذَٰلِكَ﴾: صفة لمصدر محذوف. ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ﴾: فعل وفاعل. ﴿لَكُمْ﴾: متعلق به. ﴿ءَايَٰتِهِۦ﴾: مفعول به. والجملة الفعلية مستأنفة. ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾: جملة اسمية مستأنفة، مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِى لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتٍۭ بِزِينَةٍ ۖ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٦٠﴾﴾.

﴿وَٱلْقَوَٰعِدُ﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿القواعد﴾: مبتدأ. ﴿مِنَ ٱلنِّسَآءِ﴾: حال من القواعد. ﴿ٱلَّٰتِى﴾: صفة لـ﴿القواعد﴾، لا للنساء. ﴿لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا﴾: فعل وفاعل ومفعول به صلة الموصول. ﴿فَلَيْسَ﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة الخبر بالمبتدأ لشبه المبتدأ بالشرط العموم؛ لأن الألف واللام في القواعد، موصولة

بمعنى واللاتي قعدن. ﴿لَيْسَ﴾: فعل ماض ناقص. ﴿عَلَيْهِنَّ﴾: خبر مقدم لـ﴿لَيْسَ﴾. ﴿جُنَاحٌ﴾: اسمها مؤخر. وجملة ﴿لَيْسَ﴾ في محل الرفع خبر المبتدأ. والجملة الاسمية مستأنفة. ﴿أَن﴾: حرف نصب ومصدر. ﴿يَضَعْنَ﴾: فعل وفاعل في محل النصب بـ﴿أَن﴾ المصدرية مبني على السكون لاتصاله بنون الإناث. ﴿ثِيَابَهُنَّ﴾: مفعول به. ﴿غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتٍ﴾: حال من فاعل ﴿يَضَعْنَ﴾. ﴿بِزِينَةٍ﴾: متعلق بـ﴿مُتَبَرِّجَٰتٍ﴾. وجملة يضعن مع أن المصدرية، في تأويل مصدر مجرور بحرف جر محذوف، تقديره: فليس عليهن جناح في وضعهن ثيابهن. الجار والمجرور متعلق بجناح، أو صفة له. ﴿وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿أن﴾: حرف نصب ومصدر. ﴿يَسْتَعْفِفْنَ﴾: فعل مضارع وفاعل في محل النصب، مبني على السكون لاتصاله بنون النسوة. والجملة الفعلية مع أن المصدرية، في تأويل مصدر مرفوع على الابتداء. ﴿خَيْرٌ﴾: خبره. ﴿لَّهُنَّ﴾: متعلق بخير. والجملة الاسمية معطوفة على جملة قوله: والقواعد. فهو نظير قوله تعالى: ﴿وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ﴾. ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ﴾: مبتدأ وخبر. ﴿عَلِيمٌ﴾: خبر ثان. والجملة مستأنفة.

﴿لَّيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا مِن بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالَاتِكُمْ﴾.

﴿لَّيْسَ﴾: فعل ماض ناقص. ﴿عَلَى الْأَعْمَىٰ﴾: جار ومجرور خبر مقدم لـ﴿لَّيْسَ﴾. ﴿حَرَجٌ﴾: اسم ﴿لَّيْسَ﴾ مؤخر. وجملة ﴿لَّيْسَ﴾ مستأنفة. ﴿وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿لَا﴾: زائدة. زيدت لتأكيد نفي ما قبلها. ﴿عَلَى الْأَعْرَجِ﴾ معطوف على الأعمى. ﴿حَرَجٌ﴾: معطوف على ﴿حَرَجٌ﴾. وكذلك قوله: ﴿وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾: معطوف على قوله: ﴿عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرَجٌ﴾. ﴿وَلَا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ﴾: جار ومجرور، خبر مقدم لمبتدأ مؤخر، محذوف معلوم من السياق، تقديره: ولا على أنفسكم حرج، والجملة مستأنفة. ﴿أَن تَأْكُلُوا﴾: فعل وفاعل

منصوب بـ﴿أَن﴾. ﴿مِنۢ بُيُوتِكُمۡ﴾: متعلق به، والجملة الفعلية مع أن المصدرية، في تأويل مصدر مجرور بحرف جر محذوف، تقديره: في أكلكم من بيوتكم، والجار المحذوف، متعلق بالمبتدأ المحذوف، والتقدير: ولا على أنفسكم حرج في أكلكم من بيوتكم. وقوله: ﴿أَوۡ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ إِخۡوَٰنِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ أَعۡمَٰمِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ أَخۡوَٰلِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ خَٰلَٰتِكُمۡ﴾ معطوفات على ﴿بُيُوتِكُمۡ﴾ ومضافة إلى ما بعدها، على كونها مجرورة بـ﴿من﴾.

﴿أَوۡ مَا مَلَكۡتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ أَوۡ صَدِيقِكُمۡۚ لَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَن تَأۡكُلُواْ جَمِيعًا أَوۡ أَشۡتَاتٗاۚ فَإِذَا دَخَلۡتُم بُيُوتٗا فَسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ تَحِيَّةٗ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةٗ طَيِّبَةٗۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾.

﴿أَوۡ﴾: حرف عطف. ﴿ما﴾: اسم موصول، في محل الجر معطوف على ﴿بُيُوتِكُمۡ﴾. ﴿مَلَكۡتُم﴾: فعل وفاعل. ﴿مَّفَاتِحَهُۥٓ﴾: مفعول به. والجملة صلة ﴿ما﴾ الموصولة. والعائد ضمير مفاتحه. ﴿أَوۡ صَدِيقِكُمۡۚ﴾: معطوف على ﴿بُيُوتِكُمۡ﴾ أيضاً. ولكنه على حذف مضاف، تقديره: أو بيت صديقكم. ﴿لَيۡسَ﴾: فعل ماض ناقص. ﴿عَلَيۡكُمۡ﴾: خبر ﴿لَيۡسَ﴾ مقدم. ﴿جُنَاحٌ﴾: اسمها مؤخر. والجملة مستأنفة، مسوقة لبيان حكم آخر، من جنس ما بين قبله، حيث كان فريق من المؤمنين كبني ليث بن عمرو، يتحرجون أن يأكلوا طعامهم منفردين، كما في «الجمل». ﴿أَن تَأۡكُلُواْ﴾: ناصب وفعل وفاعل. ﴿جَمِيعًا﴾: حال من فاعل ﴿تَأۡكُلُواْ﴾. ﴿أَوۡ أَشۡتَاتٗاۚ﴾: معطوف عليه؛ أي: حالة كونكم مجتمعين، أو متفرقين. والجملة الفعلية في تأويل مصدر، مجرور بحرف جر محذوف، تقديره: في أكلكم مجتمعين أو متفرقين، الجار والمجرور متعلق بـ﴿جُنَاحٌ﴾. ﴿فَإِذَا دَخَلۡتُم﴾: ﴿الفاء﴾ استئنافية. ﴿إذا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان، مضمن معنى الشرط. ﴿دَخَلۡتُم بُيُوتٗا﴾: فعل وفاعل ومفعول على السعة. والجملة في محل الخفض بإضافة ﴿إذا﴾ إليها، على كونها فعل شرط لها. والظرف متعلق بالجواب الآتي. ﴿فَسَلِّمُواْ﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿إذا﴾، ﴿سلموا﴾: فعل

وفاعل. ﴿عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ﴾: متعلق به، والجملة جواب ﴿إذا﴾: لا محل لها من الإعراب. وجملة ﴿إذا﴾ مستأنفة. ﴿تَحِيَّةً﴾ مفعول مطلق معنوي لـ﴿سلموا﴾ منصوب به على حد قعدت جلوساً. ﴿مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ﴾: جار ومجرور صفة أولى لتحية. ﴿مُبَٰرَكَةً﴾: صفة ثانية لها. ﴿طَيِّبَةٗۚ﴾: صفة ثالثة لها. ﴿كَذَٰلِكَ﴾: صفة لمصدر محذوف. ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ﴾: فعل وفاعل. ﴿لَكُمُ﴾: متعلق به. ﴿ٱلۡأٓيَٰتِ﴾: مفعول به. والجملة مستأنفة. ﴿لَعَلَّكُمۡ﴾: ناصب واسمه. وجملة ﴿تَعۡقِلُونَ﴾: خبره. وجملة ﴿لعل﴾: مستأنفة، مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُواْ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمۡرٖ جَامِعٖ لَّمۡ يَذۡهَبُواْ حَتَّىٰ يَسۡتَـٔۡذِنُوهُۚ﴾.

﴿إِنَّمَا﴾: أداة حصر. ﴿ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾: مبتدأ. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: خبره، والجملة مستأنفة. ﴿ءَامَنُواْ﴾: فعل وفاعل صلة الموصول. ﴿بِٱللَّهِ﴾: متعلق به. ﴿وَرَسُولِهِۦ﴾: معطوف على الجلالة. ﴿وَإِذَا﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿إذا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان. ﴿كَانُواْ﴾: فعل ناقص واسمه. ﴿مَعَهُۥ﴾: ظرف ومضاف إليه خبر ﴿كان﴾. ﴿عَلَىٰٓ أَمۡرٖ﴾: متعلق بـ﴿كان﴾ ﴿جَامِعٖ﴾: صفة أمر. ﴿لَّمۡ يَذۡهَبُواْ﴾: جازم وفعل وفاعل. والجملة جواب ﴿إذا﴾. وجملة ﴿إذا﴾ معطوفة على جملة ﴿ءَامَنُواْ﴾ على كونها صلة الموصول. ﴿حَتَّىٰ﴾: حرف جر وغاية. ﴿يَسۡتَـٔۡذِنُوهُۚ﴾: فعل وفاعل ومفعول به، منصوب بأن مضمرة بعد حتى الجارة، والجملة الفعلية مع أن المضمرة، في تأويل مصدر مجرور بـ﴿حَتَّىٰ﴾ الجار والمجرور متعلق بـ﴿يَذۡهَبُواْ﴾؛ أي: لم يذهبوا إلى استئذانهم الرسول.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَـٔۡذِنُونَكَ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۚ فَإِذَا ٱسۡتَـٔۡذَنُوكَ لِبَعۡضِ شَأۡنِهِمۡ فَأۡذَن لِّمَن شِئۡتَ مِنۡهُمۡ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمُ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ﴾: ناصب واسمه. ﴿يَسۡتَـٔۡذِنُونَكَ﴾: فعل وفاعل ومفعول به، صلة الموصول ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾: مبتدأ. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: خبره. والجملة الاسمية في محل الرفع خبر ﴿إن﴾. وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة. ﴿يُؤۡمِنُونَ﴾: فعل وفاعل صلة الموصول. ﴿بِٱللَّهِ﴾: متعلق به. ﴿وَرَسُولِهِۦ﴾: معطوف على الجلالة. ﴿فَإِذَا﴾: ﴿الفاء﴾: فاء

الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفت أن المستأذنين هم الكاملون في الإيمان، وأردت بيان حكم ما إذا استأذنوك.. فأقول لك: ﴿إذا استأذنوك﴾: ﴿إذا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان، مضمن معنى الشرط. ﴿ٱسْتَـْٔذَنُوكَ﴾: فعل وفاعل ومفعول ﴿لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق به. والجملة الفعلية في محل الخفض بإضافة ﴿إذا﴾ إليها، على كونها فعل شرط لها. ﴿فَأْذَن﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿إذا﴾. ﴿إئذن﴾: فعل أمر وفاعل مستتر يعود على محمد. ﴿لمن﴾: جار ومجرور متعلق به. والجملة الفعلية جواب ﴿إذا﴾. وجملة ﴿إذا﴾ في محل النصب، مقول لجواب إذا المقدرة. وجملة إذا المقدرة مستأنفة. ﴿شِئْتَ﴾: فعل وفاعل صلة الموصول، والعائد محذوف، تقديره: لمن شئته. ﴿مِنْهُم﴾: جار ومجرور، حال من العائد المحذوف. ﴿وَٱسْتَغْفِرْ﴾: فعل أمر وفاعل مستتر يعود على محمد معطوف على ﴿إئذن﴾. ﴿لَهُمُ﴾: متعلق باستغفر ﴿ٱللَّهَ﴾ مفعول به. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾: ناصب واسمه. ﴿غَفُورٌ﴾: خبر أول له. ﴿رَّحِيمٌ﴾: خبر ثان لها. وجملة إن مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ۚ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ۚ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ﴾.

﴿لَّا﴾: ناهية جازمة. ﴿تَجْعَلُوا۟﴾: فعل وفاعل مجزوم بلا الناهية. والجملة مستأنفة. ﴿دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ﴾: مفعول أول. ﴿بَيْنَكُمْ﴾: ظرف ومضاف إليه حال من الرسول. ﴿كَدُعَآءِ﴾: الكاف اسم بمعنى مثل في محل النصب، مفعول ثان لـ﴿جعل﴾. الكاف مضاف. ﴿دعاء﴾: مضاف إليه. ﴿دعاء﴾: مضاف ﴿بَعْضِكُم﴾: مضاف إليه. ﴿بَعْضًا﴾: مفعول به لـ﴿دعاء﴾. ﴿قَدْ﴾: حرف بمعنى: ربما مفيدة للتكثير. ﴿يَعْلَمُ ٱللَّهُ﴾: فعل وفاعل. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: مفعول به، والجملة مستأنفة. ﴿يَتَسَلَّلُونَ﴾: فعل وفاعل صلة الموصول. ﴿مِنكُمْ﴾: متعلق بـ﴿يَتَسَلَّلُونَ﴾. ﴿لِوَاذًا﴾: منصوب على المفعولية المطلقة المعنوية؛ لأنه بمعنى ﴿يَتَسَلَّلُونَ﴾ تسللاً، أو يلاوذون لواذاً، ويجوز نصبه على الحال بمعنى ملاوذين.

﴿فَلْيَحْذَرِ﴾: ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفت علم الله المتسللين، وأردتم بيان ما هو الأحوط لكم.. فأقول لكم ليحذروا. و(اللام): لام الأمر. ﴿يحذر﴾: مجزوم بلام الأمر. ﴿الَّذِينَ﴾: فاعل. والجملة في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة. ﴿يُخَالِفُونَ﴾: فعل وفاعل صلة الموصول عن زائدة. ﴿أَمْرِهِ﴾: مفعول به.

﴿أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٤﴾﴾.

﴿أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ﴾: ناصب وفعل ومفعول به وفاعل. والجملة في تأويل مصدر منصوب على المفعولية لـ﴿يحذر﴾. والتقدير: فليحذر الذين يخالفون أمره إصابة فتنة إياهم. ﴿أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾: فعل ومفعول وفاعل وصفة معطوفة على جملة ﴿أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ﴾، أو إصابة عذاب أليم إياهم. ﴿أَلَا﴾: حرف استفتاح وتنبيه. ﴿إِنَّ﴾: حرف نصب. ﴿لِلَّهِ﴾: جار ومجرور خبر مقدم لـ﴿إِنَّ﴾. ﴿ما﴾: اسم موصول في محل النصب اسم إن مؤخر. وجملة إن مستأنفة. ﴿فِي السَّمَاوَاتِ﴾: جار ومجرور صلة ﴿ما﴾ الموصولة. ﴿وَالْأَرْضِ﴾: معطوف على السماوات. ﴿قَدْ﴾: حرف تكثير بمعنى رب التكثيرية. ﴿يَعْلَمُ﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر يعود على الله. ﴿ما﴾: اسم موصول في محل النصب مفعول ﴿يَعْلَمُ﴾. ﴿أَنتُمْ﴾: مبتدأ. ﴿عَلَيْهِ﴾: خبره. والجملة الاسمية صلة ﴿ما﴾ الموصولة. وجملة ﴿يَعْلَمُ﴾: حال لازمة للجلالة. ﴿وَيَوْمَ﴾: معطوف على مفعول يعلم. ﴿يُرْجَعُونَ﴾: فعل ونائب فاعل. ﴿إِلَيْهِ﴾: متعلق به. والجملة الفعلية في محل الجر مضاف إليه لـ﴿يوم﴾. ﴿فَيُنَبِّئُهُم﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة. ﴿ينبئهم﴾: فعل ومفعول أول وفاعل مستتر يعود على الله. ﴿بِمَا﴾: جار ومجرور في محل المفعول الثاني لـ﴿ينبئهم﴾. وجملة ﴿عَمِلُوا﴾ صلة الموصول، والعائد محذوف، تقديره: بما عملوه. وجملة ﴿ينبئهم﴾ في محل النصب، معطوفة على جملة قوله: ﴿قَدْ يَعْلَمُ﴾. ﴿وَاللَّهُ﴾: مبتدأ. ﴿بِكُلِّ شَيْءٍ﴾: متعلق بـ﴿عَلِيمٌ﴾. ﴿عَلِيمٌ﴾: خبر المبتدأ. والجملة مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

التصريف ومفردات اللغة

﴿لِيَسْتَئْذِنكُمُ﴾: استأذن من باب استفعل. فالسين والتاء فيه للطلب، فهو على بابه؛ لأن الاستئذان، طلب الإذن. والإذن في الشيء: إعلام بإجازته، والرخصة فيه، كما مر. ﴿مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ يشمل العبيد والإماء.

﴿وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا۟ ٱلْحُلُمَ﴾؛ أي: وقت البلوغ، إما بالاحتلام، وإما ببلوغ خمس عشرة سنة من حلم بفتح اللام. قال في «القاموس»: الحلم بالضم، والاحتلام الجماع في النوم. والاسم الحلم كعنق. انتهى. وفي «المفردات» ليس الحلم في الحقيقة هو العقل، لكن فسروه بذلك، في نحو قوله: أولو الأحلام لكونه من مسببات العقل. ويسمى البلوغ بالحلم، لكونه جديراً صاحبه بالحلم ا هـ.

﴿تَضَعُونَ﴾ تخلعون. ﴿ٱلظَّهِيرَةِ﴾: وقت اشتداد الحر حين انتصاف النهار. قال في «القاموس»: الظهيرة حد انتصاف النهار. وإنما ذلك في القيظ. ﴿عَوْرَٰتٍ﴾ جمع عورة. من أعور الفارس، إذا اختلت حاله. والعورة في الأصل الخلل. ثم غلب في الخلل الواقع فيما يهم حفظه، ويتعين ستره.

﴿طَوَّٰفُونَ﴾: صيغة مبالغة من الطواف. والطواف: الدوران حول الشيء. ومنه الطائف لمن يدور حول البيت حافاً. ومنه استعير الطائف من الجن، والخيال والحادثة وغيرها.

﴿وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ﴾؛ أي: أوان البلوغ، كرره للتأكيد كما مر. واعلم[١]: أن بلوغ الصغير بالإحبال والإنزال والاحتلام. وبلوغ الصغيرة بهما وبالحيض والحبل. فإن لم يوجد فيهما شيء من العلامات المذكورة فيبلغان حين تم لهما خمس عشرة سنة. كما هو المشهور. وبه يفتى لقصر أعمار أهل زماننا. قال بعض الصحابة: كان الرجل فيمن قبلكم لا يحتلم حتى يأتي عليه ثمانون سنة. قال وهب: إن أصغر من مات من ولد آدم ولد مائتي سنة. وأدنى مدة

---

(١) روح البيان.

البلوغ للغلام اثنتا عشرة سنة، وللجارية تسع سنوات.

﴿وَٱلْقَوَٰعِدُ﴾: جمع قاعد بلا هاء، لاختصاصها بالمرأة. قال في «القاموس»: القاعد التي قعدت عن الولد، وعن الحيض، وعن الزوج. وفي «المصباح» وقعدت المرأة عن الحيض، أسنت وانقطع حيضها، فهي قاعد بغير تاء. والجمع قواعد. وقعدت عن الزوج فهي لا تشتهيه، ولولا تخصيصهن بذلك، لوجبت التاء، نحو ضاربة وقاعدة من القعود، بمعنى الجلوس.

﴿غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتٍۭ بِزِينَةٍ﴾؛ أي: مظهرات للزينة. وحقيقة التبرج تكلف إظهار ما يجب إخفاؤه، من قولهم سفينة بارج لا غطاء عليها. والبرج: محركة سعة العين، يرى بياضها محيطاً بسوادها كله، لا يغيب منه شيء، إلا أنه اختص بأن تتكشف المرأة للرجال، بإبداء زينتها، وإظهار محاسنها للرجال. فالبرج يعطي معنى الاتساع، يقال: برج يبرج برجاً من باب تعب، اتسع أمره في الأكل والشرب ونحوهما. وبرجت عيناه اتسعت، بحيث يرى بياضها محدّقاً بالسواد كله، والبرج الركن والحصن والقصر، وكل بناء مرتفع على شكل مستدير، أو مربع. ويكون منفرداً، أو قسماً من بناية عظيمةٍ. وجمعه برج بضمتين وأبراج وأبرجة. والبرج أيضاً أحد بروج السماء، وهي اثنا عشر. كما مر. والبارجة: سفينة كبيرة للقتال، وتجمع على بوارج، ومن أمثالهم ما فلان إلا بارجة، قد جمع فيه كل الشر؛ أي: إنه شرير.

﴿وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ﴾: استفعال من العفة، وهي حصول حالة للنفس، تمتنع بها عن غلبة الشهوة ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ﴾ والحرج لغة الضيق، ويراد به في الدين الإثم، (الأعمى) مفتقد البصر.

﴿وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ﴾ من العروج، وهو ذهاب في صعود. وعرج مشى مشي العارج؛ أي: الذاهب في صعود. يقال: عرج يعرج من باب دخل، إذا أصابه شيء في رجله، فمشى مشية العرجان. وعرج كطرب إذا صار ذلك خلقة له.

﴿وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ﴾ صفة من المرض. والمرض الخروج عن الاعتدال الخاص بالإنسان. ﴿أَن تَأْكُلُوا۟ مِنۢ بُيُوتِكُمْ﴾ والأكل تناول المطعم أكلاً، أو

شرباً. والبيوت جمع بيت. والبيت في الأصل مأوى الإنسان بالليل. وقد يقال: من غير اعتبار الليل فيه. لكن البيوت بالمسكن أخص، والأبيات بالشعر.

﴿أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ﴾ جمع مفتح. والمفاتيح جمع مفتاح. كلاهما آلة الفتح. والفتح: إزالة الإغلاق والإشكال. ﴿أَوْ صَدِيقِكُمْ﴾ من الصداقة. والصداقة صدق الاعتقاد في المودة. وذلك مختص بالإنسان. دون غيره. والصديق من صدقك في مودته. قال أبو عثمان: الصديق من لا يخالف باطنه باطنك، كما لا يخالف ظاهره ظاهرك إذ ذاك يكون الانبساط إليه مباحاً في كل شيء من أمور الدين والدنيا. ونعم ما قيل: صديقك من صدقك، لا من صدَّقك. ويطلق على الواحد والجمع. وكذلك الخليط والقطين والعدو.

﴿أَوْ أَشْتَاتًا﴾ جمع شت بمعنى تفرق. وفي «المختار» أمر شت بالفتح؛ أي: متفرق. يقال: شت الأمر يشت بالكسر من باب ضرب شتاً وشتاتاً، بفتح الشين فيهما؛ أي: تفرق ﴿أَمْرٍ جَامِعٍ﴾؛ أي: خطب جلل يستعان فيه بأرباب التجارب، والآراء، كقتال عدو أو تشاور في حادث قد عرض.

﴿يَتَسَلَّلُونَ﴾ ينسلون واحداً بعد واحد، أو قليلاً قليلاً. وفي «أبي السعود» التسلل: الخروج من البين على التدريج والخفية ا هـ. يقال: تسلل الرجل؛ أي: انسرق من الناس وفارقهم، بحيث لا يعلمون.

﴿لِوَاذًا﴾: واللِّواذ والملاوذة التستر. يقال: لاذ فلان بكذا، إذا استتر به. واللواذ مصدر لاوذ، وإنما صحت الواو فيه، وإن انكسر ما قبلها ولم تقلب ياء، كما قلبت في قيام وصيام؛ لأنها صحت في الفعل، نحو لاوذ، فلو أعلت في الفعل لأعلت في المصدر. نحو القيام والصيام لقلبها ألفاً في قام وصام. وأما مصدر لاذ بكذا يلوذ به، فمعتل نحو لاذ به يلوذ لياذاً، مثل صام صياماً وقام قياماً. واللواذ والملاوذة: التستر في خفية.

﴿يُخَالِفُونَ﴾: يقال: خالفه إلى الأمر إذا ذهب إليه دونه، وخالفه عن الأمر إذا صد عنه دونه. والمخالفة أن يأخذ كل واحد طريقاً غير طريق الآخر في حاله أو فعله.

﴿فِتۡنَةٌ﴾؛ أي: بلاء وامتحان في الدنيا. وقال أبو بكر بن طاهر: الفتنة مأخوذ بها والبلاء معفو عنه ومثاب عليه. ﴿وَعَذَابٌ أَلِيمٌ﴾؛ أي: عذاب مؤلم موجع في الآخرة.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: التفصيل بعد الإجمال في قوله: ﴿ثَلَٰثَ مَرَّٰتٖۚ مِّن قَبۡلِ صَلَوٰةِ ٱلۡفَجۡرِ﴾ إلخ.

ومنها: الإجمال بعد التفصيل في ﴿ثَلَٰثُ عَوۡرَٰتٖ﴾.

ومنها: تسمية الشيء باسم ما يقع فيه، مبالغة في كونه محلاً له في قوله: ﴿ثَلَٰثُ عَوۡرَٰتٖ﴾ حيث سمى الأوقات المذكورة عورات، مع أنها ليست نفس العورات، بل هي أوقات العورات.

ومنها: الإيضاح في قوله: ﴿وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ﴾ الآية. وهو أن يذكر المتكلم كلاماً في ظاهره لبس، ثم يوضحه في بقية كلامه. وهنا في هذه الآية ترد على ظاهرها أربعة أسئلة:

أولها: ما الفائدة في الإخبار برفع الجناح، عمن أكل من بيته، وكيف يظن أن على من أكل من بيته جناحاً؟ فالجواب عنه أن يقال: فائدة الإخبار برفع الجناح عمن أكل من بيته التوطئة، ليبنى عليه ما يعطفه على جملته من البيوت، التي قصد إباحة الأكل منها. فإنه إذا علم، أن الإنسان لا جناح عليه أن يأكل من بيته، فكذلك لا جناح عليه أن يأكل من هذه البيوت، ليشير إلى أن أموال هذه القرابة، كمال الإنسان، وإذا تساوت هذه الأموال، سرى ذلك التساوي إلى الأزواج، فيكون سبحانه، قد أدمج في ذلك الحض، على صلة الأرحام، ومعاملتهم معاملة الإنسان نفسه.

وثانيها: لم لم يذكر بيوت الأولاد، كما ذكر بيوت غيرهم من الأقارب القريبة؟ فالجواب عنه: أن يقال: إن أموال الأولاد كمال نفسه، فتصرف الوالدين

فيها، كتصرفهم في أموالهم أنفسهم، لأن ولد الرجل بعضه، وحكمه حكم نفسه.

وثالثها: ما فائدة قوله: ﴿أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ﴾ وظاهر الحال، أن هذا داخل في قوله: ﴿مِنۢ بُيُوتِكُمْ﴾؟ قلنا: يحتمل أن يراد بما في البيوت، المال التليد العتيد، وما ملك الإنسان مفاتحه، المال الطريف المكتسب، الذي يتسبب الإنسان في تحصيله، ويتعب في اكتسابه.

ورابعها: كيف وقعت التسوية بين الصديق، وبين هؤلاء الأقارب؟ قلنا: سر التسوية بين الصديق وبين هؤلاء الأقارب، تعريف حق الصديق، الذي ساوى باطنه ظاهره في إخلاص المودة. ولا يكون صديقاً حتى يكون كذلك.

وقد اشتملت هذه الآية، على تسعة أضرب من فنون البديع:

١ ـ صحة التقسيم، وذلك لاستيعاب الكلام، جميع أقسام الأقارب القريبة، بحيث لم يغادر منها شيئاً.

٢ ـ التهذيب، وذلك في انتقال الكلام على مقتضى البلاغة في هذا المكان، فإن مقتضى البلاغة، تقديم الأقرب فالأقرب. كما جاء فيها.

٣ ـ حسن النسق، وذلك في اختياره. ﴿أَوْ﴾: لعطف الجمل، وهي تدل على الإباحة.

٤ ـ الكناية، فقد كنى سبحانه عن الأموال، بالبيوت التي هي حرز الأموال ومقرها، من باب تسمية الشيء بما جاوره، كقولهم: سال الميزاب، وجرى النهر.

٥ ـ المناسبة: وذلك بمناسبة الألفاظ بعضها بعضاً في الزنة، وهي واضحة في لفظة آبائكم وإخوانكم وأعمامكم وأخوالكم.

٦ ـ المثل: وذلك في قوله: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا۟ جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا﴾ خرج مخرج المثل السائر، الذي يصح أن يتمثل به في كل واقعة، تشبه واقعته.

٧ ـ التذييل، فإن الكلام الذي خرج مخرج المثل جاء تذييلاً لمعنى الكلام المتقدم، لقصد توكيده وتقريره.

٨ ـ المطابقة: وذلك في قوله: ﴿جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا﴾ فإن هاتين اللفظتين تضادتا تضاداً، أوجب لهما وصفهما بالمطابقة؛ لأن المعنى جميعاً أو متفرقاً.

٩ ـ المقارنة: وذلك في موضعين:

أحدهما: اقتران التمثيل بالتذييل، كما تقدم بيانه.

والثاني: اقتران المطابقة بالتمكين، فإن فاصلة هذا الكلام في غاية التمكين.

ومنها: الطباق بين ﴿جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا﴾؛ لأن المعنى مجتمعين ومتفرقين.

ومنها: الإطناب، بتكيرير لفظ الحرج لترسيخ الحكم في الأذهان في قوله: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾.

ومنها: الإسناد المجازي في قوله: ﴿عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ﴾؛ لأن الأمر لما كان سبباً في جمعهم، نسب الجمع إليه مجازاً ا هـ. «سمين».

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

مجمل ما حوته هذه السورة الكريمة من الأغراض والمقاصد

اشتملت هذه السورة على المقاصد التالية:

١ ـ عقوبة الزاني والزانية.

٢ ـ عقوبة قاذف المحصنات الغافلات المؤمنات.

٣ ـ حكم قذف الزوجات.

٤ ـ قصص الإفك وبراءة أم المؤمنين عائشة.

٥ ـ آداب الزيارة.

٦ ـ أمر المؤمنين بغض الأبصار وحفظ الفروج.

٧ ـ نهي النساء عن إبداء زينتهن لغير بعولتهن إلخ.

٨ ـ أمر المؤمنين بإنكاح الأيامى من الرجال والنساء، فالمجتمع الإسلامي كأنه أسرة واحدة.

٩ ـ أمر من لم تتوافر له وسائل النكاح، لعدم وجود المال، أو سواه، بالعفة حتى يغنيه الله تعالى.

١٠ ـ بيان أن الأعمال الصالحة، التي يعملها الكافرون في الدنيا، لا تجدي عنهم نفعاً يوم القيامة، بل تكون كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء، حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً.

١١ ـ الأدلة التي نصبها الله في الأكوان علويها وسفليها شاهدة بوحدانيته.

١٢ ـ المنافقون يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم.

١٣ ـ وصف المؤمنين الصادقين.

١٤ ـ وعد الله عباده المؤمنين، بأنه يستخلفنهم في الأرض، وينشر دينهم الذي ارتضى لهم.

١٥ ـ استئذان الموالي والأطفال في أوقات ثلاث، إذا أرادوا الدخول على أهليهم.

١٦ ـ رفع الحرج عن الأعمى والأعرج والمريض في الجهاد.

١٧ ـ لا حرج في الأكل من بيوت الآباء والأمهات إلخ. بلا إذن.

١٨ ـ نهي المؤمنين عن الانصراف، من مجلس رسول الله ﷺ، إذا كانوا معه في أمر جامع.

١٩ ـ إباحة إذنه لهم إن شاء، حين الطلب.

٢٠ ـ بيان أن مجلس الرسول مبجل موقر، وليس كمجلس المؤمنين بعضهم مع بعض[١].

والله أعلم

* * *

---

(١) انتهينا من تفسير سورة النور، في اليوم التاسع والعشرين، من شهر الله المحرم في تاريخ: ٢٩/ ١/ ١٤١٣ هـ. وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً.

سورة الفرقان

سورة الفرقان: مكية كلها، عند الجمهور. كذا أخرجه ابن الضريس والنحاس وابن مردويه من طرق عن ابن عباس. وأخرجه ابن مردويه عن ابن الزبير. قال القرطبي: وقال ابن عباس وقتادة: إلا ثلاث آيات منها، نزلت بالمدينة. وهي قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ إلى قوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾.

وهي سبع وسبعون آية[1]، وثمان مئة واثنتان وسبعون كلمة، وثلاث آلاف وسبع مئة وثلاثة وستون حرفاً.

الناسخ والمنسوخ: وجملة ما فيها من المنسوخ آيتان[2]:

أولاهما: قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ إلى قوله: ﴿وَيَخۡلُدۡ فِيهِۦ مُهَانًا﴾ نسخها بقوله: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾.

والآية الثانية: قوله: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمًا﴾ منسوخة في حق الكفار، بآية السيف، وبعض معناها محكم في حق المؤمنين.

علة التسمية: سميت[3] بسورة الفرقان؛ لأن بها الفرق بين الحق والباطل، لاشتمالها على أحكام التوحيد وأدلته، ومكارم الأخلاق وأحوال العباد.

فضلها: أخرج مالك والشافعي والبخاري ومسلم وابن حبان والبيهقي في «سننه» عن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ قال: سمعت هشام بن حكيم، يقرأ سورة الفرقان في حياة رسول الله ﷺ، فكدت أساوره في الصلاة، فتصبرت حتى

---

(١) المراح.

(٢) الناسخ والمنسوخ لابن حزم.

(٣) الصاوي.

سلم، فلببته بردائه، فقلت: من أقرأك هذه السورة التي سمعتك تقرأ؟ قال: أقرأنيها رسول الله ﷺ، فقلت: كذبت، فإن رسول الله ﷺ قد أقرأنيها على غير ما قرأته، فانطلقت أقوده إلى رسول الله ﷺ، فقلت: إني سمعت هذا يقرأ سورة الفرقان على حروف لم تقرئنيها. فقال رسول الله ﷺ: «أرسله أقرئنا هشام». فقرأ عليه القراءة التي سمعته يقرأ. فقال رسول الله ﷺ: «كذلك أنزلت». ثم قال: «أقرئنا عمر». فقرأت القراءة التي أقرأني. فقال رسول الله ﷺ: «كذلك أنزلت، إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف، فاقرؤوا ما تيسر منه».

وعن النبي ﷺ[١]: «من قرأ سورة الفرقان، لقي الله، وهو مؤمن بأن الساعة آتية لا ريب فيها، وأدخل الجنة بغير نصب» ولكن هذا الحديث موضوع.

المناسبة: مناسبة أول هذه السورة لآخر ما قبلها[٢]، أنه لما ذكر وجوب مبايعة المؤمنين للرسول، وأنهم إذا كانوا معه في أمر مهم، توقف انفصال واحد منهم على إذنه، وحذر من يخالف أمره، وذكر أن له ملك السماوات والأرض، وأنه تعالى عالم بما هم عليه، ومجازيهم على ذلك، فكان ذلك غاية في التحذير والإنذار. ناسب أن يفتتح هذه السورة بأنه تعالى، منزه في صفاته عن النقائص، كثير الخير. ومن خيره أنه نزل الفرقان على رسوله منذراً لهم، فكان في ذلك إطماع في خيره، وتحذير من عقابه.

وفي «المراغي»: مناسبة هذه السورة لما قبلها من وجوه[٣]:

١ ـ أنه سبحانه اختتم السورة السابقة، بكونه مالكاً لما في السماوات والأرض، مصرفاً له على ما تقتضيه الحكمة البالغة، والمصلحة العامة مع النظام البديع، والوضع الأنيق وأنه سيحاسب عباده يوم القيامة على ما قدموا من العمل خيراً كان أو شراً. وافتتح هذه بما يدل على تعاليه في ذاته وصفاته، وأفعاله، وعلى حبه لخير عباده بإنزال القرآن لهم هادياً، وسراجاً، منيراً.

---

(١) البيضاوي.
(٢) البحر المحيط.
(٣) المراغي.

٢ ـ اختتم السورة السالفة، بوجوب متابعة المؤمنين للرسول ﷺ مع مدحهم على ذلك، وتحذيرهم من مخالفة أمره خوف الفتنة، والعذاب الأليم، وافتتح هذه بمدح الرسول، وإنزال الكتاب عليه، لإرشادهم إلى سبيل الرشاد وذم الجاحدين لنبوته، بقولهم: إنه رجل مسحور، وإنه يأكل الطعام ويمشي في الأسواق إلى آخر ما قالوا.

٣ ـ في كل من السورتين وصف السحاب، وإنزال الأمطار، وإحياء الأرض الجزر. فقال في السالفة: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا﴾ إلخ. وقال في هذه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًا﴾ إلخ.

٤ ـ ذكر في كل منهما، وصف أعمال الكافرين يوم القيامة، وأنها لا تجزيهم فتيلاً ولا قطميراً، فقال في الأولى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ﴾ إلخ. وقال في هذه: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾﴾.

٥ ـ وصف النشأة الأولى للإنسان في أثنائهما. فقال في الأولى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ﴾. وفي الثانية: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا﴾.

والله أعلم

* * *

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡفُرۡقَانَ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦ لِيَكُونَ لِلۡعَٰلَمِينَ نَذِيرًا (١) ٱلَّذِي لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلۡأَرۡضِ وَلَمۡ يَتَّخِذۡ وَلَدٗا وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٞ فِي ٱلۡمُلۡكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيۡءٖ فَقَدَّرَهُۥ تَقۡدِيرٗا (٢)
وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةٗ لَّا يَخۡلُقُونَ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ وَلَا يَمۡلِكُونَ لِأَنفُسِهِمۡ ضَرّٗا وَلَا نَفۡعٗا
وَلَا يَمۡلِكُونَ مَوۡتٗا وَلَا حَيَوٰةٗ وَلَا نُشُورٗا (٣) وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ إِفۡكٌ ٱفۡتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ
عَلَيۡهِ قَوۡمٌ ءَاخَرُونَۖ فَقَدۡ جَآءُو ظُلۡمٗا وَزُورٗا (٤) وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٱكۡتَتَبَهَا فَهِيَ تُمۡلَىٰ
عَلَيۡهِ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا (٥) قُلۡ أَنزَلَهُ ٱلَّذِي يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورٗا
رَّحِيمٗا (٦) وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأۡكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشِي فِي ٱلۡأَسۡوَاقِ لَوۡلَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مَلَكٞ
فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا (٧) أَوۡ يُلۡقَىٰٓ إِلَيۡهِ كَنزٌ أَوۡ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٞ يَأۡكُلُ مِنۡهَاۚ وَقَالَ
ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلٗا مَّسۡحُورًا (٨) ٱنظُرۡ كَيۡفَ ضَرَبُواْ لَكَ ٱلۡأَمۡثَٰلَ فَضَلُّواْ فَلَا
يَسۡتَطِيعُونَ سَبِيلٗا (٩) تَبَارَكَ ٱلَّذِيٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيۡرٗا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا
ٱلۡأَنۡهَٰرُ وَيَجۡعَل لَّكَ قُصُورَۢا (١٠) بَلۡ كَذَّبُواْ بِٱلسَّاعَةِۖ وَأَعۡتَدۡنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا (١١) إِذَا
رَأَتۡهُم مِّن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ سَمِعُواْ لَهَا تَغَيُّظٗا وَزَفِيرٗا (١٢) وَإِذَآ أُلۡقُواْ مِنۡهَا مَكَانٗا ضَيِّقٗا مُّقَرَّنِينَ دَعَوۡاْ
هُنَالِكَ ثُبُورٗا (١٣) لَّا تَدۡعُواْ ٱلۡيَوۡمَ ثُبُورٗا وَٰحِدٗا وَٱدۡعُواْ ثُبُورٗا كَثِيرٗا (١٤) قُلۡ أَذَٰلِكَ خَيۡرٌ أَمۡ
جَنَّةُ ٱلۡخُلۡدِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلۡمُتَّقُونَۚ كَانَتۡ لَهُمۡ جَزَآءٗ وَمَصِيرٗا (١٥) لَّهُمۡ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ خَٰلِدِينَۚ
كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعۡدٗا مَّسۡـُٔولٗا (١٦) وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمۡ
أَضۡلَلۡتُمۡ عِبَادِي هَٰٓؤُلَآءِ أَمۡ هُمۡ ضَلُّواْ ٱلسَّبِيلَ (١٧) قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِي لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن
دُونِكَ مِنۡ أَوۡلِيَآءَ وَلَٰكِن مَّتَّعۡتَهُمۡ وَءَابَآءَهُمۡ حَتَّىٰ نَسُواْ ٱلذِّكۡرَ وَكَانُواْ قَوۡمَۢا بُورٗا (١٨) فَقَدۡ
كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسۡتَطِيعُونَ صَرۡفٗا وَلَا نَصۡرٗاۚ وَمَن يَظۡلِم مِّنكُمۡ نُذِقۡهُ عَذَابٗا
كَبِيرٗا (١٩) وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمۡ لَيَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشُونَ فِي

ٱلْأَسْوَاقِۗ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴿٢٠﴾﴾.

حوت هذه السورة توحيد الله، وإثبات نبوة محمد ﷺ، وبيان صفات النبي ﷺ، والرد على من أنكروا نبوته ﷺ. ثم بيان أحوال يوم القيامة، وما يكون فيها من الأهوال. ثم ختمت بأوصاف عباده المخلصين، الذين يمشون على الأرض هوناً. ثم ذكر جلال الله، وتصرفه في خلقه، وتفرده بالخلق والتقدير.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً . . .﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن الله[1] سبحانه، لما وصف نفسه بصفات العزة والجلال، وبين وجه الحق في ذلك، أردفه حكاية أباطيل عبدة الأوثان، الذين اتخذوا من دونه آلهة تعجيباً لأولي النهى من حالهم، وتنبيهاً إلى خطأ أفعالهم، وتسفيهاً لأحلامهم. فقد انحرفوا عن منهج الحق، وركبوا المركب الذي لا يركبه إلا كل آمن الرأي مسلوب العقل.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ. . .﴾ مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه، لما تكلم أولاً في التوحيد، ثم في الرد على عبدة الأوثان، أردف ذلك بالرد على الطاعنين في نبوة محمد ﷺ، وقد قسموا مطاعنهم قسمين، مطاعن في القرآن، ومطاعن فيمن نزل عليه القرآن.

قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ. . .﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه، لما حكى شبهتهم فيما يتعلق بالمنزل، وهو القرآن، ساق شبهتهم في المنزل عليه، وهو الرسول على الوجه الذي ذكره. ثم فند تلك الشبه، وبين سخفها، وأنها لا تصلح مطعناً في النبي. ثم حكى عنهم نوعاً ثالثاً من أباطيلهم، وهو تكذيبهم بيوم القيامة. ثم وصف ما أعد للكافرين فيه، مما يشيب من هوله الولدان من نار تلظى، يسمعون لها تغيظاً وزفيراً،

---

(١) المراغي.

ووضعهم فيها مقرنين في الأصفاد، ونداؤهم إذ ذاك بقولهم يا ثبوراه. ثم أتبع ذلك بما يؤكد حسرتهم وندامتهم، بوصف ما يلقاه المتقون في جنات النعيم. مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، وأن هذا ما وعدهم به ربهم الذي لا خلف لوعده.

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه، لما ذكر ما أعد لأولئك المكذبين بيوم القيامة، من الشدائد والأهوال في النار، ودعائهم على أنفسهم، بالويل والثبور.. أردفه ذكر أحوالهم مع معبوداتهم من دون الله، وتوبيخهم على عبادة من عبدوا من الملائكة وغيرهم. ثم ذكر أن معبوداتهم تكذبهم فيما نسبوه إليهم، ثم بين أن العابدين لا يستطيعون دفعاً عن أنفسهم، ولا يجدون من يستنصروه به.

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن الله[1] سبحانه، لما ذكر مقالتهم التي طعنوا فيها على رسوله بقولهم: ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾ زاعمين أن هذا مما لا ينبغي للرسول أن يفعل مثله، أردف ذلك بالاحتجاج عليهم، بأن محمداً ليس بدعاً في الرسل، فكلهم كانوا يفعلون فعله. وفي هذا تسلية للرسول ﷺ، وتصبير له على أذاهم. ثم بين أن سنته، أن يبتلي بعض الناس ببعض، فيبتلي الفقراء بالأغنياء، والمرسلين بالمرسل إليهم، فيناصبوهم العداء، ويؤذوهم ليعلم أيهم يصبر، وأيهم يجزع، وهو البصير بحال الصابرين، وحال الجازعين.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ...﴾ الآية، سبب نزول هذه الآية: ما أخرجه[2] ابن أبي شيبة في المصنف، وابن جرير وابن أبي حاتم عن خثيمة قال: قيل للنبي ﷺ: إن شئت أعطيناك مفاتيح الأرض وخزائنها، لا ينقصك ذلك عندنا شيئاً في الآخرة، وإن شئت جمعتهما لك في الآخرة.

---

(١) المراغي. (٢) لباب النقول.

قال: بل اجمعهما لي في الآخرة فنزلت: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ...﴾ الآية.

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ...﴾ الآية، سبب نزولها: ما أخرجه الواحدي من طريق جويبر عن الضحاك عن ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ قال: لما عير المشركون رسول الله ﷺ بالفاقة، وقالوا: ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق، حزن رسول الله ﷺ، فنزل: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ...﴾ الآية. وأخرج ابن جرير نحوه من طريق سعيد وعكرمة عن ابن عباس.

التفسير وأوجه القراءة

﴿تَبَارَكَ﴾؛ أي: تزايد وتكاثر خير الإله وإحسانه، الذي من أجله وأعظمه إرسال الرسول، وإنزال القرآن. ﴿ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ﴾؛ أي: أنزل القرآن إنزالاً متكرراً بحسب الوقائع في ثلاث وعشرين سنة. ﴿عَلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾ محمد ﷺ. ﴿لِيَكُونَ﴾ ذلك العبد أو إنزال القرآن. ﴿لِلْعَٰلَمِينَ﴾؛ أي: للمكلفين من الثقلين. ﴿نَذِيرًا﴾؛ أي: مخوفاً من عذاب الله تعالى. أو المعنى[1]: تعالى الله الذي نزل القرآن على عبده الأخلص، ونبيه الأخص، وحبيبه الأعلى، وصفيه الأولى محمد المصطفى ﷺ في ذاته وصفاته وأفعاله. فتعالت ذاته من جواز التغير والفناء، وعن مشابهة شيء من الممكنات. وتعالت صفاته عن الحدوث، وأفعاله عن العبث. ومن جملة أفعاله تنزيل القرآن، المنطوي على جميع الخيرات الدينية والدنيوية. وفي الإتيان بعنوان العبد إعلام بكون سيدنا محمد ﷺ، في أقصى مراتب العبودية، وتشريف له بالعبدية المطلقة، وتفضيل له بها على جميع الأنبياء، فإنه تعالى لم يسم أحداً منهم بالعبد مطلقاً، كقوله تعالى: ﴿عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ﴾ وتنبيه على أن الرسول لا يكون إلا عبداً للمرسل، رداً عى النصارى. ولذا قدم في التشهد عبده على رسوله.

---

(١) المراح وروح البيان.

وقال الشوكاني: تكلم[1] سبحانه في هذه السورة على التوحيد؛ لأنه أقدم وأهم. ثم في النبوة؛ لأنها الواسطة، ثم في المعاد؛ لأنه الخاتمة. وأصل تبارك: مأخوذ من البركة، وهي النماء، حسيةً كانت أو معنوية.

قال الزجاج: تبارك تفاعل من البركة. قال: ومعنى البركة: الكثرة من كل ذي خير. وقال الفراء: إنَّ تبارك وتقدس في العربية واحد. ومعناهما العظمة. وقيل: المعنى: تبارك عطاؤه؛ أي: زاد وكثر. وقيل: المعنى؛ أي: دام وثبت. قال النحاس: وهذا أولاها في اللغة.

قال العلماء: هذه اللفظة لا تستعمل إلا لله سبحانه، ولا تستعمل إلا بلفظ الماضي، وخص في هذا الموضع بالذكر، لأن ما بعده أمر عظيم، وهو القرآن المشتمل على معاني جميع كتب الله تعالى.

والفرقان القرآن، سمي فرقاناً، لأنه يفرق بين الحق والباطل بأحكامه، أو بين المحق والمبطل؛ أي: بين المؤمن والكافر، أو لأنه نزل مفرقاً في أوقات كثيرة. ولهذا قال نزل بالتشديد لتكثير التفريق. ثم علل التنزيل بقوله: ﴿لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾؛ أي: ليكون[2] العبد منذراً بالقرآن للإنس والجن ممن عاصره، أو جاء بعده مخوفاً لهم من عذاب الله، وموجبات سخطه. والمراد بعبده محمد ﷺ كما مر. وبالعالمين هنا الإنس والجن. لأن النبي ﷺ مرسل إليهما فقط. فإن الملائكة، وإن كانوا من جملة أجناس العالم، إلا أن النبي ﷺ لم يكن رسولاً إليهم، فلم يبق من العالمين المكلفين إلا الجن والإنس، فهو رسول إليهما جميعاً، فتكون الآية وقوله عليه السلام: «أرسلت للخلق كافة» من العام المخصوص. ولم يبعث نبي غيره ﷺ إلا إلى قوم معينين. وأما نوح عليه السلام، فإنه وإن كان له عموم بعثة، لكن رسالته ليست بعامة لمن بعده. وأما سليمان عليه السلام، فإن كونه مبعوثاً إلى الجن وما كان له من التسخير العام.. لا يستلزم عموم الدعوة.

---

(١) الشوكاني.

(٢) روح البيان.

والآية حجة لأبي حنيفة ـ رحمه الله ـ في قوله: ليس للجن ثواب إذا أطاعوه سوى النجاة من العذاب، ولهم عقاب إذا عصوا حيث اكتفى بقوله: ﴿لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ ولم يذكر البشارة. قال في «الإرشاد» عدم التعرض للتبشير لانسياق الكلام على أحوال الكفرة.

وفي «المراغي»: وإنما ذكر الإنذار ولم يذكر التبشير، مع أن الرسول مرسل بهما، من قبل أن السورة بصدد بيان حال المعاندين، المتخذين لله ولداً، والطاعنين في كتبه ورسله واليوم الآخر. والنذير المنذر؛ أي: ليكون محمداً منذراً، أو ليكون إنزال القرآن منذراً. ويجوز أن يكون النذير هنا بمعنى المصدر للمبالغة؛ أي: ليكون إنزاله إنذاراً، أو ليكون محمد إنذاراً. وجعل الضمير للنبي ﷺ أولى؛ لأن صدور الإنذار منه حقيقة ومن القرآن مجاز. والحمل على الحقيقة أولى. ولكونه أقرب مذكور. وقيل: إن رجوع الضمير إلى الفرقان أولى، لقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿عَلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾ بالإفراد، وهو محمد ﷺ. وقرأ ابن الزبير ﴿عَلَىٰ عِبَادِهِۦ﴾؛ أي: الرسول وأمته، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ﴾ وقال: ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا﴾ وقرأ ابن الزبير: ﴿للعالمين الجن والإنس﴾ وهو تفسير للعالمين.

وخلاصة ذلك[2]: تعالى الله عما سواه، في ذاته وصفاته وأفعاله التي من جملتها تنزيل القرآن المعجز الناطق بعلو شأنه، وسمو صفاته وابتناء أفعاله على أساس الحكم، والمصالح على عبده محمد ﷺ لينذر به الناس، ويخوفهم بأسه ووقائعه بمن خلا قبلهم من الأمم. ونحو الآية قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴿١﴾ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾.

فائدة: لفظة تبارك[3] كلمة لا تستعمل إلا لله تعالى بلفظ الماضي، وذكرت

---

(١) البحر المحيط.

(٢) المراغي.

(٣) فتح الرحمٰن.

في هذه السورة في ثلاثة مواضع تعظيماً لله تعالى:

الأول: عند ذكر الفرقان: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾.

والثاني: عند ذكر النبي ﷺ: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ﴾.

والثالث: عند ذكر البروج: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا﴾.

ومثل هذه الآيات قوله تعالى: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾. ﴿تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾. ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾ وخصت مواضعها بذكرها لعظم ما بعدها:

الأول: ذكر الفرقان، وهو القرآن المشتمل على معاني كتب الله تعالى.

والثاني: ذكر النبي ﷺ، ومخاطبة الله تعالى له فيه.

وفي الأثر: «لولاك يا محمد ما خلقت الكائنات» وفي «كشف الخفاء»: «لولاك لولاك ما خلقت الأفلاك». قال الصغاني: هذا حديث موضوع. وكذلك قال «الشوكاني». قال العجلوني بعد ذكره الأثر. وأقول: لكن معناه صحيح، وإن لم يكن حديثاً.

والثالث: ذكر البروج والشمس والقمر والليل والنهار، ولولاها لما وجد في الأرض حيوان ولا نبات.

ثم وصف سبحانه نفسه بأربع صفات، من صفات الكبرياء:

الأولى: ذكرها بقوله: ﴿ٱلَّذِى﴾ بدل من الموصول الأول، أو خبر مبتدأ محذوف؛ أي: هو الذي ﴿لَهُۥ﴾ خاصة دون غيره استقلالاً أو اشتراكاً ﴿مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ الملك التصرف بالأمر والنهي في الجمهور؛ أي: له السلطان القاهر عليهما، فله القدرة التامة فيهما وفيما حوياه إيجاداً وإعداماً، وأمراً ونهياً بحسب ما تقتضيه مشيئته المبنية على الحكم والمصالح.

والصفة الثانية: ذكرها بقوله: ﴿وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾؛ أي: لم ينزل أحداً منزلة ولد، فهو عطف على الصلة. وهذا رد على اليهود والنصارى وبعض مشركي العرب؛ أي: ولم يكن له ولد ليرث ملكه؛ لأنه حي لا يموت، كما زعم الذين

قالوا: ذلك للمسيح وعزير، والملائكة. كما حكى الله سبحانه عنهم، في قوله: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ وقوله: ﴿أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ ۝١٥٠ أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ۝١٥١ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ۝١٥٢ أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ۝١٥٣﴾.

والصفة الثالثة: ذكرها بقوله: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ﴾ سبحانه ﴿شَرِيكٌ فِي ٱلْمُلْكِ﴾؛ أي: في ملك السماوات والأرض، لينازعه أو ليعاونه في الإيجاد. فهو تأكيد لقوله: ﴿لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

وفيه رد على طوائف المشركين من الوثنية والثنوية، وأهل الشرك الخفي؛ أي: وما كان لله سبحانه شريك في ملكه وسلطانه، يصلح أن يعبد من دونه، فأفردوا له العبادة، وأخلصوها له دون كل ما تعبدون من دونه من الآلهة والملائكة والجن والإنس. وفيه أيضاً رد على المشركين العرب، القائلين في تلبيتهم للحج: لبيك لا شريك لك إلا شريك هو ملك.

والصفة الرابعة: ذكرها بقوله: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ من الموجودات؛ أي: أحدث[1] وأوجد كل موجودات، من مواد مخصوصة على صور معينة، ورتب فيه قوى وخواص مختلفة الأحكام والآثار ﴿فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾؛ أي: فهيأه لما أراده منه، من الخصائص والأفعال اللائقة به، كتهيئة الإنسان للإدراك والفهم والنظر والتدبر في أمور المعاش والمعاد، واستنباط الصنائع المتنوعة، ومزاولة الأعمال المختلفة. وهكذا أحوال سائر الأنواع.

والمعنى: أي[2] وأوجد كل شيء بحسب ما اقتضته إرادته المبنية على الحكم البالغة، وهيأه لما أراد به من الخصائص، والأفعال التي تليق به، فأعد الإنسان للإدراك والفهم والتدبر، في أمور المعاش والمعاد، واستنباط الصناعات المختلفة، والانتفاع بما في ظاهر الأرض وباطنها. وأعد صنوف الحيوان للقيام بأعمال مختلفة تليق بها وبإدراكها.

---

(١) روح البيان.　　(٢) المراغي.

والخلاصة: أن كل شيء مما سواه مخلوق مربوب، وهو خالق كل شيء وربه، ومليكه وإلٰهه. وكل شيء تحت قهره وتسخيره وتقديره. ومن كان كذلك، فكيف يخطر بالبال، أو يدور في الخلد كونه سبحانه والداً له، أو شريكاً له في ملكه، كما قال: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ...﴾ الآية.

وفي «فتح الرحمٰن» إن قلت: الخلق[1] هو التقدير. ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ﴾ فكيف جمع بينهما؟

قلت: الخلق من الله هو إيجاد، فصح الجمع بينه وبين التقدير.. ولو سلم أنه التقدير، لساغ الجمع بينهما لاختلافهما لفظاً. كما في قوله تعالى: ﴿أُولَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ﴾ انتهى.

ثم صرح سبحانه بتزييف مذاهب عبدة الأوثان. فقال: ﴿وَٱتَّخَذُوا۟﴾؛ أي: واتخذ المنذرون من كفار مكة كأبي جهل وأصحابه؛ أي: واتخذوا لأنفسهم وجعلوا لها ﴿مِن دُونِهِۦٓ﴾ تعالى ﴿ءَالِهَةً﴾؛ أي: معبودات يعبدونها من دونه تعالى؛ أي: جعلوا لأنفسهم متجاوزين الله آلهة. ﴿لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا﴾؛ أي: لا يقدرون على خلق شيء من الأشياء أصلاً. والجملة في محل نصب صفة لآلهة، وغلب العقلاء على غيرهم؛ لأن في معبودات الكفار الملائكة وعزير والمسيح.

﴿وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾؛ أي: والحال أنهم مخلوقون لله سبحانه وتعالى، فكيف تُتخذ آلهة؟ وقيل: عبر عن الآلهة بضمير العقلاء، جرياً على اعتقاد الكفار، أنها تضر وتنفع. وقيل معنى: ﴿وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ أن عبدتهم يصورونهم. وقال[2] هنا: ﴿مِن دُونِهِۦٓ﴾ بالضمير، وفي مريم ويس ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ بلفظ الجلالة. حيث قال في مريم: ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾﴾ وفي يس: ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾﴾ موافقة لما قبله في المواضع الثلاثة.

ثم لما وصف الله سبحانه نفسه بالقدرة الباهرة.. وصف آلهة المشركين بالعجز البالغ. فقال: ﴿وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ﴾؛ أي: لا يستطيعون ﴿ضَرًّا﴾؛

---

(١) فتح الرحمٰن.

(٢) فتح الرحمٰن.

أي: دفع ضر عنها، قُدِّم لكونه أهم من النفع. ﴿وَلَا نَفْعًا﴾؛ أي: ولا جلب نفع لها، فكيف يملكون شيئاً منهما لغيرهم؟ فهم أعجز من الحيوان، فإنه ربما يملك دفع الضر، وجلب النفع لنفسه في الجملة.

وفي «فتح الرحمٰن»: قدم[1] الضر على النفع لمناسبة ما بعده، من تقديم الموت على الحياة. انتهى. ثم زاد في بيان عجزهم، فنصَّصَ على هذه الأمور. فقال: ﴿وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا﴾؛ أي: لا يقدرون على إماتة الأحياء. وإحيائهم أولاً وبعثهم ثانياً. ومن كان كذلك، فبمعزل عن الألوهية، لعرائه عن لوازمها واتصافه بما ينافيها.

وفيه[2] تنبيه على أن الإلٰه، يجب أن يكون قادراً على البعث والجزاء، يعني أن الضار والنافع والمميت والمحيي والباعث هو الله سبحانه، فهو المعبود الحقيقي، وما سواه فليس بمعبود بل عابد لله تعالى، كما قال تعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾﴾.

وفي الآية إشارة إلى الأصنام المعنوية، وهم المشايخ المدعون، والدجاجلة المضلون، فإنهم ليسوا بقادرين على إحياء القلوب، وإماتة النفوس، فالتابعون لهم في حكم عابدي الأصنام. فليحذر العاقل من اتخاذ أهل الهوى متبوعاً، فإن الموت الأكبر الذي هو الجهل، إنما يزول بالحياة الأشرف الذي هو العلم. فإن كان للعبد مدخل في إفادة الخلق، العلم النافع، ودعاؤهم إلى الله على بصيرة.. فهو الذي رقى غيره من الجهل إلى المعرفة، وأنشأه نشأة أخرى، وأحياه حياة طيبة بإذن الله تعالى. وهي رتبة الأنبياء ومن يرثهم من العلماء العاملين. وأما من سقط عن هذه الرتبة، من الجهلة الذين اتخذهم الناس سادةً، لنسبهم إلى العلماء، فليس الاستماع إلى كلامه إلا كاستماع بني إسرائيل إلى صوت العجل.

وقد قال الله تعالى: ﴿وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾؛ أي: كونوا في جملة الصادقين ومصاحبين لهم وبعضهم ولذا قالوا يلزم المرء أن يختار من البقاء أحسنها ديناً،

---

(١) فتح الرحمٰن. (٢) روح البيان.

حتى يتعاون بالأخوان الصادقين. قيل لعيسى عليه السلام: يا روح الله من نجالس؟ فقال: من يزيدكم في علمه منطقه، ويذكركم الله رؤيته، ويرغبكم في الآخرة عمله.

اللهم بحق الفرقان اجعلنا مع الصادقين من الإخوان.

والحاصل: أن الله سبحانه وتعالى[1] بين ما بآلهتهم من النقائص من وجوه متعددة:

الأولى: أنها لا تخلق شيئاً. والإلٰه يكون قادراً على الخلق والإيجاد.

والثاني: أنها مخلوقة. والمخلوق محتاج. والإلٰه يجب أن يكون غنياً عن كل ما سواه.

والثالث: أنها لا تملك لنفسها ضراً ولا نفعاً، فضلاً عن أن تملك ذلك لغيرها، ومن كان كذلك، فلا فائدة في عبادته وإجلاله وتعظيمه.

والرابع: أنها لا تقدر على التصرف في شيء ما، فلا تستطيع إماتة الأحياء ولا إحياء الموتى، وبعثهم من قبورهم. ومن كان كذلك، فكيف يسمىٰ إلٰهاً، وتعطى له خصائص الآلهة، من الخضوع لعظمته والإخبات لجلاله.

وعلى الجملة[2] فعبدة الأصنام قد تركوا عبادة الخالق، المالك لكل شيء، المتصرف فيه بقدرته وسلطانه. وعبدوا ما لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضرّاً، وليس بعد هذا من حماقة، ولا يرضى بمثله، من له مسكنه من عقل، ولا أثارة من علم.

ولما فرغ الله سبحانه من بيان التوحيد، وتزييف مذاهب المشركين.. شرع في ذكر شبه منكري النبوة. فالشبهة الأولى: ما حكاه عنهم بقوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ من أهل مكة، كنضر بن الحارث وعبد الله بن أمية ونوفل بن خويلد ومن تابعهم ﴿إِنْ هَٰذَآ﴾؛ أي: ما هذا القرآن ﴿إِلَّآ إِفْكٌ﴾؛ أي[3]: كذب مصروف

---

(١) المراغي.
(٢) المراغي.
(٣) روح البيان.

عن وجهه؛ لأن الإفك كل مصروف عن وجهه، الذي يحق أن يكون عليه. ومنه قيل للرياح العادلة عن المهاب: المؤتفكات. ورجل مأفوك؛ أي: مصروف عن الحق إلى الباطل. ﴿ٱفۡتَرَىٰهُ﴾؛ أي: اختلقه محمد من عند نفسه. والفرق بين الافتراء والكذب أنَّ الافتراء هو افتعال الكذب. من قبل نفسه. والكذب قد يكون على وجه التقليد للغير فيه، كما في الأسئلة المقحمة.

﴿وَأَعَانَهُۥ﴾؛ أي: وأعان محمداً ﴿عَلَيۡهِ﴾؛ أي: على اختلاقه ﴿قَوۡمٌ ءَاخَرُونَ﴾؛ أي: قوم غير قومه؛ أي: اليهود فإنهم يلقون إليه أخبار الأمم الماضية، وهو يعبر عنها بعبارته. قال الكلبي[1] ومقاتل: نزلت هذه الآية في النضر بن الحارث، فهو الذي قال هذا القول. وقال: أعانه عليه عداس مولى حويطب بن عبد العزى، ويسار مولى العلاء عامر بن الحضري، وجبر مولى عامر، وهؤلاء الثلاثة كانوا من أهل الكتاب، وكانوا يقرأون التوراة، ويحدثون أحاديث منها في مكة، فلما أسلموا، كان النبي ﷺ يتعهدهم، ويختلف إليهم، فزعم النضر وأصحابه، أنهم يلقون إليه ﷺ أخبار الأمم الماضية، وهو ﷺ يعبر عنها بعبارات من عنده، فهذا معنى إعانتهم له، فمن أجل ذلك قال النضر ما قال. فرد الله تعالى ذلك بقوله: ﴿فَقَدۡ جَآءُو﴾؛ أي: قائلوا هذه المقالة؛ أي: فعلوا بما قالوا ظلماً وزوراً.

والمعنى: أي وقال الكافرون: إن هذا القرآن ليس من عند الله تعالى، بل اختلقه محمد ﷺ، وأعانه على ذلك جماعة من أهل الكتاب، ممن أسلموا وكان يتعهدهم، ويختلف إليهم (تقدم ذكر أسمائهم) فيلقون إليه أخبار الأمم الغابرة، وهو يصوغها بلغته، وأسلوبه الخاص، فرد الله عليهم مقالهم فقال: ﴿فَقَدۡ جَآءُو﴾؛ أي: فعلوا بما قالوا، فإن جاؤوا أتى يستعملان بمعنى فعل فيتعديان تعديته ﴿ظُلۡمًا﴾ عظيماً بجعل الكلام المعجز إفكاً مختلفاً مفتعلاً من اليهود، يعني: وضعوا الإفك في غيره. ﴿وَزُورٗا﴾؛ أي: كذباً كبيراً، حيث نسبوا إليه ﷺ ما هو

---

(١) المراح.

بريء منه؛ أي: فقد[1] وضعوا الأشياء في غير مواضعها، وكذبوا على ربهم، إذ جعلوا القرآن الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه، ولا من خلفه إفكاً مفترى من قبل البشر، وكيف يتقولون ذلك على الرسول، وقد تحداهم أن يأتوا بمثله، وهم ذووا اللسن والفصاحة، والغاية في البلاغة فعجزوا أن يأتوا بمثله، ولو كان ذلك في مكنتهم ما ادخروا وسعاً في معارضته، وقد ركبوا الصعب، والذلول، ليدحضوا حجته، ويبطلوا دعوته فما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً. ولو كان محمد ﷺ، قد استعان في ذلك بغيره.. لأمكنهم أيضاً أن يستعينوا هم بغيرهم، فما مثله في اللغة إلا مثلهم، فلما لم يفعلوا.. علم أنه قد بلغ الغاية التي لا تجارى. وانتهى إلى حد الإعجاز، إلى أنه اشتمل على الحكم والأحكام التي فيها سعادة البشر في معاشهم ومعادهم، كما اشتمل على أخبار من أمور الغيب، التي لا تصل إليها مدارك البشر ولا عقولهم. وبعد أن حكى عنهم قولهم في الافتراء، بإعانة قوم آخرين عليه.. حكى عنهم طريق تلك الإعانة بقوله: ﴿وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ وهذه هي الشبهة الثانية؛ أي: وقال الذين كفروا في حق القرآن، وهذا القرآن الذي جاء به محمد ﷺ، أساطير الأولين؛ أي: ما سطره[2] وكتبه المتقدمون من الخرافات والأباطيل والأحاديث التي لا نظام لها مثل حديث رستم واسفنديار. ﴿ٱكۡتَتَبَهَا﴾؛ أي: انتسخها محمد ﷺ، من جبر ويسار وعداس؛ أي: أمر أن تكتب له؛ لأنه ﷺ كان لا يكتب، وهو كاحتجم وافتصد إذا أمر بذلك؛ أي: أمرهم بكتابتها له، وقراءتها عليه ليحفظها، لأنه أمي. ﴿فهي﴾؛ أي: فتلك الأساطير. ﴿تُمۡلَىٰ عَلَيۡهِ﴾؛ أي: تلقى على محمد ﷺ، وتقرأ عليه، بعد اكتتابها وانتساخها، ليحفظها من أفواه من يمليها عليه، لكونه أمياً، لا يقدر على أن يتلقاها منه بالقراءة والإملاء في الأصل حكاية القول لمن يكتبه. وهنا القراءة عليه من المكتوب.

﴿بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا﴾؛ أي: أول النهار وآخره؛ أي: دائماً أو خفيةً قبل انتشار الناس وحين يأوون إلى مساكنهم.

---

(١) المراغي. (٢) روح البيان.

وقرأ الجمهور: ﴿ٱكۡتَتَبَهَا﴾ مبنياً للفاعل. وقرأ ابن مسعود[1] وإبراهيم النخعي وطلحة بن مصرف ﴿ٱكۡتَتَبَهَا﴾ بضم التاء الأولى وكسر الثانية، مبنياً للمفعول، والابتداء على قراءتهم بضم الهمزة.

والمعنى[2]: اكتتبها له كاتب؛ لأنه كان أمياً لا يكتب. ثم حذفت اللام، فأفضي الفعل إلى الضمير، فصار اكتتبها إياه، ثم بني الفعل للضمير الذي هو إياه، فانقلب مرفوعاً مستتراً، بعد أن كان منصوباً بارزاً، كذا قال في «الكشاف». واعترضه أبو حيان. وقرأ[3] طلحة وعيسى ﴿فهي تتلى﴾ بالتاء بدل الميم.

والمعنى: أي[4] وقال المشركون: الذين قالوا إن هذا إلا إفك مفترى؛ أي: ما هذا الذي يقرأه محمد ﷺ إلا أحاديث الأولين، الذين كانوا يسطرونها في كتبهم، اكتتبها من اليهود، فهي تستنسخ منهم، وتقرأ عليه ليحفظها غدوةً وعشياً؛ أي: قبل انتشار الناس، وحين يأتون إلى مساكنهم. وقد عنوا بذلك، أنها تملى عليه خفية لئلا يقف الناس على حقيقة الحال، وهذه جرأة عظيمة منهم ﴿قَـٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۚ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ﴾. وقد يكون مرادهم أنها تملى عليه دائماً.

ثم أمره الله سبحانه وتعالى، بإجابتهم عمّا قالوا بقوله: ﴿قُلۡ﴾ لهم يا محمد - رداً وتحقيقاً للحق -، ليس ذلك مما يفترى ويفتعل بإعانة قوم وكتابة آخرين من الأحاديث الملفقة وأخبار الأولين، بل هو أمر سماوي. ﴿أَنزَلَهُ﴾ الإله ﴿ٱلَّذِي يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ﴾ والغيب ﴿فِي ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ لا يعزب عن علمه شيء وأودع فيه فنون الحكم والأسرار على وجه بديع، لا تحوم حوله الأفكار، ومن ثم أعجزكم بفصاحته وبلاغته. كما أخبركم فيه بمغيبات مستقبلة وأمور مكنونة، لا يعلمها إلا عالم الأسرار ولا يوقف عليها إلا بتوفيق العليم الخبير، فكيف تجعلونه أساطير الأولين؟

وخص السر[5] إشارة إلى انطواء ما أنزله سبحانه على أسرار بديعة، لا تبلغ

---

(١) البحر المحيط وزاد المسير.
(٢) الشوكاني.
(٣) البحر المحيط.
(٤) المراغي.
(٥) الشوكاني.

إليها عقول البشر. والسر الغيب؛ أي: يعلم الغيب الكائن فيهما. وجملة قوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾. تعليل لتأخير العقوبة؛ أي: إنكم وإن كنتم مستحقين لتعجيل العقوبة بما تفعلونه من الكذب على رسوله، والظلم له، فإنه لا يعجلها عليكم بذلك؛ لأنه كثير المغفرة والرحمة؛ أي[1]: إنه تعالى أزلاً وأبداً مستمر على المغفرة والرحمة، فلذلك لا يعجل على عقوبتكم على ما تقولون مع كمال قدرته عليها، واستحقاقكم أن يصب عليكم العذاب صباً. وفيه إشارة إلى أهل الضلالة من الذين نسبوا القرآن إلى الإفك، لو رجعوا عن قولهم وتابوا إلى الله، يكون غفوراً لهم رحيماً بهم، كما قال تعالى: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ﴾.

واعلم: أن الله تعالى أنزل القرآن على وفق الحكمة الأزلية في رعاية مصالح الخلق؛ ليهتدي به أهل السعادة، وليضِلَّ به أهل الشقاوة، وينسبوه إلى الإفك، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا۟ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾ والقرآن لا يدرك إلا بنور الإيمان. والكفر ظلمة. وبالظلمة لا يرى إلا الظلمة، فبظلمة الكفر؛ أي: الكفار القرآن النوراني القديم كلاماً مخلوقاً ظلمانياً من جنس كلام البشر، فكذلك أهل البدعة.. لما رأوا القرآن بظلمة البدعة، رأوا كلاماً مخلوقاً ظلمانياً بظلمة الحدوث، وظلموا أنفسهم بوضع القرآن في غير موضعه من كلام البشر. وفي الحديث: «القرآن كلام الله تعالى غير مخلوق، فمن قال بكونه مخلوقاً فقد كفر بالذي أنزله». نسأل الله العصمة والحفظ من الإلحاد وسوء الاعتقاد.

ولما فرغ سبحانه من ذكر ما طعنوا به على القرآن.. ذكر ما طعنوا به على رسول الله ﷺ، وذكر هنا أن المشركين ذكروا خمس صفات للنبي ﷺ، تمنع النبوة في زعمهم. ﴿وَقَالُوا۟﴾؛ أي: وقال المشركون من أشراف قريش، كأبي جهل وعتبة وأمية وعاص وأمثالهم. وذلك حين اجتماعهم عند ظهر الكعبة. ﴿ما﴾ استفهامية، بمعنى إنكار الوقوع ونفيه، في محل الرفع على الابتداء خبرها قوله: ﴿لِهَٰذَا الرَّسُولِ﴾ وجدت اللام مفصولة عن الهاء في المصحف، واتباعه سنة.

---

(١) روح البيان.

وفي الإشارة هنا تصغير لشأن المشار إليه وهو رسول الله ﷺ، وسموه رسولاً استهزاء وسخرية؛ أي: أيُّ سبب حصل لهذا الذي يدعي الرسالة؟ حال كونه ﴿يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ﴾ كما نأكل - والطعام كل ما يتناول من الغذاء - ﴿و﴾ حالة كونه ﴿يمشي في الأسواق﴾ لطلب المعاش كما نمشي - وهو الموضع الذي يجلب إليه المتاع للبيع ويساق - أنكروا أن يكون الرسول بصفة البشر، يعني إن صح دعواه فما باله لم يخالف حاله حالنا، ولم يؤت ميزةً دوننا.

وما هذا[1] منهم إلا لضعف عقولهم، وقصور إدراكهم، فإن الرسل لم يمتازوا بأمور حسية، بل بصفات روحية، وفضائل نفسية، فطرهم الله تعالى عليها. توجب صفاء عقولهم وطهارة نفوسهم يرشد إلى ذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾.

قال بعضهم[2]: ليس بَمَلَكٍ، ولا مَلِكٍ، وذلك؛ لأن الملائكة لا يأكلون ولا يشربون، والملوك لا يتسوقون ولا يبتذلون، فعجبوا أن يكون مثلهم في الحال، ولا يمتاز من بينهم بعلو المحل والجلال لعدم بصيرتهم وقصور نظرهم على المحسوسات، فإن تمييز الرسل عمن عداهم ليس بأمور جسمانية، وإنما هو بأحوال نفسانية، فالبشرية مركب الصورة. والصورة مركب القلب. والقلب مركب العقل. والعقل مركب الروح. والروح مركب المعرفة، والمعرفة قوة قدسية صدرت عن كشف عين الحق.

وفي «التأويلات النجمية» يشير إلى أن الكفار صم بكم عمي، فهم لا يعقلون؛ لأنهم نظروا إلى الرسول بنظر الحواس الحيوانية، وهم بمعزل من الحواس الروحانية والربانية. فما رأوا منه إلا ما يرى من الحيوان، وما رأوه بنظر يرى به النبوة والرسالة، ليعرفوه أنه ما كان محمد أبا أحد من رجالكم، ولكن رسول الله وخاتم النبيين.

وقالوا أيضاً: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾، ﴿لَوْلَآ﴾: حرف تحضيض بمعنى هلا؛

---

(١) المراغي.

(٢) روح البيان.

أي: هلا أنزل إلى محمد ﷺ ملك من الملائكة على هيأته وصورته المباينة لصورة البشر والجن. ﴿فَيَكُونَ﴾ بالنصب بعد الفاء السببية الواقعة في جواب التحضيض.

قرأ الجمهور: بالنصب، وقرىء ﴿فتكون﴾ بالرفع، حكاه أبو معاذ عطفاً على ﴿أنزل﴾؛ لأن ﴿أنزل﴾ في موضع رفع، وهو ماض وقع موقع المضارع؛ أي: هلا ينزل إليه ملك، أو هو جواب التحضيض على إضمار هو؛ أي: فيكون ذلك الملك ﴿مَعَهُۥ﴾؛ أي: مع محمد ﷺ ﴿نَذِيرًا﴾؛ أي: منذراً للناس مخوفاً لهم من عذاب الله تعالى، معيناً له في الإنذار، معلوماً صدقه بتصديقه.

﴿أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ﴾ معطوف على ﴿أنزل﴾، ولا يجوز عطفه على ﴿فيكون﴾؛ أي: أو هلا يلقى إلى محمد ﷺ كنز ومال كثير من السماء، يستظهر به ويستغنىٰ به عن المشي في الأسواق لتحصيل المعاش، والكنز: المال المكنوز؛ أي: المجموع المحفوظ.

﴿أَوْ﴾ هلا ﴿تَكُونُ لَهُۥ﴾؛ أي: لمحمد ﷺ ﴿جَنَّةٌ﴾ وبستان ﴿يَأْكُلُ مِنْهَا﴾ من ثمارها، ويعيش من غلته كما يعيش المياسير من الناس؛ أي: إن لم يلق إليه كنز، فلا أقل من أن يكون له بستان يتعيش بغلته كما لأهل الغنى والقرى.

قال صاحب «الكشاف»: إنهم طلبوا أن يكون الرسول ملكاً، ثم نزلوا عن ملكيته إلى صحبة ملك يعينه، ثم نزلوا عن ذلك إلى كونه مرفوداً بكنز. ثم نزلوا فاقتنعوا بأن يكون له بستان يأكل ويرزق منه. ا هـ.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿وتكون له جنة﴾ بالتاء الفوقية. وقرأ الأعمش وقتادة ﴿يكون﴾ بالتحتية؛ لأن تأنيث الجنة غير حقيقي. وقرأ حمزة والكسائي وزيد بن علي وابن وثاب وطلحة والأعمش: ﴿نَأْكُلَ مِنْهَا﴾ بنون الجمع؛ أي: يأكلون هم من ذلك البستان فينفقون به في دنياهم ومعاشهم، وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو وعاصم وابن عامر: ﴿يَأْكُلُ مِنْهَا﴾ بياء الغيبة، يعنون الرسول ﷺ؛ أي:

---

(١) البحر المحيط.

يأكل هو وحده منه، ليكون له بذلك مزية علينا، حيث يكون أكله من جنته. قال النحاس: والقراءتان حسنتان، وإن كانت القراءة بالياء أبين؛ لأنه قد تقدم ذكر الرسول ﷺ وحده، فعود الضمير إليه بَيِّنٌ.

وعن ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ قال: إن عتبة بن ربيعة وأبا سفيان بن حرب والنضر بن الحارث وأبا البحتري والأسود بن المطلب وزمعة بن الأسود والوليد بن المغيرة وأبا جهل بن هشام وعبد الله بن أبي أمية وأمية بن خلف والعاص بن وائل ومنبه بن الحجاج، اجتمعوا فقال بعضهم لبعض: ابعثوا إلى محمد وكلموه وخاصموه حتى تعتذروا منه، فبعثوا إليه: إن أشراف قومك قد اجتمعوا ليكلموك، قال: فجاءهم رسول الله ﷺ فقالوا: يا محمد إنا بعثنا إليك لنعتذر منك، فإن كنت إنما جئت بهذا الحديث، تطلب مالاً، جمعنا لك من أموالنا، وإن كنت تطلب به الشرف، فنحن نسودك، وإن كنت تريد ملكاً، ملكناك. فقال رسول الله ﷺ: «ما بي مما تقولون، ما جئتكم بما جئتكم به أطلب أموالكم، ولا الشرف فيكم، ولا الملك عليكم، ولكن بعثني إليكم رسولاً، وأنزل علي كتاباً، وأمرني أن أكون لكم بشيراً ونذيراً، فبلغتكم رسالة ربي، ونصحت لكم، فإن تقبلوا مني ما جئتكم به.. فهو حظكم في الدنيا والآخرة. وإن تردوه علي.. أصبر حتى يحكم الله بيني وبينكم». قالوا: يا محمد، فإن كنت غير قابل منا شيئاً، مما عرضناه عليك.. فسل لربك وسل لنفسك أن يبعث معك ملكاً يصدقك فيما تقول، ويراجعنا عنك. وسله أن يجعل لك جناناً وقصوراً من ذهب وفضة، ويغنيك عما نراك تبتغي فإنك تقوم بالأسواق وتلتمس المعاش، كما نلتمسه حتى نعرف فضلك ومنزلتك من ربك، إن كنت رسولاً كما تزعم. فقال لهم رسول الله ﷺ: «ما أنا بفاعل، ما أنا بالذي يسأل ربه هذا، وما بعثت إليكم بهذا، ولكن الله بعثني بشيراً ونذيراً»، فأنزل الله في ذلك هذه الآية. أخرجه ابن إسحاق وابن جرير وابن المنذر.

وبعد أن[1] حكى عنهم أولاً أنهم يثبتون له كمال العقل، ولكنهم ينتقصونه

---

(١) المراغي.

بصفات في شؤون الدنيا . . حكى عنهم ثانياً: أنهم نفوا عنه العقل بتاتاً، وادعوا أنه مختل الشعور والإدراك، وإلى هذا أشار بقوله: ﴿وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾؛ أي: وقال الذين ظلموا أنفسهم، بنسبتهم إلى الرسول ﷺ ما هو منه بريء، وهم القائلون بالمقالات السابقة. وإنما وضع[1] الظاهر موضع المضمر تسجيلاً عليهم بوصف الظلم، وتجاوز الحد فيما قالوا، لكونه إضلالاً خارجاً عن حد الضلال؛ أي: قالوا للمؤمنين ﴿إِن تَتَّبِعُونَ﴾؛ أي: ما تتبعون أيها المؤمنون به ﴿إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾؛ أي: مختل النظر والعقل؛ أي: إلا رجلاً مغلوباً على عقله بالسحر؛ أي: قد سحر فغلب على عقله، حتى يزول عنه.

قال بعض أهل الحقائق: كانوا يرون قبح حالهم في مرآة النبوة، وهم يحسبون أنه حال النبي عليه السلام. وقيل: ذا سُحْرٌ، وهي الرئة؛ أي: بشراً له رئة لا ملكاً، والمعنى: أي: ما تتبعون إلا رجلاً سُحِرَ فاختل عقله، فهو لا يعني ما يقول، ومثله لا يطاع له رأي. وهذا منهم ترق في انتقاصه، وأنه لا يصلح للنبوة بحال.

ولما ذكر ضلالاتهم. . التفت إلى رسوله ﷺ مسلياً له بقوله: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ﴾؛ أي: أنظر واعجب لهم يا محمد، كيف ضربوا لك، وقالوا فيك تلك الأمثال الفاسدة، والأقاويل العجيبة، الخارجة عن العقول الجارية لغرابتها مجرى الأمثال، واخترعوا لك تلك الأحوال الشاذة البعيدة عن الوقوع، ليتوصلوا بها إلى تكذيبك. وذلك من جهلهم بحالك، وغفلتهم عن جمالك.

والأمثال: هي الأقوال النادرة والاقتراحات الغريبة، وهي ما ذكروه هنا ﴿فضلوا﴾ بسببها عن الحق، ضلالاً بعيداً، فلا يجدون طريقاً إليه، ولا وصلوا إلى شيء منه، بل جاؤوا بهذه المقالات الزائغة التي لا تصدر عن أدنى العقلاء، وأقلهم تمييزاً. ولهذا قال تعالى: ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ إلى الهدى ومخرجاً عن ضلالتهم. قال بعضهم: وقد أبطلوا الاستعداد بالاعتراض والإنكار على النبوة،

---

(١) روح البيان.

فحرموا من الوصول إلى الله تعالى. أو لا يجدون إلى القدح في نبوة هذا النبي طريقاً من الطرق.

والمعنى: أي[1] انظر واعجب لهم كيف جرؤوا على التفوه بتلك الأقاويل العجيبة، فاخترعوا لك صفات وأحوالاً بعيدة كل البعد عن صفاتك التي أنت عليها، فضلوا بذلك عن طريق الهدى، وصاروا حائرين لا يدرون ماذا يقولون، ولا يقدحون به في نبوتك إلا مثل السخف والهذر.

والخلاصة: أن ما أتوا به لا يصلح أن يكون قادحاً في نبوتك، ولا مطعناً فيك، فإن كان لهم مطعن في المعجزات التي أتيت بها فليفعلوا، ولكن أنى لهم ذلك. ثم رد على ما اقترحوه من الجنة والكنز بقوله: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ﴾ أي تزايد وكثر خير ربك الذي ﴿إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ﴾ أي وهب لك في الدنيا، لأنه قد شاء أن يعطيه ذلك في الآخرة ﴿خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ﴾؛ أي: إعطاءً خيراً مما قالوا أو اقترحوا من إلقاء الكنز وجعل الجنة، ولكن أخره إلى الآخرة؛ لأنه خير وأبقى.

وخص[2] هذا الموضع بذكر تبارك؛ لأن ما بعده من العظائم حيث ذكر النبي ﷺ والله خاطبه بقوله: «لولاك يا محمد ما خلقت الكائنات» كذا في «برهان القرآن». قلت: هذا الأثر من الموضوعات لا أصل له كما مر.

﴿جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ بدل من خيراً، ومحقق لخيريته مما قالوا؛ لأن ذلك كان مطلقاً، عن قيد التعدد وجريان الأنهار. ﴿وَيَجْعَل لَّكَ﴾ في الدنيا ﴿قُصُورًۢا﴾؛ أي: بيوتاً مشيدة؛ أي: رفيعة كقصور الجنة. وجملة ﴿يجعل﴾ معطوفة على محل الجزاء الذي هو جعل، وهو الجزم وبجزم يجعل.

قرأ الجمهور[3]: نافع وحمزة والكسائي وأبو عمرو قالوا عطفاً على موضع جعل؛ لأن التقدير: إن يشأ يجعل. وقرأ ابن كثير وابن عامر، وأبو بكر ومجاهد وحميد ومحبوب عن أبي عمرو بالرفع على أنه مستأنف، وقد تقرر في علم

---

(١) المراغي.

(٢) روح البيان.

(٣) البحر المحيط والشوكاني.

الإعراب، أن الشرط إذا كان ماضياً جاز في جوابه الجزم والرفع، فجاز أن يكون ﴿جعل﴾ هنا في محل جزم ورفع. فيجوز فيما عطف عليه أن يجزم ويرفع. وقرأ عبيد الله بن موسى وطلحة بن سليمان ويجعل بالنصب على إضمار أن. وقال أبو الفتح: هي على جواب الشرط بالواو. وهي قراءة ضعيفة. انتهى.

وقرىء بإدغام لام ﴿يجعل﴾ في لام لك، لاجتماع المثلين. وقرىء بترك الإدغام، لأن الكلمتين منفصلتان.

والحاصل: أنه قرىء ﴿يجعل﴾ بالجزم والرفع والنصب. ونظير هذه القراءات الثلاث قول النابغة:

فَإِنْ يَهْلِكْ أَبُو قَابُوسَ يَهْلِكْ رَبِيعُ ٱلنَّاسِ وَٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ

وَنَأْخُذُ بَعْدَهُ بِذِنَابِ عَيْشٍ أَجَبِّ ٱلظَّهْرِ لَيْسَ لَهُ سِنَامُ

يروى بجزم نأخذ ورفعه ونصبه.

والمعنى: أي كثر[1] خير ربك، فإن شاء وهب لك في الدنيا خيراً مما اقترحوا، فإن أراد جعل لك في الدنيا مثل ما وعدك به في الآخرة، فأعطاك جنات تجري من تحتها الأنهار، وآتاك القصور الشامخة، والصياصي التي لا يصل إلى مثلها أكثرهم مالاً وأعزهم نفراً، ولكن الله لم يشأ ذلك؛ لأنه أراد أن عطاءه لك في الدار الباقية الدائمة، لا في الدار الزائلة الفانية. وإنما كانت خيراً مما ذكروا لكثرتها، وجريان الأنهار من تحت أشجارها، وبناء المساكن الرفيعة فيها، والعرب تسمي كل بيت مشيد قصراً.

تنبيه: وفي قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِيٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ...﴾ الآية. إشارة إلى أنه تعالى يعطي العباد على حسب المصالح، فيفتح على بعضهم أبواب المعارف والعلوم، ويسد عليه أبواب الدنيا. ويفتح على آخرين أبواب الرزق، ويحرمه لذة الفهم والعلم، ولا اعتراض عليه؛ لأنه فعال لما يريد.

---

(١) المراغي.

ثم أضرب سبحانه عن توبيخهم بما حكاه عنهم، من الكلام الذي لا يصدر عن العقلاء، فقال: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ﴾؛ أي[1]: بالقيامة والحشر والنشر. والساعة جزء من أجزاء الزمان، ويعبر بها عن القيامة تشبيهاً بذلك، لسرعة حسابه. كما قال: ﴿وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ﴾ أو لما نبه عليه قوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ﴾ كما في «المفردات» وهو إضراب عن توبيخهم، بحكاية جنايتهم السابقة، وانتقال منه.

والمعنى: أي[2] ما أنكر هؤلاء المشركون ما جئتهم به من الحق، وتقولوا عليك ما تقولوا، إلا من قبل أنهم لا يوقنون بالبعث، ولا يصدقون بالثواب والعقاب.

والخلاصة: أنهم أتوا بأعجب من هذا كله، وهو تكذيبهم بالساعة، ومن ثم فهم لا ينتفعون بالدلائل، ولا يتأملون فيها. ثم توعدهم وبين عاقبة أمرهم وما كتب لمثلهم من الخيبة والخذلان. فقال: ﴿وَأَعْتَدْنَا﴾؛ أي: هيأنا وأحضرنا. وأصله أعددنا ﴿لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ﴾؛ أي: بالبعث والحشر والنشر والحساب والجزاء. وضع[3] الظاهر موضع ضميرها للمبالغة في التشنيع.

﴿سَعِيرًا﴾؛ أي: ناراً عظيمة شديدة الاشتعال تسعر وتتقد عليهم. قال بعضهم: سعير الآخرة، إنما سعرت من سعير الدنيا وهي حرص العبد على الدنيا، وملاذها ﴿إِذَا رَأَتْهُمْ﴾ صفة للسعير؛ أي: إذا[4] كانت تلك السعير بمرأىً منهم، وقابلتهم بحيث صاروا بإزائها، كقولهم داري تنظر دارك؛ أي: تقابلها، فأطلق الملزوم، وهو الرؤية وأريد اللازم، وهو كون الشيء بحيث يرى، والانتقال من الملزوم إلى اللازم مجاز.

والمعنى: إذا قابلتهم تلك السعير، أو المعنى: إذا رأتهم رؤية حقيقية بعينها، كما جاء في حديث: «أن لها عينين» ولا مانع منه. ا هـ. «شيخنا».

---

(١) روح البيان.
(٢) المراغي.
(٣) روح البيان.
(٤) روح البيان.

﴿مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ وهو أقصى ما يمكن أن يرى منه. قيل: من المشرق إلى المغرب وهي خمس مئة عام. وفيه إشارة إلى أن بعد ما بينها وبينهم من المسافة حين رأتهم خارج عن حدود البعد المعتاد في المسافات المعهودة.

فإن قلت[1]: كيف تتصور الرؤية من النار، وهو قوله تعالى: ﴿إِذَا رَأَتْهُم﴾؟

قلت: يجوز أن يخلق الله لها حياةً وعقلاً ورؤيةً ونطقاً فالبنية ليست شرطاً. قال بعضهم: وهذا هو الحق، كما يدل عليه، قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ﴾ فلا حاجة إلى تأويل أمثال هذا المقام.

﴿سَمِعُوا لَهَا﴾؛ أي: للنار ﴿تَغَيُّظًا﴾؛ أي: غلياناً ﴿وَزَفِيرًا﴾؛ أي: صوتاً كصوت الحمار. وقيل: تغيظاً؛ أي: صوت تغيظ وغضب على تشبيه صوت غليانها بصوت المغتاظ؛ أي: الغضبان إذا غلى صدره من الغيظ، فعند ذلك يهمهم. والهمهمة ترديد الصوت في الصدر.

فإن قلت: كيف يسمع التغيظ الذي هو بمعنى الغضب؟

قلت: في الكلام تقديم وتأخير وتقدير. والمعنى: إذا رأتهم سمعوا لها زفيراً، وعلموا لها تغيظاً. نظير قول الشاعر:

وَرَأَيْتُ زَوْجَكِ فِي ٱلْوَغَىٰ مُتَقَلِّداً سَيْفاً وَرُمْحاً

أي: وحاملاً رمحاً. والمعنى: وإذا كانت منهم بمرأى الناظر.. سمعوا لها صوتاً يشبه صوت المتغيظ لشدة توقدها، وصوت الزفير الذي يخرج من فم الحزين المتهالك حسرة وألماً.

أخرج ابن المنذر وابن جرير عن عبيد بن عمير أنه قال: إن جهنم لتزفر زفرةً، لا يبقى نبي مرسل ولا ملك مقرب إلا خرّ لوجهه ترتعد فرائصه، حتى إن إبراهيم عليه السلام، ليحثوا على ركبتيه. ويقول رب، لا أسألك اليوم إلا نفسي.

﴿وَإِذَآ أُلْقُوا مِنْهَا﴾؛ أي: من السعير ﴿مَكَانًا﴾؛ أي: في مكان. ومنها بيان

---

(١) الخازن بزيادة.

مقدم فصار حالاً منه. ﴿ضَيِّقًا﴾ صفة لمكاناً[1] مفيدة لزيادة شدة حال الكرب مع الضيق، كما أن الروح مع السعة.

واعلم: أنه تضيق عليهم جهنم، كما تضيق حديدة الرمح على الرمح، أو تكون لهم كحال الوتد في الحائط، فيضم العذاب، وهو الضيق الشديد إلى العذاب، وذلك لتضيق قلوبهم في الدنيا حتى لم تسع فيها للإيمان.

أي: وإذا ألقوا وطرحوا في مكان ذا ضيق منها حالة كونهم ﴿مُّقَرَّنِينَ﴾؛ أي: حالة كونهم قد قرنت أيديهم إلى أعناقهم مشدودة إليها بسلسلة، أو مقرنين مع شياطينهم سلسلة في سلسلة. والتقرين تقييد الأرجل وجمع الأيدي والأعناق في السلاسل. ا هـ. «صاوي».

﴿دَعَوْا۟ هُنَالِكَ﴾؛ أي: نادوا في ذلك المكان الضيق الهائل والحالة الفظيعة ﴿ثُبُورًا﴾ هلاكاً؛ أي: يتمنون هلاكاً وينادونه، فيقولون: يا ثبوراه، يا ويلاه، يا هلاكاه، تعال فهذا أوانك. فيقول الله تعالى لهم، أو فيقال لهم على ألسنة الملائكة، تنبيهاً على خلود عذابهم: ﴿لَّا تَدْعُوا۟ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا﴾؛ أي: لا تقتصروا على دعاء ثبور واحد، أي على مرة واحدة. ﴿وَٱدْعُوا۟ ثُبُورًا كَثِيرًا﴾؛ أي: بحسب كثرة الدعاء المتعلق به، لا بحسب كثرته في نفسه، فإنه شيء واحد.

والمعنى[2]: لا تدعوا على أنفسكم بالثبور دعاء واحداً، وادعوه أدعية كثيرة، فإنَّ ما أنتم فيه من العذاب، أشد من ذلك لطول مدته، وعدم تناهيه، ومستوجب لتكرير الدعاء في كل آن.

وقيل: هذا تمثيل وتصوير لحالهم بحال من يقال له ذلك، من غير أن يكون هناك قول.

وقيل: إن المعنى أنكم وقعتم فيما ليس ثبوركم فيه واحداً، بل هو ثبور كثير، لأن العذاب أنواع. والأولى أن يقال: إن المراد بهذا الجواب عليهم

---

(١) روح البيان.
(٢) الشوكاني.

الدلالة على خلود عذابهم، وإقناطهم عن حصول ما يتمنونه من الهلاك، المنجي لهم مما هم فيه.

وقرأ ابن كثير وعبيد عن أبي عمرو[1]: ﴿ضيقاً﴾. عن ابن عطية، وقرأ أبو شيبة صحاب معاذ بن جبل (مقرنون) بالواو، وهي قراءة شاذة. والوجه قراءة الجمهور ونسبها ابن خالويه إلى معاذ بن جبل، ووجهها أن يرتفع على البدل من ضمير ألقوا بدل نكرة من معرفة. وقرأ عاصم الجحدري وابن السميقع وعمرو بن محمد ﴿ثبوراً﴾، بفتح الثاء المثلثة في ثلاثتها. وفعول بفتح الفاء في المصادر قليل نحو البتول.

والمعنى: أي[2] وإذا ألقوا منها، في مكان ضيق، قد قرنت أيديهم إلى أعناقهم في الأغلال والسلاسل.. استغاثوا، وقالوا: يا ثبوراه؛ أي: يا هلاكنا احضر فهذا وقتك. فيقال لهم: لا تنادوا هلاكاً واحداً وادعوا هلاكاً كثيراً؛ أي إنكم وقعتم فيما ليس ثبوركم واحداً، إنما ثبوركم منه كثير، لأن العذاب ألوان وأنواع، ولكل منها ثبور لشدته وفظاعته.

وخلاصة ذلك: أن الله سبحانه، قد أعد لمن كذب بالساعة ناراً مستعرة، وإذا كانت منهم بمرأى الناظر في البعد.. سمعوا صوت غليانها، وإذا طرحوا في مكان ضيق، وهم مقرنون في السلاسل والأغلال.. تمنوا الهلاك ليسلموا مما هو أشد منه. كما قيل: أشد من الموت ما يتمنى منه الموت، فيقال لهم حينئذٍ: لا تدعوا هلاكاً واحداً، فإنه لا يخلصكم، بل اطلبوا هلاكاً كثيراً لتخلصوا به. والمقصد من ذلك تيئيسهم مما علقوا به أطماعهم من الهلاك. وتنبيه إلى أن عذابهم أبدي لا خلاص لهم منه.

وروى[3] أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «أول من يكسى من أهل النار، يوم القيامة، إبليس، يكسى حلة من النار فيضعها على حاجبيه، ويسحبها

---

(١) البحر المحيط.
(٢) المراغي.
(٣) زاد المسير.

من خلفه، وهو يقول: واثبوراه، وهم ينادون يا ثبورهم، حتى يقفوا على النار، فينادي يا ثبوراه، وينادون يا ثبورهم، فيقول الله، عز وجلّ: ﴿لَّا تَدْعُوا۟ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا وَٱدْعُوا۟ ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿١٤﴾﴾. رواه أحمد في «المسند» والطبري والسيوطي في «الدر» والبيهقي في «البعث» عن أنس.

وبعد أن وصف سبحانه عقاب المكذبين بالساعة.. أردفه ما يؤكد حسرتهم وندامتهم فقال: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء المكذبين توبيخاً لهم وتقريعاً ﴿أَذَٰلِكَ﴾ العذاب المذكور من النار المسعرة الموصوفة بالصفات السابقة. والإشارة بقوله: ذلك إلى السعير المتصفة بتلك الصفات الفظيعة؛ أي: أتلك السعير ﴿خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ﴾ والدوام ﴿ٱلَّتِى وُعِدَ﴾ ها ﴿ٱلْمُتَّقُونَ﴾ خير؛ أي: المتصفون بمطلق التقوى، التي هي اجتناب الشرك، فالمؤمن، وإن كان عاصياً فهو متق لاتقائه الشرك. وجنة الخلد هي الدار التي لا ينقطع نعيمها، ولا ينقل عنها أهلها، وإضافة[1] الجنة إلى الخلد للمدح، وإلا فالجنة اسم للدار المخلدة. ويجوز أن تكون الجنة اسماً يدل على البستان الجامع لوجوه البهجة، ولا يدخل الخلود في مفهومها، فأضيفت إليه للدلالة على الخلود، فإن قيل: كيف يتصور الشك في أنه أيهما خير، حتى يحسن الاستفهام والترديد، وهل يجوز للعاقل أن يقول السكر أحلى أم الصبر، وهو دواء مر؟ قلت: يقال: ذلك في معرض التقريع والتهكم والتحسير على ما فات. وفي «الوسيط» هذا للتنبيه على تفاوت ما بين المنزلتين، لا على أن في السعير خيراً. اهـ.

وقال بعضهم: هذا على المجاز، وإن لم يكن في النار خير. والعرب تقول العافية خير من البلاء، وإنما خاطبهم بما يتعارفون في كلامهم. وقيل: ليس[2] هذا من باب التفضيل، وإنما هو كقولك عنده خير. قال النحاس: وهذا قول حسن كما قال الشاعر:

أَتَهْجُوهُ وَلَسْتَ لَهُ بِكُفْءٍ فَشَرُّكُمَا لِخَيْرِكُمَا ٱلْفِدَاءُ

---

(١) روح البيان.
(٢) الشوكاني.

﴿كَانَتْ﴾ تلك الجنة الموصوفة ﴿لَهُمْ﴾؛ أي: للمتقين في علم الله تعالى، أو في اللوح المحفوظ. ﴿جَزَآءً﴾ وثواباً على أعمالهم، بمقتضى الكرم لا بالاستحقاق ﴿وَمَصِيرًا﴾ يصيرون إليه، ومرجعاً يرجعون إليه. ومنقلباً ينقلبون إليه.

فإن قلت[1]: كيف قال: في وصف الجنة، كانت لهم جزاءً، بصيغة الماضي، مع أنها لم تكن حينئذٍ جزاءً ومصيراً؟

قلت: إنما قال ذلك؛ لأن ما وعد الله به، فهو في تحققه كأنه قد كان، فلا بد من وقوعه، أو لأنه كان في اللوح المحفوظ أن الجنة جزاؤهم ومصيرهم.

والمعنى: قل يا محمد[2] لهؤلاء المكذبين تهكماً بهم، وتحسيراً لهم على ما فاتهم، أهذه النار التي وصفت لكم خيراً أو جنة الخلد التي يدوم نعيمها ولا يبيد وقد وعدها من اتقاه في الدنيا بطاعته فيما به أمره أو نهاه. ثم حقق أمرها تأكيداً للبشارة بقوله: ﴿كَانَتْ لَهُمْ جَزَآءً وَمَصِيرًا﴾؛ أي: كانت تلك الجنة لهم جزاء أعمالهم في الدنيا بطاعته، وثواباً لهم على تقواه، ومرجعاً لهم ينتقلون إليه في الآخرة.

ثم وصف مقدار تنعمهم فيها بقوله: ﴿لَهُمْ﴾؛ أي: لأولئك المتقين ﴿فِيهَا﴾؛ أي: في جنة الخلد ﴿مَا يَشَآءُونَ﴾؛ أي: ما يشتهون من مآكل ومشارب وملابس ومساكن ومراكب ونحو ذلك، مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

فإن قلت[3]: قد يشتهي الإنسان شيئاً، وهو لا يحصل في الجنة، كأن يشتهي الولد ونحوه، وليس هو في الجنة؟

قلت: إن الله سبحانه يزيل ذلك الخاطر عن أهل الجنة بل كل واحد من أهل الجنة مشتغل بما هو فيها من اللذات الشاغلة عن الالتفات إلى غيرها. أو المعنى: لهم[4] فيها ما يشاؤونه من أنواع النعيم واللذات مما يليق بمرتبتهم، فإنهم بحسب نشأتهم لا يريدون درجات من فوقهم، فلا يلزم تساوي مراتب أهل

---

(١) فتح الرحمٰن.
(٢) المراغي.
(٣) الخازن.
(٤) روح البيان.

الجنات في كل شيء. ومن هذا يعلم فساد ما قيل في «شرح الأشباه»: بجواز اللواطة في الجنة لجواز أن يريدها أهل الجنة ويشتهيها. وذلك لأن اللواطة من الخبائث، التي ما تعلقت الحكمة بتحليلها في عصر من الأعصار كالزنى، فكيف يكون ما يخالف الحكمة، مراداً ومشتهىً في الجنة. فالقول بجوازها ليس إلا من الخباثة.

والحاصل: أن عموم الآية، إنما هو بالنسبة إلى المتعارف، ولذا قال بعضهم: في الآية دليل، على أن كل المرادات لا تحصل إلا في الجنة، ولما لم تكن اللواطة مراداً في الدنيا للطيبين، فكذا في الآخرة حالة كونهم ﴿خَٰلِدِينَۚ﴾ فيها أبداً بلا انقطاع ولا زوال. حال من الهاء في لهم، أو من الواو في يشاؤون. قيد بالخلود، لأن من تمام النعيم أن يكون دائماً، إذ لو انقطع لكان مشوباً بضرب من الغم. وأنشد في المعنى:

أَشَدُّ ٱلْغَمِّ عِنْدِيْ فِيْ سُرُوْرٍ ... تَيَقَّنَ عَنْهُ صَاحِبُهُ ٱنْتِقَالاَ

﴿كَانَ﴾ المذكور من الدخول، أو الخلود، ما يشاؤون. ﴿عَلَىٰ رَبِّكَ﴾ يا محمد ﴿وَعۡدٗا مَّسۡـُٔولٗا﴾؛ أي: موعوداً حقيقاً بأن يسأل ويطلب؛ لأنه[1] جزاء وأجر، أومسؤولاً سألته الملائكة في قولهم: ربنا وأدخلهم جنات عدن التي وعدتهم. قاله محمد بن كعب أو الناس في قولهم: ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك، ربنا آتنا في الدنيا حسنة، وفي الآخرة حسنة. قال معناه ابن عباس وابن زيد: وما في على من معنى الوجوب لاستحالة الخلف في وعده تعالى، فإن تعلق إرادته تعالى بالموعود، متقدم على الوعد الموجب للإنجاز.

وقوله: ﴿وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ﴾ كلام متصل في المعنى بقوله: في أول السورة: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةٗ﴾ الخ وتعلق التذكير باليوم مع أن المقصود ذكر ما فيه للمبالغة والتأكيد؛ أي: واذكر يا محمد لقومك أهوال يوم، يحشر الله سبحانه وتعالى فيه، والذين اتخذوا من دونه آلهة، ويجمعهم ﴿وَمَا يَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ من

---

(١) البحر المحيط.

الأصنام وغيرها؛ لأن ما عام يعم العقلاء وغيرهم، لكن المراد هنا، بقرينة الجواب الآتي: العقلاء من الملائكة وعيسى وعزير. قلت: ولا مانع من العموم، كأن يخلق في الأصنام الحياة فينطقها، أو كأن جوابها بلسان الحال، كما ذكره بعضهم في تسبيح الموات، وفي شهادة الأيدي والأرجل. وغلب غير العقلاء من الأصنام، ونحوها، على العقلاء من الملائكة، والجن والمسيح تنبيهاً على أنها جميعاً مشتركةً في كونها غير صالحة لكونها آلهة، أو لأن من يعبد من لا يعقل أكثر، ممن يعبد من يعقل منها، فغلبت اعتباراً بكثرة من يعبدها.

أي: واذكر يوم يحشر الله العابدين لغير الله، ومعبوديهم، ويجمعهم في صعيد واحد، وهو يوم القيامة ﴿فَيَقُولُ﴾ الله سبحانه وتعالى للمعبودين ﴿ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ﴾ العابدين لكم عن عبادتي، بأن دعوتموهم إلى عبادتكم وأمرتموهم بها ﴿أَمْ هُمْ ضَلُّوا ٱلسَّبِيلَ﴾ الحق؛ أي: تركوها وعبدوكم بهوى أنفسهم؛ أي: أخطؤوا عن الطريق المستقيم بأنفسهم، لإخلالهم بالنظر الصحيح، وإعراضهم عن المرشد النصيح، فحذف الجار، وأوصل الفعل إلى المفعول كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ﴾ والأصل إلى السبيل، أو للسبيل، والاستفهام[١] في قوله: ﴿ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ﴾ للتوبيخ والتقريع.

والمعنى: أكان ضلالهم بسببكم، وبدعوتكم لهم إلى عبادتكم، أم هم ضلوا عن سبيل الحق بأنفسهم، لعدم التفكر فيما يستدل به على الحق، والتدبر فيما يتوصل به إلى الصواب.

وقرأ أبو جعفر والأعرج وابن كثير وحفص عن عاصم[٢] ﴿يَحْشُرُهُمْ﴾ و﴿فَيَقُولُ﴾ بالياء فيهما. واختارها أبو عبيد وأبو حاتم لقوله في أول الكلام على ربك. وقرأ الحسن وطلحة وابن عامر؛ بالنون فيهما على التعظيم. وقرأ نافع وأبو عمرو وحمزة والكسائي وأبو بكر عن عاصم ﴿نحشرهم﴾ بالنون ﴿فَيَقُولُ﴾ بالياء. وقرأ الأعرج[٣] ﴿نحشرهم﴾ بكسر الشين في جميع القرآن. قال ابن عطية: هي

---

(١) الشوكاني.

(٢) البحر المحيط.

(٣) البحر المحيط.

قليلة في الاستعمال، قوية في القياس؛ لأن يفعل بكسر العين في المتعدي، أقيس من يفعل بضمها. انتهى.

وهذا ليس كما ذكروا، بل فعل المفتوح المتعدي الصحيح، جميع حروفه إذا لم يكن للمبالغة، ولا حلقي عين، ولا لام، فإنه جاء على يفعل ويفعل كثراً، فإن شهر أحد الاستعمالين اتبع، وإلا فالخيار حتى إن بعض أصحابنا، خير فيهما، سُمع للكلمة أو لم يُسمع.

وقوله: ﴿قَالُواْ﴾؛ أي: قال المعبودون، كلام مستأنف، واقع في جواب سؤال مقدر، كأنه قيل: فماذا قالوا في الجواب؟ فقيل: قالوا: ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾ هو تعجب مما قيل لهم لكونهم ملائكة، أو أنبياء معصومين، أو جمادات لا تعقل؛ أي: تعجباً مما قيل فينا ونسب إلينا، أو تنزيه لله تعالى عن الأنداد؛ أي: تنزيهاً لك يا إلهنا عن الشركاء. ﴿مَا كَانَ﴾ الشأن. ﴿يَنۢبَغِي﴾ ويستقيم ﴿لَنَآ﴾ ويليق بنا، ويصح منا ﴿أَن نَّتَّخِذَ﴾ ونجعل لأنفسنا ﴿مِن دُونِكَ﴾؛ أي: متجاوزين إياك ﴿مِنْ أَوْلِيَآءَ﴾؛ أي: آلهة نعبدهم.

أي[1]: ما كان ينبغي لنا أن نتخذ لأنفسنا آلهة من دونك، فكيف ندعوا عبادك إلى عبادتنا نحن، مع كوننا لا نعبد غيرك، فدل هذا الجواب، على أنهم لم يأمروا بعبادتهم. وهذا معنى الآية على قراءة الجمهور ﴿نَّتَّخِذَ﴾ مبنياً للفاعل. وقرأ أبو عبد الرحمٰن السلمي وابن جبير والحسن وقتادة وأبو جعفر وابن يعمر وعاصم الجحدري وأبو الدرداء وزيد بن ثابت وأبو رجاء ونصر بن علقمة وزيد بن علي وأخوه الباقر ومكحول وحفص وعبيد والنخعي والزعفراني وغيرهم ﴿أن نتخذ﴾ بضم النون وفتح الخاء مبنياً للمفعول. والمعنى عليه؛ أي: ما كان ينبغي لنا، أن يتخذنا المشركون أولياء من دونك.

قال أبو عمرو بن العلاء وعيسى بن عمر: لا تجوز هذه القراءة. ولو كانت صحيحة لحذفت من الثانية. وقال أبو عبيدة: لا تجوز هذه القراءة، لأن الله

---

(١) الشوكاني.

سبحانه ذكر ﴿مِن﴾ مرتين. ولو كان كما قرؤوا لقال: ﴿أن نتخذ من دونك أولياء﴾ بحذف ﴿من﴾ الثانية. وقيل: أن ﴿من﴾ الثانية زائدة. وقرأ عيسى الأسود القارىء ﴿ينبغى﴾ مبنياً للمفعول. قال ابن خالويه: زعم سيبويه أنها لغة. وقرأ علقمة ﴿ما ينبغي﴾ بسقوط كان. وقراءة الجمهور بثبوتها أمكن في المعنى، لأنهم أخبروا عن حال، كانت في الدنيا ووقت الإخبار، لا عمل فيه ذكره أبو حيان.

وفي «الروح»: إنَّ ﴿مِنْ﴾ الثانية زائدة، لتأكيد النفي، وأولياء مفعول به لـ﴿نَتَّخِذَ﴾. وهو من اتخذ الذي يتعدى إلى مفعول واحد، كقوله تعالى: ﴿أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا﴾.

والمعنى[1]: ما كان ينبغي لنا، أن نتخذ من دونك معبودين، نعبدهم لما بنا من الحالة المنافية له، وهي العصمة، أو عدم القدرة، فأنى يتصور أن نحمل غيرنا، أن يتخذ ولياً غيرك، فضلاً عن أن يتخذنا ولياً. قال ابن الشيخ: جعل قولهم: ما كان ينبغي لنا... إلخ كناية عن استبعاد، أن يدعوا واحداً إلى اتخاذ ولي دونه؛ لأن نفس قولهم: بصريحه لا يفيد المقصود، وهو نفي ما نسب إليهم، من إضلال العباد، وحملهم على اتخاذ الأولياء، من دون الله تعالى.

وفي «التأويلات النجمية»: نزهوا الله عن أن يكون له شريك، ونزهوا أنفسهم عن أن يتخذوا ولياً غير الله، ويرضوا لغيرهم، أن يعبدوا غير الله.

ثم حكى عنهم سبحانه، بأنهم بعد هذا الجواب، ذكروا سبب ترك المشركين للإيمان، فقال: ﴿وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ﴾؛ أي: ما أضللناهم، ولكن جعلتهم وآباءهم متمتعين منتفعين بالغمر الطويل، وأنواع النعم ليعرفوا حقها، ويشكروها، فاستغرقوا في الشهوات، وانهمكوا فيها. ﴿حَتَّىٰ نَسُوا۟ ٱلذِّكْرَ﴾؛ أي: غفلوا عن ذكرك، وتركوا ما وعظوا به، أو غفلوا عن التذكر لآلائك، والتدبر في آياتك، فجعلوا أسباب الهداية بسوء اختيارهم ذريعة إلى الغواية، وفي هذا نسبة الضلال إليهم من حيث إنه بكسبهم وإسناد له إلى ما فعل الله بهم، فحملهم عليه

---

(١) روح البيان.

كأنه قيل: إنا لم نضلهم ولم نحملهم على الضلال، ولكن أضللت أنت، بأن فعلت لهم ما يؤثرون به الضلال، فخلقت فيهم ذلك.

والمعنى[1]: ما أضللناهم، ولكنك يا رب متعتهم، ومتعت آبائهم بالنعم، ووسعت لهم العمر، حتى غفلوا عن ذكرك، ونسوا موعظتك، والتدبر لكتابك، والنظر في عجائب صنعك، وغرائب مخلوقاتك. ﴿وَكَانُوا﴾؛ أي: وكان هؤلاء الذين أشركوا بك، وعبدوا غيرك في قضائك الأزلي ﴿قَوْمًا بُورًا﴾؛ أي: هالكين، فاسدي القلوب، خاسرين في الدنيا والآخرة. جمع بائر. مأخوذ من البوار، وهو الهلاك.

فيقول الله سبحانه وتعالى للعابدين: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوكُم﴾؛ أي: فقد كذبكم المعبودون، أيها العابدون ﴿بِمَا تَقُولُونَ﴾؛ أي: في قولكم إنهم آلهة، والباء بمعنى في ﴿فَمَا تَسْتَطِيعُونَ﴾؛ أي: فما تملكون أيها العابدون ﴿صَرْفًا﴾؛ أي: دفعاً للعذاب عنكم، بوجه من الوجوه، لا بالذات ولا بالواسطة. ﴿وَلَا نَصْرًا﴾؛ أي: ولا فرداً من أفراد النصر، لا من جهة أنفسكم، ولا من جهة غيركم مما عبدتم، وقد كنتم زعمتم أنهم يدفعون عنكم العذاب وينصرونكم.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿بِمَا تَقُولُونَ﴾ بالتاء من فوق. وقرأ أبو حيوة وابن الصلت عن قنبل وسعيد بن جبير ومجاهد ومعاذ القارىء ﴿بما يقولون﴾ والمعنى: فقد كذبكم أيها العابدون المعبودون بقولهم: ﴿سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنبَغِي لَنَآ﴾ إلخ.. وهذا[3] قول الأكثرين. وقال ابن زيد الخطاب للمؤمنين. فالمعنى: فقد كذبكم المشركون أيها المؤمنون بما تقولون؛ أي: في قولكم: إن محمداً رسول الله ﷺ.

وقرأ حفص وأبو حيوة والأعمش وطلحة: ﴿فَمَا تَسْتَطِيعُونَ﴾ بتاء الخطاب للعابدين، ويؤيد هذه القراءة، أن الخطاب في كذبوكم للعابدين. وقرأ الجمهور: ﴿فما يستطيعون﴾ بالياء من تحت. وفيه وجهان:

---

(١) الشوكاني.
(٢) البحر المحيط.
(٣) زاد المسير.

أحدهما: فما يستطيع المعبودون صرفاً للعذاب عنكم، ولا نصراً لكم.

والثاني: فما يستطيع العابدون صرفاً، لعذاب الله عنهم، ولا نصراً لأنفسهم. وفي هذه القراءة التفات. وذكر[1] عن ابن كثير وأبي بكر أنهما قرأا، ﴿بما يقولون﴾ ﴿فما يستطيعون﴾ بالياء فيهما. والمعنى عليه: فقد كذبكم المعبودون، أيها العابدون بما يقولون؛ أي: بقولهم: ﴿سُبْحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِي لَنَآ﴾ فما يستطيع المعبودون صرفاً عنكم، ولا نصراً لكم.

والحاصل: أنه إن كان الخطاب في ﴿كَذَّبُوكُم﴾ للعابدين.. فالتاء جارية على ذلك، والياء التفات، وإن كان الخطاب للمعبودين، فالتاء التفات، والياء جارية على ضمير ﴿كَذَّبُوكُم﴾ المرفوع. وإن كان الخطاب للمؤمنين، أمة الرسول عليه السلام، في قوله: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوكُم﴾.. فالمعنى أنهم شديدوا الشكيمة في التكذيب، فما تستطيعون أنتم صرفهم عما هم عليه من ذلك. وبالياء فما يستطيعون صرفاً لأنفسهم عما هم عليه، أو ما يستطيعون صرفكم عن الحق، الذي أنتم عليه، ولا نصراً لأنفسهم، من البلاء الذي استوجبوه بتكديبهم. وحكى الفراء: أنه يجوز أن يقرأ: ﴿فقد كذبوكم﴾ مخففاً ﴿بما يقولون﴾؛ أي: كذبوكم في قولهم.

﴿وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ﴾ والظاهر أن الخطاب فيه عام لكل ظالم،ويدخل تحته الذين فيهم، السياق، دخولاً أولياً. وقيل: خطاب للمؤمنين. وقيل: خطاب للكافرين. والظلم هنا الشرك. قاله: ابن عباس؛ أي: ومن يشرك منكم أيها المكلفون. كما دل عليه قوله: ﴿نُذِقْهُ﴾؛ أي: نذق ذلك الظالم ﴿عَذَابًا كَبِيرًا﴾؛ أي: عذاباً شديداً، هو النار والخلود فيها، فإن ما يترتب عليه العذاب الكبير، ليس إلا الظلم العظيم الذي هو الشرك. وفيه وعيد أيضاً لفساق المؤمنين، وهذه الآية وأمثالها، مقيدة بعدم التوبة.

والمعنى: أي[2] ومن يكفر منكم أيها المكلفون، فيعبد مع الله إلٰهاً آخر،

---

(١) البحر المحيط.

(٢) المراغي.

كهؤلاء الذين كذبوا بيوم القيامة. . نذقه في الآخرة، وندخله عذاباً كبيراً، لا يقدر قدره، ولا تصل العقول إلى معرفة كنهه.

وقرأ عاصم الجحدري والضحاك وأبو الجوزاء وقتادة[1]: ﴿يذقه﴾ بياء الغيبة؛ أي: الله، كما هو الظاهر، أو الظلم المفهوم من الفعل، على سبيل المجاز بإسناد إذاقة العذاب إلى السبب.

ثم رجع سبحانه إلى خطاب رسوله، موضحاً لبطلان قولهم: ما لهذا الرسول يأكل الطعام، ويمشي في الأسواق. فقال: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ﴾ يا محمد أحداً ﴿مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ﴾ رسلاً قيل فيهم: ﴿إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِۗ﴾ فلم يكن ذلك منافياً لرسالتهم، فأنت لا تكون بدعاً منهم. وكسرت همزة ﴿إن﴾ لوقوعها بعد قول محذوف وقع صفة لموصوف محذوف، كما قدرناه، وإن تكسر بعد القول قاعدةً مطردةً. هذا ما ظهر لي في هذا المقام.

والمعنى: أي إن[2] جميع من سبقك من الرسل، كانوا يأكلون الطعام للتغذي به، ويمشون في الأسواق للتكسب والتجارة. ولم يقل: أحد إن ذلك نقص لهم، يغض من كرامتهم، ويزري بهم، ولم يكن لهم امتياز عن سواهم في هذا، وإنما امتازوا بصفاتهم الفاضلة، وخصائصهم السامية، وآدابهم العالية، وبما ظهر على أيديهم من خوارق العادات وباهر المعجزات، مما يستدل به كل ذي لب سليم، وبصيرة نافذة، على صدق ما جاؤوا به من عند ربهم، فمحمد ﷺ ليس بدعاً من الرسل، إذ يأكلُ ويمشي في الأسواق، وليس هذا بذم له، ولا مطعن في صدق رسالته، كما تزعمون. ونحو الآية قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓۗ﴾ وقوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ﴾.

وإن[3] مكسورة باتفاق العشرة، و(اللام): لام الابتداء زيدت في الخبر.

---

(١) زاد المسير.

(٢) المراغي.

(٣) المراح.

والجملة الواقعة بعد ﴿إِلَّآ﴾ حالية. والمعنى؛ أي: وما أرسلنا قبلك يا محمد أحداً من المرسلين، إلا وحالهم آكلون، وماشون، فأنت مثلهم في ذلك. قاله ابن الأنباري. وقال الزجاج: الجملة الواقعة بعد ﴿إِلَّآ﴾ صفة لموصوف محذوف.

والمعنى: وما أرسلنا قبلك أحداً من المرسلين، إلا آكلين وماشين، وإنما حذف الموصوف، لأن في قوله: من المرسلين دليلاً عليه نظيره ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴿١٦٤﴾﴾؛ أي: وما منا أحد. وقال الفراء: لا محل لها من الإعراب، وإنما هي صلة لموصول، محذوف هو المفعول، والتقدير: إلا من أنهم ليأكلون الطعام. والضمير في ﴿إِنَّهُمْ﴾ وما بعده، راجع إلى ﴿مِنَ﴾ المقدرة، وقال الزجاج: هذا خطأ، لأن ﴿مِنَ﴾ الموصلة لا يجوز حذفها.

وقرىء[1]: أنهم بالفتح على زيادة اللام وأن مصدرية، والتقدير: إلا أنهم يأكلون الطعام؛ أي: ما جعلناهم رسلاً إلى الناس إلا لكونهم مثلهم في الأكل والمشي. وقرأ الجمهور: ﴿يمشون﴾ مضارع مشى خفيفاً. وقرأ علي وابن مسعود وعبد الرحمٰن بن عبد الله: يمشون مشدداً مبنياً للمفعول؛ أي: يمشيهم حوائجهم والناس. وقال الزمخشري: ولو قرىء: يمشون، لكان أوجه لولا الرواية. انتهى. وقد قرأ كذلك أبو عبد الرحمٰن السلمي مشدداً مبنياً للفاعل، وهي بمعنى يمشون. قراءة الجمهور.

والخطاب في قوله: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً﴾ عام لجميع الناس، المؤمن والكافر؛ أي[2]: وجعلنا بعضكم أيها الناس فتنة؛ أي: ابتلاء ومحنة لبعض آخر. الفقراء بالأغنياء، والمرسلين بالمرسل إليهم، ومناصبتهم لهم العداوة وأذاهم لهم، والسقماء بالأصحاء، والأسافل بالأعالي، والرعايا بالسلاطين، والموالي بذوي الأنساب، والعميان بالبصراء، والضعفاء بالأقوياء. قال الواسطي

---

(١) البحر المحيط.
(٢) روح البيان.

ـ رحمه الله ـ: ما وجد موجود إلا لفتنة، وما فقد مفقود إلا لفتنة.

فالمريض يقول[1]: لم لم أجعل كالصحيح، وكذا كل صاحب آفة. والصحيح مبتلى بالمريض فلا يضجر منه ولا يحقره والغني مبتلى بالفقير يواسيه والفقير مبتلى بالغني يحسده، ونحو هذا مثله.

وقيل المراد بالآية، أنه كان إذا أراد الشريف أن يسلم، ورأى الوضيع قد أسلم قبله أنف، وقال: لا أسلم بعده، فيكون له علي السابقة والفضل، فيقيم على كفره، فذلك افتتان بعضهم ببعض. واختار هذا القول الفراء والزجاج، ولا وجه لقصر الآية على هذا، فإن هؤلاء وإن كانوا سبب النزول فالاعتبار بعموم اللفظ، لا بخصوص السبب.

ثم قال سبحانه، بعد الإخبار بجعل البعض للبعض فتنة: ﴿أَتَصْبِرُونَۗ﴾ على هذه الفتنة فتؤجروا، أم لا تصبرون فيزداد غمكم. والاستفهام فيه للتقرير، وهو[2] علة للجعل المذكور.

والمعنى: وجعلنا بعضكم لبعض فتنة، لنعلم أتصبرون على الابتلاء، أم تجزعون عنه.

أو حث على الصبر، على ما افتتنوا به؛ أي: اصبروا على ابتلائكم ولا تجزعوا. وقال أبو الليث: اللفظ لفظ الاستفهام. والمراد الأمر، يعني اصبروا على الابتلاء. كقوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ﴾؛ أي: توبوا. وقوله: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾؛ أي: انتهوا.

ثم وعد الله الصابرين بقوله: ﴿وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾؛ أي: بكل من يصبر، ومن لا يصبر، فيجازي كلا منهما بما يستحقه.

والمعنى: أي[3] وامتحنا أيها الناس بعضكم ببعض، فجعلنا هذا نبياً

---

(١) الشوكاني.
(٢) البيضاوي.
(٣) المراغي.

وخصصناه بالرسالة، وهذا ملكاً وخصصناه بالدنيا. وهذا فقيراً وحرمناه من لذات الدنيا ونعيمها، لنختبر الفقير بصبره على ما حرم، مما أعطيه الغني، والملك بصبره على ما أوتيه الرسول من الكرامة. وكيف يكون رضى كل منهم بما أعطي، وقسم له، وطاعته ربه على حرمانه، مما أعطي سواه، ومن جراء هذا لم أعط محمداً الدنيا، وجعلته يمشي في الأسواق، يطلب المعاش لأبتليكم، وأختبر طاعتكم وإجابتكم إياه، إلى ما دعاكم إليه، وهو لم يرج منكم عرضاً من أعراض الدنيا، ولو أعطيتها إياه، لسارع كثيرة منكم إلى متابعته، طمعاً في أن ينال شيئاً من دنياه.

والخلاصة: لو شئت أن أجعل الدنيا، مع رسلي، حتى لا يخالفوا.. لفعلت، لكني أردت أن ابتلي العباد بهم، وابتليهم بالعباد، فينالهم منهم الأذى، ويناصبوهم العداء، فاصبروا على البلاء، فقد علمتم ما وعد الله به الصابرين ﴿وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾؛ أي: وربك أيها الرسول، بصير بمن يجزع، وبمن يصبر، على ما امتحن به من المحن، ويجازي كلا بما يستحق من عقاب أو ثواب.

وفي الحديث المتفق عليه، عن أبي هريرة، يبلغ به النبي ﷺ قال: «إذا نظر أحدكم إلى من فضل عليه بالمال والجسم، فلينظر إلى من هو دونه في المال والجسم». هذا لفظ البخاري، ولمسلم «انظروا إلى من هو أسفل منكم، ولا تنظروا إلى من هو فوقكم، فهو أجدر أن لا تزدروا نعمة الله عليكم».

واعلم: أن العبد، لا بد له من السكون إلى قضاء الله تعالى، في حال فقره وغناه، ومن الصبر على كل أمر يرد عليه من مولاه، فإنه تعالى بصير بحاله، مطلع عليه في كل فعاله، وربما يشدد المحنة عليه بحكمته، ويمنع مراده عنه، مع كمال قدرته.

الإعراب

﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا (١)﴾.

﴿تَبَارَكَ﴾: فعل ماض جامد. ﴿الَّذِي﴾: فاعل. والجملة مستأنفة استئنافاً

نحوياً. ﴿نَزَّلَ ٱلۡفُرۡقَانَ﴾: فعل وفاعل مستتر ومفعول به. والجملة صلة الموصول ﴿عَلَىٰ عَبۡدِهِۦ﴾ جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بـ﴿نَزَّلَ﴾. ﴿لِيَكُونَ﴾: اللام حرف جر وتعليل. ﴿يكون﴾: فعل مضارع ناقص، منصوب بأن المضمرة بعد لام كي، واسمها ضمير مستتر يعود على عبده، أو على الفرقان، أو على الله سبحانه. ﴿لِلۡعَٰلَمِينَ﴾: متعلق بـ﴿نَذِيرًا﴾، قدم عليه للفاصلة. ﴿نَذِيرًا﴾: خبرها. وجملة ﴿يكون﴾ مع أن المضمرة، في تأويل مصدر مجرور باللام، تقديره: لكونه نذيراً، الجار والمجرور متعلق بـ﴿نَزَّلَ﴾.

﴿ٱلَّذِي لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَمۡ يَتَّخِذۡ وَلَدًا وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِي ٱلۡمُلۡكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيۡءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقۡدِيرًا﴾.

﴿ٱلَّذِي﴾: بدل من الموصول الأول، أو عطف بيان منه، أو خبر لمبتدأ محذوف، أو منصوب على المدح. ﴿لَهُۥ﴾: خبر مقدم. ﴿مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾: مبتدأ مؤخر ومضاف إليه. ﴿وَٱلۡأَرۡضِ﴾: معطوف على السماوات. والجملة صلة الموصول. ﴿وَلَمۡ يَتَّخِذۡ وَلَدًا﴾. جازم وفعل مجزوم، وفاعل مستتر يعود على الموصول، ومفعول به معطوف على جملة الصلة. ﴿وَلَمۡ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿لم﴾: حرف جزم. ﴿يَكُن﴾: فعل مضارع ناقص مجزوم بـ﴿لم﴾. ﴿له﴾: خبر مقدم لـ﴿يَكُن﴾. ﴿شَرِيكٌ﴾: اسمها مؤخر. ﴿فِي ٱلۡمُلۡكِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿شَرِيكٌ﴾. والجملة معطوفة على جملة الصلة أيضاً. ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيۡءٍ﴾: فعل وفاعل مستتر يعود على الموصول، ومفعول به. والجملة معطوفة على جملة الصلة. وهذه الجملة بمنزلة العلة لما قبلها. ﴿فَقَدَّرَهُۥ﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة. ﴿قدره﴾: فعل وفاعل مستتر ومفعول به. ﴿تَقۡدِيرًا﴾: مفعول مطلق. والجملة معطوفة على جملة خلق.

﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخۡلُقُونَ شَيۡـًٔا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ وَلَا يَمۡلِكُونَ لِأَنفُسِهِمۡ ضَرًّا وَلَا نَفۡعًا وَلَا يَمۡلِكُونَ مَوۡتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ﴿٣﴾﴾.

﴿وَٱتَّخَذُواْ﴾: فعل وفاعل. والجملة مستأنفة، مسوقة لبيان ما عليه الكفار من

عبادة الأصنام. ﴿مِن دُونِهِۦٓ﴾: جار ومجرور في محل المفعول الثاني لاتخذوا. ﴿ءَالِهَةً﴾: مفعول أول له. ﴿لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا﴾: فعل وفاعل ومفعول به. والجملة في محل النصب صفة أولى لـ﴿ءَالِهَةً﴾. ﴿وَهُمْ﴾: مبتدأ. ﴿يُخْلَقُونَ﴾: فعل مغير ونائب فاعل. والجملة الفعلية في محل الرفع خبر المبتدأ. والجملة الاسمية في محل النصب، معطوفة على جملة ﴿لَا يَخْلُقُونَ﴾ على كونها صفة ثانية لـ﴿ءَالِهَةً﴾. ومعنى كونهم مخلوقين أن العابدين ينحتونهم ويصورونهم. ﴿وَلَا يَمْلِكُونَ﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿يَخْلُقُونَ﴾ على كونها صفة ثالثة لـ﴿ءَالِهَةً﴾. ﴿لِأَنفُسِهِمْ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿يَمْلِكُونَ﴾. ﴿ضَرًّا﴾ مفعول به له. ﴿وَلَا نَفْعًا﴾: معطوف على ضراً. ﴿وَلَا يَمْلِكُونَ﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿يَخْلُقُونَ﴾ على كونها صفة رابعة لـ﴿ءَالِهَةً﴾. ﴿مَوْتًا﴾: مفعول به. ﴿وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا﴾: معطوفان على موتاً.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا ﴿٤﴾﴾.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ﴾: فعل وفاعل. والجملة مستأنفة، مسوقة لحكاية أباطيلهم، المتعلقة بالمنزل. والمنزل عليه معاً، وإبطالها. ﴿كَفَرُوٓاْ﴾: فعل وفاعل صلة الموصول. ﴿إِنْ﴾ نافية. ﴿هَٰذَآ﴾: مبتدأ. ﴿إِلَّآ﴾: أداة حصر. ﴿إِفْكٌ﴾: خبر ﴿هَٰذَآ﴾. والجملة في محل النصب مقول ﴿قال﴾. ﴿ٱفْتَرَىٰهُ﴾: فعل ومفعول به وفاعل مستتر يعود على محمد. والجملة الفعلية في محل الرفع صفة لـ﴿إِفْكٌ﴾. ﴿وَأَعَانَهُۥ﴾: فعل ومفعول به. ﴿عَلَيْهِ﴾: متعلق به. ﴿قَوْمٌ﴾: فاعل. ﴿ءَاخَرُونَ﴾: صفة لـ﴿قَوْمٌ﴾. والجملة الفعلية في محل الرفع، معطوفة على جملة ﴿ٱفْتَرَىٰهُ﴾. ﴿فَقَدْ جَآءُو﴾: ﴿الفاء﴾: حرف عطف وتفريع، لكون ما قبلها علة لما بعدها. ﴿قد﴾: حرف تحقيق. ﴿جَآءُو﴾: فعل وفاعل. وجاء هنا، بعنى فعل، يتعدى إلى مفعول. ﴿ظُلْمًا﴾: مفعول به. ﴿وَزُورًا﴾: معطوف عليه. وجملة ﴿جاء﴾ معطوفة على جملة ﴿قال﴾ على كونها مفرعة عليها. وفي «الفتوحات» ﴿الفاء﴾: لترتيب ما بعدها على ما قبلها، لكن لا على أنهما أمران متغايران حقيقة، بل على أن

الثاني، هو عين الأول حقيقة، وإنما الترتيب بحسب التغاير الاعتباري. وقد لتحقيق ما جاؤوا به من الظلم والزور. ا هـ. «أبو السعود». ا هـ.

﴿وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٱكۡتَتَبَهَا فَهِيَ تُمۡلَىٰ عَلَيۡهِ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا ۝٥﴾.

﴿وَقَالُوٓاْ﴾: فعل وفاعل معطوف على قال الذين. ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾: خبر لمبتدأ محذوف، تقديره: هو؛ أي: هذا القرآن أساطير الأولين، أو مبتدأ. وجملة ﴿ٱكۡتَتَبَهَا﴾: خبره. والجملة الاسمية في محل النصب، مقول قالوا ﴿ٱكۡتَتَبَهَا﴾: فعل ومفعول به وفاعل مستتر يعود على محمد، والجملة الفعلية في محل النصب حال، من أساطير الأولين على الوجه الأول، وعلى الوجه الثاني خبر له. ﴿فَهِيَ﴾ ﴿الفاء﴾: حرف عطف وتفريع. ﴿هي﴾: مبتدأ. ﴿تُمۡلَىٰ﴾: فعل مضارع مغير الصيغة، ونائب فاعله ضمير يعود على الأساطير. ﴿عَلَيۡهِ﴾: متعلق بـ﴿تُمۡلَىٰ﴾. ﴿بُكۡرَةٗ﴾: ظرف متعلق بـ﴿تُمۡلَىٰ﴾. ﴿وَأَصِيلٗا﴾: معطوف على ﴿بُكۡرَةٗ﴾. وجملة ﴿تُمۡلَىٰ﴾ في محل الرفع خبر المبتدأ. والجملة الاسمية معطوفة على جملة ﴿اكتتبها﴾.

﴿قُلۡ أَنزَلَهُ ٱلَّذِي يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ۝٦﴾.

﴿قُلۡ﴾: فعل أمر وفاعل مستتر يعود على محمد. والجملة مستأنفة. ﴿أَنزَلَهُ﴾: فعل ومفعول به. ﴿ٱلَّذِي﴾: فاعل ﴿أنزل﴾. والجملة الفعلية في محل النصب مقول ﴿قُلۡ﴾. ﴿يَعۡلَمُ﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر يعود على الموصول. ﴿ٱلسِّرَّ﴾: مفعول به. والجملة صلة الموصول. ﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾: جار ومجرور حال من السر. ﴿وَٱلۡأَرۡضِ﴾: معطوف على ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾. ﴿إِنَّهُۥ﴾: ناصب واسمه ﴿كَانَ﴾: فعل ماض ناقص، واسمه ضمير يعود على الله. ﴿غَفُورٗا﴾: خبر أول لـ﴿كَانَ﴾. ﴿رَّحِيمٗا﴾: خبر ثان لها. وجملة ﴿كَانَ﴾ في محل الرفع خبر ﴿إن﴾. وجملة ﴿إن﴾ مستأنفة، مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأۡكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشِي فِي ٱلۡأَسۡوَاقِ لَوۡلَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مَلَكٞ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ۝٧﴾.

﴿وَقَالُواْ﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾، أو مستأنفة

مسوقة في بيان قبائحهم، التي قالوها في شأن الرسول، وهي ستة كما ستأتي، والأخيرة منها هي قوله: ﴿إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾. ﴿مَالِ﴾: اسم استفهام للاستفهام التعجبي المضمن للإنكار في محل الرفع مبتدأ. ﴿هَٰذَا﴾: جار ومجرور متعلق بمحذوف خبر المبتدأ. ﴿ٱلرَّسُولِ﴾: بدل من اسم الإشارة، والتقدير: أي شيء ثابت لهذا الرسول. والجملة الاسمية في محل النصب مقول ﴿قالوا﴾. وفي «الكشاف»: ﴿وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ﴾ وقعت اللام مفصولة عن هذا في المصحف، خارجة عن أوضاع الخط العربي، وخط المصحف سنة لا تغير. ا هـ. ﴿يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ﴾: فعل وفاعل مستتر يعود على ﴿ٱلرَّسُولِ﴾ ومفعول به. والجملة الفعلية في محل النصب، حال من اسم الإشارة. والعامل في الحال هو الاستقرار العامل في الجار، أو نفس الجار، ذكره أبو البقاء. ﴿وَيَمْشِى﴾: فعل وفاعل مستتر معطوف على ﴿يَأْكُلُ﴾. ﴿فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾: متعلق بـ﴿وَيَمْشِى﴾. ﴿لَوْلَآ﴾: حرف تحضيض بمعنى هلا. ﴿أُنزِلَ﴾: فعل ماض مغير الصيغة. ﴿إِلَيْهِ﴾: متعلق به. ﴿مَلَكٌ﴾: نائب فاعل، والجملة الفعلية في محل النصب مقول ﴿قالوا﴾. ﴿فَيَكُونَ﴾: الفاء: عاطفة سببية. ﴿يكون﴾: فعل مضارع ناقص، منصوب بأن مضمرة وجوباً، بعد الفاء السببية، الواقعة في جواب التحضيض. واسمها ضمير يعود على ملك. ﴿مَعَهُۥ﴾: ظرف مكان، حال من ﴿نَذِيرًا﴾. ﴿نَذِيرًا﴾: خبر ﴿يكون﴾. وجملة ﴿يكون﴾ صلة أن المضمرة. ﴿أن﴾ مع صلتها، في تأويل مصدر معطوف على مصدر متصيد، من الجملة التي قبلها، من غير سابك لإصلاح المعنى، تقديره: هلا يكن إنزال ملك إليه فكونه نذيراً معه.

﴿أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ۚ وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٨﴾﴾.

﴿أَوْ﴾: حرف عطف وتقسيم. ﴿يُلْقَىٰٓ﴾: فعل مضارع مغير الصيغة. ﴿إِلَيْهِ﴾: متعلق به. ﴿كَنزٌ﴾: نائب فاعل ليلقى. والجملة معطوفة على جملة ﴿أُنزِلَ﴾، وجاز عطف المضارع على الماضي؛ لأنه بمعنى المضارع، إذ التقدير: لولا ينزل إليه ملك، أو يلقى إليه كنز. ﴿أَوْ تَكُونُ﴾: فعل مضارع ناقص.

﴿لَهُۥ﴾: خبر مقدم لها. ﴿جَنَّةٌ﴾: اسمها مؤخر. والجملة معطوفة أيضاً على جملة ﴿أُنزِلَ﴾. ﴿يَأْكُلُ﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر يعود على الرسول. ﴿مِنْهَا﴾: متعلق بـ﴿يَأْكُلُ﴾. والجملة في محل الرفع صفة لجنة. ﴿وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿وَقَالُوا۟﴾. ﴿إِن﴾: نافية. ﴿تَتَّبِعُونَ﴾: فعل وفاعل. ﴿إِلَّا﴾: أداة حصر. ﴿رَجُلًا﴾: مفعول به. ﴿مَّسْحُورًا﴾: صفة ﴿رَجُلًا﴾.

﴿ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَٰلَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٩﴾ تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا ﴿١٠﴾﴾.

﴿ٱنظُرْ﴾: فعل أمر وفاعل مستتر يعود على محمد. والجملة مستأنفة. ﴿كَيْفَ﴾: اسم استفهام، للاستفهام التعجبي في محل النصب على الحال من فاعل ﴿ضَرَبُوا۟﴾ معلقة ما قبلها عن العمل فيما بعدها. ﴿ضَرَبُوا۟﴾: فعل وفاعل. ﴿لَكَ﴾: متعلق به. ﴿ٱلْأَمْثَٰلَ﴾: مفعول به. والجملة الفعلية في محل النصب، مفعول ﴿ٱنظُرْ﴾ معلقة عنها باسم الاستفهام. ﴿فَضَلُّوا۟﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿ضَرَبُوا۟﴾. ﴿فَلَا﴾ الفاء: عاطفة. ﴿لَا﴾: نافية. ﴿يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾: فعل وفاعل ومفعول معطوف على ﴿ضلوا﴾. ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿إِن﴾: حرف شرط. ﴿شَآءَ﴾: فعل ماض وفاعل مستتر، يعود على الموصول في محل الجزم بـ﴿إِن﴾ الشرطية على كونها فعل شرط لها. ﴿جَعَلَ﴾: فعل ماض وفاعل مستتر يعود على الموصول، في محل الجزم بـ﴿إِن﴾ الشرطية على كونه جواباً لها. وجملة ﴿إِن﴾ الشرطية صلة الموصول. ﴿لَكَ﴾: جار ومجرور في محل المفعول الثاني لـ﴿جَعَلَ﴾. ﴿خَيْرًا﴾ مفعول أول له. ﴿مِّن ذَٰلِكَ﴾: متعلق بـ﴿خَيْرًا﴾. ﴿جَنَّٰتٍ﴾: بدل من خيراً منصوب بالكسرة. ﴿تَجْرِى﴾: فعل مضارع. ﴿مِن تَحْتِهَا﴾: متعلق بـ﴿تَجْرِى﴾. ﴿ٱلْأَنْهَٰرُ﴾: فاعل ﴿تَجْرِى﴾ وجملة ﴿تَجْرِى﴾ في محل النصب صفة لـ﴿جَنَّٰتٍ﴾. ﴿وَيَجْعَل﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر يعود على الموصول، معطوف على محل ﴿جَعَلَ﴾ الواقع جواباً للشرط. ﴿لَّكَ﴾: جار ومجرور في محل المفعول الثاني لـ﴿يجعل﴾. ﴿قُصُورًا﴾: مفعول أول له.

﴿بَلۡ كَذَّبُواْ بِٱلسَّاعَةِۖ وَأَعۡتَدۡنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿١١﴾ إِذَا رَأَتۡهُم مِّن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ سَمِعُواْ لَهَا تَغَيُّظٗا وَزَفِيرٗا ﴿١٢﴾﴾.

﴿بَلۡ﴾: حرف عطف وإضراب، أضرب بها عن توبيخهم بحكاية جناياتهم السابقة، وانتقل منه إلى توبيخهم بحكاية جناياتهم الأخرى، للتخلص إلى بيان ما لهم في الآخرة من فنون العذاب. ا هـ. «أبو السعود». ﴿كَذَّبُواْ﴾: فعل وفاعل. ﴿بِٱلسَّاعَةِۖ﴾: متعلق بـ﴿كَذَّبُواْ﴾. والجملة معطوفة على جملة ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أو مستأنفة. ﴿وَأَعۡتَدۡنَا﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿كَذَّبُواْ﴾. ﴿لِمَن﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿أعتدنا﴾. ﴿كَذَّبَ﴾: فعل وفاعل مستتر على ﴿من﴾. والجملة صلة ﴿من﴾ الموصولة. ﴿بِٱلسَّاعَةِۖ﴾: متعلق بـ﴿كَذَّبَ﴾. ﴿سَعِيرًا﴾: مفعول ﴿أعتدنا﴾. ﴿إِذَا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان. ﴿رَأَتۡهُم﴾: فعل وفاعل مستتر يعود على ﴿السعير﴾، ومفعول به. ﴿مِّن مَّكَانِۭ﴾: جار ومجرور حال من المفعول، أو من الفاعل. ﴿بَعِيدٖ﴾: صفة لـ﴿مَّكَانِۭ﴾. والجملة في محل الخفض بإضافة ﴿إِذَا﴾ إليها، على كونها فعل شرط لها. ﴿سَمِعُواْ﴾: فعل وفاعل. ﴿لَهَا﴾: حال من ﴿تَغَيُّظٗا وَزَفِيرٗا﴾؛ لأنه صفة نكرة قدمت عليها. ﴿تَغَيُّظٗا﴾: مفعول به. ﴿وَزَفِيرٗا﴾: معطوف عليه. والجملة جواب ﴿إِذَا﴾. وجملة ﴿إِذَا﴾ الشرطية في محل النصب صفة لـ﴿سَعِيرًا﴾.

﴿وَإِذَآ أُلۡقُواْ مِنۡهَا مَكَانٗا ضَيِّقٗا مُّقَرَّنِينَ دَعَوۡاْ هُنَالِكَ ثُبُورٗا ﴿١٣﴾ لَّا تَدۡعُواْ ٱلۡيَوۡمَ ثُبُورٗا وَٰحِدٗا وَٱدۡعُواْ ثُبُورٗا كَثِيرٗا ﴿١٤﴾﴾.

﴿وَإِذَآ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿إذا﴾: ظرف مضمن معنى الشرط. ﴿أُلۡقُواْ﴾: فعل ونائب فاعل. والجملة في محل الخفض بإضافة ﴿إذا﴾ إليها، على كونها فعل شرط لها، والظرف متعلق بالجواب الآتي. ﴿مِنۡهَا﴾: حال من مكاناً؛ لأنه في الأصل، صفة نكرة قدمت عليها. ﴿مَكَانٗا﴾: ظرف متعلق بـ﴿أُلۡقُواْ﴾. ﴿ضَيِّقٗا﴾: صفة لـ﴿مَكَانٗا﴾. ﴿مُّقَرَّنِينَ﴾: حال من الواو في ﴿أُلۡقُواْ﴾. ﴿دَعَوۡاْ﴾: فعل وفاعل جواب ﴿إذا﴾ لا محل لها من الإعراب. ﴿هُنَالِكَ﴾: اسم إشارة في محل النصب على الظرفية المكانية، متعلق بـ﴿دَعَوۡاْ﴾. ﴿ثُبُورٗا﴾: مفعول به

لـ﴿دَعَوۡا﴾. وجملة ﴿إذا﴾ معطوفة على جملة قوله ﴿إِذَا رَأَتۡهُم﴾ على كونها صفة لـ﴿سَعِيرًا﴾. ﴿لَّا تَدۡعُواْ﴾: ناهية جازمة. ﴿تَدۡعُواْ﴾: فعل وفاعل مجزوم بـ﴿لَّا﴾ الناهية. ﴿ٱلۡيَوۡمَ﴾ منصوب على الظرفية متعلق بـ﴿تَدۡعُواْ﴾. ﴿ثُبُورًا﴾: مفعول به. ﴿وَٰحِدًا﴾: صفة له. والجملة الفعلية في محل النصب، مقول لقول محذوف، تقديره: فيقال لهم: لا تدعوا اليوم ثبوراً واحداً. ﴿وَٱدۡعُواْ﴾: فعل أمر وفاعل. ﴿ثُبُورًا﴾: مفعول به. ﴿كَثِيرًا﴾: صفة له. والجملة معطوفة على جملة ﴿لَّا تَدۡعُواْ﴾.

﴿قُلۡ أَذَٰلِكَ خَيۡرٌ أَمۡ جَنَّةُ ٱلۡخُلۡدِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلۡمُتَّقُونَۚ كَانَتۡ لَهُمۡ جَزَآءً وَمَصِيرًا ﴿١٥﴾ لَّهُمۡ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ خَٰلِدِينَۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعۡدًا مَّسۡـُٔولًا ﴿١٦﴾﴾.

﴿قُلۡ﴾: فعل أمر وفاعل مستتر يعود على محمد، والجملة مستأنفة. ﴿أَذَٰلِكَ﴾: الهمزة فيه للاستفهام التقريعي التهكمي. ﴿ذلك خيرٌ﴾: مبتدأ وخبر. والجملة في محل النصب مقول ﴿قُلۡ﴾. ﴿أَمۡ﴾: عاطفة. ﴿جَنَّةُ ٱلۡخُلۡدِ﴾: معطوف على ﴿ذلك﴾. ﴿ٱلۡخُلۡدِ﴾: مضاف إليه. ﴿ٱلَّتِي﴾: في محل الرفع صفة لـ﴿جَنَّةُ ٱلۡخُلۡدِ﴾. ﴿وُعِدَ ٱلۡمُتَّقُونَۚ﴾: فعل ونائب فاعل صلة الموصول، والعائد محذوف، تقديره: وعدها المتقون. ﴿كَانَتۡ﴾: فعل ماض ناقص واسمها ضمير مستتر يعود على الجنة. ﴿لَهُمۡ﴾: حال من ﴿جَزَآءً﴾؛ لأنه صفة نكرة قدمت عليها. ﴿جَزَآءً﴾: خبر ﴿كَانَ﴾. ﴿وَمَصِيرًا﴾: معطوف على ﴿جَزَآءً﴾. وجملة ﴿كَانَتۡ﴾ في محل النصب حالة من ﴿جَنَّةُ ٱلۡخُلۡدِ﴾. ﴿لَّهُمۡ﴾: جار ومجرور خبر مقدم. ﴿فِيهَا﴾: حال من ضمير ﴿لَّهُمۡ﴾، أو من الضمير المستكن في الظرف. ﴿ما﴾: اسم موصول في محل الرفع مبتدأ مؤخر. وجملة ﴿يَشَآءُونَ﴾ صلة الموصول، والعائد محذوف، تقديره: ما يشاؤونه. وجملة ﴿كَانَ﴾ حال ثانية من ﴿جَنَّةُ ٱلۡخُلۡدِ﴾. ﴿خَٰلِدِينَۚ﴾: حال من الهاء في لهم، أو من الواو في ﴿يَشَآءُونَ﴾. ﴿كَانَ﴾: فعل ماض ناقص واسمها ضمير يعود على ﴿مَا يَشَآءُونَ﴾، أو على الوعد المفهوم من ﴿وُعِدَ ٱلۡمُتَّقُونَۚ﴾. ﴿عَلَىٰ رَبِّكَ﴾: حال من ﴿وَعۡدًا﴾. ﴿وَعۡدًا﴾: خبر ﴿كَانَ﴾. ﴿مَّسۡـُٔولًا﴾: صفة لـ﴿وَعۡدًا﴾. وجملة

﴿كَانَ﴾ مستأنفة.

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴿١٧﴾﴾.

﴿وَيَوْمَ﴾: ظرف متعلق بمحذوف، تقديره: واذكروا يوم يحشرهم. والجملة المحذوفة مستأنفة. ﴿يَحْشُرُهُمْ﴾: فعل ومفعول وفاعل مستتر يعود على الله. والجملة في محل الخفض مضاف إليه لـ﴿يوم﴾. ﴿وَمَا﴾: اسم موصول في محل النصب، معطوف على ضمير المفعول، أو منصوب على المعية. ﴿يَعْبُدُونَ﴾: فعل وفاعل صلة الموصول، والعائد محذوف، تقديره: وما يعبدونه ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾: حال من فاعل ﴿يَعْبُدُونَ﴾. ﴿فَيَقُولُ﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر يعود على الله، معطوف على ﴿يَحْشُرُهُمْ﴾. ﴿ءَأَنتُمْ﴾: الهمزة: للاستفهام التوبيخي. ﴿أنتم﴾: مبتدأ. ﴿أَضْلَلْتُمْ﴾: فعل وفاعل. ﴿عِبَادِى﴾: مفعول به ومضاف إليه. ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾: بدل من ﴿عِبَادِى﴾، أو صفة له؛ أي: المشار إليهم وجملة ﴿أَضْلَلْتُمْ﴾ في محل الرفع خبر المبتدأ. والجملة الاسمية في محل النصب مقول ﴿يقول﴾. ﴿أَمْ﴾: حرف عطف. ﴿هم﴾: مبتدأ. وجملة ﴿ضَلُّوا۟﴾: خبره. والجملة الاسمية في محل النصب معطوفة على الجملة التي قبلها. ﴿ٱلسَّبِيلَ﴾: منصوب بنزع الخافض، لأن أصله ضلوا عن السبيل.

﴿قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَكَانُوا۟ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٨﴾ فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا ۚ وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴿١٩﴾﴾.

﴿قَالُوا۟﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة استئنافاً بيانياً. ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾: منصوب على المفعولية المطلقة بفعل محذوف، تقديره: نسبحك سبحاناً. والجملة المحذوفة في محل النصب مقول قالوا. ﴿ما﴾: نافية. ﴿كَانَ﴾: فعل ماض ناقص واسمها ضمير الشأن مستتر فيها. ﴿يَنۢبَغِى﴾: فعل مضارع. ﴿لَنَآ﴾: متعلق به. ﴿أَن﴾: حرف نصب ومصدر. ﴿نَّتَّخِذَ﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر منصوب. بـ﴿أَن﴾. ﴿مِن دُونِكَ﴾: جار ومجرور في محل المفعول الثاني

لـ﴿اتخذ﴾. ﴿مِنْ أَوْلِيَآءَ﴾: ﴿من﴾: زائدة لتأكيد النفي. ﴿أَوْلِيَآءَ﴾: مفعول أول لـ﴿اتخذ﴾. وجملة ﴿نَّتَّخِذَ﴾ مع ﴿أَن﴾ المصدرية في تأويل مصدر مرفوع على الفاعلية لـ﴿يَنۢبَغِى﴾؛ أي: ما كان ينبغي لنا اتخاذ أولياء من دونك. وجملة ﴿يَنۢبَغِى﴾ في محل النصب خبر ﴿كَانَ﴾. وجملة ﴿كَانَ﴾ في محل النصب مقول ﴿قَالُواْ﴾. ﴿وَلَٰكِن﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿لكن﴾: حرف استدراك. ﴿مَّتَّعْتَهُمْ﴾: فعل وفاعل ومفعول به. ﴿وَءَابَآءَهُمْ﴾ معطوف على ضمير المفعول، وجملة الاستدراك معطوفة على جملة ﴿كَانَ﴾. ﴿حَتَّىٰ﴾: حرف جر وغاية بمعنى إلى. ﴿نَسُواْ ٱلذِّكْرَ﴾: فعل وفاعل ومفعول به في محل النصب بأن المضمرة بعد حتى. والجملة في تأويل مصدر، مجرور بـ﴿حَتَّىٰ﴾ بمعنى إلى. والجار والمجرور متعلق بـ﴿مَّتَّعْتَهُمْ﴾؛ أي: ولكن متعتهم إلى نسيانهم الذكر. ﴿وَكَانُواْ﴾: فعل ناقص واسمه. ﴿قَوْمًا﴾: خبره. ﴿بُورًا﴾: صفة ﴿قَوْمًا﴾. وجملة ﴿كَانَ﴾ معطوفة على جملة ﴿نَسُواْ﴾. ﴿فَقَدْ﴾: ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفتم مقالة المعبودين في الجواب، وأردتم بيان مرادهم بتلك المقالة.. فأقول لكم قد كذبوكم. ﴿قد﴾: حرف تحقيق. ﴿كَذَّبُوكُم﴾: فعل وفاعل ومفعول. والجملة في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة. وجملة إذا المقدرة مستأنفة. ﴿بِمَا﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿كَذَّبُوكُم﴾. والباء: بمعنى في. وجملة ﴿تَقُولُونَ﴾: صلة ما الموصولة، والعائد محذوف، تقديره: في ما تقولونه. ﴿فَمَا تَسْتَطِيعُونَ﴾ ﴿الفاء﴾: حرف عطف وتفريع. ﴿ما﴾: نافية. ﴿تَسْتَطِيعُونَ﴾: فعل وفاعل معطوف على كذبوكم. ﴿صَرْفًا﴾: مفعول به. ﴿وَلَا نَصْرًا﴾: معطوف على ﴿صَرْفًا﴾. ﴿وَمَن﴾. ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿من﴾: اسم شرط في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الشرط أو الجواب، أو هما. ﴿يَظْلِم﴾: فعل مضارع مجزوم بـ﴿مَن﴾ على كونه فعل شرط لها. وفاعله ضمير يعود على ﴿مَن﴾. ﴿مِّنكُمْ﴾: حال من فاعل ﴿يَظْلِم﴾؛ أي: كائناً منكم أيها المكلفون ﴿نُذِقْهُ﴾: فعل ومفعول وفاعل مستتر، يعود على الله مجزوم بـ﴿من﴾ الشرطية على كونه جواباً لها. ﴿عَذَابًا﴾: مفعول به. ﴿كَبِيرًا﴾: صفة له. وجملة ﴿من﴾ الشرطية مستأنفة.

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۗ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾.

﴿وَمَآ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿ما﴾: نافية. ﴿أَرْسَلْنَا﴾ فعل وفاعل. والجملة مستأنفة مسوقة لتسليته ﷺ. ﴿قَبْلَكَ﴾: ظرف متعلق بـ﴿أَرْسَلْنَا﴾. ﴿مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾: متعلق بـ﴿أَرْسَلْنَا﴾ أيضاً، أو بمحذوف صفة لمفعول محذوف، تقديره: أحداً من المرسلين. ﴿إِلَّآ﴾: أداة استثناء، والمستثنى محذوف، تقديره: إلا رسلاً قيل فيهم: إنهم ليأكلون الطعام إلخ، ﴿رسلاً﴾: مستثنى منصوب على الاستثناء. قيل: فعل ماض مغير الصيغة. فيهم: جار ومجرور نائب فاعل لقيل. وجملة قيل: في محل النصب صفة لرسلاً، المحذوف الواقع مستثنى. ﴿إِنَّهُمْ﴾: ناصب واسمه. ﴿لَيَأْكُلُونَ﴾: (اللام): حرف ابتداء زحلقت إلى الخبر. ﴿يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ﴾: فعل وفاعل ومفعول به. والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿إن﴾ وجملة ﴿إن﴾ في محل النصب مقول للقول المحذوف الذي قدرناه. ﴿وَيَمْشُونَ﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿لَيَأْكُلُونَ﴾. ﴿فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾: متعلق بـ﴿يمشون﴾. وقد تلاطمت أقوال العلماء في إعراب هذا المقام، فراجعها. ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ﴾: فعل وفاعل ومفعول أول. ﴿لِبَعْضٍ﴾: حال من ﴿فِتْنَةً﴾؛ لأنه كان في الأصل صفة لـ﴿فِتْنَةً﴾ قدمت عليها. كقول الشاعر: لمية موحشاً طلل. أصله لمية طلل موحش. ﴿فِتْنَةً﴾: مفعول ثان لـ﴿جَعَلْنَا﴾. والجملة الفعلية معطوفة على جملة قوله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾، أو مستأنفة مسوقة لتسلية رسول الله ﷺ. ﴿أَتَصْبِرُونَ﴾: (الهمزة): للاستفهام التقريري. ﴿تصبرون﴾: فعل وفاعل. والجملة لفظها لفظ الاستفهام. ومعنا ها الأمر، إنشائية لا محل لها من الإعراب؛ لأنها بمعنى ﴿اصبروا﴾ كقوله تعالى: ﴿ءَأَسْلَمْتُمْ﴾ معناه: أسلموا. ﴿وَكَانَ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة أو استئنافية. ﴿كان ربك بصيراً﴾: فعل ناقص واسمه وخبره. والجملة معطوفة على جملة ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ﴾ أو مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

التصريف ومفردات اللغة

﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ﴾ من البركة، وهي كثرة الخير لعباده، بإنعامه عليهم وإحسانه إليهم. ثم إن تبارك: فعل ماض جامد لا ينصرف، فلا يأتي منه مضارع ولا اسم فاعل، ولا مصدر. ولا يستعمل في غير الله تعالى.

فائدة في بحث فعل الجامد: والفعل الجامد: هو ما أشبه الحرف من حيث أداؤه معنى مجرداً عن الزمان، والحدث المعتبرين في سائر الأفعال، فلزم مثله طريقة واحدة في التعبير بلفظ واحد، فهو لا يقبل التحول من صيغة إلى صيغة أخرى، بل يلزم صيغة واحدة، ماضياً كان أو مضارعاً أو أمراً، مثل عسى وليس ويهيط وهب، بمعنى: أحسب من أخوات ظن، ولم يرد من مادته بهذا المعنى إلا الأمر. وأما هب المشتق من الهبة فإنه فعل أمر متصرف، فماضيه وهب، ومضارعه يهب. والفعل الجامد ثلاثة أقسام ما يلازم صيغة الماضي. مثل عسى وليس ونعم وبئس وتبارك الله سبحانه. وما يلازم صيغة المضارع، مثل: يهيط ومعناه: يصيح ويفح، يقال: ما زال منذ اليوم يهيط هيطاً، وهو مضارع لا ماضي له، كما في «لسان العرب» و«تاج العروس». ويقال: ما زال في هيط وميط بفتح أولهما، وفي هياط ومياط بكسر أولهما؛ أي: ضجاج وشر جلبة. وقيل: في هياط ومياط، في دنو وتباعد. والهياط: الإقبال والميط الإدبار، والهائط: الجائي، والمائط: الذاهب.

والمهايطة والهياط: الصياح والجلبة، وما يلازم صيغة الأمر. نحو هب بمعنى: أحسب وهات وتعال وهلم، على لغة تميم؛ لأنه عندهم: فعل يقبل علامته، فتلحقه الضمائر. أما في لغة الحجاز، فهي اسم فعل أمر؛ لأنها عندهم تكون بلفظ واحد للجميع، ومن الأفعال الجامدة قل بصيغة الماضي للنفي المحض، وإذا لحقته ما الزائدة كفته عن العمل، فلا يليه حينئذٍ إلا الفعل، ولا فاعل له لجريانه مجرى حرف النفي، نحو قلما فعلت كذا، وقلما أفعله؛ أي: ما فعلته ولا أفعله. ومثل قلما في عدم التصرف طالما وكثر ما وقصر ما، وشدما، فإن ما فيهن زائدة للتوكيد، كافة لهن عن العمل فلا فاعل لهن ولا يليهن إلا

فعل، فهن كقلما. ومن الأفعال الجامدة قولهم سقط في يده، بمعنى ندم وتحير وزل وأخطأ، وهو ملازم صورة الماضي المجهول. قال تعالى: ﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ﴾ وقد تقدم بحثه.

﴿ٱلْفُرْقَانَ﴾: القرآن؛ لأنه فرق بين الحق والباطل. وقيل: لأنه نزل مفرقاً في أوقات كثيرة، بحسب الوقائع. وفي «المصباح» فرقت بين الشيئين فرقاً. من باب قتل، فصلت أبعاضه، وفرقت بين الحق والباطل فصلت أيضاً، هذه هي اللغة العالية، وبها قرأ السبعة، في قوله تعالى: ﴿فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ وفي لغة، من باب ضرب، وقرأ بها بعض التابعين. قال ابن الأعرابي: فرقت بين الكلامين، فافترقا، مخفف، وفرقت بين العبدين فتفرقا، مثقل، فجعل المخفف في المعاني، والمثقل في الأعيان، والذي حكاه غيره أنهما بمعنى، والتثقيل مبالغة.

﴿لِلْعَٰلَمِينَ﴾ قال الإمام الراغب: العالم اسم للفلك، وما يحويه من الجواهر والأعراض، وهو في الأصل اسم لما يعلم به، كالطابع والخاتم لما يطبع ويختم به. وجعل بناؤه على هذه الصيغة لسكونه كالآلة، فالعالم آلة في الدلالة على صانعه. وأما جمعه، فلأن كل نوع قد يسمى عالماً، فيقال: عالم الإنسان وعالم الماء، وعالم النار. وأما جمعه جمع السلامة فلكون الناس في جملتهم، والإنسان إذا شارك غيره في اللفظ غلب حكمه، انتهى. قال ابن الشيخ: جمع بالواو والنون؛ لأن المقصود استغراق أفراد العقلاء، من جنس الجن والأنس، فإن جنس الملائكة، وإن كان من جملة أجناس العالم، إلا أن النبي ﷺ لم يكن رسولاً إلى الملائكة فلم يكن من العالمين، المكلفين إلا الجن والإنس، فهو رسول إليهما جميعاً، انتهى.

﴿نَذِيرًا﴾ النذير، بمعنى: المنذر، والإنذار: إخبار فيه تخويف، كما أن التبشير إخبار فيه سرور. ﴿وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾ قال في «المفردات»: تخذ بمعنى أخذ، واتخذ افتعل منه. والولد المولود. ويقال: الواحد والجمع والصغير والكبير والذكر والأنثى.

﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ﴾ الافتراء: الاختلاق، والكذب. من قولهم: افتريت الأديم (الجلد) إذا قطعته للإفساد، والفرق بين الافتراء والكذب، أن الافتراء: هو افتعال الكذب من قول نفسه، والكذب: قد يكون على وجه التقليد للغير فيه، كما في الأسئلة المقحمة.

﴿فَقَدْ جَآءُو﴾؛ أي: أتوا وفعلوا. ﴿ظُلْمًا﴾: الظلم: وضع الشيء في غير موضعه، إذ هم قد نسبوا القبيح إلى ما هو مبرأ منه. والزور الكذب. قال الراغب: قيل: للكذب زور لكونه مائلاً عن جهته؛ لأن الزور ميل في الزور؛ أي: وسط الصدر، والأزور المائل الزور.

﴿ٱكْتَتَبَهَا﴾؛ أي: أمر غيره بكتابتها ونسخها؛ لأنه ﷺ كان أمياً لا يقرأ الخط ولا يكتب باعترافهم. وقال في «المفردات»: الاكتتاب متعارف في الاختلاف.

﴿أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ جمع أسطار جمع سطر، أو جمع أسطورة كأحدوثة وأحاديث وأعجوبة وأعاجيب. قال في «القاموس»: السطر الصف من الشيء، الكتاب والشجر وغيره. والخط والكتابة والقطع بالسيف، ومنه الساطر للقصاب، وأسطره كتبه والأساطير الأحاديث التي لا نظام لها.

﴿تُمْلَىٰ عَلَيْهِ﴾؛ أي: تقرأ عليه، فليس المراد بالإملاء هنا معناه الأصلي، لأن الإملاء في الأصل، عبارة عن إلقاء الكلام على الغير ليكتبه. ﴿بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾؛ أي: صباحاً ومساءً والمراد دائماً. وفي ضرام السقط أول اليوم الفجر، ثم الصباح، ثم الغداة، ثم البكرة، ثم الضحى، ثم الضحوة، ثم الهجيرة، ثم الظهر، ثم الرواح، ثم المساء، ثم العصر، ثم الأصيل، ثم العشاء الأولى، ثم العشاء الأخيرة عند مغيب الشفق ا هـ.

﴿ٱلسِّرَّ﴾؛ أي: الغيب؛ أي: ما غاب عنا. ﴿ٱلطَّعَامَ﴾: وهو كل ما يتناول من الغذاء كما مر. و﴿ٱلْأَسْوَاقِ﴾ جمع سوق، وهو الموضع الذي يجلب إليه المتاع، ويساق. سمي سوقاً لقيامهم فيها على سوقهم.

﴿أَوْ يُلْقَىٰ إِلَيْهِ كَنزٌ﴾ والكنز المال المكنوز؛ أي: المجموع المحفوظ. ﴿إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾؛ أي: سحر فاختل عقله، والسحر، مشتق من السحر، الذي هو اختلاط الضوء والظلمة من غير تخلص لأحد الجانبين، والسحر له وجه إلى الحق، ووجه إلى الباطل، فإنه يخيل إلى المسحور أنه فعل ولم يفعل.

﴿ٱلْأَمْثَالَ﴾: الأقاويل العجيبة، الخارجة عن العقول الجارية لغرابتها مجرى الأمثال. قال بعضهم: مثلوك بالمسحور، والفقير الذي لا يصلح أن يكون رسولاً، والناقص عن القيام بالأمور، إذ طلبوا أن يكون معك مثلك.

﴿قُصُورًا﴾؛ أي: بيوتاً رفيعة في الدنيا، كقصور الجنة. قال الراغب: يقال: قصرت كذا، ضممت بعضه إلى بعض. ومنه سمي القصر. انتهى.

﴿سَعِيرًا﴾ والسعير: النار الشديدة الاشتعال. وفي «المصباح» وسعرت النار سعراً من باب نفع، وأسعرتها إسعاراً أوقدتها فاستعرت ا هـ. وفي«المختار»: سعر النار والحرب: هيجها وألهبها. وبابه قطع. قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ﴿١٢﴾﴾ قرىء مخففاً ومشدداً. والتشديد للمبالغة، واستعرت النار وتسعرت توقدت، والسعير: النار. وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾﴾ قال الفراء: في عناء وعذاب السعر: الجنون. ا هـ.

﴿إِذَا رَأَتْهُم﴾؛ أي: إذا كانت منهم بمرأى الناظر في البعد، من قولهم: (دور تتراءى)؛ أي: تتناظر. ومنه قوله ﷺ: «إن المؤمن والكافر لا تتراءى ناراهما»؛ أي: لا تتقاربان، بحيث تكون إحداهما بمرأى من الأخرى، إذ يجب على المؤمن مجانبة الكافر والمشرك في أمور الدين.

﴿تَغَيُّظًا﴾ التغيظ: إظهار الغيظ الذي هو الغضب الكامن في القلب، كما قاله الشهاب. وفي «المفردات» التغيظ: إظهار الغيظ، وهو أشد الغضب، وقد يكون ذلك مع صوت مسموع، والغضب: هو الحرارة التي يجدها الإنسان من ثوران دم قلبه.

﴿وَزَفِيرًا﴾ والزفير: إخراج النفس بعد مدة. وفي «السمين» قوله: ﴿سَمِعُوا لَهَا

﴿تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾ إن قيل التغيظ: لا يسمع فما معنى هذا الكلام، فالجواب من ثلاثة أوجه:

أحدها: أنه على حذف مضاف؛ أي: صوت تغيظها.

والثاني: أنه على حذف تقديره: سمعوا ورأوا تغيظاً وزفيراً، فيرجع كل واحد إلى ما يليق به؛ أي: رأوا تغيظاً وسمعوا زفيراً.

والثالث: أن يضمن سمعوا معنى يشمل الشيئين؛ أي: أدركوا لها تغيظاً وزفيراً ا هـ.

﴿مُّقَرَّنِينَ﴾؛ أي: مصفدين قد قرنت؛ أي: جمعت أيديهم إلى أعناقهم في الأغلال. يقال: قرنت البعير بالبعير، جمعت بينهما، وقرنته بالتشديد على التكثير. ويقال: قرنت الأسارى في الحبال. وفعله الثلاثي قرن يقرن من باب ضرب يضرب. قرنا الشيء بالشيء شده به ووصل إليه. وقرن الثورين، جعلهما في نير واحد. وقرن البعيرين جمعهما في حبل. وهي في قوله تعالى: ﴿مُّقَرَّنِينَ﴾ تفيد شيئين: التصفيد؛ أي: تقييد الأرجل وجمع الأيدي، والأعناق بالسلاسل.

﴿ثُبُورًا﴾ هلاكاً، يقال: ثبره الله، أهلكه هلاكاً دائماً لاينتعش بعده. ومن ثم يدعو أهل النار: واثبوراه. وما ثبرك عن حاجتك ما ثبطك، وهذا مثبر فلانة لمكان ولادتها، حيث يثبرها النفاس.

﴿جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ﴾ هي التي لا ينقطع نعيمها ولا ينقل عنها أهلها، فإن الخلود، هو تبري الشيء من اعتراض الفساد، وبقاؤه على الحالة التي هو عليها.

﴿جَزَآءً﴾؛ أي: ثواباً، والجزاء: الغنى والكفاية. فالجزاء: ما فيه الكفاية من المقابلة، إن خيراً فخيرٌ، وإن شراً فشرٌ. والجزية ما يؤخذ من أهل الذمة، وتسميتها بذلك للاجتزاء بها في حقن دمهم.

﴿وَمَصِيرًا﴾؛ أي: مرجعاً، والفرق بين المصير والمرجع أن المصير يجب أن يخالف الحالة الأولى، ولا كذلك المرجع.

﴿مِنْ أَوْلِيَآءَ﴾ جمع ولي بمعنى تابع؛ أي: عابد. فأولياء بمعنى الأتباع، وفي «الكرخي» من أولياء؛ أي: أتباعاً، فإن الولي كما يطلق على المتبوع، يطلق على التابع، كالمولى يطلق على الأعلى والأسفل، ومنه أولياء الشيطان؛ أي: أتباعه.

﴿حَتَّىٰ نَسُوا۟ ٱلذِّكْرَ﴾ والذكر، ما ذكر به الناس على ألسنة أنبيائهم. ﴿بُورًا﴾؛ أي: هالكين، جمع بائر. كما في «المفردات». أو مصدر وصف به الفاعل مبالغة، ولذلك يستوي فيه الواحد والجمع. يقال: رجل بائر، وقوم بور، وهو الفاسد الذي لا خير فيه. قال الراغب: البوار فرط الكساد، ولما كان فرط الكساد يؤدي إلى الفساد كما قيل: كسد حتى فسد، عبر البوار عن الهلاك.

﴿صَرْفًا﴾؛ أي: دفعاً للعذاب. ﴿وَمَن يَظْلِم﴾؛ أي: يكفر. ﴿فِتْنَةً﴾؛ أي: بلية ومحنة.

﴿وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾ قال الإمام الغزالي: البصير: هو الذي يشاهد ويرى، حتى لا يعزب عنه ما تحت الثرى، وإبصاره أيضاً، منزه عن أن يكون بحدقة وأجفان، فمن ارتكب معصية، فهو يعلم أن الله سبحانه يراه، فما أجسره فأخسره، ومن ظن أنه لا يراه فما أكفره ا هـ.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: الإضافة للتشريف في قوله: ﴿عَلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾ ذكره بهذا الوصف، ولم يذكره باسمه؛ لأن العبودية أشرف أوصاف الإنسان، وليس للمؤمن صفة أتم، ولا أشرف من العبودية، لأنها غاية التذلل، ولقد أحسن القاضي عياض في نظمه، حيث قال:

وَمِمَّا زَادَنِيْ شَرَفاً وَتِيْهَا ... وَكِدْتُ بِأَخْمُصِيْ أَطَأُ ٱلثُّرَيَّا

دُخُوْلِيْ تَحْتَ قَوْلِكَ يَا عِبَادِيْ ... وَأَنْ صَيَّرْتَ أَحْمَدَ لِيْ نَبِيَّا

ومنها: تقديم المعمول على عامله، رعاية للفاصلة في قوله: ﴿لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ وفيه الاكتفاء أيضاً؛ لأنه ذكر الإنذار ولم يذكر التبشير؛ لأن السورة مكية، وفي ذلك الوقت، لم يصلحوا للتبشير.

ومنها: الجناس الناقص في قوله: ﴿يَخْلُقُونَ﴾ و﴿يُخْلَقُونَ﴾ سمي ناقصاً لتغايره في الشكل.

ومنها: الطباق بين ﴿ضَرًّا﴾ و﴿نَفْعًا﴾ وبين ﴿مَوْتًا﴾ و﴿حَيَوٰةً﴾.

ومنها: الحصر في قوله: ﴿إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ﴾.

ومنها: عطف الخاص على العام في قوله: ﴿ظُلْمًا﴾ ﴿وَزُورًا﴾.

ومنها: إطلاق الجزء وإرادة الكل في قوله: ﴿بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾.

ومنها: التحضيض في قوله: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ﴾.

ومنها: الاستفهام للتهكم والتحقير في قوله: ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ﴾.

ومنها: الإظهار في موضع الإضمار في قوله: ﴿وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ تسجيلاً عليهم بوصف الظلم، وتجاوز الحد فيما قالوا.

ومنها: إطلاق الملزوم، وإرادة اللازم في قوله: ﴿إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾؛ لأن المراد بالسحر هنا لازمه، وهو اختلال العقل.

ومنها: الإظهار في موضع الإضمار في قوله: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ﴾ للمبالغة في التشنيع عليهم.

ومنها: الاستعارة التمثيلية في قوله: ﴿سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾ شبه صوت غليانها بصوت المغتاظ، وزفيره، وهو صوت يسمع من جوفه، وهو تمثيل وصف النار بالاهتياج والاضطرام على عادة المغيظ والغضبان.

ومنها: جناس الاشتقاق في قوله: ﴿أَرْسَلْنَا﴾ و﴿ٱلْمُرْسَلِينَ﴾.

ومنها: الجناس غير التام، في قوله: ﴿أَتَصْبِرُونَۗ﴾ ﴿بَصِيرًا﴾ لتقديم بعض الحروف وتأخير البعض.

ومنها: الحذف والزيادة في عدة مواضع[1].

والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب وإليه المرجع والمآب

* * *

---

(١) اللهم اجعلنا من الصابرين على إذابة السفهاء والكفار، واجعلنا من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه، وارزقنا من لدنك قناعةً وغنى، نبرأ بهما عما في أيدي الناس، وثبت أقدامنا في فهم كتابك الكريم، وبلغنا ما نرجوه من إرشاد عبادك بما تقدم لهم من نور، يهتدون به إلى صراطك المستقيم، صراط الذين أنعمت عليهم، غير المغضوب عليهم، ولا الضالين. وصلى الله وسلم على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين. والحمد لله رب العالمين آمين.
إلى هنا انتهى تفسير الجزء الثامن عشر من تفسير «حدائق الروح والريحان» في تاريخ ٦/ ٢/ ١٤١٣ هـ الموافق ٤/ ٨/ ١٩٩٢م. الحمد لله الذي تتم به الصالحات، والصلاة والسلام على أفضل البريات سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه أفضل الأمات، وجميع التابعين والتابعات، إلى يوم الحشر والقيامات.
انتهى المجلد التاسع عشر من تفسير «حدائق الروح والريحان في روابي علوم القرآن» ويليه المجلد العشرون وأوله ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا﴾ الآية (٢١).
صححت هذه النسخة بيد مؤلفه وانتهى تصحيحها في تاريخ ٢٥/ ٨/ ١٤١٧هـ.

شعرٌ

أَلاَ أَيُّهَا ٱلْمَأْمُوْلُ فِيْ كُلِّ حَاجَةٍ   إِلَيْكَ شَكَوْتُ ٱلضُّرَّ فَٱرْحَمْ شِكَايَتِيْ

أَلاَ يَا رَجَائِيْ أَنْتَ كَاشِفُ كُرْبَتِيْ   فَهَبْ لِيْ ذُنُوْبِيْ كُلَّهَا وَٱقْضِ حَاجَتِيْ

فَزَادِيْ قَلِيْلٌ مَا أَرَاهُ مُبَلِّغِيْ   عَلَىٰ ٱلزَّادِ أَبْكِيْ أَمْ لِبُعْدِ مَسَافَتِيْ

أَتَيْتُ بِأَعْمَالٍ قِبَاحٍ رَدِيْئَةٍ   وَمَا فِيْ ٱلْوَرَىٰ خَلْقٌ جَنَىٰ كَجِنَايَتِيْ

آخرُ

رَأَيْتُ أَخَا ٱلدُّنْيَا وَإِنْ كَانَ ثَاوِيَا   أَخَا سَفَرٍ يُسْرَىٰ وَهُوَ لاَ يَدْرِيْ

آخرُ

إِنَّمَا ٱلدُّنْيَا كَبَيْت   نَسْجُهُ مِنْ عَنْكَبُوْت

الفهرس